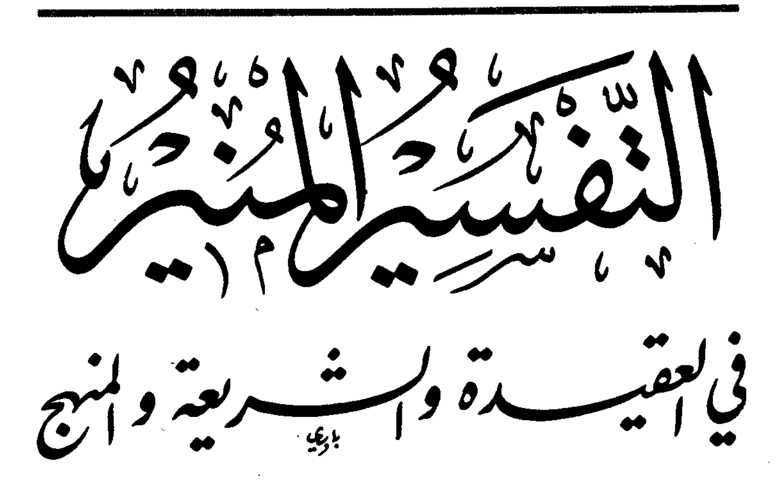
يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم

الأنفال ٨ / ٢٤



التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

المجلد الخامس عشر

الجزءان ٢٩ ـ ٣٠





دار الفكر - دمشق - البرامكة

 ٣٠٠١ ٩٧ ٩٤٧ ٠٠٩٦٣

 ٣٠٠١ ١١ ٠٠٩٦٣

http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

أ.د. وهبة الزحيلي

المجلد الخامس عشر

الرقم الاصطلاحي: ١٥- ١٦٩٠,٠١١

الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-160-5

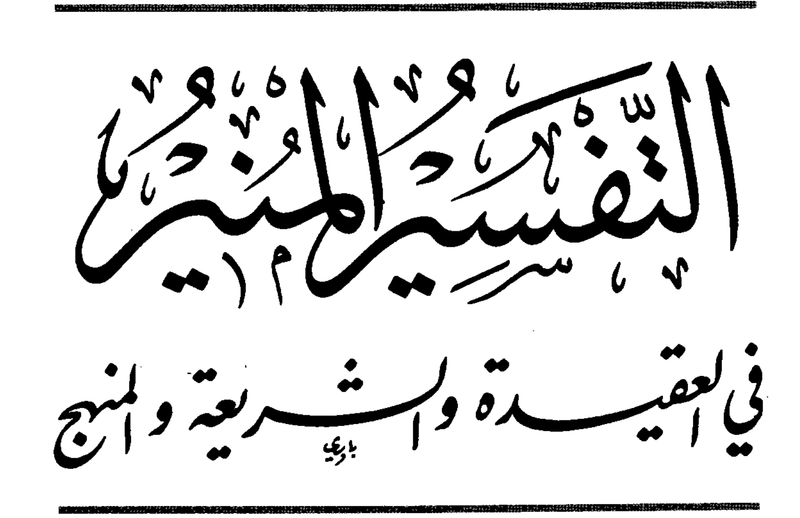
الرقم الموضوعي: ٢١١ (القرآن وعلومه) .

٩٠٤ ص، ١٧ × ٢٥ سم

الطبعة العاشرة: ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م

ط٢ / ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم



المجلد الخامس عشر

الجزءان ٢٩ ـ ٣٠



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الملك

مكية، وهي ثلاثون آية

تسميتها:

سميت سورة ﴿ٱلْمُلْكُ﴾؛ لافتتاحها بتقديس وتعظيم الله نفسه الذي بيده المُلْك - ملك السماوات والأرض- وله وحده مطلق السلطان، والتصرف في الأكوان كيفما يشاء، يحيي ويميت، ويعز ويذل، ويغني ويفقر، ويعطي ويمنع. وتسمى السورة أيضاً (الواقية) و (المُنْجية) لأنها تقي وتنجي من عذاب القبر، وتشفع لصاحبها كما سأُبيّن. وكان ابن عباس يسميها (المجادلة) لأنها تجادل عن قارئها في القبر.

مناسبتها لما قبلها:

وجه تعلق هذه السورة بما قبلها من وجهين:

أ - وجه عام: وهو أن هذه السورة تؤكد مضمون السورة السابقة في جملتها، فالسورة المتقدمة تبيّن مدى قدرة الله وهيمنته وتأييده لرسوله محمد ﷺ في مواجهة احتمال ظهور تآمر امرأتين ضعيفتين من نسائه عليه، وهذه السورة توضح بصيغة عامة أن بيد الله ملك السماوات والأرض ومن فيهن، وأنه القدير على كل شيء.

٢ - وجه خاص: وهو أنه تعالى ذكر في أواخر (التحريم) مثالين فريدين متمثلين بامرأتي نوح ولوط للكافرين، وبامرأة فرعون المؤمنة، ومريم العذراء البتول للمؤمنين، وهذه السورة تدل على إحاطة علم الله تعالى وتدبيره، وإظهاره في خلقه ما يشاء من العجائب والغرائب، فإن كفر امرأتي نوح ولوط لم يمنع اتصالهما بنبيين كريمين، وإيمان امرأة فرعون، لم يضر بها اتصالها بفرعون الطاغية الجبار العنيد، كما لم يزعزع إيمان مريم حملها غير المعهود بعيسى عليه السلام.

ما اشتملت عليه السورة:

سورة الملك كسائر السور المكية تعنى بأصول العقيدة الأساسية، وهي إثبات وجود الله، وعظمته، وقدرته على كل شيء، والاستدلال على وحدانيته، والإخبار عن البعث والحشر والنشر.

بدئت بالحديث عن تمجيد الله سبحانه، وإظهار عظمته، وتفرده بالملك والسلطان، وهيمنته على الأكوان، وتصرفه في الوجود بالإحياء والإماتة (الآيات: ١-٢).

ثم أكدت الاستدلال على وجود الله عز وجل بخلقه السماوات السبع، وما زيَّنها به من الكواكب والنجوم المضيئة، وتسخيرها لرجم الشياطين، ونحو ذلك من مظاهر قدرته وعلمه (الآيات: ٣-٥) مما يدل على أن نظام العالم نظام محكم لا خلل فيه ولا تغاير.

ومن مظاهر قدرته تعالى: إعداد عذاب جهنم للكافرين، وتبشير المؤمنين بالمغفرة والأجر الكبير، وذلك جمع بين الترهيب والترغيب على طريقة القرآن الكريم (الآيات: ٦-١٢).

ومن مظاهر علمه وقدرته ونعمه: علمه بالسر والعلن، وخلقه الإنسان

ورزقه، وتذليل الأرض للعيش الهني عليها وحفظها من الخسف، وحفظ السماء من إنزال الحجارة المحرقة المدمرة للبشر، كما دمرت الأمم السابقة المكذبة رسلها، وإمساك الطير ونحوها من السقوط، وتحدي الناس أن ينصرهم غير الله إن أراد عذابهم (الآيات: ١٣-٢٠).

وأردفت ذلك في الخاتمة بإثبات البعث، وحصر علمه بالله تعالى، وإنذار المكذبين بدعوة الرسول ﷺ، وتحذيرهم من إيقاع العذاب بهم، وإعلان وجوب التوكل على الله، والتهديد بتغوير الماء الجاري في الأنهار والينابيع دون أن يتمكن أحد بإجرائه والإتيان ببديل عنه (الآيات: ٢٥-٣٠).

والخلاصة: إن السورة إثبات لوجود الله تعالى ووحدانيته ببيان مظاهر علمه وقدرته، وإنذار بأهوال القيامة، وتذكير بنعم الله على عباده، وربط الرزق بالسعي في الأرض ثم التوكل على الله تعالى.

فضل السورة:

وردت أحاديث كثيرة في فضل هذه السورة، منها: ما أخرجه الإمام أحمد وأصحاب السنن الأربعة، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن سورة في القرآن ثلاثين آية شفعت لصاحبها، غفر له: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾» .

ومنها: ما أخرجه الطبراني والحافظ الضياء المقدسي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾» .

ومنها: ما أخرجه الترمذي عن ابن عباس في تسمية سورة المُلْك بالواقية والمُنْجِية، قال رسول الله ﷺ: «هي المانعة، هي المُنجية، تنجيه من عذاب القبر» .

بعض أدلة القدرة الإلهية

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥)﴾

القراءات:

﴿تَفَاوُتٍ﴾.

وقرأ حمزة، والكسائي (تَفَوَّت).

الإعراب:

﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ ﴿طِبَاقًا﴾ صفة ﴿سَبْعَ﴾ و﴿طِبَاقًا﴾: إما جمع (طبق) كجمل وجمال، أو جمع (طبقة) كَرَحْبة ورِحاب: ويصح أن تكون (طباقاً) مصدراً أو حالاً.

﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ ﴿كَرَّتَيْنِ﴾: منصوب في موضع المصدر، كأنه قال: فارجع البصر رجعتين، ويراد بالتثنية هنا الكثرة: لا حقيقة التثنية، بدليل قوله: ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ والبصر لا ينقلب خاسئاً حسيراً بمجرد مرتين، وإنما يصير كذلك بمرار جمة، مثل قولهم: لبّيك وسَعْديك، أي إلباباً بعد إلباب، وإسعاداً بعد إسعاد، يعني: كلما دعوتني أجبتك إجابة بعد إجابة، من قولهم: ألبَّ بالمكان: إذا أقام به.

البلاغة:

﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ استعارة تمثيلية، أو في لفظ (اليد) مجاز، ويكون قوله ﴿الْمُلْكُ﴾ على الحقيقة.

﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ استعارة تمثيلية، شبه معاملة الله لعباده بالابتلاء والاختبار.

﴿ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾ بينهما طباق.

﴿ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ وضع الموصول للتفخيم والتعظيم، أي له السلطان والتصرف المطلق.

﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾ ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ إطناب بتكرار الجملة مرتين لزيادة التنبيه والتذكير.

﴿قَدِيرٌ﴾، ﴿حَسِيرٌ﴾، ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾ سجع مرصع، وكذا قوله: ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾، ﴿فُطُورٍ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿تَبَٰرَكَ﴾ تعاظم وتعالى بالذات عن كل ما سواه، وكثر خيره وإنعامه، من البركة: وهي النماء والزيادة الحسية أو المعنوية. ﴿بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ المالك المطلق وصاحب السلطان المتفرد، و﴿بِيَدِهِ﴾ نؤمن باليد كما جاء على مراد الله، والظاهر هنا بيان قدرة الله وسلطانه ونفاذ تصرفه في مُلكه. ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾ أوجده أو قدّره أزلاً، و﴿ٱلۡمَوۡتَ﴾ عدم الحياة المعروفة، ﴿وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾ ما به الإحساس والحيوية. ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ ليختبركم في حقل الحياة، أي ليعاملكم معاملة المختبِر لأعمالكم. ﴿أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ أخلصه لله وأطوعه. ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ القوي الغالب الذي لا يغلبه شيء، ولا يعجزه عقاب المسيء. ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ الكثير المغفرة والستر لذنوب عباده إذا تابوا.

﴿طِبَاقٗاۖ﴾ متطابقاً بعضها فوق بعض، بحيث يكون كالجزء منه، وكالقُبّة على الأخرى. ﴿تَفَٰوُتٖۖ﴾ تباين وتناقض وعدم تناسب. ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾ أعِده إلى السماء. ﴿فُطُورٖ﴾ شقوق وصدوع، جمع فَطْر. ﴿كَرَّتَيۡنِ﴾ مرة بعد مرة أو كرة بعد كرة، والمراد بذلك التكرار والتكثير. ﴿يَنقَلِبۡ﴾ يرجع. ﴿خَاسِئٗا﴾ صاغرا

ذليلاً عن أن يرى شيئاً من العيب أو الخلل في خلق السماوات. ﴿حَسِيرٌ﴾ كليل منقطع، لم يدرك المطلوب بعد كثرة المراجعة.

﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أقرب السماوات إلى الأرض. ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ بنجوم وكواكب مضيئة، جمع مصباح. ﴿رُجُومًا﴾ راجمات أو مراجم يرجم ويرمى بانقضاض الشهب عليها، جمع رَجْم. ﴿لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ شياطين الجن والإنس. ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾ هيأنا. ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ عذاب النار المستعرة الموقدة.

التفسير والبيان:

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ يمجد الله تعالى نفسه الكريمة للتعليم والإرشاد، ويخبر أنه سبحانه المتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء، وأنه التام القدرة على كل الأشياء، لا يعجزه شيء، بل هو يتصرف في ملكه كيف يريد، من إعزاز وإذلال، ورفع ووضع، وإنعام وانتقام، وإعطاء ومنع، لا مُعقِّب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل لحكمته وعدله وإطلاق سلطانه. وكلمة ﴿تَبَٰرَكَ﴾ تعالى وتعاظم، وهي تدل على غاية الكمال ومنتهى التعظيم والإجلال، ولذا لا يجوز استعمالها في حق غير الله تعالى.

تدل الآية على أمور ثلاثة: أن الله تعالى تعاظم عن كل ما سواه من المخلوقات، وأنه المالك المتصرف في السماوات والأرض في الدنيا والآخرة، وهو صاحب القدرة التامة والسلطان المطلق على كل شيء.

ومن مظاهر قدرته وعلمه قوله سبحانه:

أ - ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ أي إنه تعالى موجد الموت والحياة ومقدرهما من الأزل، وهو الذي جعلهم عقلاء ليدركوا معاني التكليف ويقوموا به، وليعاملهم معاملة المختبر لأعمالهم، فيجازيهم على ذلك، وليعرِّفهم أيهم أطوع وأخلص لله وخير

عملاً، وهو القوي الغالب القاهر الذي لا يغلبه ولا يعجزه أحد، الكثير المغفرة والستر لذنوب من تاب وأناب بعدما عصاه وخالفه، فهو سبحانه مع كونه عزيزاً منيعاً يغفر ويرحم، ويعفو ويصفح، كما في آية أخرى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ١٥/٤٩-٥٠] .

والآية دليل على أن الموت أمر وجودي؛ لأنه مخلوق. والموت: انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقتها له، والحياة: تعلق الروح بالبدن واتصالها به، وإيجاد الحياة معناه: خلق الروح في الكائنات الحية، ومنها إيجاد الإنسان. والمقصد الأصلي من الابتلاء: هو ظهور كمال إحسان المحسنين.

روى ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «إن الله أذلّ بني آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة، ثم دار موت، وجعل الآخرة دار جزاء، ثم دار بقاء» .

وقدم الموت على الحياة في الآية؛ لأنه أقوى داعياً إلى العمل.

٣ - ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾ أي إنه تعالى الذي أوجد وأبدع السماوات السبع، المتطابقة بعضها فوق بعض، كل سماء منفصلة عن الأخرى كما جاء في حديث الإسراء وغيره، يجمع بينها نظام الجاذبية، ما تشاهد أيها الناظر المتأمل في مخلوقات الرحمن من تناقض وتباين وعدم تناسب، واردد طرفك في السماء، وتأمل: هل تشاهد فيها من شقوق وصدوع؟! وهذا دليل على تعظيم خلقها، وسلامتها من العيوب، وكون خالقها ذا قدرة تامة وعلم دقيق شامل محكم متقن.

ونظير الآية: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ [الرعد: ١٣/٢] .

والسماء: مادة لا يعلم حقيقتها إلا الله، تبعد عن الأرض مسيرة خمس مئة عام بالقياسات القديمة، وتتحدد الآن بالأميال حسبما تدل عليه برامج غزو الفضاء. وقيل: إنها مدارات الكواكب، ويرى العلماء الفلكيون أنها فراغ يدور فيها الكوكب، وإذا عرفنا أن الكواكب ذات أبعاد متفاوتة ومسافات مختلفة، أدركنا تصور كرات السماوات السبع. وتكوِّن المجموعة الشمسية والمجموعات النجمية ما يعرف باسم (الكون) . والمجموعة الشمسية (أو النظام الشمسي) تطلق في علم الفلك على الشمس والكواكب السيَّارة وتوابعها، وهي بترتيب بعدها عن الشمس: عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، المشتري، أورانوس، نبتون، بلوتو. والمجموعات النجمية شموس نائية البعد تتغير ألوان بعضها لعدة أيام أحياناً.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ أي ثم اردد البصر ودقق مرة بعد مرة مهما تكاثرت المرات، يرجع إليك البصر صاغراً ذليلاً عن رؤية شيء من الخلل أو العيب في خلق السماء، وهو كليل عيي من كثرة التأمل ومعاودة النظر. ومعنى الآية بعبارة أخرى: إنك أيها الإنسان المخاطب لو كررت البصر مهما كررت، لانقلب إليك أو رجع إليك البصر ذليلاً عن أن يرى عيباً أو خللاً.

والمراد بقوله: ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ تكثير النظر لمعرفة الخلل.

٣ - ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ أي ولقد زيَّنا أقرب السماوات إلى الناس بكواكب ثوابت وسيارات، فصارت في أحسن خلق وأبهج شكل، وسميت الكواكب مصابيح؛ لأنها تضيء كإضاءة السراج، وجعلنا تلك الكواكب بما ينقضُّ منها من الشهب أو من دونها راجمات يرجم بها الشياطين، وأعددنا للشياطين في الآخرة بعد الإحراق في الدنيا بالشهب عذاب النار المستعرة الموقدة بسبب فسادهم وإفسادهم.

ورجم الشياطين يعدّ فائدة أخرى للكواكب، غير كونها زينةً للسماء الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل: ١٦/ ١٦] .

قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاث: زينة السماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها في البرّ والبحر، فمن تأول فيها غير ذلك، فقد قال برأيه وتكلف ما لا علم له به.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ۝١٠﴾ [الصافات: ٣٧/٦-١٠] .

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ً - تعاظم الله بالذات عن كل ما سواه، وهو مالك السماوات والأرض في الدنيا والآخرة، والقادر على كل شيء من إنعام وانتقام.

٢ً - الله هو الذي أوجد الموت وأوجد الحياة ليعامل العباد معاملة المختبِر، ويقيم الدليل عليهم أيهم أطوع وأخلص لله، وهو سبحانه القوي الغالب في انتقامه ممن عصاه، الغفور لمن تاب.

قال ابن عمر: تلا النّبي ﷺ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ حتى بلغ ﴿أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ فقال: أورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله.

والابتلاء: هو التجربة والامتحان حتى يعلم أنه هل يطيع أو يعصي؟

٣ً - الله هو الذي أوجد أيضاً السماوات السبع متطابقة بعضها فوق

بعض، ما ترى في خلقها من اعوجاج وصدوع، ولا تناقض ولا تباين، بل هي مستقيمة مستوية، دالة على خالقها، لا عيب ولا خلل فيها.

٤ - إذا كرر الإنسان النظر في السماوات مرات كثيرة، لا يرى فيها عيباً؛ بل يتحيّر بالنظر إليها، ويرجع إليه بصره خاشعاً صاغراً متباعداً عن أن يرى شيئاً من ذلك، وقد بلغ الغاية في الإعياء.

٥ - زيَّن الله السماء الدنيا وهي القربى أقرب السماوات إلى الناس بكواكب مصابيح لإضاءتها، وجعل منها شهباً تنقض على مردة الشياطين، وأعد الله للشياطين أشد الحريق بسبب الكفر والضلال والإفساد.

والآيات كلها دليل على كونه تعالى كامل القدرة والعلم.

تعذيب الكفار العصاة

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾

القراءات:

﴿وَبِئْسَ﴾:

وقرأ السوسي، وورش، وحمزة وقفاً (وبيس).

﴿فَسُحْقًا﴾:

وقرأ الكسائي (فَسُحُقاً).

الإعراب:

﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾ المراد بذنوبهم، ووحّد لوجهين:

أحدهما - أنه أضافه إلى جماعة، والإضافة إلى الجميع تغني عن جمع المضاف، كما أن الإضافة إلى التثنية تغني عن تثنية المضاف.

والثاني - أن (ذنب) مصدر، والمصدر يصلح للواحد والجمع.

﴿فَسُحۡقٗا﴾ منصوب على المصدر، وجعل بدلاً من الفعل، أو منصوب بتقدير فعل، تقديره: ألزمهم الله سحقاً.

البلاغة:

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ استفهام إنكاري للتقريع والتوبيخ زيادة لهم في العذاب.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ﴾ مقابلة، قابله بقوله بعدئذ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾.

﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا﴾ استعارة مكنية، شبه شدة استعارها وحسيسها بصوت الحمار.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾ استعارة مكنية، شبه جهنم في شدة غليانها ولهبها، بإنسان شديد الغيظ والحنق على عدوه مبالغة في إيصال الضرر إليه، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الغيظ الشديد.

﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾، ﴿نَذِيرٞ﴾، ﴿كَبِيرٖ﴾، ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾ سجع مرصع لمراعاة رؤوس الآيات.

﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ ﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ إطناب بتكرار الجملة مرتين لزيادة التنبيه.

المفردات اللغوية:

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ من شياطين الإنس والجن. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ساء المرجع هي. ﴿أُلْقُوا۟ فِيهَا﴾ طرحوا فيها. ﴿شَهِيقًا﴾ صوتاً منكراً شديداً كصوت الحمار، والشهيق: تنفس يسبق الزفير، وهو هنا كتنفس المتغيظ. ﴿تَفُورُ﴾ تغلي بهم كغلي المرجل. ﴿تَمَيَّزُ﴾ أي تتميز بمعنى تتقطع وتتفرق غضباً عليهم. ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ غضباً على الكفار، والغيظ: شدة الغضب، وهو تمثيل لشدة اشتعالها بهم. ﴿فَوْجٌ﴾ جماعة أي من الكفار. ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ سؤال توبيخ، والخزنة: الأعوان وهم مالك وأعوانه، جمع خازن. ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي رسول ينذركم عذاب الله، ويخوفكم منه، والاستفهام يراد به التوبيخ والتبكيت.

﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ ما أنتم. ﴿إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ﴾ خطأ بعيد عن الصواب والحق. وهذا القول إما من الملائكة للكفار حين اعترفوا بالتكذيب، أو من كلام الكفار للنذر من الرسل. ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ سماع تفهم. ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ عقل تفكر. ﴿مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ في عدادهم ومن جملتهم. ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾ أقروا بذنوبهم حين لا ينفعهم الاعتراف، والاعتراف: إقرار عن معرفة. ﴿فَسُحْقًا﴾ أي أسحقهم الله سحقاً، أي أبعدهم الله من رحمته.

المناسبة:

بعد أن بيّن الله تعالى ما أعد للشياطين من عذاب السعير في الآخرة بعد الإحراق بالشهب في الدنيا، عمم الوعيد، وأوضح أن هذا العذاب معدّ أيضاً لكل كافر جاحد بربه، ثم ذكر أوصاف النار وأهوالها الشديدة.

التفسير والبيان:

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦﴾ أي وأعتدنا لكل

الجاحدين بربهم، المكذبين رسله من الجن والإنس عذاب نار جهنم، وبئس المآل والمرجع وما يصيرون إليه، وهو جهنم.

ثم ذكر صفات النار الأربع وهي:

١، ٢ - ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧﴾ أي إذا طرح الكفار في نار جهنم، كما يطرح الحطب في النار العظيمة، سمعوا لها صوتاً منكراً كصوت الحمير أول نهيقها، أو كصوت المتغيظ من شدة الغضب، وهي تغلي بهم غليان المرجل.

٣ - ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾ أي تكاد أو تقترب تتقطع، وينفصل بعضها من بعض، من شدة غضبها على الكفار، وحنقها بهم.

٤ - ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ أي كلما طرح في جهنم جماعة من الكفار، سألهم أعوانها وزبانيتها سؤال تقريع وتوبيخ: أما جاءكم في الدنيا رسول نذير ينذركم هذا اليوم ويخوفكم ويحذركم منه؟

فيجيبهم الكفار بقولهم من ناحيتين:

١ - ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ۝٩﴾ أي أجاب الكفار قائلين: بلى جاءنا رسول من عند الله ربنا، فأنذرنا وخوَّفنا، لكنا كذبنا ذلك النذير، وقلنا له: ما نزّل الله من شيء على لسانك، ولم يوح إليك بشيء من أمور الغيب وأخبار الآخرة والشرائع التي أمرنا الله بها.

وما أنتم أيها الرسل إلا في ذهاب عن الحق، وبعد عن الصواب. فهذا على الأظهر من جملة قول الكفار وخطابهم للمنذرين.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ

خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٧١] .

وهذا دليل على عدل الله في خلقه وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٥] .

٢ - ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠﴾ أي إننا نلوم أنفسنا ونندم على ما فعلنا، فلو كنا نسمع ما أنزل الله من الحق سماع من يعي، وسماع هداية، أو نعقل عقل من يميز وينظر وينتفع، وعقل هداية، ما كنا من أهل النار، وما كنا عليه من الكفر بالله والضلال، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم، والإيمان بما أنزل الله تعالى، والاستماع إلى الرسول ﷺ. وقدم السمع على العقل والتفهم؛ لأن المدعو إلى شيء يسمع كلام الداعية أولاً ثم يتفكر فيه.

﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١﴾ أي فأقروا معترفين بما صدر عنهم من ذنب استحقوا به عذاب النار، وهو الكفر وتكذيب الأنبياء، فبعداً لهم من الله ومن رحمته. وهذا بيان بالجريمة ثم العقاب.

أخرج الإمام أحمد عن أبي البحتري الطائي قال: أخبرني من سمعه من رسول الله ﷺ أنه قال: «لن يُهلَكَ الناسُ حتى يُعْذِروا من أنفسهم» وفي حديث آخر: «لا يدخل أحد النار إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة» .

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - للكافرين الجاحدين وجود الله ووحدانيته، المكذبين رسله عذاب

جهنم في الآخرة، وبئس المرجع والمنقلب. وظاهر الآية يقتضي القطع بأن الفاسق المصرّ لا يبقى في النار.

٢ً - للنار أوصاف أربعة مرعبة رهيبة: هي سماع شهيق أي صوت منكر لها، والفوران فهي تغلي بالكفار غليان المرجل، والغضب فهي تكاد تتقطع وينفصل بعضها من بعض من شدة الغيظ على أعداء الله تعالى، وتعنيف الزبانية فكلما ألقي فيها جماعات منهم يسألهم خزنتها وهم مالك وأعوانه من الزبانية سؤال توبيخ وتقريع زيادة لهم في العذاب: ألم يأتكم رسول نذير في الدنيا ينذركم هذا اليوم حتى تحذروا؟!

قال ابن عباس: الشهيق لجهنم عند إلقاء الكفار فيها؛ تشهق إليهم شهقة البغلة للشعير، ثم تَزْفِر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف.

٣ً - يعترف الكفار بأنه قد جاءهم رسول أنذرهم وخوفهم، فكذبوه، وقالوا: ما أنتم يا معشر الرسل إلا في بُعْد عن الحق والصواب.

٤ً - وبعد أن اعترفوا بتكذيب الرسل، اعترفوا أيضاً بجهلهم، وهم في النار، وقالوا: لو كنا نسمع من الرسل النذر سماع تدبر ووعي، وتعقل وفهم ما جاؤوا به، ما كنا من أهل النار.

قال ابن عباس: لو كنا نسمع الهدى أو نعقله، أو لو كنا نسمع سماع من يَعي ويفكّر، أو نعقل عقل من يميّز وينظر.

ودلَّ هذا على أن الكافر لم يُعْط من العقل شيئاً.

عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لقد ندِم الفاجر يوم القيامة، قالوا - أي الفجار -: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، فقال الله تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾ أي بتكذيبهم الرسل.

٥ - يقال للكفار حينئذ: سحقاً لكم، أي بعداً من رحمة الله، سواء اعترفوا أو جحدوا، فإن ذلك لا ينفعهم.

٦ - احتجوا بآية ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ على أن الدين لا يتم إلا بالتعليم؛ لأن السمع يقتضي إرشاد المرشد وهداية الهادي. واحتجوا بها أيضاً على تفضيل السمع على البصر؛ لأن الآية دلت على أن للسمع مدخلاً في الخلاص من النار والفوز بالجنة، فالسمع مناط الفوز، والبصر ليس كذلك، فوجب أن يكون السمع أفضل.

وعد المؤمنين بالمغفرة وتهديد الكافرين مرة أخرى

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾

الإعراب:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ﴿مَنْ﴾: في موضع رفع فاعل ﴿يَعْلَمُ﴾ والمفعول محذوف، أي ألا يعلم الخالق خلقه.

البلاغة:

﴿وَأَسِرُّوا۟﴾ و﴿ٱجْهَرُوا۟﴾ بينهما طباق.

﴿كَبِيرٌ﴾، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ سجع، وكذا قوله: ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ و﴿ٱلنُّشُورُ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ يخافون عذابه غائباً عنهم لم يعاينوه بعد، أو في

حال غيبتهم عن أعين الناس، فيطيعونه سراً وعلانية. ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم. ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ثواب عظيم وهو الجنة، يصغر دونه لذائذ الدنيا. ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بما في الضمائر أو النفوس.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ألا يعلم السر والجهر من أوجد الأشياء على وفق حكمته. ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ العالم بدقائق الأمور وخفاياها التي لا يدركها العالمون. ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ المطلع على ظواهر الأشياء وبواطنها. ﴿ذَلُولًا﴾ سهلة منقادة لينة يسهل لكم السير فيها والانتفاع بها. ﴿مَنَاكِبِهَا﴾ جوانبها وطرقها، جمع منكِب: وهو في الأصل مجتمع ما بين العضد والكتف. ﴿ٱلنُّشُورُ﴾ الخروج من القبور، والحياة بعد الموت، والرجوع إلى الله بعد البعث للجزاء.

سبب نزول الآية (١٣):

﴿وَأَسِرُّواْ﴾: قال ابن عباس: نزلت في المشركين كانوا ينالون من رسول الله ﷺ، فخبَّره جبريل عليه السلام بما قالوا فيه ونالوا منه، فيقول بعضهم لبعض: أسرّوا قولكم لئلا يسمع إله محمد.

المناسبة:

بعد وعيد الكفار بعذاب النار، ذكر الله تعالى للمقابلة وعد المؤمنين بالمغفرة والأجر الكبير، ثم عاد إلى تهديد الكافرين والناس جميعاً بأنه عليم بكل ما يصدر عنهم في السر والعلن، وأقام الدليل على ذلك بأنه هو الخالق والقادر الذي ذلّل الأرض للعالم، وأذن لهم بالانتفاع بما فيها من خيرات وكنوز ظاهرة وباطنة كالزروع والثمار والمعادن.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ أي إن الذين يخافون عذاب ربهم ولم يروه، فيؤمنون به خوفاً من عذابه، ويخافون الله

في السر والعلن، فيخشون ربهم إذا كانوا غائبين عن الناس، بالكف عن المعاصي والقيام بالطاعات، حيث لا يراهم أحد إلا الله تعالى، هؤلاء لهم مغفرة عظيمة يغفر الله بها ذنوبهم، وثواب جزيل، وهو الجنة.

ثبت في الصحيحين: «سبعة يظلّهم الله تعالى في ظل عرشه، يوم لا ظل إلا ظله.. منهم: ورجل دَعَتْه امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شِماله ما تنفق يمينه» .

ثم نبَّه الله تعالى على أنه مطّلع على الضمائر والسرائر، فقال:

﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ أي سواء أخفيتم كلامكم أو جهرتم به، فالله عليم به، يعلم ما يخطر في القلوب وما تكنّه الضمائر، لا يخفى عليه منه خافية، والمراد أن قولكم وعملكم على أي سبيل وجد، فالله عليم به، فاحذروا من المعاصي سراً كما تحترزون عنها جهراً، فإن ذلك لا يتفاوت بالنسبة إلى علم الله تعالى. وقدَّم السر على الجهر؛ لأنه مقدم عليه عادة، فما من أمر إلا وهو يبدأ أولاً في النفس ثم يجهر به، وللتحذير من التكتم والسر الذي قد يظن عدم العلم به. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كالعلّة لما قبله.

والآية خطاب عام لجميع الخلق في جميع الأعمال، وتشمل ما كانوا يسرون به من الكلام في أمر رسول الله ﷺ، قال ابن عباس: كانوا ينالون من رسول الله ﷺ، فيخبره جبريل، فقال بعضهم لبعض: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ﴾ لئلا يسمع إله محمد، فأنزل الله هذه الآية.

ثم أقام الله تعالى الأدلة على سعة علمه، فقال:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ أي ألا يعلم الخالقُ خلقه، فهو الذي خلق الإنسان وأوجد السرَّ ومضمرات القلوب؟ فهو تعالى الذي

خلق الإنسان بيده، وأعلم شيء بالمصنوع صانعه، وهو العليم بدقائق الأمور، وما في القلوب، والخبير بما تسرُّه وتضمره من الأمور، لا تخفى عليه من ذلك خافية. والمراد: ألا يعلم السِّر من خلق السِّر؟

وقيل: معناه: ألا يعلم الله مخلوقه؟ قال ابن كثير: والأول (أي ألا يعلم الخالق) أولى لقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾. والواقع أن كلا المعنيين محتمل، فيمكن جعل ﴿مَنْ﴾ اسماً للخالق جل وعز، ويكون المعنى: ألا يعلم الخالق خلقه؟ كما يمكن جعلها اسماً للمخلوق، ويكون المعنى: ألا يعلم الله من خلق. ولا بدّ من أن يكون الخالق عالماً بما خلقه وما يخلقه.

ثم أقام الله تعالى الدليل على قدرته، ونبَّه إلى تمام نعمته، فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ أي إن الله هو الذي سخَّر لكم الأرض وذلَّلها لكم، وجعلها سهلة لينة قابلة للاستقرار عليها، لا تميد ولا تضطرب، بما جعل فيها من الجبال، وفجّر فيها الينابيع، وشقّ الطرق، وهيَّأ المنافع، وأنبت فيها الزروع وأخرج الثمار، فسيروا في جوانبها وأقطارها وأرجائها حيث شئتم بحثاً عن المكاسب والتجارات والأرزاق، ولا يغني السعي شيئاً عن تيسير الله، لذا قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ﴾ أي مما رزقكم وخلقه لكم في الأرض، ومكّنكم من الانتفاع بها، وأعطاكم القدرات على تحصيل خيراتها، ثم اعلموا أنكم في النهاية صائرون إليه، فإليه النشور، أي البعث من قبوركم، لا إلى غيره، وإليه المرجع يوم القيامة، فاحذروا الكفر والمعاصي في السر والعلن.

والآية دليل على قدرة الله ومزيد إنعامه على خلقه، وعلى أن السعي واتخاذ الأسباب لا ينافي التوكل على الله، وعلى أن الاتجار والتكسب مندوب إليه. أخرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله،

لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِماصاً، وتروح بطاناً» فأثبت لها غُدُوّاً ورَواحاً، لطلب الرزق، مع توكلها على الله عز وجل، وهو المسخِّر المسيِّر المسبِّب.

وأخرج الحكيم الترمذي عن معاوية بن قُرَّة قال: مرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوم، فقال: من أنتم؟ فقالوا: المتوكلون، قال: بل أنتم المتواكلون، إنما المتوكل رجل ألقى حبَّه في بطن الأرض، وتوكل على الله عز وجل.

ويكون المراد من الآيتين هذه وما قبلها تهديد الكافرين بأن الله عالم بسرهم وجهرهم، وأنه هو المنعم المتفضل عليهم بما يسَّر لهم من خيرات الأرض، فاحذروا عقابه، فكأنه تعالى قال: أيها الكفار اعلموا أني عالم بسركم وجهركم، فكونوا خائفين مني، محترزين من عقابي، فقد أسكنتكم في هذه الأرض التي ذلَّلتها لكم، وجعلتها سبباً لنفعكم ورزقكم، وإني إن شئت خسفت بكم هذه الأرض، وأنزلت عليها من السماء أنواع المحن.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستدل بالآيات على ما يأتي:

١ً - إن خشية الله، والخوف من عذابه وعقابه، ومجاهدة الشيطان واجب كل إنسان، وإن الذين يخافون الله، ويخافون عذابه الغائب عنهم وهو عذاب يوم القيامة، ويراقبون الله في سرهم وعلنهم، لهم مغفرة لذنوبهم، وثواب كبير وهو الجنة.

٢ً - إن الله تعالى عالم على السواء بالجهر وبالسر، وبما في الصدور من خطرات وخفايا وبما في القلوب من الخير والشر. وعليه يكون ما أخفاه المشركون من الكلام في أمر محمد ﷺ، وما جهروا به معلوماً تمام العلم لله عز

وجل. كذلك كل ما يكيد به الناس للإسلام وقرآنه ونبيه ﷺ وأهله في كل عصر، دولاً وأفراداً، يعلم به الله، ويعاقب أهل الكيد والمكر والشر والضلال عليه.

٣ً - الدليل على كونه تعالى عالماً بجميع الأشياء السرية والعلنية أنه هو الخالق للإنسان وأفعاله وأقواله، ومن خلق شيئاً لا بدّ وأن يكون عالماً بمخلوقه.

٤ً - إن الأرض وما فيها من خيرات ومنافع وكنوز مسخرة للإنسان هي من نعمة الله وفضله، وهي حقل التجارب، ومرصد السلوك الإنساني، والله الذي ذلّلها ويسّر لعباده الأرزاق فيها قادر أيضاً على أن يخسفها بأهلها وسكانها، ويكون المصير والمرجع إليه بعد البعث من القبور للحساب والجزاء، فما على الناس إلا استعمال الأرض في الخير، والبعد عن الشر والمنكرات والكفر والمعاصي.

أنواع من الوعيد والتهديد والعبرة بالأمم السابقة

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۢ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

الإعراب:

﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ ﴿أَن﴾: في موضع نصب على البدل من ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو بدل اشتمال. وكذا قوله: ﴿أَن يُرۡسِلَ﴾ بدل من ﴿مَّن﴾.

﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾ حال منصوب؛ لأن المراد بالرؤية في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ رؤية

العين، لا رؤية القلب. وقوله: ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ عطف على ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ والجملة في موضع الحال، وتقديره: قابضات، وعطف هنا الفعل المضارع على اسم الفاعل؛ لما بينهما من المشابهة.

البلاغة:

﴿صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ بينهما طباق؛ لأن المعنى صافات وقابضات.

﴿نَذِيرِ﴾، ﴿نَكِيرِ﴾، ﴿بَصِيرٌ﴾ سجع مرصّع مراعاة لرؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿ءَأَمِنتُم﴾ بتحقيق الهمزتين، أو بقلب الهمزة الأولى واواً، أو بتسهيل الثانية مع الفصل، أو بلا فصل، أو مع إدخال ألف بينهما، أو بإبدال الثانية ألفاً، والأمن: ضد الخوف. ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ هو الله، على زعم العرب أنه تعالى في السماء. ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ أن يغوّر بكم الأرض، ويغيبكم فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٨١]. ﴿تَمُورُ﴾ ترتجّ وتتحرك وتضطرب.

﴿حَاصِبًا﴾ ريحاً شديدة فيها حصباء ترميكم بها وتهلككم. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عند معاينة العذاب. ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي إنذاري بالعذاب أنه حق، وتخويفي به. ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم. ﴿نَكِيرِ﴾ إنكاري عليهم بإنزال العذاب، وهو تسلية للرسول ﷺ، وتهديد لقومه المشركين.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ينظروا. ﴿فَوْقَهُمْ﴾ في الهواء. ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها. ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أي وقابضات يضممنها تارة أخرى. ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ عن الوقوع في حال البسط والقبض. ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بقدرته، الشامل رحمته كل شيء. ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ يعلم كيف يخلق الغرائب ويدبر العجائب. والمعنى: ألم يستدلوا بطيران الطير في الهواء على قدرتنا أن نعذبهم كما عذبنا الأمم المتقدمة؟

المناسبة:

بعد بيان الأدلة على علم الله وقدرته لترهيب الكافرين وتخويفهم، أورد تعالى أدلة أخرى بقصد الوعيد والتهديد، من إمكان الخسف العاجل بأهل الأرض، أو إرسال الريح الحاصب التي تدمر كل شيء، مع التذكير بإهلاك الأمم السابقة كعاد وثمود وقوم نوح وفرعون وجنوده، وإقدار الطير على الطيران في جو السماء.

التفسير والبيان:

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾ أي هل تأمنون أن يخسف أو يغور ويقلع الله بكم الأرض، كما خسف بقارون بعدما جعلها لكم ذلولاً تمشون في مناكبها، فإذا هي تضطرب وتتحرك وتموج بكم؟ والمراد بهذا الاستفهام الوعيد والإخبار بأنه تعالى قادر على تعذيب من كفر بالله وأشرك معه إلهاً آخر. قال ابن عباس: أأمنتم من في السماء إن عصيتموه.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ [الأنعام: ٦/ ٦٥] .

ولكن من لطفه ورحمته تعالى بخلقه أنه يَحْلُم ويصفح، ويؤجل ولا يعجِّل كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر: ٣٥/ ٤٥] .

ثم أتبع الله تعالى ذلك بوعيد آخر:

﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ أي بل هل أمنتم ربكم الله الذي هو في السماء كما تزعمون، وهل أمنتم سلطانه وملكوته وقهره أن يرسل عليكم ريحاً مصحوبة بحجارة من السماء، كما

أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل في مكة، وحينئذ تعلمون إذا عاينتم العذاب كيفية إنذاري وعقابي لمن خالف وكذب به، ولكن لا ينفعكم هذا العلم؟!

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٦٨] .

ثم ذكَّر الله تعالى بعذاب الأمم المتقدمة مؤكداً تخويف الكفار بالمثال والبرهان، أما المثال فهو:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾ أي إن الكفار الذين كانوا قبلهم، والذين كذبوا الرسل، شاهدوا أمثال هذه العقوبات بسبب كفرهم، كعاد وثمود وكفار الأمم، فحاق بهم سوء العذاب، وانظروا كيف كان إنكاري عليهم بما أوقعته بهم من العذاب الشديد؟

وأما البرهان فقد ذكر تعالى عدة براهين على كمال قدرته، مما يدل على كونه تعالى قادراً على إيقاع جميع أنواع العذاب بالكفار.

وهذا هو البرهان الأول:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ أي أو لم ينظروا إلى الطير فوقهم في الجو أو الهواء، وهن باسطات أجنحتهن تارة، وقابضات ضامّات لها تارة أخرى، ما يمسكهن في الهواء عند الطيران والقبض والبسط إلا الإله الرحمن القادر على كل شيء، بما سخَّر لهن من الهواء برحمته ولطفه، إنه سبحانه عليم بصير بما يصلح كل شيء من مخلوقاته، لا يخفى عليه شيء من دقائق الأمور وغظائمها.

ونظير الآية: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل: ١٦/٧٩] .

قالوا: وفي الآية دليل على أن الأفعال الاختيارية للعبد مخلوقة لله تعالى؛ لأن استمساك الطير في الهواء فعل اختياري لها، وقد أضافه الله تعالى إلى نفسه.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يلي:

أ - الله تعالى هو القادر على أن يخسف بالكافرين والظالمين الأرض، عقوبة على كفرهم، كما خسف بقارون وبداره الأرض، فإذا الأرض تذهب وتجيء وتغور بهم وتبتلعهم.

وإنما خصَّ الله تعالى هنا السماء في قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فللتنبيه على سلطان الذي تنفذ قدرته في السماء، فضلاً عمن يعظمونه في الأرض، مع العلم بأنه تعالى إله في السماء وفي الأرض، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٨٤] .

وقد احتج المشبِّهة على إثبات المكان لله تعالى بقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وأجابهم الرازي بأن هذه الآية لا يمكن إجراؤها على ظاهرها باتفاق المسلمين؛ لأن كونه في السماء يقتضي كون السماء محيطةً به من جميع الجوانب، فيكون أصغر من السماء، والسماء أصغر من العرش بكثير، فيلزم أن يكون الله تعالى شيئاً أصغر من العرش، وذلك محال باتفاق أهل الإسلام؛ لأن العرش أكبر المخلوقات في السماء والأرض. ولأنه تعالى قال: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢] فوجب صرف الآية عن ظاهرها إلى التأويل. وللتأويل وجوه أولاها: تقدير الآية: أأمنتم من في السماء سلطانه وملكه وقدرته؟ والغرض من ذكر السماء تفخيم سلطان الله وتعظيم قدرته، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٦/ ٣] فإن الشيء الواحد لا يكون دفعة واحدة في مكانين[١].

(١) تفسير الرازي: ٣٠/ ٧٠

٢ - إن الله تعالى هو الذي أنعم على عباده بتذليل الأرض، وجعلها سهلة للاستقرار عليها، وامتن عليهم، فأباح لهم السير في نواحيها وأقطارها وآكامها وجبالها بحثاً عن الرزق وللاتجار والتكسب، وأذن لهم بالأكل مما أحله لهم، ثم هم في النهاية مرجعهم إلى الله، فإن الذي خلق السماء لا تفاوت فيها، والأرض ذلولاً، قادر على أن يبعثهم وينشرهم من قبورهم أحياء.

٣ - إن الله عز وجل هو القادر أيضاً على تعذيب الكفار بإرسال حجارة من السماء، كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل، وحين وقوع العذاب يعلمون كيف إنذار الله بالعذاب أنه حق.

٤ - أكد الله تعالى تخويفات الكفار بضرب المثل بمن كانوا قبلهم، فإنهم شاهدوا أمثال هذه العقوبات بسبب كفرهم، وكفار هذه الأمم المتقدمة، كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مَدْين وأصحاب الرَّسّ وقوم فرعون.

٥ - من البراهين الدالة على قدرته تعالى: أنه كما ذلَّل الأرض للإنسان، ذلل الهواء للطيور، وما يمسك الطير في الجو وهي تطير إلا الله عز وجل، وهو عليم بصير بكل شيء وبما يصلح كل شيء من مخلوقاته.

توبيخ المشركين على عبادة الأصنام وإثبات قدرة الله واختصاصه بعلم البعث

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾

القراءات:

﴿صِرَٰطٍ﴾ :

وقرأ قنبل (سراط).

﴿سِيٓـَٔتْ﴾ :

بإشمام كسرة السين الضمة قرأ نافع، وابن عامر، والكسائي. وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

﴿وَقِيلَ﴾ : بإشمام كسرة القاف الضمة، قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

الإعراب:

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أم: حرف عطف،

ومَنْ: في موضع رفع بالابتداء، و﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ ثانٍ، و﴿ٱلَّذِى﴾: خبره، و﴿هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾: صلته، و﴿يَنصُرُكُم﴾: جملة فعلية في موضع رفع صفة لـ ﴿جُندٌ﴾. والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر عن المبتدأ الأول. وجواب الشرط في قوله: ﴿إِنْ أَمْسَكَ﴾ محذوف دلَّ عليه ما قبله، أي فمن يرزقكم؟

﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ خبر مَنْ محذوف دلَّ عليه خبر (مَنْ) في الجملة السابقة وهو أهدى.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿قَلِيلًا﴾: نعت لمصدر محذوف، و﴿مَّا﴾: زائدة، و﴿تَشْكُرُونَ﴾: مستأنف أو حال مقدرة، أي تشكرون شكراً قليلاً.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ ﴿هَٰذَا﴾: في موضع رفع بالابتداء، و﴿ٱلْوَعْدُ﴾: صفة له، أو بدل، و﴿مَتَىٰ﴾: خبره، وفيه ضمير يعود على ﴿ٱلْوَعْدُ﴾

البلاغة:

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى﴾ استفهام إنكار.

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ استعارة تمثيلية، مثَّل المؤمن بمن يمشي سوياً على صراط مستقيم، ومثَّل الكافر بمن يمشي مكباً على وجهه إلى طريق جهنم.

﴿غُرُورٍ﴾، ﴿وَنُفُورٍ﴾ سجع مرصع لمراعاة رؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿أَمَّنْ هَٰذَا﴾ أي من هذا. ﴿جُندٌ لَّكُمْ﴾ أعوان لكم. ﴿يَنصُرُكُم﴾ يدفع العذاب عنكم. ﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي غيره يدفع عنكم عذابه، أي لا ناصر لكم. ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي ما الكافرون. ﴿إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ غرَّهم الشيطان بأن العذاب لا ينزل بهم، والمراد أنه لا معتمد لهم.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾ من هذا الذي يرزقكم غير الله؟ ﴿إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ إن منع عنكم رزقه، بإمساك المطر وسائر أسباب المعيشة، وجواب الشرط محذوف دلَّ عليه ما قبله تقديره (فمن يرزقكم) أي لا رازق لكم غيره. ﴿لَّجُّوا۟﴾ تمادَوْا واستمروا .﴿فِى عُتُوٍّ﴾ أي تكبر وعناد عن قبول الحق. ﴿وَنُفُورٍ﴾ إعراض وتباعد عن الحق.

﴿مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ واقعاً على وجهه من حين لآخر .﴿سَوِيًّا﴾ معتدلاً منتصب القامة .﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ طريق .﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ قويم مستوي الأجزاء أو الجهة، والمراد تمثيل المؤمن المتدين والمشرك الكافر.

﴿أَنشَأَكُمْ﴾ خلقكم .﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ القلوب والعقول لتتفكروا وتعتبروا. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ باستعمال الحواس فيما خلقت من أجله، وما: مزيدة، والجملة مستأنفة .﴿ذَرَأَكُمْ﴾ خلقكم متكاثرين موزعين .﴿تُحْشَرُونَ﴾ تجمعون للحساب والجزاء.

﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي الحشر أو إيقاع العذاب من الخسف والحاصب .﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيه أيها النبي والمؤمنون به .﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ العلم بوقته وبمجيئه. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا يطلع عليه غيره .﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ رسول منذر بيِّن الإنذار.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ رأوا الوعد الموعود به .﴿زُلْفَةً﴾ أي ذا زلفة، أي قريباً منهم. ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ اسودَّت وعلتها الكآبة وساءتها رؤية العذاب. ﴿وَقِيلَ﴾ قال لهم الخزنة .﴿هَٰذَا﴾ العذاب .﴿تَدَّعُونَ﴾ تطلبون وتستعجلون استهزاء واستنكاراً. وهذه حكاية حال ستأتي، عبر عنها بلفظ الماضي للدلالة على تحقق وقوعها.

المناسبة:

بعد أن أورد الله تعالى البرهان الأول على كمال قدرته وهو تمكين الطيور من الطيران، وبَّخ المشركين على عبادة الأصنام، وردَّ على اعتقادهم شيئين أو

أمرين: وهما القوة في الأعوان، وجلب الخير من الأصنام، ثم أورد تعالى برهانين آخرين على كمال قدرته: وهما خلق الناس وحواسهم، وتكاثر الخلق واستمرارهم وتوزيعهم في الأرض ثم حشرهم إليه. ثم ذكر شيئين قالهما الكفار لمحمد ﷺ لما أمره ربه بتخويفهم بعذاب الله، وهما مطالبته بتعيين وقت العذاب، ودعاؤهم عليه وعلى المؤمنين بالهلاك، وهذا الأخير موضع الفقرة التالية.

فتكون البراهين الثلاثة على كمال قدرة الله هي الاستدلال أولاً بأحوال الطيور من الحيوانات، ثم الاستدلال بصفات الإنسان وهي السمع والبصر والعقل وحدوث ذاته، ثم الاستدلال بضمان تكاثر الخلق وحفظ النوع الإنساني وتوزيعه في أنحاء الأرض والحشر يوم القيامة.

التفسير والبيان:

يرد الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره، يبتغون عندهم النصر والرزق، فيقول منكراً عليهم ما اعتقدوه، ومخبراً أنهم لن يحصلوا على ما أمّلوه:

١ - ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾ أي بل من هذا الجند أو العون الذي يعينكم ويمنعكم من عذاب الله إن أراد بكم سوءاً؟! الواقع أنه ليس لكم من دون الله من ولي ولا واق، ولا ناصر لكم غيره، ولهذا فإن الكافرين هم في خداع وغرور عظيم من جهة الشيطان، غرهم بأن العذاب لا ينزل بهم.

والتعبير بقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إشارة إلى أن بقاء الناس في الأرض مع كفرهم وظلمهم هو برحمة الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء.

والآية ردّ على الكفار الذين كانوا يمتنعون من الإيمان، ويعتمدون في

زعمهم واعتقادهم المخطئ على القوة من جهة الإخوة والأعوان، مخبراً إياهم أنه لا ناصر لهم سوى الله سبحانه.

ثم ردَّ الله تعالى على ادعائهم وجود رازق غير الله، وأن الأصنام مصدر جميع الخيرات لهم، ودفع كل الآفات عنهم، فقال:

٢ - ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ أي بل من هذا الذي إذا منع الله عنكم رزقه، رزقكم بعده بالأمطار وغيرها؟ والمعنى أنه لا أحد يعطي ويمنع، ويرزق وينصر إلا الله عز وجل، وحده لا شريك له، وهم يعلمون ذلك، ومع هذا يعبدون غيره، لذا وصفهم تعالى بقوله: ﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أي بل تمادوا واستمروا في عناد واستكبار عن الحق، ونفور عنه، وتابعوا طريقهم في طغيانهم وإفكهم وضلالهم، ولم يعتبروا ولم يتفكروا.

فدلت الآيتان على أنه لا ناصر ينصر من عذاب الله، ولا رازق يرزق غير الله إن حجب رزقه عن مخلوقاته.

ثم ضرب الله مثلاً للمؤمن والكافر أو الموحد والمشرك، فقال:

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ أرأيتم حال المؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مكبّاً على وجهه، أي يمشي متعثراً في كل وقت، منحنياً غير مستوٍ، لا يدري أين يسلك، ولا كيف يذهب، بل هو تائه حائر ضال.

أهذا أهدى أم ذلك المؤمن الذي مثله كمن يسير معتدلاً ناظراً أمامه على طريق مستو، لا اعوجاج به ولا انحراف فيه؟ فهو في نفسه مستقيم، وطريقه مستقيمة، سواء في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا إذ يسير على منهج الله يكون على هدى وبصيرة، وفي الآخرة يحشر على طريق مستقيم يؤدي به إلى الجنة.

وهذا الاستفهام لا تراد حقيقته، بل المراد منه أن كل سامع يجيب بأن الماشي سوياً على صراط مستقيم أهدى.

ثم ذكر الله تعالى البرهان الثاني الدال على كمال قدرته قائلاً:

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين: إن الله ربكم هو الذي ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، وأوجد لكم حاسة السمع لسماع المواعظ به، وحاسة البصر لرؤية بدائع خلق الله، والقلوب والعقول للتأمل والتفكير في مخلوقات الله وإدراك حقائق الأشياء، ولكن قلَّما تستعملون هذه القوى التي أنعم الله بها عليكم في طاعته وامتثال أوامره، وترك زواجره، وفيما خُلقت لأجله من الخير، وذلك هو الشكر الحقيقي لهذه الطاقات، لا مجرد ترداد الشكر باللسان، وملازمة العصيان؛ لأن شكر نعمة الله تعالى: هو أن يصرف تلك النعمة إلى وجه رضاه، فإذا لم تستعمل هذه القوى في طلب مرضاة الله، فأنتم ما شكرتم نعمته مطلقاً.

فقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾إشارة إلى أنه تعالى أعطاهم هذه القوى العظيمة، ولكنهم ضيَّعوها في غير ما خلقت لأجله.

وإنما خصت هذه الجوارح بالذكر؛ لأنها أداة العلم والفهم.

ثم ذكر الله تعالى البرهان الثالث على كمال قدرته، فقال:

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي وقل لهم أيضاً: إن الله هو خلقكم وبثكم ووزعكم في أنحاء الأرض، مع اختلاف ألسنتكم في لغاتكم، واختلاف ألوانكم وأشكالكم، ثم إليه تجمعون بعد هذا التفرق والشتات، فهو يجمعكم كما فرقكم، ويعيدكم كما بدأكم للحساب والجزاء.

وبعد أمر الله محمداً ﷺ بتخويف الكفار بعذاب الله، ذكر مقالة الكفار ومطالبتهم بتعيين وقت البعث استهزاء واستنكاراً، فقال:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ أي ويقول المشركون لمحمد والمؤمنين تهكماً واستهزاء: متى يقع ما تعدنا به من القيامة والحشر والعذاب والنار في الآخرة، والخسف والحاصب في الدنيا؟ إن كنتم يا محمد والمؤمنون به صادقين فيما تدعونه، فأخبرونا به، أو فبيِّنوه لنا.

فأجابهم الله بقوله:

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾ أي قل لهم أيها النبي: إنما علم ذلك عند الله، فلا يعلم وقت الساعة والعذاب على التعيين إلا الله عز وجل، لكنه أمرني أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة، فاحذروه، وإنما أنا منذر لكم، أنذركم وأخوّفكم عاقبة كفركم، فعليَّ البلاغ وقد أديته لكم.

ثم وصف تعالى حال أولئك الكفار عند رؤية العذاب، فقال:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي فلما رأوا العذاب الموعود به قريباً في الدنيا، وقامت القيامة وشاهدها الكفار، ورأوا أن الأمر كان قريباً؛ لأن كل ما هو آت قريب وإن طال زمنه، اسودّت وجوههم، وعلتها الكآبة، وغشيتها الذلة والمهانة، وقالت لهم ملائكة العذاب الخزنة على وجه التقريع والتوبيخ: هذا الذي كنتم في الدنيا تطلبونه وتستعجلون به استهزاء، في قولكم لرسول الله ﷺ: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤٦/٢٢].

ونظير الآية: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ، وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزمر: ٣٩/٤٧-٤٨].

فقه الحياة أو الأحكام:

يستدل بالآيات على ما يأتي:

١ً - لا ناصر ولا رازق للمؤمن والكافر في الحقيقة والواقع إلا الله عز وجل، ولكن الكافرين في غرور من الشياطين تغرّهم بأن لا عذاب ولا حساب، وفي تمادٍ واستمرار في طغيانهم وضلالهم ونفورهم عن الحق.

٢ً - مثل الكافر في ضلاله وحيرته كالرجل المنكّس الرأس الذي لا ينظر أمامه ولا يمينه ولا شماله، والذي لا يأمن من العثور والانكباب على وجهه، ومثل المؤمن في هدايته وتبصره كالرجل السوي الصحيح البصير الماشي في الطريق المستقيم المهتدي له. ولا شك بأن الثاني أهدى من الأول.

٣ً - هناك براهين ثلاثة على كمال قدرة الله تعالى: وهي تمكين الطيور من الطيران في الهواء، وخلق الإنسان وتزويده بطاقات السمع والبصر والفؤاد أو العقل، وخلق الناس موزعين مفرقين على ظهر الأرض ثم حشر الناس يوم القيامة، لمجازاة كلٍّ بعمله؛ لأن القادر على البدء أقدر على الإعادة.

٤ً - غالب الناس لا يشكرون نعم الله باستعمال حواسهم فيما خلقت لأجله، ولا يوحدون الله تعالى.

٥ً - طالب الكفار بعد تخويفهم بعذاب الله بتعيين الوقت الموعود به استهزاء وإنكاراً.

٦ً - الجواب عن تساؤلهم واستعجالهم: أن علم وقت قيام الساعة عند الله وحده، فلا يعلمه غيره. وما مهمة الرسول إلا البلاغ المبين والإنذار والتخويف البيِّن من العذاب.

دعاء كفار مكة على النبي ﷺ والمؤمنين بالهلاك

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

القراءات:

﴿أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ﴾:

وقرأ حمزة (أهلكنيْ الله).

﴿مَّعِىَ أَوْ﴾:

قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وحفص، وابن عامر (معيَ أو). وقرأ الباقون (معيْ أو).

﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾:

وقرأ الكسائي (فسيعلمون).

الإعراب:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إنما جاءت الفاء في قوله: ﴿فَمَن يُجِيرُ﴾ جواباً للجملة؛ لأن معنى ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ انتبهوا، وتقديره: انتبهوا فمن يجير، كما تقول: اجلس فزيد جالس، وليست جواباً للشرط. وجواب الشرط ما دلَّ عليه ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾. ويجوز أن تكون الفاء زائدة، ويكون الاستفهام قائماً مقام مفعول .﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ مثل: أرأيت زيداً ما صنع. وهكذا الكلام على الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم﴾. ومنهم من قال: الفاء جواب الشرط.

﴿إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا﴾ أي غائراً، وهو خبر ﴿أَصۡبَحَ﴾. وقوله: ﴿مَّعِينِۭ﴾ إما فعيل من (معن) الماء: إذا كثر، فتكون الميم أصلية، أو يكون مفعولاً من (العين) وأصله (معيون) فاستثقلت الضمة على الياء، فحذفت، فبقيت الياء ساكنة، والواو ساكنة، فحذفت الواو لسكونها وسكون ما قبلها، وكسر ما قبل الياء مناسبة لها؛ لأنه ليس في كلامهم ياء قبلها ضمة.

المفردات اللغوية:

﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ أخبروني. ﴿أَهۡلَكَنِيَ﴾ أماتني. ﴿وَمَن مَّعِيَ﴾ من المؤمنين. ﴿أَوۡ رَحِمَنَا﴾ بتأخير آجالنا. ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ أي لا ينجيهم أحد من العذاب، و﴿يُجِيرُ﴾ ينجي أو يمنع. ﴿غَوۡرٗا﴾ غائراً ذاهباً في الأرض لا تناله الدلاء ونحوها. ﴿مَّعِينِۭ﴾ جار كثير، سهل التناول. والمراد: لا يأتي به إلا الله تعالى، فكيف تنكرون أن يبعثكم؟!

ويستحب أن يقول القارئ عقب قوله ﴿مَّعِينِۭ﴾: الله رب العالمين، كما ورد في الحديث.

سبب النزول:

روي أن كفار مكة كانوا يدعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، فنزلت الآية.

المناسبة:

هذا هو الأمر الثاني الذي حكاه الله عن الكفار بعد تخويفهم بعذاب الله، فطالبوا أولاً بتعيين وقت الحشر والبعث والعذاب، ثم دعوا على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، كما قال تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠﴾ [الطور: ٣٠/٥٢] وقال: ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا﴾ [الفتح: ١٢/٤٨].

التفسير والبيان:

أجاب الحق سبحانه وتعالى عن دعاء الكافرين بهلاك النبي ﷺ والمؤمنين من وجهين:

الوجه الأول - ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله، الجاحدين لنعمه: أخبروني عن أي فائدة أو منفعة لكم أو راحة، فيما إذا أهلكني الله بالإماتة أو رحمني بتأخير الأجل، أنا ومن معي من المؤمنين، فلو فرض أنه وقع بنا ذلك، فلا ينجي الكافرين أحد من عذاب الله، سواء أهلك الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين معه، كما كان الكفار يتمنونه أو ينتظرونه، أو أمهلهم.

والمراد بالآية تنبيه الكفار وحثهم على طلب النجاة والإنقاذ بالتوبة والإنابة والرجوع إلى الله بالإيمان والإقرار بالتوحيد والنبوة والبعث، وإعلامهم بأنه لا ينفعهم وقوع ما يتمنون للنبي ﷺ والمؤمنين من العذاب والنكال، فسواء عذبهم الله أو رحمهم، فلا مناص لهم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بهم.

الوجه الثاني - ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾ أي قل لهم: إن الذي نجّانا نحن هو الإيمان بالله الرحمن الذي آمنا به وحده، لا نشرك به شيئاً، وعليه توكلنا في جميع أمورنا، لا على غيره. والتوكل: تفويض الأمور إليه عز وجل، كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾ [هود: ١١/ ١٢٣] . ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي ستدركون من هو في خطأ واضح منا ومنكم، ولمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة. وفيه تعريض بالكفرة أنهم متكلون على الرجال والأموال. وإذا كان هذا حالهم فكيف يقبل الله دعاءهم على المؤمنين؟

ثم ذكر الله تعالى الدليل على وجوب التوكل عليه لا على غيره، فقال مظهراً الرحمة في خلقه:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ أي قل لهم يا محمد: أخبروني إن صار ماؤكم الذي جعله الله لكم في العيون والآبار والأنهار لمنافعكم المتعددة غائراً ذاهباً في الأرض إلى أسفل بحيث لا ينال بالدلاء وغيرها، فمن الذي يأتيكم بماء كثير جار لا ينقطع؟ أي لا يأتيكم به أحد إلا الله تعالى، وذلك بالأمطار والثلوج والأنهار، فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه وأجراها في سائر أقطار الأرض لتحقيق حاجة الناس قلةً وكثرة.

والمقصود أن يجعلهم مقرين ببعض نعمه، ليريهم قبح ما هم فيه من الكفر. فإذا كان لا بدّ من أن يقولوا: هو الله، فيقال لهم حينئذ: فلِمَ تجعلون من لا يقدر على شيء أصلاً شريكاً له في المعبودية؟ والآية دليل على وجوب الاعتماد على الله تعالى في كل حاجة، مع أنه برهان آخر على كمال قدرته ووحدانيته، وإشارة إلى أن الفتوح العقلي لا يتيسر إلا بإعانة الله تعالى.

ونظير الآية: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/٦٨-٦٩].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - لا فائدة ولا جدوى من دعاء الكفار على النبي ﷺ والمؤمنين؛ لأنه لا يستجاب دعاؤهم، ولأنه إن مات المؤمنون أو رُحموا فأخر الله تعالى آجالهم، فمن يجير الكافرين من عذاب أليم؟ فلا حاجة بهم إلى توقع السوء وانتظاره بمن آمنوا، ولا إلى استعجال قيام الساعة، وما عليهم لتخليص نفوسهم من العذاب إلا إعلان الإيمان والإقرار بالتوحيد والنبوة والبعث.

٢ - يجب الاعتماد والتوكل على الله تعالى في كل حاجة، بعد اتخاذ

الأسباب والوسائل المقدورة للبشر، وشأن المؤمنين أن يتكلوا على الله سبحانه، أما الكفار فيتكلون على رجالهم وأموالهم.

٣ً - إن الله تعالى هو القادر على إمداد خلقه بالأرزاق والأمطار والمياه النابعة، ولا أحد غير الله عز وجل يقدر على ذلك، والله برحمته وفضله ومَنّه وكرمه يمدّ عباده بما يحتاجون، وإن كفروا وجحدوا به.

يحكى أن بعض المتجبرين على الله قرئت الآية: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ عنده، فقال: تأتينا به الفؤوس والمعاول، فذهب ماء عينه وهذا من الإعجاز.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القلم

مكية، وهي اثنتان وخمسون آية

تسميتها:

سميت سورة القلم لافتتاحها بما أقسم الله تعالى به وهو ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ وأقسم بالقلم تعظيماً له؛ لما له في خلقه وتسويته من الدلالة على الحكمة العظيمة، ولما فيه من المنافع والفوائد التي لا يحيط بها الوصف، كما قال صاحب الكشاف. والمراد بالقلم عند الأكثرين: الجنس، أقسم الله سبحانه بكل قلم يكتب به في السماء وفي الأرض.

وقيل: سورة ﴿نٓ﴾.

مناسبتها لما قبلها:

هناك وجهان لتعلق السورة بما قبلها:

أ - ذكر الله تعالى في آخر سورة ﴿تَبَٰرَكَ﴾ ﴿ٱلْمُلْكُ﴾، تهديد المشركين بتغوير الماء، وذكر في هذه السورة دليلاً على ذلك وهو إذهاب ثمر البستان في ليلة بطائف طاف عليه، وهو نار من السماء أحرقته، وهم نائمون، فلم يجدوا له أثراً.

٢ - ذكر الله تعالى في سورة الملك أدلة قدرته الباهرة وعلمه الواسع، وأثبت البعث، وهدد المشركين بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، وحثهم على الإيمان بالله وحده لا شريك له وبالبعث وبالرسول محمد ﷺ، ثم برّأ الله نبيّه ﷺ في مطلع هذه السورة من أباطيل المشركين ونسبتهم رسول الله ﷺ إلى السحر أو الشعر أو الجنون، وأثنى عليه بالخلق العظيم.

ما اشتملت عليه السورة:

عنيت هذه السورة المكية كسابقتها بأصول العقيدة الإسلامية الصحيحة وهي هنا إثبات النبوة والرسالة، والبعث والآخرة، وبيان مصير المسلمين والمجرمين في القيامة.

بدئت السورة بالقسم بالقلم تعظيماً له لنفي تهم المشركين ومزاعمهم الباطلة، ووصف النبي ﷺ بالخُلُق العظيم: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

وأردفت ذلك ببيان سوء أخلاق بعض الكفار وافترائهم على الرسول ﷺ وتهديدهم بما أعدّ الله لهم من العذاب الأليم: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾ إلى قوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾.

ثم ضربت المثل لكفار مكة بأصحاب الجنة (البستان) بإحراقه وإتلافه، بسبب كفرهم وجحودهم نعمة الله، وعزمهم على منع حقوق الفقراء والمساكين: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

وقارنت بين المؤمنين والمجرمين، ووبخت المشركين على أحكامهم الفاسدة، وفنّدت دعاويهم، وأقامت الحجج عليهم، وأبانت أحوالهم في الآخرة وموقفهم المخزي: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾.

ثم هددت المشركين المكذبين بالقرآن: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤﴾.

وختمت السورة بأمر النبي ﷺ بالصبر على أذى المشركين، وحذرته من التبرم والتضجر في تبليغ دعوته، حتى لا يكون مثل يونس عليه السلام: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ وأعلنت حمايته من أذاهم، ودحضت افتراءهم بأنه مجنون، وردت عليهم بأن القرآن عظة وعبرة للعالمين، فكيف يكون المنزل عليه مجنوناً: ﴿وَإِن يَكَادُ﴾ إلى آخر السورة.

فضلها:

هذه السورة من أوائل ما نزل من القرآن بمكة، فقد نزلت على ما روي عن ابن عباس: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ ثم هذه، ثم المزمل، ثم المدثر.

كمال الدين والخُلُق عند النبي ﷺ

﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾

الإعراب:

﴿نٓ﴾ في موضع نصب إما بتقدير: اقرأ نون، أو بتقدير: أقسم بنون، فحذف حرف القسم، فاتصل الفعل به، فنصبه، وعلى هذا يكون: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ جواب القسم. وقال أبو حيان: ﴿نٓ﴾ من حروف المعجم، نحو ﴿صٓ﴾ و﴿قٓ﴾، وهو غير معرب كبعض الحروف التي جاءت مع غيرها مهملة من العوامل، والحكم على موضعها بالإعراب تخرص.

﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾﴾ أي بأيكم الفتنة، كما يقال: ما له معقول، أي عقل، وقيل: الباء في ﴿بِأَييِّكُمُ﴾ زائدة، وتقديره: أيكم المفتون، أي المجنون.

البلاغة:

﴿بِمَجْنُونٍ﴾ ﴿مَمْنُونٍ﴾ جناس ناقص بينهما لاختلاف الحرف الثاني.

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾﴾ وعيد وتهديد، وحذف المفعول للتهويل.

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ ﴿مَمْنُونٍ﴾ ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ إلخ سجع مرصع.

﴿ضَلَّ﴾ و﴿بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿نٓ﴾ إما اسم للسورة، أو الغرض منه التحدي، مثل: ق، وص بأن يأتوا بمثل القرآن أو بعضه، ما دام مكوناً من حروف اللغة العربية التي بها ينطقون ويكتبون وينظمون الشعر، ويدبّجون الخطب البليغة ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ أكثر المفسرين على أن المراد به جنس القلم الذي يكتب به، أقسم الله سبحانه بكل قلم يكتب به في السماء وفي الأرض .﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ يكتبون، فإن التفاهم يحصل بالكتابة كما يحصل بالعبارة.

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ أي ما أنت يا محمد في حالة جنون بسبب إنعام ربك عليك بالنبوة وغيرها، وهذا ردّ لقول مشركي قريش: إنه مجنون ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ إذ تحتمل من قومك ما لا يحتمله أمثالك ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ المجنون، أو الفتون أي الجنون، أي أبك أم بهم؟ من فُتن: إذا أصيب بفتنة، أي محنة أو بلاء من ذهاب عقل أو مال أو موت ولد، فابتلي بالجنون .﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أعلم بمعنى عالم، فالله عالم بهم، وهم المجانين على الحقيقة .﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ الفائزين بكمال العقل.

سبب النزول:

نزول الآية (٢) ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾:

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: كانوا يقولون للنّبي ﷺ: إنه مجنون، ثم شيطان، فنزلت: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾.

نزول الآية (٤) ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤﴾:

سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه، فقالت: كان خلقه القرآن، ألست تقرأ القرآن: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١﴾ إلى عشر آيات [المؤمنون: ٢٣/١-١٠].

التفسير والبيان:

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾ ﴿نٓۚ﴾: من الحروف المقطعة مثل: ﴿صٓۚ﴾، ﴿قٓۚ﴾ التي يبدأ بها في بعض السور للتنبيه والتحدي. ومعنى الآية: أقسم بالقلم الذي يكتب به، وبما يكتبه الناس بالقلم من العلوم والمعارف، إنك يا محمد، لست بسبب النعمة أو بوساطة النعمة التي أنعم الله بها عليك وهي النبوة والإيمان والحصافة والخلق بالمجنون، كما يزعمون. وهذا ردّ على افتراء وزعم أهل مكة أنه مجنون، فهو استبعاد ما كان ينسبه إليه كفار مكة عداوةً وحسداً، وإنه ذو منزلة عالية ومكانة رفيعة من إنعام الله عليه بحصافة العقل وسائر الأخلاق الفاضلة المؤهلة للنبوة. فقوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾ هو المقسم عليه.

والقسم بالقلم وما يكتب به إشارة إلى عظم النعمة بهما، وأنهما من أجلّ النعم على الإنسان بعد النطق والبيان، فهما طريق التثقيف وانتشار العلوم والمعارف بين الجماعات والأمم والأفراد، ودليل على تقدم الأمم والشعوب ونبوغها.

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «أول ما خلق الله القلم، قال: اكتب، قال: وماذا أكتب؟ قال: اكتب القدر، فجرى بما يكون من ذلك اليوم إلى قيام الساعة، ثم خلق النون» أي الدواة.

وروى ابن عساكر عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول شيء خلقه الله القلم، ثم خلق النون وهو الدواة، ثم قال: اكتب ما هو كائن من عمل أو أثر أو رِزق أو أجل، فكتب ما هو كائن وما كان إلى يوم القيامة، ثم خَتَم على القلم، فلم يتكلم إلى يوم القيامة».

وروى الطبراني مرفوعاً عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما خلق الله القلم والحوت، قال للقلم: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: كل شيء كائن إلى يوم القيامة» ثم قرأ: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾.

ثم ذكر تتمة المقسم عليه، فقال تعالى:

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾﴾ أي وإن لك لثواباً عظيماً على ما تحملت من مهام النبوة، وقاسيت في إبلاغ الدعوة من أنواع الشدائد، وذلك الثواب غير مقطوع وإنما هو مستمر، أو لا يُمنّ به عليك من جهة الناس.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ أي وإنك لصاحب الخلق العظيم الذي أمرك الله به في القرآن، لما تحملت من قومك ما لم يتحمله أمثالك، ففيك الأدب الجمّ والحياء والجود والشجاعة والحلم والصفح وغير ذلك من محاسن الأخلاق. وقد امتثلتَ تأديب الله تعالى إياك في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩٩].

روى أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن عائشة: أنها سئلت عن خلق النبي ﷺ، فقالت: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن. أو كان خلقه القرآن، أما تقرأ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

يدل عليه قوله ﷺ: «إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق»[١] ومكارم الأخلاق: هي صلاح الدنيا والدين والمعاد. وروي عنه ﷺ أنه قال فيما رواه ابن السمعاني في أدب الإملاء عن ابن مسعود: «أدَّبني ربِّي فأحسن تأديبي؛ إذ قال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩٩] فلما قَبِلتُ ذلك منه، قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾» .

وثبت في الصحيحين عن أنس قال: « خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، ما قال لي: أُفّ قط، ولا قال لشيء فعلته: لِمَ فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟ ».

وأخرج أحمد عن عائشة قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً له قط، ولا ضرب امرأة، ولا ضرب بيده شيئاً قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خُيِّر بين شيئين قط، إلا كان أحبُّهما إليه أيسرَهما، حتى يكون إثماً، فإذا كان إثماً، كان أبعد الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حُرُمات الله، فيكون هو ينتقم لله عزّ وجلّ».

وبعد وصفه بأنه على خلق عظيم أوعد الله تعالى المشركين وهددهم بقوله:

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾﴾ أي ستعلم يا محمد، وسيعلم الكفار المشركون مخالفوك ومكذبوك في الدنيا، يوم القيامة، من المفتون المجنون الضالّ منكم ومنهم؟ وهذا ردّ على زعمهم أن محمداً ﷺ كان مفتوناً ضالاً. فالمراد بالمفتون: الذي فتن بالجنون. وهو أسلوب رفيع من الخطاب، فيه البعد عن الإثارة، ولفت النظر والعقل.

وهذا التهديد كقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ [القمر:

---

(١) هذه رواية، وفي رواية أحمد والبخاري في الأدب والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة: ((إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)).

٢٦/٥٤] . وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤/٣٤] .

ثم أكّد الله تعالى الوعيد والوعد بقوله:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٧﴾ أي إن الله ربّك يعلم من هو في الحقيقة الضالّ، أنت أم من اتّهمك بالضلال، ومن هو المهتدي من الفريقين منكم ومنا، هداية موصلة إلى السعادة العاجلة والآجلة؟ والمعنى: بل هم الضالون، لمخالفتهم لما فيه نفعهم في العاجل والآجل، واختيارهم ما فيه ضرهم، وسيجازي الله كل فريق بما يستحق من العقاب والثواب.

والمراد بالضلال: ضلال الدين والعقيدة، وبالاهتداء: الهداية إلى الدين. وفيه تعريض بأبي جهل بن هشام والوليد بن المغيرة وأمثالهما.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت الآيات على ما يأتي:

١ - القسم بالقلم وبالمكتوب إشارة إلى خطرهما، وعظيم أثرهما ونفعهما في ميادين العلم والمعرفة والتقدم والحضارة.

٢ - المقسم عليه ثلاثة أمور: نفي الجنون عن النبي ﷺ كما زعم الكفار، واستمرار الثواب الجزيل والعطاء العظيم له، وكونه صاحب الخلق العظيم، وهو خلق القرآن، وهو أصح الأقوال كما ثبت في صحيح مسلم وغيره عن عائشة.

ووجود هذه النعم الكثيرة على النبي ﷺ من الله عزّ وجلّ، وظهورها في حقه من الفصاحة وكمال العقل والاتصاف بكل مكرمة، ينافي حصول الجنون، وكلام الأعداء نوع من الهذيان.

والخُلُق: ملكة نفسانية يقدر معها على الإتيان بالفعل الجميل بسهولة، فإذا وصف بالعظم وهو كونه على النهج الأفضل، لم يكن خلق أحسن منه.

روى الترمذي عن أبي ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ: «اتّقِ الله حيثما كنتَ، وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها، وخالقِ الناسَ بخُلُق حَسَنٍ»، وروى أيضاً عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُق حسن، وإن الله تعالى ليُبغض الفاحش البذيء».

وروى أيضاً عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدخل الناس الجنة؟ فقال: «تقوى الله وحسن الخلُق»، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: «الفم والفرج».

٣ - هدد الله تعالى وأوعد الكفار بأنهم سيعلمون حين يتبين الحق والباطل في الدنيا والآخرة من هو الذي فتن بالجنون، ومن الذي يتبين رجحان عقله، وسلامة منهجه، وصحة دينه واعتقاده؟

ويؤكد ذلك أن الله تعالى هو العالم بمن حاد عن دينه، والذين هم على الهدى والصواب والحق، فيجازي كلّاً يوم القيامة بعمله.

الأخلاق الذميمة عند الكفار

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾

القراءات:

﴿أَن كَانَ﴾:

وقرأ ابن عامر، وحمزة (أأن كان).

الإعراب:

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ ﴿أَن كَانَ﴾: مفعول لأجله، تقديره: لأن كان ذا مال وبنين، واللام تتعلق بفعل محذوف، تقديره: أيكفر أن كان ذا مال. ولا يجوز أن تتعلق بـ ﴿تُتْلَىٰ﴾ لأن ﴿إِذَا﴾ مضافة إليه، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف ولا فيما قبل المضاف، كما لا يجوز أن تتعلق بـ ﴿قَالَ﴾ لأنه جواب الشرط، وجواب الشرط لا يعمل فيما قبله.

﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿أَسَٰطِيرُ﴾: خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذه أساطير الأولين.

البلاغة:

﴿حَلَّافٍ﴾، ﴿هَمَّازٍ﴾، ﴿مَّشَّآءٍ﴾، ﴿مَّنَّاعٍ﴾ صيغة مبالغة على وزن فعّال، وكذلك ﴿أَثِيمٍ﴾، ﴿زَنِيمٍ﴾ صيغة مبالغة على وزن فعيل.

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ استعارة، استعار خرطوم الفيل لأنف الإنسان، للاستهانة والاستخفاف.

المفردات اللغوية:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾ تهييج للتصميم على مخالفتهم. ﴿وَدُّوا۟﴾ تمنوا، و﴿لَوْ﴾: مصدرية، ﴿تُدْهِنُ﴾ تلين لهم بأن تدع نهيهم عن الشرك، أو توافقهم فيه أحياناً، من الإدْهان: وهو المداهنة واللين والمصانعة. ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ فيلينون لك بترك الطعن والموافقة، والفاء للعطف على ﴿تُدْهِنُ﴾ أي تمنوا الملاينة، ولكنهم أخروا ذلك حتى تلين، أو للسببية، أي ودّوا لو تُدْهن، فهم يدهنون حينئذٍ. وفي بعض المصاحف: (فيدهنوا) على أنه جواب التمني المفهوم من ﴿وَدُّوا۟﴾. وعلى قراءة (يدهنون) يقدر قبله بعد الفاء: هم.

﴿حَلَّافٍ﴾ كثير الحلف في الحق والباطل .﴿مَّهِينٍ﴾ حقير الرأي .﴿هَمَّازٍ﴾ عيَّاب طعّان مغتاب .﴿مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ يمشي بين الناس بالنميمة والسعاية للإفساد بينهم .﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ بخيل بالمال، ويمنع الناس من الإيمان والإنفاق والعمل الصالح .﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالم، يتجاوز الحق إلى الباطل .﴿أَثِيمٍ﴾ آثم، أو كثير الإثم والذنب .﴿عُتُلٍّ﴾ غليظ جاف .﴿زَنِيمٍ﴾ دعيّ في قريش، أي يلحق بهم في النسب وليس منهم، وهو الوليد بن المغيرة، ادّعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة، قال ابن عباس: لا نعلم أن الله وصف أحداً بما وصفه به من العيوب، فألحق به عاراً لا يفارقه أبداً. وقيل: هو الذي يعرف بالشر واللؤم.

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ أي لأن كان، والمعنى: أيكفر لأن كان ذا مال .﴿ءَايَٰتُنَا﴾ القرآن .﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي هي خرافات وأباطيل الأقدمين .﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ سنجعل على أنفه سمة وعلامة يتميز بها ما عاش، فخطم أنفه بالسيف يوم بدر، أي أصيب أنف الوليد بجراحة يوم بدر، فبقي أثرها. والوسم: وضع علامة على الشيء لتمييزه بها من غيره.

سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم عن السُّدِّي في قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ قال: نزلت في الأخنس بن شَريق، وأخرج ابن المنذر عن الكلبي مثله وهو قول الشعبي وابن إسحاق. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: نزلت في الأسود بن عبد يغوث، أو عبد الرحمن بن الأسود.

والمشهور أن الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة، أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: نزلت على النّبي ﷺ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ فلم نعرفه، حتى نزل عليه بعد ذلك: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ فعرفناه، له زَنَمة كزَنَمة الشاة[١] .

(١) أي الجزء المسترخي من أذنها حين تشق، ويبقى كالجزء المعلّق.

المناسبة:

بعد بيان ما عليه الرسول ﷺ من كمال الدين والخلق، بيَّن ما عليه الكفار من الأخلاق الذميمة، والدعوة إلى التشدد معهم ومخالفتهم، مع قلة عدد المؤمنين، وكثرة الكفار.

التفسير والبيان:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾ أي داوم على مخالفة الكفار المكذبين لرسالتك، وتشدد في ذلك. وهذا نهي صريح من الله سبحانه عن ملاينة المشركين رؤساء مكة؛ لأنهم كانوا يدعونه إلى دين آبائه، فنهاه الله عن طاعتهم أو مجاملتهم في شيء من العقيدة بقصد ترغيبهم في الإسلام. والمراد من النهي: التحميس والتهييج والتشدد في مخالفتهم. قال المفسرون: إن المشركين أرادوا من النبي ﷺ أن يعبد الله مدة وآلهتهم مدة، وهم يعبدون الله مدة، وآلهتهم مدة، فأنزل الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ أي تمنوا لو تلين لهم، فيلينون لك، بأن تركن إلى آلهتهم، وتقربها، وتترك ما أنت عليه من الحق، فيعترفون بعبادة إلهك.

ونظير الآية: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٤-٧٥].

ثم خصص تعالى من جميع المكذبين الكفار من اتصف بالأوصاف المذمومة العشرة التالية غير الكفر، فقال:

١ - ٢: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ أي ولا تطع كل شخص كثير الحلف بالباطل حقير الرأي والفكر. ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ

عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٤] . وفيه إشارة إلى أن عزّة النفس منوطة بتصحيح نسبة العبودية، ومهانة النفس مربوطة بالغفلة عن سرّ الربوبية، وأيضاً الحلاف يكذب كثيراً، والكذاب حقير عند الناس.

٣ - ٤ : ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾ أي عيَّاب طعَّان يذكر الناس بالشرّ في وجوههم، يمشي بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم. أما اللمَّاز: فهو الذي يذكر الناس في مغيبهم. روى الجماعة إلا ابن ماجه عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتَّات» أي نمام.

٥ - ٦ : ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢﴾ أي بخيل، يمنع الخير عن الناس من الإيمان والإنفاق والعمل الصالح، ظالم متجاوز الحق وحدود الله من أمر ونهي، كثير الآثام والذنوب. كان للوليد بن المغيرة عشرة بنين، وكان يقول لهم ولمن قاربهم: لئن تبع دين محمد منكم أحد، لا أنفعه بشيء أبداً. فمنعهم الإسلام، وهو الخير الذي منعهم.

٧ - ٨ : ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾ أي هو بعد ما ذكر من معايبه غليظ جاف فظّ، شديد الخَلْق، فاحش الخُلق، دعيٌّ في قريش ملصق بالقوم وليس هو منهم، مشهور بالشر والسوء.

أخرج الإمام أحمد وأصحاب الكتب الستة إلا أبا داود عن حارثة بن وهب قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعِّف[١]، لو أقسم على الله لأبرّه، ألا أنبئكم بأهل النار؟ كل عُتُلّ جوَّاظ[٢] مستكبر» .

---

(١) روي بكسر العين وفتحها، والمشهور الفتح، ومعناه: يستضعفه الناس ويحتقرونه، وبالكسر: المتواضع المتذلل.

(٢) الجوّاظ: الجمَّاع المنَّاع، الذي يجمع المال ويمنعه.

ثم ذكر الله تعالى بعض دوافع ومظاهر كبره وكفره، فقال:

٩ - ١٠ : ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ أي أيكفر بالله تعالى ورسوله ﷺ لأن الله أنعم عليه بالأموال والبنين، حيث جعل جزاء النعم الكفر والجحود؟ فذلك لا ينفعه عند ربِّه. وهذا تقريع وتوبيخ على مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين بالكفر بآيات الله تعالى والإعراض عنها. وقال الزمخشري: متعلق بقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ يعني: ولا تطعه مع هذه المثالب لأن كان ذا مال، أي ليساره وحظه من الدنيا.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي وإنه إذا تليت عليه آيات القرآن، زعم أنها كذب مأخوذ من قصص وأباطيل القدماء، وليس هو من عند الله تعالى.

وهذا كقوله تعالى حكاية عن هذا الطاغية الجبار: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر: ٧٤/١١-٢٥] .

ثم ذكر الله تعالى عقابه في الدنيا أو الآخرة، فقال:

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ أي سنجعل له وسماً بالسواد على أنفه، فإنه قاتل يوم بدر، فخُطِمَ بالسيف في القتال، قال المبرد: الخرطوم ههنا الأنف. وعبر به إذلالاً له واستخفافاً به وإهانةً له؛ لأن السمة على الوجه أو الأنف شين. وقال جماعة: ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ سمة أهل النار، يعني نسود وجهه يوم القيامة، وعبر عن الوجه بالخرطوم، فيسود وجهه بالنار قبل دخولها، فيكون له عليه أو على أنفه علامة.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - نهى الله تعالى نبيّه - والنهي يقتضي التحريم - ومثله المؤمنون، عن ممايلة المشركين المكذبين لرسالته، وكانوا يدعونه إلى أن يكفّ عنهم ليكفُّوا عنه، فبيَّن الله تعالى أن ممايلتهم كفر.

٢ً - تمنى الكفار ملاينة النبي ﷺ ومصانعتهم ومجاملتهم في أديانهم، فيلينون له في دينه، فإنهم طلبوا أن يعبد آلهتهم مدة، ويعبدوا إلهه مدة، ولكن الله نهاه عن ذلك.

٣ً - خصص الله من بين المكذبين النهي عمن اتصف بصفات عشر: هي الحلاف: الكثير الحلف، المهين: الحقير الرأي والتمييز والتفكير، الهمّاز: الذي يذكر عيوب الناس في وجوههم، وهو غير اللماز: الذي يذمهم في مغيبهم، النمام: الذي يمشي بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم، المناع للخير: للمال أن ينفق في وجوهه، ويمنع الناس عن الإسلام، المعتدي: أي الظالم، المتجاوز الحد، صاحب الباطل، الأثيم: الكثير الإثم والذنوب، العتلّ: الغليظ الجافي الشديد في كفره، الشديد الخصومة بالباطل، الزنيم: الملصق بالقوم الدَّعيُّ، وكان الوليد بن المغيرة المخزومي دَعيّاً في قريش، ليس من أصلهم، ادّعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة من مولده، كما تقدم، [الطاغية المفتري].

٤ً - وبَّخ الله الوليد على مقابلته الإحسان والنعمة بالإساءة، فقد أنعم الله عليه بالمال والبنين، فكفر واستكبر. ويكون تقدير الآية: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾: ألأن كان ذا مال وبنين يكفر ويستكبر؟ ويجوز أن يكون التقدير: ألأن كان ذا مال وبنين تطيعه؟ ويجوز أن يكون التقدير: ألأن كان ذا مال وبنين يقول: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾.

ﮦ - هدّد الله الوليد بالوسم على أنفه في الدنيا، وبالعلامة الظاهرة على أنفه في الآخرة. قال ابن عباس: ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾: سنخطمه بالسيف، وقد خُطِم الذي نزلت فيه يوم بدر بالسيف، فلم يزل مخطوماً إلى أن مات. وقال قتادة: سنسمه يوم القيامة على أنفه سِمَة يُعرَفُ بها، وقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ٣/١٠٦] فهذه علامة ظاهرة. وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ٢٠/١٠٢]، وهذه علامة أخرى ظاهرة. فأفادت هذه الآية: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ علامة ثالثة وهي الوسم على الأنف بالنار. والراجح لدي أن هذا الوسم كان في الدارين.

وهذا كله نزل في الوليد بن المغيرة. ولا نعلم أن الله تعالى بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغه منه؛ فألحق به عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة؛ كالوسم على الخرطوم(١).

قال ابن العربي بمناسبة قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾: كان الوسم في الوجه لذي المعصية قديماً عند الناس، حتى إنه رُوي أن اليهود لما أهملوا رجم الزاني، اعتاضوا عنه بالضرب وتحميم الوجه(٢)، وهذا وضع باطل.

ومن الوسم الصحيح في الوجه: ما رأى العلماء من تسويد وَجْه شاهد الزور علامةً على قبح المعصية، وتشديداً لمن يتعاطاها لغيره، مِمّن يرجى تجنبه بما يرجى من عقوبة شاهد الزور وشهرته. وقد كان عزيزاً بقول الحق، وصار مهيناً بالمعصية، وأعظمُ الإهانة: إهانة الوجه، وكذلك كانت الاستهانة به في طاعة الله سبباً لحياة الأبد، والتحريم له على النار؛ فإن الله قد حرَّم على النّار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود حسبما ثبت في الصحيح(٣).

(١) تفسير القرطبي: ١٨/ ٢٣٧

(٢) تحميم الوجه: تسخيمه بالفحم.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي: ٤/ ١٨٤٥

قصة أصحاب الجنة

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

القراءات:

﴿أَنِ ٱغْدُوا۟﴾:

قرأ أبو عمرو، وعاصم، وحمزة (أنِ اغدُوا)، وقرأ الباقون (أنُ اغْدوا).

﴿أَن يُبْدِلَنَا﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو (أن يُبَدِّلَنا).

الإعراب:

﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ كالشيء المصروم، وهو فعيل بمعنى مفعول، مثل عين كحيل، وكفّ خضيب، ولحية دهين، أي عين مكحولة، وكفّ مخضوبة، ولحية مدهونة.

﴿أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ تفسير لـ ﴿فَتَنَادَوْا۟﴾ أو ﴿أَنِ﴾ مصدرية، أي بأن. وكذا قوله: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا﴾.

﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥)﴾ ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ : جار ومجرور، في موضع نصب على الحال، وتقديره: وغدوا حاردين قادرين.

البلاغة:

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩)﴾ بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿بَلَوْنَاهُمْ﴾ امتحنا أهل مكة بالقحط والجوع وغيرهما من ألوان البلاء والآفات، أي عاملناهم معاملة المختبِر. ﴿الْجَنَّةِ﴾ البستان، كان دون صنعاء بفرسخين، وكان لرجل صالح، ينادي الفقراء وقت الصرام ويترك لهم ما أخطأه الْمِنْجَل وألقته الريح، أو بعد عن البساط الذي يبسط تحت النخلة، فيجتمع لهم شيء كثير، فلما مات قال بَنوه: إن فعلنا ما كان يفعل أبونا، ضاق علينا، فحلفوا ليصرمنها وقتَ الصباح خِفْية عن المساكين.

﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ يقطعون ثمرتها. ﴿مُصْبِحِينَ﴾ وقت الصباح كيلا يشعر بهم المساكين، فلا يعطون منها ما كان أبوهم يتصدق به عليهم منها. ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨)﴾ لا يقولون في يمينهم إن شاء الله، وإنما سمّاه استثناء؛ لأن معنى: لا أخرج إن شاء الله، ولا أخرج إلا أن يشاء الله، واحد، والجملة مستأنفة، أي وشأنهم ذلك. ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾ على الجنة. ﴿طَائِفٌ﴾ أي أصابها بلاء طارق أو نازل من عذاب ربِّك، وهو نار أحرقتها. ﴿كَالصَّرِيمِ﴾ كالبستان الذي صرم ثماره بحيث لم يبق فيه شيء، أو كالليل في السواد بعد أن احترقت، أي سوداء.

﴿فَتَنَادَوْا﴾ نادى بعضهم بعضاً. ﴿أَنِ اغْدُوا﴾ اخرجوا في الغَدْوَة مبكّرين. ﴿عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ بستانكم أو غلتكم. ﴿إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ مريدين قطع ثماره، وجواب الشرط دلّ عليه ما قبله. ﴿يَتَخَافَتُونَ﴾ يتسارّون فيما بينهم ويتناجون حتى لا يسمعهم أحد. ﴿وَغَدَوْا﴾ ساروا غدوة إلى حرثهم. ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي على منع للفقراء، وقيل: الحرد: القصد والسرعة. ﴿قَادِرِينَ﴾ على الصَّرْم في ظنهم.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ رأوا الجنة سوداء محترقة. ﴿لَضَآلُّونَ﴾ تائهون عنها، أي ليست هذه. ﴿مَحْرُومُونَ﴾ ممنوعون ثمرتها بمنعنا الفقراء منها. ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ خيرهم وأرجحهم رأياً. ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ هلا تذكرون الله وتستغفرونه من فعلكم وتتوبون إليه من خبث نيتكم. ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ بمنع الفقراء حقهم.

﴿يَتَلَٰوَمُونَ﴾ يلوم بعضهم بعضاً على قصدهم وإصرارهم على منع المساكين. ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾ يا هلاكنا، و(يا): للتنبيه. ﴿طَٰغِينَ﴾ متجاوزين حدود الله. ﴿أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة، وقد روي أنهم بدّلوا خيراً منها. ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ طالبون منه العفو والخير. ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ أي مثل ذلك العذاب لهؤلاء أصحاب الجنة عذاب الدنيا. ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ لمن خالف أمرنا من أهل مكة وغيرهم. ﴿أَكْبَرُ﴾ أعظم منه. ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي لو علموا عذابها لاحترزوا عما يؤدّيهم إلى العذاب.

سبب النزول:

نزول الآية (١٧):

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج أن أبا جهل قال يوم بدر: خذوهم أخذاً، فاربطوهم في الحبال، ولا تقتلوا منهم أحداً، فنزلت: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي في قدرة أهل مكة على المؤمنين، كما اقتدر أصحاب الجنة على الجنة.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى عن الوليد بن المغيرة أو غيره أنه لأجل كونه ذا مال وبنين، جحد وكفر وعصى وتمرد، بطريق الاستفهام على سبيل الإنكار، بيَّن في هذه الآية أنه تعالى إنما أعطاه المال والبنين على سبيل الابتلاء والامتحان، ليعرف هل يصرفه في طاعة الله ويشكر نعم الله، فيزيده من النعمة، أم يكفر

بها فيقطعها عنه، ويصب عليه أنواع البلاء والآفات؟ ومثله في هذا ومثل أهل مكة كمثل أصحاب الجنة ذات الثمار، كُلِّفوا أن يشكروا النعم ويعطوا الفقراء حقوقهم، فلما جحدوا النعمة وحرموا المساكين، حرمهم الله الثمار كلها.

روي أن واحداً من ثقيف، وكان مسلماً، كان يملك ضيعة فيها نخل وزرع بقرب صنعاء، وكان يجعل من ناتجها عند الحصاد نصيباً وافراً للفقراء، فلما مات، ورثها منه بنوه، ثم قالوا: عيالنا كثير، والمال قليل، ولا يمكننا أن نعطي المساكين مثلما كان يفعل أبونا، فأحرق الله جنتهم.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي إنا اختبرنا كفار مكة وامتحناهم بالجوع والقحط بدعوة رسول الله ﷺ، كما اختبرنا أصحاب البستان المعروف خبرهم عند قريش، حين حلفوا أنهم سيقطعون ثمر الجنة (البستان) عند الصباح، حتى لا يعلم بهم الفقراء، فيأخذون ما كانوا يأخذونه، طمعاً في اقتناء كامل الغلة والزرع، ولم يقولوا: إن شاء الله، فالأكثرون أنهم إنما لم يستثنوا فيما حلفوا به بمشيئة الله تعالى؛ لأنهم كانوا كالواثقين بأنهم يتمكنون من ذلك لا محالة. وقال آخرون: بل المراد أنهم يصرمون كل الزرع، ولا يستثنون للمساكين نصيبهم أو القدر الذي كان أبوهم يدفعه إليهم.

والمقصود اختبار أهل مكة، لمعرفة حالهم، أيشكرون نعم الله عليهم، فيؤمنون بالرسول ﷺ الذي أرسله الله إليهم مبشراً ونذيراً، أم يكذبونه ويكفرون برسالته، ويجحدون حق الله عليهم؟ فيجازوا بما يستحقونه، كما جوزي أصحاب الجنة، وهو ما أخبر عنه في قوله تعالى:

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ أي طاف

على تلك الجنة من عند الله نار أحرقتها، أي أصابتها آفة سماوية، حتى صارت سوداء كالليل الأسود المظلم. ووجه التشبيه أنها يبست وذهبت خضرتها، أو لم يبق منها شيء.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والمعاصي، إن العبد ليذنب الذنب، فيحرم به رزقاً قد كان هيئ له، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ (٢٠)﴾ قد حُرِموا خير جنتهم بذنبهم» .

ولكنهم لم يدروا بما حدث، وانطلقوا مصمّمين على ما أرادوا، فقال تعالى:

﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ (٢٢)﴾ أي فنادى بعضهم بعضاً وقت الصباح، ليذهبوا إلى الجذاذ أي القطع: أن اخرجوا مبكرين في الصباح إلى الثمار والزرع، إن كنتم قاصدين للصرام أي القطع. قال مجاهد: كان حرثهم عنباً.

﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤)﴾ أي فبادروا مسرعين إلى حرثهم، وهم يتسارّون ويتناجون ويقول بعضهم لبعض: لا تمكّنوا اليوم فقيراً يدخل عليكم، فيطلب منكم أن تعطوه منها ما كان يعطيه أبوكم.

﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ (٢٥)﴾ أي وذهبوا في الغداة مبكرين، زاعمين أنهم قادرون على الصرام ومنع المساكين وحرمانهم. فقوله: ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ على قصد المنع، وقيل: الحرد: القصد والجِدّ والسرعة. وقوله: ﴿قَٰدِرِينَ﴾ من باب عكس الكلام للتهكم. وفيه أنهم طلبوا حرمان الفقراء، فعورضوا بنقيض مقصودهم.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي فلما وصلوا إليها وشاهدوها وهي على الحالة المؤلمة من الاحتراق والسواد، قال بعضهم لبعضٍ: قد أخطأنا وتهنا طريق جنتنا، وليست هذه.

ثم لما تأملوا وعلموا أنها جنتهم، وأن الله سبحانه قد عاقبهم بإذهاب ما فيها من الثمر والزرع قالوا:

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي بل في الحقيقة والواقع حرمنا الله ثمر جنتنا، بسبب عزمنا على منع المساكين وحرمانهم من خيرها، فلا حظَّ ولا نصيب، ونحن نادمون على ما فعلنا، كما أخبر تعالى فيما يأتي:

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي قال أمثلهم وأعقلهم وأعدلهم وخيرهم رأياً وتديناً: هلا تسبِّحون الله وتذكرونه وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم، وتستغفرون الله من فعلكم وتتوبون إليه من هذه النية التي عزمتم عليها.

ولما صدموا بالحقيقة المرة ذكروا الله واعترفوا بذنبهم قائلين:

﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي قالوا: تنزيهاً لله عن أن يكون ظالماً فيما صنع بجنتنا، فإنا كنا ظالمين أنفسنا في حرماننا المساكين حقوقهم. ولكنهم أتوا بالطاعة حيث لا تنفع، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع الندم.

ثم لام بعضهم بعضاً كما قال تعالى:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي ثم أخذ بعضهم يلوم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاذ أي القطاف، ولم يجدوا سبيلاً إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب، والدعاء على أنفسهم بالهلاك، فقال تعالى:

﴿قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي قالوا: يا هلاكنا أقبل، فإنا كنا معتدين متجاوزين الحد، حتى أصابنا ما أصابنا.

ثم دعوا ربهم أن يعوضهم عما حلَّ بهم، فقالوا:

﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي لعلَّ الله ربّنا أن يعطينا بدلاً خيراً من جنتنا، فإنا راجون العفو والخير منه. قال مجاهد: إنهم تابوا فأبدلوا خيراً منها.

ثم ذكر الله تعالى العبرة من القصة، فقال:

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي مثل ذلك العذاب الذي بلونا به أهل الجنة من الحرمان، وأهل مكة من القحط والقتل عذاب الدنيا، وهو عذاب كل من خالف أمر الله، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه، ومنع حق المسكين والفقير، وإن عذاب الآخرة أشد وأعظم وأشق من عذاب الدنيا، فلو كان المشركون يعلمون ذلك، لعادوا إلى رشدهم، وبادروا إلى الإيمان بدعوة النبي المصطفى ﷺ، وأقلعوا عن الغي والضلال، ولكنهم لا يعلمون. وهذا دليل على غفلتهم وجهلهم وبعدهم عن الحق والصواب.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت قصة أصحاب الجنة على ما يأتي:

١ً - الدنيا دار ابتلاء واختبار، فقد ابتلى الله تعالى أصحاب الجنة (البستان) وابتلى أهل مكة، بأن أعطاهم ربّهم أموالاً ليشكروا، لا ليَبْطَروا، فلما بَطِروا، وعادَى المشركون محمداً ﷺ، ابتلاهم بالجوع والقحط، كما ابتلى (اختبر) أهل الجنة المعروف خبرها عندهم؛ لأنهم من أهل اليمن القريبة منهم، على بعد ستة أميال من صنعاء.

٢ً - قال بعض العلماء: على من حصد زرعاً أو جَذَّ ثمرة أن يواسي منها من حضره، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٤١] وأنه غير الزكاة، لذا نهي عن الحصاد في الليل، لا خشية الحيّات وهوامّ الأرض؛ لأن عقوبة أصحاب الجنة كانت بسبب ما أرادوه من منع المساكين، كما ذكر الله تعالى.

٣ً - دلّ قوله تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ على أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان؛ لأنهم عزموا على أن يفعلوا، فعوقبوا قبل فعلهم. ونظير هذه الآية: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٢/ ٢٥] . وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار، قيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» .

٤ً - إن الإنسان ضعيف القوة والتدبير والرأي، فلقد أحكم أصحاب الجنة الخطّة، وصمموا على صرام الزرع والثمر أو العنب في الصباح الباكر قبل أن ينتشر المساكين في البساتين، وذهبوا جادين مسرعين، متسارّين، أي يخفون كلامهم ويسرّونه لئلا يعلم بهم أحد، قائلين: لا يدخل علينا مسكين، أي لا تمكنوه من الدخول، وعزموا على حرمان المساكين، مع كونهم قادرين على نفعهم، وهم يظنون أنهم تمكنوا من مرادهم، ففوجئوا بتدمير الله وإحراقه الحرث وإتلافه الغلة والثمر.

٥ً - ولما رأوا الجنة محترقة لا شيء فيها، قد صارت كالليل الأسود وأضحت كالرماد، شكوا فيها، وقالوا: ضللنا الطريق إلى جنتنا، ثم لما تيقنوا منها قالوا: بل نحن محرومون، أي حُرمنا جنتنا بما صنعنا. وهذا دليل على أن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل.

٦ً - كان أوسطهم، أي أمثلهم وأعدلهم وأعقلهم قد أمرهم بالاستثناء

وهو سبحان الله أي تنزيهاً لله عزّ وجلّ، فقال لهم: هلاّ تسبِّحون الله؛ أي تقولون: سبحان الله، وتشكرونه على ما أعطاكم، وتعلقون الأمر بمشيئة الله، وتتوبون إليه من خُبث نيَّتكم، فإن الله ينتقم من المجرمين، ولكنهم لم يطيعوه.

ثم تذكروا قوله، واعترفوا بالمعصية، ونزّهوا الله عن أن يكون ظالماً فيما فعل، وإنما هم الظالمون أنفسهم في منعهم المساكين.

٧ً - لام بعضهم بعضاً في تدبير الخطة، كشأن كل جماعة تخيب في أمرها، فقال أحدهم لغيره: أنت أشرت علينا بهذا الرأي، وقال الآخر: أنت خوّفتنا بالفقر، وقال الثالث: أنت الذي رغبتني في جمع المال.

٨ً - أكد أصحاب الجنة اعترافهم بالمعصية، فقالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ أي عاصين بمنع حق الفقراء وترك الاستثناء، وكان استثناؤهم تسبيحاً كما قال مجاهد وغيره، وهو في موضع: (إن شاء الله) لأن المعنى تنزيه الله عزّ وجلّ أن يكون شيء إلا بمشيئته. والخلاصة في رأي الأكثرين أن معنى قوله: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ هلا تستثنون، فتقولون: إن شاء الله.

٩ً - أعلن أصحاب الجنة توبتهم وأخلصوا نيّتهم في رأي الأكثرين، حين قالوا: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾ فإنهم تعاقدوا وتعاهدوا وقالوا: إن أبدلنا الله خيراً منها لنصنعن كما صنعت آباؤنا، فدعوا الله وتضرعوا، فأبدلهم الله، من ليلتهم تلك، ما هو خير منها. والإبدال: رفع الشيء ووضع آخر مكانه. قال مجاهد: إن هذه كانت توبة منهم، فأبدلوا خيراً منها.

١٠ً - هدد الله المكلفين من أهل مكة وغيرهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ أي عذاب الدنيا وهلاك الأموال، والمعنى: مثلما فعلنا بهؤلاء أصحاب الجنة، نفعل بمن تعدّى حدودنا في الدنيا. ثم خوَّف تعالى الكفار بعذاب أشد وهو عذاب الآخرة في قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

وقال ابن عباس: هذا مَثَل لأهل مكة حين خرجوا إلى بدر، وحلفوا ليقتلن محمداً ﷺ وأصحابه، وليرجعن إلى مكة حتى يطوفوا بالبيت ويشربوا الخمر، وتضرب القَيْنات على رؤوسهم، فأخلف الله ظنهم، وأُسِروا وقُتلوا وانهزموا كأهل هذه الجنة، لما خرجوا عازمين على الصِّرام، فخابوا.

١١ - الأظهر كما قال القرطبي: أن الحق الذي منعه أهل الجنة المساكين كان واجباً عليهم. وقيل: يحتمل أنه كان تطوعاً.

جزاء المتقين وإنكار التسوية بين المطيع والعاصي

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

الإعراب:

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ﴿مَا﴾: في موضع رفع مبتدأ، و﴿لَكُمْ﴾: خبره، و﴿كَيْفَ﴾: في موضع نصب على الحال بـ ﴿تَحْكُمُونَ﴾.

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾: إنما كسرت ﴿إِنَّ﴾ لمكان اللام في ﴿لَمَا﴾ ولولا دخول اللام في ﴿لَمَا﴾ لكانت مفتوحة؛ لأنها مفعول ﴿تَدْرُسُونَ﴾ وهو كقولهم: علمت إنّ في الدار لزيداً.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ﴾ مبتدأ وخبر، و﴿بَٰلِغَةٌ﴾: صفة لـ ﴿أَيْمَٰنٌ﴾. وقرئ: بالغةً بالنصب على الحال من الضمير في ﴿لَكُمْ﴾.

﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحَكَّمُونَ﴾ كسرت ﴿إِنَّ﴾ إما لمكان اللام كما كسرت فيما قبله، أو لأن ما قبله قسم، وهي تكسر في جواب القسم.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ ﴿يَوْمَ﴾: ظرف منصوب، وعامله إما ﴿فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ أو فعل مقدر، تقديره: واذكر يوم.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ﴿خَٰشِعَةً﴾ حال من ضمير ﴿يُدْعَوْنَ﴾ أو من ضمير ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ و﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾: مرفوع بفعله. و﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾: جملة فعلية إما منصوبة على الحال، وإما مستأنفة لا موضع لها من الإعراب.

البلاغة:

﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بينهما طباق.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾؟ والجمل التي بعدها: تقريع وتوبيخ.

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ تشبيه مقلوب ليكون أبلغ وأروع؛ لأن الأصل: أفنجعل المجرمين كالمسلمين في الأجر والثواب؟

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ كناية عن شدة الهول يوم القيامة.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾ أي في الآخرة .﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص .﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ أي في الدرجة والمنزلة في الجنان، وهو إنكار التسوية في نتيجة الإسلام والإجرام، أي بين أهل الطاعة وأهل المعصية، وهو إنكار لقول الكفرة، فإنهم كانوا

يقولون: إن صحَّ أنّا نبعث كما يزعم محمد ومن معه، لم يفضلونا، بل نكون أحسن حالاً منهم، كما نحن عليه في الدنيا.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ هذا الحكم الفاسد؟ وهو التفات فيه تعجب من حكمهم، واستبعاد له، وإشعار بأنه صادر من اختلال فكر واعوجاج رأي .﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ﴾ منزل من السماء .﴿تَدْرُسُونَ﴾ تقرؤون، و﴿أَمْ﴾ أي بل ألكم .﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أي لما تختارونه وتشتهونه .﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا﴾ عهود مؤكدة بالأيمان .﴿بَٰلِغَةٌ﴾ متناهية في التوكيد موثّقة .﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي ثابتة لكم علينا إلى هذا اليوم .﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أي تحكمون به لأنفسكم، وهو جواب القسم؛ لأن معنى ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا﴾: أم أقسمنا لكم.

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ أي سلهم أيهم كفيل لهم بذلك الحكم الذي يحكمون به لأنفسهم من أنهم يعطون في الآخرة أفضل من المؤمنين. ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾ أي بل ألهم أي عندهم شركاء موافقون لهم في هذا القول يكفلون لهم به. ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ أي فإن كان لهم شركاء كفلاء فليأتوا بشركائهم الكافلين لهم به .﴿إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواهم.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ أي اذكر لهم حين شدة الأمر يوم القيامة للحساب والجزاء، أي يومَ يشتد الأمر، يقال: كشفت الحرب عن ساق: إذا اشتد الأمر فيها .﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ يطلب منهم السجود توبيخاً على تركهم السجود .﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لذهاب وقته أو زوال القدرة عليه .﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي ذليلة لا يرفعون أبصارهم .﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ تغشاهم وتلحقهم .﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ﴾ في الدنيا .﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ أصحاء متمكنون لا شيء يمنعهم.

المناسبة:

بعد تخويف الكفار بعذاب الدنيا في قوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟

يَعۡلَمُونَ﴾ ذكر الله تعالى أحوال السعداء، وأبان أن للمتقين جنات النعيم، ثم ردَّ على الكفار الذين يزعمون المساواة في الآخرة بينهم وبين المسلمين من غير كتاب إلهي، ولا عهد ممنوح مؤكد بالأيمان، ولا كفلاء في يوم شديد الأهوال، عسير الحساب على الصلاة وغيرها.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾ إن لكل من اتقى الله وأطاعه، في الدار الآخرة جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص الذي لا يزول ولا ينقضي، ولا يكدره شيء.

قال مقاتل: لما نزلت هذه الآية، قال كفار مكة للمسلمين: إن الله تعالى فضلنا عليكم في الدنيا، فلا بدّ أن يفضلنا عليكم في الآخرة، فإن لم يحصل التفضيل، فلا أقل من المساواة.

ثم أجاب الله تعالى عن هذا الكلام بقوله:

﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾؟ أي كيف نساوي بين الفريقين في الجزاء، فنجعل من يلتزم الطاعة كمن هو فاجر مجرم عاص لا يبالي بمعصيته؟ كلا فلا تسوية بين المطيع والعاصي.

ثم نفى الله تعالى وجود كل الأدلة العقلية أو النقلية التي تصلح لإثبات التسوية أو تحقيق الدعوى، فقال:

١ - ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾؟ أي كيف تظنون ذلك، وتحكمون هذا الحكم الأعوج، كأن أمر الجزاء مفوّض إليكم؟ إن أبسط مبادئ العقل وأصول الرأي يمنع مثل هذا الظن أو الحكم. وهذا نفي الدليل العقلي.

٢ - ﴿أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أي بل ألكم

أو بأيديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه، يتضمن حكماً مؤكداً كما تدعونه، وتقرؤون فيه، فتجدون المطيع كالعاصي؟! وهل في ذلك الكتاب أن لكم في الآخرة ما تختارون وتشتهون؟ وهذا نفي الدليل النقلي.

٣ - ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي بل ألكم أو معكم عهود عند الله موثقة مؤكدة ثابتة إلى يوم القيامة في أن يدخلكم الجنة، ويحصل لكم ما تريدون وتشتهون، ويُنفَّذ لكم الحكم الذي تصدرونه؟ وهذا نفي الوعد الإلهي بما توقعوا وظنوا.

٤ - ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ أي قل لهم يا محمد موبخاً لهم ومقرِّعاً: من هو المتضمن المتكفل بهذا، أو أيهم بذلك كفيل لهم بأن لهم في الآخرة ما للمسلمين فيها؟

٥ - ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾ أي بل ألهم شركاء لله بزعمهم من الأصنام والأنداد قادرون على أن يجعلوهم مثل المسلمين في الآخرة؟ فإن كان لهم شركاء، فليأتوا بهم لمناصرتهم إن كانوا صادقين في دعواهم. وهذا نفي التقليد وإبطال جوهر الاعتقاد لدى المشركين.

والخلاصة: المراد من الآيات أنه ليس لهم دليل عقلي في إثبات مذهبهم، ولا نقلي، وهو كتاب يدرسونه، ولا عهد لهم به عند الله، ولا كفيل لهم يتكفل بما يقولون، ولا لهم مؤيد يوافقهم من العقلاء، مما يدل على بطلان دعواهم.

ثم تحداهم الله تعالى بالإتيان بالشركاء يوم اشتداد الأمر، فقال:

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي فليأتوا بشركائهم لإنقاذهم يوم يشتد الأمر ويعظم الخطب في القيامة، وحين يدعى

هؤلاء الشركاء وأنصارهم من الكفار والمنافقين إلى السجود توبيخاً لهم على تركه في الدنيا، فلا يتمكنون من السجود؛ لأن ظهورهم تيبس وتصبح طبقاً واحداً، فلا تلين للسجود.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقاً واحداً». والمراد بقوله: ﴿يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ شدة الأمر وعظم الخطب؛ لأن الله تعالى منزه عن الجسمية وعن كل صفات الحوادث، فليس المراد بالساق الجارحة، وإنما ذلك مؤول بما ذكر.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي تكون أبصارهم ذليلة خاسئة منكسرة، تغشاهم ذلة شديدة، وحسرة وندامة، وقد كانوا في الدنيا مدعوين إلى الصلاة والسجود لله تعالى، فأبوا وتمردوا وامتنعوا، مع أنهم كانوا سالمين أصحاء، متمكنين من الفعل، لا علل ولا موانع تمنعهم من أداء السجود. قال النخعي والشعبي: المراد بالسجود: الصلوات المفروضة.

والخلاصة: أنهم لا يُدعون إلى السجود تعبداً وتكليفاً، ولكن توبيخاً وتعنيفاً على تركهم السجود في الدنيا، وبما أنهم تكبروا عن السجود في الدنيا مع صحتهم وسلامتهم، عوقبوا بنقيض ما كانوا عليه، بعدم قدرتهم عليه في الآخرة إذا تجلى الرب عز وجل، فيسجد له المؤمنون، ولا يستطيع أحد من الكافرين ولا من المنافقين أن يسجد، بل يعود ظهره طبقاً واحداً، كما ثبت في الحديث المتقدم.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ً - إن للمتقين الملتزمين أوامر الله المجتنبين نواهيه في الآخرة جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص، لا يشوبه ما ينغّصه كما يشوب جنات الدنيا.

٢ً - لا تسوية في الجزاء الأخروي بين المسلمين والكفار، أو بين الطائعين والعصاة، وذلك بحكم الفضل والإحسان، لا من قبيل الاستحقاق على الله شيئاً.

٣ً - استنكر الله تعالى حكم المشركين الأعوج في المساواة بينهم وبين المسلمين، كأن أمر الجزاء مفوض إليهم، حتى يحكموا بما شاؤوا أن لهم من الخير ما للمسلمين. واستنكر أيضاً وجود كتاب سماوي يجدون فيه المطيع كالعاصي، وأن لهم ما يختارون وما يشتهون.

ونفى أن يكون لهم عهود ومواثيق مؤكدة بالله تعالى، يستوثقون بها في أن يدخلهم الجنة، فليس الأمر كما يحكمون ويظنون.

٤ً - أنكر الله تعالى عليهم كذلك أن يكون لهم كفيل بما زعموا، قائم بالحجة والدعوى، أو أن يكون لهم ناس شركاء، أي شهداء يشهدون على ما زعموا، إن كانوا صادقين في دعواهم.

٥ً - من أنواع العذاب في الآخرة للكفار: أنهم يوم يشتد الأمر، ويعظم الخطب يوم القيامة، يطالبون تقريعاً وتوبيخاً بأداء الصلاة والسجود، فلا يتمكنون عقاباً لهم بنقيض ما كانوا عليه في الدنيا، وتكون أبصارهم ذليلة خاسئة منكسرة، وتغشاهم الذلة والمهانة، وذلك أن المؤمنين يرفعون رؤوسهم، ووجوهُهم أشد بياضاً من الثلج، وتسودّ وجوه المنافقين والكافرين حتى ترجع أشد سواداً من القار.

تخويف الكفار من قدرة الله تعالى وأمر النبي ﷺ بالصبر والتذكير العالمي بالقرآن

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

القراءات:

﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾:

وقرأ نافع (لَيَزْلِقونك).

الإعراب:

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ ﴿وَمَن﴾: في موضع نصب؛ لأنه معطوف على ياء المتكلم في ﴿فَذَرْنِي﴾.

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ﴾ قال: ﴿تَدَٰرَكَهُۥ﴾ بالتذكير؛ لأن تأنيث النعمة غير حقيقي، أو حملاً على المعنى؛ لأن النعمة بمعنى النعيم. وقرئ بالتأنيث (تداركته نعمة) بالتأنيث حملاً على اللفظ ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ الجملة حال.

﴿وَإِن يَكَادُ﴾ ﴿وَإِن﴾ مخففة من الثقيلة بدليل اللام.

﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ قرئ بضم الياء وفتحها، وهما لغتان، والضم أفضل.

المفردات اللغوية:

﴿فَذَرۡنِي﴾ دعني واتركني. ﴿وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ﴾ اتركه إلي فإني أكفيكه، والحديث: القرآن. ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾ نأخذهم تدريجاً أو قليلاً قليلاً. والاستدراج: أن تنزل بالمرء درجة درجة إلى حيث تريد لتوريطه فيه، والمراد هنا: سندنيهم من العذاب تدريجاً بالإمهال وإدامة الصحة وازدياد النعمة. ﴿مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنه استدراج، وهو الإنعام عليهم؛ لأنهم حسبوه تفضيلاً لهم على المؤمنين.

﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ﴾ وأمهلهم وأطيل لهم المدة. ﴿كَيۡدِي﴾ تدبيري. ﴿مَتِينٌ﴾ شديد لا يطاق، ولا يدفع بشيء. ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ﴾ بل أتسألهم على تبليغ الرسالة. ﴿أَجۡرًا﴾ أجرة على البلاغ. ﴿مَّغۡرَمٖ﴾ غرامة مالية يعطونكها. ﴿مُّثۡقَلُونَ﴾ محمَّلون أثقالاً، فيعرضون عنك، ولا يؤمنون بك.

﴿ٱلۡغَيۡبُ﴾ الشيء المغيب الذي استأثر الله بعلمه، أو اللوح المحفوظ الذي فيه الغيب. ﴿فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ أي يحكمون به ويستغنون به عن علمك، ويكتبون منه ما يقولون. ﴿لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ قضاؤه فيهم وإمهالهم وتأخير نصرتك عليهم. ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ وهو يونس عليه السلام في الضجر والعجلة. ﴿نَادَىٰ﴾ دعا ربه في بطن الحوت. ﴿مَكۡظُومٞ﴾ مملوء غيظاً وغماً، مأخوذ من كظم السقاء: إذا ملأه.

﴿تَدَٰرَكَهُۥ﴾ أدركه. ﴿نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ رحمة من الله وهي التوفيق للتوبة وقبولها. ﴿بِٱلۡعَرَآءِ﴾ الأرض الخالية عن الأشجار والزروع. ﴿وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾ ملوم مطرود عن الرحمة والكرامة. ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ اصطفاه ورد إليه الوحي والنبوة. ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من الأنبياء الكاملين في الصلاح. ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ ينظرون إليك نظراً شديداً يكاد أن يصرعك ويسقطك من مكانك، والمعنى: إنهم لشدة عداوتهم ينظرون إليك شزراً بحيث يكادون يزلون قدمك ويرمونك. ﴿لَمَّا سَمِعُواْ

﴿الذِّكْرَ﴾ القرآن. ﴿وَيَقُولُونَ﴾ حسداً وعداوة. ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ بسبب القرآن الذي جاء به، حيرة من أمره وتنفيراً عنه. ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ موعظة وتذكير. ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ الجن والإنس، فلا يحدث بسببه جنون. قال البيضاوي: لما جننوه لأجل القرآن، بيَّن أنه ذكر عام، لا يدركه ولا يتعاطاه إلا من كان أكمل الناس عقلاً، وأمتنهم رأياً.

المناسبة:

بعد تخويف الكفار بأهوال يوم القيامة وشدائدها، خوَّفهم تعالى وهددهم بما في قدرته من القهر، ففيه الكفاية بالجزاء لمن يكذب بالقرآن، ثم أمر نبيه ﷺ بالصبر، ونهاه عن الضجر في أمر التبليغ كحال يونس عليه السلام، ثم أخبر نبيه ﷺ عن حسد قومه، وحرصهم على إيقاع المكروه به بعد أن صبَّره وشجعه، ثم أعلم الناس قاطبة أن القرآن عظة للجن والإنس جميعاً، يتلقاه أهل العقول والأفهام، وليس المجانين كما زعموا.

التفسير والبيان:

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤)﴾ أي دعني وإياهم، وخلّ بيني وبينهم، واترك أمر هؤلاء المكذبين بالقرآن، فأنا أكفيك أمرهم، وأعلم كيف أجازيهم، فلا تشغل قلبك بشأنهم، فإنا سنأخذهم بالعذاب على غفلة، ونسوقهم إليه درجة فدرجة، حتى نوقعهم فيه من حيث لا يعلمون أن ذلك استدراج؛ لأنهم يظنونه إنعاماً، ولا يفكرون في عاقبته، وما سيلقون في نهايته. وهذا تهديد شديد، وإيناس للنبي ﷺ.

فهم لا يشعرون أن الإنعام استدراج، بل يعتقدون أن ذلك من الله تعالى كرامة، وهو في الأمر نفسه إهانة كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦)﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٥٥-٥٦]

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٤٤] .

وقال الله تعالى هنا:

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ أي أمهلهم وأؤخرهم ليزدادوا إثماً، ويتورطوا، فإن تدبيري وكيدي لأهل الكفر قوي شديد، فلا يفوتني شيء لكل من خالف أمري، وكذب رسلي، واجترأ على معصيتي. وسمى الله الجزاء كيداً - والكيد احتيال - لكونه في صورته، إذ نفعهم وهو يريد الضرر بهم، لما علم من خبثهم وتماديهم في الكفر.

جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: « إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه » ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١١/ ١٠٢] .

ثم أخبر الله تعالى عن إزالة كل الموانع التي تمنعهم من قبول الإسلام والحق، فقال:

- ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ أي بل أتطلب منهم أجرة على الهداية والتعليم وتبليغ رسالتك ودعوتك إياهم إلى الإيمان بالله تعالى؟ فهم من الغرامة المالية التي يتحملونها مثقلون بأدائها، لشحهم ببذل المال. والمراد: هل طلبت منهم أجراً، فأعرضوا عن إجابتك بهذا السبب؟ الحقيقة أنك يا محمد تدعوهم إلى الله عز وجل بلا أجر تأخذه منهم، بل ترجو ثواب ذلك عند الله تعالى، وهم مع ذلك يكذبونك فيما جئتهم به من الحق جهلاً وكفراً وعناداً. وفي هذا إثبات النبوة؛ لأن النبي ينشد الخير لذاته، لا لمنفعة مادية.

- ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي بل أعندهم علم الغيب يكتبون ما يريدون من الحجج التي يزعمون، ويخاصمونك بما يكتبونه من ذلك، ويحكمون لأنفسهم بما يريدون، ويستغنون بذلك عن إجابتك وامتثال قولك.

والمراد أنه ليس لهم حجة نقلية يعتمدون عليها في الإعراض عن قبول رسالة الإسلام.

ولما بالغ الله تعالى في تزييف منهج الكفار، وتفنيد شبهاتهم وإبطالها، وزجرهم عليها، أمر رسوله ﷺ بالصبر على أذاهم وعلى تبليغ رسالته، فقال:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ أي فاصبر يا محمد على قضاء ربك وحكمه فيك وفي هؤلاء المشركين، وعلى أذى قومك وتكذيبهم، وامض في تبليغ دعوتك، دون توقف أو تعثر بمعارضتهم وإيذائهم، فإن العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة.

ولا تكن مثل يونس عليه السلام في الضجر والعجلة والغضب، حين ذهب مغاضباً على قومه، فكان من أمره ما كان، من ركوبه البحر، والتقام الحوت له، وشروده في البحار، وندمه على ما فعل، فنادى ربه في الظلمات في بطن الحوت، وهو مملوء غيظاً وغماً على قومه، إذ لم يؤمنوا لما دعاهم إلى الإيمان، كما جاء في آية أخرى: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ، فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٧-٨٨].

والمعنى: لا يوجد منك ما يوجد منه من الضجر والمغاضبة، فتبتلى ببلائه، كما قال تعالى:

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾ أي لولا أن تداركته رحمة من الله ونعمة، بتوفيقه للتوبة وقبولها منه، فتاب الله عليه، لأُلقي من بطن الحوت على وجه الأرض الخالية من النبات، وهو ملوم بالذنب الذي أذنبه، مطرود من الرحمة والكرامة، لذا قال تعالى:

﴿فَٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ أي فاصطفاه ربه واستخلصه

واختاره للنبوة والوحي، وجعله من الأنبياء المرسلين لقومه الكاملين في الصلاح، وأرسله إلى مئة ألف أو يزيدون، فآمنوا جميعاً. ويلاحظ أن كلمة ﴿لَّوْلَآ﴾ دلت على أن المذمومية لم تحصل. وهذا لا ينافي قوله تعالى ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ - أي من المصلين - ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ٣٧/١٤٤] أي عقوبة له وكان مذموماً، فهذا جزاء عدم التوبة، والنبذ في العراء هنا (المكان الخالي من الشجر أو النبات) بعد التوبة حيث تتداركه رحمة الله ونعمته.

ثم حذر الله تعالى نبيه ﷺ من عداوة المشركين، قائلاً:

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾ أي إنهم - كما قال الزمخشري - من شدة تحديقهم ونظرهم إليك شزراً بعيون العداوة والبغضاء، يكادون يُزِلّون قدمك، أو يهلكونك، وكان هذا النظر يشتد منهم في حال قراءة النبي ﷺ القرآن، لشدة كراهيتهم، وحسداً على ما أوتي من النبوة، ويقولون: إنه مجنون، حيرة في أمره، وتنفيراً عنه، وإلا فقد علموا أنه أعقلهم. والمعنى: أنهم جننوه لأجل القرآن.

وقال بعضهم: المراد أنهم يكادون يصيبونك بالعين، روي أن العين كانت في بني أسد، فكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام، فلا يمر به شيء فيقول فيه: لم أر كاليوم مثله، إلا عانَه، فأريد بعض العيَّانين على أن يقول في رسول الله ﷺ مثل ذلك، فقال: لم أر كاليوم رجلاً، فعصمه الله.

قال الْهَرَوي: أراد ليعتانونك بعيونهم، فيزيلوك عن مقامك الذي أقامك الله فيه، عداوة لك.

ورد ابن قتيبة على ذلك قائلاً: ليس يريد الله أنهم يصيبونك بأعينهم، كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء، يكاد يسقطك.

ورأى ابن كثير أن المعنى: يحسدونك لبغضهم إياك، لولا وقاية الله لك، وحمايته إياك منهم، وفي هذه الآية - على رأي البعض - دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة.

منها: ما أخرجه أحمد عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا حسد، والعين حق» أي بإرادة الله.

ومنها: ما أخرجه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «قد تدخل الرجلَ العينُ في القبْر، وتدخل الجَمَلَ القِدْرُ» وإسناد رجاله كلهم ثقات.

ومنها: ما أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: « إن العين لتولع الرجل بإذن الله، فيتصاعد حالقاً، ثم يتردى منه» وإسناده غريب.

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ أي ويقولون عن محمد ﷺ: إنه لمجنون، أي لمجيئه بالقرآن، وما القرآن إلا موعظة وتذكير للجن والإنس، فلا يتحمله إلا من كان أهلاً له من العقلاء، وفيه نسبة الجهل إلى من يقول هذا القول، وكيف يجن من جاء بمثله من الآداب والحِكَم وأصول كل العلوم والمعارف؟!

قال الحسن البصري: دواء الإصابة بالعين أن يقرأ هذه الآية: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - كفى بالله مجازياً ومنتقماً ممن يكذب بالقرآن العظيم، وإن الله

سيأخذهم على غفلة وهم لا يعرفون، فعذِّبوا يوم بدر. وهذا استدراج من الله تعالى، والاستدراج: ترك المعاجلة. وأصله النقل من حال إلى حال كالتدرّج.

٢ - إن الله يمهل ولا يهمل، فهو سبحانه يمهل ويطيل المدة للظالمين والكفار، ثم يعاقبهم، فلا يفوته أحد، وعذاب الله قوي شديد، وتدبيره محكم لا يمكن التفلت منه. جاء في البحر المحيط: ما يدل على أنه لم يصح خبر في مدة لبث يونس عليه السلام في بطن الحوت.

٣ - ليس للكفار والمشركين علم بالغيب الذي غاب عنهم، فيكون حكمهم لأنفسهم بما يريدون غلطاً محضاً، وتقوّلاً كاذباً.

٤ - الصبر على قضاء الله وحكمه مطلوب شرعاً، ولا ينبغي لمؤمن العجلة والتضجر والغضب، كما عجل صاحب الحوت يونس بن متّى عليه السلام حين تضجر ثم تاب وندم، ودعا في بطن الحوت وهو مملوء غماً، فقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٨٧] .

فقبل الله بفضله ومنّه ورحمته ونعمته دعاءه، واصطفاه ربه واختاره وجعله من الأنبياء الصالحين، بأن أرسله إلى مئة ألف أو يزيدون هم أهل نينوى، ولولا قبول توبته، لنبذ في الأرض الخالية الفضاء مذموماً ملوماً. والذم واللوم بسبب ترك الأفضل، فإن حسنات الأبرار سيئات المقرّبين. ولم يقع الذم بدليل كلمة ﴿لَّوۡلَآ﴾.

٥ - اشتدت عداوة الكفار للنبي ﷺ، فكانوا إذا سمعوه يقرأ القرآن، نظروا إليه نظرة شديدة ملؤها الحقدوالعداوة والبغضاء، حتى لتكاد نظراتهم تسقطه وتُزِلّ قدمه، أو تهلكه.

وينسبونه أيضاً إلى الجنون إذا رأوه يقرأ القرآن، مع أن القرآن لا يتحمله إلا من كان أهلاً له من العقلاء، وهو شرف وتذكير وموعظة للعالمين، شَرُفوا باتباعه والإيمان به ﷺ، فهل يعقل أن يكون هذا القرآن آتياً على يد مجنون؟ وكيف يجن من جاء بمثله؟

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحاقة

مكية، وهي اثنتان وخمسون آية

تسميتها:

سميت سورة الحاقة؛ لافتتاحها بالاستفهام عنها، تفخيماً لشأنها وتعظيماً لهولها، و﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ اسم من أسماء يوم القيامة؛ لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد، ولهذا عظم الله أمرها بالسؤال عنها، أو هي الساعة الواجبة الوقوع، الثابتة المجيء، التي هي آتية لا ريب فيها.

مناسبتها لما قبلها:

تتعلق السورة بما قبلها من وجهين:

١ - وقع في سورة ﴿نٓ﴾ ذكر يوم القيامة مجملاً، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [٤٢] وفي هذه السورة أوضح تعالى نبأ هذا اليوم وشأنه العظيم: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾.

٢ - هدّد الله تعالى في السورة السابقة كل من كذب بالقرآن وتوعده بقوله: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤﴾ [٤٤] وفي هذه السورة ذكر أحوال الأمم التي كذبت الرسل وما عوقبوا به، للعظة والزجر والعبرة للمعاصرين.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة كغيرها من السور المكية التي عنيت بأصول العقيدة، وتحدثت عن أهوال القيامة، وصدق الوحي، وكون القرآن كلام الله، وتبرئة الرسول ﷺ من افتراءات الكفار واتهامات الضالين.

بدئت بتفخيم شأن القيامة وتعظيم هولها، وتكذيب الأقوام السابقة بها، مثل ثمود، وعاد، وقوم لوط، وفرعون وأتباعه، وقوم نوح، وإهلاكهم بسبب تكذيبهم بها وتكذيب رسلهم، من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾.

ثم وصفت وقائع عذاب الآخرة جزاء على إنكاره في الدنيا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾ إلى ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

وأردفت ذلك ببيان حال السعداء والأشقياء يوم القيامة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ إلى قوله: ﴿لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

ثم أقسم رب العزة قسماً بليغاً على صدق الوحي والقرآن وأنه كلام الله المنزل على قلب رسوله ﷺ، وأنه ليس بقول شاعر ولا كاهن: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

وختمت السورة ببيان البرهان القاطع على صدق الرسول ﷺ وأمانته في تبليغ الوحي، وأن القرآن تذكرة وعظة وخبر حق لا مرية فيه، ورحمة للمؤمنين وحسرة على الكافرين: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾ إلخ السورة.

تعظيم يوم القيامة وإهلاك المكذبين به

﴿ٱلْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾

القراءات:

﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾:

وقرأ أبو عمرو، والكسائي (وَمَنْ قِبَلَه).

﴿أُذُنٌ﴾:

وقرأ نافع (أُذْن).

الإعراب:

﴿ٱلْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٣﴾﴾ ﴿ٱلْحَاقَّةُ ﴿١﴾﴾ الأولى: مبتدأ، و﴿مَا﴾ استفهامية، مبتدأ ثان، و﴿ٱلْحَاقَّةُ﴾ الثانية: خبر المبتدأ الثاني، والمبتدأ الثاني وخبره: خبر عن المبتدأ الأول. وقوله ﴿مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾ الأصل: الحاقة ما هي؟ أيْ أيُّ شيء هي؟ فوضع الظاهر موضع المضمر للتفخيم والتعظيم، فهو أهول لها. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٣﴾﴾ ﴿مَا﴾ استفهامية مبتدأ، و﴿مَا﴾ الثانية: مبتدأ ثان، و﴿ٱلْحَاقَّةُ ﴿١﴾﴾ خبره، والمبتدأ الثاني وخبره في موضع نصب بـ ﴿أَدْرَىٰكَ﴾. و﴿أَدْرَىٰكَ﴾ والجملة المتصلة به: في موضع

رفع على أنه خبر المبتدأ الأول. و﴿أَدْرَىٰكَ﴾ يتعدى إلى مفعولين، والمفعول الأول: الكاف، والجملة بعده في موضع المفعول الثاني. ولم يعمل ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ في ﴿مَا﴾ الثانية؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله.

﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ إما مصدر كالعاقبة والعافية، وإما صفة لموصوف محذوف تقديره: بالصيحة الطاغية، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ استئناف أو صفة جيء به لنفي توهم كون الأمور طبيعية.

﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ حذفت تاء التأنيث من ﴿سَبْعَ﴾ وأثبتت في ﴿وَثَمَـٰنِيَةَ﴾ لأن الليالي جمع مؤنث والأيام جمع مذكر، و﴿حُسُومًا﴾: إما منصوب على الوصف لقوله: ﴿أَيَّامٍ﴾ أو منصوب على المصدر، أي تباعاً. و﴿صَرْعَىٰ﴾ حال من ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ لأن ﴿فَتَرَى﴾ من رؤية البصر، و﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾: في موضع نصب على الحال من ضمير ﴿صَرْعَىٰ﴾. وتقديره: مشبهين أعجاز نخل، و﴿خَاوِيَةٍ﴾: صفة لنخل، وقال ﴿خَاوِيَةٍ﴾ بالتأنيث؛ لأن النخل يجوز فيه التأنيث والتذكير مثل ﴿نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾.

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ يقرأ بالإدغام، لقرب التاء من مخرج اللام.

البلاغة:

﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾﴾ إطناب بتكرار الاسم للتهويل والتعظيم.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾ ثم قال: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ﴾ ﴿وَأَمَّا عَادٌ﴾ تفصيل بعد إجمال، وفيه لف ونشر مرتب.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ تشبيه مرسل مجمل، فيه الأداة، وحذف وجه الشبه.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ استعارة، شبه ارتفاع الماء بطغيان الإنسان على الإنسان.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ أي الساعة الثابتة المجيء، الواجبة الوقوع، وهي القيامة، التي يحق، أي يثبت ويجب حدوثها وما اشتملت عليه من البعث والحساب والجزاء الذي أنكره المنكرون. ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾ أيْ أيُّ شيء هي؟ وضع الظاهر فيها موضع الضمير، تفخيماً لشأنها، وتعظيماً لهولها. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾ أيْ وأيّ شيء أعلمك ما هي؟ أي إنك لا تعلم كنهها، فإنها أعظم من أن يدري بها أحد، والجملة زيادة تعظيم لشأنها.

﴿بِٱلْقَارِعَةِ﴾ القيامة التي تقرع القلوب بالإفزاع، وتهز النفوس بأهوالها، والمواد بالانفطار والانتثار، وإنما وضعت موضع ضمير ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ زيادة في وصف شدتها.

﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ الواقعة التي جاوزت الحد في الشدة والقوة، وهي الصيحة أو الرجفة، أي الصاعقة، وسبب إهلاكهم: تكذيبهم بالقارعة، وطغيانهم بالكفر والمعاصي. ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ شديدة الصوت والبرد، من الصَّرّة أي الصيحة، أو من الصِّر أي البرد الذي يضرب النبات والحرث. ﴿عَاتِيَةٍ﴾ شديدة القوة والعصف. ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ سلَّطها عليهم بقدرته. ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ قال المحلي: أولها من صبح الأربعاء لثمان بقين من شوال، وكانت في عجز الشتاء وهي أيام العجوز أو العجائز، سميت عجوزاً؛ لأنها عجز للشتاء. ﴿حُسُومًا﴾ متتابعات، أو من الحسم: وهو القطع والاستئصال.

﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ﴾ إن كنت حاضراً في مهابها أو في الليالي والأيام. ﴿صَرْعَىٰ﴾ موتى مطروحين هالكين، جمع صريع. ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ أصول نخل. ﴿خَاوِيَةٍ﴾ ساقطة فارغة. ﴿مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ أي من نفس باقية. أو بقاء، أو بقية،

أو باق، والتاء للمبالغة. ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ من تقدّمه من الأمم الكافرة، وقرئ: (ومن قِبَله) أي أتباعه وجنوده. ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ المنقلبات وهي قرى قوم لوط، والمراد: أهلها. ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ بالخطأ، أو بالفعلة ذات الخطأ. ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ عصت كل أمة رسولها. ﴿رَّابِيَةً﴾ زائدة في الشدة، زيادة أعمالهم في القبح، من ربا الشيء: زاد.

﴿طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ جاوز حدّه المعتاد، وارتفع وعلا فوق كل شيء من الجبال وغيرها زمن الطوفان. ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ أي حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم. ﴿ٱلْجَارِيَةِ﴾ السفينة التي تجري في الماء، وهي التي صنعها نوح عليه السلام بإلهام الله وتعليمه، ونجا بها هو ومن كان معه مؤمناً، وغرق الآخرون. ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ﴾ لنجعل الفعلة، وهي إنجاء المؤمنين وإهلاك وإغراق الكافرين. ﴿تَذْكِرَةً﴾ عظة. ﴿وَتَعِيَهَآ﴾ وتحفظها. ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ حافظة لما تسمع، أي من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظه لتذكره وإشاعته والتفكر فيه والعمل بموجبه. وتنكير كلمة ﴿أُذُنٌ﴾ للدلالة على قلتها.

التفسير والبيان:

افتتح الله سورة الحاقة بما يدل على تعظيم شأنها، وتفخيم أمرها، وتهويل يومها فقال:

﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾﴾ ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾﴾ هي القيامة، سميت بذلك؛ لأن الأمور تُحَقُّ فيها، وتثبت وتقع من غير شك ولا ريب، و﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾﴾ يوم الحق؛ لأنها تظهر فيها الحقائق.

والمعنى: القيامة التي يتحقق فيها الوعد والوعيد، والساعة الواجبة الوقوع، الثابتة المجيء، أيّ شيء هي في حالها وصفاتها؟ فهي عظيمة الشأن، شديدة الهول، لا يدرك حقيقتها ولا يتصور أوصافها غير الله عز وجل. وأي شيء أعلمك بها أيها النبي الرسول؟ فهي خارجة عن دائرة علم المخلوقين، لعظم شأنها، وشدة هولها.

قال يحيى بن سلام: بلغني أن كل شيء في القرآن: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أدراه إياه وعلمه، وكل شيء قال: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فهو مما لم يعلمه.

وقال سفيان بن عُيَيْنة: كل شيء قال فيه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فإنه أُخبر به، وكل شيء قال فيه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فإنه لم يخبر به.

ثم ذكر الله تعالى نوع العقاب الذي أوقعه بالأمم السابقة التي كذبت بالقيامة تخويفاً لأهل مكة وغيرهم، فقال:

- ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٤﴾ أي كذبت قبيلة ثمود قوم صالح، وقبيلة عاد قوم هود بالقيامة، وهي القارعة التي تقرع الناس بأهوالها، والمواد بالانفجار والانتثار. ثم فصل الله تعالى أنواع العقاب ونتائجه فقال:

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾ أي فأما جماعة ثمود قوم صالح عليه السلام، فأهلكوا هلاكاً تاماً بالطاغية: وهي الصيحة أو الصاعقة أو الرجفة التي جاوزت الحد في الشدّة، كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود: ١١/ ٦٧] أي الصاعقة، وقال سبحانه: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٧٨﴾ [الأعراف: ٧/ ٧٨، ٩١] أي الزلزلة، فالألفاظ مختلفة، ولكن معانيها واحدة.

﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا﴾ وأما قبيلة عاد قوم هود عليه السلام، فأهلكوا هلاكاً ساحقاً بريح شديدة الصوت، شديدة البرد، قاسية شديدة الهبوب، جاوزت الحد لشدة هولها، وطول زمنها وشدة بردها، عتت عليهم بغير رحمة ولا شفقة، وسلطها الله وأرسلها عليهم طَوال مدة مستمرة هي سبع ليال وثمانية أيام لا تنقطع ولا تهدأ، وكانت تقتلهم بالحصباء، متتابعات، تحسمهم حسوماً، أي تفنيهم وتذهبهم.

وكانت عادة القرآن تقديم قصة عاد على ثمود، إلا أنه قلب ههنا؛ لأن قصة ثمود بنيت على غاية الاختصار، ومن عادتهم تقديم ما هو أخصر.

﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ، فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾؟ أي فتشاهد إن كنت حاضراً أولئك القوم في ديارهم أو في تلك الأيام والليالي مصروعين بالأرض موتى، كأنهم أصول نخل ساقطة أو بالية، لم يبق منهم أحد، فهل تحس منهم من أحد من بقاياهم؟ بل بادوا عن آخرهم، ولم يجعل الله لهم خلفاً، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٢٥] .

وثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نُصرت بالصَّبا، وأُهلكت عاد بالدَّبور» .

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾﴾ أي وأتى الطاغية فرعون ومن تقدمه من الأمم الكافرة وأهل المنقلبات قرى قوم لوط بالفعلة الخاطئة، وهي الشرك والمعاصي.

﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ أي فعصت كل أمة رسولها المرسل إليها، فأهلكهم الله ودمّرهم، وأخذهم أخذة أليمة شديدة زائدة على عقوبات سائر الكفار والأمم.

ونظير مطلع الآية قوله تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [ص: ٣٨/ ١٤] وقوله سبحانه: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ٥٠/ ١٤] ومن كذب برسول فقد كذَّب الجميع، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٠٥] ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٢٣] ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٤١] ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٦٠] .

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ أي إننا لما تجاوز الماء حده وارتفع بإذن الله، وجاء الطوفان في زمن نوح عليه السلام، حملنا آباءكم المؤمنين وأنتم في أصلابهم، في السفينة التي تجري في الماء، لينجوا من الغرق، ولنجعل نجاة المؤمنين، وإغراق الكافرين عبرة وعظة، تستدلون بها على عظيم قدرة الله، وبديع صنعه، وشدة انتقامه، ولتفهمها وتحفظها بعد سماعها أذن حافظة لما سمعت. فقوله: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ﴾ عائد إلى الواقعة المعلومة وهي نجاة المؤمنين وإغراق الكفرة.

روى ابن أبي حاتم وابن جرير عن مكحول مرسلاً قال: لما نزل على رسول الله ﷺ: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي أن يجعلها أُذُنَ عَلِيٍّ» قال مكحول: فكان علي يقول: ما سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً قط، فنسيته. وأما خبر بريدة في أن الآية نزلت بسبب علي رضي الله عنه فهو غير صحيح.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يلي:

١ - تفخيم شأن القيامة، وتعظيم أمرها، والتخويف من أهوالها، ولا شك أنها تفزع الناس بالأفزاع والأهوال، والسماء بالانشقاق، والأرض بالدكّ، والنجوم بالطمس إلى غير ذلك.

٢ - وجوب الاتعاظ والاعتبار بمصير الأمم السابقة التي كذبت رسلها، وقد ذكرت الآيات هنا ثلاث قصص: قصة عاد وثمود الذين كذبوا بالقارعة وهي القيامة التي تقرع الناس بأهوالها، وقصة فرعون ومن تقدمه وقوم لوط، وقصة نوح عليه السلام مع قومه.

أما ثمود فأهلكوا بالصيحة الطاغية، أي المجاوزة للحدّ، حد الصيحات من

الهول، وأما ثمود فأهلكوا بريح باردة تحرق ببردها كإحراق النار، شديدة الهبوب، غضبت لغضب الله عز وجل، أرسلها وسلطها الله تعالى عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعة، لا تفتر ولا تنقطع، فصار القوم في تلك الليالي والأيام موتى هالكين، كأصول نخل بالية متآكلة الأجواف لا شيء فيها.

وأما فرعون وجنوده فأهلكوا بالإغراق في البحر، وأما المؤتفكات أهل قرى لوط، فدمروا بالريح التي ترميهم بالحصباء تدميراً شاملاً بعقوبة زائدة في الشدة على عقوبات سائر الكفار، كما أن أفعالهم كانت زائدة في القبح على أفعال سائر الكفار، وهي الكفر والفواحش.

وأما قوم نوح فأغرقوا بالطوفان، ونجّى الله نوحاً ومن آمن معه بركوبهم في السفينة التي صنعها نوح بإلهام من الله تعالى، ليجعل الله ذلك تذكرة وعظة لهذه الأمة، وتحفظها وتسمعها أذن حافظة لما جاء من عند الله.

بعض أهوال القيامة

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١٥) وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨)﴾

القراءات:

﴿لَا تَخْفَىٰ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (لايخفى).

الإعراب:

﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ نائب فاعل، ووصفت ﴿نَفْخَةٌ﴾ بـ ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ وإن كانت

النفخة لا تكون إلا واحدة، على سبيل التأكيد، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [النحل: ٥١/١٦] وإن كان الإلهان لا يكونان إلا اثنين للتأكيد. وجاء تذكير ﴿نُفِخَ﴾ لأن تأنيث النفخة غير حقيقي.

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ يومئذ: ظرف منصوب متعلق بـ ﴿وَقَعَتِ﴾، وكذلك ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ الثانية يتعلق بـ ﴿وَاهِيَةٌ﴾ وكذلك يومئذ في ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ يتعلق بـ ﴿تُعْرَضُونَ﴾.

البلاغة:

﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ بينهما جناس اشتقاق، وكذلك مثله ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾ هي النفخة الأولى التي عندها خراب العالم، والصور: البوق. ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ رفعت من أماكنها. ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ دقتا وضرب بعضها ببعض، فصارت أرضاً مستوية لا عوج فيها، وكتلة واحدة. والدك والدق متقاربان في المعنى، غير أن الدك أبلغ. ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ أي فحينئذ قامت القيامة، والواقعة: النازلة. ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ تصدعت وتشققت وتبددت. ﴿وَاهِيَةٌ﴾ مختلة ضعيفة مسترخية لا تماسك بين أجزائها.

﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ الملائكة، فالمراد به الجنس. ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ جوانب السماء وأطرافها، جمع رجا أي جانب. ﴿فَوْقَهُمْ﴾ فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء. ﴿ثَمَٰنِيَةٌ﴾ ثمانية أملاك. ﴿تُعْرَضُونَ﴾ للحساب. ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ لا تخفى سريرة من السرائر.

المناسبة:

بعد أن بالغ الله تعالى في تهويل القيامة، وذكر القصص الثلاث لبيان مآل

المكذبين بها، تفخيماً لشأنها، وتنبيهاً على إمكانها، شرع سبحانه في بيان تفاصيل أحوال القيامة وأهوالها، وابتدأ بمقدماتها.

التفسير والبيان:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾﴾ أي فإذا نفخ إسرافيل النفخة الأولى التي يكون عندها خراب العالم. وهذا إخبار عن أهوال يوم القيامة.

﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴿١٤﴾﴾ أي رفعت من أماكنها، وأزيلت من مواقعها بالقدرة الإلهية، فضرب بعضها ببعض ضربة واحدة، حتى صارت كتلة واحدة، ورجعت كثيباً مهيلاً منثوراً، وتبددت وتغيرت عما هو معروف، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/٤٨] . والدك أبلغ من الدق.

﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ فحينئذ قامت القيامة، ووقعت النازلة.

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ﴿١٦﴾﴾ أي وتصدعت السماء، فهي في ذلك اليوم ضعيفة مسترخية غير متماسكة الأجزاء بعد أن كانت قوية محكمة البناء.

﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴿١٧﴾﴾ أي وتكون الملائكة على جوانب السماء وحافاتها على أهبة الاستعداد لتنفيذ ما يأمرهم به الله عز وجل، ويحمل عرش ربك فوق رؤوس الملائكة الذين هم على الأرجاء ثمانية أملاك، وقيل: ثمانية صفوف من الملائكة، لا يعلم عددهم إلا الله عز وجل. والعرش: أعظم المخلوقات. وحمل العرش مجاز؛ لأن حمل الإله محال، فلا بدّ من التأويل، وهو أنه تعالى خاطبهم بما يتعارفون، وعلى سبيل الرمز، كإيجاد البيت (الكعبة) وجعل الحفظة على العباد، لا للسكنى في البيت، ولا بسبب احتمال النسيان.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ أي في ذلك اليوم يعرض العباد على الله لحسابهم، فلا يخفى على الله سبحانه من ذواتكم وأقوالكم وأفعالكم وأموركم خافية كائنة ما كانت، فهو يعلم السرّ وأخفى، ويعلم بالظواهر والسرائر والضمائر، وتعرضون على من لا يخفى عليه شيء أصلاً، ليكتمل سرور المؤمنين ويعظم توبيخ المذنبين.

والعرض: عبارة عن المحاسبة والمساءلة، شبه ذلك بعرض السلطان العسكر، لتعرف أحواله، وقد صور الله تعالى تلك الصورة المهيبة، لا لأنه يقعد على السرير.

وفي هذا تهديد شديد، ووعيد وزجر أكيد، وإخبار بخطورة الحساب العسير.

روى ابن أبي الدنيا عن ثابت بن الحجاج قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن تُوزَنوا، فإنه أخف عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتَزَيَّنوا للعرض الأكبر: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾» .

وروى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «يُعرض الناس يوم القيامة ثلاث عَرْضات، فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تَطَّيَّرُ الصحُف في الأيدي، فآخذٌ بيمينه، وآخذٌ بشماله» لكن الترمذي رواه عن أبي هريرة. ورواه ابن جرير أيضاً عن عبد الله بن مسعود.

فقه الحياة أو الأحكام:

تدل الآيات على ما يأتي:

١ - من مقدمات القيامة: نفخة إسرافيل في الصور (البوق). والمراد النفخة

الأولى، قال ابن عباس: هي النفخة الأولى لقيام الساعة، فلم يبق أحد إلا مات.

٢ - من أهوال القيامة ومخاوفها: صيرورة الأرض والجبال كالجملة الواحدة متفتتة متكسرة إما بقدرة الله من غير وساطة، وإما بالزلزلة التي تكون في القيامة، وإما بريح بلغت من قوة عصفها أنها تحمل الأرض والجبال، أو بملك من الملائكة.

٣ - بعد النفخة الأولى في الصور وتفتت الأرض والجبال تقوم القيامة، وتتصدع السماء وتتفطّر، وتصبح ضعيفة واهية غير متماسكة الأجزاء، إيذاناً بزوالها وتبدلها وخرابها، بعدما كانت محكمة شديدة.

٤ - تكون الملائكة حين انشقاق السماء على أطرافها، بعد أن كانت السماء مكانهم، فإذا انشقت صاروا في أطرافها، ينتظرون ما يؤمرون به في أهل النار من السَّوْق إليها، وفي أهل الجنة من التحية والكرامة.

٥ - يكون فوق أولئك الملائكة ثمانية أملاك أو ثمانية صفوف لا يعلم عددهم إلا الله يحملون العرش الذي أراده الله بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ [غافر: ٤٠/٧] وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٧٥] . ذكر الثعلبي عن النبي ﷺ: «أن حملة العرش اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله تعالى بأربعة آخرين، فكانوا ثمانية» . وخرَّجه الماوردي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يحمله اليوم أربعة، وهم يوم القيامة ثمانية» .

٦ - في يوم القيامة الرهيب يعرض العباد على الله للحساب والجزاء، كما قال تعالى: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٨] وليس ذلك عرضاً يعلم به ما لم يكن عالماً به، بل معناه الحساب وتقرير الأعمال عليهم للمجازاة، فلا يخفى على الله من أمورهم شيء، فالله عالم بكل شيء من الأعمال. وكل من

الحمل والعرض لا يعني التجسيم والتشبيه بالمخلوقات، وإنما للتصوير والرمز والتقريب إلى الأذهان.

حال الأبرار الناجين بعد الحساب

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾

الإعراب:

﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ ﴿هَاؤُمُ﴾: اسم فعل أمر بمعنى خذوا، و﴿كِتَابِيَهْ﴾: مفعول منصوب لـ ﴿اقْرَءُوا﴾ وفيه دليل على إعمال الفعل الثاني، ولو أعمل الأول لقال: «اقرؤوه» ففيه تنازع بين ﴿هَاؤُمُ﴾ و﴿اقْرَءُوا﴾.

﴿هَنِيئًا﴾ حال، أي متهنئين.

﴿كُلُوا﴾ إنما جمع الخطاب في ﴿كُلُوا﴾ بعد قوله: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ﴾ لقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ﴾ و﴿مَنْ﴾ مضمّن معنى الجمع.

البلاغة:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩)﴾ مقابلة مع ما بعده: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾ توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات، ويسمى في علم البديع السجع المرصع.

المفردات اللغوية:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ﴾ تفصيل للعرض على الله. ﴿فَيَقُولُ﴾ تفاخراً. ﴿هَاؤُمُ﴾ خذوا. ﴿ظَنَنتُ﴾ تيقنت أو علمت. ﴿مُلَاقٍ﴾ معاين. ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ ذات رضا، يرضى بها أصحابها. ﴿عَالِيَةٍ﴾ مرتفعة المكان والدرجات. ﴿قُطُوفُهَا﴾ ثمارها، أي ما يجتنى من الثمر، جمع قِطْف: وهو ما يجتنى بسرعة، والقَطْف بالفتح: المصدر. ﴿دَانِيَةٌ﴾ قريبة، يتناولها القائم والقاعد والمضطجع.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ أي يقال لهم: أكلاً وشرباً هنيئاً، أو هنئتم هنيئاً، أو متهنئين. ﴿فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ الماضية في الدنيا.

المناسبة:

بعد الإخبار بأن جميع العباد يعرضون على الله للحساب والجزاء دون أن يخفى عليه شيء من أمورهم، أخذ في تفصيل عرض الكتب، ومردودها على أصحابها، مبتدئاً بأهل اليمين، ثم بأهل الشمال.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن سعادة من يؤتى كتابه بيمينه يوم القيامة وفرحه بذلك، فقال:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾﴾[1] أي فأما من أعطي كتابه الذي كتبته الحفظة عليه من أعماله بيمينه، فيقول من شدة فرحه وابتهاجه لكل من لقيه: خذوا هذا الكتاب فاقرؤوا ما فيه، لعلمه أنه صار من الناجين، بعد أن كان خائفاً مضطرباً شأن أهل المحشر، كما قال تعالى:

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ أي غلب على ظني أني ألاقي حسابي، فيؤاخذني الله بسيئاتي، ولكنه تعالى تفضل علي بالعفو، ولم يؤاخذني بها.

---

(١) أما: حرف تفصيل، فصل بها ما وقع في يوم العرض.

والمعنى عند أكثر المفسرين: علمت وأيقنت في الدنيا أني أحاسب في الآخرة، وأن هذا اليوم كائن لا محالة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢/٤٦] . قال الضحاك: كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين، ومن الكافر فهو شك. وقال مجاهد: ظن الآخرة يقين، وظن الدنيا شك.

قال الزمخشري: وإنما أجري الظن مجرى العلم (اليقين) لأن الظن الغالب يقام مقام العلم في العادات والأحكام، يقال: أظن ظناً كاليقين أن الأمر كيت وكيت.

ويؤيد المعنى الأول للآية ما ثبت في الصحيح من حديث ابن عمر حين سئل عن النجوى، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُدْني الله العبد يوم القيامة، فيقرِّره بذنوبه كلها، حتى إذا رأى أنه قد هلك، قال الله تعالى: إني سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١١/١٨] » .

ثم أبان الله تعالى مصير المؤمن التقي البار أو عاقبة أمره، فقال:

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي فهو في عيشة مرضية خالية من المكدِّرات، غير مكروهة، في جنة مرتفعة المكان، رفيعة القدر، عالية المنازل، نعيمة الدور، دائمة الحبور، ثمارها قريبة التناول، يتناولها القائم والقاعد والمضطجع.

روى الطبراني عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل أحد الجنة إلا بجواز: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من الله لفلان بن فلان: أدخلوه جنة عالية، قطوفها دانية» . ورواه الضياء بلفظ: «يعطى المؤمن جوازاً على الصراط: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من الله العزيز الحكيم لفلان: أدخلوه جنة عالية قطوفها دانية» .

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ أي ويقال لهم: كلوا يا أيها المتقون الأبرار في الجنة من طيباتها وثمارها، واشربوا من أشربتها أكلاً وشرباً هنيئاً، أي لا تكدير فيه ولا تنغيص، جزاء لما عملتم، وبسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة في الدنيا.

وهذا تفضل من الله عليهم وامتنان وإنعام وإحسان؛ لما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وسدِّدوا وقاربوا، واعلموا أن أحداً لن يدخله عملُه الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمَّدني الله برحمةٍ منه وفَضْلٍ».

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - إن إعطاء الكتاب باليمين دليل على النجاة، فيقول المؤمن الناجي ثقة بالإسلام وسروراً بنجاته لكل من يلقاه من جماعته: هلموا وخذوا واقرؤوا كتابي هذا، إني ظننت أن يؤاخذني الله بسيئاتي ويعذبني، ولكنه تفضل علي بعفوه ولم يؤاخذني بها. وقال ابن عباس وغيره عن قوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾ أي أيقنت وعلمت أني ملاق حسابي في الآخرة، ولم أنكر البعث، يعني أنه ما نجا إلا بخوفه من يوم الحساب؛ لأنه تيقن أن الله يحاسبه، فعمل للآخرة. ذكر الثعلبي عن ابن عباس قال: أول من يُعطى كتابه بيمينه من هذه الأمة عمر بن الخطاب، وله شعاع كشعاع الشمس، قيل له: فأين أبو بكر؟ فقال: هيهات هيهات!! زفَّته الملائكة إلى الجنة.

٢ - يكون الناجي في عيش يرضاه لا مكروه فيه، أو في عيشة مرضية، في جنة عالية، أي عظيمة في النفوس، ثمارها قريبة التناول، يتناولها القائم والقاعد والمضطجع.

جاء في الصحيح عن النبي ﷺ: «أنهم يعيشون، فلا يموتون أبداً، ويصحّون فلا يمرضون أبداً، ويَنْعَمون فلا يرون بأساً أبداً، ويَشِبّون فلا يَهْرمون أبداً» .

٣ - يقال للناجين من قبل ربهم، أو بوساطة الملائكة خزنة الجنة: كلوا واشربوا في الجنة أكلاً وشرباً هنيئاً لا تكدير فيه ولا تنغيص، بسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة.

والآيات تعم جميع أهل السعادة، كما أن الآيات التالية تعم جميع أهل الشقاوة.

حال الأشقياء يوم القيامة

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾

الإعراب:

﴿يَٰلَيْتَنِى﴾ يا: للتنبيه. ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾﴾ ﴿مَآ﴾ إما استفهامية على سبيل الإنكار في موضع نصب؛ لأنها مفعول ﴿أَغْنَىٰ﴾. ﴿مَالِيَهْ ۜ﴾ فاعله، وتقديره: أي شيء أغنى عنّي ماليه؟ أو أن تكون ﴿مَآ﴾ نافية، ويكون مفعول ﴿أَغْنَىٰ﴾ محذوفاً، وتقديره: ما أغنى ماليه شيئاً، فحذفه. والهاء في ﴿مَالِيَهْ ۜ﴾ للسكت، وإنما أدخلت صيانة للحركة عن الحذف، وتثبت وقفاً ووصلاً اتباعاً لمصحف الإمام والنقل المتواتر.

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ ﴿حَمِيمٌ﴾ اسم ليس، وخبرها الجار والمجرور، وهو ﴿لَهُ﴾. ولا يجوز أن يكون ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ هو الخبر؛ لأن ﴿حَمِيمٌ﴾ جثة، واليوم ظرف زمان، وظروف الزمان لا تكون أخباراً عن الجثث، وإنما تدل على وجود حدث بعدها.

البلاغة:

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ توافق الفواصل، مراعاة لرؤوس الآيات، ويسمى في علم البديع كما تقدم السجع المرصَّع.

المفردات اللغوية:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ﴾ يقول لما يرى من قبح العمل وسوء العاقبة. ﴿يَٰلَيْتَهَا﴾ يا ليت الموتة التي متها في الدنيا. ﴿كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ القاطعة لأمري وحياتي، فلم أبعث بعدها. ﴿مَالِيَهْ﴾ مالي من المال. ﴿سُلْطَٰنِيَهْ﴾ حجتي التي كنت أحتج بها في الدنيا، أو ملكي وسلطاني على الناس.

﴿خُذُوهُ﴾ خطاب لخزنة جهنم. ﴿فَغُلُّوهُ﴾ شدُّوه في الأغلال، واجمعوا يديه إلى عنقه في الغُلّ: وهو ما يكبل به الأسير أو المتهم من القيود والسلاسل. ﴿ٱلْجَحِيمَ﴾ النار المحرقة. ﴿صَلُّوهُ﴾ أدخلوه وأوردوه إياها، يصلى نارها ويحترق بها. ﴿ذَرْعُهَا﴾ طولها. ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ المراد أنها سلسلة طويلة، والمراد ذراع الملَك. ﴿فَٱسْلُكُوهُ﴾ أدخلوه فيها بعد إدخاله في النار، بأن تلفّوها على جسده كيلا يتحرك فيها. وتقديم الجحيم والسلسلة للدلالة على التخصيص، والاهتمام بذكر أنواع ما يعذب به، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لتفاوت ما بينهما في الشدة.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾ تعليل على طريقة الاستئناف للمبالغة، وذكر صفة ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ للإشعار بأنه هو المستحق للعظمة، فيجب

الإيمان به. ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ لا يحث على إطعامه، فضلاً عن أن يبذل من ماله. ﴿حَمِيمٌ﴾ قريب مشفق يحميه أو صديق ينتفع به. ﴿غِسْلِينٍ﴾ صديد أهل النار وما يسيل منهم من قيح أو دم. ﴿ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ الآثمون، أصحاب الخطايا، من خطئ الرجل: إذا تعمد الذنب، لا من الخطأ المضاد للصواب.

المناسبة:

بعد بيان حال السعداء في معايشهم وسكناهم في الجنة، بيَّن الله تعالى للموازنة والمقارنة والعبرة حال الأشقياء الكفار في الآخرة، وتعرضهم لألوان العذاب في نار جهنم، مع بيان سبب ذلك: وهو عدم الإيمان بالله العظيم، والإعراض عن مساعدة المساكين البائسين.

التفسير والبيان:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾﴾ أي وأما الشقي الذي يعطى كتابه بشماله أو من وراء ظهره، فيقول حزناً وكرباً، وألماً وندماً لما رأى فيه من سيئاته وقبيح أعماله: يا ليتني لم أعط كتابي. وهذا دليل على وجود العذاب النفسي قبل العذاب الجسدي.

﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ أي ولم أعلم أيّ شيء حسابي الذي أحاسب به؛ لأن كله وبال علي، ليت الموتة التي متها في الدنيا كانت القاطعة نهاية الحياة، ولم أحْيَ بعدها، فهو يتمنى دوام الموت وعدم البعث، لما شاهد من سوء عمله، وما يصير إليه من العذاب. قال قتادة: تمنَّى الموت، ولم يكن شيء في الدنيا أكره إليه منه. ونظير الآية: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٧٨/ ٤٠] .

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ أي ما أفادني مالي شيئاً،

ولم يدفع عني شيئاً من عذاب الله، وفقدت حجتي، وذهب منصبي وجاهي ومُلْكي، فلم يدفع عني العذاب، بل خلص الأمر إلي وحدي، فلا معين لي ولا مجير. قال أبو حيان: الراجح قول ابن عباس ومن ذكر معه أن السلطان هنا هو الحجة التي كان يحتج بها في الدنيا؛ لأن من أوتي كتابه بشماله ليس مختصاً بالملوك، بل هو عام في جميع أهل الشقاوة[1]. وحينئذ يقول الله عز وجل مبيناً مصيره وعاقبة أمره:

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ أي يأمر الله الزبانية قائلاً: خذوه مكبَّلاً بالقيود والأغلال، بجمع يده إلى عنقه في الغُلّ، ثم أدخلوه الجحيم ليصلى حرّها، ثم أدخلوه في سلسلة (حَلَق منتظمة) طولها سبعون ذراعاً تلفُّ على جسمه، لئلا يتحرك.

ثم بيّن الله تعالى سبب وعيده الشديد وعذابه قائلاً:

﴿كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ أي إنه كان كافراً جاحداً لا يصدق بالله صاحب العظمة والسلطان، ولا يحث على إطعام الفقير والمسكين البائس، فضلاً عن عدم بذله المال للبائسين، والمعنى أنه لا يؤدي حقوق الله من توحيده وعبادته وعدم الشرك به، ولا يؤدي حقوق العباد من الإحسان والمعاونة على البر والتقوى. وفي ذكر الحض دون الفعل تشنيع، يفيد أن تارك الحض كتارك الفعل. وفي الآية دلالة على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة.

والعذاب متعين لازم له، كما قال تعالى:

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ أي ليس له يوم القيامة قريب ينفعه، أو صديق يشفع له، أو ينقذه من عذاب الله تعالى، كما جاء في آية أخرى: ﴿مَا

(١) البحر المحيط: ٨/ ٣٢٥ وما بعدها.

﴿لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨/٤٠] . وقوله: ﴿هَٰهُنَا﴾ إشارة إلى مكان عذابهم.

وطعامه ما وصف تعالى:

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ۝٣٦ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ ۝٣٧﴾ أي وليس له طعام إلا ما يسيل من أجسام أهل النار من صديد ودم وقيح، لا يأكله إلا أصحاب الخطايا والذنوب. قال قتادة عن الغسلين: هو شر طعام أهل النار. والطعام: اسم بمعنى الإطعام، كالعطاء اسم بمعنى الإعطاء.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - إذا كان المؤمن يفاخر بكتابه ابتهاجاً وفرحاً، فإن الكافر الشقي يتمنى الموت، ويكره البعث والعودة إلى الحياة مرة أخرى، قال القفّال: تمنى الموت حين رأى من الخجل وسوء المنقلب ما هو أشدّ وأشنع من الموت.

٢ً - ذكر الله تعالى سرور السعداء أولاً، ثم ذكر أحوالهم في العيش الطيب وفي الأكل والشرب، ثم ذكر هنا غم الأشقياء وحزنهم، ثم ذكر أحوالهم حينما يزج بهم في نار جهنم في الغُلّ والقيد، وتناول طعام الغسلين، والتصلية[1] في الجحيم (وهي النار العظمى) وإدخاله في سلسلة طولها سبعون ذراعاً بذراع المَلَك.

٣ً - سبب الظفر بالجنة للمؤمنين السعداء الإيمان والأعمال الصالحة في الدنيا، وسبب العذاب والوعيد الشديد للأشقياء: هو عدم الإيمان بالله العظيم وعدم بذل المال للمساكين.

---

(١) قال المبرّد: أصليته النار: إذا أوردته إياها، وصلّيته أيضاً، كما يقال: أكرمته وكرّمته.

٤ - دلت آية ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ على أن الكفار يعاقبون على ترك الصلاة والزكاة. وهو المراد من قول جمهور الأصوليين: إن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة. عن أبي الدرداء: أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين، ويقول: خلعنا نصف السلسلة بالإيمان، أفلا نخلع النصف الباقي!

٥ - ليس للشقي في الآخرة حميم، أي قريب يدفع عنه العذاب، ويحزن عليه؛ لأنهم يتحامون ويفرّون منه، كقوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [المعارج: ٧٠/١٠] وقوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ٤٠/ ١٨].

٦ - طعام أهل النار الخاطئين (المذنبين): الغِسْلين: وهو صديد أهل النار السائل من جروحهم وفروجهم، قال قتادة: هو شر الطعام وأبشعه، وفي آية أخرى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾﴾ [الغاشية: ٨٨/٦] والضريع: شيء في النار كالشوك مُرّ منتن.

تعظيم القرآن وإثبات نزوله بالوحي

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾

القراءات:

﴿تُؤْمِنُونَ﴾، ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: قرئ:

١- (يؤمنون، يذَّكَّرون) وهي قراءة ابن كثير، وابن عامر، بخلف عن ابن ذكوان.

٢- (تؤمنون، تذَّكَّرون) وهي قراءة نافع، وأبي عمرو، وهو الوجه الثاني لابن ذكوان.

٣- (تؤمنون، تَذَكَّرون) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ صفة للمفعول المطلق لـ ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ أي تصدقون تصديقاً قليلاً، و﴿مَّا﴾ مزيدة للتأكيد.

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ ﴿تَنزِيلٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو تنزيل .﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾ في موضع رفع، لأنه اسم ﴿فَمَا﴾ لأن ﴿مِّنْ﴾ زائدة لتأكيد النفي، و﴿مِنكُم﴾ حال ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾، و﴿حَاجِزِينَ﴾ خبر ﴿فَمَا﴾. و﴿عَنْهُ﴾ في موضع نصب لأنه يتعلق بـ ﴿حَاجِزِينَ﴾ التقدير: فما منكم أحد حاجزين عنه. وجمع ﴿حَاجِزِينَ﴾ وإن كان وصفاً لـ ﴿أَحَدٍ﴾ لأنه في معنى الجمع، فجمع حملاً على المعنى، فإنه عام والخطاب للناس، ولأن أحداً في سياق النفي بمعنى الجمع، مثل ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٥] . ولم يُبطل ﴿مِنكُم﴾ عمل ﴿فَمَا﴾ لأن الفصل بالجار والمجرور والظرف لا يؤثر.

البلاغة:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ بينهما طباق السلب.

المفردات اللغوية:

﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ لا حاجة للقسم لظهور الأمر واستغنائه عن التحقيق بالقسم،

أو إن المراد بهذه الصيغة القسم، أي فأقسم، وهو مستأنف، ولا: زائدة. ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ من المشاهدات والمخلوقات. ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي بما غاب عنكم، فهذا قسم بالمشاهدات والمغيبات، وذلك يتناول الخالق والمخلوقات بأسرها.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي القرآن. ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي لقول جبرائيل أو محمد عليهما السلام، رسول كريم على الله، يبلغه عن الله تعالى، فإن الرسول لا يقول عن نفسه، والمراد به هنا النبي ﷺ في قول الأكثرين. وأما المراد به في سورة التكوير فهو جبريل عليه السلام في قول الأكثرين. ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ كما يزعمون؛ لأن الرسول ليس بشاعر. ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ كما يزعمون تارة أخرى، والكاهن: من يدعي معرفة الغيب. ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ أي تصدقون تصديقاً قليلاً، والقلة بمعناها الظاهر، وحمل الزمخشري القلة على العدم والنفي، أي لا تؤمنون البتة، وقال أبو حيان: لا يراد بـ ﴿قَلِيلًا﴾ هنا النفي المحض كما زعم الزمخشري، فإن هذا لا يكون في حال النصب، وإنما في حال الرفع ﴿مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ تتذكرون، و﴿مَّا﴾ مزيدة للتأكيد.

والخلاصة: أنهم آمنوا بأشياء يسيرة، وتذكّروها، مما أتى به النبي ﷺ من الخير والصلة والعفاف، فلم تغن عنهم شيئاً.

﴿تَنزِيلٌ﴾ بل هو تنزيل. ﴿تَقَوَّلَ﴾ أي النبي، سمى الافتراء تقولاً؛ لأنه قول متكلَّف، والأقوال المفتراة أقاويل، تحقيراً بها. ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ لنلنا منه عقاباً بالقوة والقدرة. ﴿الْوَتِينَ﴾ نياط القلب، وهو عرق متصل بالقلب، إذا انقطع مات صاحبه. ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ﴾ أي لا أحد عن القتل أو عن النبي. ﴿حَاجِزِينَ﴾ مانعين أو دافعين، والمراد: لا مانع لنا عنه من حيث العقاب.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ أي وإن القرآن لموعظة لأهل التقوى؛ لأنهم

المنتفعون به. ﴿أَنَّ مِنكُم﴾ أيها الناس. ﴿مُّكَذِّبِينَ﴾ بالقرآن، ومنكم مصدّقين. ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾، وإن القرآن لحسرة عليهم إذا رأوا ثواب المؤمنين المصدقين به، وعقاب المكذبين به. ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾ وإن القرآن اليقين الحق الذي لا ريب فيه. ﴿فَسَبِّحْ﴾ نزّه الله بذكر اسمه العظيم تنزيهاً له عن الرضا بالتقول عليه، وشكراً على ما أوحى إليك. وباء ﴿بِٱسْمِ﴾ زائدة.

سبب النزول:

نزول الآيات (٣٨ - ٤٠):

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾: قال مقاتل: سبب ذلك أن الوليد بن المغيرة قال: إن محمداً ساحر، وقال أبو جهل: شاعر، وقال عقبة: كاهن، فقال الله عز وجل: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أي أقسم.

المناسبة:

بعد الإخبار عن إمكان القيامة ووقوعها، وبيان أحوال السعداء والأشقياء فيها، ختم الكلام بتعظيم القرآن وإثبات كونه كلام الله تعالى المنزَّل على قلب رسوله محمد ﷺ.

التفسير والبيان:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ أي أُقسم لخلقي بما تشاهدون من المخلوقات الدالة على كمالي في أسمائي وصفاتي، وبما غاب عنكم من المغيبات، أو أقسم بالأشياء كلها ما يُبْصَر منها وما لا يُبْصَر إن القرآن كلام الله ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، وإنه لتلاوة رسول كريم، وقول يبلّغه رسول كريم، مؤدّىً عن الله بطريق الرسالة.

وإنما أضافه إلى الرسول على معنى التبليغ؛ لأن الرسول من شأنه أن يبلّغ عن المرسِل. وفي ذكر (الرسول) إشارة إلى أن هذا القرآن ليس قوله من تلقاء نفسه، وإنما هو قوله المؤدى عن الله بطريق الرسالة. وفي وصفه بالكرم إشارة إلى أمانته، وأنه ليس ممن يغير الرسالة طمعاً في أغراض الدنيا الخسيسة.

والأكثرون على أن الرسول الكريم هنا هو محمد ﷺ؛ لأنه ذكر بعده أنه ليس بقول شاعر ولا كاهن، والقوم ما كانوا يصفون جبرائيل بالشعر والكهانة، وإنما يصفون محمداً ﷺ.

وأما في سورة التكوير فالأكثرون على أنه جبرائيل عليه السلام، لأن الأوصاف التي بعده تناسبه، كما سيأتي.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي ليس القرآن بقول شاعر، كما تزعمون؛ لأن محمداً ﷺ ليس بشاعر، ولأن آيات القرآن ليست من أصناف الشعر، وأنتم تؤمنون إيماناً قليلاً، وتصدقون تصديقاً يسيراً. والقلة على ظاهرها وهي إقرارهم إذا سئلوا: من خلقكم؟ قالوا: الله. ويحتمل أن يكون المتصف بالقلة هو الإيمان اللغوي؛ لأنهم قد صدقوا بأشياء يسيرة لا تغني عنهم شيئاً؛ إذ كانوا يصدّقون أن الخير والصلة والعفاف ونحوه الذي كان يأمر به رسول الله ﷺ هو حق صواب.

وإنما قال عند نفي الشعر عنه: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ وعند نفي الكهانة: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ لأن انتفاء الشعرية عن القرآن أمر كالبيِّن المحسوس.

أما من حيث اللفظ فظاهر؛ لان الشعر كلام موزون مقفّى؛ وألفاظ القرآن ليست كذلك إلا النادر غير المتعمد. وأما من جهة التخيل فلأن القرآن فيه أصول كل المعارف والحقائق والبراهين والدلائل المفيدة للتصديق إذا كان المكلف ممن يصدّق ولا يعاند.

وانتفاء الكهانة عنه يحتاج إلى تأمل، فإن كلام الكهان أسجاع لا معاني لها، وأوضاع تنبو عنها الطباع، وأيضاً في القرآن سب الشياطين وذم سيرتهم، والكهان إخوان الشياطين، فكيف رضوا بإظهار قبائحهم[١].

﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي وليس القرآن بقول كاهن (وهو من يدعي الغيب في المستقبل) كما تزعمون، فإن الكهانة أمر آخر لا جامع بينها وبين القرآن، ولأن القرآن ورد بسب الشياطين، فلا يعقل أن يكون بإلهامهم، ولكنكم تتذكرون تذكراً قليلاً، ولذلك يلتبس الأمر عليكم، فلا تتذكرون كيفية نظم القرآن، واشتماله على شتم الشياطين، فقلتم: إنه كهانة. ثم صرح تعالى بالمقصود، فقال:

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ أي بل هو تنزيل من الله رب الإنس والجن، نزل به جبريل الأمين على قلب رسوله محمد ﷺ، وهو قول هذا الرسول بمعنى أنه مبلِّغ له عن المرسل، وهو الذي أظهره للخَلْق، ودعا الناس إلى الإيمان به، وجعله حجة لنبوته.

روى الإمام أحمد عن شُرَيح بن عبيد قال: قال عمر بن الخطاب: «خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أُسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن، قال: فقلت: كاهن، قال: فقرأ: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ إلى آخر السورة، قال: فوقع الإسلام في قلبي كل موقع»، قال ابن كثير: فهذا من جملة الأسباب التي جعلها الله تعالى مؤثرة في هداية عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

---

(١) غرائب القرآن للحسن القمي النيسابوري: ٢٩/٤٢

ثم أكد الله تعالى أن محمداً ﷺ لا يستطيع أن يفتعل القرآن، فقال:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ أي ولو افترى محمد أو جبريل شيئاً من الأقوال الباطلة، وجاء به من عند نفسه ونسبه إلى الله على سبيل الفرض، لأخذناه بالقوة، وعاجلناه بالعقوبة، وانتقمنا منه، أو لأخذنا بيمينه، كما يؤخذ الشخص عند إرادة قتله. فاليمين: القوة، كما قال الشمَّاخ:

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي ثم بترنا الوتين من قلبه، وهو عرق متصل من القلب بالرأس، إذا انقطع مات صاحبه. وهذا تصوير لإهلاكه بأفظع وأشنع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه.

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أي ليس منكم أحد يحجزنا عنه ويمنعنا منه أو ينقذه منا، فكيف يجرؤ على تكلف الكذب على الله لأجلكم؟! وجمع: ﴿حَٰجِزِينَ﴾ على المعنى؛ لأن قوله: ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾ في معنى الجماعة، يقع في النفي العام على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، مثل قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٥] وقوله سبحانه: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٢] . والمراد لا أحد يمنعنا عن الرسول أو عن القتل.

ثم ذكر الله تعالى أوصافاً ومنافع للقرآن، فقال:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ أي وإن القرآن لعظة وتذكرة لأهل التقوى الذين يخشون عذاب الله بإطاعة أوامره واجتناب نواهيه، كقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢] . وخصَّ ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بالذكر؛ لأنهم المنتفعون به. وناسب ذلك أنه تعالى أوعد المكذبين بقوله:

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي وإنا لنوقن أن بعضكم يكذب بالقرآن، كفراً وعناداً، ونحن نجازيهم على ذلك، وبعضكم يصدِّق به لاهتدائه إلى الحق. وفي هذا وعيد شديد للمكذبين.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ أي وإن هذا القرآن لحسرة وندامة على الكافرين يوم القيامة إذا رأوا ثواب المؤمنين وفضل الله عليهم.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾ أي وإن القرآن هو الخبر الصدق واليقين الحق الذي لا شك فيه ولا ريب؛ لكونه من عند الله، وليس من تقول محمد ﷺ.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ أي نزه الله الذي أنزل هذا القرآن العظيم عما لا يليق به، بالتسبيح، وهو قول: سبحان الله، وعن الرضا بالتقول عليه، وشكراً لله على ما أوحى به إليك.

واسم الرب: كل لفظ يدل على الذات الأقدس، أو على صفة من صفاته كالله والرحمن الرحيم، وتنزيه الاسم الخاص تنزيه للذات، فتكون الباء في ﴿بِٱسْمِ﴾ زائدة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - أقسم الله تعالى بالأشياء المخلوقة كلها، ما يراه الناس وما لا يرونه على أن القرآن العظيم من قول الله عز وجل، وليس قول الرسول ﷺ في الحقيقة، لكن نسب القول في الظاهر إلى الرسول؛ لأنه تاليه ومبلِّغه والعامل به، كقولنا: هذا قول مالك.

٢ - ليس القرآن أيضاً بقول شاعر؛ لأنه مباين لصنوف الشعر كلها، ولا بقول كاهن؛ لأنه ورد بسب الشياطين وشتمهم، فلا يمكن أن يكون ذلك

بإلهام الشياطين، إلا أن المشركين المعاندين لا يقصدون الإيمان، فلذلك أعرضوا عن التدبر، ولو قصدوا الإيمان لعلموا كذب قولهم: إنه شاعر؛ لمغايرة تركيب القرآن أنواع الشعر، وهم أيضاً لا يتذكرون كيفية نظم القرآن، واشتماله على شتم الشياطين، فقالوا: إنه نوع من أنواع الكهانة.

٣ً - إنما القرآن الكريم تنزيل من رب العالمين.

٤ً - لو فرض جدلاً أن النبي ﷺ تكلَّف وأتى بقول من عند نفسه، لأخذه الله بالقوة والقدرة، وعاقبه بالإهلاك، وتقطيع نياط القلب، وحينئذ لا أحد من القوم على الإطلاق يحجز عنه العذاب ويمنعه عنه.

٥ً - مهام القرآن: أنه تذكرة للمتقين الخائفين الذين يخشون الله، وقد أوعد الله على التكذيب به، وتكذيب القرآن سبب حسرة الكافرين في القيامة إذا رأوا ثواب المصدِّقين به، أو في الدنيا إذا رأوا دولة المؤمنين؛ لأن القرآن العظيم حق يقين لا ريب فيه، وحق لا بطلان فيه.

٦ً - أمر الله نبيه بتسبيحه وتنزيهه عما لا يليق به شكراً له على الإيحاء إليه، أو على أن عصمه من الافتراء عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المعارج

مكية، وهي أربع وأربعون آية

تسميتها:

سميت سورة المعارج؛ لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ أي تصعد إليه الملائكة وجبريل الأمين الذي خصه الله بنقل الوحي إلى الأنبياء والرسل عليهم السلام، وخصه بالذكر لشرفه وفضل منزلته، وهو المسمّى بالروح في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٩٣].

مناسبتها لما قبلها:

نزلت هذه السورة بعد ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾﴾ وهي كالتتمة لها في بيان أوصاف يوم القيامة والنار، وأحوال المؤمنين والمجرمين في الآخرة.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة كبقية السور المكية تتحدث عن أصول العقيدة الصحيحة، وفي قمّتها إثبات البعث والنشور، والجزاء والحساب، وأوصاف العذاب والنار.

شرعت السورة ببيان موقف أهل مكة من دعوة رسول الله ﷺ واستهزائهم به، وسؤال الكفار عن عذاب الله واستعجالهم به استهزاء وسخرية وعناداً،

متمثلاً ذلك بالنضر بن الحارث بن كَلْدة حين طلب إيقاع العذاب، والعذاب واقع بهم: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧﴾ [الآيات: ١-٧].

ثم وصف يوم القيامة وأهواله، والنار وعذابها، وأحوال المجرمين في ذلك اليوم الرهيب: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨﴾ إلى قوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ۝١٨﴾ [الآيات: ٨-١٨].

وناسب ذلك الحديث الاستطرادي عن طبيعة الإنسان وصفاته التي أوجبت له النار، ومدارها الجزع عند الشدة، والبطر عند النعمة، والبخل والشح عند الحاجة والأزمة وعلاج الفقر: ﴿۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾ [الآيات: ١٩-٢١].

واستثنت من ذلك المؤمنين المصلين الذين يتحلَّون بمكارم الأخلاق، فيؤدون حقوق الله وحقوق العباد معاً فيستحقون الخلود في الجنان: ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ۝٢٣﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ۝٣٥﴾ [الآيات: ٢٢-٣٥].

ثم ندَّدت السورة بالكفار، وهددتهم بالفناء والتبديل، وأوعدتهم بما يلاقونه يوم القيامة، ووصفت أحوالهم السيئة في الآخرة وقت البعث والنشور: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ۝٣٦﴾ إلى قوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾ [الآيات: ٣٦-٤٤].

تهديد المشركين بعذاب القيامة وتأكيد وقوعه

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ۝٩ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ۝١٨﴾

القراءات:

﴿سَأَلَ﴾ :

وقرأ نافع، وابن عامر (سال).

﴿تَعۡرُجُ﴾ :

وقرأ الكسائي (يعرج).

﴿يَوۡمِئِذِۭ﴾ :

وقرأ نافع، والكسائي (يَوْمَئِذٍ).

﴿نَزَّاعَةٗ﴾ :

قرأ حفص (نزاعةً) وقرأ الباقون (نزاعةٌ).

الإعراب:

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ قرئ بالهمز على الأصل، وقرئ بترك الهمزة بإبدال الهمزة ألفاً على غير قياس.

﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ﴿خَمْسِينَ﴾: خبر كان، و﴿أَلْفَ﴾: منصوب على التمييز، وجملة كان مع اسمها وخبرها في موضع جر صفة ﴿يَوْمٍ﴾.

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ ﴿يَسْـَٔلُ﴾ و﴿حَمِيمٌ﴾: فعل وفاعل، و﴿حَمِيمًا﴾: مفعول به، وقرئ (يُسأل) بالضم: فعل مبني للمجهول، تقديره: ولا يُسأل حميم عن حميمه. و﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾: أي يبصر الحميم حميمه، وأراد بالحميم الجمع، والضمير المرفوع في ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ يعود على المؤمنين، والهاء والميم تعود على الكافرين. والمعنى: يبصَّر المؤمنون الكافرين يوم القيامة، أي ينظرون إليهم في النار.

﴿إِنَّهَا لَظَىٰ، نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾ ﴿لَظَىٰ﴾ بالرفع: خبر (إن)، و﴿نَزَّاعَةً﴾: خبر ثان، أو ﴿لَظَىٰ﴾: خبر (إن)، و﴿نَزَّاعَةً﴾: بدل من ﴿لَظَىٰ﴾، أو أن هاء ﴿إِنَّهَا﴾ ضمير القصة، و﴿لَظَىٰ﴾: مبتدأ، و﴿نَزَّاعَةً﴾: خبره، والجملة: خبر (إن). ويصح كون ﴿لَظَىٰ﴾ بالنصب بدلاً من هاء ﴿إِنَّهَا﴾، و﴿نَزَّاعَةً﴾ بالرفع خبر (إن). ونصب ﴿نَزَّاعَةً﴾ على الحال المؤكدة، والعامل فيها معنى الجملة، مثل ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: ٢/ ٩١]، و﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ﴾: خبر ثالث، أو مستأنف.

البلاغة:

﴿بَعِيدًا﴾ و﴿قَرِيبًا﴾ بينهما طباق.

﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾ جناس اشتقاق، وكذا بين ﴿ٱلْمَعَارِجِ﴾ و﴿تَعْرُجُ﴾.

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ أي جبريل: عطف خاص على عام تنبيهاً على شرفه وفضله.

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾ تشبيه مرسل مجمل، لحذف وجه الشبه.

﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ، وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ ﴿وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ عموم بعد خصوص لبيان هول الموقف.

﴿إِنَّهَا لَظَىٰ ، نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾﴾ إلخ سجع مرصع.

المفردات اللغوية:

﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ دعا داع به، بمعنى استدعاه، ولذلك عدي بالباء، أي يكون السؤال أحياناً بمعنى طلب الشيء واستدعائه، ويعدّى حينئذٍ بالباء، تقول: سألت بكذا، أي طلبته. والأصل في السؤال أن يكون بمعنى الاستخبار عن الشيء، ويعدّى حينئذٍ بعن أو بالباء، تقول: سألت عنه وسألت به وبحاله. والسائل استهزاءً وتعنتاً: النضر بن الحارث، فإنه قال: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٢] أو أبو جهل، فإنه قال: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٨٧] أو الرسول ﷺ، استعجل بعذابهم.

﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ صفة أخرى لعذاب، أو صلة متعلقة بـ ﴿وَاقِعٍ﴾. ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ مانع وواق، أي إنه واقع لا محالة. ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ متصل بواقع. ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ ذي المصاعد وهي الدرجات التي يصعد فيها الكلم الطيب والعمل الصالح، أو مراتب الملائكة، أو السماوات، والظاهر: ذي السماوات، وقيل: ذي النعم والفضائل التي تكون درجات متفاضلة. ﴿تَعْرُجُ﴾ تصعد. ﴿وَالرُّوحُ﴾ جبريل عليه السلام. ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى مهبط أمره من السماء. ﴿فِي يَوْمٍ﴾ متعلق بقوله: ﴿تَعْرُجُ﴾. ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ هذا لبيان ارتفاع تلك المعارج وبُعْد مداها، بطريق التمثيل والتخييل، والمعنى: إنها بحيث لو قدر قطعها في زمان، لكان في زمان يقدر بخمسين ألف سنة من سني الدنيا. وهذا في الآخرة بالنسبة إلى الكافر، لما يرى فيه من الشدائد، وأما المؤمن فيكون عليه أخف من صلاة مكتوبة، كما جاء في الحديث النبوي الآتي بيانه.

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾ أي لا استعجال ولا جزع فيه، ولا اضطراب قلب، والكلام متعلق بـ ﴿سَأَلَ﴾ لأن السؤال كان استهزاءً أو تعنتاً، وذلك مما يضجره، والمعنى: قرب وقوع العذاب، فاصبر، فقد اقترب موعد الانتقام. ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ﴾ يرون العذاب أو يوم القيامة. ﴿بَعِيدًا﴾ من الإمكان، غير واقع. ﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ قريباً من الوقوع. ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ﴾ ظرف لكلمة ﴿قَرِيبًا﴾ أو متعلق بمحذوف تقديره: يقع. ﴿كَالْمُهْلِ﴾ هو مائع الزيت، أو دردي الزيت (ما يكون في قعر الإناء) أو هو مائع الفلزات (المعادن) المذابة، كذائب الفضة. ﴿كَالْعِهْنِ﴾ كالصوف المنفوش أو المندوف، أو كالصوف المصبوغ ألواناً. ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠﴾ قريب قريبه، لاشتغال كل واحد بحاله، فالحميم: القريب. ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي ينظر المؤمنون إلى الكافرين في النار. ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ﴾ يتمنى الكافر أو المذنب. ﴿لَوْ يَفْتَدِي﴾ أي يفتدي. ﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾ زوجته. ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ عشيرته، لفصله منها. ﴿تُؤْوِيهِ﴾ تضمه ويأوي إليها. وهو دليل على اشتغال كل مجرم بنفسه، بحيث يتمنى أن يفتدي بأقرب الناس وأعلمهم بقلبه، فضلاً عن أن يهتم بحاله ويسأل عنها. ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الثقلين أو الخلائق. ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ عطف على ﴿يَفْتَدِي﴾ أي ثم لو ينجيه الافتداء، وثم للاستبعاد.

﴿كَلَّا﴾ ردع للمجرم، وردّ لما يودّه، فهي كلمة تفيد الزجر عما يطلب. ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ أي إن النار هي النار الملتهبة أو جهنم؛ لأنها تتلظى، أي تتلهب على الكفار. ﴿لِلشَّوَىٰ﴾ أعضاء الإنسان، أو جلدة الرأس، تنتزعها، ثم تعود إلى ما كانت عليه. ﴿تَدْعُوا﴾ تجذب وتحضر. ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الإيمان والحق. ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الطاعة. ﴿وَجَمَعَ﴾ المال. ﴿فَأَوْعَىٰ﴾ جعله في وعاء، وكنزه حرصاً وتأميلاً، ولم يؤدّ حق الله فيه.

سبب النزول:

نزول الآيتين (١، ٢):

أخرج النسائي وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ قال: هو النضر بن الحارث، قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٢] . وأخرج ابن أبي حاتم عن السُّدي في قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ قال: نزلت بمكة في النضر بن الحارث، وقد قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ﴾ الآية. وكان عذابه يوم بدر. وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال: نزلت ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١﴾ فقال الناس: على من يقع العذاب؟ فأنزل الله: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢﴾.

التفسير والبيان:

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢﴾ أي دعا داعٍ وطالب بعذاب واقع بلا شك، يقع في الآخرة، كائن للكافرين، نازل بهم، لا يمنع ذلك العذاب الواقع أحد إذا أراده الله. والسؤال للاستهزاء والتعنت. والسائل: هو النضر بن الحارث بن كَلْدة أو غيره حين قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٢] .

﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣﴾ أي واقع من جهة الله سبحانه ذي المصاعد التي تصعد فيها الملائكة، قال ابن عباس: ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾: أي ذي السماوات، وسماها معارج؛ لأن الملائكة يعرجون فيها. وقال قتادة: ذي الفواضل والنعم؛ وذلك لأن لأياديه ووجوه إنعامه مراتب، وهي تصل إلى الناس على مراتب مختلفة.

والمراد: أن العذاب الذي طالب به الكفار واستعجلوه واقع بلا شك.

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ أي تصعد إلى الله عزّ وجلّ في تلك المعارج الملائكة وجبريل عليهم السلام في مدة يوم يقدّر بخمسين ألف سنة من سنوات الدنيا لو أراد البشر الصعود إليها، ولكن الملائكة الروحانيين تصعد إليها في زمن قليل. وليس المراد من الخمسين التحديد بعددٍ معين، بل المقصود الكثرة المطلقة، وأن صعود الملائكة في مكان بعيد المدة. وقوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى عرشه أو حكمه، أو إلى حيث تهبط أوامره، أو إلى مواضع العزّ والكرامة، وقوله: ﴿فِى يَوْمٍ﴾ في رأي الأكثرين متعلق بقوله: ﴿تَعْرُجُ﴾ أي يحصل العروج في مثل هذا اليوم، بقصد وصف اليوم بالطول مطلقاً.

والمراد باليوم في رأي آخر، وهو قول ابن عباس والحسن البصري: هو يوم القيامة تهويلاً وتخويفاً للكفار، والمراد أن موقفهم للحساب، حتى يفصل بين الناس، خمسون ألف سنة من سني الدنيا، ثم يستقر أهل النار في دركات النيران. وسبب الربط بين سؤال العذاب وبين عروج الملائكة: المقارنة بين اليوم في نظرهم وبين اليوم عند الله، فهم يرون الدنيا طويلة الأمد، وأما عند الله فالدنيا قصيرة إذا قيست باليوم عند الله.

والجمع بين هذه الآية وبين آية السجدة: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٣٢/ ٥] أن القيامة مواقف ومواطن، فيها خمسون موطناً، كل موطن ألف سنة.

وهذا إنما يكون في حق الكافر، أما في حق المؤمن فلا؛ لقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٤]، واتفقوا على أن ذلك المقيل والمستقر هو الجنة، ولما أخرجه الإمام أحمد وابن جرير عن أبي سعيد الخدري قال: قيل: يا رسول الله، ما أطولَ هذا اليوم؟!

فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنه ليخفَّف عن المؤمن حتى يكون أخفّ عليه من صلاة مكتوبة، يصليها في الدنيا» .

﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥﴾ أي لا تأبه يا محمد بسؤالهم العذاب استهزاءً وتعنُّتاً وتكذيباً بالوحي، ولا تضجر، واحلُم على تكذيبهم لك، وكفرهم بما جئت به، واستعجالهم العذاب استبعاداً لوقوعه، واصبر صبراً جميلاً: لا جزع فيه ولا شكوى إلى غير الله، وهذا معنى الصبر الجميل.

﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧﴾ أي إنهم يرون وقوع العذاب بعيداً، وقيام الساعة في اعتقاد الكفرة مستحيل الوقوع، ويرون أيضاً يوم القيامة الذي مقداره خمسون ألف سنة مستبعداً محالاً، ونحن نعلمه كائناً قريباً ممكناً غير متعذر؛ لأن كل ما هو آتٍ قريب.

ثم ذكر الله تعالى بعض أوصاف ومظاهر ذلك اليوم، فقال:

﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ۝٩ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ۝١٠﴾ أي إن يوم القيامة ذلك اليوم الذي تصير السماء فيه كعكر (دُرْدِيّ) الزيت، أو المذاب من النحاس، والرصاص، والفضة، أي تكون السماء واهية غير متماسكة الأجزاء، مبددة، وتكون الجبال كالصوف المنفوش إذا طيَّرته الريح؛ ولا يسأل قريب قريبه عن شأنه أو حاله في ذلك اليوم، وهو يراه في أسوأ الأحوال، فتشغله نفسه عن غيره، لما يرى من شدة الأهوال.

﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤﴾ أي يبصر كل حميم حميمه ويراه، ويعرّفه، لا يخفى منهم أحد عن أحد، دون أن يكلم بعضهم بعضاً، ويتمنى الكافر وكل مذنب ذنباً يستحق به النار أن يفتدي نفسه من عذاب يوم القيامة الذي نزل به، بأعز ما يجده من المال أو بأعز الناس

وأكرمهم لديه، من أولاده وإخوته وزوجته، وقبيلته وعشيرته الأقربين الذين ينتمي إليهم في النسب، أو يضمونه عند الشدائد، ويأوي إليهم، وينصرونه، بل يودّ المجرم لو افتدى بمن في الأرض جميعاً من الثقلين وغيرهما من الخلائق، ولا يقبل منه الفداء، ولا ينجيه الافتداء من عذاب جهنم، ولو جاء بأهل الأرض.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [لقمان: ٣١/٣٣] ، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ٣٥/١٨] ، وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/١٠١] ، وقوله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٨٠/ ٣٤-٣٧] . والخلاصة: أنه تعالى ذكر أربع صفات ليوم القيامة: تكون السماء فيه كالمهل، وتكون الجبال فيه كالعهن، ولا يسأل حميم حميماً، ويود المجرم الكافر الافتداء من عذاب ذلك اليوم بأعز الناس لديه وجميع من في الأرض.

ثم أكّد تعالى رفض قبول الفداء منه واستبعاده قائلاً:

﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ أي لا يقبل الفداء من المجرم، ولو افتدى بأهل الأرض وبمال الدنيا جميعاً، إنها جهنم الشديدة الحر مأواه كما قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الليل: ٩٢/١٤] ، والتي تنزع اللحم عن العظم حتى لا تترك فيه شيئاً، وتنزع جلدة الرأس وجلد أطراف اليدين والرجلين ولحم الساقين، ثم يعود كما كان، وتنادي جهنم كل من أدبر عن الحق والإيمان في الدنيا، وتولى عنه، وجمع المال فجعله في وعاء، فلم ينفق منه شيئاً في سبيل الخير، ومنع حق الله

فيه من الواجب عليه من النفقات وإخراج الزكاة. قال الحسن البصري: يابن آدم سمعت وعيد الله، ثم أوعيت الدنيا.

وكلمة ﴿كَلَّآ﴾ ردع للمجرم عن تلك الأمنية، وبيان امتناع قبول الفداء منه، وضمير ﴿إِنَّهَا﴾ للنار، ولم يجر لها ذكر؛ لأن العذاب دلّ عليها، ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً ترجم عنه الخبر، أو ضمير القصة، أي إن القصة. والدعاء على حقيقته كما روي عن ابن عباس، أو هو مجاز حيث شبه تهيؤ جهنم وظهورها للمكذبين بالدعاء والطلب لهم، فهو مجاز عن إحضارهم، كأنها تدعوهم فتحضرهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

١ - طلب كفار مكة تعجيل العذاب الموعود به استهزاءً وتعنُّتاً، والعذاب من الله صاحب معارج السماء أو معارج الملائكة واقع حتماً بالكفار في الآخرة، لا يدفعه عنهم أحد.

٢ - تصعد الملائكة وجبريل في المعارج التي جعلها الله لهم إلى المكان الذي هو محلهم، وهو في السماء؛ لأنها محل بِرّه وكرامته، فليس المراد من قوله ﴿إِلَيْهِ﴾ المكان، بل المراد انتهاء الأمور إلى مراده، وهو موضع العزّ والكرامة. وعروج الملائكة إلى المكان الذي هو محلهم في وقت كان مقداره على غيرهم لو صَعِد خمسين ألف سنة. وهذا هو الرأي الأصح في تقديري، وهو قول الأكثرين كما تقدم، وقيل: المراد باليوم هو يوم القيامة الموصوف بأنه بمقدار خمسين ألف سنة تهويلاً وتخويفاً للكفار. قال ابن عباس: هو يوم القيامة، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة، ثم يدخلون النار للاستقرار.

قال القرطبي عن قول ابن عباس: وهذا القول أحسن ما قيل في الآية إن شاء الله، بدليل حديث أبي سعيد الخدري المتقدم، وحديث أبي هريرة فيما رواه البخاري ومسلم والموطأ وأبو داود والنسائي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما

من رجل لم يؤدِّ زكاة ماله إلا جعل شجاعاً[١] من نار تكوى به جبهته وظهره وجنباه، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي الله بين الناس» فهذا يدل على أنه يوم القيامة[٢].

وهذا كما تقدم بالنسبة للكافر، وأما بالنسبة للمؤمن فيكون يوم الحساب في القيامة بمقدار ما بين الصلاتين، كما ثبت في الحديث الصحيح.

٣ - أمر الله نبيّه بالصبر الجميل على أذى قومه الذين يرون العذاب بالنار بعيداً، أي غير كائن، وهو في تقدير الله قريب الحصول؛ لأن ما هو آتٍ فهو قريب. والصبر الجميل: هو الذي لا جزع فيه، ولا شكوى لغير الله.

٤ - ذكرت الآيات أوصافاً أربعة: هي صيرورة السماء كدُرْدِيّ الزيت وعَكَره، أو كالمذاب من المعادن من الرصاص والنُّحاس والفضة، وجعل الجبال كالصوف المنفوش أو المصبوغ، ولا يسأل قريب قريبه عن شأنه لشغل كل إنسان بنفسه، مع أن الرجل يرى أباه وأخاه وقرابته وعشيرته ولا يسأله ولا يكلمه، لاشتغالهم بأنفسهم، ويتمنى الكافر أن يفتدي من عذاب جهنم بأعزّ من كان عليه في الدنيا من أقاربه، فلا يقدر، ويودّ لو فُدي بهم لافتدى، ثم يخلِّصه (ينْجيه) ذلك الفداء.

٥ - كلاّ، كما قال تعالى للزجر والردع، ليس ينجيه من عذاب الله الافتداء، إن له جهنم تتلظى نيرانها، وتنزع جلدة الرأس، واللحم عن العظم في الأطراف والجسد، وتطلب إليها كل من أدبر في الدنيا عن طاعة الله وتولى عن الإيمان، وجمع المال فجعله في وعائه، ومنع منه حق الله تعالى، فكان جَموعاً منوعاً؛ لأنه لم يؤدِّ الزكاة والحقوق الواجبة فيه، وتشاغل به عن دينه، وزها باقتنائه وتكبر.

---

(١) الشُّجاع: الحية الذكر.

(٢) تفسير القرطبي ١٨/ ٢٨٢ وما بعدها.

الخصال العشر التي تعالج طبع الإنسان

﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

القراءات:

﴿لأماناتهم﴾ وقرأ ابن كثير (لأمانتهم).

قرأ حفص (بشهاداتهم) وقرأ الباقون (بشهادتهم).

الإعراب:

﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾ العامل في ﴿إِذَا﴾ الأولى: (هلوع) وفي ﴿إِذَا﴾ الثانية: (منوع). و﴿هَلُوعًا﴾ حال من ضمير ﴿خُلِقَ﴾ وهذه الحال تسمى الحال المقدَّرة؛ لأن الهلعَ إنما يحدث بعد خلقه، لا في حال خلقه. و﴿جَزُوعًا﴾ و﴿مَنُوعًا﴾: خبر كان مقدرة، وتقديره: يكون جزوعاً ويكون منوعاً.

البلاغة:

﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾ بينهما مقابلة.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أريد بالإنسان الناس، فلذلك استثني منه ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿هَلُوعًا﴾ سريع الحزن والجزع، شديد الحرص قليل الصبر، قال الزمخشري: الهلع: سرعة الجزع عند مسّ المكروه، وسرعة المنع عند مسّ الخير. ﴿ٱلشَّرُّ﴾ أي الضّر. ﴿جَزُوعًا﴾ كثير الجزع، والمراد أنه يؤوس قنوط، والجزع: حزن يصرف الإنسان عن مهامّه. ﴿ٱلْخَيْرُ﴾ السعة أو المال والغنى. ﴿مَنُوعًا﴾ كثير المنع، يبالغ في الإمساك. وهذه الأوصاف الثلاثة (الهلع والجزع والمنع) طبائع جبل الإنسان عليها.

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ أي المؤمنين، استثناء من الموصوفين بالصفات المذكورة. ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ مواظبون لا يشغلهم عنها شاغل. ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ نصيب معين واجب كالزكاة والنذور. ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ الفقير الذي يستجدي. ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ الفقير المتعفف الذي لا يسأل، فيظن أنه غني، فيُحرم. ﴿يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يصدقون بيوم الجزاء تصديقاً قلبياً وعملياً، فيجتهد في العبادة، وينفق من ماله، طمعاً في المثوبة الأخروية. ﴿مُّشْفِقُونَ﴾ خائفون على أنفسهم. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ غير مأمون النزول، وهي جملة اعتراضية تدلّ على أنه لا ينبغي لأحد أن يأمن عذاب الله، وإن بالغ في طاعته. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾﴾ محافظون عليها من الحرام. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ من الإماء الرقيقات حينما كان الرّق قائماً موجوداً.

﴿ٱلْعَادُونَ﴾ المتجاوزون الحلال إلى الحرام، أو الحدود المسموح بها شرعاً. ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾ ما ائتمنوا عليه من أمور الدين والدنيا. ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ ما عاهدوا عليه والتزموا الوفاء به. ﴿رَٰعُونَ﴾ حافظون. ﴿بِشَهَٰدَٰتِهِمْ﴾ جمعت لاختلاف أنواعها. ﴿قَآئِمُونَ﴾ يؤدون الشهادة ولا يكتمونها. ﴿يُحَافِظُونَ﴾ يؤدونها في

أوقاتها، مراعين شرائطها وفرائضها وسننها. وتكرير ذكر الصلاة ووصفهم بها أولاً وآخراً للدلالة على فضلها. ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ بثواب الله.

المناسبة:

بعد بيان أوصاف يوم القيامة الرهيبة، نبَّه الله تعالى إلى طبائع البشر واتصافهم بالهلع والجزع والمنع التي تجمع أصول الأخلاق الذميمة، ثم استثنى المؤمنين الذين يعملون صالح الأعمال، ويتصفون بصفات عشر لعلاج أمراض النفس البشرية، وليكونوا قدوة للإنسانية ومثلاً أعلى يحتذى به.

التفسير والبيان:

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ أي إن الإنسان جبل على الضجر، أو الهلع: وهو شدة الحرص، وقلة الصبر، فلا يصبر على بلاء، ولا يشكر على نعماء، وفسّر ذلك بأنه إذا أصابه الفقر والحاجة أو المرض أو نحو ذلك من الضّر، فهو كثير الجزع أو الحزن والشكوى، وإذا أصابه الخير من الغنى والسعة أو المنصب والجاه أو القوة والصحة ونحو ذلك من النعم، فهو كثير المنع والإمساك والبخل على غيره.

روى الإمام أحمد وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «شرّ ما في رجل: شحّ هالع، وجبن خالع».

ثم استثنى الله تعالى من اتصف بالصفات العشر التالية، وهي:

١ - ٢: أداء الصلاة والمواظبة عليها: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي إن الناس يتصفون بصفات الذّم إلا الموفقين المهديين إلى الخير، وهم الذين يؤدون صلاتهم، ويحافظون على أوقاتها وواجباتها، فلا

يتركونها في شيء من الأوقات، ولا يشغلهم عنها شاغل، ولا يخلون بشيء من فرائضها وسننها، ويتمثلون حقيقتها من الصلة بالله والسكون والخشوع، فهؤلاء ليسوا على تلك الصفات من الهلع والجزع والمنع، وإنما هم بإيمانهم وكون دين الحق في نفوسهم على صفات محمودة وخلال مرضية.

وهذا دليل على وجوب المواظبة على العبادة، كما جاء في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قَلَّ» وفي لفظ «ما داوم عليه صاحبه» قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً داوم عليه، أو أثبته. فيكون المراد بالآية الذين يداومون على الصلوات في أوقاتها، وأما الاهتمام بشأنها فيحصل برعاية أمور سابقة على الصلاة كالوضوء، وستر العورة، وطلب القبلة وغيرها، وتعلق القلب بها إذا دخل وقتها، ورعاية أمور مقارنة للصلاة، كالخشوع، والاحتراز عن الرياء، والإتيان بالنوافل والمكملات. ورعاية أمور لاحقة بالصلاة، كالاحتراز عن اللغو وما يضادّ الطاعة؛ لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فارتكاب المعصية بعد الصلاة دليل على عدم قبول تلك الصلاة.

٣ - أداء الزكاة والواجبات المالية: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ أي والذين في أموالهم نصيب مقرر لذوي الحاجات والبائسين، سواء سألوا الناس أو تعففوا، وذلك يشمل الزكوات المفروضة وكل ما يلزم الإنسان نفسه به، من نذر، أو صدقة دائمة، أو إغاثة مستمرة. وهذا دليل على وجوب العبادة المالية ذات الأهداف الاجتماعية، بعد وجوب العبادات البدنية ذات المغزى الأخلاقي المربي للنفس، والغاية الدينية السامية، فيكون المراد بالحق: الزكاة المفروضة، بدليل وصفه بأنه معلوم، واقترانه بإدامة الصلاة. وقيل: هو ما سوى الزكاة، وإنه على طريق الندب والاستحباب.

٤ - التصديق بيوم الجزاء: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٢٦﴾ أي والذين يوقنون بيوم القيامة أو بالمعاد والحساب والجزاء، لا يشكُّون فيه ولا يجحدونه، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب. وهذا دليل على أن العمل له غاية تدفع إلى تصحيح الاعتقاد والقول والفعل.

٥ - الخوف من عذاب الله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ۝٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ۝٢٨﴾ أي والذين هم خائفون وجلون من عذاب الله إذا تركوا الواجبات، واقترفوا المحظورات، فإن العذاب واقع حتماً، ولا ينبغي لأحد أن يأمنه، وعلى كل واحد أن يخافه، إلا بأمان من الله تعالى.

ونظير الآية: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢] . وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٦٠] .

وهذا دليل على أن الخوف من العقاب باعث على الطاعة وزاجر عن المعصية، وأنه لا ينبغي لأحد أن يأمن عذاب الله، وإن بالغ في الطاعة.

٦ - العفة والبعد عن الفاحشة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٣١﴾ أي والذين يكفون فروجهم عن الحرام، ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله فيه، وهو الزوجة ومِلْك اليمين الذي هو الإماء، فلا لوم في الاستمتاع المشروع بهما، أما من قصد غير ذلك فهم المتجاوزون الحدود، المعتدون الذين يلحقون الضرر بأنفسهم وبأمتهم.

وهذا دليل على حرمة كل ما عدا الزواج ونحوه من الاستمتاع بالإماء، حينما كان الرق قائماً في العالم.

٧ - ٨: أداء الأمانات والوفاء بالعهود: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ

﴿٣٢﴾ أي الذين يؤدون الأمانات التي يؤتمنون عليها إلى أهلها، ويوفّون بالمعاهدات، ولا ينقضون شيئاً من العهود التي يعقدونها على أنفسهم، فإذا اؤتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدروا. وهذه صفات المؤمنين، وضدها صفات المنافقين، كما ورد في الحديث الصحيح: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذَب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» وفي رواية: «إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

٩ - أداء الشهادة بحق: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي الذين يؤدون الشهادة عند القضاة بحق، ويحافظون عليها دون زيادة ولا نقصان، ودون مجاملة لقريب أو بعيد، أو رفيع أو وضيع، ولا يكتمونها ولا يغيرونها.

١٠ - الحفاظ على الصلاة الكاملة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي والذين يحافظون على مواقيت الصلاة وأركانها وواجباتها ومستحباتها، لا يخلّون بشيء منها، ولا يشتغلون بشاغل عنها، ولا يفعلون بعدها ما يتناقض أو يتعارض معها، فيبطل ثوابها ويحبط أجرها، فيدخلون في صلاتهم بحماس ورغبة، ويفرغون قلوبهم من شواغل الدنيا، ويفكرون فيما يقرؤون أو يرددون من الأذكار، وتحضر قلوبهم مع الله، ويفهمون آي القرآن الكريم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي أولئك الموصوفون بالصفات السابقة، مستقرون في جنات الخلود، مكرمون بأنواع الكرامات، وألوان الملاذ والمسارّ، كما جاء في الحديث الذي رواه البزار والطبراني في الأوسط عن أبي سعيد: «في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

أ - كل إنسان مخلوق بطبائع معينة أساسها الحرص والجزع، ويجمعها صفة

الهلع، وهو في اللغة: أشد الحرص وأسوأ الجزع وأفحشه، فلا يصبر على خير ولا شر، حتى إنه يفعل فيهما ما لا ينبغي، فإذا مسّه الخير لم يشكر، وإذا مسّه الضر لم يصبر.

٢ً - إن شأن المؤمنين المصلين البعد عن الصفات الذميمة المبنية على الهلع، فصلاتهم الصحيحة الكاملة تربي فيهم الأخلاق الكريمة، وتمنعهم عن الأوصاف السيئة.

فتراهم يؤدون الصلاة المكتوبة على وجهها الصحيح، وفي مواقيتها المطلوبة شرعاً، ويداومون عليها دون انقطاع ولا تضييع، ويؤدون الزكاة المفروضة للفقراء والمساكين، ويؤمنون بيوم الجزاء وهو يوم القيامة، ويخافون من عذاب ربّهم، فهو العذاب الشديد الذي لا يأمنه أحد، بل الواجب على كل أحد أن يخافه ويشفق منه.

ويحافظون على فروجهم من الزنى أو الفاحشة، ولا يستمتعون بالنساء إلا من طريقين فقط، هما: الزواج والتسرّي بالإماء، ومن قصد غير ذلك فهو من المعتدين المتجاوزين حدود الله تعالى.

ويرعون الأمانات، ويوفون بالمواثيق والمعاهدات، ويؤدون الشهادات عند الحكام بحق وصدق على من كانت عليه من قريب أو بعيد، ولا يكتمونها ولا يغيرونها.

ويحافظون على كيفية الصلاة المقررة شرعاً، من وضوء وإتمام ركوع وسجود، وسكون وخشوع، دون اشتغال عنها بشيء من الشواغل، لا قبل الدخول فيها، ولا في أثنائها، ولا بعد الفراغ منها بالاحتراز عن الإتيان بعدها بشيء من المعاصي.

وجزاء هؤلاء المتصفين بالصفات المذكورة، والذي وعد به الله عزّ وجلّ هو الظفر بالجنات، والإكرام فيها بأنواع المكرمات.

أحوال الكفار المكذبين بالرسول ﷺ في الدنيا والآخرة

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

القراءات:

﴿نُصُبٍ﴾:

قرأ حفص وابن عامر (نُصُب) وقرأ الباقون (نَصْب).

الإعراب:

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾ ما: في موضع رفع مبتدأ، وخبره: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ و﴿كَفَرُوا۟﴾: صلة (الذين)، و﴿قِبَلَكَ﴾: ظرف مكان في موضع الحال من ضمير ﴿كَفَرُوا۟﴾ أو من المجرور: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أي كائنين قبلك. و﴿مُهْطِعِينَ﴾: حال بعد حال، و﴿عِزِينَ﴾: حال من ضمير ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أو ﴿ٱلَّذِينَ﴾. و﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾: من صلة ﴿عِزِينَ﴾. و﴿عِزِينَ﴾ جمع عِزَة، وأصلها عزوة أو عزهة مثل سنة، ثم حذفت اللام، وجمعت بالواو والنون عوضاً عن المحذوف، مثل (سنون).

﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ، عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ ﴿عَلَىٰٓ﴾: في موضع نصب، متعلق بـ

(قادرون) و﴿نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾: تقديره نبدّلهم بخير منهم، فحذف المفعول الأول، وحرف الجر من الثاني.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ ﴿يَوْمَ﴾: بدل من قوله: ﴿يَوْمَهُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ﴾ أي حتى يلاقوا يوم يخرجون. و﴿سِرَاعًا﴾: حال من واو ﴿يَخْرُجُونَ﴾.

وكذلك قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ حال من ضمير ﴿يَخْرُجُونَ﴾.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ حال من واو ﴿يُوفِضُونَ﴾ وكذلك ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ تقديره: ذلك اليوم الذي كانوا يوعدونه، فحذف المفعول العائد إلى الاسم الموصول وهو ﴿ٱلَّذِى﴾ تخفيفاً، مثل: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٤١] أي بعثه. و﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ وما بعده الخبر.

البلاغة:

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ﴾ استفهام إنكاري للتقريع والتوبيخ.

﴿كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ كناية عن المني، مع نزاهة التعبير، وحسن التذكير.

﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ تشبيه مرسل مجمل، وفي التشبيه تهكم بهم، وتعريض بسخف عقولهم، وتجهيل لهم بعبادة غير الله.

المفردات اللغوية:

﴿قِبَلَكَ﴾ حولك وناحيتك أو نحوك. ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين مديمي النظر نحوك. ﴿عِزِينَ﴾ جماعات متفرقين حلقات، جمع عِزَة، وأصلها عزوة من

العزو، كأن كل فرقة تعتزي وتنتسب إلى غير من تعتزي إليه الأخرى، وتستقل برأي خاص، وعزين من المنقوص الذي جاز جمعه بالواو والنون عوضاً من المحذوف، مثل عضين. ﴿أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ إنكار لقولهم: لو صحَّ ما يقوله محمد لنكوننَّ فيها أفضل حظاً منهم كما في الدنيا. ﴿كَلَّآ﴾ ردع لهم عن الطمع في الجنة. ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي خلقناهم وغيرهم من نطف مهينة، فمن لم يستكمل نفسه بالإيمان والطاعة، ولم يتخلق بأخلاق الملائكة، لم يتأهل لدخول الجنة.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ أي أقسم، ولا: زائدة. ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ أي للشمس والقمر وسائر الكواكب. ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي نهلكهم ونأتي بخلق أمثل منهم، أو نأتي بدلهم. ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾ بعاجزين أو بمغلوبين. ﴿فَذَرْهُمْ﴾ اتركهم. ﴿يَخُوضُواْ﴾ يتحدثوا في باطلهم. ﴿وَيَلْعَبُواْ﴾ في دنياهم. ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ﴾ يلقوا. ﴿ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ فيه العذاب.

﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾ القبور، جمع جَدَث. ﴿سِرَاعًا﴾ مسرعين إلى المحشر، جمع سريع. ﴿نُصُبٍ﴾ والنُّصْب جمع أنصاب، والنصب: كل شيء منصوب كالعَلَم أو الراية، والمراد هنا: ما ينصب للعبادة. ﴿يُوفِضُونَ﴾ يسرعون. ﴿خَٰشِعَةً﴾ ذليلة كسيرة. ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ تغشاهم. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ﴾ أي يوم القيامة.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٨):

﴿أَيَطْمَعُ﴾: قال المفسرون: كان المشركون يجتمعون حول النبي ﷺ يستمعون كلامه، ولا ينتفعون به، بل يكذبون به ويستهزئون ويقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة، لندخلنها قَبْلهم، وليكونَنّ لنا فيها أكثر مما لهم، فأنزل الله

تعالى هذه الآية: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾﴾[1]. وهذه قراءة الجمهور.

المناسبة:

بعد أن وعد الله تعالى المتصفين بصفات عشر بالجنات والإكرام، ذكر أحوال الكفار في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيسرعون إلى الكفر، لذا توعدهم الله بالإبادة والهلاك، وأمر رسوله ﷺ بالإعراض عنهم حتى يوم البعث، وأما في الآخرة فيخرجون من قبورهم مسرعين إلى معبوداتهم الباطلة من الأصنام والأوثان، وتكون أبصارهم ذليلة، وتغشاهم المذلة بسبب تكذيبهم بيوم القيامة.

التفسير والبيان:

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أي ما بال هؤلاء الكفار حواليك أيها النبي مسرعين إلى الكفر والتكذيب والاستهزاء بك، وتراهم عن يمين النبي ﷺ وعن شماله جماعات متفرقة، شاردين فِرقاً فِرقاً، وشيعاً شيعاً، فارين منه، متفرقين عنه، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر: ٧٤/٤٩-٥١].

وقيل: ﴿مُهْطِعِينَ﴾: مادّي أعناقهم، مديمي النظر إليك.

ثم تهكم الله تعالى بتمنياتهم الجنة، وأيأسهم من دخول الجنات، فقال:

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾﴾؟ أي أيطمع هؤلاء المشركون، وحالتهم هذه من الكفر والتكذيب والفرار من الرسول ﷺ

(١) أسباب النزول للواحدي: ص ٢٥٠

ونفرتهم عن الحق أن يدخلوا جنات النعيم؟! كلا، بل مأواهم جهنم، كما قال تعالى:

﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي كلا، لا أمل في دخولهم الجنة، فإنا خلقناهم من المني الضعيف، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [المرسلات: ٧٧/ ٢٠] . وهذا تقرير لوقوع المعاد والعذاب بهم الذي أنكروا حدوثه واستبعدوا وجوده، بدليل الخلق الأول أو البداءة التي يعترفون بها، فتكون الإعادة في تقدير البشر أهون منها، أما بالنسبة لله عز وجل فالبدء والإعادة سواء. وبما أنهم خلقوا من الشيء الضعيف، فهم ضعاف لا ينبغي منهم هذا التكبر.

أخرج أحمد وابن ماجه وابن سعد أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ ثم بزق رسول الله ﷺ على كفّه، ووضع عليها أصبعه، وقال: «يقول الله: ابن آدم، أنّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه؟ حتى إذا سوّيتك وعدّلتك، مشيت بين بردين، وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي أتى أوان الصدقة» .

ثم أنذرهم الله تعالى بالهلاك إن داموا على الكفر، وهددهم بإيجاد آخرين مكانهم لكي يؤمنوا، فقال:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ أي فأقسم بمشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها كل يوم من أيام السنة، على أننا قادرون أن نخلق أمثل منهم، وأطوع لله ممن عصوه، ونهلك هؤلاء، ولن يعجزنا شيء، وما نحن بمغلوبين إن أردنا ذلك، بل نفعل ما أردنا، لكن اقتضت مشيئتنا وحكمتنا تأخير عقابهم.

وهذا دليل على كمال قدرته تعالى على الإيجاد والإعدام مؤكداً بالقَسَم،

وأنه لا يعجزه شيء من الممكنات. وهو تهكم بهم وتنبيه على تناقض كلامهم، حيث إنهم ينكرون البعث، ثم يطمعون في دخول الجنة، وهم يعترفون بأن الله خالق السماوات والأرض وخالقهم مما يعلمون، ثم لا يؤمنون بأنه قادر على خلقهم مرة ثانية.

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالإعراض عنهم حتى يوم البعث زيادة في التهديد، فقال:

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي اتركهم يا محمد يتحدثون في باطلهم، ويلعبوا في دنياهم، ويعاندوا في تكذيبهم وكفرهم وإنكارهم يوم البعث، حتى يلقوا يوم القيامة وما فيه من أهوال، ويذوقوا وباله، ويجازوا بما عملوا.

ومن أحوالهم في هذا اليوم:

- ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي اذكر يوم يقومون من القبور بدعوة الرب تبارك وتعالى لموقف الحساب، مسرعين، متسابقين، كأنهم في إسراعهم إلى الموقف، كما كانوا في الدنيا يهرولون أو يسرعون إلى شيء منصوب، عَلَم أو راية، والمراد بالنُصُب هنا: كل ما ينصب فيعبد من دون الله سبحانه. وقوله: ﴿يُوفِضُونَ﴾: يسرعون ويتسابقون إليه.

- ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي وتكون أبصارهم ذليلة كسيرة، وتغشاهم المذلة الشديدة، لهول العذاب الذي يواجههم، وفي مقابلة استكبارهم عن الطاعة في الدنيا، ذلك اليوم المشتمل على الأهوال العظام هو اليوم الذي أوعدهم الله به، وأنذرهم بملاقاته، وكانوا يكذبون به، وليتهم آمنوا به، فنجوا من العذاب.

وعبر عن ذلك اليوم بلفظ الماضي؛ لأن ما وعد الله به يكون آتياً لا محالة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - أنكر الله تعالى على الكفار حول النبي ﷺ مسارعتهم إلى الكفر والتكذيب برسالته والاستهزاء به، فما بالهم يسرعون إليه ويجلسون حواليه، ولا يعملون بأوامره، وتراهم عن يمينه وشماله حِلَقاً حِلَقاً، وجماعات متفرقين.

٢ - ثم أنكر عليهم تناقضهم وتعارض أقوالهم ومواقفهم، فهم يكذّبون برسالة النبي ﷺ ويستهزئون بأصحابه، وينكرون البعث، ثم يقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنها قبلهم، ولئن أعطوا منها شيئاً لنعطين أكثر منه!! فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾﴾ أي إنهم منكرون للبعث، فكيف يطمعون في دخول الجنة؟

٣ - أيأسهم الله تعالى من دخول الجنة، فأخبر بأنهم لا يدخلونها، لاستكبارهم، فهم يعلمون أنهم مخلوقون من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة؛ كما خلق سائر جنسهم، فلا يليق بهم هذا التكبر، وليس لهم فضل يستوجبون به الجنة، وإنما تُستَوجب الجنة بالإيمان والعمل الصالح ورحمة الله تعالى.

روي أن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير رأى المهلب بن أبي صُفْرة يتبختر في مُطْرَف[1] خَزٍّ، وجُبَّة خَزٍّ، فقال له: يا عبد الله، ما هذه المِشْية التي يبغضها الله؟ فقال له: أتعرفني؟ قال: نعم، أولُك نُطفة مَذِرة[2]، وآخرك جيفة قَذِرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العَذِرة، فمضى المهلب وترك مشيته.

٤ - أقسم الله لإثبات البعث والرد على المشركين المنكرين له بمشارق الشمس ومغاربها على أنه قادر على إهلاكهم والذهاب بهم، والمجيء بخير منهم

(١) المطرف: واحد المطارف: وهي أردية من خز مربعة لها أعلام.

(٢) مذرة: فاسدة.

في الفضل والطوع والمال، لا يفوته شيء، ولا يعجزه أمر يريده، ولم يقع التبديل، وإنما هدد تعالى القوم بذلك ليؤمنوا.

٥ - أوعد الله تعالى المشركين وهددهم بعذاب القيامة، آمراً نبيه عليه السلام أن يتركهم يخوضوا في باطلهم، ويلعبوا في دنياهم، على جهة الوعيد، وأن يشتغل بما أُمر به، ولا يهمه شركهم، فإن لهم يوماً يلقون فيه ما وُعِدوا.

٦ - وصف الله حال المشركين يوم البعث بأنهم حين يسمعون الصيحة الآخرة إلى إجابة الداعي يخرجون مسرعين من القبور، كأنهم كما كانوا في الدنيا يسرعون ويتسابقون إلى النُّصُب: أي ما نُصب فعبد من دون الله.

ووصفهم أيضاً بأن أبصارهم تكون ذليلة خاضعة، لا يرفعونها لما يتوقعونه من عذاب الله، وتغشاهم مذلة وهوان.

٧ - إن هذا اليوم وهو يوم القيامة الذي يكون فيه الكفار على تلك الأوصاف هو اليوم الذي كانوا يوعدونه في الدنيا أن لهم فيه العذاب، ووعد الله آتٍ لا محالة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة نوح

مكية، وهي ثمانٍ وعشرون آية

تسميتها:

سميت سورة نوح باسم نبي الله نوح عليه السلام وقصته مع قومه من بداية دعوته إلى الطوفان، كما جاء في مطلع السورة: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾.

مناسبتها لما قبلها:

هناك وجهان لاتصال هذه السورة بما قبلها:

أ - تشابه مطلع السورتين في ذكر العذاب الذي وعد به الكفار: قوم محمد ﷺ في سورة المعارج، وقوم نوح عليه السلام في هذه السورة.

٢ - لما قال تعالى في أواخر المعارج: ﴿إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ ، عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [٤١] عقبه بقصة نوح المشتملة على إغراق قومه إلا من آمن، وتبديلهم بمن هم خير منهم، فوقعت موقع الاستدلال وإثبات خبر القدرة على التبديل، كما وقعت قصة أصحاب الجنة في سورة ﴿نٓ﴾ موقع الاستدلال على ما ختم به ﴿تَبَـٰرَكَ﴾.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة كغيرها من السور المكية التي عنيت بغرس أصول العقيدة،

وتبيان عناصر الإيمان، من عبادة الله وطاعته، وإبطال عبادة الأصنام والأوثان، والاستدلال على وجود الله ووحدانيته وقدرته.

افتتحت السورة ببيان إرسال الله تعالى نوحاً إلى قومه، وقيامه بإنذارهم ومطالبتهم بالإقلاع عن ذنوبهم، ليغفر الله لهم، وليمدهم بالأموال والبنين، وليجعل لهم جنات، يفجر فيها الأنهار، ولكنهم أبوا دعوته، وأمعنوا في الضلال والعصيان: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا﴾ إلى قوله: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ۝١٤﴾ [الآيات ١-١٤].

ثم أمرهم تعالى للاستدلال على وجوده ووحدانيته وقدرته والإقبال على طاعته وتعرف نعمه بالنظر في خلق السماوات والأرض، والتأمل في خلق الإنسان، وفيما أنعم به على الناس من تذليل الأرض وتسخيرها للنفع، وإيداع الكنوز والمعادن فيها، والتنقل في نواحيها، وسلوك السبل الواسعة فيها: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ۝١٥﴾ إلى قوله: ﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ۝٢٠﴾ [الآيات: ١٥-٢٠].

وختمت السورة ببيان كفر قومه وإصرارهم على عبادة الأصنام، وعقابهم في الدنيا والآخرة، ودعاء نوح عليه السلام على قومه بالهلاك والدمار بعد جهاد طويل في الدعوة دام تسع مئة وخمسين سنة، دون أن يقلعوا عن الشرك، ولم ينتفعوا بالإنذار والتذكير: ﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي﴾ إلى قوله: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [الآيات: ٢١-٢٨].

إرسال نوح عليه السلام إلى قومه

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ① قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ② أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ③ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ④﴾

القراءات:

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟﴾:

كسر النون وصلاً: أبو عمرو، وعاصم، وحمزة. وضمها الباقون.

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾، ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾:

وقرأ ورش، وحمزة وقفاً (ويوخركم، لايوخر).

الإعراب:

﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ ﴿أَنْ﴾: إما مفسرة بمعنى (أي) لتضمن الإرسال معنى القول، فلا يكون لها موضع من الإعراب، وإما في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر، أي بأن أنذر.

المفردات اللغوية:

﴿أَنْ أَنذِرْ﴾ أي بأن أنذر، أو بإنذار .﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ﴾ إن لم يؤمنوا. ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم، في الدنيا بالطوفان، وفي الآخرة بنار جهنم .﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بيِّن الإنذار .﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بأن اعبدوا الله .﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ ﴿مِّن﴾ زائدة، فإن الإيمان يغفر به ما قبله، أو تبعيضية لإخراج حقوق العباد .﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾

بلا عذاب .﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أجل مقدر بوقت معلوم لا يتجاوزه، وهو أقصى ما قدر لكم، وهو أجل الموت .﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ إن الأجل الذي قدّره .﴿إِذَا جَآءَ﴾ على الوجه المقدر به أجلاً. ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ فبادروا في أوقات الإمهال والتأخير .﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لو كنتم من أهل العلم والنظر لعلمتم ذلك، ولآمنتم. وفيه دلالة على أنهم لانهماكهم في حب الحياة العاجلة، كأنهم شاكون في الموت.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ أي إنا بعثنا نوحاً أول رسول أرسله الله إلى قومه، وقلنا له: أنذر قومك بأس الله قبل أن يأتيهم عذاب شديد الألم، وهو عذاب النار، أو الإغراق بالطوفان، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ قال نوح لقومه: إني منذر من عقاب الله ومخوّف لكم، بيِّن الإنذار، واضح الإعلام، أبيِّن لكم ما فيه نجاتكم، ومضمون الإنذار:

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ أي آمركم أن تعبدوا الله وحده لا شريك له، وأن تؤدوا حقوقه، وتمتثلوا أوامره، وتجتنبوا ما يوقعكم في عذابه؛ وتطيعوني فيما آمركم به، فإني رسول إليكم من عند الله تبارك وتعالى.

والتقوى: امتثال الأوامر، واجتناب المحارم والمآثم.

والتكليف بهذه الأمور الثلاثة له ثمرتان:

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي يستر لكم بعض ذنوبكم، ويسامحكم فيما فرط منكم من الزلّات، ويمد في أعماركم ويؤخر موتكم إلى الأمد الأقصى الذي قدّره الله لكم، إن آمنتم وأطعتم، وهذا وعد

على العبادة والطاعة بشيئين: أحدهما - دفع مضار الآخرة: وهو غفران الذنوب، والثاني - تحقيق منافع الدنيا، وهو تأخير الأجل إلى أقصى الإمكان.

وقد استدل العلماء بهذه الآية على أن الطاعة والبر وصلة الرحم، يزاد بها في العمر حقيقة، كما ورد في الحديث الذي رواه أبو يعلى عن أنس: «صلة الرحم تزيد في العمر» . قال الزمخشري: قضى الله مثلاً أن قوم نوح إن آمنوا عمّرهم ألف سنة، وإن بقوا على كفرهم، أهلكهم على رأس تسع مئة، فقيل لهم: آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى، أي إلى وقت سماه الله وضربه أمداً تنتهون إليه، لا تتجاوزونه، وهو الوقت الأطول تمام الألف[1].

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي ما قدّره لكم إذا جاء، وأنتم باقون على الكفر، لا يؤخر بل يقع لا محالة، فبادروا إلى الإيمان والطاعة، لو كنتم تعلمون، لعلمتم أن أجل الله إذا جاء لا يؤخر عن وقته. والمعنى: إن الأجل حتمي لا يؤجل، ولكن له تعلقاً وارتباطاً بشيء آخر، ففي حال الإيمان والطاعة يكون الأجل الأطول، ثم لا بدّ من الموت، وفي حال الكفر والمعصية يكون الأجل الأقصر، ثم يكون الموت.

والعاقل هو الذي يبادر إلى الطاعة قبل حلول النقمة، فإنه إذا أمر تعالى بالعقاب لا يرد ولا يمانع. وأضاف تعالى الأجل إليه سبحانه؛ لأنه الذي أثبته.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - أرسل الله تعالى رسوله نوحاً عليه السلام إلى قومه، لينذرهم ويخوفهم إن أصروا على الكفر العذاب المؤلم وهو عذاب النار في الآخرة، وما نزل

(١) الكشاف: ٣/ ٢٧٠

عليهم من الطوفان في الدنيا. روى قتادة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «أول رسول أُرسِل نوح، وأرسل إلى جميع أهل الأرض» . فلذلك لما كفروا أغرق الله أهل الأرض جميعاً.

٢ً - امتثل نوح عليه السلام أمر ربه، فبلَّغ قومه رسالته قائلاً: يا قوم إني لكم نذير واضح الإنذار، فمن عصى الله دخل النار، وآمركم أن توحدوا الله وتعبدوه حق العبادة الخالصة له، وأن تخافوه، وأن تطيعوه فيما آمركم به، فإني رسول الله إليكم. والأمر بالعبادة يتناول جميع الواجبات والمندوبات من أفعال القلوب وأفعال الجوارح. والأمر بالتقوى يتناول الزجر عن جميع المحظورات والمكروهات، والطاعة تشمل إطاعة جميع المأمورات والمنهيات.

فإن التزمتم العبادة والخوف من الله والطاعة لأوامره، غفر لكم بعض الذنوب، وهو ما لا يليق بحقوق المخلوقين، وينسئ في أعماركم. والمعنى: أن الله تعالى كان قضى قبل خلقهم أنهم إن آمنوا، بارك في أعمارهم، وإن لم يؤمنوا عوجلوا بالعذاب.

٣ً - إذا جاء الموت المحتم وقوعه لا يؤخر، بعذاب كان أو بغير عذاب. ولو كنتم أيها الناس تعلمون، لعلمتم أن أجل الله إذا جاءكم لم يؤخّر. وهذا زجر لهم عن حب الدنيا، والإعراض عن أحكام الدين أوامره ونواهيه.

مناجاة نوح ربه وشكواه إليه

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِيَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾

القراءات:

﴿دُعَاءِيَ إِلَّا﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر (دعائيَ إلا).

﴿إِنِّيٓ أَعْلَنتُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إنيَ أعلنت).

الإعراب:

﴿جِهَارًا﴾ منصوب على المصدر بـ ﴿دَعَوْتُهُمْ﴾ لأن الجهار أحد نوعي الدعاء، فنصب به، مثل قعدت القرفصاء، أو صفة لمصدر دعا أي دعاء جهاراً، أو حال، أي مجاهراً.

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ ﴿يُرْسِلِ﴾: مجزوم لأنه جواب الأمر، بتقدير إن، أي إن تستغفروا ربكم يرسل السماء عليكم مدراراً. و﴿مِّدْرَارًا﴾: حال من السماء، ولم تؤنث مدراراً؛ لأن مفعال في المؤنث يكون بغير تاء، مثل: امرأة معطار ومذكار ومئناث؛ لأنها في معنى النسب، كقولهم: امرأة طالق وحائض وطامث، أي ذات طلاق وحيض وطمث. ﴿أَطْوَارًا﴾ في موضع الحال.

﴿طِبَاقًا﴾ إما صفة لـ ﴿سَبْعَ﴾ أو منصوب على المصدر. ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ﴾ أي في إحداهن.

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾ ﴿نَبَاتًا﴾: منصوب على المصدر، والعامل فيه إما مقدر، تقديره: والله أنبتكم من الأرض فنبتم نباتاً، أو يكون مصدر ﴿أَنۢبَتَكُم﴾ على حذف الزائد.

البلاغة:

﴿لَيْلًا﴾ و﴿وَنَهَارًا﴾ بينهما طباق، وكذا بين ﴿جِهَارًا﴾ و﴿إِسْرَارًا﴾ وبين ﴿أَعْلَنتُ﴾ و﴿وَأَسْرَرْتُ﴾ وبين ﴿يُعِيدُكُمْ﴾ و﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾.

﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ مجاز مرسل، إذ المراد رؤوس أصابعهم، من إطلاق الكل وإرادة الجزء.

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾ استعارة تبعية في ﴿أَنۢبَتَكُم﴾ شبه إنشاءهم وخلقهم أطواراً بالنبات الذي ينمو تدريجياً.

﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ ذكر المصدر للتأكيد، وهو ما يسمى بالإطناب. وبين ﴿يُعِيدُكُمْ﴾ و﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ طباق.

﴿مِّدْرَارًا﴾، ﴿أَنْهَٰرًا﴾، ﴿وَقَارًا﴾، ﴿أَطْوَارًا﴾ إلخ سجع مرصع مراعاة لرؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿دَعَوْتُ قَوْمِى﴾ أي إلى الإيمان. ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي دائماً متصلاً. ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ هرباً عن الإيمان والطاعة وتفلتاً منهما. ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى الإيمان والطاعة. ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ سدوا مسامعهم عن استماع الدعوة. ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ تغطوا بها لئلا يروني كراهة النظر إلي. والتعبير بصيغة الدعوة أو الطلب للمبالغة. ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ وأكبوا على الكفر والمعاصي. ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الإيمان واتباعي. ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ عظيماً.

﴿جِهَارًا﴾ بأعلى صوتي. ﴿أَعْلَنتُ﴾ صوتي. ﴿وَأَسْرَرْتُ﴾ الكلام، أي دعوتهم مرة بعد أخرى، وكرة بعد أولى، على أي وجه أمكنني. وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لتفاوت الوجوه والتفنن في الأسلوب والدعوة. ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ اطلبوا المغفرة من الكفر أو الشرك، بالتوبة من ذلك. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ للتائبين. ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ أي المطر، وكان قد حبس الله عنهم المطر أربعين سنة، وأعقم أرحام نسائهم، فوعدهم بذلك على الاستغفار عما كانوا عليه، ولذلك شرع الاستغفار في الاستسقاء. ﴿مِّدْرَارًا﴾ غزيراً متتابعاً كثير الدرور.

﴿جَنَّٰتٍ﴾ بساتين. ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ﴾ لا تخافون أو لا تأملون. ﴿وَقَارًا﴾ عظمة وإجلالاً وتوقيراً، والمعنى على قوله: «لا تأملون» : ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم في دار الثواب. وإنما عبر عن الاعتقاد بالرجاء المشتمل على أدنى الظن مبالغة. ﴿أَطْوَارًا﴾ جمع طور أي أحوالاً وهيئات وعلى مراحل وأدوار في النمو والخلقة، كأنه قال: ما لكم لا تؤمنون بالله، والحال هذه، وهي حال موجبة للإيمان به؟! خلقكم أولاً من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم خلق العظام واللحم، ثم أنشأكم خلقاً آخر، من طفولة، فشباب، فكهولة.

﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ تنظروا. ﴿طِبَاقًا﴾ متطابقة، بعضها فوق بعض. ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ﴾ أي في السماوات، وهو في السماء الدنيا. ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ أي كالسراج وهو المصباح المضيء الذي يزيل ظلمة الليل عن وجه الأرض. ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧)﴾ أي خلقكم وأنشأكم من الأرض إنشاء، إذ خلق أباكم آدم منها، فاستعير الإنبات للإنشاء؛ لأنه أدل على الحدوث والتكون من الأرض. ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ مقبورين. ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ بالبعث والحشر، وأكده بالمصدر، كما أكّد به قوله: ﴿أَنْبَتَكُمْ﴾ للدلالة على أن الإعادة محققة كالبدء، وأنها تكون لا محالة.

﴿بِسَاطًا﴾ ممهدة منبسطة كالبساط، تتقلبون عليها، ﴿فِجَاجًا﴾ واسعة، جمع فج.

المناسبة:

بعد أن أخبر الله تعالى عن إرسال نوح عليه السلام إلى قومه، وامتثاله أمر ربه، ذكر مناجاته لربه وشكواه إليه، أنه دعاهم وأنذرهم، فعصوه وتمردوا عليه، بالرغم من تغيير أساليب الدعوة، والوعد بإنزال الأمطار، والإمداد بالأموال والبنين، وتخصيص الجنات والأنهار، وبالرغم من إقامة الأدلة على عظمة الله وقدرته، من خلق الإنسان على أطوار، وخلق السماوات السبع الطباق، وتزيينها بالشمس والقمر، وجعل الأرض ممهدة كالبساط.

التفسير والبيان:

ذكر الله تعالى أنواع الشكوى من نوح عليه السلام على قومه، فقال:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦)﴾ أي قال نوح مشتكياً إلى ربه عز وجل ما لقي من قومه وما صبر عليهم في مدة طويلة هي ألف سنة إلا خمسين عاماً: إني دعوت قومي إلى ما أمرتني بأن

أدعوهم إليه من الإيمان، دعاء دائماً متصلاً في الليل والنهار، من غير تقصير، امتثالاً لأمرك وابتغاء لطاعتك، فلم يزدهم دعائي إلا فراراً مِمّا دعوتهم إليه، وبعداً عنه، أي كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق، فرُّوا منه، وحادوا عنه. ثم ذكر أنهم عاملوه بأشياء:

- ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ أي وكلما دعوتهم إلى سبب المغفرة، وهو الإيمان بك، والطاعة لك، سدّوا آذانهم برؤوس أصابعهم، لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه، وغطوا بثيابهم وجوههم لئلا يروني، ولئلا يسمعوا كلامي، واستمروا على الكفر والشرك العظيم، واستكبروا عن قبول الحق استكباراً شديداً، أي استنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له.

- ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ أي إنني نوّعت أساليب الدعوة، فدعوتهم إلى الإيمان والطاعة جهرة بين الناس، أي مجاهراً لهم بها، ثم جمعت في الدعوة بين الإعلان بها والإسرار. والمراد بالآيات أنه كان لدعوته ثلاث مراتب:

بدأ بالمناصحة في السر ليلاً ونهاراً، ففروا منه.

ثم ثنّى بالمجاهرة؛ لأن النصح بين الملأ تقريع وتغليظ، فلم يؤثر.

ثم جمع بين الأمرين: الإسرار والإعلان، كما يفعل المجتهد المتحير في التدبير فلم ينفع. ومعنى ﴿ثُمَّ﴾ الدلالة على تباعد الأحوال، وتفاوت درجة الأسلوب، لأن الجهار أغلظ من الإسرار، والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما.

وهذا مشابه لمراحل الدعوة التي قام بها النبي ﷺ في مكة وجزيرة العرب، فكان موقف كفار قريش مماثلاً لموقف قوم نوح: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٢٦] .

ثم فسر الدعوة وأبان مضمونها بقوله:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ أي فقلت لهؤلاء القوم: سلوا ربكم غفران ذنوبكم السابقة بإخلاص النية، وتوبوا إلى الله من الكفر والمعاصي، إن ربكم الذي خلقكم وربَّاكم كثير المغفرة للمذنبين.

وفيه دلالة على أن الاستغفار يوجب زيادة البركة والنماء، لأن الفقر والقحط والآلام والمخاوف بشؤم المعاصي، فإذا تابوا واستغفروا، زال الشؤم والبلاء، وعاد الخير والنماء.

ثم وعدهم على التوبة من الكفر والمعاصي بخمسة أشياء، فقال:

١ - ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ أي إن استغفرتم ربكم يرسل المطر عليكم متتابعاً، كثير الدرور والغزارة، فيكثر الخير والخصب والغلال والثمار، ويعم الرخاء والاطمئنان والسعادة والاستقرار، ويمددكم بالأموال الكثيرة ويعطكم الخيرات الوفيرة، ويكثر لكم الذرية والأولاد بسبب الأمن والرفاه والشعور بالاستقرار والسعادة، ويجعل لكم البساتين النضرة الخضراء العامرة بالأشجار والثمار والفواكه، ويجعل لكم أنهاراً جارية بالماء العذب، التي يكثر بها الزرع والثمر والغلة.

وهذا دليل على أن الاستغفار من أعظم أسباب المطر وحصول أنواع الأرزاق، لذا كان مأموراً به في صلاة الاستسقاء، كما أن الآية تدل على أن الإيمان بالله يجمع لهم مع الحظ الوافر في الآخرة، الخصب والغنى في الدنيا.

وبعد الدعوة بالترغيب، وبخهم ولجأ إلى الدعوة بالترهيب قائلاً:

٢ - ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ أي ما لكم لا تخافون عظمة الله، فتوحدوه وتطيعوه، في حين أنه هو الذي خلقكم على

أطوار مختلفة، بدءاً من النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة، ثم العظام فاللحم، ثم تمام الخلق وإنشائكم خلقاً آخر، تمرون في دور الطفولة، ثم الشباب، ثم الكهولة، ثم الشيخوخة، فكيف تقصرون في توقير من خلقكم على هذه الأطوار البديعة؟

لكن لم يجز الرازي تفسير الرجاء بالخوف؛ لأن الرجاء في اللغة ضدّ الخوف، ورجح تفسير الزمخشري، وهو: ما لكم لا تأملون لله توقيراً أي تعظيماً، والمعنى: ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم. و﴿لِلَّهِ﴾ بيان للموقر.

وهذا دليل على وجود الله سبحانه ووحدانيته، معتمد على النظر في النفس الإنسانية، ثم أتبعه بدليل آخر من العالم العلوي، فقال:

٣ - ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ أي ألم تنظروا فوقكم كيف خلق السماوات السبع المتطابقة بعضها فوق بعض، وجعل القمر في السماوات، وهو في السماء الدنيا منهن، منوّراً لوجه الأرض، لا حرارة فيه، وجعل الشمس كالمصباح المضيء الذي يزيل ظلمة الليل، وينشر الحرارة والضياء.

وقدر للقمر منازل وبروجاً تدل على مضي الشهور، وتدل الشمس على مرور السنين كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس: ١٠/٥] .

ثم ذكر الله تعالى دليلاً من العالم الأرض السفلي، فقال:

٤ - ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ أي والله أوجد أباكم آدم من التراب، وجعله ينمو ويكبر كالنبات،

وجعل نموكم معتمداً على الغذاء من نتاج الأرض، وتحولها إلى نبات أو حيوان، ثم يعيدكم في الأرض، تموتون، وتتحلل أجزاؤكم، حتى تعود تراباً مندمجاً في الأرض، ثم يخرجكم أحياء منها بالبعث يوم القيامة، إخراجاً دفعة واحدة، لا إنباتاً بالتدرّج كالمرة الأولى. قال الزمخشري: استعير الإنبات للإنشاء ليكون أدل على الحدوث.

٥ - ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ أي ومن نعمه تعالى على الإنسان أنه جعل لكم الأرض ممهدة كالبساط، وثبّتها بالجبال، وجعلكم تتقلبون في أنحائها بحثاً عن الرزق، وأوجد لكم طرقاً واسعة بين الجبال وفي الوديان والسهول.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - استمر نوح عليه السلام في دعوة قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له طوال ألف سنة إلا خمسين عاماً، لم يفتر ولم يكلّ ولم يملّ ليلاً ونهاراً، سراً وجهراً، امتثالاً لأمر الله وابتغاءً لطاعته. ولكنهم بالرغم من هذه المدة الطويلة لم تزدهم دعوته للاقتراب من الحق إلا تباعداً عن الإيمان.

٢ - ذكر الرازي أن آية: ﴿إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ من الآيات الدالة على أن جميع الحوادث بقضاء الله وقدره.

٣ - صور الله تعالى نفور قوم نوح من دعوته إلى العبادة والتقوى والطاعة، لأجل أن يغفر الله لهم بصورة مادية محسوسة، وهي أنه كلما دعاهم إلى سبب المغفرة، وهو الإيمان بالله والطاعة له، سدّوا منافذ أسماعهم، لئلا يسمعوا دعاءه وطلبه، وغطّوا بثيابهم وجوههم لئلا يروه، واستكبروا عن قبول الحق استكباراً عظيماً. وهذا دليل على وجود الحجاب الكثيف، والغطرسة النفسية

عن سماع دعوة الحق، وتلك مبالغة تتفق مع أوضاعهم، فإنهم إذا جعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم مع ذلك، صار المانع من السماع أقوى.

٤ - سلك نوح عليه السلام في دعوة قومه إلى التوحيد وطاعة الله تعالى مراتب ثلاثاً: فبدأ بالمناصحة سراً، ثم ثنى بالمجاهرة، ثم جمع بين الإعلان والإسرار، وتلك سياسة ناجحة، وأسلوب ناجع استنفد فيه كل جهوده، إذا توافر التجاوب مع الدعوة، والتفاعل مع كلام الداعية.

٥ - إن الاشتغال بطاعة الله سبب يوجب زيادة البركة والنماء، وانفتاح أبواب الخيرات، وإدرار الأمطار، وزيادة الغلال، ووفرة الثمار، وقد وعدهم الله على الطاعة بخمسة أشياء: إنزال المطر، والإمداد بالأموال، والبنين، وجعل الجنات (البساتين)، وجعل الأنهار.

عن الحسن البصري رحمه الله: أن رجلاً شكا إليه الجدب، فقال: استغفر الله، وشكا إليه آخر الفقر، وآخر قلة النسل، وآخر قلة ريع أرضه، فأمرهم كلهم بالاستغفار، فقال له بعض القوم: أتاك رجال يشكون إليك أنواعاً من الحاجة، فأمرتهم كلهم بالاستغفار، فتلا له الآية: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾.

ويلاحظ أن الخلق مجبولون على محبة الخيرات العاجلة، لذا أطمعهم نوح بالخيرات في هذه الآية، وقال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ﴾ [الصف: ٦١/ ١٣].

٦ - آية الاستغفار هذه دليل على أن الاستغفار يستنزل به الرزق والأمطار. قال الشعبي: خرج عمر يستسقي، فلم يزد على الاستغفار حتى رجع، فأمطروا، فقالوا: ما رأيناك استسقيت؟ فقال: لقد طلبت بمجاديح[1]

(١) المجاديح: جمع مجدح: وهو نجم من النجوم، وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر، فجعل الاستغفار مشبهاً بالأنواء مخاطبة لهم بما يعرفونه، لا قولاً بالأنواء. وجاء بلفظ الجمع ليشمل جميع الأنواء التي يزعمون أن من شأنها المطر.

السماء التي يستنزل بها المطر؛ ثم قرأ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ، يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾.

٧ - رغّبهم نوح بالعبادة والطاعة، فقال: ما لكم لا تخافون لله عظمة وقدرة على أحدكم بالعقوبة؟ أي فلا عذر لكم في ترك الخوف من الله، وقد جعل لكم في أنفسكم آية دالة على توحيده. ثم هددهم ووبخهم بالعذاب إن أعرضوا عن دعوته، ثم استدل على وجود الله ووجوب طاعته بما يأتي.

٨ - أقام نوح عليه السلام الدليل على وجود الله وتوحيده وقدرته وعظمته بالنظر في النفس البشرية، والعالم العلوي من السماوات والشموس والأقمار، والعالم السفلي من التذكير بكنوز الأرض وخيراتها من معادن ونباتات وحيوانات.

فالله سبحانه هو الذي خلق الإنسان في الأصل من التراب، ثم جعل سبب بقاء نوع الإنسان بالتزاوج والتوالد، والعناية بالإنسان في أطوار حياته.

والله هو الذي خلق السماوات السبع المتطابقة بعضها فوق بعض، كل سماء مطبقة على الأخرى كالقباب، وجعل القمر نوراً منيراً في سماء الدنيا، والشمس مصباحاً مضيئاً لأهل الأرض، للتمكن من العمل والتصرف من أجل المعايش.

وكما خلق آدم من أديم الأرض كلها، وتناسلت ذريته من بعده، يعيد الله الناس إلى الأرض موتى بالدفن في القبور، ثم يخرجهم منها بالنشور للبعث يوم القيامة. والعودة إلى دلائل الأنفس هنا كالتفسير لقوله: ﴿خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾.

والله سبحانه جعل لعباده الأرض مبسوطة، لسلوك الطرق الواسعة الميسرة فيها.

وقد بدأ هنا بدلائل الأنفس؛ لأن نفس الإنسان أقرب الأشياء إليه، وقد يبدأ بدلائل الآفاق؛ لأنها أبهر وأعظم.

والخلاصة: أورد الله تعالى على لسان نوح عليه السلام أربعة أدلة على التوحيد: الأول - ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ والثاني - خلق السماوات والشمس والقمر، والثالث - الإنبات من الأرض، والرابع - جعل الأرض منبسطة ذات طرق واسعة.

أنواع من قبائح قوم نوح وأقوالهم وأفعالهم

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾

القراءات:

﴿وَوَلَدُهُ﴾: قرئ:

١- (وَوُلْده) وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وحمزة، والكسائي.

٢- (وَوَلَده) وهي قراءة الباقين.

﴿وَدًّا﴾:

وقرأ نافع (وُدًّا).

﴿خَطِيئَاتِهِمْ﴾:

وقرأ أبو عمرو (خطاياهم).

﴿ بَيْتِيَ ﴾ :

قرأ حفص (بيتيَ) وقرأ الباقون (بيتيْ).

الإعراب:

﴿مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿وَوَلَدُهُۥٓ﴾ مفرد، وقرئ: (وُلْده)بضم الواو وسكون اللام إما جمع (ولد) أو لغة في (ولد) كنُحل ونَحْل، وحُزْن وحَزَن، وسُقْم وسَقَم.

﴿وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾ ممنوعان من الصرف للتعريف ووزن الفعل.

﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ ديار: فيعال، من (دار يدور) وأصله: (دَيْوار) فاجتمعت الياء والواو، والسابق منهما ساكن، فقلبت الواو ياء، وجعلتا ياء مشددة، ولا يجوز أن يكون (فعّالاً) لأنه لو كان (فعّالاً) لوجب أن يقال (دوّار) فلما قيل (ديّار) دلّ على أنه (فيعال) لا (فعّال).

البلاغة:

﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ إلخ فيها ذكر الخاص بعد العام. وعكسه ذكر العام بعد الخاص في قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وكلاهما من باب الإطناب.

المفردات اللغوية:

﴿عَصَوْنِى﴾ فيما أمرتهم به .﴿وَٱتَّبَعُوا۟﴾ أي مجموع القوم الأدنياء .﴿مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ﴾ وهم الرؤساء أو القادة المنعم عليهم بذلك .﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ خسراناً في الآخرة .﴿وَمَكَرُوا۟﴾ أي الرؤساء، عطف على ﴿مَن لَّمْ يَزِدْهُ﴾ والضمير لمن جمعه للمعنى .﴿كُبَّارًا﴾ كبيراً في الغاية، عظيماً جداً؛ لأنهم كذبوا نوحاً وآذوه ومن اتبعه.

﴿وَقَالُوا۟﴾ للأدنياء السفلة .﴿لَا تَذَرُنَّ﴾ لا تتركن .﴿وَدًّا﴾ صنم لكلب. ﴿وَلَا سُوَاعًا﴾ صنم لهذيل .﴿وَلَا يَغُوثَ﴾ صنم لغُطيف بالجَرْف عند سبأ، أو لمذحج. ﴿وَيَعُوقَ﴾ لهَمْدان .﴿وَنَسْرًا﴾ صنم لحِمْيَر آل ذي الكلاع .﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟﴾ الضمير للرؤساء بأن أمروهم بعبادتهم، أو للأصنام .﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ عطف على ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟﴾ أو على ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾.

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ﴾ أي من أجل ذنوبهم وآثامهم .﴿أُغْرِقُوا۟﴾ أي بالطوفان. ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ وهو عذاب الآخرة أو عذاب القبر .﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي لم يجدوا غير الله أنصاراً يمنعون عنهم العذاب، وهو تعريض لهم باتخاذهم آلهة من دون الله لا تقدر على نصرهم .﴿دَيَّارًا﴾ نازل دار، أي أحداً، وهو مما يستعمل في النفي العام .﴿إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ من يفجر ويكفر، كان هذا الدعاء بعد الإيحاء إليه .﴿وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ وكانا مؤمنين .﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا﴾ منزلي أو مسجدي أو سفينتي إذا كان مؤمناً .﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى يوم القيامة .﴿تَبَارًا﴾ هلاكاً.

المناسبة:

بعد بيان أنواع الدلائل التي استدل بها نوح عليه السلام على توحيد الإله، أعلن نوح عصيان قومه، وحكى عنهم أنواع قبائحهم وأقوالهم وأفعالهم، ومحورها العكوف على عبادة الأصنام والأوثان. ثم ذكر ما يستحقونه من دخول النار في الآخرة، والهلاك في الدنيا بعد دعاء نوح عليهم بذلك، ودعائه بالمغفرة السابغة له ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات.

التفسير والبيان:

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ أي دعا نوح عليه السلام ربه قائلاً: يا رب، إن قومي استمروا على عصياني،

ولم يجيبوا دعوتي، واتبع الجمهور الرؤساء والكبراء وأهل الثراء، الذين لم يزدهم كثرة المال والولد إلا ضلالاً في الدنيا، وعقوبة في الآخرة، فخسروا الدنيا والآخرة.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ أي مكروا مكراً عظيماً كبيراً، وهو صدّ الناس عن دعوة نوح إلى الدين الحق وتوحيد الإله، وإغراؤهم السفلة على إيذاء نوح وقتله.

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ أي وقال الرؤساء للأتباع للإغراء بمخالفة نوح وعصيان أوامره وأقواله: لا تتركوا عبادة آلهتكم، وتعبدوا رب نوح، ولا تتركوا بالذات عبادة هذه الأصنام التي انتقلت عبادتها إلى العرب وهي ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر.

فكان وَدّ لكلب، وسُواعٌ لهذيل، ويغوث لغِطْفان، ويعوق لهَمْدان، ونَسْر لحِمْيَر آل ذي الكَلاع. وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام، فلما هلكوا أوحى[1] الشيطان إلى قومهم أن انْصُبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلما ماتوا وجاء آخرون، وسوس إليهم إبليس قائلاً: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسْقَوْن المطر، فعبدوهم.

وكان عند العرب أصنام أخرى: أهمها اللات لثقيف بالطائف، والعُزّى لسُلَيم وغطفان وجُشم، ومناة لخزاعة بقُدَيْد، وأساف ونائلة وهُبَل لأهل مكة، وهبل أكبر الأصنام عندهم، فوضع فوق الكعبة.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾﴾ أي وقد أضل كبراؤهم ورؤساؤهم كثيراً من الناس، وقيل: أضلت الأصنام كثيراً من الناس، فإنه

(١) الوحي: الإعلام في خفاء لأي شيء، من الأرض والإنسان والحيوان.

استمرت عبادتها في القرون بين العرب والعجم إلى عهد النبوة، كما قال إبراهيم الخليل في دعائه: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ، رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٥-٣٦] .

وناسب ذلك أن يدعو عليهم نوح عليه السلام لإضلالهم وضلالهم وكفرهم وعنادهم، فقال: ولا تزد الكافرين إلا حيرة وبعداً عن الصواب، فلا يهتدوا إلى الحق والرشد، وذلك كما دعا موسى عليه السلام على فرعون وقومه في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ١٠/ ٨٨].

ثم أبان الله تعالى جزاءهم وسبب الجزاء وهو إضلال الناس فقال:

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ﴿٢٥﴾﴾ أي من أجل كثرة سيئاتهم وآثامهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم، أغرقوا بالطوفان، ثم أدخلوا نار الآخرة، فلم يكن أحد يمنعهم من عذاب الله ويدفعه عنهم.

﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ أي لما أيس نوح من إيمانهم، دعا عليهم بعد أن أوحي إليه ذلك، فقال: رب لا تترك على وجه الأرض منهم أحداً يسكن الديار.

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ﴿٢٧﴾﴾ أي إنك إن أبقيت منهم أحداً أضلوا عبادك الذين تخلقهم بعدهم عن طريق الحق، ولا يلدوا إلا كل فاجر في الأعمال بترك طاعتك، كثير الكفران في القلب لنعمتك، لخبرته بهم، ومكثه معهم ألف سنة إلا خمسين عاماً.

ثم دعا نوح عليه السلام لأهل الإيمان، وأعاد الدعاء مرة أخرى على الكفار، قائلاً:

﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ أي رب استر علي ذنوبي واستر على والديَّ المؤمنين برسالتي، واغفر لكل من دخل منزلي وهو مؤمن، ولكل المصدقين بوجودك ووحدانيتك ولكل المصدقات بذلك من الأمم والأجيال القادمة، ولا تزد الذين ظلموا أنفسهم بالكفر إلا هلاكاً وخسراناً ودماراً.

وقد شمل دعاؤه هذا كل مؤمن وكل ظالم إلى يوم القيامة.

روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تصحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي».

ويستحب مثل دعاء نوح اقتداء به لجميع المؤمنين والمؤمنات من الأحياء والأموات.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - لا تجوز الشكوى إلا إلى الله عز وجل، ولذا شكا نوح قومه إلى ربه، وأنهم عصوه ولم يتبعوه فيما أمرهم به من الإيمان، بعد أن لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، داعياً لهم، وهم على كفرهم وعصيانهم. قال ابن عباس: رجا نوح عليه السلام الأبناء بعد الآباء؛ فيأتي بهم الولد بعد الولد، حتى بلغوا سبعة قرون، ثم دعا عليهم بعد الإياس منهم، وعاش بعد الطوفان ستين عاماً حتى كثر الناس وفشَوْا.

٢ - يقلد الناس في العادة قادتهم وكبراءهم، وقد اتبع قوم نوح رؤساءهم وأغنياءهم الذين لم يزدهم كفرهم وأموالهم وأولادهم إلا ضلالاً في الدنيا وهلاكاً في الآخرة؛ ومكروا مكراً عظيماً بصرف الناس الأتباع عن الدين والإيمان، وبإغراء السفلة على قتل نوح عليه السلام.

٣ - أصرّ قوم نوح على الكفر والعناد والتمرد وعبادة الأصنام، وتواصوا بعبادة الأوثان وترك عبادة الله، ولا سيما عبادة وَدّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر، وهي أصنام وصور، كان قوم نوح يعبدونها، ثم عبدتها العرب.

٤ - أكد نوح عليه السلام في شكواه أنه أضل كبراء قومه كثيراً من أتباعهم، لذا دعا عليهم بقوله: ولا تزد الظالمين الكافرين إلا عذاباً[1] وخسراناً وضلالاً عن طريق أهل الجنة، أو ضلال مكرهم. وإنما دعا نوح عليهم بالضلال غضباً عليهم حين عرف بالقرائن المفيدة للجزم أنهم لا يكادون يؤمنون.

٥ - إن خطايا وذنوب قوم نوح هي السبب في الإغراق بالطوفان ودخول نار جهنم بعد إغراقهم، فلم يجدوا حينئذ أحداً يمنعهم من عذاب الله.

٦ - استدل بعض أهل السنة وهو القشيري بآية ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ على إثبات عذاب القبر؛ لأن إدخال النار حصل عقيب الإغراق، فلا يحمل على عذاب الآخرة، وإلا بطلت دلالة الفاء على التعقيب، ولأنه قال: ﴿فَأُدْخِلُوا۟﴾ على سبيل الإخبار عن الماضي، وهذا إنما يصدق لو وقع ذلك.

ورد الرازي بأن الذي قالوه ترك للظاهر من غير دليل؛ لأن المعنى صاروا مستحقين دخول النار، وأما التعبير بقوله: ﴿فَأُدْخِلُوا۟﴾ فهو عن المستقبل بلفظ الماضي، لتأكد وقوعه وصحة وجوده[2].

٧ - قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ حجة على كل من عوّل على شيء غير الله تعالى؛ لأن الآية تعريض بالمشركين الذين واظبوا على

(١) كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [القمر: ٥٤/٤٧] والضلال هنا: العذاب.

(٢) تفسير الرازي: ٣٠/١٤٥

عبادة الأصنام، لتكون دافعة للآفات عنهم، جالبة للمنافع إليهم، فلما جاءهم عذاب الله لم ينتفعوا بتلك الأصنام، وما دفعت عنهم شيئاً من عذاب الله.

٨ً - دعا نوح على الكفار بالدمار والهلاك بعد أن يئس من اتّباعهم إياه، وبعد أن أوحى الله إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦/١١] فأجاب الله دعوته وأغرق أمته. وهذا كقول النبي ﷺ: « اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وزلزلهم» .

قال ابن العربي: دعا نوح على الكافرين أجمعين، ودعا النبي ﷺ على من تحزب على المؤمنين وألّب عليهم. وكان هذا أصلاً في الدعاء على الكافرين في الجملة، فأما كافر معين لم تعلم خاتمته فلا يدعَى عليه؛ لأن مآله عندنا مجهول، وربما كان عند الله معلوم الخاتمة بالسعادة. وإنما خص النبي ﷺ بالدعاء عُتبة وشَيْبة وأصحابهما؛ لعلمه بمآلهم وما كُشف له من الغطاء عن حالهم، والله أعلم[١].

٩ً - دعا نوح أيضاً لنفسه ولوالديه، وكانا مؤمنين، ولكل من دخل منزله مؤمناً، أو دخل مسجده ومصلاه مصلياً مصدقاً بالله تعالى، ولجميع المؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات عامّة إلى يوم القيامة.

ثم دعا أيضاً على الكافرين في مقابلة أهل الإيمان بقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ أي لا تزد الكافرين إلا هلاكاً، وهذا عام في كل كافر ومشرك.

---

(١) أحكام القرآن: ١٨٤٨/٤ وما بعدها.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجن

مكية، وهي ثلاثون آية

تسميتها:

سميت سورة الجن؛ لتعلقها بأحوالهم، فإنهم لما سمعوا القرآن، آمنوا به، ثم أبانوا علاقتهم بالإنس، ومحاولتهم استراق السمع، ورميهم بالشهب المحرقة، وغير ذلك من حديث الجن العجيب الذين منهم المؤمن ومنهم الكافر، والجن عالم لا نراه، ولا طريق لمعرفة شيء عنه إلا بالوحي الإلهي. ويلاحظ أن تسميات السور تبعث على النظر والتفكير.

مناسبتها لما قبلها:

ترتبط السورة بما قبلها من وجهين:

أ - قال الله سبحانه في سورة نوح: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ، يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ [١٠-١١] وقال تعالى في هذه السورة لكفار مكة: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ .

٢ - ذكر في السورتين شيء يتعلق بالسماء، كما ذكر فيهما عذاب العصاة، فقال تعالى في سورة نوح: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ [١٥] وقال عز وجل هنا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا

وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾ [٨] وقال في السورة المتقدمة: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [٢٥] وقال هنا: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [٢٣].

ما اشتملت عليه السورة:

هناك موضوعان بارزان في السورة هما: الإخبار عن حقائق تتعلق بالجن، وتوجيهات للنبي ﷺ في تبليغه الدعوة إلى الناس.

افتتحت السورة بالإخبار عن إيمان فريق من الجن بالقرآن العظيم حين سمعوا تلاوته من النبي ﷺ في صلاته في منى بعد عودته من الطائف قبيل الإسراء والمعراج: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الآيات: ١-٢] فهو كما قالوا كتاب يهدي إلى الرشد.

ثم أبانت تمجيدهم الله عز وجل وإفرادهم له بالعبادة وتنزيههم له عن اتخاذ الصاحبة والولد، وتسفيههم من جعل لله ولداً، وعلاقة الجن بالإنس: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾ [٣-٧].

وأعقبت ذلك بالإخبار عن محاولات الجن استراق السمع من السماء، للتعرف على خبر العالم العلوي، ومنعهم منه لإحاطة السماء بالحرس الملائكي، وإحراقهم بالشهب النارية بعد بعثة النبي ﷺ، وتعجبهم من هذا الحديث السماوي، وتساؤلهم: هل يراد به تعذيب أهل الأرض: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الآيات: ٨-١٠].

وصرح الجن بعدئذ بانقسامهم إلى فريقين: مؤمنين وكفار، مع تبشير المؤمنين بخير الدنيا والآخرة وعزهما، وإنذار الكافرين المعرضين عن هدي الله

وكتابه بالعذاب الشديد: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الآيات: ١١-١٨].

ووصفوا تجمعهم حول النبي ﷺ حين سمعوه يتلو القرآن: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الآية: ١٩].

واشتمل القسم الثاني من السورة على توجيهات للنبي ﷺ بأمره بتبليغ دعوته إلى الناس وإخلاص العمل لله وكونه لا يشرك بربه أحداً، وإعلامه بأنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، وأنه لا ينجيه أحد من الله إن عصاه، وأنه لا يدري بوقت العذاب: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾ [الآيات: ٢٠-٢٥].

وختمت السورة ببيان استئثار الله واختصاصه بمعرفة علم الغيب، وإحاطته بجميع ما لدى الخلائق وإحصاء أعدادهم: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [٢٦-٢٨].

إيمان الجن بالقرآن وبالله تعالى

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾

القراءات:

﴿قُرۡءَانًا﴾ :

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (قراناً).

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ﴾، ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ﴾، ﴿وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ﴾ :

قرأ ابن عامر، وحفص، وحمزة، والكسائي، وخلف، بفتح الهمزة في المواضع كلها.

وقرأ الباقون بكسرها.

الإعراب:

﴿أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ﴾ في موضع رفع، نائب فاعل لـ ﴿أُوحِيَ﴾ وعطف عليها جميع ما ذكر بعدها، وهو اثنا عشر موضعاً من لفظ (أنّ) فهو عطف على الموحى به، ويصح الكسر في الجميع عطفاً على المقول.

﴿كَذِبًا﴾ منصوب على المصدر؛ لأنه نوع من القول، أو صفة لمحذوف، أي قولاً مكذوباً فيه.

﴿أَن لَّن نَّقُولَ﴾ ﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة، أي أنه. وكذا ﴿أَن لَّن يَبۡعَثَ﴾ مخففة من الثقيلة .﴿أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ سدّ مسدّ مفعولي ﴿ظَنُّواْ﴾.

البلاغة:

﴿قُرۡءَانًا عَجَبًا﴾ وصف بالمصدر للمبالغة، أي عجيباً في إيجازه وإعجازه.

﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ بينهما طباق السلب؛ لأن الإيمان ضدّ الشرك ونفي له.

﴿ٱلْإِنسُ﴾ و﴿وَٱلْجِنُّ﴾ بينهما طباق.

﴿أَحَدًا﴾، ﴿وَلَدًا﴾، ﴿رَّصَدًا﴾، ﴿رَشَدًا﴾، ﴿قِدَدًا﴾، ﴿صَعَدًا﴾، ﴿عَـدَدًا﴾ إلخ توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات، وهو ما يسمى في علم البديع بالسجع المرصع.

المفردات اللغوية:

﴿قُلْ﴾ أيها النبي للناس. ﴿أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ أخبرني الله تعالى بالوحي. ﴿أَنَّهُ﴾ الهاء ضمير الشأن. ﴿ٱسْتَمَعَ﴾ لقراءتي القرآن. ﴿نَفَرٌ﴾ النفر: ما بين الثلاثة إلى العشرة. ﴿ٱلْجِنِّ﴾ أجسام عاقلة خفية مخلوقة من النار، والمقصود بهم هنا جن نصيبين، وذلك في صلاة الصبح ببطن نخل: موضع بين مكة والطائف، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٢٩]. ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ لقومهم لما رجعوا إليهم. ﴿قُرْءَانًا﴾ كتاباً. ﴿عَجَبًا﴾ بديعاً في حسن نظمه ودقة معناه، يتعجب منه من فصاحته وغزارة معانيه، مباين لكلام الناس. و﴿عَجَبًا﴾: مصدر وصف به القرآن للمبالغة.

﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ الإيمان والحق والصواب. ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ بالقرآن. ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ لما نطق به من الأدلة القاطعة الدالة على التوحيد. ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ الهاء ضمير الشأن. ﴿تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ تنزه جلاله وعظمته عما نسب إليه من الصاحبة والولد، والمعنى: وصف بالتعالي عن الصاحبة والولد لعظمته. والْجَدُّ: العظمة. وقرئ: جَدّاً بالتمييز، وجِدّ بالكسر، أي صدق ربوبيته، كأنهم سمعوا من القرآن ما نبههم على خطأ ما اعتقدوه من الشرك واتخاذ الصاحبة والولد. ﴿صَـٰحِبَةً﴾ زوجة. ويحتمل أن يكون المراد من الْجَدّ: الملك والسلطان أو الغنى، جاء في الحديث: «لا ينفع ذا الْجَدّ منك الْجَدّ» قال أبو عبيدة: لا ينفع ذا الغنى منك غناه. ﴿سَفِيهُنَا﴾ السفيه: الجاهل ومن عنده خفة وطيش تنشأ عن حمق وجهل. ﴿شَطَطًا﴾ غلوّاً في الكذب وتجاوزاً حدّ

العدل والحق بنسبة الصاحبة والولد إليه. ﴿كَذِبًا﴾ بوصفه بذلك، حتى تبينا كذبهم فيما قالوا. ﴿يَعُوذُونَ﴾ يستعيذون أو يطلبون النجاة والعون. ﴿بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ كان الرجل إذا أمسى بأرض قفر قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه. ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ زادوا الجنّ باستعاذتهم بهم. ﴿رَهَقًا﴾ طغياناً وكبراً وعتواً، وأصل الرهق: الإثم وارتكاب المعاصي. ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ أي الإنس. ﴿ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها الجن. ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ بعد موته.

سبب النزول:

نزول الآية (١):

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾: أخرج البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، ولكنه انطلق في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عُكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعوا إلى قومهم، فقالوا: ما هذا إلا لشيء قد حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا هذا الذي حدث، فانطلقوا، فانصرف النفر الذين توجهوا نحو تِهامة، إلى رسول الله ﷺ، وهو بنخلة، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء.

فهنالك رجعوا إلى قومهم، فقالوا: يا قومنا، إنا سمعنا قرآناً عجباً، فأنزل الله على نبيّه: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ وإنما أوحي إليه قول الجن.

نزول الآية (٦):

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ابن حيان في العظمة عن كردم بن أبي السائب الأنصاري قال: خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة، وذلك أول ما

ذكر رسول الله ﷺ، فآوانا المبيت إلى راعي غنم، فلما انتصف الليل، جاء ذئب، فأخذ حَمَلاً من الغنم، فوثب الراعي، فقال: عامر الوادي، جارك، فنادى مناد، لا نراه يا سِرْحان، فأتى الحَمَل يشتد حتى دخل في الغنم، وأنزل الله على رسوله بمكة: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ الآية.

وأخرج ابن سعد عن أبي رجاء العطاردي من بني تميم قال: بُعث رسول الله ﷺ، وقد رعيت على أهلي، وكفيت مهنتهم، فلما بعث النبي ﷺ خرجنا هراباً، فأتينا على فلاة من الأرض، وكنا إذا أمسينا بمثلها قال شيخنا: إنا نعوذ بعزيز هذا الوادي من الجن الليلة، فقلنا ذاك، فقيل لنا: إنما سبيل هذا الرجل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، من أقرَّ بها، أمِن على دمه وماله، فرجعنا فدخلنا في الإسلام، قال أبو رجاء: إني لأرى هذه الآية نزلت فيّ وفي أصحابي: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾.

التفسير والبيان:

حكى الله عن الجن ستة أشياء وهي:

أ - ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾ أي قل يا محمد مخبراً أمتك وقومك بأن الجن استمعوا القرآن، فآمنوا به وصدّقوه وانقادوا له، فقد أوحى الله إلي على لسان جبريل عليه السلام أنه استمع عدد من الجن إلى قراءتي للقرآن، وهي سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ [العلق: ٩٦/١] فقالوا لقومهم لما رجعوا إليهم: سمعنا كلاماً مقروءاً مثيراً للعجب في فصاحته وبلاغته، ومواعظه وبركاته. والإيحاء: إلقاء المعنى إلى النفس في خفاء، كالإلهام وإنزال الملك، ويكون ذلك في سرعة.

والجنّ عالم مستتر عنا، لا نعرف عنه إلا ما أخبر به الوحي، فهم مخلوقون

من النار: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر: ٢٧/١٥] ، ولم يرسل الله إليهم رسلاً منهم، بل الرسل جميعاً من البشر، وهم كالبشر منهم المؤمن المثاب، ومنهم الكافر المعاقب.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف: ٢٩/٤٦] .

﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ أي إن هذا القرآن يرشد إلى الحق والصواب ومعرفة الله تعالى، فصدقنا به أنه من عند الله، ولن نشرك مع الله إلهاً آخر من خلقه، ولا نتخذ إلهاً آخر، وهذا إعلان منهم للإيمان أمام قومهم حين رجعوا إليهم، كما جاء في تتمة آية الأحقاف السابقة: ﴿قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾.

وفي الآية دلالة أن أعظم ما في دعوة محمد ﷺ: توحيد الله تعالى، وخلع الشرك وأهله. وقد آمنت الجن أن القرآن كلام الله، بسماعه مرة واحدة، ولم ينتفع كفار قريش، ولا سيما رؤساؤهم، بسماعه مرات، مع كون الرسول ﷺ منهم يتلوه عليهم بلسانهم.

٢ً - ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ وأنه ارتفع عظمة ربّنا وجلاله، أو فعله وأمره وقدرته، وأنه تعاظم عن اتّخاذ الصاحبة والولد، كما يقول الكفار الذين ينسبون إلى الله الصاحبة والولد. والمعنى أنهم كما نفوا عن أنفسهم الإشراك بالله، نزهوا الرّب جلّ جلاله حين أسلموا وآمنوا بالقرآن عن اتّخاذ الصاحبة والولد. وبذلك أثبتوا وحدانية الله وامتناع وجود شريك له، ثم أثبتوا له القوة والعظمة، ونزهوه عن الحاجة والضعف باتخاذ الصاحبة والولد، شأن العباد الذين يتعاونون على أمور الحياة بالزوجة للسَّكَن والألفة، وبالولد للمؤازرة والتكاثر والأنس.

٣ً - ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾﴾ أي وإن مشركي الجن

وجهالهم كانوا قبل إسلامهم يقولون قولاً متجاوزاً الحدّ، بعيداً عن الصواب، غالياً في الكفر، فهم يكذبون على الله بدعوى الصاحبة والولد وغير ذلك. والشطط: مجاوزة الحد في الظلم والكفر وغيره من الباطل والزور.

٤ - ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ أي وأنا حسبنا أن الإنس والجن كانوا لا يكذبون على الله، حينما قالوا بأن له شريكاً وصاحبةً وولداً، فصدقناهم في ذلك، فلما سمعنا القرآن علمنا بطلان قولهم وبطلان ما كنا نظنه بهم من الصدق، وعرفنا أنهم كانوا كاذبين.

وهذا - كما ذكر الرازي - إقرار منهم بأنهم إنما وقعوا في تلك الجهالات بسبب التقليد، وأنهم إنما تخلصوا منها بالاستدلال والاحتجاج.

٥ - ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ أي كنا نرى أن لهم فضلاً علينا، فكان بعض الإنس يستعيذ في القفار ببعض الجن، فزادوا رجال الجن طغياناً وسفهاً وغيّاً وضلالاً وإثماً. وذلك أنه كان العرب إذا نزل الرجل بوادٍ قال: أعوذ بسيِّد هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه، فيبيت في جواره حتى يصبح. وقد أدى هذا إلى اجتراء الجن على الإنس وظلمهم.

ونظير الآية: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٦/١٢٨] .

٦ - ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾ أي وأن الإنس ظنوا كما ظننتم أيها الجن أنه لا بعث ولا جزاء، أو أنه لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولاً يدعو إلى التوحيد والإيمان بالله ورسله واليوم الآخر.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات الكريمات إلى ما يأتي:

أ - الإخبار عن قصص الجن له فوائد كثيرة أهمها بيان أنهم مكلفون بالتكاليف الشرعية كالإنس، وأن المؤمن منهم يدعو الكافر إلى الإيمان، وأن النبي ﷺ مبعوث إلى العالمين: الإنس والجن وإلى الملائكة تشريفاً، وأن يكون إيمانهم بالقرآن باعثاً كفار قريش وغيرهم إلى الإيمان به، وأنهم يسمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا.

لكن ظاهر القرآن يدل على أن النّبي ﷺ ما رآهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسْتَمَعَ﴾. وفي صحيح البخاري ومسلم والترمذي عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجنّ وما رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عُكاظ.. إلخ ما ذكر في سبب النزول المتقدم. ففي هذا الحديث دليل على أنه ﷺ لم يرَ الجن، ولكنهم حضروه، وسمعوا قراءته. وفيه دليل على أن الجنّ كانوا مع الشياطين حين تجسسوا الخبر، بسبب الشياطين لما رُمُوا بالشهب، وكان المرميون بالشهب من الجنّ أيضاً، لقوله ﷺ في الحديث: «وأرسلت عليهم الشُّهُب» .

ومذهب ابن مسعود أنه أمر النبي ﷺ بالمسير إليهم ليقرأ القرآن عليهم، ويدعوهم إلى الإسلام، وأن النّبي ﷺ رأى الجن، قال القرطبي: وهو أثبت؛ روى عامر الشعبي قال: سألت علقمة: هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجنّ؟ فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود، فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجنّ؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشِّعاب، فقلت: استُطير[1] أو

(١) استطير فلان: ذعر.

اغتيل، قال: فبتنا بشرِّ ليلة بات بها قوم، فلما أصبح إذا هو يجيء من قِبَل حِراء، فقلنا: يا رسول الله! فقدناك وطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشرِّ ليلة بات بها قوم، فقال:

«أتاني داعي الجن، فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن» فانطلق بنا، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد وكانوا من جِنّ الجزيرة؛ فقال: «لكم كلُّ عَظْم ذُكر اسم الله عليه، يقع في أيديكم أوفرَ ما يكون لحماً، وكلُّ بَعْرة عَلَفٌ لدوابكم» فقال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما، فإنهما طعام إخوانكم الجن».

قال ابن العربي: وابن مسعود أعرف من ابن عباس؛ لأنه شاهده، وابن عباس سمعه، وليس الخبر كالمعاينة[١].

وأصل الجن كما قال الحسن البصري: أن الجن ولد إبليس، والإنس ولد آدم، ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون وكافرون، وهم شركاء في الثواب والعقاب. فمن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً، فهو ولي الله، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان.

٢ - حكى الله عن الجن أشياء:

أولاً - إنهم لما سمعوا القرآن العجيب في فصاحة كلامه وبليغ مواعظه الهادي إلى مراشد الأمور، قالوا: اهتدينا به وصدّقنا أنه من عند الله، ولن نشرك بربّنا أحداً، أي ولن نعود إلى ما كنّا عليه من الإشراك به.

ثانياً - إنهم كما نفوا عن أنفسهم الشرك، نزّهوا ربّهم عن الصاحبة والولد، لذا قالوا: عظُم الله سبحانه عن أن يكون له صاحبة أو ولد.

(١) أحكام القرآن: ٤/ ١٨٥٢

ثالثاً - استنكروا ما كان يقول إبليس والجن قبل إسلامهم من الكذب والغلو في الكفر ومجاوزة الحدّ في الظلم.

رابعاً - حسبوا أن لن يكذب الإنس والجن على الله، فلذلك صدقوهم فيما سلف في أن لله صاحبةً وولداً، فلما سمعوا القرآن تَبيّنوا به الحقّ.

خامساً - كان الرجل في الجاهلية إذا سافر فأمسى في قفر من الأرض قال: أعوذ بسيد هذا الوادي، أو بعزيز هذا المكان من شرّ سفهاء قومه، فيبيت في جوار منهم حتى يصبح، فزاد الإنسُ الجنَّ طغياناً وعتواً بهذا التعوذ، حتى قالت الجن: سُدْنا الإنس والجن. وقيل: ازداد الإنس بهذا فَرَقاً وخوفاً من الجن، وقيل: زاد الجنُّ الإنس رهقاً أي خطيئةً وإثماً.

ويقال بدلاً من هذه الاستعاذة: ما جاء في حديث أخرجه أبو نصر السجزي في الإبانة عن ابن عباس، وقال غريب جداً: أنه ﷺ قال: «إذا أصاب أحد منكم وحشة أو نزل بأرض مَجَنَّة[1]، فليقل: أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزها برّ ولا فاجر من شرّ ما يلج في الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ومن فتن النهار، ومن طوارق الليل إلا طارقاً يطرق بخير».

سادساً - ظن الإنس كما ظن الجن أن لن يبعث الله الخلق، أو ظنت الجن كما ظنت الإنس أن لن يبعث الله رسولاً إلى خلقه يقيم به الحجة، وكل هذا توكيد للحجة على قريش، فإذا آمن هؤلاء الجن بمحمد، فأنتم أحق بذلك. وعلى هذا يكون الكلام كلام الجن، وهو الظاهر.

ويحتمل أن يكون الكلام من قول الله تعالى للإنس، والمعنى: وأن الجن ظنوا كما ظننتم يا كفار قريش.

---

(١) أرض مجنة: أي ذات جنّ.

وعلى كلا التقديرين: دلت الآية على أن الجن كما كان فيهم مشرك ويهودي ونصراني، فيهم من ينكر البعث.

حكاية أشياء أخرى عن الجن

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾

القراءات:

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا﴾، ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ﴾، ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ﴾، ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾، ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾، ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾:

قرأ ابن عامر، وحفص، وحمزة، والكسائي، وخلف، بفتح الهمزة في المواضع كلها. وقرأ الباقون بكسرها.

﴿يَسْلُكْهُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (نسلكه).

الإعراب:

﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾ ﴿فَوَجَدْنَٰهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، وإما أن تجعل (وجد) متعدية إلى مفعولين، بمعنى علمناها، والها: المفعول

الأول، وجملة ﴿مُلِئَتۡ﴾ المفعول الثاني، وإما أن تجعل متعدية إلى مفعول واحد، بمعنى أصبناها، وتجعل ﴿مُلِئَتۡ﴾ في موضع الحال، بتقدير (قد)، و﴿حَرَسًا﴾: تمييز منصوب.

﴿أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ﴾ ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة: أنه.

﴿وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ ﴿هَرَبًا﴾ منصوب على المصدر في موضع الحال، تقديره: ولن نعجزه هاربين.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ﴾ بالعطف على هاء ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ على تقدير حذف حرف الجر، لكثرة حذفه مع (أنّ) علماً بأن العطف على الضمير المجرور لا يجوز. وبكسر (إنا) بالعطف على قوله: ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ وما بعده في تقدير الابتداء والاستئناف، قال ابن بحر: كل ما في هذه السورة من (إن) المكسورة المثقلة، فهي حكاية لقول الجن الذين استمعوا القرآن، فرجعوا إلى قومهم منذرين، وكل ما فيها من (أن) المفتوحة، فهي وحي إلى رسول الله ﷺ.

﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف، أي وأنهم.

﴿يَسۡلُكۡهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ ﴿عَذَابًا﴾ منصوب بتقدير حذف حرف الجر، تقديره: يسلكه في عذاب، فحذف حرف الجر، فاتصل الفعل به، فنصبه. و﴿صَعَدًا﴾: مصدر وصف به العذاب.

البلاغة:

﴿نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ تأدب مع الله بنسبة الخير إلى الله، دون الشر، وبين لفظ (الشر) و (الرشد) طباق في المعنى.

﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ استعارة، استعار الطرق للمذاهب المختلفة.

﴿ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ و﴿ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ طلبنا بلوغها واستماع أخبارها .﴿حَرَسًا﴾ حرّاساً من الملائكة، وهو اسم جمع كالخدم، مفرده حارس .﴿شَدِيدًا﴾ قوياً .﴿وَشُهُبًا﴾ نجوماً محرقة، جمع شهاب: وهو الشعلة من نار ساطعة .﴿نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ أي نحاول الاستماع والترصد .﴿رَّصَدًا﴾ أي أرصد وهيئ له ليرمى به .﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾ بعد استراق السمع .﴿بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بحراسة السماء. ﴿رَشَدًا﴾ خيراً وصلاحاً.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ المؤمنون الأبرار بعد استماع القرآن .﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي ومنا قوم دون ذلك، أي غير صالحين، فحذف الموصوف .﴿كُنَّا طَرَآئِقَ﴾ ذوي طرائق، أي مذاهب. ﴿قِدَدًا﴾ متفرقة مختلفة، مسلمين وكافرين، جمع قدّة، من قدّ: إذا قطع .﴿ظَنَنَّآ﴾ علمنا .﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ لا نفوته ولا نفلت منه كائنين في الأرض، أينما كنا فيها، أو هاربين منها في السماء، إن طُلبنا .﴿ٱلْهُدَىٰٓ﴾ القرآن .﴿فَلَا يَخَافُ﴾ أي فهو لا يخاف .﴿بَخْسًا﴾ نقصاً من حسناته .﴿وَلَا رَهَقًا﴾ ظلماً بالزيادة في سيئاته.

﴿ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ الجائرون عن طريق الحق وهو الإيمان والطاعة .﴿تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ قصدوا وتوخوا طريق الحق والهداية ليبلغهم إلى دار الثواب .﴿حَطَبًا﴾ وقوداً للنار .﴿عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ هي طريق الإسلام .﴿مَّآءً غَدَقًا﴾ كثيراً .﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنختبرهم فيه كيف يشكرونه .﴿ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ تذكيره وهو الوحي أو القرآن، أو مواعظه .﴿يَسْلُكْهُ﴾ ندخله .﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ شاقاً يعلو المعذّب ويغلبه.

سبب النزول:

نزول الآية (١٦):

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾: أخرج الخرائطي عن مقاتل في قوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ قال: نزلت في كفار قريش حين مُنعوا المطر سبع سنين.

التفسير والبيان:

يتابع الحق عزّ وجلّ حكاية أشياء أخرى وهي سبعة أنواع بالإضافة إلى الأنواع الستة المتقدمة، فيصير المجموع ثلاثة عشر نوعاً، والأنواع السبعة هي:

أ - ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾ أي لما بعث النبي ﷺ وأنزل عليه القرآن، طلبنا خبر السماء كما جرت به عادتنا، فوجدناها ملئت حُرّاساً أقوياء من الملائكة يحرسونها عن استراق السمع، ووجدنا أيضاً نيراناً من الكواكب تحرق وتمنع من أراد استراق السمع كما كنا نفعل، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٦٧/ ٥] . فالشهب: انقضاض الكواكب المحرقة للجن لمنعهم عن استراق السمع.

أخرج أحمد والترمذي والنسائي عن ابن عباس قال: كان للشياطين مقاعد في السماء يسمعون فيها الوحي، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً، فأما الكلمة فتكون حقاً، وأما ما زاد فيكون باطلاً، فلما بعث رسول الله ﷺ مُنِعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك، فقال لهم: ما هذا إلا من أمر قد حدث في الأرض، فبعث جنوده، فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي بين جبلين بمكة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا هو الحدث الذي حدث في الأرض.

والخلاصة: أن الشياطين منعت بعد بعثة النّبي ﷺ من استراق السمع لئلا يسترقوا شيئاً من القرآن، فيلقوه على ألسنة الكهنة، فيلتبس الأمر ويختلط، ولا يدرى من الصادق.

٢ - ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ أي إننا كنا نقعد في السماء مقاعد لاستراق السمع، وسماع أخبار السماء من الملائكة لإلقائها إلى الكهنة، فحرسها الله سبحانه عند بعثة رسول الله ﷺ بالشهب المحرقة، فمن يرم أن يسترق السمع اليوم، يجد له شهاباً مرصداً له، لا يتخطاه ولا يتعداه، بل يمحقه ويهلكه.

٣ - ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ أي وإننا لا نعلم بسبب هذه الحراسة للسماء، أشرّ أو عذاب أراده الله أن ينزله على أهل الأرض، أم أراد بهم ربّهم خيراً وصلاحاً، بإرسال نبي مصلح. وهذا من أدبهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل، والخير أضافوه إلى الله عزّ وجلّ. وقد ورد في الصحيح: «والشر ليس إليك» .

٤ - ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ أي أخبر تعالى عن الجن أنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم، لما دعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ: كنا قبل استماع القرآن: مِنّا المؤمنون الأبرار الموصوفون بالصلاح، ومِنّا قوم دون ذلك، أي غير صالحين أو كافرين، كنا جماعات متفرقة، وأصنافاً مختلفة، وأهواء متباينة. والمراد أنهم كانوا أقساماً، فمنهم المؤمن ومنهم الفاسق ومنهم الكافر، كما هي حال الإنس. قال سعيد بن المسيب: كانوا مسلمين ويهوداً ونصارى ومجوساً.

٥ - ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾ أي وأننا علمنا أن قدرة الله حاكمة علينا، وأنا لا نفلت من قدرة الله ولا نفوته إن طلبنا وأراد بنا أمراً، سواء كنا كائنين في الأرض أو هاربين منه إلى السماء، فإنه علينا قادر لا يعجزه أحد منا.

٦ - ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾ أي وأننا لما سمعنا القرآن، صدقنا أنه من عند الله، ولم نكذب به، كما كذبت به كفرة الإنس، فمن يصدق بربه وبما أنزله على رسله، فلا يخاف نقصاناً من حسناته، ولا عدواناً وظلماً وطغياناً بالزيادة في سيئاته.

٧ - ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾ أي وأن بعضنا مؤمنون مطيعون لربّهم يعملون الصالحات، وبعضنا جائرون ظالمون حادوا عن طريق الحق والخير ومنهج الإيمان الواجب، فمن آمن بالله وأسلم وجهه لله بطاعة شريعته، فأولئك قصدوا وتوخوا الطريق الموصل للسعادة، وطلبوا لأنفسهم النجاة من العذاب، وهذا ثواب المؤمنين.

ويلاحظ أن القاسط: الجائر عن الحق الناكب عنه؛ لأنه عادل عن الحق، بخلاف المقسط وهو العادل؛ لأنه عادل إلى الحق، والقاسطون: الكافرون الجائرون عن طريق الحق، من قسط أي جار، والمقسط: القائم بالعدل، من أقسط، أي عدل.

ثم ذمّ الجن الكافرين بقولهم:

﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ أي وأما الجائرون الحائدون عن منهج الإسلام فكانوا وقوداً للنار توقد أو تسعر بهم، كما توقد بكفرة الإنس.

وبعد بيان النوع الأول من الموحى به إلى رسوله، ذكر تعالى النوع الثاني الموحى به إليه، فقال:

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ﴾ أي وأوحي إلي أنه لو استقام الجن والإنس على طريقة الإسلام، لأسقيناهم ماءً كثيراً، ولآتيناهم خيراً كثيراً واسعاً، لنختبرهم أي لنعاملهم معاملة المختبر،

فنعلم كيف شكرهم على تلك النعم، فإن أطاعوا ربّهم أثبناهم، وإن عصوه عاقبناهم في الآخرة، وسلبناهم النعمة، أو أمهلناهم ثم أهلكناهم، كما أبانت الآية التالية:

﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي ومن يعرض عن القرآن أو عن الموعظة، فلا يأتمر بالأوامر ولا ينتهي عن النواهي، يدخله عذاباً شاقاً صعباً لا راحة فيه.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أً - تغير الحال بعد البعثة النبوية عن الجن، فإنهم كعادتهم طلبوا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها، فوجدوها ملئت حَفَظة، أي ملائكة، ورموا بالشهب: وهي الكواكب المحرقة لهم، منعاً من استراق السمع.

قال الرازي: والأقرب إلى الصواب أن هذه الشهب كانت موجودة قبل المبعث، إلا أنها زيدت بعد المبعث، وجعلت أكمل وأقوى، وهذا هو الذي يدل عليه لفظ القرآن؛ لأنه قال: ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ﴾ وهذا يدل على أن الحادث هو الملء والكثرة، وكذلك قوله: ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ﴾ أي كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب، والآن ملئت المقاعد كلها[1].

٢ً - لم يفهم الجن القصد من تشديد الحراسة على أخبار السماء، فهل أراد الله بهذا المنع أن ينزل على أهل الأرض عذاباً، أو يُرسل إليهم رسولاً؟ وهل المقصود من المنع من الاستراق هو إرادة الشر بأهل الأرض، أم الصلاح والخير؟!

(١) تفسير الرازي: ١٥٨/٣٠

٣ً - أخبر الجن عن حقيقتهم قبل البعثة النبوية، فقال بعضهم لبعض لما دَعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ: إنا كنا قبل استماع القرآن منا الصالحون ومنا الكافرون، فكنا فرقاً شتى، وأدياناً مختلفة، وأهواء متباينة. والمعنى: لم يكن كل الجن كفاراً، بل كانوا مختلفين: منهم كفار، ومنهم مؤمنون صلحاء، ومنهم مؤمنون غير صلحاء. قال سعيد بن المسيب: كنا مسلمين ويهوداً ونصارى ومجوساً.

٤ً - علم الجن وأيقنوا أنهم لن يعجزوا الله ولن يفوتوه أو يفلتوا منه، سواء أكانوا في الأرض أينما وجدوا فيها، أم صاروا هاربين منها إلى السماء.

٥ً - بادر الجن عند سماع القرآن إلى الإيمان بالله تعالى، والتصديق بمحمد ﷺ على رسالته. وهذا دليل على أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى الإنس والجن. قال الحسن البصري: بعث الله محمداً ﷺ إلى الإنس والجنّ، ولم يبعث الله تعالى قطُّ رسولاً من الجنّ، ولا من أهل البادية، ولا من النساء، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ [يوسف: ١٢/١٠٩] . وفي الصحيح: « بعثت إلى الأحمر والأسود »(١) أي الإنس والجن.

وجزاء الإيمان: أنه لا يخاف أن يُنْقَص من حسناته، ولا أن يزاد في سيئاته.

٦ً - كذلك كان الجن بعد استماع القرآن مختلفين، فمنهم من أسلم، ومنهم من كفر، فمن أسلم، فقد طلبوا لأنفسهم النجاة، وقصدوا طريق الحق وتوخَّوه، ومن جار عن طريق الحق والإيمان، فإنهم في علم الله تعالى وقود جهنم.

(١) تفسير القرطبي: ١٩/١٦

أنواع أخرى من الموحى به إلى النبي ﷺ وبيان أصول رسالته

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾

القراءات:

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ﴾:

وقرأ نافع (وإنه لما قام).

﴿قُلْ إِنَّمَا﴾:

قرأ عاصم، وحمزة (قُلْ إنما) وقرأ الباقون (قال إنما).

الإعراب:

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ ﴿وَأَنَّ﴾: إما في موضع رفع عطفاً على قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾ أو في موضع جرّ، بتقدير حذف حرف الجر، وإعماله بعد الحذف، أي فلا تدعوا مع الله أحداً؛ لأن المساجد لله، أو في موضع نصب، بتقدير حذف حرف الجر، فلما حذف اتصل الفعل به، فنصبه.

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ (أن): إما الفتح عطفاً على (أن) المفتوحة بـ ﴿أُوحِيَ﴾ أو بالكسر عطفاً على (إن) المكسورة بعد (قالوا) والضمير للشأن.

﴿إِلَّا بَلَٰغًا﴾ إما منصوب على المصدر، ويكون الاستثناء متصلاً، وتقديره: إني لن يجيرني من الله أحد، ولن أجد من دونه ملتحداً، إن لم أبلغ رسالات ربي بلاغاً. وإما منصوب؛ لأنه استثناء منقطع، أي لن يجيرني أحد، لكن إن بلغت، رحمني بذلك. ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من ضمير ﴿وَمَن﴾ في قوله: ﴿لَهُۥ﴾ رعاية للمعنى.

﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا﴾ ﴿مَنْ﴾: إما استفهامية في موضع رفع مبتدأ، و﴿أَضْعَفُ﴾: خبره، و﴿نَاصِرًا﴾: تمييز منصوب، وإما بمعنى الذي، في موضع نصب على أنها مفعول ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ و﴿أَضْعَفُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، تقديره: من هو أضعف.

البلاغة:

﴿ضَرًّا﴾ و﴿رَشَدًا﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ مواضع الصلاة مختصة بالله. ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ فلا تعبدوا فيها غيره، بأن تشركوا كما يفعل اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم. ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ هو محمد ﷺ باتفاق الجميع. ﴿يَدْعُوهُ﴾ يعبده ببطن نخْلة. ﴿كَادُواْ﴾ كاد الجن المستمعون لقراءته. ﴿لِبَدًا﴾ جماعات، جمع لِبْدة، والمراد أنهم صاروا متزاحمين حرصاً على سماع القرآن. يقال: تلبد القوم: إذا تجمعوا، ومنه قولهم: لبدة الأسد للشعر المتراكم حول عنقه.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾ أعبد ربي إلهاً واحداً من غير إشراك، فلا داعي للإنكار أو التعجب. ﴿ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ غياً وضرراً، ولا نفعاً وخيراً. ﴿لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ لن ينفعني ويدفع عني من عذابه شيء إن عصيته. ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ من غيره. ﴿مُلْتَحَدًا﴾ ملتجأ أو ملجأ ألتجئ إليه. ﴿إِلَّا

بَلَٰغًا﴾ تبليغاً لرسالاته، وهو استثناء من مفعول ﴿أَمْلِكُ﴾ أي لا أملك لكم إلا البلاغ إليكم أي التبليغ والرسالات، وما بين المستثنى منه والاستثناء اعتراض مؤكد لنفي الاستطاعة، أو مستثنى من قوله ﴿مُلْتَحَدًا﴾ أي إن لم أبلغ بلاغاً لا أجد ملجأ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي عن الله. ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ معطوف على ﴿بَلَٰغًا﴾.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي في توحيد الله، فلم يؤمن؛ لأن الكلام فيه. ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أي يدخلونها مقدار خلودهم فيها، وجمع كلمة ﴿خَٰلِدِينَ﴾ رعاية لمعنى الجمع في ﴿وَمَن يَعْصِ﴾. وقوله: ﴿لَهُۥ﴾ مراعاة للفظ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ أي ما يوعدون به من العقاب في الدنيا كوقعة بدر، أو في الآخرة بعذاب النار، و﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائية، فيها معنى الغاية لشيء مقدر قبلها، أي لا يزالون على كفرهم إلى أن يروا، أو أنها متعلقة بقوله: ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي يتظاهرون عليه بالعداوة ويستضعفون أنصاره. ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ عند حلول العذاب بهم يوم بدر، أو يوم القيامة ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ من أضعف أعواناً وأقل أعداداً، هو أم هم.

سبب النزول:

نزول الآية (١٨):

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قالت الجن: يا رسول الله، ائذن لنا، فنشهد معك الصلوات في مسجدك، فأنزل الله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾. وروي ذلك أيضاً عن الأعمش.

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: قالت الجن للنبي ﷺ: كيف لنا أن نأتي المسجد، ونحن ناؤون عنك أي بعيدون عنك، أو كيف نشهد الصلاة، ونحن ناؤون عنك، فنزلت: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ الآية.

نزول الآية (٢٠):

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى﴾: سبب نزولها كما ذكر الشوكاني: أن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: إنك جئت بأمر عظيم، وقد عاديت الناس كلهم، فارجع عن هذا فنحن نجيرك.

نزول الآية (٢٢):

﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى﴾: أخرج ابن جرير عن حضرمي أنه ذكر أن جنياً من الجن من أشرافهم ذا تَبَع قال: إنما يريد محمد أن يجيره الله، وأنا أجيره، فأنزل الله: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ الآية.

التفسير والبيان:

أخبر الله تعالى عن النوع الثالث في هذه السورة من جملة الموحى به، فقال:

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ أي وأوحي إلي أن المساجد مختصة بالله، فلا تعبدوا فيها غير الله أحداً، ولا تشركوا به فيها شيئاً.

قال قتادة: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبِيَعَهم، أشركوا بالله، فأمر الله نبيه ﷺ أن يوحده وحده. وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ إضافة تشريف وتكريم، فإن نسبت المساجد لغير الله، فتنسب إليه تعريفاً، فيقال: مسجد فلان.

وهذا دليل على أن الله تعالى أمر عباده أن يوحدوه في أماكن عبادته، ولا يدعى معه أحد، ولا يشرك به.

وقال الحسن البصري: أراد بالمساجد البقاع كلها، قال ﷺ فيما رواه الشيخان والنسائي عن جابر: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» كأنه تعالى قال: الأرض كلها مخلوقة لله تعالى، فلا تسجدوا عليها لغير خالقها. وقال

أيضاً: من السنة إذا دخل الرجل المسجد أن يقول: لا إله إلا الله؛ لأن قوله: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ في ضمنه أمر بذكر الله وبدعائه.

ثم ذكر الله تعالى النوع الرابع من جملة الموحى به، فقال:

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ أي وأنه لما قام النبي محمد ﷺ يدعو الله ويعبده، كاد الجن يكونون عليه جماعات متراكمين من الازدحام عليه، لسماع القرآن منه، وتعجباً مما رأوا من عبادته؛ لأنهم رأوا ما لم يروا مثله، وسمعوا ما لم يسمعوا مثله، فالضمير في ﴿كَادُوا۟﴾ للجن، وقيل: الضمير للمشركين.

وقال جماعة[1]: لما قام رسول الله ﷺ يقول: لا إله إلا الله، ويدعو الناس إلى ربهم، كادت الإنس من العرب الكفار والجن يتزاحمون عليه متراكمين جماعات ليطفئوا نور الله، ويبطلوا هذا الأمر، فأبى الله إلا أن ينصره ويتم نوره ويظهره على من ناوأه، فالضمير في ﴿كَادُوا۟﴾ للإنس والجن. وهذا اختيار ابن جرير وقول قتادة، والأظهر كما ذكر ابن كثير، لقوله تعالى بعده:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الذين تجمعوا عليك لإبطال دينك: إنما أدعو ربي، وأعبده وحده لا شريك له، وأستجير به، وأتوكل عليه، ولا أشرك في العبادة معه أحداً.

ثم فوض أمر هدايتهم إلى الله، فقال تعالى:

﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾ أي لا أقدر أن أدفع عنكم ضرراً، ولا أجلب لكم نفعاً في الدنيا أو الدين، إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي، ليس لي من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم، بل المرجع في ذلك كله

---

(١) هم ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وابن زيد والحسن البصري وقتادة.

إلى الله عزّ وجلّ. وفي هذا بيان وجوب التوكل على الله تعالى، والمضي في التبليغ دون مبالاة لتظاهرهم عليه، وتهديده لهم إن لم يؤمنوا به.

وأكد الله تعالى ذلك المعنى وهو عجز نبيه عن هدايتهم بإعلان عجزه عن شؤونه وقضاياه، فقال:

﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء القوم: لا يدفع عني أحد عذاب الله إن أنزله بي، ولا نصير ولا ملجأ لي من غير الله أحد، ولا يجيرني من الله ويخلصني إلا إبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها علي، فأبلّغ عن الله، وأعمل برسالاته، أمراً ونهياً، فإن فعلت ذلك نجوت، وإلا هلكت، وهذا كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٥/٦٧] .

ويصح كون الاستثناء: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا﴾ من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾ أي لا أملك لكم إلا البلاغ إليكم.

ثم ذكر جزاء العاصين الذين لا يمتثلون موجب التبليغ عن الله، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي أنا أبلّغكم رسالة الله، فمن يعص بعد ذلك، فله جزاء خطير، وهو نار جهنم، ماكثين فيها أبداً على الدوام، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها. وقوله: ﴿أَبَدًا﴾ دليل على أن العصيان هنا هو الشرك.

ثم هدد الله تعالى المشركين الذين كانوا أقصر نظراً من الجن في عدم الإيمان، بالهزيمة والمذلة، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾ أي ما يزالون على كفرهم، حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس ما يوعدون يوم القيامة، فسيعلمون يومئذٍ من أضعف ناصراً، أي جنداً ينتصر به، وأقل عدداً، أهم، أم المؤمنون الموحدون لله

تعالى؟ أي بل المشركون لا ناصر لهم إطلاقاً، وهم أقل عدداً من جنود الله تعالى.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ً - إن المساجد أو مواضع الصلاة وذكر الله، ويدخل فيها الكنائس والبِيَع ومساجد المسلمين يجب أن تتميز بإخلاص العبادة فيها لله، وبالتوحيد، لذا وبخ الله المشركين بقوله: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ في دعائهم مع الله غيره في المسجد الحرام، والتوبيخ يشمل كل من أشرك مع الله غيره.

قال مجاهد: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبِيَعَهم أشركوا بالله، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين أن يخلصوا لله سبحانه الدعوة، إذا دخلوا المساجد كلها.

وروى ابن عباس عن النبي ﷺ: كان إذا دخل المسجد قدَّم رجله اليمنى، وقال: «﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ اللهم أنا عبدك وزائرك، وعلى كل مَزُور حق، وأنت خير مَزُور، فأسألك برحمتك أن تفك رقبتي من النار» . فإذا خرج من المسجد قدَّم رجله اليسرى؛ وقال: «اللهم صُبَّ علي الخير صبّاً، ولا تنزع عني صالح ما أعطيتني أبداً، ولا تجعل معيشتي كدّاً، واجعل لي في الأرض جَدّاً» أي غنى.

٢ً - لما قام النبي ﷺ داعياً إلى الله تعالى، وعابداً ناسكاً، كاد الجن يركب بعضهم بعضاً ازدحاماً، حرصاً على سماع القرآن. وكاد المشركون من العرب يركب بعضهم بعضاً تظاهراً على النبي ﷺ وعلى عداوته، واجتمعوا وتظاهروا على إطفاء النور الذي جاء به.

٣ً - قصر النبي ﷺ أصول دعوته على ثلاثة أمور:

الأول - عبادة الله وحده دون إشراك أحد معه.

الثاني - تفويض أمر الهداية إلى الله تعالى، وإعلان كونه عاجزاً عن دفع ضرر عن قومه، أو جلب خير لهم، فلا يملك الكفر والإيمان، ومرد ذلك كله إلى الله تعالى.

الثالث - كونه لا مجير له من عذاب الله إن استحقه، ولا ملجأ يلجأ إليه ولا نصير له إن عصى ربه.

٤ً - إن طريق الأمان والنجاة للنبي ﷺ هو تبليغ وحي الله، وما أرسل به إلى الناس.

٥ً - إن جزاء العاصين لله تعالى ورسوله ﷺ في التوحيد والعبادة هو نار جهنم خالدين فيها أبداً على الدوام. والعصيان: هو الشرك، لقوله تعالى: ﴿أَبَدًا﴾.

٦ً - إذا شاهد المشركون ما أوعدهم الله من عذاب الدنيا، وهو في الماضي القتل ببدر، أو عذاب الآخرة وهو نار جهنم، فسيعلمون حينئذٍ من أهل الجند الأضعف نصرة وأقل عدداً، أهم أم المؤمنون؟

علم تعيين الساعة مختص بالله عالم الغيب

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾

القراءات:

﴿رَبِّيٓ أَمَدًا﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (ربيَ أمداً).

﴿لَدَيۡهِمۡ﴾:

وقرأ حمزة (لديهُم).

الإعراب:

﴿أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ ﴿أَقَرِيبٌ﴾ مبتدأ، و﴿مَّا﴾ فاعل ﴿أَقَرِيبٌ﴾ بمعنى الذي، وقد سدت مسد خبر المبتدأ، كقولهم: أقائم أخوك؟ وأذاهب الزيدان؟ وعائد ﴿مَّا﴾ محذوف، تقديره: أقريب ما توعدونه، ولكن حذف الهاء. ويجوز أن تكون ﴿مَّا﴾ مصدرية، فلا عائد لها.

﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ ﴿مَنِ﴾: إما في موضع رفع بالابتداء، وخبره ﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ﴾ وإما في موضع نصب على الاستثناء المنقطع.

﴿أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ﴾ ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، أي أنه.

﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ ﴿عَدَدَۢا﴾: منصوب على التمييز، وليس بمصدر؛ لأنه لو كان مصدراً، لكان مدغماً: (عدّاً). وأجاز القرطبي نصبه على المصدر، أي أحصى وعدَّ كل شيء عدداً، أو نصبه على الحال، أي أحصى كل شيء في حال العدد.

المفردات اللغوية:

﴿إِنۡ أَدۡرِيٓ﴾ أي ما أدري .﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾ من العذاب .﴿أَمَدًا﴾ غاية وأجلاً لا يعلمه إلا هو. والأمد: الزمن البعيد .﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ ما غاب

عن العباد .﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾ لا يطلع .﴿عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ على الغيب المخصوص به علمه .﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ أي إن الرسول يطلعه الله على بعض الغيب معجزة له .﴿يَسْلُكُ﴾ يجعل ويقيم .﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ من بين يدي المرتضى الرسول .﴿رَصَدًا﴾ حراساً وحفظة من الملائكة يحفظونه حتى يبلغه مع بقية الوحي. وأما كرامات الأولياء في المغيبات فتكون تلقياً من الملائكة.

﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟﴾ أي ليظهر معلوم الله كما هو الواقع من غير زيادة ولا نقص، أو ليعلم محمد النبي الموحى إليه أن قد أبلغ جبريل والملائكة معه الوحي بلا تحريف وتغيير، و﴿أَبْلَغُوا۟﴾ على المعنى الأول: هم الرسل، وعلى الثاني هم الملائكة، وروعي بجمع الضمير معنى من[١]. ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أبلغوا رسالات الله كما هي من غير تغيير .﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أحاط علماً بما عند الرسل، وهو عطف على مقدر، أي فعلم ذلك .﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ أي أحصى عدد كل شيء.

سبب النزول:

قال مقاتل: إن المشركين لما سمعوا قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾ قال النضر بن الحارث: متى يكون هذا اليوم الذي توعدنا به؟ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾ إلى آخر الآيات.

التفسير والبيان:

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾ أي قل أيها الرسول: لست أعلم قرب العذاب الذي يعدكم الله به، فما أدري أقريب

---

(١) أي إن قوله تعالى: ﴿من بين يديه﴾ مع قوله: ﴿أن قد أبلغوا﴾ كقوله: ﴿فإن له نار جهنم خالدين﴾ من الحمل على اللفظ تارة، وعلى المعنى أخرى.

وقت الساعة أم بعيد، وهل جعل الله له غاية ومدة؟ فلا يعلم متى يوم القيامة إلا الله وحده. ومضمون الآية أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للناس: إنه لا علم له بوقت الساعة، أي تفويض علم تعيين الساعة إلى الله؛ لأنه عالم الغيب.

ويؤكده ما جاء في حديث مسلم عن عمر حينما سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ قائلاً: فأخبرني عن الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل».

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ أي إن الله وحده هو العالم بالمغيبات، فلا يُطلع على الغيب (وهو ما غاب عن العباد) أحداً منهم، إلا من ارتضى من الرسل، فإنه يطلعهم على بعض المغيبات، ليكون معجزة لهم، ودلالة صادقة على نبوتهم. وهذا يشمل الرسول المَلَكي والبشري، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥] . ومن أمثلة إخبار الرسل عن المغيبات قول عيسى عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ٤٩] .

ثم إن الله تعالى يجعل بين يدي الرسول ومن خلفه حرساً وحفظة من الملائكة، يحرسونه من تعرُّض الشياطين لما أظهره الله عليه من الغيب، لضبط الوحي، ويمنعون الشياطين من استراق الغيب، لإلقائه إلى الكهنة. وفي الكلام إضمار وتقدير: إلا من ارتضى من رسول، فإنه يطلعه على غيبه بطريق الوحي، ثم يجعل بين يديه ومن خلفه حرساً من الملائكة أي الرصد. والرصد: الحفظة يحفظون كل رسول من تعرض الجِنّ والشياطين.

والآية دليل على إبطال الكهانة والتنجيم والسحر؛ لأن أصحابها يدّعون علم الغيب من غير دليل، وهي دليل أيضاً على أن الإنسان المرتضى للنبوة قد يطلعه الله تعالى على بعض غيوبه، أما علم الكهنة والمنجمين فهو ظن وتخمين،

فلا يدخل في علم الغيب. وأما علم الأولياء وظهور الكرامات على أيديهم، فهو إلهامي متلقى من الملائكة، لا يرقى إلى درجة علوم الأنبياء.

وتأول الرازي الآية بأنه لا أدري وقت وقوع القيامة، والله عالم الغيب، فلا يطلع أحداً على وقت وقوع القيامة، فهو من الغيب الذي لا يظهره الله لأحد، ثم قال الرازي: لا بدّ من القطع بأنه ليس مراد الله من هذه الآية ألا يطلع أحداً على شيء من المغيبات إلا الرسل، للأدلة الآتية:

أحدها - أنه ثبت بالأخبار القريبة من التواتر أن شقاً وسطيحاً كانا كاهنين يخبران بظهور نبينا محمد ﷺ قبل زمان ظهوره، وكانا في العرب مشهورين بهذا النوع من العلم، حتى رجع إليهما كسرى في تعرف أخبار رسولنا محمد ﷺ، فثبت أن الله تعالى قد يطلع غير الرسل على شيء من الغيب.

والثاني - أن جميع أرباب الملل والأديان مطبقون على صحة علم التعبير، وأن المعبِّر قد يخبر عن وقوع الوقائع الآتية في المستقبل، ويكون صادقاً فيه.

والثالث - أن الكاهنة البغدادية التي نقلها السلطان سنجر بن ملك شاه من بغداد إلى خراسان، وسألها عن الأحوال الآتية في المستقبل، فذكرت أشياء، ثم وقعت على وفق كلامها.

والرابع - أنا نشاهد ذلك في أصحاب الإلهامات الصادقة، وليس هذا مختصاً بالأولياء، بل قد يوجد في السحرة أيضاً من يكون صادقاً في أخباره، وإن كان يكذب في أكثر الأخبار، وقد تُطابق الأحكام النجومية الواقع وتوافق الأمور. وإذا كان ذلك مشاهداً محسوساً، فالقول بأن القرآن يدل على خلافه، مما يجر إلى الطعن في القرآن الكريم، وذلك باطل، فعلمنا أن التأويل الصحيح ما ذكرنا[١].

وفي رأيي أن علم الغيب الشامل مقصور على الله عز وجل، حتى إن

---

(١) تفسير الرازي: ٣٠/ ١٦٩

الملائكة كما في سورة البقرة في بدء الخلق، والجن كما في سورة سبأ، والإنس كما في أواخر سورة لقمان جردوا من علم الغيب، واعترفوا بعدم علمهم بالغيب، وأما هذه الوقائع التي أوردها الرازي فقد تقع بالإلهام سواء للصالح أو غير الصالح.

ثم ذكر الله تعالى علة حفظه الرسل، فقال:

﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي إنه تعالى يحفظ رسله بالملائكة، ليعلم الله علم ظهور وانكشاف في الواقع القائم أن هؤلاء الرسل قد بلغوا الرسالات الإلهية كما هي دون زيادة ولا نقصان. ويصح أن يكون المعنى: ليعلم نبي الله أن جبريل ومن معه من الملائكة قد بلّغت عن الله الوحي تماماً من غير تغيير ولا تبديل، وأن الملائكة حفظوا الوحي حتى أوصلوه تاماً إلى الرسل من البشر.

ويكون المراد بالمعنى الأول أن الله يحفظ رسله بملائكته، ليتمكنوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم، ويكون ذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ٢/١٤٣] وكقوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/١١] إلى أمثال ذلك من العلم، بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعاً لا محالة، فيكون القصد بما جاء في القرآن من تعليل لعلم الله، إنما هو علم ظهور لا علم بَداء، فإنه تعالى عالم بالأشياء أزلاً، وإنما يظهر علمه لعباده[1]. لذا أكد تعالى هذا المعنى بقوله:

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ أي إنه تعالى أحاط علماً بما

(١) تفسير ابن كثير: ٤/٤٣٣

عند الرصد من الملائكة، أو بما عند الرسل المبلغين لرسالاته، وبما لديهم من الأحوال، فهو عالم بكل شيء كان أو سيكون، وعالم بكل الأحكام والشرائع، ثم عمم العلم بقوله: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ أي ضبط كل شيء معدوداً محصوراً، دون مشاركة أحد من الملائكة وسائط العلم.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - لا يعلم الغيب أحد سوى الله تعالى، ثم استثنى من ارتضاه من الرسل، فأطلعهم الله على ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم، ودلالة صادقة على نبوتهم ممن ارتضاه من رسول. أما المنجم ونحوه ممن يضرب بالحصى، وينظر في الكتب، ويزجر بالطير، فهو كافر بالله، مفترٍ عليه بحدسه وتخمينه وكذبه.

لكن قد يصادف الواقع إخبار هؤلاء المنجمين ونحوهم عن بعض الوقائع في المستقبل، اعتماداً على بعض الدلالات والقرائن والحسابات، ولكن هذا لا يصلح قاعدة عامة، ولا مبدأ مطرداً لا يخطئ؛ فإن العلم بالغيب المختص بالله هو العلم الشامل الصادق في كل الأحيان. كما أن الله تعالى يظهر أحياناً بعض الكرامات بالإلهام على يد بعض أوليائه المخلصين، فيخبرون عن وقوع بعض الوقائع في المستقبل. وهذا ثابت بالأمثلة الكثيرة قديماً وحديثاً، وأيده العلم الحديث، ولكن لا يصح اعتبار ذلك صنعة أو حرفة أو حَكَماً في الأمور؛ لأن مرجع ذلك كله إلى الله تعالى ومشيئته ومراده، لا إلى خبرة ثابتة أو إلى تصرف الإنسان حسبما يريد.

٢ - يحفظ الله رسله ووحيه من استراق الشياطين والإلقاء إلى الكهنة، قال الضحاك: ما بعث الله نبياً إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين عن أن يتشبهوا بصورة المَلَك، فإذا جاءه شيطان في صورة المَلَك قالوا: هذا شيطان فاحذره. وإن جاءه المَلَك قالوا: هذا رسول ربِّك.

٣ً - لقد أخبر الله تعالى نبيه محمداً بحفظه الوحي ليعلم أن الرسل قبله كانوا على مثل حالته من التبليغ بالحق والصدق، أو ليعلم أن قد أبلغ جبريل ومن معه إليه رسالة ربه.

وقال الزجاج: أي ليعلم الله أن رسله قد أبلغوا رسالاته؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٢] أي ليعلم الله ذلك علم مشاهدة، كما علمه غيباً.

٤ً - أحاط علم الله سبحانه بما عند الرسل وما عند الملائكة، وأحاط بعدد كل شيء، وعرفه وعلمه، فلم يخف عليه منه شيء، فهو سبحانه المحصي المحيط العالم الحافظ لكل شيء.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةُ المُزَّمِّل

مكية، وهي عشرون آية

تسميتها:

سميت سورة المزمِّل أي المتلفف بثيابه؛ لأنها تتحدث عن النبي ﷺ في بدء الوحي، ولأنها بدئت بأمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يترك التزمل: وهو التغطي في الليل، وينهض إلى تبليغ رسالة ربه عز وجل.

مناسبتها لما قبلها:

يظهر تعلق السورة بما قبلها من وجهين:

أ - ختمت سورة الجن ببيان تبليغ الرسل رسالات ربهم، وافتتحت هذه السورة بأمر خاتمهم بالتبليغ والإنذار، وهجر الراحة في الليالي.

٢ - أخبر الله تعالى في السورة المتقدمة عن ردود فعل دعوة النبي ﷺ بين قومه والجن في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ ثم أمره الله تعالى في مطلع هذه السورة بالدعوة في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾.

ما اشتملت عليه السورة:

تتناول السورة الإرشادات الإلهية الموجهة للنبي ﷺ في مسيرته أثناء تبليغ دعوته، وتهديد المشركين المعرضين عن قبول تلك الدعوة.

وقد ابتدأت بأمره ﷺ بقيام الليل إلا قليلاً منه، وبترتيل القرآن لتقوية روحه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [١-٤] فكان ذلك بياناً لمقدار ما يقوم به في تهجده الذي أمره الله به بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء: ١٧/٧٩] .

ثم أخبرت عن ثقل الوحي وتبعة رسالته العظمى التي كلِّف بها، وأمره بذكر ربه ليلاً ونهاراً، وإعلان توحيده، واتخاذه وكيلاً في كل أموره: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [الآيات ٥-٩].

وأردفت ذلك بالأمر بالصبر على أذى المشركين، من القول فيه بأنه ساحر أو شاعر، أو في ربه بأن له صاحبة وولداً، وبالهجر الجميل إلى أن ينتصر عليهم، وبتهديدهم بسوء العاقبة: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [الآيات ١٠-١٩].

وختمت السورة بإعلان تخفيف القيام لصلاة الليل عن الرسول ﷺ إلى مقدار الثلث، وجعله الحد الأدنى رحمة به وبأمته ليتمكن هو وأصحابه من الراحة والتفرغ في النهار لشؤون الدعوة والتبليغ، والاكتفاء بتلاوة ما تيسر من القرآن، وأداء الصلاة المفروضة، وإيتاء الزكاة، ومداومة الاستغفار: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ [الآية ٢٠].

إرشاد النبي ﷺ في بدء الدعوة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾

القراءات:

﴿أَوِ انقُصْ﴾:

قرأ عاصم، وحمزة (أوِ انقص) وقرأ الباقون (أوُ انقص).

﴿الْقُرْءَانَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (القران).

﴿وَطْئًا﴾:

وقرأ أبو عمرو، وابن عامر (وِطاءً).

﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ﴾:

قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وحفص (ربُّ المشرق)، وقرأ الباقون (ربِّ المشرق).

الإعراب:

﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾﴾ أصله (المتزمل) إلا أنه أبدلت التاء زاياً، وأدغمت الزاي في الزاي، وذلك أولى من إبدالها تاء؛ لأن الزاي فيها زيادة صوت، وهي من حروف الصفير، وهم أبداً يدغمون الأنقص في الأزيد.

﴿قُمِ الَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُ﴾ الليل في رأي الكوفيين مفعول به، وفي رأي البصريين: ظرف لفعل القيام، ولو استغرقه الحدث، أي إرادة جميع أجزاء الليل حتى يصح الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ فإن الاستثناء معيار العموم، و﴿نِّصْفَهُ﴾: بدل من الليل، أو ظرف آخر، و﴿قَلِيلًا﴾: استثناء منه، وقد قدِّم المستثنى على المستثنى منه، وهو قليل، وتقديره: قم الليل نصفه إلا قليلاً.

﴿أَشَدُّ وَطْئًا﴾ تمييز منصوب.

﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ ﴿تَبْتِيلًا﴾: منصوب على المصدر من غير فعله؛ لأن ﴿تَبْتِيلًا﴾ تفعيل إنما تجيء في مصدر فعَّل، مثل رتّل ترتيلاً، وقتّل تقتيلاً، وهنا جاء لـ (تفعَّل) وقياسه أن يجيء على وزن التفعُّل وهو التبتل، إلا أنهم قد يجرون المصدر على غير فعله، لمناسبة بينهما.

﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ ﴿رَّبُّ﴾: يقرأ بالجر على البدل من ﴿رَبِّكَ﴾ وبالرفع على تقدير مبتدأ محذوف تقديره: هو رب المشرق.

البلاغة:

﴿ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ بينهما طباق، وكذا بين ﴿ٱلنَّهَارِ﴾ و﴿ٱلَّيْلِ﴾ وبين ﴿ٱلْمَشْرِقِ﴾ و﴿وَٱلْمَغْرِبِ﴾.

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ فيهما تأكيد الفعل بالمصدر.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ المتزمل: المتلفف بثيابه. ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ أي قم إلى الصلاة، أو داوم عليها. ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣﴾ أي انقص من النصف قليلاً إلى الثلث، والمراد به التخيير بين قيام النصف والناقص منه والزائد عليه. ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ إلى الثلثين، و﴿أَوْ﴾ للتخيير. ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ اقرأه على تؤدة وتثبُّت في تلاوته، مع تبيين الحروف بحيث يتمكن السامع من عدِّها.

﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ قرآناً شاقاً شديداً أو مهيباً، لما فيه من التكاليف الشاقة، لكن مشقة معتادة مألوفة، لا مشقة زائدة غير معتادة. ﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ ما ينشأ فيه ويحدث ويتجدد، وهو القيام إلى الصلاة بعد النوم. ﴿أَشَدُّ وَطْئًا﴾ أي مواطأة وموافقة، يوافق السمع فيها القلب على تفهم القرآن. ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾

أبين وأسد مقالاً، أو أثبت قراءة لحضور القلب وهدوء الأصوات .﴿سَبْحًا طَوِيلًا﴾ تقلباً في مهامك واشتغالاً بها، فعليك بالتهجد؛ لأن مناجاة الحق تستدعي فراغاً، ولا تفرغ في أثناء النهار لتلاوة القرآن والعبادة .﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي دم على ذكره ليلاً ونهاراً، وذكر الله يتناول كل ما يذكر به من تسبيح وتهليل وتمجيد وتحميد وصلاة وقراءة قرآن ودراسة علم .﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أي انقطع إلى الله بالعبادة، وجرِّد نفسك عما سواه. ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ فوض كل أمورك إليه .﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ اصبر على أذى كفار مكة .﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ بأن تجانبهم وتداريهم ولا تعاتبهم، وفوض أمرهم إلى الله، فالهجر الجميل: هو ما لا عتاب معه.

سبب النزول:

نزول الآيتين (١، ٢):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾: أخرج الحاكم عن عائشة قالت: لما أنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ قاموا سنة حتى ورِمَت أقدامهم، فأنزلت: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾. وأخرج ابن جرير مثله عن ابن عباس غيره.

وقال ابن عباس: كان هذا في ابتداء الوحي إليه، فإنه لما سمع قول الملَك ونظر إليه، أخذته الرِّعْدة، فأتى أهله، فقال: «زمّلوني زمّلوني» .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحراء، فلما قضيت جواري هبطت فنوديت، فنظرت عن يميني، فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي، فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي، فإذا الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجُئثت (اقتلعت) منه رعباً، فرجعت فقلت: دثِّروني

دثّروني» . وفي رواية: «فجئت أهلي، فقلت: زمّلوني زمّلوني» ، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾ وقال جمهور العلماء: وعلى إثرها نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١﴾.

وعلى هذا يكون سبب النزول هو ما عراه ﷺ من الرعب والفزع عند رؤية الملك، وتكون حادثة التزمل هي حادثة التدثر بعينها.

وقيل: إن تزمله ﷺ كان لأسفه وحزنه، لَمّا بلغه ما كان من المشركين وما دبروه من القول السيئ يدفعون به دعوته، فقد أخرج البزار والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الدلائل عن جابر رضي الله عنه قال: اجتمعت قريش في دار الندوة، فقالوا: سمُّوا هذا الرجل اسماً تصدر الناس عنه، فقالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن، قالوا: مجنون، قالوا: ليس بمجنون، قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر، قالوا: يفرق بين الحبيب وحبيبه، فتفرق المشركون على ذلك، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فتزمل في ثيابه وتدثر فيها، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾.

التفسير والبيان:

خاطب الله تعالى النبي ﷺ بالآيات التالية حينما كان يتزمل بثيابه أول ما جاءه جبريل بالوحي خوفاً منه، فإنه لما سمع صوت الملَك، ونظر إليه أخذته الرعدة، فأتى أهله، وقال: «زمّلوني، دثّروني» ثم بعد ذلك خوطب بالنبوة والرسالة، وأنس بجبريل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ أي يا أيها النبي المتزمل المتلفف بثيابه، انهض لصلاة الليل وهي صلاة التهجد بمقدار نصف الليل، بزيادة قليلة أو نقصان قليل، لا حرج عليك في ذلك. وهذا تخيير بين الثلث والنصف والثلثين. والليل: من غروب الشمس إلى طلوع الفجر. وفيه دليل على أن أكثر المقادير الواجبة كان الثلثين.

أخرج أحمد ومسلم عن سعد بن هشام قال: «قلت لعائشة: أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ، قالت: ألست تقرأ هذه السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١﴾؟ قلت: بلى. قالت: فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً، حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فرضه» .

وبعد الأمر بقيام الليل أمره تعالى بترتيل القرآن قائلاً:

﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ أي اقرأ القرآن على تمهل، مع تبيين الحروف، فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره. وقوله: ﴿تَرۡتِيلًا﴾ تأكيد في الإيجاب، وأنه لا بدّ للقارئ منه، ليستحضر المعاني. والترتيل: هو أن يبين جميع الحروف، ويوفي حقها من الإشباع. وكذلك كان صلوات الله وسلامه عليه يقرأ، قالت عائشة رضي الله عنها: كان يقرأ السورة، فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها. وفي صحيح البخاري عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ، فقال: كانت مداً، ثم قرأ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ يمد بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم.

ووردت أحاديث كثيرة صحيحة تدل على استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة، منها ما رواه الحاكم وغيره عن البراء: «زيِّنوا القرآن بأصواتكم» وحديث البخاري ومسلم عن أبي هريرة «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» وحديث البخاري ومسلم والنسائي عن أبي موسى «لقد أعطي هذا مزماراً من مزامير آل داود» يعني أبا موسى الأشعري رضي الله عنه، فقال أبو موسى: لو كنت أعلم أنك تسمع قراءتي لحبّرته لك تحبيراً.

وروى البغوي عن ابن مسعود قال: لا تنثروه نثر الرمل، ولا تهذّوه (لا تسرعوا به) هذَّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحرِّكوا به القلوب، ولا يكن همّ

أحدكم آخر السورة. وروى العسكري في كتابه المواعظ عن علي كرم الله وجهه مثل هذه العبارة. وسئلت عائشة عن قراءة النبي ﷺ فقالت: لا كسردكم هذا، لو أراد السامع أن يعدّ حروفه لعدّها[١].

ثم نبّه الله تعالى إلى عظمة القرآن وما جاء فيه من تكاليف لتأكيد الأمر بالترتيل، فقال:

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ أي إننا سنوحي إليك القرآن وسننزله عليك، وفيه التكاليف الشاقة على البشر، والأوامر والنواهي الصعبة على النفس، من الفرائض والحدود، والحلال والحرام، وهو قول ثقيل يثقل العمل بشرائعه. قال ابن زيد: هو والله ثقيل مبارك، كما ثقل في الدنيا يثقل في الميزان يوم القيامة. وقال الحسين بن الفضل: ثقيلاً لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق، ونفس مزيّنة بالتوحيد. وقد يراد أنه ثقيل في الوحي، ففي الموطأ والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عائشة أنه ﷺ سئل: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني مثل صَلْصَلة الجرس، وهو أشده علي، فيَفْصِم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل لي المَلَك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» ، قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيُفصَم عنه، وإن جبينه ليتفصّد عرقاً.

ثم أبان الله تعالى علة الأمر بقيام الليل (التهجد) فقال:

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ أي إن قيام الليل، وهو الذي يقال له: ناشئة إذا كان بعد نوم، أشد موافقة ومصادفة للخشوع والإخلاص وتوافق القلب واللسان، فذلك يتجلى في هدوء الليل أكثر من أي وقت آخر، وهو أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها، وأسدّ مقالاً وأثبت

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٤٣٤

قراءة، لحضور القلب فيها، وأكثر اعتدالاً واستقامة على نهج الحق والصواب؛ لأن الأصوات فيها هادئة، والدنيا ساكنة، أما النهار فهو وقت الانشغال بالأعمال، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ أي إن لك في وقت النهار تقلباً وتصرفاً في حوائجك ومصالح الحياة، فلا تتفرغ فيه للعبادة، فصلِّ بالليل.

ولكن لا ينبغي الانشغال عن ذكر الله بأي حال نهاراً أو ليلاً، فقال تعالى:

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾ أي أكثر من ذكر الله، وداوم عليه إن استطعت ليلاً ونهاراً، وأخلص العبادة لربك، وانقطع إلى الله انقطاعاً بالاشتغال بعبادته، والتماس ما عنده إذا فرغت من أشغالك وحوائجك الدنيوية، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح: ٩٤/٧-٨] أي إذا فرغت من أشغالك فأتعب نفسك في طاعة ربك وعبادته، لتكون فارغ البال، واجعل رغبتك إلى الله وحده.

ثم أبان الله تعالى سبب الأمر بالعبادة، والباعث على التبتل، فقال:

﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ أي إن ربك الذي تذكره، وتتفرغ لعبادته هو الجدير بالعبادة، فهو المالك المتصرف في المشارق والمغارب الذي لا إله إلا هو، وكما أفردته بالعبادة، فأفرده بالتوكل، واجعله وكيلاً لك في جميع الأمور، كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١١/١٢٣] وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ١/٥] . وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إشارة إلى كماله تعالى في ذاته، والكمال محبوب لذاته. وفيه دليل على أن من لم يفوض كل الأمور إلى ربه لم يكن راضياً بألوهيته، ولا معترفاً بربوبيته. وفيه تسلية للنبي ﷺ أنه سيكفيه شرّ الكفار وأعداء الدين.

ثم أمره ربه بالصبر على الأذى فقال:

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾ أي اصبر أيها الرسول على أذى قومك وما ينالك من السب والاستهزاء، ولا تجزع من ذلك، ولا تتعرض لهم ولا تعاتبهم ودارهم، كما جاء في آيات أخرى منها: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ [النجم: ٥٣/٢٩].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - فرضية التهجد: يدل ظاهر توجيه الخطاب إلى النبي ﷺ خاصة، وأمره بقيام الليل، ووصفه بالتزمل أن التهجد كان فريضة عليه، وأن فرضيته كانت خاصة به. وهذا رأي أكثر العلماء؛ لأن الندب والحضّ لا يقع على بعض الليل دون بعض؛ لأن قيامه ليس مخصوصاً بوقت دون وقت. وهو الذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ١٧/٧٩] فإن قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ بعد الأمر بالتهجد ظاهر في أن الوجوب من خصائصه ﷺ. وليس معنى النافلة في هذه الآية: التطوع، فإنه لا يكون خاصاً به عليه الصلاة والسلام، بل معناه أنه شيء زائد على ما هو مفروض على غيره من الأمة.

وقيل: كان التهجد فرضاً على النبي ﷺ وعلى أمته، ثم نسخ بالصلوات الخمس ليلة المعراج.

وقيل: إن التهجد كان نافلة، لا مفروضاً، لقوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ ولأن حمل الأمر: ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ على الندب أولى؛ لأنه متيقن، فإن أوامر الشريعة تارة تفيد الوجوب، وتارة تفيد الندب، فلا بدَّ من دليل آخر على الوجوب كالتوعد على الترك ونحوه، وليس هذا متوفراً هنا. ويرد عليه بأن المختار في علم الأصول في الأوامر حملها على الوجوب أو الإلزام إلا بقرينة تصرفه عن ذلك إلى الندب أو الإباحة. ولأنه تعالى ترك تقدير قيام الليل إلى النبي ﷺ وخيره

بين النصف أو أقل منه أو أكثر، ومثل هذا لا يكون في الواجبات. ويرد عليه بأنه قد يكون الواجب مخيراً بين أمور ثلاثة كالكفارة.

والراجح هو أن التهجد نسخ عن الأمة وحدها، وبقي وجوبه على النبي ﷺ، بدليل آية الإسراء: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾. وربما كان العمل بحديث سعد بن هشام بن عامر السابق صحيحاً: وهو نسخ الوجوب مطلقاً، وصيرورة التهجد (أو قيام الليل) تطوعاً، تخفيفاً وتيسيراً، والناسخ هو الصلوات الخمس، وأما آخر سورة المزمل الذي نزل بعد أولها بنحو عام كما في بعض الآثار، فقد نسخ المقدار الذي بيِّن في أولها، دون نسخ أصل وجوب التهجد. والمقدار المذكور في أول السورة: هو نصف الليل أو أنقص منه قليلاً إلى الثلث، أو الزيادة عليه إلى الثلثين.

٢ً - وجوب ترتيل القرآن: لا خلاف في أنه يقرأ القرآن بترتيل على مَهَل، وتبيين حروف، وتحسين مخارج، وإظهار مقاطع، مع تدبر المعاني. والترتيل: التنضيد والتنسيق وحسن النظام.

والخلاف في التغني به وتلحينه، فقال بكراهته جماعة منهم الإمامان مالك وأحمد، وأجازه جماعة آخرون منهم الإمامان أبو حنيفة والشافعي، ولكل فريق أدلة[١].

استدل المجيزون بما يأتي:

أولاً - ما أخرجه أبو داود والنسائي عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «زيِّنوا القرآن بأصواتكم».

ثانياً - ما أخرجه مسلم من قوله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن».

(١) تفسير آيات الأحكام للشيخ محمد علي السايس: ١٩٣/٤ وما بعدها.

ثالثاً - ما رواه البخاري عن عبد الله بن مُغَفَّل قال: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسير له سورة الفتح على راحلته، فرجّع في قراءته.

رابعاً - ما روي أن رسول الله ﷺ استمع لقراءة أبي موسى الأشعري، فلما أخبره بذلك قال: لو كنت أعلم أنك تسمعه لحبَّرته لك تحبيراً. وقال النبي ﷺ لما سمعه: «إن هذا أعطي مزماراً من مزامير داود».

خامساً - ما رواه مسلم عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما أذن الله لشيء كأَذَنه - استماعه[1] - لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن».

سادساً - إن الترنم بالقرآن من شأنه أن يبعث على الاستماع والإصغاء، وهو أوقع في النفس وأبلغ في التأثير.

واحتج المانعون بما يأتي:

أولاً - ما رواه الترمذي في نوادر الأصول عن حذيفة بن اليمان عن رسول الله ﷺ قال: «اقرؤوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الكتاب والفسق، فإنه يجيء من بعدي أقوام يرجّعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم، وقلوب الذين يعجبهم شأنهم» فهذا نعي على الترجيع بالقرآن ترجيع الغناء والنوح.

ثانياً - ما روي عنه ﷺ أنه ذكر أشراط الساعة، وذكر أشياء، منها: أن يتخذ القرآن مزامير، وقال: «يقدِّمون أحدهم، ليس بأقرئهم ولا أفضلهم ليغنيهم غناء».

ثالثاً - أخرج الدارقطني عن ابن عباس قال: كان لرسول الله ﷺ مؤذن يَطْرَبُ، فقال النبي ﷺ: «إن الأذان سهل سمح، فإن كان أذانك سهلاً سمحاً،

(١) أذِن له: استمع، وبابه طرب.

وإلا فلا تؤذن» فقد كره النبي ﷺ أن يطرب المؤذن في أذانه، مما يدل على كراهة التطريب في القراءة بالأولى.

رابعاً - أنكر أنس بن مالك على زياد النميري حينما قرأ ورفع صوته وطرب، وقال: يا هذا ما هكذا كانوا يفعلون.

خامساً - إن التغني والتطريب يؤدي إلى أن يزاد على القرآن ما ليس منه؛ لأنه يقتضي مد ما ليس بممدود، وهمز ما ليس بمهموز، وجعل الحرف الواحد حروفاً كثيرة، وهو لا يجوز. كما أن التلحين يلهي النفس بنغمات الصوت، ويصرفها عن تدبر معاني القرآن.

والحق التوسط في الأمر، فإذا كان التلحين والتطريب يغير من ألفاظ القرآن، ويخل بطرق الأداء، أو كان تكلّفاً وتصنعاً يشبه توقيعات الموسيقا، فهو ممنوع وحرام. أما إذا كان تحبيراً وترقيقاً وتحزيناً يؤدي إلى اتعاظ القارئ، وكمال تأثره بمعاني القرآن، فلا دليل على المنع، بل الأدلة تجيزه.

٣ - ثقل القرآن والوحي: القرآن ثقيل شديد بما اشتمل عليه من تكاليف شاقة على النفس، وفرائض وحدود صعبة على الإنسان. والوحي أيضاً ذو تأثير كبير على القلب والنفس، كما جاء في خبر عائشة رضي الله عنها المتقدم، وأخرج أحمد وابن جرير وغيرهما عن عائشة أيضاً: «أن النبي ﷺ كان إذا أُوحي إليه، وهو على ناقته، وضعت جِرانها - يعني صدرها - على الأرض، فما تستطيع أن تتحرك حتى يُسرَّى عنه» أي الوحي.

٤ - ناشئة الليل: إن أوقات الليل وساعاته أو العبادة الناشئة في الليل، أو النفس الناشئة في الليل الناهضة من مضاجعها للعبادة أشد وطئاً، أي أشد موافقة بين السر والعلانية أو القلب واللسان، وأكثر مصادفة للخشوع والإخلاص، وأسدّ مقالاً وأثبت قراءة، بسبب سكون الليل، وراحة النفس من الضوضاء والعناء، والبعد عن الرياء والمباهاة، أو حبِّ اطلاع الآخرين

على الطاعة والعبادة، وشدة الاستقامة والاستمرار على الصواب؛ لأن الأصوات هادئة، والدنيا ساكنة، فلا يضطرب على المصلّي ما يقرؤه.

٥ً - مشاغل النهار: الإنسان مشغول عادة بحاجاته ومصالحه المعيشية في النهار، فلا يتفرغ عادة للعبادة، وإنما الفراغ موجود في الليل.

٦ً - ذكر الله والتبتل: المؤمن مأمور بالاستكثار من ذكر الله وأسمائه الحسنى، وبالمداومة على التسبيح والتحميد والتهليل وقراءة القرآن، دون أن يشغله شاغل في الليل والنهار، وهو مطالب أيضاً بأن يجعل همه كله في إرضاء ربه، وتجريد نفسه عن التعلق بغيره، والاستغراق في مراقبته في جميع أعماله. ويكون أشرف الأعمال عند قيام الليل: ذكر اسم الرب، والتبتل إليه، وهو الانقطاع إلى الله بالكلية.

وليس المراد الانقطاع عن أعمال النهار، والعكوف على الذكر والعبادة، فهذا يتنافى مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ بل المراد التنبيه إلى أنه ينبغي ألا يشغله السَّبحُ في أعمال النهار عن ذكر الله تعالى.

والتبتل: الانقطاع إلى عبادة الله عز وجل، أي انقطاع الإنسان بعبادته إلى ربه، دون أن يشرك به غيره، وليس المعنى الانقطاع عن مشاغل الحياة لكسب المعيشة من طرق عزيزة كريمة، لا يكون فيها الإنسان عالة على غيره. فقد ورد في الحديث النهي عن التبتل بمعنى الانقطاع عن الناس والجماعات. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: ٥/ ٨٧] وهذا يدل على كراهة من تبتّل، وانقطع عن الناس، وسلك سبيل الرهبانية.

والخلاصة: التبتل المأمور به: الانقطاع إلى الله بإخلاص العبادة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٩٨/ ٥] . والتبتل المنهي عنه: هو سلوك مسلك النصارى في ترك النكاح والترهب في الصوامع.

٧ً - إفراد الله بالتوكل عليه: كما أن المؤمن مطالب بإفراد الله بالعبادة، مطالب أيضاً بإفراده بالتوكل عليه، فمن علم أن الله رب المشارق والمغارب، انقطع بعمله وأمله إليه، وفوَّض جميع أموره إليه، فهو القائم بأمور العباد، الكفيل بما وعد.

٨ً - الصبر على الأذى في سبيل الدعوة: أمر الله نبيه بأن يصبر من أجل دعوته على الأذى والسب والاستهزاء من سفهاء قومه الذين كذبوه، وبألا يتعرض لهم، ولا يعاتبهم ويداريهم. قال قتادة وغيره: وكان هذا قبل الأمر بالقتال، ثم أمر بعدُ بقتالهم وقتلهم، فنسخت آية القتال ما كان قبلها من الترك. وأرى أن هذا من منهج الدعوة الدائم وسياستها الثابتة التي يحتاج إليها الدعاة في كل عصر. قال أبو الدرداء: إنا لَنَكْشِرُ في وجوه أقوام، ونضحك إليهم، وإن قلوبنا لتَقْليهم أو لتلعنهم.

تهديد الكفار وتوعدهم

﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾

الإعراب:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ﴾ ﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرف، والعامل فيه ما في ﴿لَدَيْنَآ﴾ من معنى الاستقرار، كما تقول: إن خلفك زيداً غداً، والعامل في (غداً) الاستقرار الذي دلَّ عليه (خلفك).

﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ ﴿مَّهِيلًا﴾ : أصله (مهيولاً) على وزن مفعول، من (هلت)، فاستثقلت الضمة على الياء، فنقلت إلى الهاء قبلها، فبقيت الياء ساكنة والواو ساكنة، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين، وكسرت الهاء لتصحيح الياء.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾ ﴿يَوْمًا﴾ : مفعول ﴿تَتَّقُونَ﴾ وليس منصوباً على الظرف، و﴿يَجْعَلُ﴾ : جملة فعلية في موضع نصب؛ لأنه صفة ﴿يَوْمًا﴾.

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ إنما قال ﴿مُنفَطِرٌۢ﴾ من غير تاء لثلاثة أوجه: إما بمعنى النسب، أي ذات انفطار، أو بجعل السماء في معنى السقف، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٢١/٣٢] ، أو لأن السماء يجوز فيها التذكير والتأنيث، فيقال: ﴿مُنفَطِرٌۢ﴾ على التذكير، وهو قول الفراء.

البلاغة:

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾ إلخ: سجع مرصع.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ جناس اشتقاق.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب للتقريع والتوبيخ على عدم الإيمان، والأصل أن يقال: إنا أرسلنا إليهم.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ تأكيد الفعل بالمصدر.

المفردات اللغوية:

﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ اتركني وإياهم، فإني قدير على مجازاتهم .﴿ٱلنَّعْمَةِ﴾ بفتح النون: التنعم والترفه، وبكسر النون: الإنعام أو اسم الشيء المنعم به.

﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ اتركهم زماناً قليلاً برفق وتأنٍّ، أو أمهلهم إمهالاً. ﴿أَنكَالًا﴾ قيوداً ثقيلة، جمع نِكْل بكسر النون وفتحها: وهو القيد الثقيل. ﴿وَجَحِيمًا﴾ نار محرقة شديدة الإيقاد. ﴿ذَا غُصَّةٍ﴾ يغص به فلا يستساغ في الحلق، كالضريع والزقّوم والغِسْلين والشوك من نار، فلا يخرج ولا ينزل. ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ مؤلماً لا يعرف كنهه إلا الله، زيادة على ما ذكر.

﴿تَرْجُفُ﴾ تضطرب وتتزلزل. ﴿كَثِيبًا﴾ رملاً متجمعاً بتأثير الريح. ﴿مَّهِيلًا﴾ رخواً ليّناً تغوص الأقدام فيه. ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ أرسلنا إليكم يا أهل مكة. ﴿رَسُولًا﴾ هو محمد ﷺ. ﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يشهد عليكم يوم القيامة بالعصيان أو الإجابة للدعوة. ﴿وَبِيلًا﴾ ثقيلاً شديداً، ومنه طعام وبيل: لا يستمرأ لثقله، ووابل: وهو المطر العظيم. ﴿تَتَّقُونَ﴾ تقون أنفسكم. ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾ بقيتم على الكفر في الدنيا. ﴿يَوْمًا﴾ عذاب يوم أي بأي حصن تتحصنون من عذاب يوم القيامة. ﴿شِيبًا﴾ جمع أشيب، وجعلهم شيباً لشدة هوله، يقال لليوم الشديد: يوم يشيب الأطفال، وهو مجاز، أصله أن الهموم تضعف القوى وتسرع بالشَّيْب. ﴿مُنفَطِرٌۢ﴾ منشق متصدع. ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ أي إن وعده تعالى بمجيء ذلك اليوم كائن لا محالة.

سبب النزول:

نزول الآية (١١):

﴿وَذَرْنِي﴾: روي أنها نزلت في صناديد قريش ورؤساء مكة من المستهزئين.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى إرشاداته لنبيه ﷺ في دعوته، هدد المشركين وأوعدهم على الإعراض عن قبول تلك الدعوة، وخوّفهم عذاب يوم القيامة وكيفيته وأهواله، وعذاب الدنيا ومخاطره، ثم عاد إلى وصف عذاب الآخرة وتخويفهم به لشدته التي بلغت حداً تشيب الولدان، وتتشقق السماوات منه.

التفسير والبيان:

هدد الله تعالى كفار مكة وأمثالهم وتوعدهم، وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء، فقال:

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ أي دعني وأولئك المكذبين المترفين أصحاب الأموال، فإني أكفيك أمرهم، وأنتقم لك منهم، فلا تهتم بكونهم أرباب الغنى والسعة والترفّه في الدنيا، وتمهل عليهم رويداً وزمناً قليلاً، أو تمهلاً قليلاً إلى انقضاء آجالهم، كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٤] . وقد أهلك زعماءهم في موقعة بدر، قالت عائشة: لما نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسيراً حتى وقعت وقعة بدر.

ثم ذكر الله تعالى أنواعاً أربعة من عذابهم، فقال:

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾ أي إن عندنا القيود والأغلال لهؤلاء المكذبين بآياتنا وبرسولنا، وناراً مؤججة مضطرمة، وطعاماً لا يستساغ، يَنْشَب في الحلق، فلا يدخل ولا يخرج كالزقوم والضريع، ونوعاً آخر من العذاب المؤلم الشديد، لا يعلم كنهه إلا الله تعالى. وتنكير قوله ﴿وَعَذَابًا﴾ يدل على أن هذا العذاب أشد مما تقدم وأكمل.

وبعد وصف العذاب، أخبر تعالى عن زمانه متى يكون فقال:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ أي إن ذلك العذاب الذي يعذب به الكفار هو في يوم تضطرب فيه الأرض والجبال وتتزلزل بمن عليها، وتصير الجبال كالكثيب المهيل، أي الرمل المجتمع السائل الذي يسيح فيه الإنسان والحيوان، بعدما كانت حجارة صماء، ثم تنسف نسفاً، فلا يبقى منها شيء إلا ذهب. والرجفة: الزلزلة والزعزعة الشديدة، والمهيل: هو الذي إذا وطئته القدم زلّ ما تحتها، وإذا وصلت إلى أسفله انهال.

وبعد تخويف أهل مكة وأمثالهم بأهوال القيامة، هددهم وخوفهم تعالى بأهوال الدنيا التي تعرضت لها الأمم المكذبة المتقدمة، فقال:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ أي يخاطب الله تعالى كفار قريش، والمراد سائر الناس، فيقول لهم: إنا أرسلنا إليكم رسولاً هو محمد بن عبد الله ﷺ يشهد عليكم يوم القيامة بأعمالكم وبما يصدر عنكم من إجابة وامتناع، وطاعة وعصيان، كما أرسلنا موسى عليه السلام إلى الطاغية فرعون يدعوه إلى الحق والإيمان، فعصى فرعون الرسول المرسل إليه، وكذَّبه ولم يؤمن بما جاء به، فأخذناه أخذاً شديداً ثقيلاً غليظاً، أي عاقبناه عقوبة شديدة وأهلكناه ومن معه بالغرق في البحر، فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول، فيصيبكم ما أصاب فرعون حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتم رسولكم الذي هو أشرف وأعظم من موسى بن عمران عليه السلام. وإنما عرَّف كلمة الرسول ثانياً؛ لأنه ينصرف إلى المعهود السابق في الذكر.

ثم عاد الله تعالى إلى تخويفهم بعذاب الآخرة ذاكراً هوله من وجهين، فقال:

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾ أي كيف تقون أنفسكم وتنعمون بالأمان والاطمئنان إن بقيتم على الكفر، من عذاب يوم يجعل الأطفال شيباً بيض الشعور، لشدة هوله؟ وهذا كناية عن شدة الخوف، وتصير السماء متشققة به متصدعة؛ لشدته وعظيم هوله، وكان وعد الله بمجيء ذلك اليوم كائناً واقعاً لا محالة ولا محيد عنه.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أً - هدد الله صناديد قريش وأمثالهم من المستهزئين والمترفين الطغاة والمكذبين بآيات الله والكفر برسالة نبيه ﷺ، وتوعدهم بأشد العذاب في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فعوقب رؤساء مكة في موقعة بدر، وأما في الآخرة فنار جهنم تنتظرهم.

٢ً - إن أنواع العذاب الشديد في الآخرة هي الأنكال أي القيود، والنار المؤججة، والطعام الذي لا يستساغ، فلا هو نازل ولا هو خارج، وهو الغِسْلين والزّقوم والضريع وهو شوك كالعَوْسج.

٣ً - زمان هذا العذاب هو يوم القيامة، الذي تضطرب وتتحرك فيه الأرض والجبال بمن عليها، وتصبح الجبال فيه رملاً مجتمعاً سائلاً متناثراً غير متماسك.

٤ً - التشابه في الجريمة والعقاب: اشترك أهل مكة في تكذيب النبي محمد ﷺ والاستخفاف به، مع فرعون وقومه الذين كذبوا موسى عليه السلام، قال مقاتل: ذكرَ - أي الله - موسى وفرعون؛ لأن أهل مكة ازدرَوْا محمداً ﷺ واستخفوا به؛ لأنه ولد فيهم، كما أن فرعون ازدرى موسى؛ لأنه ربّاه ونشأ فيما بينهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨/٢٦] فكان التشابه في الأحوال سبباً لذكر قصة موسى وفرعون على التعيين دون سائر الرسل والأمم.

لذا عوقب فرعون وأتباعه بالعقاب الثقيل الشديد وهو الغرق في البحر، وعوقب كفار مكة بالهلاك يوم بدر. ويكون الرسول ﷺ شاهداً على قومه يوم القيامة بكفرهم وتكذيبهم.

٥ً - وبخ الله تعالى الكفار وقرّعهم على كفرهم بطريق التساؤل بقوله: كيف تتقون عذاب يوم يجعل الولدان شيباً إن كفرتم، وتتفطر فيه السماء؟ وهذا وصف لهول يوم القيامة بأمرين: الأول - يجعل الولدان شيباً، وهذا مثل في

الشدة. والثاني- تتصدع فيه السماء. وكلاهما وصف لليوم بالشدة الشديدة، فهو يوم يشيِّب نواصي الأطفال، والسماء على عظمتها وقوتها تتفطر فيه، فما ظنك بغيرها من الخلائق؟

٦ً - إن وعد الله تعالى بالقيامة والحساب والجزاء كائن لا شك فيه ولا خُلْف.

٧ً - دلت آية: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ على أن القياس حجة؛ لأنه استقر عند العقلاء وعند المشركين في مكة وغيرهم أن الشيئين اللذين يشتركان في مناط الحكم ظناً، يجب اشتراكهما في الحكم، وإلا لما أورد هذا الكلام على هذه الصورة.

تذكير وإرشاد بأنواع الهداية

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

القراءات:

﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر (ونصفِه وثلثِه).

الإعراب:

﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ طائفة مرفوع عطفاً على الضمير المرفوع في ﴿تَقُومُ﴾. وإنما جاز العطف على الضمير المرفوع المستكن في ﴿تَقُومُ﴾ لوجود الفصل، والفصل يقوم مقام التوكيد في تجويز العطف.

﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ بالجر عطفاً على ﴿ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ وبالنصب عطفاً على ﴿أَدْنَىٰ﴾.

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ ﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة، والسين عوض عن التشديد، وقد يقع التعويض بسوف وقد وحرف النفي، كما يعوض بالسين جبراً لما دخل الحرف من النقص.

﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾ ﴿خَيْرًا﴾ مفعول ثانٍ لـ ﴿تَجِدُوهُ﴾ والهاء: هي المفعول الأول، و﴿هو﴾ ضمير فصل على قول البصريين، ولا موضع له من الإعراب، ويسميه الكوفيون عماداً، وله موضع من الإعراب.

البلاغة:

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ استعارة، حيث شبه الترخيص بقبول التوبة؛ في رفع التبعة.

﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ مجاز مرسل، أراد به الصلاة، من إطلاق الجزء وهو القراءة على الكل وهو الصلاة.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ﴾ عام بعد خاص، عمم بعد ذكر الصلاة والزكاة والإنفاق، ليشمل جميع أعمال الخير والصلاح.

﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ استعارة تبعية، شبه التصدق على المحتاجين بإقراض الله تعالى؛ لأنه هو الذي يعطي الثواب المقابل.

﴿هُوَ خَيْرًا﴾ قال ذلك للتأكيد والمبالغة.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ الآيات الموعدة أو المخوفة. ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ عظة. ﴿فَمَن شَآءَ﴾ أن يتعظ. ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ طريقاً يتقرب به إلى الجنة، بالتزام الإيمان والطاعة أو التقوى والاحتراز عن المعصية. ﴿أَدْنَىٰ﴾ أقل منه. ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يعلم مقادير ساعاتهما. ﴿أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ أي لن تستطيعوا تقدير الأوقات وضبط الساعات لتقوموا قيام الليل، فيحصل قيام الكل وهو أمر شاق عليكم. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ بالتيسير والتخفيف والترخيص في ترك القيام. ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي فصلُّوا ما تيسر لكم من صلاة الليل، عبر عن الصلاة بالقراءة.

﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يسافرون للتجارة. ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ يطلبون من فضله ورزقه بالتجارة وغيرها. ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يجاهدون، وكل من الفئات الثلاث يشق عليهم قيام الليل، فخفف عنهم بقيام ما تيسر منه، ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس. ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة. ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبة. ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أنفقوا في سبيل الخيرات فيما عدا المفروض من المال، عن طيب نفس. ﴿هُوَ خَيْرًا﴾ أفضل مما أنفقتم. ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في جميع أحوالكم ومجالسكم، فإن الإنسان لا يخلو من تفريط.

المناسبة:

بعد بيان أحوال المؤمنين السعداء وترغيبهم، وأحوال الأشقياء وتهديدهم بأنواع العذاب في الآخرة، ختمت السورة بتذكيرات مشتملة على أنواع الهداية والإرشاد، فمن أراد الاشتغال بالطاعة والاحتراز عن المعصية، فليفعل، ثم خفف عن المؤمنين مقدار قيام الليل لما يطرأ لهم من أعذار المرض، أو السفر للتجارة ونحوها، أو الجهاد في سبيل الله تعالى.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ أي إن ما تقدم في هذه السورة من الآيات المخوفة موعظة لأولي الألباب، فمن أراد اتعظ بها، واتخذ الطاعة طريقاً توصله إلى رضوان الله في الجنة. وبعد نزول أوائل السورة استعد النبي ﷺ لقيام الليل، وترك الرقاد، ثم خفف الله عنهم قائلاً:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ﴾ أي إن الله يعلم أنك أيها الرسول تقوم ممتثلاً أمر ربك أقلّ من ثلثي الليل أحياناً، أو تقوم نصفه أو ثلثه، وتقوم ذلك القدر معك طائفة من أصحابك، والله سيجازيكم على ذلك أحسن الجزاء.

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ﴾ أي يعلم الله مقادير الليل والنهار حقيقة، ويعلم القدر الذي تقومونه من الليل، ولكن الله علم أنكم لن تطيقوا معرفة حقائق ذلك والقيام به، ولن تتمكنوا من ضبط مقادير الليل والنهار ولا إحصاء الساعات، أو علم الله أنكم لن تطيقوا قيام الليل أو الفرض الذي أوجبه عليكم، فعاد عليكم بالعفو والترخيص في ترك القيام إذ عجزتم، ورجع بكم من العسر إلى اليسر. وأصل التوبة: الرجوع.

قال مقاتل: لما نزلت ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾﴾ شقّ ذلك عليهم، وكان الرجل لا يدري متى نصف الليل من ثلثه، فيقوم حتى يُصبح مخافة أن يخطئ، فانتفخت أقدامهم، وامتُقعت ألوانهم، فرحمهم الله وخفف عنهم، فقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ﴾[1]. والمراد بقوله: ﴿لَّن تُحْصُوهُ﴾ أي لن تطيقوه، لصعوبة الأمر، لا أنهم لا يقدرون عليه.

﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾ أي صلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل، فالمراد بالقراءة الصلاة، من إطلاق الجزء وإرادة الكل، كما تقدم بيانه.

(١) تفسير القرطبي: ٥٣/١٩

وهذه الآية نسخت قيام الليل، ويؤكده الحديث الصحيح عند مسلم والنسائي والترمذي واللفظ له عن أنس بن مالك الذي فيه: قال السائل لرسول الله ﷺ: هل عليّ غيرها؟ يعني الصلوات الخمس، فقال: «لا، إلا أن تطّوّع» فهو يدل على عدم وجوب غير تلك الصلوات المفروضة، فارتفع بهذا وجوب قيام الليل وصلاته عن الأمة.

ثم ذكر الله تعالى أسباب التخفيف وأعذاره أو حكمته قائلاً:

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي علم الله عز وجل بطروء أعذار ثلاثة هي المرض والسفر والجهاد، فقد يكون منكم مرضى لا يطيقون قيام الليل، وآخرون يسافرون في الأرض للتجارة والربح، يطلبون من رزق الله ما يحتاجون إليه في معاشهم، فلا يطيقون قيام الليل، وقوم آخرون هم المجاهدون في سبيل الله لا يطيقون قيام الليل، فوجود هذه الأعذار المقتضية للترخيص سبب لرفع فرضية التهجد عن جميع الأمة.

ثم ذكر الحكم الدائم بعد الترخيص، فقال تعالى:

﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ﴾ أي فصلوا ما تيسر واقرؤوا ما تيسر من القرآن، وقد أعيد الأمر هنا لتأكيد الرخصة وتقريرها، وأدوا الصلاة المفروضة قائمة بفروضها وأركانها وشرائطها واحتضار الخشوع فيها دون غفلة عنها، وآتوا الزكاة الواجبة في الأموال، وأنفقوا في سبيل الخير من أموالكم إنفاقاً حسناً على الأهل وفي الجهاد وعلى المحتاجين، كما قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ﴾ [البقرة: ٢/٢٤٥].

ثم أكّد الطلب على الصدقة ورغّب فيها، فقال:

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ أي وجميع ما تقدمونه من الخير المذكور وغير المذكور، فثوابه حاصل لكم، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا، ومما تؤخرونه إلى عند الموت، أو توصون به ليخرج من التركة بعد موتكم.

أخرج البخاري والنسائي وأبو يعلى الموصلي عن الحارث بن سويد قال: قال عبد الله بن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه؟ قالوا: يا رسول الله! ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: اعلموا ما تقولون، قالوا: ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله، قال: إنما مال أحدكم ما قدَّم، ومال وارثه ما أخَّر» .

ثم ختم السورة بالأمر بالاستغفار فقال:

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ أي أكثروا من الاستغفار لذنوبكم وفي أموركم كلها، فإنكم لا تخْلُون من ذنوب اقترفتموها، وإن الله كثير المغفرة لمن استغفره، كثير الرحمة لمن استرحمه.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - كل ما جاء في سورة المزمل وفي آياتها عظة للمتعظ، فمن أراد أن يؤمن ويتخذ إيمانه وطاعته طريقاً إلى رضا ربه ورحمته، فليرغب وليفعل، فذلك ممكن له؛ لأنه تعالى أظهر له الحجج والدلائل.

٢ - قام النبي ﷺ وصحابته بما أمروا به من قيام الليل في أول السورة: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ ثم نسخت فرضية القيام بهذا المقدار الثقيل بآخر السورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾. وكان النسخ بإيجاب الصلوات الخمس.

٣ - خفف الله عن الأمة وعاد عليهم بالعفو. وهذا يدل - كما قال القرطبي - على أنه كان فيهم من ترك بعض ما أمر به. والأولى أن يقال: تاب عليكم من فرض القيام إذ عجزتم. قال أبو نصر القشيري: والمشهور أن نسخ قيام الليل كان في حق الأمة، وبقيت الفريضة في حق النبي ﷺ. وقيل: نسخ التقدير بمقدار، وبقي أصل الوجوب، كقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة: ٢/١٩٦] فالهدي لا بدَّ منه، كذلك لم يكن بُدٌّ من صلاة الليل، ولكن فُوّض قدره إلى اختيار المصلي. وهذا مذهب الحسن. ومذهب الشافعي: النسخ بالكلية، فلا تجب صلاة الليل أصلاً.

٤ - أمر الله بقراءة ما تيسر من القرآن، والمراد من هذه القراءة: الصلاة؛ لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة، فأطلق اسم الجزء على الكل، أي فصلوا ما تيسر لكم، والصلاة تسمى قرآناً، كقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ١٧/٧٨] قال ابن العربي: وهو الأصح؛ لأنه عن الصلاة أخبر، وإليها يرجع القول.

وقيل: المراد القراءة نفسها، أي فاقرؤوا فيما تصلونه بالليل ما خفف عنكم. قال السدِّي: مئة آية، وقال الحسن: من قرأ مئة آية في ليلة لم يحاجّه القرآن. وقال كعب: من قرأ في ليله مئة آية كُتب من القانتين. وقال سعيد بن المسيب: خمسون آية. قال القرطبي: قول كعب أصح؛ لما أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده من حديث عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: « من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمئة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كُتب من المقَنْطِرين » أي أعطي من الأجر قنطاراً.

وصحح القرطبي القول الثاني حملاً للخطاب على ظاهر اللفظ، والقول الآخر مجاز، فإنه من تسمية الشيء ببعض ما هو من أعماله.

٥ - أبان الله تعالى حكمة هذا النسخ، وذكر علة تخفيف قيام الليل؛ فإن

الخَلْق منهم المريض، ويشق عليه قيام الليل، والمسافر في التجارات قد لا يطيق قيام الليل، وكذلك المجاهد، فخفف الله عن الكل لأجل هؤلاء.

٦ - سوّى الله تعالى في هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين المال الحلال للنفقة على أنفسهم وعيالهم، فكان هذا دليلاً على أن كسب المال بمنزلة الجهاد؛ لأنه جمعه مع الجهاد في سبيل الله. روى إبراهيم عن علقمة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من جالب يجلب طعاماً من بلد إلى بلد، فيبيعه بسعر يومه إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهداء» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٧ - إذا كان المراد من آية ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ هو القراءة في الصلاة عملاً بظاهر اللفظ، فاختلف العلماء في قدر ما يلزمه أن يقرأ في الصلاة.

فقال مالك والشافعي وأحمد: فاتحة الكتاب لا يجزئ العدول عنها، ولا الاقتصار على بعضها؛ لما رواه السبعة عن عبادة بن الصامت أنه ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» وظاهر النفي انعدام الصلاة الشرعية لعدم قراءة الفاتحة فيها. ورويت أحاديث كثيرة في معنى ذلك.

وقال أبو حنيفة: الفرض مطلق قراءة، وهو آية واحدة طويلة من القرآن، أو ثلاث آيات قصار؛ لأنها أقل سورة. ودليله ما ثبت في الصحيحين من حديث المسيء صلاته عن النبي ﷺ قال له: «اقرأ ما تيسر معك من القرآن» فلو كانت الفاتحة بخصوصها ركناً لعيَّنها وعلمه إياها إن كان يجهلها، وما روى أبو داود عن أبي هريرة من قول النبي ﷺ: «لا صلاة إلا بقرآن، ولو بفاتحة الكتاب» فإنه ظاهر في عدم تعين الفاتحة.

٨ - أوجب الله تعالى إقامة الصلاة المفروضة وهي الخمس لوقتها، وإيتاء الزكاة الواجبة في الأموال. والمراد من الصلاة: ما كان مفروضاً في النهار أول

الأمر «ركعتين بالغداة، وركعتين بالعشي» والمراد بالزكاة: زكاة المال المفروضة التي فرضت في السنة الخامسة من البعثة على الراجح.

٩ً - حث الله تعالى على القرض الحسن: وهو ما قصد به وجه الله تعالى خالصاً من المال الطيب. وذلك إشارة أيضاً إلى صدقة التطوع.

١٠ً - أي عمل يقدمه العبد في الدنيا يبتغي به منفعته في الآخرة، سواء أكان متعلقاً بالمال أم بغيره، فإنه يلقى به عند ربه جزاء أحسن منه وأكثر نفعاً؛ لإعطائه بالحسنة عشراً. وهذا حث على الإنفاق مطلقاً.

١١ً - طلب الله تعالى من عباده مداومة الاستغفار مما عسى أن يقع في الأعمال من الخلل أو التقصير، ووعد سبحانه بالرحمة والمغفرة لمن يلجأ إلى جنابه الكريم، إذ أخبر بأنه عظيم المغفرة واسع الرحمة. وهذا تحريض على الاستغفار في جميع الأحوال، وإن كانت طاعات، لما عسى أن يقع فيها من تفريط.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة المدثر

مكية، وهي ست وخمسون آية

تسميتها:

سميت سورة المدَّثر لافتتاحها بهذا الوصف الذي وصف به النبي ﷺ، وأصل المدثر المتدثر: وهو الذي يتدثر بثيابه لينام أو ليستدفئ. والدثار: اسم لما يتدثر به.

مناسبتها لما قبلها:

صلة السورة بما قبلها من وجوه ثلاثة هي:

١ً - تتفق السورتان في الافتتاح بنداء النبي ﷺ.

٢ً - صدر كلتيهما نازل في قصة واحدة. وقد نزلت المدثر عقب المزمّل.

٣ً - بدئت السورة السابقة بالأمر بقيام الليل (التهجد) وهو إعداد لنفسه ليكون داعية، وبدئت هذه السورة بالأمر بإنذار غيره، وهو إفادة لسواه في دعوته.

ما اشتملت عليه السورة:

تضمنت السورة إرشادات للنبي ﷺ في بدء دعوته، وتهديدات لزعيم من زعماء الشرك، وأوصاف جهنم.

بدأت السورة بتكليف النبي ﷺ بالقيام بالدعوة إلى ربه، وإنذار الكفار، والصبر على أذى الفجار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [الآيات: ١-٧].

ثم وصفت يوم القيامة الرهيب الشديد، لما فيه من الأهوال: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾ [الآيات: ٨-١٠].

ثم انطلقت تهدد إنساناً في أقوى وأشد صور التهديد، وهو الوليد بن المغيرة الذي أقرّ بأن القرآن كلام الله تعالى، ثم من أجل الزعامة والرياسة، زعم أنه سحر، فاستحق النار: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١﴾ [الآيات: ١١-٢٦].

وناسب ذلك تعداد أوصاف النار، وعدد خزنتها وحكمة ذلك، وبروزها للناس: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧﴾ [الآيات: ٢٧-٣١].

وزاد الأمر تهويلاً قسم الله بالقمر والليل والصبح على أن جهنم إحدى الدواهي العظام: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝٣٢﴾ [الآيات: ٣٢-٣٧].

وأوضحت السورة مسؤولية كل نفس بما كسبت وتعلقها بأوزارها، وبشارة المؤمنين بالنجاة، والكفار بالعذاب، وتصوير ما يجري من حوار بين الفريقين: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ [الآيات: ٣٨-٤٨].

وختمت السورة ببيان سبب إعراض المشركين عن العظة والتذكر والإيمان: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩﴾ [الآيات: ٤٩-٥٦].

فضلها:

ثبت في صحيح البخاري عن جابر أنه كان يقول: أول شيء نزل من القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ وخالفه الجمهور، فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولاً قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ٩٦/١].

سبب نزولها:

أخرج البخاري عن جابر بن عبد الله قال: حدثنا رسول الله ﷺ، فقال:

«جاورت بحراء، فلما قضيت جواري، هبطت، فنُوديت، فنظرت عن يميني، فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي، فرأيت شيئاً، فأتيت خديجة، فقلت: دثِّروني، وصُبُّوا عليّ ماءً بارداً، قال: فدثَّروني وصبوا علي ماء بارداً، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾» . ورواه مسلم بلفظ آخر يدل على أن أول ما نزل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٩٦/١-٥] .

ووجه الجمع بين الرأيين: أن أول شيء نزل بعد فترة الوحي هذه السورة، كما قال الإمام أحمد والشيخان عن جابر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « ثم فتر الوحي عن فترة، فبينا أنا أمشي، سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قِبَل السماء، فإذا المَلَك الذي جاءني قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجُئثت - اقتلعت - منه فَرَقاً - أي خوفاً -، حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي، فقلت لهم: زمّلوني زمّلوني، فزمّلوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾ ثم حمي الوحي وتتابع ».

وأخرج الطبراني[1] عن ابن عباس قال: إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً، فلما أكلوا منه قال: ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: ليس بساحر، وقال بعضهم: كاهن، وقال بعضهم: ليس بكاهن، وقال بعضهم: شاعر، وقال بعضهم: ليس بشاعر، وقال بعضهم: بل سحر يؤثر، فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فحزن وقنّع رأسه وتدثر، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ

(١) بسند ضعيف.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾﴾

إرشادات للنبي ﷺ في بدء الدعوة

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾

القراءات:

﴿وَالرُّجْزَ﴾:

قرأ حفص (والرُّجز)، وقرأ الباقون (والرِّجز).

الإعراب:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾ أصله المتدثر، فأدغمت التاء في الدال لتقارب مخرجهما. ولم تدغم الدال في التاء؛ لأن التاء مهموسة، والدال مجهورة، والمجهور أقوى من المهموس، فكان إدغام الأضعف في الأقوى أولى من العكس.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾﴾ ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال، أي ولا تمنن مستكثراً.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾﴾ ﴿فِي النَّاقُورِ﴾ إما في موضع الرفع؛ لأنه قام مقام النائب للفاعل، وإما في موضع النصب؛ لأن المصدر قام مقام الفاعل، فاتصل الفعل به بعد تمام الجملة، فوقع فضلة، فكان في موضع نصب.

﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩﴾ ﴿فَذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، و﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ بدل منه، و﴿يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾ خبر المبتدأ، ولا يجوز أن يتعلق ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ بقوله: ﴿عَسِيرٌ﴾ لأن ما تعمل فيه الصفة لا يجوز تقدمه على الموصوف. والعامل في ﴿فَإِذَا﴾ في قوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ﴾ ما دلت عليه الجملة، أي اشتد الأمر.

البلاغة:

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ تقديم المفعول به لإفادة الاختصاص.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾ جناس اشتقاق.

﴿عَسِيرٌ﴾ و﴿يَسِيرٖ﴾ بينهما طباق، وجناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ المتلفف بثيابه عند نزول الوحي عليه، وأصله: المتدثر، وأجمعوا على أن المدثر هو رسول الله ﷺ، وهو لابس الدثار: وهو الثوب الظاهر الذي يلبس فوق لباس داخلي يلاصق الجسد ﴿قُمۡ﴾ من مضجعك، أو قيام عزم وجدّ ﴿فَأَنذِرۡ﴾ خوِّف أهل مكة وغيرهم النار إن لم يؤمنوا. ﴿فَكَبِّرۡ﴾ عظِّم. ﴿فَطَهِّرۡ﴾ أي طهر ثيابك من النجاسات، فإن التطهير واجب في الصلاة، محبوب في غيرها، وذلك بغسلها، أو بحفظها عن النجاسة، أو طهر نفسك من الأفعال والأخلاق الذميمة.

﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ أي اترك الأسباب والمآثم المؤدية إلى العذاب، وداوم على هجرها، والرجز: بضم الراء وكسرها: العذاب، قال تعالى: ﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٣٤]. ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦﴾ أي لا تعط شيئاً فتطلب أكثر منه، أو لا تمنن على الله بعبادتك مستكثراً إياها، أو على الناس بالتبليغ مستكثراً به الأجر منهم أو مستكثراً إياه. ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ

﴿٨﴾ نفخ في الصور (وهو القَرْن) النفخة الثانية. ﴿فَذَٰلِكَ﴾ أي وقت النقر. ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ شديد على الكفار. ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ غير سهل عليهم.

سبب النزول:

تقدم، وملخصه: أخرج الشيخان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت جواري، نزلت، فاستنبطت الوادي، فنوديت، فرفعت رأسي، فإذا الملَك الذي جاءني بحراء، فرجعت، فقلت: دثروني. فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾».

التفسير والبيان:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾ أي يا أيها النبي الذي قد تدثر بثيابه، أي تغطى بها رُعْباً من رؤية الملَك عند نزول الوحي أول مرة، انهض، فخوِّف أهل مكة، وحذرهم العذاب إن لم يسلموا.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ أي عظم الله وصفه بالكبرياء، في عبادتك وكلامك وجميع أحوالك، فإنه أكبر من أن يكون له شريك، وطهِّر ثيابك واحفظها عن النجاسات. وقال قتادة: أي طهرها من المعاصي والذنوب، وكانت العرب تسمي الرجل إذا نكث ولم يفِ بعهد الله: إنه لدنس الثياب، وإذا وفّى وأصلح: إنه لمطهر الثياب. وكلا المعنيين صحيح، فإن الطهارة الحسية أو النظافة تلازم عادة الطهارة المعنوية، أي التجرد والتباعد من المعاصي، والعكس صحيح، فإن وجود الأوساخ ملازم لكثرة الذنوب.

والآية دليل على تعظيم الله مما يقول عبدة الأوثان، وعلى النظافة وتحسين الأخلاق واجتناب المعاصي.

﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾﴾ أي اترك الأصنام والأوثان، فلا تعبدها، فإنها سبب العذاب، واهجر جميع الأسباب والمعاصي المؤدية إلى العذاب في الدنيا والآخرة، فالآية دالة على وجوب الاحتراز عن كل المعاصي.

والنهي عن جميع ذلك لا يعني تلبسه بشيء منها، وإنما يبدأ به لكونه قدوة، وللمداومة على الهجران، فهو كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ٣٣/١] وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧/١٤٢] فمثل هذا الخطاب للنبي يراد به الأمر بالدوام والمتابعة، واستمرار تجنب الفساد.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾﴾ أي لا تمنن على أصحابك وغيرهم بتبليغ الوحي، مستكثراً ذلك عليهم، أو إذا أعطيت أحداً عطية، فأعطها لوجه الله، ولا تمنّ بعطيتك على الناس، أو لا تضعف أن تستكثر من الخير، فإن ﴿تَمْنُن﴾ في كلام العرب تضعف.

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾﴾ أي اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك عز وجل، فإنك حُمِّلت أمراً عظيماً، ستحاربك العرب عليه والعجم، فاصبر عليه لله. واصبر أيضاً على طاعة الله وعبادته. وبعد إرشاد النبي ﷺ في دعوته، أبان الله تعالى وعيد الأشقياء، فقال:

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ أي اصبر على أذاهم، فأمامهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أمرهم، فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية للبعث من القبور، فوقت النقر يومئذ يوم شديد جداً على الكفار، غير سهل عليهم.

أخرج ابن أبي حاتم وابن أبي شيبة والإمام أحمد عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أَنْعم، وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر، فينفخ؟ فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا».

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾ ملاطفة في الخطاب ولين في الكلام من الله؛ إذ ناداه ربه بحاله، وعبَّر عنه بصفته.

٢ - أمر الله نبيه بتخويف أهل مكة وغيرهم من الناس قاطبة، وبتحذيرهم العذاب إن لم يُسْلِموا.

٣ - ما أُمر النبي ﷺ بالإنذار إلا لحكمة بالغة، ومهمات عظيمة، لا يجوز له الإخلال بها.

أولها - تعظيم الله ووصفه بأنه أكبر من أن يكون له صاحبة أو ولد، كما يقول عبدة الأوثان.

ثانيها - تطهير الثياب من النجاسة المادية أو الحكمية، وتطهير النفس من المعاصي المؤدية إلى العذاب، وتجميلها بمحاسن الأخلاق.

ثالثها - هجر الأوثان والمآثم التي هي سبب العذاب، ويراد بذلك الأمر بالمداومة على ذلك الهجران.

رابعها - عدم الامتنان على الله بالأعمال الشاقة، كالمستكثر لما يفعل، وإنما الواجب الصبر على ذلك لوجه الله تعالى، متقرباً إليه، غير ممتنّ به عليه، وعدم الامتنان على الناس بتعليم أمور الدين والوحي كالمستكثر لذلك الإنعام، وبالنبوة لأخذ أجر يستكثر به ماله. وقال أكثر المفسرين: المعنى: ولا تعط مالك لأجل أن تأخذ أكثر منه، حتى تكون عطاياه لأجل الله عز وجل، لا لأجل طلب الدنيا. وهذا سمة أهل الجود والكرم.

خامسها - الصبر على أداء الفرائض والعبادات وإيذاء الناس بسبب تبليغ الدين.

والخلاصة:

إن الله تعالى وضع أساسين لنجاح دعوة الرسول ﷺ بعد استكمال العقل وتحرره من الشرك، واستكمال النفس بالخلق الكامل، وهما: الجود والصبر.

٤ - هدد الله الكفار الأشقياء بأهوال يوم القيامة، فإنه إذا نفخ إسرافيل في الصور - وهو كهيئة البوق - النفخة الثانية، كان ذلك اليوم يوماً شديداً على كل من كفر بالله وبأنبيائه، غير سهل ولا هيِّن عليهم، فإنهم دائماً يواجهون صعاباً أشد، بخلاف المؤمنين الذين يتجهون دائماً إلى ما هو الأخف، حتى يدخلوا الجنة برحمة الله تعالى. وقد فهم ابن عباس من قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ كون ذلك اليوم يسيراً على المؤمن، وهذا حجة لمن قال بدليل الخطاب أنه حجّة.

تهديد زعماء الشرك

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾

الإعراب:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ ﴿وَحِيدًا﴾ حال من هاء ﴿خَلَقْتُ﴾ المحذوفة، وتقديره: خلقته وحيداً.

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾ ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هي لواحة.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ مبتدأ، مبني على الفتح، لتضمنه معنى الحرف، وهو واو العطف، وأصله: تسعة وعشر، ولما حذفت الواو؛ تضمنا معنى الحرف، فوجب أن يبنيا، وبنيا على الفتح؛ لأنه أخف الحركات. و﴿عَلَيْهَا﴾ خبره.

البلاغة:

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾ إطناب بتكرار الجملة لزيادة التوبيخ. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾ الاستفهام للتهويل والتفخيم.

المفردات اللغوية:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ دعني واتركني وحدي وإياه، فإني أكفيكه. ﴿مَّمْدُودًا﴾ مبسوطاً كثيراً، فقد كان للوليد الزرع والضَّرْع والتجارة. ﴿شُهُودًا﴾ حضوراً معه بمكة يتمتع بمشاهدتهم ولقائهم، لا يحتاجون إلى سفر لطلب المعاش، استغناء بنعمته، ويشهدون المحافل وتسمع شهادتهم. قيل: كان له عشرة بنين أو أكثر، كلهم رجال، فأسلم منهم ثلاثة: خالد وعمار وهشام. ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾﴾ بسطت له الرياسة والجاه العريض، حتى لقب: ريحانة قريش، والوحيد، أي باستحقاق الرياسة والتقدّم.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾﴾ يطمع في الزيادة على ما أوتيه. ﴿كَلَّآ﴾ كلمة ردع وزجر، أي لا أزيده على ذلك. ﴿عَنِيدًا﴾ معانداً لها ومكابراً. ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ سأكلفه وأحمّله عذاباً شاقاً صعباً لا يطاق، وهو مثل لما يلقى من الشدائد. ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾ تعليل للوعيد، أي تأمل في القرآن، وهيأ الأمر في نفسه. ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾﴾ تعجب من تقديره استهزاء به، أي لعنه الله كيف توصل إلى ما تريد قريش. ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾ تكرير للمبالغة، و﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على أن الثانية أبلغ من الأولى. ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾ في وجوه قومه أو فيما يقدح به فيه.

﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾﴾ ﴿عَبَسَ﴾ قطّب جبهته بين الحاجبين، ﴿وَبَسَرَ﴾ كلح وجهه وتغير، فهو أشد من العبوس. ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الإيمان. ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ تكبر عن اتباع النبي ﷺ ﴿فَقَالَ﴾ الفاء للدلالة على سرعة الحكم من غير تفكر. ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ أي ما هذا القرآن. ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي يروى ويتعلم. ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ كالتأكيد للجملة الأولى، أي ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٦/ ١٠٣].

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ أدخله. ﴿سَقَرَ﴾ جهنم. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾ تعظيم لشأنها. ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾ أي لا تبقي على شيء يلقى فيها، ولا تدعه حتى تهلكه. ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾ تلوح وتظهر لأنظار الناس من مسافات بعيدة لعظمها وهولها، أو مسوِّدة لأعالي الجلد، والبشر على هذا جمع بشرة: وهي ظاهر الجلد.

سبب النزول:

نزول الآية (١١):

﴿ذَرْنِي﴾ أخرج الحاكم وصححه وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه، فقال: يا عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً، لتتعرض لما قِبَله، قال: لقد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، وأنك كاره له، فقال: وماذا أقول؟ فوالله، ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا أعلم برَجَزه ولا بقصيده مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطِلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لَمُغْدِق، وإنه يعلو وما يُعْلَى عليه، وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر فيه، فقال: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ يأثره عن غيره، فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾

نزول الآية (٣٠):

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾: أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في البعث وابن مردويه عن البراء: أن رهطاً من اليهود سألوا رجلاً من أصحاب النبي ﷺ عن خزنة جهنم، فجاء، فأخبر النبي ﷺ، فنزل عليه ساعتئذ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾.

المناسبة:

بعد أن أخبر الله تعالى عن كون يوم القيامة عسيراً غير يسير على الكافرين، هدد الوليد بن المغيرة وأمثاله من زعماء الشرك، وآنس نبيه بقوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾، وهو كقوله في المزمّل، ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ [١١] ثم عدد تعالى نعمه على الوليد من المال والولد والجاه والرياسة، وكفره بها، ووعيده بنار جهنم لوصفه القرآن الكريم بأنه سحر يؤثر.

التفسير والبيان:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ أي دعني أنا والذي خلقته حال كونه وحيداً في بطن أمه، لا مال له ولا ولد، أو دعني وحدي معه، فإني أكفيك في الانتقام منه.

وأجمع المفسرون على أن المراد به هنا الوليد بن المغيرة.

وهذا توعد وتهديد لهذا الخبيث الذي أنعم الله عليه بنعم الدنيا، فكفر بأنعم الله، وبدلها كفراً، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها، وجعلها من قول البشر. ثم عدد الله تعالى تلك النعم، فقال:

﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾﴾ أي وجعلت له مالاً واسعاً كثيراً، وقد كان الوليد مشهوراً بكثرة المال، من الزروع والمواشي والتجارات في مكة وما بينها وبين الطائف.

وجعلت له أيضاً بنين حضوراً معه بمكة، لا يفارقونها ولا يسافرون بالتجارات في البلاد لطلب الرزق، لكثرة مال أبيهم. قيل: كان له عشرة بنين أو ثلاثة عشر ولداً كلهم من الرجال، فكان يسمى ريحانة قريش، والوحيد؛ لأنه وحيد متميز في قومه بالرياسة والجاه.

وكذلك بسطت له في العيش وطول العمر والرياسة في قريش، ومكّنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك.

ومع كل هذا يطمع في زيادة المال والولد وغير ذلك، مما يدعو إلى التعجب. وقوله: ﴿ثُمَّ﴾ هنا معناه التعجب، كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١] فمعنى ﴿ثُمَّ﴾ هنا للإنكار والتعجب.

وهذا إنكار عليه لشدة حرصه على الدنيا، فردَّ الله تعالى عليه بقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ أي لا أزيده، فإنه كان لآيات القرآن معانداً لها، كافراً بما أنزلناه منها على رسولنا، بعد العلم بصدقها.

وهذا دليل على أنه كان كافراً كفر عناد، فهو في أعماق نفسه يقرّ بكون آي القرآن من عند الله، ولكنه ينكر ذلك بلسانه إرضاء لقومه، لذا استحق العقاب الآتي:

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ أي سأكلفه وأحمّله مشقة من العذاب، لا راحة فيه، كمن يتكلف صعود أعالي الجبال الشاهقة الوعرة. والإرهاق: أن يحمل الإنسان الشيء الثقيل الذي لا يطيقه.

وقيل: الصعود: جبل في النار، روى ابن أبي حاتم والبزار وابن جرير عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ قال: «هو جبل في النار، من نار، يكلف أن يصعده، فإذا وضع يده ذابت، وإذا

رفعها عادت، فإذا وضع رجله ذابت، وإذا رفعها عادت» . ورواه الترمذي بلفظ: «الصعود: جبل من نار يتصعّد فيه سبعين خريفاً، ثم يهوي كذلك فيه أبداً» . وقال فيه: حديث غريب. ثم حكى تعالى أحواله وكيفية اتخاذ قراره وكيفية عناده، فقال:

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾ أي إنه فكر في شأن النبي ﷺ وفي القرآن العظيم، وهيّأ من الكلام في نفسه ما يقول، وتروى ماذا يصف به القرآن حين سئل عنه، ففكر ماذا يختلق من المقال، فلُعن وعُذِّب على أيّ حال قدّر ما قدر من الكلام، وأكد ذلك قائلاً: ثم لعن وعذب، وأتى بـ ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على أن الدعاء عليه في المرة الثانية أبلغ وآكد من الأولى.

وهذا كله تعجب واستعظام من موقفه، واستحقاقه مضاعفة العذاب، ثم وصفه بأحوال ظاهرة للناس فقال:

﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ أي ثم أعاد النظر والتروي والتأمل في الطعن بالقرآن، ثم قطّب وجهه لما لم يجد مطعناً يطعن به القرآن، وكلح وجهه وتغير وأظهر الكراهة، ثم أعرض عن الإيمان، وانصرف عن الحق، وتكبر عن الانقياد للقرآن، فقال: ما هذا إلا سحر ينقل ويحكى، نقله محمَّد عن غيره ممن قبله، وحكاه ورواه عنهم، فليس بكلام الله، بل هو كلام البشر أو الإنس.

وهذا دليل على أنه كان مناقضاً فيما اختلقه لقناعته الذاتية، فقد كان بقلبه مصدقاً للنبي ﷺ، ولكنه أنكره عناداً.

روى العوفي عن ابن عباس قال: دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة، فسأله عن القرآن، فلما أخبره، خرج على قريش، فقال: يا عجباً لما

يقول ابن أبي كبشة، فوالله ما هو بشعر، ولا بسحر، ولا بهذي من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله، فلما سمع بذلك النفر من قريش، ائتمروا، وقالوا: والله لئن صبأ الوليد، لتصبو قريش، فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام، قال: أنا والله أكفيكم شأنه، فانطلق، حتى دخل عليه بيته، فقال للوليد: ألم تر إلى قومك، قد جمعوا لك الصدقة؟ فقال: ألستُ أكثرهم مالاً وولداً؟ فقال له أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه، فقال الوليد: أقد تُحدِّث به عشيرتي!! فلا، والله لا أقرب ابن أبي قحافة، ولا عمر، ولا ابن أبي كبشة، وما قوله إلا سحر يؤثر، فأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ - إلى قوله - ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾.

ومما يدل على أن كفره كفر عناد: ما ذكر سابقاً أن الوليد مرّ برسول الله ﷺ، وهو يقرأ: (ألم السجدة)، فرجع وقال لبني مخزوم: والله لقد سمعت آنفاً من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى.

وقال قتادة: زعموا أنه قال: والله لقد نظرت فيما قال الرجل، فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطِلاوة، وإنه يعلو وما يُعلى عليه، وما أشك أنه سحر، فأنزل الله: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾﴾ الآية.

ولا ريب أن من عرف هذا القدر، ثم زعم أن القرآن سحر، فإنه يكون معانداً، وكان منكراً للتوحيد والنبوة والبعث.

ثم ذكر الله تعالى ما يستحقه من عقاب على موقفه هذا، فقال: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ أي سأدخله النار، وسأغمره فيها من جميع جهاته، وسقر: من أسماء النار، ثم هوّل أمرها وفخّم شأنها بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾ المعنى: أيّ شيء أعلمك ما سقر؟ لا تبقي من الدم واللحم والعظم شيئاً، فإذا

أعيد أهلها خلقاً جديداً، فلا تتركهم، بل تعاود إحراقهم بأشد مما كانت، وهكذا أبداً، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٤/٥٦] .

وتلوح جهنم للناس حتى إنهم يرونها عياناً، كما قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/٩١] . أو تلفح الجلد لفحة، فتدعه أسود من الليل، وعلى النار زبانية وخزنة أشداء، عظيمو الخَلْق، غليظو الخُلُق، عددهم من الملائكة تسعة عشر، والمميز في رأي الأكثرين: شخصاً، وقيل: صنفاً.

والبشر: إما الإنس من أهل النار، وهو رأي الأكثرين، أو جمع بَشَرة: وهي جلدة الإنسان الظاهرة.

فقه الحياة أو الأحكام:

يحتاج نجاح الدعوة إلى الله إلى عناصر بشرية إيجابية، وحماية إلهية، أما العناصر الإيجابية فهي ما تحدثت عنه فاتحة السورة من تطهير النفس والعقل من الشرك والوثنية، والاتصاف بأمثل الصفات الخلقية، والاستعانة بالجود والصبر.

وجاء هنا دور الوقاية والحفظ الإلهي، فالله سبحانه وقى رسوله ﷺ من أذى المشركين، وسلاه، وهدد أعظم زعماء الشرك وهو الوليد بن المغيرة ليكون عبرة لغيره.

فقد كان الوليد موقناً بقلبه، مقتنعاً بصدق النبي ﷺ، ولكنه كذب بلسانه إرضاء لهوى نفسه في حب الزعامة والرياسة والجاه، وإيثاراً للانضمام إلى صف أهل الشرك في مكة.

فبالرغم من أن الحق سبحانه أمده بالمال والبنين، وجعله متقلباً في أعطاف الرفاه والنعيم، ثم طمع في زيادة المال والولد، فإنه قابل النعمة بالجحود،

والشكر بالكفران، فكذب بالقرآن، ولم يؤمن بأنه كلام الله تعالى، ووصفه بأنه سحر مروي من كلام البشر المتناقل، وعاند النبي ﷺ وما جاء به.

فحجب الله عنه زيادة النعمة؛ لأنها لا تكون مع الكفر بالمنعم بها، وتوعده وهدده بدخول نار جهنم، ذاكراً أسباب ذلك، وهي كيفية عناده، فإنه فكر في شأن النبي ﷺ والقرآن، وهيأ الكلام في نفسه، ونظر بأي شيء يرد الحق ويدفعه، وقطّب بين عينيه في وجوه المؤمنين، وكَلَح وجهه وتغير لونه، وولّى معرضاً عن الحق والإيمان، وتعظم عن أن يؤمن، فقال: ما هذا الذي أتى به محمد ﷺ إلا سحر يأثِره ويحكيه عن غيره، وما هذا إلا كلام المخلوقين، تختدع به القلوب كما تختدع بالسحر.

فلُعن كيف فكر، وعذب على ما قدَّر، ثم لعن لعناً بعد لعن، واستحق الإدخال في جهنم التي وصفها الله وبالغ في وصفها بقوله، وما أعلمك أي شيء هي؟ فهي لا تترك لهم عظماً ولا لحماً ولا دماً إلا أحرقته، ثم تعاود إحراقهم إلى الأبد، تلوح للبشر عِياناً، وتلفح وجوههم لفحة تدعها أشد سواداً من الليل، ولا يستطيع أحد الفرار منها، فإن عليها خزنة تسعة عشر من الملائكة، يَلْقون فيها أهلها وهم مالك وثمانية عشر ملكاً آخرين بأعيانهم. قال الثعلبي: ولا يُنكر هذا، فإذا كان مَلَك واحد يقبض أرواح جميع الخلائق، كان أحرى أن يكون تسعة عشر على عذاب بعض الخلائق. والأكثرون على أن المراد تسعة عشر شخصاً من الملائكة، وقيل: صنفاً.

قال القرطبي: والصحيح إن شاء الله أن هؤلاء التسعة عشر هم الرؤساء والنقباء، وأما جملتهم فالعبارة تعجز عنها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف مَلَك يجرّونها»[1].

(١) تفسير القرطبي: ١٩/ ٨٠

الحكمة في اختيار عدد خزنة جهنم التسعة عشر

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾

القراءات:

﴿إِذْ أَدْبَرَ﴾:

قرأ نافع، وحفص، وحمزة (إذ أَدْبَر)، وقرأ الباقون (إذا دَبَر).

الإعراب:

﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ مفعول ثان لجعلنا.

﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ ﴿مَثَلًا﴾: حال.

﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾ منصوب من خمسة أوجه:

١ - أن يكون منصوباً على المصدر، أي إنذاراً للبشر، فيكون نذير بمعنى إنذار، كنكير بمعنى إنكار.

٢ - أن يكون منصوباً على الحال من ﴿لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ وذكّر؛ لأنها بمعنى العذاب، أو لأن فعيلاً بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث.

٣ - أن يكون منصوباً على الحال من ضمير ﴿قُمْ﴾ في أول السورة، وتقديره: قم نذيراً للبشر.

٤ً - أن يكون منصوباً بتقدير فعل، أي صيرها الله نذيراً، أي ذات إنذار، على النسب.

٥ً - أن يكون منصوباً بتقدير: أعني، أي أعني نذيراً للبشر.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾﴾ ﴿إِذۡ﴾: ظرف زمان ماض، ﴿أَدۡبَرَ﴾: انقضى، يراد به التعبير عن إدبار الليل فيما مضى، وقرئ «إذا» ظرف زمان مستقبل «دَبَر»: تولى. قال الفراء: دبر وأدبر بمعنى واحد، كقبل وأقبل.

البلاغة:

﴿يُضِلُّ﴾ ﴿وَيَهۡدِي﴾ بينهما طباق، وكذا بين ﴿يَتَقَدَّمَ﴾ و﴿يَتَأَخَّرَ﴾.

﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ﴿٣٥﴾﴾ سجع مرصع.

المفردات اللغوية:

﴿إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي فلا يمكن مقاومتهم ولا يطاقون كما يتوهمون. ﴿عِدَّتَهُمۡ﴾ عددهم المذكور. ﴿فِتۡنَةً﴾ سبب ضلال واستبعاد. ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بأن يقولوا: لِمَ كانوا تسعة عشر؟ ﴿لِيَسۡتَيۡقِنَ﴾ ليستبين. ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي اليهود والنصارى، أي ليتبينوا صدق القرآن وصدق نبوة محمد ﷺ، لما رأوا أن عددهم تسعة عشر موافق لما في كتابهم. ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ يزداد المؤمنون من أهل الكتاب وغيرهم تصديقاً، لموافقة ما أتى به النبي ﷺ لما في كتابهم.

﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ من غيرهم في عدد الملائكة. ﴿مَّرَضٞ﴾ شك أو نفاق، وهم منافقو المدينة. ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ بمكة. ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾ أي ماذا أراد الله بهذا العدد حديثاً. ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ﴾ أي مثل ذلك المذكور من إضلال منكر هذا العدد وهدى مصدقه، يضل الكافرين، ويهدي المؤمنين.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي ما يعلم الملائكة في قوتهم وأعوانهم، وكذلك جموع خلقه على ما هم عليه .﴿وَمَا هِيَ﴾ أي سقر .﴿ذِكْرَىٰ﴾ تذكرة وموعظة للناس.

﴿كَلَّا﴾ ردع لمن أنكرها، أي حقاً .﴿أَدْبَرَ﴾ مضى وولّى .﴿أَسْفَرَ﴾ ظهر وأضاء .﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾﴾ أي إن سقر وصفتها لإحدى الدواهي أو البلايا العظام .﴿أَن يَتَقَدَّمَ﴾ إلى الخير أو الجنة بالإيمان .﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ إلى الشر أو النار بالكفر.

سبب النزول:

نزول الآية (٣١):

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا﴾: قال ابن إسحاق وقتادة: قال أبو جهل يوماً: يا معشر قريش، يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عدداً، أفيعجز مئة رجل منكم عن رجل منهم؟! فأنزل الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ الآية.

وقال السُّدِّي: لما نزلت ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ قال رجل من قريش يدعى أبا الأشد بن كَلَدة الْجُمَحي - وكان شديد البطش[1] -: يا معشر قريش لا يهولنّكم التسعة عشر، أنا أدفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة من الملائكة، وبمنكبي الأيسر التسعة، فأنزل الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾.

وفي رواية: إن الحارث بن كَلَدة قال: أنا أكفيكم سبعة عشر، واكفوني

(١) كان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة، لينزعوه من تحت قدميه، فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه. قال السهيلي: وهو الذي دعا رسول الله ﷺ إلى مصارعته، وقال: إن صرعتني آمنت بك، فصرعه النبي ﷺ مراراً، فلم يؤمن. وصارع النبي ﷺ أيضاً رُكانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب.

أنتم اثنين، فنزل قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي لم يجعلهم رجالاً تستطيعون مغالبتهم.

التفسير والبيان:

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي لم نجعل خزنة النار وزبانيتها القائمين بالتعذيب إلا ملائكة غلاظاً شداداً، ولم نجعلهم رجالاً تمكن مغالبتهم، ومن يطيق الملائكة ومن يغلبهم؟ وهم أقوى الْخَلْق وأشدهم بأساً وأعظمهم بطشاً، وأقومهم بحق الله والغضب له تعالى.

وهذا ردّ على مشركي قريش حين ذكر عدد الخزنة، فقال أبو جهل كما تقدم: يا معشر قريش، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم؟ فقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي شديدي الْخَلْق، لا يقاوَمون ولا يغالَبون.

ثم أبان الله تعالى حكمة اختيار عدد الخزنة، فقال:

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر، اختباراً منا للناس، وسبب محنة وإضلال للكافرين، حتى قالوا ما قالوا، ليتضاعف عذابهم، ويكثر غضب الله عليهم. فقوله: ﴿فِتْنَةً﴾ معناه سبب فتنة، أي جعلنا تلك العدة وهي تسعة عشر سبباً لفتنة الكفار، وفتنتهم: هو كونهم أظهروا مقاومتهم والطمع في مغالبتهم، وذلك على سبيل الاستهزاء، فإنهم مكذبون بالبعث وبالنار وبخزنتها.

﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ أي إنه تعالى جعل عدة الزبانية تسعة عشر ليتيقن ويعلم أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى أن هذا الرسول حق، فإنه جاء ناطقاً بما يطابق كتبهم السماوية المنزلة على الأنبياء قبله، فإن فيها أن عدة خزنة جهنم تسعة عشر، ولكي يزداد إيمان المؤمنين

وتصديقهم حين يرون موافقة أهل الكتاب لهم، ويشهدون صدق إخبار نبيهم محمد ﷺ.

ثم أكد الله تعالى ذلك بنفي الشبهة والشك، فقال:

﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي ولا يشك أهل الكتاب من اليهود والنصارى والمؤمنون بالله تعالى ورسوله ﷺ في صحة وحقيقة هذا العدد، وفي دين الله. والمراد بذلك في الواقع التعريض بالمتشككين المنافقين.

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا﴾ أي وليقول المنافقون الذين في قلوبهم شك وريب في صدق النبي ﷺ، والكافرون من أهل مكة وغيرهم: أي شيء أراد الله بهذا العدد المستغرب استغراب المثل؟ وما الحكمة في ذكر هذا هنا؟ ومرادهم إنكار أصل هذا الكلام، وأنه ليس من عند الله[(١)].

ثم ذكر الله تعالى سنته في الإضلال والهداية لمن كان من أهلهما، فقال:

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى يضل من يريد بخذلانه عن إصابة الحق، لسوء استعداده، وتوجيه نفسه لمواقع الضلال والسوء، ويهدي إلى الحق والإيمان من يريد، بتوفيقه إلى الصواب، فمثل إضلال أبي جهل وأصحابه المنكرين لخزنة جهنم، يضل الله عن الهداية والإيمان، أي يخزي ويعمي من أراد إضلاله، ويهدي أي يرشد من أراد هدايته، كإرشاد أصحاب محمد ﷺ.

وليس معنى الإضلال والهداية أنه تعالى يجبر كل فريق على الضلالة والهدى، فذلك مناف للعدل الإلهي، ولحكمة التشريع الذي جاء بالتكليف،

(١) البحر المحيط: ٨/ ٣٧٧

وإنما لإرادة المكلف واختياره دور أساسي في الاستجابة للتكليف، ولاستحقاق المؤاخذة والثواب، ولا يقع شيء قهراً عن الله، وإنما بمراده، فإن خالف العبد عصى المأمور به، والمحبوب لربه، ولم يخرج عن مشيئة الله، فالله قهر الأشياء كلها، ولكنه أرخى الزمام في أشياء لاختيار الإنسان.

ثم أكد تعالى أن له في هذا العدد حكمة اختص هو بمعرفتها، فقال:

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي إن خزنة النار، وإن كانوا تسعة عشر، فلهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه.

وهذا ردّ على المشركين الذين استقلوا ذلك العدد، ملخصه: افترضوا أن هؤلاء تسعة عشر، إلا أن لكل واحد من الأعوان والجنود ما لا يحصيهم إلا الله، فلا يعلم جنود الله إلا هو لفرط كثرتهم، ولا يعسر عليه تتميم الخزنة إلى عشرين وأزيد، ولكن له في هذا العدد حكمة اختص هو بمعرفتها.

﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي وما سقر وصفتها، وما ذكر عدد خزنتها إلا تذكرة وموعظة للناس، ليعلموا كمال قدرة الله، وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار.

ثم وجّه الله تعالى تحذيراً لمن أنكر جهنم، فقال:

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾ أي أوجه تحذيراً رادعاً لكم أيها الناس، فلا سبيل لإنكار وجود النار في الآخرة، وأقسم بالقمر المتلألئ، وبالليل إذا مضى وولى ذاهباً، وبالصبح إذا ظهر وتبين وأضاء، إن سقر (جهنم) لإحدى الدواهي العظام والبلايا الكبار؛ لإنذار البشر وتخويفهم من عقاب الله على العصيان.

ثم عيّن الله تعالى المنذرين، فقال:

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ أي إن جهنم إنذار لمن أراد أن يتقدم إلى الخير والطاعة أو الجنة بالإيمان، أو يتأخر عن ذلك إلى الشر والمعصية أو النار بالكفر. ونظير الآية قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٤] أي المبادرين إلى الخير، والمتأخرين عنه إلى الشر.

قال ابن عباس: هذا تهديد وإعلام أن من تقدم إلى الطاعة والإيمان بمحمد ﷺ جوزي بثواب لا ينقطع، ومن تأخر عن الطاعة وكذب محمداً ﷺ عوقب عقاباً لا ينقطع[(١)].

وقال الحسن البصري: هذا وعيد وتهديد، وإن خرج مخرج الخبر، كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٩][(٢)].

فقه الحياة أو الأحكام:

يستفاد من الآيات ما يأتي:

١ - إن خزنة جهنم وزبانيتها التسعة عشر هم من الملائكة الذين لا يُغالَبون، لا من الرجال الذين يمكن مقاومتهم بالتجمع عليهم.

٢ - إن إيراد عدد التسعة عشر من الملائكة صار سبباً لفتنة الكفار، أي اختبارهم، قال الزمخشري: ما جعل افتتانهم بالعدة سبباً، وإنما العدة نفسها هي التي جعلت سبباً، وذلك أن المراد بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: وما جعلنا عدتهم إلا تسعة عشر، فوضع فتنة للذين كفروا موضع تسعة عشر؛ لأن حال هذه العدّة الناقصة واحداً من عقد العشرين أن يفتتن

(١) تفسير القرطبي: ١٩/ ٨٦

(٢) المرجع والمكان السابق.

بها من لا يؤمن بالله وبحكمته ويعترض ويستهزئ، ولا يذعن إذعان المؤمن، وإن خفي عليه وجه الحكمة، كأنه قيل: ولقد جعلنا عدتهم عدةً، من شأنها أن يفتتن بها، لأجل استيقان المؤمنين، وحيرة الكافرين(١).

٣ - إن ذكر هذا العدد أدى إلى زيادة يقين الذين أعطوا التوراة والإنجيل بصحة نبوة محمد ﷺ؛ لأن عدة خزنة جهنم موافقة لما عندهم، وأدى أيضاً إلى زيادة إيمان المؤمنين بذلك؛ لأنهم كلما صدّقوا بما في كتاب الله آمنوا، ثم ازدادوا إيماناً لتصديقهم بعدد خزَنة جهنم، وإلى نفي الشك من الذين أعطوا الكتاب والمصدِّقين من أصحاب محمد ﷺ في أن عِدّة خزنة جهنم تسعة عشر، وأدى أيضاً إلى أن الذين في صدورهم شك ونفاق من منافقي أهل المدينة الذين سيظهرون بعد الهجرة، والكافرين من اليهود والنصارى قالوا: ماذا أراد الله بعدد خزنة جهنم مثلاً غريباً؟ والقصد من هذا التساؤل الصادر منهم استبعاد أن يكون هذا من عند الله، وإنكار كونه من الله، والمعنى: أيّ شيء أراد الله بهذا العدد العجيب؟

٤ - قوله عز وجل: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَـٰنًا﴾ دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، أي يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وهو رأي الأكثرين. وأما الذين يقولون بأن حقيقة الإيمان لا تقبل الزيادة والنقصان فيحملون الآية على ثمرات الإيمان وعلى آثاره ولوازمه. وأما نفي الارتياب عن أهل الكتاب والمؤمنين بعد إثبات الاستيقان وزيادة الإيمان لهم، فمن باب التوكيد، كأنه قيل: حصل لهم يقين جازم، بحيث لا يحصل بعده شك وريب، فإن الذي حصل له اليقين قد يغفل عن مقدّمة من مقدمات الدليل، فيعود له الشك. وفيه أيضاً تعريض بحال من عداهم، كأنه قيل: وليخالف حالهم حال المرتابين من أهل الزيغ والكفران.

---

(١) الكشاف: ٣/ ٢٨٨

٥ً - قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ لا يراد به - خلافاً لظاهره - أن الإضلال والهداية أمران مبتدآن من الله عز وجل، ولا أنه تعالى يجبر فريقاً على الضلالة، وفريقاً على الهدى، وإنما المراد به تقرير سنة من سنن الله سبحانه في عباده، وهي ربط الأسباب التي خلقها بالمسببات، فمن ضلَّ فإنما يضل بنفسه واختياره، ومن اهتدى فإنما يهتدي بنفسه وإرادته واختياره، ثم يزيد الله الضالين ضلالاً، فيبعدهم عن معالم الهداية، لسوء اختيارهم واستعدادهم وعنادهم، ويزيد المؤمنين إيماناً بتوفيقهم إلى سبل الهداية والرشاد، لحسن اختيارهم. ولا يقع شيء في الكون قهراً عن الله تعالى، وإنما بإرادته ومشيئته، وإن كان مخالفاً لمأموره ومحبوبه.

٦ً - قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ إشارة إلى أن ما عليه عدد الخزنة لا يعلم حكمته، ولا حكمة ما عليه كل جند من العدد إلى الأبد إلا الله سبحانه. وهو جواب لأبي جهل حين قال: أما لمحمد من الجنود إلا تسعة عشر!

أخرج الترمذي عن النبي ﷺ: «أَطَّت[1] السماء، وحُقَّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملَك واضع جبهته لله ساجداً».

٧ً - ردع الله تعالى بقوله: ﴿كَلَّا﴾ كل من ينكر وجود جهنم وصفتها، وأنها إحدى البلايا العظام والدواهي الكبار، وأنها إنذار دائم للبشر.

٨ً - أقسم الله تعالى بالقمر والليل والصبح تشريفاً لها، وتنبيهاً على ما يظهر بها وفيها من عجائب الله وقدرته وقوام الوجود بإيجادها، والمقسم عليه: أن سقر (جهنم) إحدى الدواهي، وأنها نذير للبشر أو ذات إنذار، على معنى النَّسَب، قال الحسن البصري: والله ما أنذر الخلائق بشيء أدهى منها.

---

(١) أي إن كثرة ما فيها من الملائكة قد ثقلها، حتى أطت؛ ظهر لها صوت وحنين، وهذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة، وإن لم يكن ثَمَّ أطيط، وأطيط الإبل: أصواتها وحنينها.

٩ - النار نذير لمن شاء أن يتقدم إلى الخير والطاعة، أو يتأخر إلى الشر والمعصية.

الحوار بين أصحاب اليمين وبين المجرمين

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ (٣٩) فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ (٤٠) عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ (٤٢) قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ (٥٣) كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ (٥٦)﴾

القراءات:

﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾:

وقرأ نافع (مستنفَرةٌ).

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾:

وقرأ نافع (وما تَذْكُرون).

الإعراب:

﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ حال من أصحاب اليمين.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠)﴾ ما: في

موضع رفع مبتدأ، و﴿لَهُمْ﴾: خبره، و﴿مُعْرِضِينَ﴾: حال من ضمير ﴿لَهُمْ﴾ والعامل: ما في ﴿لَهُمْ﴾ من معنى الفعل. و﴿عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ﴾، و﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ﴾: في موضع الحال بعد حال، أي مشابهين حمراً مستنفرة، أي نافرة.

البلاغة:

﴿يَتَسَآءَلُونَ ، عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ إيجاز بحذف بعض الجمل، أي قائلين لهم: ما سلككم في سقر؟ لفهم المخاطبين.

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾ خاص بعدعام، وهو الخوض بالباطل مع الخائفين، لتعظيم هذا الذنب.

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ إلخ، سجع مرصّع.

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ تشبيه تمثيلي؛ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد.

المفردات اللغوية:

﴿رَهِينَةٌ﴾ مرتهنة عند الله بعملها، إما خلّصها وإما أوبقها، وليست رهينة تأنيث رهين، لتأنيث النفس؛ لأنه لو قُصدت الصفة لقيل (رهين) لأن فعيلاً بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث، وإنما هو اسم بمعنى الرهن، كالشتيمة بمعنى الشتم، كأنه قيل: كل نفس بما كسبت رهين، والمعنى: كل نفس رهن بكسبها عند الله، غير مفكوك، ولا يرتهن الله تعالى أحداً من أهل الجنة.

﴿أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ هم الذين أعطوا كتبهم بأيمانهم، فلا يرتهنون بذنوبهم، وقد فكوا رقابهم بما أحسنوا من أعمالهم. ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بساتين لا تدرك حقيقتها.

﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يسأل بعضهم بعضاً، أو يسألون غيرهم عن حالهم. ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ أدخلكم. ﴿سَقَرَ﴾ جهنم. ﴿نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ نخالط أهل الباطل في باطلهم. ﴿بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ يوم البعث والجزاء. ﴿الْيَقِينُ﴾ الموت. ﴿الشَّافِعِينَ﴾ من الملائكة والأنبياء والصالحين. ﴿مُعْرِضِينَ﴾ عن التذكير، والمعنى: أي شيء حصل لهم في إعراضهم عن الاتعاظ.

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ (٥١)﴾ مثل الحمير الوحشية التي هربت من الأسد أشد الهرب، شبههم في إعراضهم ونفورهم عن استماع الذكر بحمر. ﴿صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ أي قراطيس منشورة مبسوطة، تنشر وتقرأ، وذلك أنهم قالوا للنبي ﷺ: لن نتبعك حتى تأتي كُلّاً منا بكتاب من السماء فيه: من الله إلى فلان: أن اتبع محمداً.

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن اقتراحهم الآيات. ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ فلذلك أعرضوا عن التذكرة، لا لامتناع إيتاء الصحف. ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤)﴾ ردع لهم عن إعراضهم، فإن القرآن تذكرة كافية. ﴿فَمَن شَاءَ﴾ أن يذكره. ﴿ذَكَرَهُ﴾ قرأه، فاتعظ به. ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ﴾ حقيق بأن يتقى عقابه. ﴿وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ حقيق بأن يغفر لمن اتقاه.

سبب النزول:

نزول الآية (٥٢):

﴿بَلْ يُرِيدُ﴾: أخرج ابن المنذر عن السُّدِّي قال: قالوا: لئن كان محمد صادقاً، فليصبح تحت رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار، فنزلت: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (٥٢)﴾.

وفي رواية: أن أبا جهل وجماعة من قريش قالوا: يا محمد، لن نؤمن بك

حتى تأتي كل واحد منا بكتاب من السماء، عنوانه: من رب العالمين إلى فلان بن فلان، ونؤمر فيه باتباعك[1].

المناسبة:

بعد أن توعد الله الكفار والعصاة، وهددهم بأن النار إحدى الدواهي والبلايا العظام، وأنذرهم بأن النجاة مربوطة بالعمل الصالح، أكد المعنى المتقدم بأنه ليس لكل امرئ إلا جزاء عمله، وأخبر أن أصحاب اليمين ناجون، وأن المجرمين معذبون، ووصف الحوار الدائر بين الفريقين لمعرفة سبب دخول الفريق الثاني نار جهنم.

التفسير والبيان:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ أي كل نفس مأخوذة بعملها، مرتهنة به، معتقلة بما قدمته من عمل يوم القيامة، فإن كان خيراً خلّصها وأعتقها، وإن كان شراً أوبقها.

﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ أي باستثناء المؤمنين الذين أعطوا كتبهم بأيمانهم، فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم، بل يطلق سراحهم بما أحسنوا من أعمالهم.

﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ أي وهم في جنات يتنعمون، ويسأل بعضهم بعضاً عن أحوال المجرمين، في النيران، قائلين لهم: ما الذي أدخلكم في جهنم؟ والمقصود من السؤال زيادة التوبيخ والتخجيل.

فأجابوا بأن هذا العذاب لأمور أربعة:

---

(١) التفسير الكبير للرازي: ٣٠/ ٢١٢، البحر المحيط: ٨/ ٣٨١

﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ أي لم نكن في الدنيا نؤدي الصلاة المفروضة، فلم نعبد ربنا مع المؤمنين الذين يصلون، ولم نحسن إلى خلقه من جنسنا، فلم نطعم الفقير المحتاج ما يجب إعطاؤه، وكنا نخالط أهل الباطل في باطلهم، كلما غوى غاوٍ غوينا معه، أو نتكلم فيما لا نعلم، أو نخوض مع الخائضين في أمر محمد ﷺ، وهو قولهم: كاذب، مجنون، ساحر، شاعر، وكنا بعد ذلك كله مكذبين بالقيامة، حتى أتانا الموت ومقدماته، فاليقين: الموت: كما في قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ١٥/٩٩] .

فهذه أسباب أربعة لازمتنا طوال حياتنا الدنيوية: ترك الصلاة، والزكاة، والخوض في باطل الكلام، وإنكار يوم البعث والحساب والجزاء. وفي ترك الأمرين الأولين دليل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة.

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ أي فمن كان متصفاً بمثل هذه الصفات، فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه، والمعنى: لا شفاعة لهم من أحد من الملائكة والأنبياء والصالحين؛ لأن مصيرهم إلى النار حتماً.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ أي ما الذي حصل لهم حال كونهم معرضين عن القرآن المشتمل على التذكرة الكبرى، والموعظة العظمى؟ أو فما لهؤلاء الكفرة الذين قبلك في مكة معرضين عما تدعوهم إليه، وتذكّرهم به؟ كأنهم في نفورهم عن الحق وإعراضهم عنه من حُمُر الوحش إذا فرت من رماة يرمونها، أو من أسد يريد افتراسها.

فالقسورة: إما جماعة الرماة الذين يتصيدونها، أو الأسد، وهو رأي جمهور اللغويين، سمي بذلك لأنه يقهر السباع، قال ابن عباس: الحمر الوحشية إذا

عاينت الأسد هربت، كذلك هؤلاء المشركون، إذا رأوا محمداً ﷺ هربوا منه، كما يهرب الحمار من الأسد. وهذا التشبيه في غاية التقبيح والتهجين لحالهم، وإعلامهم بأنهم قوم بُلْه.

والآية دليل على أن إعراضهم عن الحق والإيمان بغير سبب ظاهر مقنع، ولا استعداد للتفاهم والاقتناع، ففي تشبيههم بالحمر مذمة ظاهرة، ونداء عليهم بالبلادة والغباوة، وعدم التأثر من مواعظ القرآن، بل صار ما هو سبب لاطمئنان القلوب موجباً لنفرتهم(١).

ثم أتى بصورة من عنادهم، فقال تعالى:

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾ أي بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاب، كما أنزل الله على النبي ﷺ، فهم قد بلغوا من العناد حداً تجاوزوا به أقدارهم، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٤] . وقال تعالى أيضاً واصفاً مطلبهم: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٣] .

قال المفسرون: إن كفار قريش قالوا لمحمد ﷺ: ليصبح عند رأس كل رجل منا كتاب منشور من الله: أنك رسول الله. وكل هذا ونحوه مماحكة وتعنت ومكابرة، فهم لن يؤمنوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٧] .

ثم أبان الله تعالى سبب تعنتهم، فقال:

﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾ أي زجر لهم وردع على اقتراحهم

(١) غرائب القرآن للنيسابوري: ٢٨/ ١٠٠

إنزال تلك الصحف المفتوحة المبسوطة، فلا يُؤْتَونها، وهم في الحقيقة منكرون البعث والحساب؛ لأنهم لو خافوا النار لما اقترحوا الآيات.

وكفاهم القرآن، كما قال تعالى:

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾ أي حقاً إن القرآن تذكرة، ويكفيهم القرآن، فإنه خير تذكرة وموعظة، فمن أراد أن يذكره ويتعظ به ولا يهمله، اتعظ، فهو موعظة بليغة، وتذكر شاف.

ثم بيَّن السبب الأصلي في عدم التذكرة، وذكر ما ينبئ عن كمال الهيبة، وهو صفة القهر الذي بسببه يجب أن يتقى، وصفة اللطف الذي به يجب أن يرجى:

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ أي لا يقع شيء في هذا الكون قهراً عن الله، فما يذكرون القرآن ويتعظون به إلا بمشيئة الله، الحقيق بأن يتقيه المتقون بترك معاصيه والعمل بطاعاته، والحقيق بأن يغفر للمؤمنين ما فرط منهم من الذنوب، والحقيق بأن يقبل توبة التائبين من العصاة، فيغفر ذنوبهم.

روى أحمد والترمذي وابن ماجه والنسائي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ فسر هذه الآية، فقال: «يقول لكم ربكم جلَّت قدرته وعظمته: أنا أهل أن أُتَّقى، فلا يُجعل معي إلهٌ غيري، ومن اتَّقى أن يَجْعَلَ معي إلهاً غيري، فأنا أغفر له» أو «كان أهلاً أن أغفر له».

وفسر الزمخشري قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ بقوله: يعني إلا أن يقسرهم على الذكر، ويلجئهم إليه؛ لأنه مطبوع على قلوبهم، معلوم أنهم لا يؤمنون اختياراً[1]. وهذه طريقته على مبدأ المعتزلة في مثل هذه الآيات، وهو أن الله ترك الإيمان والكفر لاختيار العبد الذي هو مناط الثواب

(١) الكشاف: ٣/ ٢٩١

والعقاب، ولكن مشيئة الله قادرة على جعل العبد مؤمناً بالقهر والإلجاء أو الإكراه.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - كل نفس مرتهنة يوم القيامة بكسبها، مأخوذة بعملها، إما خلَّصها وإما أوبقها، إلا أهل اليمين الذين يعطون كتبهم بأيمانهم، فإنهم لا يُرْتهنون بذنوبهم. قال الحسن البصري وابن كَيْسان: هم المسلمون المخلصون، ليسوا بمرتهنين؛ لأنهم أدّوا ما كان عليهم.

٢ - يكون أهل اليمين يوم القيامة في جنات (بساتين) يسألون عن المشركين: ما الذي أدخلكم في سقر؟ والمقصود من السؤال زيادة التوبيخ والتخجيل[١] .

فيذكر أهل النار أربعة أسباب هي: ترك الصلاة، وترك الصدقة، ومخالطة أهل الباطل في باطلهم، كإيذاء أهل الحق، وكل ما لا يعني المسلم، والتكذيب بيوم القيامة، يوم الجزاء والحكم، إلى أن أتانا الموت. قال العلماء: يجب أن يحمل هذان الأمران الأولان على الصلاة والصدقة الواجبتين، وإلا لم يجز العذاب على تركهما. وقد يستدل بالآية على أن الكفار معذبون بفروع الشريعة، كما يعذبون بأصولها، كالتكذيب بيوم الدين، وإنما أخر؛ لأنه أعظم الذنوب، أي إنهم بعد ذلك كله يكذبون بهذا الأصل، كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ٩٠/١٧][٢].

---

(١) تفسير الرازي: ٣٠/٢١١

(٢) غرائب القرآن للنيسابوري: ٢٨/٩٩

٣ً - وبخ الله تعالى أهل مكة وأمثالهم بسبب إعراضهم وتوليهم عما جاء به النبي ﷺ من التذكرة والعظة بالقرآن الكريم. قال مقاتل: الإعراض عن القرآن من وجهين:

أحدهما - الجحود والإنكار.

والثاني - ترك العمل بما فيه.

٤ً - شبه الله سبحانه المعرضين بتشبيه مهين مستقبح، وهو تشبيههم بالحمر الوحشية إذا نفرت وهربت من الأسد. قال ابن عباس: المراد الحمر الوحشية، شبههم تعالى بالحمر مذمّة وتهجيناً لهم[١]. وقال أيضاً كما تقدم: الحمر الوحشيةإذا عاينت الأسد هربت، كذلك هؤلاء المشركون إذا رأوا محمداً ﷺ هربوا منه، كما يهرب الحمار من الأسد. والقسورة: هو الأسد بلسان الحبشة[٢].

٥ً - طلب المشركون (أبو جهل وجماعة من قريش) أن يعطوا كتباً مفتوحة لكل واحد منهم، مكتوباً فيها: إني قد أرسلت إليكم محمداً. وقال ابن عباس: كانوا يقولون: إن كان محمد صادقاً، فليصبح عند كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار[٣].

٦ً - لم يجب الله تعالى مطلبهم لتعنتهم ومماحكتهم، وإنما زجرهم عن اقتراح الآيات، وأبان صفة القرآن والسبب الأصلي في عدم التذكرة، بقوله: ﴿كَلَّآ﴾ أي ليس يكون ذلك، ولا أعطيهم ما يتمنون؛ لأنهم لا يخافون الآخرة؛ اغتراراً بالدنيا، وحقاً إن القرآن تذكرة، فمن شاء اتعظ به؛ ولكن ما

(١) البحر المحيط: ٨/ ٣٨٠

(٢) تفسير الرازي: ٣٠/ ٢١٢

(٣) تفسير القرطبي: ١٩/ ٩٠

يتعظون ولا يقدرون على الاتعاظ والتذكر إلا بمشيئة الله ذلك لهم، والله الجدير بأن يتقيه عباده ويخافوا عقابه، فيؤمنوا ويطيعوا، والحقيق بأن يغفر لهم ما سلف من كفرهم إذا آمنوا وأطاعوا.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القيامة

مكية، وهي أربعون آية

تسميتها:

سميت سورة القيامة؛ لافتتاحها بالقسم الإلهي بها، لتعظيمها، وإثبات حدوثها والرد على منكريها.

مناسبتها لما قبلها:

تتعلق هذه السورة بما قبلها بسبب اشتمالها على حديث الآخرة، ففي السورة المتقدمة قال تعالى مبيناً السبب الأصلي في عدم التذكرة وهو إنكار البعث: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾ ثم ذكر في هذه السورة دليل إثبات البعث، ووصف يوم القيامة وأهواله وأحواله، ثم ذكر ما قبل ذلك من مقدمة وهي خروج الروح من البدن، ثم ما قبل ذلك من مبدأ الخلق، فذكرت الأحوال الثلاثة في هذه السورة على عكس ما هي في الواقع[1].

ما اشتملت عليه السورة:

عنيت هذه السورة كغيرها من السور المكية بأحد أصول الدين والإيمان، وهو إثبات البعث والجزاء، وما سبقه من مقدمات الموت وبدء الخلق.

---

(١) تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي: ص٩٠

افتتحت السورة بالقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوَّامة جميعاً معاً، لإثبات البعث والمعاد، والرد على من أنكر بعث الأجساد: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾ [الآيات: ١-٦].

ثم ذكر تعالى بعض علامات ذلك اليوم، وأخبر عن حتميته ووقوعه، فهو حق لا ريب فيه: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝٧﴾ [الآيات: ٧-١٥].

ثم نهى الله تعالى نبيه عن محاولة حفظ آيات القرآن أثناء الوحي، وطمأنه بأنه سبحانه متكفل بتثبيته في قلبه وحفظه ووعيه وبيانه بنحو شامل تام: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦﴾ [الآيات ١٦-١٩].

وأردف ذلك بالتنديد بمحبة الدنيا وإيثارها على الآخرة، وبالإخبار عن انقسام الناس في الآخرة قسمين: أهل السعادة وأهل الشقاوة، فالأولون تتلألأ وجوههم بأنوار الإيمان، ويتمتعون بالنظر إلى ربهم دون حصر وتحديد وبلا كيفية، والآخرون تكون وجوههم سوداً مظلمة عابسة، تنتظر نزول داهية عظمى بها: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ۝٢٠﴾ [الآيات: ٢٠-٢٥].

ثم ذكرت شدائد الاحتضار والموت وأهواله وكروبه ومضايقاته: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦﴾ [الآيات ٢٦-٣٥].

وختمت السورة بإيراد الدليل الحسي الواقعي على إثبات الحشر والمعاد وهو بدء الخلق، والإعادة أهون من البداءة: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾ [الآيات ٣٦-٤٠].

إثبات البعث والمعاد وعلائمه

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾

القراءات:

﴿أَيَحْسَبُ﴾ :

قرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة (أيحسَب) وقرأ الباقون (أيحسِب).

﴿بَرِقَ﴾ :

وقرأ نافع (برَق).

الإعراب:

﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ ﴿لَآ﴾ : إما زائدة، أو ليست زائدة، بل هي ردّ لكلام مقدم في سورة أخرى، وقرئ: (لأقسم) وقد جاء حذف النون مع وجود اللام، والأكثر في كلامهم ثبوت النون مع اللام.

﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ﴾ حال، وعامله محذوف لدلالة الكلام عليه، وتقديره: بلى نجمعها قادرين.

﴿لِيَفْجُرَ﴾ اللام زائدة، والفعل منصوب بأن مضمرة مقدرة.

﴿يَسْئَلُ أَيَّانَ﴾ ﴿أَيَّانَ﴾: مبني على الفتح، لتضمنه معنى حرف الاستفهام؛ لأنه بمعنى (متى) الذي بني لتضمنه حرف الاستفهام، وبني بالفتحة؛ لأنها أخف الحركات.

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾ إنما قال: ﴿وَجُمِعَ﴾ بالتذكير إما لأن تأنيث الشمس غير حقيقي، فيجوز حينئذ تذكير الفعل الذي أسند إليها، وإما لأنه جمع بين المذكر والمؤنث، فغلِّب جانب المذكر على جانب المؤنث، كقولهم: قام أخواك هند وزيد.

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾ ﴿لَا﴾: حذف خبرها، أي لا وزر هناك، أي لا ملجأ، و﴿ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾: مبتدأ، و﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: خبره.

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤﴾ أنث ﴿بَصِيرَةٌ﴾ إما لأن الهاء فيه للمبالغة، كعلاّمة ونسّابة وراوية، أو لحمل الإنسان على النفس، فلذلك أنث ﴿بَصِيرَةٌ﴾ أو لحذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، أي عين بصيرة.

البلاغة:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾ استفهام إنكاري للتوبيخ والتقريع.

﴿يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾ الاستفهام بغرض استبعاد الأمر وإنكاره.

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠﴾ توافق الفواصل المسمى بالسجع المرصّع.

﴿قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ أي أقسم، ولا: زائدة في الموضعين، وتزيد العرب كلمة (لا)

للتأكيد، وذلك أن المقسم عليه إذا كان منتفياً، جاز الإتيان بـ (لا) قبل القسم، لتأكيد النفي، والمقسم عليه هنا: هو إثبات المعاد، والرد على الجهلة المعاندين القائلين بعدم بعث الأجساد. ويرى قوم أن ﴿لَآ﴾ ردّ لكلام سابق متقدم وجواب له، فالعرب لما أنكروا البعث، قيل لهم: ليس الأمر كما زعمتم، وأقسم أن البعث حق لا ريب فيه. وقرئ (لأقسم) بغير ألف بعد اللام، وجواب القسم محذوف، أي لتبعثن، دلَّ عليه ما بعده: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾. ﴿بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ هي التي تلوم نفسها، وإن اجتهدت في الطاعة والإحسان، والمراد بهذا القسم تعظيم يوم القيامة، والتنويه بالنفس الطامحة إلى الدرجة الأرقى. ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المراد به الجنس، وإسناد الفعل إليهم؛ لأن بعضهم يحسب، أو المراد من كان سبب النزول، وهو عدي بن أبي ربيعة، سأل رسول الله ﷺ عن أمر القيامة، فأخبره به، فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدّقك، أو يجمع الله هذه العظام؟ ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ للبعث والإحياء بعد تفرقها.

﴿بَلَىٰ﴾ نجمعها. ﴿قَٰدِرِينَ﴾ مع جمعها. ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ أصابعه، أي نعيد عظامها كما كانت، ونضم بعضها إلى بعض كما هي، مع صغرها ولطافتها، فكيف بكبار العظام؟ ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ ليدوم على فجوره في مستقبل الزمان. ﴿أَيَّانَ﴾ متى، وهو سؤال استهزاء وتكذيب. ﴿بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ دُهش وتحير لما رأى ما كان يكذبه. ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾﴾ أظلم وذهب ضوءه. ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾﴾ ذهب ضوءهما في يوم القيامة، ولا يتنافى ذلك مع الخسوف، فإنه مستعار للمحاق.

﴿ٱلْمَفَرُّ﴾ الفرار. ﴿كَلَّا﴾ ردع عن طلب الفرار. ﴿لَا وَزَرَ﴾ لا ملجأ يتحصن به. ﴿ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ أي استقرار أمر الخلائق، فيحاسبون ويجازون. ﴿يُنَبَّؤُا۟﴾ يخبر. ﴿قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ بما قدم من عمله وبما أخر منه، فلم يعمله، أي أول عمله وآخره. ﴿بَصِيرَةٌ﴾ حجة شاهدة ناطقة بعمله، فلا بدّ من جزائه. ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ

مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾ ولو جاء بكل ما يمكن أن يعتذر به، وهو جمع معذرة على غير قياس، كالمناكير جمع منكر، فقياسه معاذر، وذلك أولى.

سبب النزول:

نزول الآية (٣-٤):

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾: روي أن عدي بن ربيعة قال لرسول الله ﷺ: يا محمد! حدّثني عن يوم القيامة متى يكون أمره؟ فأخبره رسول الله ﷺ، فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك، ولم أومن به، أو يجمع الله هذه العظام بعد بلاها؟! فنزلت.

وقيل: نزلت في أبي جهل كان يقول: أيزعم محمد ﷺ أن يجمع الله هذه العظام بعد بلاها وتفرّقها، فيعيدها خلقاً جديداً[1] ؟!

التفسير والبيان:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ أي أقسم بيوم القيامة، وأقسم بالنفس اللوّامة، وهي التي تلوم صاحبها على تقصيره، لتبعث، وقد حذف جواب القسم، لدلالة ما بعده عليه، وهو قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾. وهي نفس المؤمن، تلوم على ما فات وتندم، فتلوم على الشر لِمَ تعمله، وعلى الخير لماذا لم تستكثر منه.

والقسم بشيء لتعظيمه وتفخيمه، ولله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وفي الإقسام بيوم القيامة على وقوع يوم القيامة مزيد تقرير وتأكيد لوقوعه، فإن الإقسام بالمعدوم لا يعقل معناه، وفي ضم النفس اللوَّامة إليه تنبيه على أن

(١) البحر المحيط: ٨/ ٣٨٤-٣٨٥، تفسير القرطبي: ١٩/ ٦٣

الغرض من القيامة: هو إظهار أحوال النفس ومراتبها في السعادة وضدّها[(١)]. والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً معاً، كما قال قتادة رحمه الله[(٢)]، أي إنه سبحانه سيجمع العظام، ثم يحيي كل إنسان، ليحاسبه ويجزيه.

قال الحسن البصري: إن المؤمن، والله! ما نراه إلا يلوم نفسه: ما أردتُ بكلمتي، ما أردتُ بأكلتي، ما أردتُ بحديث نفسي، وإن الفاجر يمضي قدُماً وقدُماً ما يعاتب نفسه. وقال أيضاً: ليس أحد من أهل السماوات والأرضين إلا يلوم نفسه يوم القيامة.

وقال سعيد بن جبير: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾ قال: يقسم ربك بما شاء من خلقه.

وقال الفرَّاء: ليس من نفس محسنة أو مسيئة إلا وهي تلوم نفسها؛ فالمحسن يلوم نفسه أن لو كان ازداد إحساناً، والمسيء يلوم نفسه ألا يكون ارعوى عن إساءته.

والخلاصة: أن الأشبه بظاهر التنزيل كما قال ابن كثير: أن النفس اللوَّامة هي التي تلوم صاحبها على الخير والشر، وتندم على ما فات.

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ أي أيظن أي إنسان أننا لن نقدر على جمع عظامه، بعد أن صارت رفاتاً، فنعيدها خلقاً جديداً، وذلك حسبان باطل، فإنا نجمعها، وبلى سنجمعها قادرين عند البعث على إعادة تسوية أكثر العظام تفرقاً، وأدقها أجزاء، وهي العظام التي في الأنامل ومفاصلها. وقوله: ﴿قَٰدِرِينَ﴾ تأكيد القدرة؛ لأنه يستحيل جمع العظام بدون القدرة الكاملة التي نبَّه عليها بقوله: ﴿أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ لأن من

(١) غرائب القرآن: ٢٨/ ١٠٥

(٢) تفسير ابن كثير: ٤/ ٤٤٧

قدر على ضم سلاميات الأصبع مع صغرها ولطافتها كما كانت، كان على ضم العظام الكبار أقدر. وإنما خص البنان وهو الأنملة بالذكر؛ لأنه آخر ما يتم به خلقه، فذكره يدل على تمام الأصبع، وتمام الأصبع يدل على تمام سائر الأعضاء التي هي أطرافها. وكل بنان يختلف عن الآخر، فاعتمدت فكرة البصمات.

وقيل: معنى التسوية: جعلها شيئاً واحداً كخف البعير وحافر الحمار، بحيث لا يقدر على البطش. والمراد أنه قادر على ردّ العظام والمفاصل إلى هيئتها الأولى، وعلى ضد ذلك.

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾﴾ هذا إضراب عما سبق لتقرير أمر آخر، وهو أن الإنسان يريد في الحقيقة أن يدوم على فجوره في مستقبل أيامه، فيقدِّم الذنب، ويؤخرالتوبة. قال سعيد بن جبير: يقدِّم الذنب، ويؤخر التوبة حتى يأتيه الموت على شرّ أحواله.

والخلاصة: أن إنكار البعث يتولد من شبهتين: الأولى - بأن يستبعد الإنسان اجتماع الأجزاء بعد تفرقها وتلاشيها، والثانية - من التهوّر، بأن ينكر المعاد بالهوى واسترسال الطبع والميل إلى الفجور.

فأجاب تعالى عن الشبهة الأولى بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ وأنكر على صاحب الشبهة الثانية بقوله: بل يريد أن يكذب بما أمامه من البعث والحساب، لئلا تنتقص عنه اللذات العاجلة، كما قال تعالى:

﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿٦﴾﴾ أي يسأل سؤال استبعاد لوقوعه واستهزاءً وتعنتاً: متى يوم القيامة؟ ومن لم يؤمن بالبعث ارتكب أعظم الآثام، وبادر إلى انتهاب اللذات غير عابئ بما يفعل.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

[الملك: ٦٧/ ٢٥] وقوله سبحانه: ﴿هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٣٦-٣٧].

ثم ذكر الله تعالى ثلاث علامات للقيامة، فقال:

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾ أي فإذا دهش البصر وتحير من شدة هول البعث ويوم القيامة، وذهب ضوء القمر كله دون أن يعود كما يعود بعد الخسوف في الدنيا، وذهب وتبدد ضوء الشمس والقمر جميعاً، فلا يكون هناك تعاقب ليل ونهار، أي إن معالم الكون كلها تتغير، وحينئذ يقول ابن آدم إذا عاين هذه الأهوال يوم القيامة: هل من ملجأ أو موئل؟ وأين المفر من الله سبحانه ومن حسابه وعذابه؟!

والمراد بالإنسان: الجنس، وهو ابن آدم، فيشمل المؤمن والكافر؛ لهول ما يشاهد منها. وقيل: المراد الكافر خاصة دون المؤمن؛ لثقة المؤمن ببشرى ربه.

فيجيب الله تعالى سلفاً في الدنيا بقوله:

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ أي ليس لكم مكان تعتصمون فيه، فلا جبل ولا حصن ولا ملجأ من الله يعصمكم يومئذ، وإنما إلى الله ربك المرجع والمصير، في الجنة أو في النار، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٥٣/ ٤٢] فهناك استقرار العباد على الدوام. ولا بدَّ من تقدير مضاف في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي إلى حكم ربك، أو إلى جنته أو ناره.

ثم ربط الله تعالى نوع المصير بالعمل في الدنيا، فقال:

﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ أي يخبر الإنسان في يوم القيامة أثناء العرض والحساب بجميع أعماله التي قدمها من خير أو شر، قديمها وحديثها،

أولها وآخرها، صغيرها وكبيرها، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٩].

ثم بيّن أن الإنسان عالم بأعماله، فقال:

﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾﴾ أي بل إن الإنسان شهيد على نفسه، عالم بما فعله، فهو حجة بيّنة على أعماله، ولو اعتذر وأنكر، كما قال تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٤] والآية إضراب عن الإخبار بأعمال الإنسان إلى مرتبة أوضح وأعرف.

وقال ابن عباس وغيره: إن المراد سمعه وبصره ويداه ورجلاه وجوارحه.

والمعاذير في رأي الواحدي والزمخشري: اسم جمع للمعذرة، كالمناكير للمنكر، ولو كان جمعاً لقيل: معاذر، بغير ياء. والمراد بقوله: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾﴾: ولو اعتذر يومئذ بباطل لا يقبل منه، وقيل: ولو جادل عنها، فهو بصير عليها، وقيل: معاذيره: حجته، وهذا قول مجاهد، قال ابن كثير: والصحيح قول مجاهد وأصحابه، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٣] وكقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/ ١٨].

فقه الحياة أو الأحكام:

يستفاد من الآيات ما يأتي:

١ً - أقسم الله سبحانه بيوم القيامة تعظيماً لشأنه، كما أنه أقسم أيضاً بنفس المؤمن الطامحة دائماً إلى زيادة الخير والطاعة، والإقلال من الشر والمعصية؛ تنويهاً بشأنها وإخلاصها. والمناسبة بين القيامة وبين النفس اللوامة: أن

المقصود من إقامة القيامة إظهار أحوال النفس اللوامة، من السعادة والشقاوة. والقسم بهذه الأشياء عند المحققين قسم بربها وخالقها في الحقيقة، فكأنه قيل: أقسم برب القيامة على وقوع يوم القيامة.

٢ً - المقسم عليه هو وقوع البعث حتماً لا شك فيه، قال الزجاج: أقسم الله بيوم القيامة وبالنفس اللوامة، ليجمعن العظام للبعث. وأكد الله تعالى قسمه بأنه القادر على أن يعيد السُّلاميات على صغرها، ويؤلف بينها حتى تستوي[١].

٣ً - إن شأن الكافر المكذب بما أمامه من البعث والحساب أن يرتكب أعظم الآثام، ويقتحم المعاصي دون حسبان للنتائج والمخاطر، ودون تقدير لعواقب الأمور والتبعة (المسؤولية) الناجمة عنها.

٤ً - تتبدل معالم الكون يوم القيامة، وتظهر علامات دالة عليه، منها حيرة البصر ودهشته من الأهوال، وذهاب ضوء القمر دون عودة، وذهاب ضوء الشمس والقمر معاً، أي جمع الله بينهما في ذهاب ضوئهما، فلا ضوء للشمس، كما لا ضوء للقمر بعد خسوفه.

٥ً - إذا ظهرت علائم القيامة حار الإنسان، وقال: أين المهرب؟ أين المفر؟ ويحتمل ذلك وجهين: أحدهما - أين المفر من الله؟ استحياء منه، والثاني - أين المفر من جهنم؟ حذراً منها.

٦ً - لا مفر من الله، ولا ملجأ من النار، ولا حصن من العذاب، وإنما المرجع والمصير والمنتهى إلى حكم الله، وصيرورة كل إنسان إما إلى الجنة وإما إلى النار.

---

(١) قال تعالى في آخر السورة: ﴿فخلق فسوَّى﴾ أي أوجد منه بشراً مركباً من أشياء مختلفة، فسواه شخصاً مستقلاً.

٧ً - يُخبَر ابن آدم يوم القيامة عند وزن الأعمال، بَرّاً كان أو فاجراً، بما أسلف من عمل سيئ أو صالح، أو أَخَّر من سنة سيئة أو صالحة يعمل بها بعده، أو بأول عمله وآخره، أو بما قدم من المعصية، وأخّر من الطاعة. إن هذا الإنباء يكون في القيامة عند وزن الأعمال، لا عند الموت؛ لما أخرجه ابن ماجه في سننه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ مما يَلْحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علماً علّمه ونشره، وولداً صالحاً تركه، أو مصحفاً ورّثه، أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته».

وأخرجه أبو نعيم الحافظ عن أنس بن مالك بلفظ: «سبع يجري أجرهنّ للعبد بعد موته وهو في قبره: من علّم علماً، أو أجرى نهراً، أو حفر بئراً، أو غرس نخلاً، أو بنى مسجداً، أو ورّث مصحفاً، أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته».

وفي الصحيح عند مسلم: «من سنّ في الإسلام سنة حسنة، كان له أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

٨ً - الإنسان خير شاهد على نفسه، فهو حجة بيِّنة على أعماله، حتى ولو أنكر واعتذر، فقال: لم أفعل شيئاً، فإن عليه من نفسه من يشهد عليه من جوارحه، فلو اعتذر وجادل عن نفسه، فعليه شاهد يكذِّب عذره.

٩ً - استنبط القاضي ابن العربي من قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ ست مسائل وهي بإيجاز[1]:

---

(١) أحكام القرآن: ٤/١٨٧٨ - ١٨٨٢

الأولى - فيها دليل على قبول إقرار المرء على نفسه؛ لأنها بشهادة منه عليه، قال الله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤/٢٤].

الثانية - لا يصح الإقرار إلا من مكلف (بالغ عاقل) لكن بشرط ألا يكون محجوراً عليه؛ لأن الحجر يُسقط قوله إذا كان لحق نفسه، فإن كان لحق غيره كالمريض، كان منه ساقط، ومنه جائز، كما هو مقرر في الفقه.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ معناه: ولو اعتذر لم يقبل منه، وقد اختلف العلماء في جواز الرجوع عن الإقرار في الحدود الخالصة لله تعالى؛ فقال أئمة المذاهب الأربعة على المشهور عند المالكية: يقبل رجوعه بعد الإقرار، ويسقط الحد، وهو الصحيح عملاً بما رواه الأئمة، منهم البخاري ومسلم: أن النبي ﷺ ردّ المقرّ بالزنى مراراً أربعاً، كل مرة يعرض عنه، ولما شهد على نفسه أربع مرات، دعاه النبي ﷺ وقال: أبك جنون؟ قال: لا، قال: أحصنتَ؟ قال: نعم. وقال لأصحابه - فيما رواه أبو داود وغيره - حينما هرب - أي ماعز - فاتبعوه: «هلا تركتموه، لعله أن يتوب، فيتوب الله عليه».

وروي عن مالك أنه قال: لا يعذر المقر إلا إذا رجع لشبهة، عملاً بحديث: «لا عذر لمن أقرّ»[1].

الرابعة - قال ثعلب: معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ أنه إذا أعتذر يوم القيامة وأنكر الشرك، لا ينفع الظالمين معذرتهم، ويختم على فمه، فتشهد عليه جوارحه، ويقال له: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤/١٧].

---

(١) بداية المجتهد: ٢/٤٣٠، الدردير والدسوقي: ٤/٣١٨

الخامسة - الآية في الحر المالك لأمر نفسه. أما العبد: فإن أقر بموجب عقوبة من القتل فما دونه، نفذ عليه. وقال محمد بن الحسن: لا يقبل ذلك منه؛ لأن بدنه مستغرَق لحق السيد، وفي إقراره إتلاف حقوق السيد في بدنه، ودليل الرأي الأول قوله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عبادة بن الصامت: «من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بسَتْر الله، فإن من يُبْد لنا صفحته، نُقِم عليه الحدّ».

السادسة - قيل: إن معنى قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ أي عليه مَنْ يبصر أعماله، ويحصيها، وهم الكرام الكاتبون. والراجح ما ذكر من المعنى المتقدم.

حرص النبي ﷺ على حفظ القرآن وحال الناس في الآخرة

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾

القراءات:

﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (وقرانه).

﴿قَرَأْنَٰهُ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (قراناه).

﴿تُحِبُّونَ﴾، ﴿وَتَذَرُونَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (يحبون، ويذرون).

الإعراب:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ قال ابن الأنباري رحمه الله تعالى: في هذه الآية دليل على إثبات الرؤية؛ لأن النظر إذا قرن بالوجه، وعُدِّي بحرف الجر، دلَّ على أنه بمعنى النظر بالبصر، فيقال: نظرت الرجل: إذا انتظرته، ونظرت إليه: إذا أبصرته.

وكلمة ﴿وُجُوهٌ﴾ مبتدأ، وابتدأ بالنكرة؛ لأنها تخصصت بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ و﴿نَّاضِرَةٌ﴾ خبر ﴿وُجُوهٌ﴾.

البلاغة:

﴿بَنَانَهُ﴾ ﴿بَيَانَهُ﴾ جناس ناقص؛ لاختلاف بعض الحروف.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ مقابلة بين نضارة وجوه المؤمنين، وكلاحة وجوه المجرمين.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ مجاز مرسل في رأي الزمخشري، من إطلاق الجزء وإرادة الكل، فقال: الوجه عبارة عن الجملة، قال البيضاوي: وتفسيره بالجملة خلاف الظاهر، وإن المستعمل بمعناه لا يعدَّى بإلى؛ لذا قال النيسابوري في غرائب القرآن: (٢٨/ ١١٠): الأولى أن يراد بالوجوه: العيون، فيكون من إطلاق الكل على الجزء، لا عكسه.

المفردات اللغوية:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ﴾ لا تحرك يا محمد بالقرآن لسانك قبل فراغ جبريل منه، أي

قبل أن يتم وحيه. ﴿لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ لتأخذه على عجل، مخافة أن يتفلت أو يضيع منك. ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ﴾ في صدرك. ﴿وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ وإثبات قراءته في لسانك. ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ﴾ بلسان جبريل عليك. ﴿فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ استمع قراءته، فكان ﷺ يستمع ثم يقرؤه، ويكرر قراءته حتى يرسخ في ذهنه. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾ تفسير ما أشكل فيه من المعاني، وبيان ما فيه من الحلال والحرام. وهو دليل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب.

﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عن الاغترار بالدنيا العاجلة. ﴿ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ دار الدنيا وما فيها ﴿وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ٢١﴾ تتركون العمل والاستعداد لها، وهو إشعار بأن بني آدم مطبوعون على الاستعجال. ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ﴾ يوم القيامة. ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ حسنة مضيئة، متهللة بشراً بما تراه من النعيم. ﴿نَاظِرَةٞ﴾ رائية عِياناً، تنظر إلى ربها بلا حجاب. وقال مجاهد: تنتظر الثواب من ربها. ﴿بَاسِرَةٞ﴾ شديدة العبوس، كالحة متغيرة مسودّة. ﴿تَظُنُّ﴾ توقن وتتوقع. ﴿فَاقِرَةٞ﴾ داهية عظيمة تكسر فقار الظهر.

سبب النزول:

نزول الآية (١٦):

﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦﴾: أخرج البخاري ومسلم وأحمد عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا أنزل الوحي، يحرِّك به لسانه، يريد أن يحفظه، فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦﴾ الآية.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى أن منكر القيامة والبعث معرض عن آيات الله تعالى ومعجزاته، وأنه قاصر شهواته على الفجور، غير مكترث بما يصدر منه، ذكر حال من يثابر على تعلّم آيات الله وحفظها وتلقفها والنظر فيها وعرضها على

من ينكرها، رجاء قبوله إياها، ليظهر بذلك تباين حال من يرغب في تحصيل آيات الله، ومن يرغب عنها، فتلك الآيات تضمنت حال الإعراض عن آيات الله، وهذه تضمنت المبادرة إليها بحفظها، وبضدها تتميز الأشياء[١].

ثم ذكر تعالى سبب إنكار البعث، وهو حب الإنسان الدنيا العاجلة، وترك الآخرة، ووبخ أهله، ثم أوضح تعالى انقسام الناس في الآخرة إلى فريقين: فريق المؤمنين المستمتعين بالنعيم وبرؤية الله عز وجل، وفريق المشركين الذين يترقبون نزول الدواهي العظام من العذاب بهم.

التفسير والبيان:

علّم الله عز وجل رسوله ﷺ كيفية تلقي الوحي من الملَك جبريل، فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ كان رسول الله ﷺ حرصاً منه على القرآن الموحى به إليه، يبادر إلى أخذه، ويسابق الملَك في قراءته، ويحرك شفتيه ولسانه بالقرآن إذا أنزل عليه، قبل فراغ جبريل من قراءة الوحي، حرصاً على أن يحفظه ﷺ، فنزلت هذه الآية.

أي لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي، لتأخذه على عجل، مخافة أن يتفلت منك، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ٢٠/١١٤] .

إن علينا جمعه في صدرك حتى لا يذهب عليك منه شيء، وعلينا إثبات قراءته في لسانك على الوجه القويم.

فإذا أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل، فاستمع له وأنصت، ثم اقرأه كما أقرأك، وكرره حتى يرسخ في ذهنك.

---

(١) البحر المحيط: ٨/٣٨٨

ثم إننا بعد حفظه وتلاوته نفسر لك ما فيه من الحلال والحرام، ونبين ونوضح لك ما أشكل منه، ونلهمك معناه كما أردنا وشرعنا.

وهكذا اشتملت الآيات الأربع على أحوال ثلاث: هي جمعه في صدره، وحفظه، في الآية الأولى والثانية، وتلاوته وتيسير أدائه كما أنزل، في الآية الثالثة، وتفسيره وبيانه وإيضاح معناه في الآية الرابعة.

ثم انتقل البيان إلى حال الإنسان السابق المنكر البعث، فوبخه وقرعه على إنكاره البعث، فقال تعالى مبيناً سبب الإنكار:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ أي أردعكم عما تقولون أيها المشركون من إنكار البعث، فإن الذي يحملكم على التكذيب بيوم القيامة، ومخالفة ما أنزله الله عز وجل على رسوله ﷺ من الوحي الحق والقرآن العظيم، محبتكم واهتمامكم بدار الدنيا العاجلة، وتشاغلكم عن الآخرة وترككم العمل لها. ولفظ ﴿كَلَّا﴾ عند سائر المفسرين: معناه حقاً، أي حقاً تحبون العاجلة وتذرون الآخرة، والمعنى أنهم يحبون الدنيا ويعملون لها، ويتركون الآخرة ويعرضون عنها.

وقال الزمخشري: كلا: ردع لرسول الله ﷺ عن عادة العجلة، وإنكار لها عليه، وحث على الأناة والتؤدة، وقد بالغ في ذلك بإتباعه قوله: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ كأنه قال: بل أنتم يا بني آدم؛ لأنكم خلقتم من عجل، وطبعتم عليه، تعجلون في كل شيء، ومن ثم تحبون العاجلة، وتذرون الآخرة[١].

ثم أبان الله تعالى حال المؤمنين وحال الكافرين في الآخرة، فقال:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ

---

(١) الكشاف: ٣/٢٩٣ - ٢٩٤

بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ أي وجوه المؤمنين في الجنة حسنة بهية مشرقة مسرورة، ترى ربها عياناً، ووجوه الفجار في النار عابسة كالحة كئيبة، توقن أن سينزل بها داهية عظيمة تكسر فقار الظهر. قال الأزهري عن مجاهد الذي فسر النظر بالانتظار: قد أخطأ مجاهد؛ لأنه لا يقال: نظر إلى كذا بمعنى انتظر، فإن قول القائل: نظرت إلى فلان، ليس إلا رؤية عين، فإذا أرادوا الانتظار، قالوا: نظرته، وأشعار العرب وكلماتهم في هذا كثيرة جداً.

قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾: تنظر إلى ربها خاصة، لا تنظر إلى غيره، وهذا معنى تقديم المفعول، فإنه يدل على معنى الاختصاص، ثم رجح أن الآية تفيد معنى التوقع والرجاء[1].

وهذا منه بسبب كونه من المعتزلة الذين يقولون: لا يدل ظاهر الآية على رؤية الله تعالى؛ لأن النظر المقرون بحرف (إلى) ليس اسماً للرؤية، بل لمقدمة الرؤية، وهي تقليب الحدقة نحو المرئي، التماساً لرؤيته، فيكون نظر العين مقدمة للرؤية، وتأولوا قوله تعالى: ﴿نَاظِرَةٌ﴾ بمعنى أن أولئك الأقوام ينتظرون ثواب الله.

وأجاب الرازي بأننا نسلم أن النظر عبارة عن تقليب الحدقة.. إلخ لكنا نقول: لما تعذر حمله على حقيقته، وجب حمله على مسببه وهو الرؤية، إطلاقاً لاسم السبب على المسبب، وحمله على الرؤية أولى من حمله على الانتظار؛ لأن تقليب الحدقة كالسبب للرؤية، ولا تعلق بينه وبين الانتظار، فكان حمله على الرؤية أولى من حمله على الانتظار.

ثم أجاب عن قولهم: النظر جاء بمعنى الانتظار بأن هذا كثير في القرآن، ولكنه لم يقرن البتة بحرف (إلى) كقوله تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد:

---

(١) المرجع السابق: ص٢٩٤

١٣/٥٧] وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف: ٧/٥٣] وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢/٢١٠] . وإذا فرضنا أن النظر المعدَّى بحرف (إلى) جاء في اللغة بمعنى الانتظار، لكن لا يمكن حمل هذه الآية عليه؛ لأن لذة الانتظار مع يقين الوقوع، كانت حاصلة في الدنيا، فلا بدّ أن يحصل في الآخرة شيء أزيد منه، حتى يحسن ذكره، في معرض الترغيب في الآخرة(١).
وقال النيسابوري: وحاصل كلامهم أن النظر إن كان بمعنى الرؤية فهو المطلوب، وإن كان بمعنى تقليب الحدقة نحو المرئي، فهذا في حقه تعالى محال؛ لأنه منزه عن الجهة والمكان، فوجب حمله على مسببه وهو الرؤية، وهذا مجاز مشهور(٢).

وأيدت الأحاديث المتواترة ما فهمه الجمهور من دلالة الآية على رؤية الله تعالى، فقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث، لا يمكن دفعها ولا منعها، كما قال ابن كثير، ثم أورد الأحاديث وقال: وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام، وهداة الأنام(٣).

وكذلك قال الشوكاني في تفسيره العظيم (فتح القدير) بعد أن فسر آية ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ بقوله: أي إلى خالقها، ومالك أمرها، ناظرة، أي تنظر إليه. هكذا تواترت الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرون ربهم يوم القيامة، كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر.

روى البخاري في صحيحه: «إنكم سترون ربكم عِياناً» ، وأخرج الشيخان

---

(١) التفسير الكبير للرازي: ٣٠/٢٢٦ - ٢٢٩

(٢) غرائب القرآن: ٢٨/ ١١١ .

(٣) تفسير ابن كثير: ٤/ ٤٥٠

في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة: «أن ناساً قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ فقال: هل تُضارّون في رؤية الشمس والقمر، ليس دونهما سحاب؟ قالوا: لا، قال: إنكم ترون ربكم كذلك».

وفي الصحيحين أيضاً عن جرير قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم ترون ربكم، كما ترون هذا القمر، فإن استطعتم ألا تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها، فافعلوا».

وفي الصحيحين أيضاً عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه، في جنة عدن».

وأخرج مسلم عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيِّضْ وجوهَنا! ألم تُدْخِلْنا الجنة، وتنجِّنا من النار! قال: فيُكشف الحجابُ، فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربِّهم، وهي الزيادة» ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ١٠/٢٦].

وقال الألوسي: والذي يقطع الشغب ويدق في فروة من أخس الطلب: ما أخرجه الإمام أحمد والترمذي والدارقطني وابن جرير وابن المنذر والطبراني والبيهقي وعبد بن حُميد وابن أبي شيبة وغيرهم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « إن أدنى أهل الجنة منزلة لَمَنْ ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية » ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ فهو تفسير منه عليه الصلاة والسلام، ومن المعلوم أنه أعلم الأولين والآخرين، ولا سيما بما أنزل عليه من كلام رب العالمين[1].

---

(١) تفسير الألوسي: ٢٩/ ١٤٤

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)﴾ [عبس: ٨٠/٣٨-٤٢].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - تكفل الله تعالى لنبيه ﷺ ثلاثة أمور لحفظ القرآن إلى الأبد: وهي جمعه في صدره عليه الصلاة والسلام، وتلاوته، وتفسيره لبيان ما فيه من الحدود والحلال والحرام، والوعد والوعيد، والمشكلات.

٢ - إن التعجل مذموم مطلقاً، ولو في أمور الدين.

٣ - إن سبب إنكار المشركين البعث والحساب والجزاء هو إيثار الدار الدنيا والحياة العاجلة فيها، وترك الاستعداد للآخرة والعمل لها، فعلى المؤمن أن يفر من غير الله إلى الله، ولا يستعين في كل أموره إلا به، على نقيض الكافر الذي كان يفر من الله إلى غيره حين قال: (أين المفر؟).

٤ - ثبوت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الآخرة، وحرمان الفجار منها، كان ابن عمر يقول: أكرم أهل الجنة على الله من ينظر إلى وجهه غُدْوة وعَشية، ثم تلا هذه الآية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾. وقد تقدم في حديث مسلم عن صهيب أن رؤية الله عز وجل هي الزيادة في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ١٠/٢٦].

٥ - تكون وجوه الكفار الفجار يوم القيامة كالحة كاسفة عابسة، مستيقنة أنه سيحل بها عذاب شديد، وداهية عظيمة.

تفريط الكافر في الدنيا وإثبات البعث

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٖ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ (٢٨) وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ (٣٣) أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ (٣٥) أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ (٣٩) أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ (٤٠)﴾

القراءات:

﴿وَقِيلَ﴾:

بإشمام كسرة القاف الضم، قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

﴿مَنْۜ رَاقٖ﴾:

قرأ حفص بالسكت على نون (من) سكتة لطيفة من غير تنفس، وقرأ الباقون بالإدغام.

﴿أَيَحۡسَبُ﴾:

قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة (أيحسَب) وقرأ الباقون (أيحسِب).

﴿يُمۡنَىٰ﴾:

قرأ حفص (يمنى) وقرأ الباقون (تمنى).

الإعراب:

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١)﴾ أي لم يصدق ولم يصل، كقوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ (١١)﴾ [البلد: ٩٠/١١] أي لم يقتحم.

﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أصله يتمطط، أي يتبختر، من المطيطاء (اسم مشية بني مخزوم في الجاهلية ومنهم أبو جهل) فأبدل من الطاء الآخرة ياء، مثل تظنيت وأصله: تظننت، وأمليت وأصله: أمللت، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها.

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ ﴿أَوْلَىٰ﴾ مبتدأ، و﴿لَكَ﴾ خبره، وحذف خبر ﴿أَوْلَىٰ﴾ الثاني، اجتزاء بخبر الأول عنها، وأولى: ممنوع من الصرف للتعريف ووزن الفعل؛ لأنه على وزن أفعل.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ ﴿أَن يُتْرَكَ﴾ سد مسد مفعولي: ﴿أَيَحْسَبُ﴾ و﴿سُدًى﴾ حال من ضمير ﴿يُتْرَكَ﴾. ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ منصوبان على البدل من ﴿ٱلزَّوْجَيْنِ﴾.

﴿عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لا يجوز إدغام إحدى الياءين في الأخرى؛ لأن الحركة في الثانية حركة إعراب.

البلاغة:

﴿بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ﴾ كناية عن الإشفاء على الموت.

﴿صَدَّقَ﴾ و﴿كَذَّبَ﴾ بينهما طباق.

﴿ٱلسَّاقُ﴾ ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾ بينهما جناس ناقص. وقوله: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ كناية عن الشدة.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ استفهام إنكاري بقصد التوبيخ والتقريع.

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ التفات من الغيبة إلى المخاطب، تقبيحاً له وتهجيناً.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ جمع ترقوة، وهي العظام الممتدة من الحلق إلى العاتق من اليمين والشمال، والمراد بلوغ الروح أعالي الصدر. ﴿وَقِيلَ﴾ قال من حوله: ﴿مَنۡۜ رَاقٖ﴾ من يرقيه وينجيه ليشفى، كما يرقى المريض، والمراد: هل من طبيب يشفي حينئذ؟ ﴿ٱلۡفِرَاقُ﴾ فراق الدنيا، أي وظن المحتضر أن الذي نزل به فراق الدنيا وأحبائها.

﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ أي التوت إحدى ساقيه بالأخرى عند الموت، فلا يقدر تحريكها. ﴿ٱلۡمَسَاقُ﴾ السوق إلى الله تعالى وحكمه، والمعنى: إذا بلغت الروح الحلقوم، تساق إلى حكم ربها. ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ الإنسان. ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ أي لم يصدق بما يجب تصديقه، أو لم يصدّق ماله، بأن لم يؤد زكاته، ولم يؤد صلاته المفروضة. ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ كذب بالقرآن وتولى عن الطاعة. ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ يتبختر في مشيته إعجاباً وافتخاراً.

﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ أي ويل لك، من الولْي، فهو دعاء وأصله: أولاك الله ما تكرهه، أو أولى لك الهلاك، واللام مزيدة كما في ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٢٧/٧٢] أو للتبيين. وقوله: ﴿فَأَوۡلَىٰ﴾ أي فهو أولى بك من غيرك. ﴿ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ تأكيد، أي أنت أولى بتكرر ذلك عليك مرة بعد أخرى، وتكون الجملة الأولى دعاء عليه بقرب المكروه، والثانية دعاء عليه بأن يكون أقرب إلى المكروه من غيره.

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ يظن ﴿أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ ﴿سُدًى﴾ مهملاً لا يكلف بالشرائع ولا يجازى ولا يحاسب، وهو يتضمن تكرار إنكاره للحشر؛ لأن جزاء التكليف قد لا يكون إلا في الآخرة، وهذا دليل على إثبات البعث؛ لأنه لا بدّ من الجزاء على الأعمال، حتى لا يتساوى الطائع مع العاصي.

﴿نُطۡفَةٗ﴾ ماء قليلاً، وتجمع على نطف ونطاف. ﴿يُمۡنَىٰ﴾ يصب في الرحم،

﴿ثُمَّ كَانَ﴾ المني. ﴿عَلَقَةً﴾ قطعة دم جامد .﴿فَخَلَقَ﴾ أي أوجد الله تعالى منه بشراً مركباً من أشياء مختلفة .﴿فَسَوَّىٰ﴾ أي فسوَّاه شخصاً مستقلاً، بأن قدَّره وعدَّله وعدل أعضاءه. ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ﴾ من المني الذي صار علقة (قطعة دم) ثم مضغة (قطعة لحم). ﴿ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ الصنفين أو النوعين من البشر. ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ بأن يرزق النوعان تارة، أو ينفرد أحدهما عن الآخر تارة، وهو استدلال آخر بالإبداء على الإعادة والبعث .﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾ الفعال لهذه الأشياء. ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؟ قال ﷺ: « بلى».

سبب النزول:

نزول الآية (٣٤ - ٣٥):

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾: أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر: ٧٤/ ٣٠] قال أبو جهل لقريش: ثكِلتكم أمهاتُكم، يخبركم ابن أبي كبشة أن خزنة جهنم تسعة عشر، وأنتم الدَّهم (العدد) والشجعان، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ فأوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ أن يأتي أبا جهل، فيقول له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾.

وأخرج النسائي عن سعيد بن جبير أنه سأل ابن عباس عن قوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ أشيء قاله رسول الله ﷺ من قِبَل نفسه، أم أمره الله به؟ قال: بل قاله من قبل نفسه، ثم أنزله الله.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى تعظيم أحوال الآخرة وهي القيامة العظمى، ووصف ما فيها من أهوال، وما عليه حال السعداء وحال الأشقياء، بيَّن أن الدنيا لا بدَّ لها من نهاية ووصول إلى تجرع مرارة الموت وهو القيامة الصغرى؛ لأن

الموت أول منزلة من منازل الآخرة، فإذا لم يؤمن الكافر بأمر القيامة، لا يمكنه أن يتخلص من الموت، وتجرع آلامه، وتحمل آفاته.

ثم استدل الله تعالى لإثبات البعث بأمرين:

الأول - أن العدل يقضي بأنه لا بدَّ من الجزاء على الأعمال، حتى لا يتساوى الطائع والعاصي، وذلك لا يكون إلا في الآخرة.

الثاني - أنه تعالى كما قدَر على بدء الخلق، فهو قادر على الإعادة والبعث، بل إن الإعادة أهون في تقدير البشر.

التفسير والبيان:

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾ ﴿كَلَّآ﴾ إذا كانت رادعة، فالمعنى: لست يا بن آدم هناك تكذب بما أخبرت به، بل صار ذلك عندك عياناً، وإذا كانت بمعنى حقاً، فالمراد: حقاً إذا انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك، والتراقي: جمع ترقوة، وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق. والضمير في ﴿بَلَغَتِ﴾ للنفس لدلالة قرينة الحال أو المقال، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٨٣] .

والظاهر المعنى الأول، قال الزجاج: ﴿كَلَّآ﴾ ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة، كأنه قيل: لما عرفتم صفة سعادة السعداء وشقاوة الأشقياء في الآخرة، وعرفتم أنه لا نسبة لها إلى الدنيا، فارتدعوا عن إيثار الدنيا على الآخرة، وتنبهوا لما بين أيديكم من الموت الذي به تنتهي العاجلة، وتنتقلون إلى الآجلة دار الخلود.

وعلى هذا يكون المعنى العام: ارتدعوا عن إيثار الدنيا على الآخرة، وتنبهوا إذا بلغت الروح أو النفس أعالي الصدر، كناية عن الاحتضار وأهواله والموت؛ وقال من حضر المحتضر: هل من يرقيه ويشفيه، وهل من طبيب

شاف؟ ولكن لن يغنوا عنه من قضاء الله شيئاً؛ وأيقن الذي بلغت روحه التراقي أنها ساعة الفراق من الدنيا ومن الأهل والمال والولد.

وعبر عن اليقين بالظن؛ لأن الروح ما دامت في البدن، يطمع صاحبها في الحياة، فلا يحصل له يقين الموت، بل الظن الغالب مع رجاء الحياة، كما ذكر الرازي.

والآية دالة على أن الروح جوهر قائم بنفسه، باق بعد موت البدن؛ لأنه تعالى سمى الموت فراقاً، وهو يدل على أن الروح باقية؛ فإن الفراق والوصال صفة، والصفة تستدعي وجود الموصوف[(١)].

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ أي التوت ساقه على ساقه عند نزول الموت به، فلا يقدر على تحريكها، فماتت رجلاه، ويبست ساقاه ولم تحملاه، وقد كان جوّالاً عليهما، واجتمع عليه أمران: الناس يجهِّزون جسده، والملائكة يجهِّزون روحه.

ويصح أن يكون ذلك كناية عن الشدة، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: ٦٨/ ٤٢] والمراد: اتصلت شدة فراق الدنيا، وترك الأهل والولد والجاه وشماتة الأعداء وحزن الأولياء وغير ذلك، بشدة الإقبال على أحوال الآخرة وأهوالها.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ أي تساق الأرواح بعد قبضها من الأجساد إلى خالقها، ويكون المرجع والمآب إلى حكم ربك، فتصير إما إلى جنة وإما إلى نار. فقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي إلى حكمه خاصة. و﴿ٱلْمَسَاقُ﴾ السوق، فحكمه هو المسوق إليه. وقيل: السوق إلى الله لا إلى غيره، فهو السائق يسوقه إلى الجنة أو إلى النار.

---

(١) تفسير الرازي: ٣٠/ ٢٣١

ثم أوضح الله تعالى كيفية عمل هذا المحتضر فيما يتعلق بأصول الدين وبفروعه وبالدنيا، فقال:

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ أي لم يصدق بالرسالة النبوية ولا بالقرآن، ولا صلى لربه الصلاة المطلوبة منه فرضاً، بل كذب بالرسول وبما جاء به، وتولى عن الطاعة والإيمان، وزاد على ذلك أنه ذهب إلى أهله جذلان أشراً بطراً، يتبختر ويختال في مشيته افتخاراً بذلك، كسلانَ لا همة له ولا عمل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المطففين: ٨٣/ ٣١] .

لقد جمع بين ترك العقيدة أو أصول الدين في أنه ما صدق بالدين، ولكن كذب به، وبين إهمال فروع الدين في أنه ما صلى ولكنه تولى وأعرض، وبين الإساءة لطبيعة الدنيا وسلوكها في أنه ذهب إلى أهله يتمطى، ويتبختر، ويختال في مشيته.

والآية دالة على أن الكافر يستحق الذم والعقاب بترك الصلاة، كما يستحقهما بترك الإيمان.

ثم هدد الله تعالى هذا الكافر وتوعده ودعا عليه بقوله:

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ أي وليك الويل، ويتكرر عليك هذا الدعاء، والمعنى: ويل لك، وأهلكك الله، وليتكرر هذا الدعاء عليك مرة بعد أخرى، فأنت الجدير بهذا.

وهذا تهديد ووعيد أكيد من الله تعالى للكافر به، المتبختر في مشيه، يقصد به أنه يحق لك أن تمشي هكذا، وقد كفرت بخالقك وبارئك، كما يقال في مثل هذا على سبيل التهكم والتهديد، وهو كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٤/ ٤٩] وقوله سبحانه: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم

مُّجۡرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [المرسلات: ٧٧/٤٦] وقوله عز وجل: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ [الزمر: ٣٩/١٥] وقوله عز من قائل: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤١/٤٠] .

قال قتادة والكلبي ومقاتل: أخذ رسول الله ﷺ بيد أبي جهل، ثم قال: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ توعده، فقال أبو جهل: بأي شيء تهددني؟ لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئاً، وإني لأعزّ أهل هذا الوادي، ثم انسلَّ ذاهباً، فأنزل الله تعالى هذه الآية، كما قال له الرسول عليه الصلاة والسلام. ولما كان يوم بدر أشرف على القوم فقال: لا يُعبَد الله بعد هذا اليوم، فقتل إذ ذاك شرَّ قِتْلة.

ثم أقام الله تعالى دليلين على صحة البعث لتأكيد ما جاء في أول السورة: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾:

الأول - ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ أي أيظن أن يترك الإنسان في الدنيا مهملاً، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يكلف، ولا يحاسب ولا يعاقب بعمله في الآخرة؟ وهذا خلاف مقتضى العدل والحكمة، فلا بدَّ من الجزاء حتى لا يتساوى المؤمن والكافر، والطائع والعاصي، واقتضت الحكمة الإلهية تأجيل الجزاء إلى عالم الآخرة، وترك تعجيله، ليتسنى وجود الفرصة المواتية الكافية في أثناء العمر والحياة للإيمان والصلاح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه: ٢٠/١٥] . وقال سبحانه: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٣٨/٢٨] .

ونظير الآية: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/١١٥] .

الثاني - ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ أي أما كان

ذلك الإنسان قطرة أو نطفة ضعيفة من مني يراق في الرحم، ثم صار بعد ذلك علقة، أي قطعة دم، ثم مضغة أي قطعة لحم، ثم شُكّل ونفخ فيه الروح، فصار خلقاً آخر سوياً سليم الأعضاء، ذكراً أو أنثى بإذن الله وتقديره؟ أليس ذلك الذي أنشأ هذا الخلق البديع وقدر عليه بقادر على أن يعيد خلق الأجسام من جديد بالبعث، كما كانت عليه في الدنيا؟ بلى، فإن الإعادة أهون من الابتداء.

وقوله: ﴿فَخَلَقَ﴾ أي فقدَّر بأن جعلها مضغة مخلَّقة، وقوله ﴿فَسَوَّىٰ﴾ أي فعدّل أركانه وكمل نشأته ونفخ فيه الروح، وجعل من المني بعد تخليقه صنفي الإنسان: الرجل والمرأة.

وهذا استدلال بالخلق الأول على الإعادة، فإن الخالق الأول هو الخالق الآخر، والأمران سواء عليه.

روى ابن أبي حاتم وغيره أن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: «سبحانك اللهم وبَلى» . وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن مردويه، والحاكم وصححه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ [التين: ٩٥/١] وانتهى إلى آخرها: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ فليقل: بلى، وأنا على ذلكم من الشاهدين، ومن قرأ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١﴾ [القيامة: ٧٥/١] فانتهى إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ فليقل: بلى، ومن قرأ المرسلات، فبلغ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾ [المرسلات: ٧٧/ ٥٠] فليقل: آمنا بالله» .

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

أ - ذكّر الله تعالى الناس قاطبة بشدة الحال وصعوبة الأمر عند نزول

الموت، فعند الاحتضار يجتمع على الإنسان أمران: الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه، ويجتمع عليه أيضاً شيئان محزنان: فراق الدنيا والأهل والولد حين معاينة الملائكة، واتصال شدة الدنيا بشدة أول الآخرة، فتلتقي الشدة بالشدة إلا من رحمه الله، أي شدة كرب الموت بشدة هول المطلع على الآخرة.

٢ً - يكون الشَّوق في يوم القيامة إلى الخالق، ويكون المرجع والمآب إلى حكم الله، إما إلى الجنة وإما إلى النار.

٣ً - يكون الكافر أولى وأجدر بالعذاب والهلاك لفساد العقيدة والعمل والخُلق، فلم يصدِّق بالرسول محمد ﷺ ولا بالقرآن، ولم يصلِّ الصلاة المفروضة التي أمره الله بها، وتجرد عن إنسانيته بالتكبر والتبختر، افتخاراً بالمال والولد، واعتزازاً بالقوة الجسدية أو الجاه، لذا جاء التهديد بعد التهديد، والوعيد بعد الوعيد في قوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ فهو وعيد أربعة لأربعة، أي وعيد بأربعة أنواع من العذاب لأربعة أنواع من الأمور: ترك الإيمان والصلاة وتكذيب الله تعالى والرسول ﷺ والقرآن، والتبختر.

٤ً - أعاد الله تعالى في آخر السورة ما ذكر في أولها بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾ وقد ذكر هذا لإثبات الحشر والبعث والقيامة بدليلين:

الأول - لا بدَّ في الحياة من التكليف لتنظيم الحياة وتهذيب الأنفس ودرء المفاسد، والتكليف لا يحسن، ولا يليق بالكريم الرحيم إلا إذا كان هناك دار الثواب والبعث والقيامة.

الثاني - الاستدلال بالخلقة الأولى على الإعادة، فمن قدر على بدء الخلق وإيجاد الإنسان، فهو أقدر على إعادته إلى الحياة مرة أخرى.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الإنسان

مدنية، وهي إحدى وثلاثون آية

تسميتها:

سميت سورة الإنسان لافتتاحها بالتنويه بخلق الإنسان وإيجاده، بعد أن لم يكن شيئاً موجوداً، ثم صار خليفة في الأرض، وخلق له جميع ما في الأرض من خيرات ومعادن وكنوز.

مناسبتها لما قبلها:

تتعلق السورة بما قبلها من وجوه ثلاثة:

١ - ذكر الله تعالى في آخر السورة السابقة مبدأ خلق الإنسان من نطفة، ثم جعل منه الصنفين: الرجل والمرأة، ثم ذكر في مطلع هذه السورة خلق آدم أبي البشر، وجعله سميعاً بصيراً، ثم هدايته السبيل، وما ترتب عليه من انقسام البشر إلى نوعين: شاكر وكفور.

٢ - أجمل في السورة المتقدمة وصف حال الجنة والنار، ثم فصل أوصافهما في هذه السورة، وأطنب في وصف الجنة.

٣ - ذكر سبحانه في السورة السابقة الأهوال التي يلقاها الفجار في يوم القيامة، وذكر في هذه السورة ما يلقاه الأبرار من النعيم.

ما اشتملت عليه السورة:

بالرغم من كون هذه السورة مدنية في قول الجمهور، فإنها عنيت بالحديث عن أحوال الآخرة، ولا سيما تنعم الأبرار في دار الخلد والنعيم، أما من قال بأنها مكية فرأيه متفق مع موضوعها.

وقد افتتحت بالكلام عن مبدأ خلق الإنسان، وتزويده بطاقات السمع والبصر، وهدايته السبيل، ثم انقسامه إلى فئتين: شاكر وكفور، والإخبار عن جزاء الشاكرين والجاحدين ووصف الجنة والنار: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الآيات: ١-٤].

ثم أشادت بأعمال الشاكرين من الوفاء بالنذر، وإطعام الطعام لوجه الله، والخوف من عذاب الله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ [الآيات: ٥-١١].

وأردفت ذلك بوصف ما لهم عند ربهم من الجنان والثواب والفضل والإكرام: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الآيات: ١٢-٢٢].

ثم أبانت مصدر تنزيل القرآن، وأمر النبي ﷺ بالصبر الجميل، وذكر الله، وقيام الليل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾[الآيات: ٢٣-٢٦].

ونوّهت بشيء تضمنته السورة السابقة وهو حب الدنيا العاجلة وترك الآخرة، وتهديدهم بتبديل أمثالهم إن داموا على الكفر والعناد وإمعان الأذى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الآيات: ٢٧-٢٨].

وختمت السورة الكريمة بإعلان أن القرآن تذكرة وعظة لجميع البشر، وندبهم إلى الإيمان والعمل بما جاء فيه: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [الآيات: ٢٩-٣١].

خلق الله الإنسان وهدايته السبيل

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾

الإعراب:

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ﴾ ﴿هَلْ﴾ إما بمعنى قد، أي أقد؛ لأن الأصل أهل ثم حذفت الهمزة، أو يكون الاستفهام بمعنى التقرير، وهو تقرير موجه لمن أنكر البعث، يراد به انتزاع إقراره بهذه الحقيقة الأبدية، فيقال له: من

أحدث الإنسان بعد العدم؟ ونظراً لبداهة الجواب، كان لا بدَّ من (نعم)، وإذا أقر بأن الخالق هو الله، فكيف يمتنع عليه إعادة هذا الإنسان الذي خلقه أول مرة؟ فإن من قدر على إحداث شيء بعد أن لم يكن، كان على إعادته أولى.

﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ الجملة حال من الإنسان .﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ في موقع الحال.

﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ منصوبان على الحال من هاء: ﴿هَدَيْنَٰهُ﴾.

البلاغة:

﴿شَاكِرًا﴾ و﴿ كَفُورًا﴾ بينهما طباق. وكفور صيغة مبالغة، وعبر به وليس بالكافر مراعاة للفواصل، وإشعاراً بأن الإنسان لا يخلو عن كفران غالباً، وإنما المؤاخذة بالتوغل بالكفر.

﴿مَّذْكُورًا﴾ ﴿بَصِيرًا﴾ ﴿ كَفُورًا﴾ ﴿مَّنثُورًا﴾ ﴿طَهُورًا﴾ ﴿مَّشْكُورًا﴾ إلخ سجع مرصع، وهو من مراعاة الفواصل.

المفردات اللغوية:

﴿هَلْ﴾ استفهام تقرير وتقريب، فهو بمعنى (قد) .﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾ آدم عليه السلام، أو جنس الإنسان، وهو الراجح لقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ﴿حِينٌ﴾ جزء محدود من الزمان، قدره بعضهم بأربعين سنة ﴿ٱلدَّهْرِ﴾ الزمان الممتد غير المحدود .﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ كان شيئاً منسياً لا يذكر، معدوماً لا يعرف .﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي جنس الإنسان .﴿نُّطْفَةٍ﴾ قليل من الماء. ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أخلاط، جمع مَشَج ومشيج، أي من اختلاط ماء الرجل وماء المرأة وامتزاجهما .﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ نختبره بالتكليف، أي مريدين اختباره عند التكليف والتأهل .﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ بسبب ذلك .﴿سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ ليتمكن من مشاهدة الدلائل واستماع الآيات، فهو كالمسبب من الابتلاء، ولذلك عطف بالفاء على ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ بيّنا له طريق الخير والهدى، بإقامة الأدلة وإنزال الآيات وبعث الرسل.

التفسير والبيان:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ أي قد أتى على الإنسان (جنس الإنسان) زمن، كان فيه منسياً غير موجود، فلم يكن آدم وبنوه شيئاً معروفاً، ولا مخلوقاً، ولا مذكوراً لأحد من الخليقة المتقدمين عليه وهم الملائكة والجن. وهذا إخبار بكون الإنسان في بدء الخلق معدوماً غير مخلوق، والآية كالتقدمة والتوطئة للتي تعقبها، وكالتأكيد لخاتمة السورة المتقدمة. وهي حقيقة لا ينكرها أحد، ويؤكدها علماء طبقات الأرض الذين قالوا: لم يوجد الإنسان على الأرض إلا بعد خلقها بأحقاب طوال.

قال الفرّاء وثعلب: المعنى أنه كان جسداً مصوَّراً، تراباً وطيناً لا يذكر ولا يعرف، ولا يدرى ما اسمه، ولا ما يراد به، ثم نفخ فيه الروح، فصار مذكوراً. والمراد بالإنسان هنا جنس بني آدم، لقوله تعالى بعدئذ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾.

ثم أخبر الله تعالى عن بدء تكاثر نوع الإنسان بعد خلق آدم عليه السلام، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ أي إننا نحن الخالق الإله أوجدنا أو خلقنا ابن آدم من مني أو ماء قليل، مختلط ممتزج بين ماءي الرجل والمرأة، مريدين بهذا الخلق ابتلاءه أي اختباره، بالخير والشر وبالتكاليف الشرعية بعد بلوغ سن التكليف وأهلية الخطاب التشريعي، وزوّدناه بطاقات الفهم والوعي والإدراك وهي السمع والبصر، ليتمكن من حمل رسالة التكليف واجتياز الامتحان، واستماع الآيات، والتأمل في دلائل الكون، والتفكر في براهين الوجود الدالة على الخالق الواحد الأحد.

فبالسمع والبصر والفؤاد وسائر الحواس يتمكن هذا الإنسان من الطاعة والمعصية. ولما جعله تعالى بهذا التركيب، وامتن عليه بهاتين الصفتين (السمع والبصر) وهما آلة التميز والفهم، وأشرف الحواس التي تدرك بها أعظم المدرَكات، أخبر تعالى أنه هداه السبيل أي أرشده إلى الطريق، وعرفه مآل طريق النجاة، ومآل طريق الهلاك، وبيَّن له طريق الهدى وطريق الضلال، فقال:

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ أي بيّنا وأوضحنا له، وعرّفناه طريق الهدى والضلال، والخير والشر، وبصَّرناه بعواقب الأمور، وعرَّفناه منافع الأشياء ومضارَّها التي يهتدي إليها بطبعه السليم، وكمال عقله، فآل أمره إلى أن ينقسم نوع الإنسان إلى قسمين: شاكر لأنعم الله مؤمن به مهتد بهديه. وكافر جاحد للنعمة معرض عن الطاعة، صادّ عن الهدي الإلهي.

ونظير الآية: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٩٠/١٠] أي بيَّنا له طريق الخير، وطريق الشر، فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد، وهذا قول الجمهور، ولم نجبره أو نكرهه على شيء من الإيمان أو الكفر، وإنما اختار الإنسان لنفسه ما شاء، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ٤١/١٧] .

وروى مسلم عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «كل الناس يغدو، فبائعٌ نفسَه، فموبقُها أو مُعْتِقُها» .

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - لم يكن الإنسان قبل خلقه بأمر ربه شيئاً معروفاً، وظلّ على هذا النحو حيناً من الزمان غير معروف.

٢ً - أوجد الله أصل الإنسان من تراب، ثم نفخ فيه من روحه، ثم حدث التناسل والتكاثر من شيء ضعيف مهين، وهو التقاء نطفتي الرجل والمرأة.

٣ً - كان القصد من خلق الإنسان هو الابتلاء والاختبار، لذا أمده الله تعالى بمفاتيح المعرفة والهداية والعلم، وأعطاه ما يصح معه الابتلاء وهو السمع والبصر، وهما كنايتان عن الفهم والتمييز.

٤ً - أخبر الله تعالى أنه بعد أن ركَّب الإنسان، وأعطاه الحواس الظاهرة والباطنة، بيَّن له سبيل الهدى والضلال، بقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾.

٥ً - الآية المتقدمة دالة على أن إعطاء الحواس كان المقدم على إعطاء العقل، وهذا صحيح؛ لأن الإنسان خلق في مبدأ الفطرة خالياً عن معرفة الأشياء، إلا أنه أعطاه آلات تعينه على تحصيل تلك المعارف، وهي الحواس الظاهرة والباطنة.

٦ً - المراد من هداية السبيل: خلق الدلائل، وخلق العقل الهادي، وبعثة الأنبياء، وإنزال الكتب.

٧ً - أياً كان نوع الإنسان ومنهجه، شاكراً أو كفوراً، فقد بيَّن الله ما يحتاج إليه من الخير والطاعة.

٨ً - ليس المراد بالشاكر والكفور: من يشتغل بفعل الشكر وفعل الكفران، وإلا لم يتحقق الحصر المفهوم من كلمة ﴿إِمَّا﴾ بل المراد من الشاكر: الذي يكون مقراً معترفاً بوجوب شكر خالقه عليه، والمراد من الكفور: الذي لا يقرُّ بوجوب الشكر عليه، إما لأنه ينكر الخالق، أو لأنه وإن كان يثبته، لكنه ينكر وجوب الشكر عليه، وحينئذ يتحقق الحصر: وهو أن المكلف: إما أن يكون شاكراً، وإما أن يكون كفوراً. وبهذا يرد على الخوارج الذين احتجوا بهذه الآية

على أنه لا وساطة بين المطيع والكافر، لأن الشاكر هو المطيع، والكفور هو الكافر[١].

جزاء الكفار والأبرار يوم القيامة

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾

القراءات:

﴿سَلَٰسِلَا۟﴾:

قرأ نافع، والكسائي: (سلاسلاً) وصلاً، وبإبداله ألفاً وقفاً.

وقرأ الباقون (سلاسلَ) وصلاً.

واختلفوا في الوقف، فأبو عمرو وقف بالألف، وقنبل، وحمزة وقفا من غير ألف مع إسكان اللام.

وللبزي، وابن ذكوان، وحفص، وجهان وقفاً: الأول: كأبي عمرو، والثاني: كحمزة.

﴿كَأْسٍ﴾:

(١) تفسير الرازي: ٣٠/ ٢٣٩

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (كاس).

الإعراب:

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا﴾ ﴿سَلَٰسِلَاْ﴾: قرئ بتنوين لمجاورته ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾ وقرئ من غير تنوين؛ لأنه ممنوع من الصرف.

وكذا أيضاً ﴿قَوَارِيرَاْ﴾ [الآية ١٥] قرئ منوناً وغير منون.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا﴾ ﴿عَيْنًا﴾ منصوب من ستة أوجه: على أنه بدل من قوله: ﴿كَافُورًا﴾ أو على التمييز، أو لقيامه مقام مفعول محذوف لـ ﴿يَشْرَبُونَ﴾ تقديره: يشربون من كأس ماء عين، أو على البدل من ﴿كَأْسٍ﴾ على الموضع، أو على الحال من ضمير ﴿مِزَاجُهَا﴾ وفيه خلاف، أو منصوب بتقدير أعني. و﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ الباء إما بمعنى (مِنْ) أي يشرب منها، أو زائدة، أي يشرب ماءها؛ لأن العين لا تُشرب وإنما يُشرب ماؤها.

البلاغة:

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ﴾ لفّ ونشر مشوّش، فإنه تعالى قال: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ثم أعاد بالذكر على الثاني دون الأول.

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ﴾ جناس اشتقاق.

﴿يَوْمًا عَبُوسًا﴾ مجاز عقلي، إسناد العبوس إلى اليوم من إسناد الشيء إلى زمانه، مثل: نهاره صائم.

﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾ و ﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾ جناس غير تام.

المفردات اللغوية:

﴿أَعْتَدْنَا﴾ هيأنا .﴿سَلَٰسِلَاْ﴾ قيوداً توضع في الأرجل، يسحبون بها إلى

النار .﴿وَأَغْلَٰلًا﴾ أطواقاً وقيوداً توضع في الأيدي وتجمع إلى أعناقهم، جمع غُلّ: وهو القيد .﴿وَسَعِيرًا﴾ ناراً مسعّرة بها يحرقون ويعذبون.

﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾ أهل الطاعة والإخلاص، جمع بَرّ، والبررة جمع بارّ، كما جاء في الصحاح .﴿كَأْسٍ﴾ قدح أو إناء زجاجة فيها خمر، والمراد: من خمر، تسمية للحالّ باسم المحل، و﴿مِن﴾: للتبعيض .﴿مِزَاجُهَا﴾ ما تمزج به .﴿كَافُورًا﴾ طِيب معروف، له رائحة جميلة.

﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي منها .﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ أولياؤه .﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ يقودونها ويجرونها حيث شاؤوا إجراءً سهلاً، ويخرجونها من الأرض، والمراد أنها تحت تصرفهم وأمرهم .﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ ﴿بِٱلنَّذْرِ﴾: التزام قربة لله تعالى، والمراد يؤدون ما أوجبوه على أنفسهم من الطاعات .﴿شَرُّهُۥ﴾ شدائده .﴿مُسْتَطِيرًا﴾ فاشياً منتشراً في البلاد. ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ محبة الطعام أو الإطعام .﴿مِسْكِينًا﴾ محتاجاً لفقره .﴿وَيَتِيمًا﴾ من لا أب له .﴿وَأَسِيرًا﴾ من أُسر من الكفار في حرب إسلامية، ويشمل أيضاً الأسير المؤمن، والمملوك والمسجون .﴿لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ ابتغاء لرضوانه وطلب ثوابه، لا لتوهم المنّ وتوقع المكافأة المنقصة للأجر. ﴿شُكُورًا﴾ شكراً.

﴿يَوْمًا﴾ عذاب يوم .﴿عَبُوسًا﴾ تعبس فيه الوجوه، أي كريه المنظر لشدته. ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ شديد العبوس والهول، مظلماً .﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾ دفع عنهم بسبب خوفهم وتحفظهم منه .﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾ أعطاهم .﴿نَضْرَةً﴾ حسناً وبهاءً .﴿وَسُرُورًا﴾ حبوراً. ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟﴾ بصبرهم على أداء الواجبات واجتناب المحرَّمات وإيثار الأموال .﴿جَنَّةً﴾ بستاناً يأكلون منه .﴿وَحَرِيرًا﴾ يلبسونه.

سبب النزول:

نزول الآية (٨):

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾: أخرج ابن المنذر

عن ابن جرير في قوله: ﴿وَأَسِيرًا﴾ قال: لم يكن النبي ﷺ يأسر أهل الإسلام، ولكنها نزلت في أسارى أهل الشرك، كانوا يأسرونهم في العذاب، فنزلت فيهم، فكان النبي ﷺ يأمرهم بالإصلاح إليهم.

وقال مقاتل: نزلت في رجل من الأنصار أطعم في يوم واحد مسكيناً ويتيماً وأسيراً. وقال أهل التفسير: نزلت في علي وفاطمة رضي الله عنهما وجارية لهما اسمها فضة، لكن القصة لم تصح.

قال القرطبي: والصحيح أنها نزلت في جميع الأبرار، ومَنْ فعل فعلاً حسناً؛ فهي عامة[1].

المناسبة:

بعد بيان أن الله هدى الناس إلى طريق الخير وطريق الشّر، ثم انقسامهم بعدئذٍ فريقين: شاكراً وكافراً، ذكر تعالى على جهة الوعيد أنه أعد للكافرين قيوداً وناراً، وللمؤمنين الطائعين جنة فيها ألوان النعيم من المأكل والمشرب والملبس، لتتم المقابلة أو المقارنة بين الجزاءين، مع بيان العلة أو السبب لكل جزاء.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾ أي إننا هيأنا وأعددنا لكل من كفر بالله وبنعمه، وخالف أمره سلاسل في أرجلهم يقادون بها إلى الجحيم، وقيوداً تشد بها أيديهم إلى أعناقهم، وناراً تستعر وتتوقد، لنعذبهم ونحرقهم بها. والسلاسل: القيود في جهنم، كل سلسلة سبعون ذراعاً، كما جاء في سورة الحاقة. والأغلال: ما تغل به الأيدي إلى الأعناق.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٩/ ١٣٠

ونظير الآية: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٧١-٧٢] .

فهذا إخبار عما أرصده الله عزّ وجلّ للكافرين الأشقياء من خلقه، ثم أتبعه بما أعد للمؤمنين الطائعين، فقال:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ أي إن المؤمنين أهل الطاعة والإخلاص الذين يؤدون حق الله، بالتزام فرائضه واجتناب معاصيه، يشربون من خمر ممزوجة بكافور بارد أبيض طيب الرائحة، ليكمل ريح الخمر وطعمها ويطيب، وممزوجة أيضاً بماء عين يشرب منها عباد الله الصالحون، يجرونها إلى حيث أرادوا من منازلهم وقصورهم، وينتفعون بها كما يشاؤون، ويشقُّونها شقّاً كما يشقّ النهر ويتفجر الينبوع. وقيل: الكافور: اسم عين في الجنة، يقال لها عين الكافور.

وقوله: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ معناه يتصرفون فيها حيث شاؤوا وأين شاؤوا من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم. والتفجير: الإنباع.

ثم ذكر الله تعالى ثلاثة أسباب لهذا التكريم وثواب الأبرار، فقال:

أ - ٢ - ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ أي يوفون بما أوجبوه على أنفسهم من نذور تقرباً إلى الله تعالى، ويتركون المحرمات التي نهاهم عنها. والنذر في الشرع: ما أوجبه المكلف على نفسه لله تعالى من صلاة أو صوم أو ذبح أو غيرها مما لم يكن عليه واجباً بالشرع. قال الرازي: اعلم أن مجامع الطاعات محصورة في أمرين: التعظيم لأمر الله، وإليه الإشارة بقوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾، والشفقة على خلق الله، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾. ويخافون عذاب يوم هو يوم القيامة كانت شدائده وأهواله فاشية منتشرة في كل جهة، وعامة على الناس إلا من رحم الله.

وإنما سميت الأهوال شرّاً؛ لكونها مضرة بمن تنزل عليه، ولكونها صعبة عليه، كما تسمى الأمراض وسائر الأمور المكروهة شروراً.

والآية دالة على وجوب الوفاء بالنذر؛ لأنه تعالى عقبه بقوله: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾ وهذا يقتضي أن الخوف من عذاب الله هو سبب الوفاء بالنذر.

٣ - ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ أي ويطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له المحتاج الفقير العاجز عن الكسب، واليتيم الحزين الذي فقد أباه وعائله، والأسير المقيد المحبوس، أو المملوك، سواء من أهل الإيمان أو من المشركين. وخصّ الطعام بالذكر لكونه إنقاذاً للحياة، وإصلاحاً للإنسان، وإحساناً لا ينسى.

وفي قوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ تنبيه على ما ينبغي أن يكون عليه المُطْعِمُ، بل كل عامل، من إخلاص عمله لله.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد: ٩٠/١١-١٦] ، وقوله سبحانه: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢/١٧٧]، وقوله: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٣/٩٢] .

وبما أن تمام الطاعة لا يكون إلا بالإخلاص وقرن النية بالعمل، ذكر النية بعد تلك الأعمال، فقال:

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ أي إنما قصدنا من هذا الإطعام هو ابتغاء رضوان الله وحده، ورجاء ثوابه، دون منّ عليكم ولاثناء من الناس، ولا توقع مكافأة تنقص الأجر، ولا طلب مجازاة منكم، ولا إرادة شكر منكم لنا، بل هو خالص لوجه الله تعالى.

وهذا أي طلب رضا الله عنهم هو الهدف الأول، ثم أعقبه بالهدف الثاني وهو خوف يوم القيامة وأهوالها، فقال سبحانه:

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ أي إننا مع طلب رضوان الله، نخاف من أهوال يوم تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته، صعب شديد. ووصف اليوم بالعبوس مجاز، وصف بصفة أهله، أو تشبيهاً في ضرره بالأسد العبوس أو بالشجاع الباسل، والقمطرير أشد ما يكون من الأيام وأطوله بلاء.

ويلاحظ أنه سبحانه وصفهم بالخوف من أهوال القيامة في موضعين: في قوله المتقدم: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ وقوله هنا: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

ثم أوضح الله تعالى أنه حقق للأبرار الهدفين، وذكر ما سيجزيهم على أعمالهم وإخلاصهم، فذكر الثاني أولاً ثم الأول، فقال: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ أي فدفع الله عنهم شرّ ذلك اليوم العبوس، وآمنهم مما خافوا منه، بسبب خوفهم منه وإطعامهم لوجهه، وأعطاهم بدل العبوس في الكفار نضرة في الوجوه، وسروراً في القلوب لطلبهم رضا الله. والنضرة: البياض والنقاء في وجوههم من أثر النعمة.

ونظير الآية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ [عبس: ٨٠/ ٣٨-٣٩].

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ أي وكافأهم بسبب صبرهم على التكاليف جنة يدخلونها وحريراً يلبسونه، أي أعطاهم منزلاً رحباً، وعيشاً رغداً، ولباساً حسناً، كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٢/ ٢٣]. والتعبير بقوله: ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾ و﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾ بصيغة الماضي، لتأكيد تحقق الوعد.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ - إن انقسام الناس باختيارهم إلى فريقين: شاكر وكافر، اقتضى تنوع الجزاء بعد التكليف والتمكين من المأمورات، فمن كفر فله العقاب من السلاسل في الأرجل، والأغلال في الأيدي، والنار المستعرة التي تحرق الجسد؛ ومن وحَّد وشكر، فله الثواب الجزيل والجنة بما فيها من ألوان النعيم.

والآية دليل على أن الجحيم بسلاسلها وأغلالها مخلوقة؛ لأن قوله تعالى: ﴿أَعْتَدْنَا﴾ إخبار عن الماضي.

ويلاحظ أن الاختصار في ذكر العقاب، مع الإطناب في شرح الثواب، يدل على أن جانب الرحمة أغلب وأقوى[(١)].

٢ - وصف الله تعالى نعيم أهل الجنة بما يبهر، فذكر أن الأبرار: أهل التوحيد والصدق يشربون في الجنة الخمر غير المسكرة، الممزوجة بالكافور، المختومة بالمسك، المختلطة بعين ماء عذبة في الجنة، يشربون منها، وتكون تحت تصرفهم وأمرهم يجرونها كما يشاؤون، ويُشقِّقونها شَقّاً، كما يفجر النهر في الدنيا. وتلك العين هي السلسبيل كما جاء في حديث ذكره الترمذي الحكيم في نوادر الأصول عن الحسن البصري قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع عيون في الجنة: عينان تجريان من تحت العرش، إحداهما التي ذكر الله: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ والأخرى الزنجبيل، والأخريان نضاختان من فوق العرش: إحداهما التي ذكر الله: ﴿عيناً فيها، تسمى سلسبيلاً﴾، والأخرى التسنيم» . وقال: فالتسنيم للمقربين خاصة شرباً لهم، يمزج للأبرار من التسنيم شرابهم، وأما الزنجبيل والسلسبيل فللأبرار منها مِزاج.

---

(١) تفسير الرازي: ٣٠/٢٥٦ وما بعدها.

٣ً - إن علة أو سبب هذا النعيم للأبرار أمور ثلاثة: وفاؤهم بالنذور وأداؤهم ما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحج والعُمْرة وغيرها من الواجبات؛ وخوفهم من يوم القيامة ذي الشدائد والأهوال الفاشية المنتشرة في كل مكان؛ وإطعامهم الطعام على قِلّته وحبهم له وشغفهم به ذا مسكنة وفقر وحاجة، ويتيماً من يتامى المسلمين، والأسير المؤمن أو الكافر الذي يؤسر فيحبس.

وقد أوصى النبي ﷺ بالأسارى قائلاً: «استوصوا بالأُسارى خيراً»[1]. ويكون إطعام الأسير المشرك قربة إلى الله تعالى، غير أنه من صدقة التطوع، فأما المفروضة فلا. وتقدم لدينا أن الآية دالة على وجوب الوفاء بالنذر.

وأجاز عامة العلماء الإحسان إلى الكفار في بلاد الإسلام من التطوعات لا من الواجبات. وإطعام الأسير واجب أولاً على الإمام (الدولة) فإن لم يفعله وجب على المسلمين.

٤ً - إطعام هؤلاء بقصدين أو غرضين: رضا الله عنهم، وخوف يوم القيامة.

٥ً - أعطى الله الأبرار ما يحقق الغرضين، فوقاهم ودفع عنهم شرور ومحاذير ومخاطر يوم القيامة، وآمنهم من خوفهم، وأعطاهم وآتاهم حين لقوه نَضْرة أي حسناً، وسروراً، أي حبوراً، فتحقق لهم الغرضان: الحفظ من هول القيامة، وطلب رضا الله تعالى.

قال الرازي: اعلم أن هذه الآية أحد ما يدل على أن شدائد الآخرة لا تصل إلا إلى أهل العذاب.

(١) أخرجه الطبراني عن أبي عزيز، وهو حديث حسن.

٦ً - كذلك جزاهم الله بصبرهم على طاعة الله وعلى معصية الله ومحارمه جنان الخلد يدخلونها، والحرير يلبسونه. روى ابن عمر أن رسول الله ﷺ سئل عن الصبر، فقال: «الصبر أربعة: أولها الصبر عند الصدمة الأولى، والصبر على أداء الفرائض، والصبر على اجتناب محارم الله، والصبر على المصائب»(١).

هذا مع العلم بأن من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، وإنما أُلبسه من أُلبسه في الجنة عوضاً عن حبسهم أنفسهم في الدنيا عن الملابس التي حرمها الله.

مساكن أهل الجنة وأشربتهم وخدمهم وألبستهم

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾

القراءات:

﴿قَوَارِيرَا۠، قَوَارِيرَا۟﴾:

قرأ نافع، والكسائي بالتنوين فيهما، وبإبداله ألفاً وقفاً.

وقرأ ابن كثير بالتنوين في الأول، وبتركه في الثاني، ووقفا على الأول بالألف، وعلى الثاني بحذفها مع إسكان الراء.

(١) تفسير القرطبي: ١٩/١٣٦

وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وحفص، بترك التنوين فيهما.

ووقفوا على الأول بالألف، وعلى الثاني بحذفها مع إسكان الراء. وقرأ حمزة بترك التنوين فيهما.

﴿لُؤْلُؤًا﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (لولواً).

﴿عَٰلِيَهُمْ﴾:

وقرأ نافع، وحمزة (عاليْهِم).

﴿خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾: قرئ:

١- (خضرٌ وإستبرقٌ) وهي قراءة نافع، وحفص.

٢- (خضرٍ وإستبرقٌ) وهي قراءة ابن كثير.

٣- (خضرٌ وإستبرقٍ) وهي قراءة أبي عمرو، وابن عامر.

٤- (خضرٍ وإستبرقٍ) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ حال من الهاء والميم في ﴿وَجَزَىٰهُم﴾. وكذلك ﴿لَا يَرَوْنَ﴾ في موضع نصب على الحال من ذلك الضمير، أو من ضمير ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ منصوب بالعطف على قوله: ﴿جَنَّةً﴾ في آية: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً﴾ و﴿ظِلَٰلُهَا﴾: فاعل ﴿وَدَانِيَةً﴾.

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ بدل من ﴿زَنجَبِيلًا﴾.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ ﴿ثَمَّ﴾: في موضع نصب إما لأنه ظرف مكان، ويكون مفعول ﴿رَأَيْتَ﴾ محذوفاً، وإما لأنه مفعول ﴿رَأَيْتَ﴾. و﴿ثَمَّ﴾: مبني على الفتح لتضمنه لام التعريف؛ لأنه معرفة، أو لتضمنه معنى الإشارة، والأصل في الإشارة أن يكون بالحرف، فكأنه تضمن معنى الحرف.

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ ﴿عَالِيَهُمْ﴾ بفتح الياء منصوب لكونه ظرفاً بمعنى فوقهم، أو على الحال من الهاء والميم في ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ﴾ أي يعلوهم في هذه الحالة. وقرئ بالسكون فيكون مبتدأ، و﴿ثِيَابُ﴾: خبره، وعالي: لفظه لفظ الواحد، والمراد به الجمع، كالسامر في قوله تعالى: ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/٦٧] . ويصح كونه صفة ﴿وِلْدَانٌ﴾. و﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾: مرفوع بـ ﴿عَالِيَهُمْ﴾ سواء كان حالاً أو وصفاً. و﴿خُضْرٌ﴾ إما بالجر صفة لـ ﴿سُندُسٍ﴾ وإما بالرفع صفة لـ ﴿ثِيَابُ﴾. وكذلك ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ بالجر عطفاً على ﴿سُندُسٍ﴾، أو بالرفع عطفاً على ﴿ثِيَابُ﴾. و﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾: وهو غليظ الديباج، وأصله (إستبره) فأبدلوا من الهاء قافاً. وهو منصرف لأنه يحسن فيه دخول الألف واللام، وليس اسم علم كإبراهيم، ومن لم يصرفه فقد وهم.

البلاغة:

﴿شَمْسًا﴾ و﴿زَمْهَرِيرًا﴾ بينهما طباق.

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ تشبيه رائع، أي كاللؤلؤ المنثور.

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ إيجاز بالحذف، أي يقال لهم: إن هذا.

﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ مجاز عن قبول الطاعة والثواب الكثير.

﴿زَمْهَرِيرًا﴾، ﴿قَوَارِيرَا﴾، ﴿تَقْدِيرًا﴾، ﴿مَّنثُورًا﴾، ﴿كَبِيرًا﴾، ﴿طَهُورًا﴾، ﴿مَّشْكُورًا﴾ سجع مرصع، أي مراعاة الفواصل.

المفردات اللغوية:

﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ جالسين بتمكن وراحة، والغالب أن يكون الجلوس على جانب واحد، بالاعتماد على وسادة. ﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾ السرر في الحِجال، جمع أريكة: وهي السرير المجلل بالأستار أو الحجلة أو الكِلّة (الناموسية). ﴿لَا يَرَوْنَ﴾ لا يجدون. ﴿شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي لا حرّاً ولا برداً، والزمهرير: البرد الشديد. ﴿وَدَانِيَةً﴾ قريبة. ﴿ظِلَٰلُهَا﴾ ظلال أشجارها. ﴿وَذُلِّلَتْ﴾ سخرت وسهّلت ثمارها، وصارت في متناول الأيدي. ﴿قُطُوفُهَا﴾ ثمارها، جمع قِطْف، والمراد: أدنيت ثمارها، فينالها القائم والقاعد والمضطجع.

﴿بِـَٔانِيَةٍ﴾ صحاف أو أواني الطعام، جمع إناء. ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ آنية الشراب، جمع كوب: وهو قدح أو كوز مستدير الفتحة، لا عروة فيه. ﴿قَوَارِيرَا۠﴾ أوعية زجاجية، جمع قارورة: وهي الزجاجة المعروفة. ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ قدرها السقاة الطوافون على قدر ريّ الشارب، من غير زيادة ولا نقصان، وذلك ألذ الشراب. ﴿كَأْسًا﴾ أي خمراً، والكأس في الأصل: القدح الذي تكون فيه الخمر. ﴿مِزَاجُهَا﴾ ما تمزج به. ﴿زَنجَبِيلًا﴾ ماء يشبه الزنجبيل في الطعم، وكانت العرب يستلذون الشراب الممزوج به، والزنجبيل: نبات ذو عرق يوضع في أخلاط البهارات، له رائحة طيبة وله لذع في اللسان، ينبت في بلاد الشام والهند والصين.

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ سميت بذلك لسلاسة انحدارها في الحلق، وسهولة مساغها. والسلسبيل: الشراب اللذيذ. ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ دائمو البهاء والحسن، لا يَشيبون. ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾ ظننتهم لحسنهم. ﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ كاللؤلؤ المنتثر في الصفاء والبياض. ﴿ثَمَّ﴾ هناك. ﴿نَعِيمًا﴾ لا يوصف. ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ واسعاً لا غاية له. ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ يعلوهم ثياب الحرير الخضر، والسندس: ما رقّ من الحرير، وهو الظهائر. ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ ما غلظ من الديباج، وهو البطائن. ﴿وَحُلُّوٓا۟﴾ ألبسوا حلية. ﴿أَسَاوِرَ﴾ جمع سوار. ﴿مِن فِضَّةٍ﴾ وفي موضع

آخر: ﴿مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٤٣/٧١] ، للدلالة على أنهم يحلَّوْن من النوعين معاً، ومفرَّقاً .﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ نقياً من الشوائب، والطهور: صيغة مبالغة في طهارته ونظافته، خلافاً لخمر الدنيا .﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ أي يقال لهم: إن ما أعدّ لكم من الثواب جزاء أعمالكم الصالحة .﴿مَّشْكُورًا﴾ مجازى عليه، غير مضيَّع.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٠):

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾: أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: دخل عمر بن الخطاب على النّبي ﷺ، وهو راقد على حصير من جريد، وقد أثَّر في جنبه، فبكى عمر، فقال: ما يبكيك؟ قال: ذكرت كسرى ومُلْكه، وهُرْمز، وصاحب الحبَشة ومُلْكه، وأنت رسول الله ﷺ على حصير من جريد، فقال رسول الله ﷺ: أما ترضى أن لهم الدنيا، ولنا الآخرة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

المناسبة:

بعد بيان طعام أهل الجنة ولباسهم، ذكر الله تعالى أوصاف مساكنهم وكيفية جلوسهم فيها وأشربتهم وأوانيهم وخدمهم واعتدال هوائهم، ثم أشار إلى تجملهم بمحاسن الثياب والحلي، وذكر في النهاية أن هذه النعم جزاء عملهم.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن أوضاع أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم، وما أسبغ عليهم من الفضل العظيم، فقال تعالى:

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ أي جزاهم الله جنة، متكئين فيها على الأسرَّة المظللة بالْحِجال أو الكِلل، لا يرون فيها حرّ الشمس، ولا برد الزمهرير، بل إن هواءها معتدل، جاء في الحديث: «هواء الجنة سَجْسَج، لا حَرّ ولا قَرّ» والسجسج: الظل الممتد كما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس[١].

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ أي وإن ظلال الأشجار قريبة منهم، مظللة عليهم، زيادة في نعيمهم، وإن كان لا شمس هناك، وسخرت وأدنيت ثمارها لمتناوليها تسخيراً، يتناولها القائم والقاعد والمضطجع، لا يردّ أيديهم عنها بُعْدٌ ولا شوك. فقوله: ﴿وَدَانِيَةً﴾ أي وجزاهم جنة أخرى دانية عليهم ظلالها.

ولا يخفى أن هذا الظل ليس بالمعنى المصطلح عليه في الدنيا، وهو الضوء النوراني، فإنه لا شمس هناك، فمعنى دنوّ الظلال: أن أشجار الجنة خلقت بحيث لو كان هناك شمس، لكانت تلك الأشجار قريبة الظلال على أهل الجنة، وقد أكّد هذا المعنى بقوله: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أي لا تمتنع على قُطّافها كيف شاؤوا[٢].

ثم أخبر الله تعالى عن شرابهم وأوانيهم التي فيها يشربون، فقال:

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾ أي يطوف عليهم الخدم بأواني الطعام، وهي من فضة، وبأكواب الشراب: وهي الكيزان التي لا عراً لها ولا خراطيم، وهي أيضاً من فضة، فاجتمع لها بياض الفضة وصفاء القوارير وهي الزجاج، حتى يرى داخلها من خارجها، وجاءت في الشكل والحجم كما يريدون لا تزيد ولا تنقص.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٩/١٣٨

(٢) غرائب القرآن: ٢٩/١٢٤

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة».

وجاء في آية أخرى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٤٣/٧١] . وهذا يدل على أنهم تارة يسقون بأكواب الفضة، وتارة بأكواب الذهب. والصحاف: هي القصاع. والفرق بين الآنية والأكواب: أن الأكواب كما تقدم هي الكيزان التي لا عرا لها، والآنية هي ما له عرا، كالقدح.

ثم وصف الله تعالى مشروبهم نفسه قائلاً:

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾ أي ويسقى الأبرار أيضاً في هذه الأكواب في الجنة خمراً ممزوجة بالزنجبيل، فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور كما تقدم وهو بارد، وتارة بالزنجبيل وهو حار، ليعتدل. أما المقرّبون فإنهم يشربون من كلٍّ منهما صرفاً.

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ أي ويسقون من عين في الجنة تسمى السلسبيل، سميت بذلك لسلاسة مائها، وسهولة جريها وانحدارها وإساغتها في حلوقهم. قال ابن الأعرابي عن السلسبيل: لم أسمعه إلا في القرآن.

وقال ابن عباس: وكل ما ذكر الله في القرآن مما في الجنة، فليس منه في الدنيا إلا الاسم.

والفائدة في تسمية العين بالسلسبيل بعد تسميتها بالزنجبيل هي أنها في طعم الزنجبيل ولذته، ولكن ليس فيها اللذع الذي هو مناف للسلاسة.

ثم وصف خدمهم بقوله:

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ أي

ويطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان الجنة، يبقون فيها على حالة واحدة من الشباب والطراوة والنضارة، لا يهرمون ولا يتغيرون ولا يموتون، إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج غيرهم وصباحة وجوههم، وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم، ظننتهم كاللؤلؤ المنثور، قال ابن كثير: ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن.

شبههم بالمنثور؛ لأنهم سراع في الخدمة، بخلاف الحور العين، فإنه شبَّههن باللؤلؤ المكنون؛ لأنهن لا يُمْتَهَنَّ بالخدمة.

ثم أجمل نعيمهم؛ لأنه أعلى وأعظم مما سبق، ولأنه مما لا يحصر ولا يخطر ببال أحد، ما دام في الدنيا، فخاطب نبيّه ﷺ أو كل راءٍ قائلاً:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ أي وإذا نظرت نظراً بعيداً في الجنة ونعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الحبرة والسرور، رأيت نعيماً لا يوصف، وسلطاناً ومُلْكاً عظيماً لا يقدر قدره. جاء في الحديث عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في مُلْكِه مسيرة ألفي سنة، ينظر إلى أقصاه، كما ينظر إلى أدناه»(١).

ثم وصف ملابسهم وحليهم بقوله:

﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ أي لباسهم الذي يعلوهم هو الحرير الرفيع الرقيق الأخضر، والديباج الغليظ، وحلوا بأساور من فضة، وفي آية أخرى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ١٨/ ٣١، فاطر: ٣٥/ ٣٣] أي تارة تكون حليهم الفضة، وتارة الذهب.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٤٥٧

ثم ذكر الله تعالى شراباً آخر لهم غير الممزوج بالكافور أو بالزنجبيل، فقال:

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ أي وسقاهم ربّهم بشراب غير ما سبق يطهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة، كما روي عن علي رضي الله عنه. والطهور مبالغة طاهر، والمراد أنها ليست بنجسة، ولا مستقذرة طبعاً، ولا تؤول إلى النجاسة، ولكنها ترشح عرقاً من أبدانهم، له ريح كريح المسك.

قال أبو قُلابة وإبراهيم النخعي: يؤتون بالطعام، فإذا كان آخره أُتوا بالشراب الطهور، فيشربون، فتضمر بطونُهم من ذلك، ويفيض عرق من أبدانهم مثل ريح المسك.

ثم ذكر الله تعالى علة هذا الفضل والنعيم، فقال:

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ أي ويقال لهؤلاء الأبرار المتعين بالجنان، تكريماً لهم وإحساناً إليهم: إن هذا المذكور من أنواع النعم، كان لكم جزاء بأعمالكم، أي ثواباً لها، وجزاكم الله تعالى على القليل بالكثير، ويقبل طاعتكم، فشُكْرُ الله سبحانه لعمل عبده: هو قبوله لطاعته.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٢٤] ، وقوله سبحانه: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٤٣] .

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - يكون الأبرار أهل الجنة في غاية النعيم والراحة، فهم متكئون على الأرائك أي السرُر في الحِجال، ولا يرون في الجنة شدة حرّ كحر الشمس،

ولا برداً مفرطاً، وظلال الأشجار في الجنة قريبة منهم، فهي مُظِلّة عليهم، زيادة في نعيمهم، وإن كان لا شمس ولا قمر، كما أن أمشاطهم الذهب والفضة، وإن كان لا وسخ ولا شعث ثَمَّ.

وتسخر لهم الثمار تسخيراً، فيتناولها القائم والقاعد والمضطجع، لا يردّ أيديهم عنها بُعْدٌ ولا شوك، كما قال قتادة.

ويدور على هؤلاء الأبرار الخدم إذا أرادوا الشراب بآنية من فضة أو من ذهب، وبقوارير في صفاء الزجاج وبياض الفضة، فصفاؤها صفاء الزجاج وهي من فضة، وقد قدّر أقدارها لهم السقاة الذين يطوفون بها عليهم.

ويسقون في الجنة خمراً في آنية، ممزوجة بالزنجبيل تطييباً لرائحتها، وكانت العرب تستلذ من الشراب ما يمزج بالزنجبيل لطيب رائحته؛ لأنه يَحْذو اللسان، ويهضم المأكول، فرُغِّبوا في نعيم الآخرة بما اعتقدوه نهاية النعمة والطيب.

ويشربون أيضاً في الجنة من عين تسمى السلسبيل: وهو الشراب اللذيذ.

ويطوف عليهم بالآنية للخدمة ولدان يبقون على ما هم عليه من الشباب والغضاضة والحسن، لا يَهْرَمون ولا يتغيرون، ويكونون على سن واحدة على مَرّ الأزمنة، فإذا شاهدتهم ظننتهم من حسنهم وكثرتهم وصفاء ألوانهم لؤلؤاً مفرقاً في ساحات المجلس، واللؤلؤ إذا نثر على بساط كان أحسن منه منظوماً. والمراد دوام كونهم على تلك الصورة التي لا يراد في الخدم أبلغ منها، وذلك يتضمن دوام حياتهم وحسنهم ومواظبتهم على الخدمة الحسنة.

وهناك في الجنة إذا رأيت ببصرك، رأيت نعيماً لا يوصف، وملكاً عظيماً لا يقدر قدره.

وثيابهم الحرير الأخضر الرقيق والديباج الغليظ، ويحلون في الجنة بحلي وأساور من ذهب أو فضة، حسبما يروق لهم، وإن كانوا رجالاً.

ويشربون من شراب آخر غير ما ذكر موصوف بغاية الطهر والنقاء، إما لإذهاب آثار الطعام وجعله يتفصد من الجسد عرقاً، أو للترفع عن اللذات الحسية والتخلص من مفاسد الأخلاق الرديئة، كالحسد والحقد والبغض وغير ذلك.

٢ - يقال لهؤلاء الأبرار في الجنة بعد دخولهم فيها ومشاهدتهم نعيمها، تكريماً لهم وإحساناً إليهم: إنما هذا المذكور من النعم ثواب عملكم، وكان عملكم مشكوراً من قبل الله، وشكره للعبد: قبول طاعته، وثناؤه عليه، وإثابته إياه.

أحوال الطائعين والمتمردين المشركين في الدنيا

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (القران).

﴿شِئْنَا﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (شينا).

﴿تَشَآءُونَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (يشاؤون).

الإعراب:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ ﴿نَحْنُ﴾: في موضع نصب صفة لاسم (إن) للتأكيد، ولا يجوز أن يكون ﴿نَحْنُ﴾ ضمير فصل هنا لا محل له من الإعراب؛ لأن من شرط الفصل أن يقع بين معرفتين أو في حكمهما، ولم يوجد هنا. و﴿نَزَّلْنَا﴾: جملة فعلية في موضع رفع خبر (إن).

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ ﴿أَوْ﴾: هنا للإباحة، أي لا تطع هذا النوع. والنهي في هذا كالأمر. ولو قال: لا تطع آثماً، لا تطع كفوراً، لانقلب المعنى؛ لأنه حينئذٍ لا تحرم طاعتهما كليهما.

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾: منصوب بتقدير فعل، تقديره: ويعذب الظالمين، وجاز إضماره؛ لأن ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ دلّ عليه.

البلاغة:

﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ بينهما طباق.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ مقابلة، حيث قابل بين المحبة والترك، وبين العاجلة والباقية.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ نحن تأكيد لاسم إن ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ أي نزلناه مفرَّقاً مفصَّلاً منجّماً لحكمة اقتضته، ولم ننزله جملة واحدة. ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ داوم

على حكم ربّك عليك بتبليغ رسالته .﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾ أي الكفار .﴿ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ الآثم: الفاجر المجاهر بالمعاصي، والكفور: شديد التعصب للكفر المغالي فيه وهو المشرك المجاهر بكفره. قال المفسرون: وهما حينئذٍ عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة، قالا للنبي ﷺ: ارجع عن هذا الأمر ونحن نرضيك بالمال والتزويج. ثم صار المراد كل آثم وكافر، لا تطع أياً كان فيما دعاك إليه من إثم أو كفر؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ داوم على ذكره .﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أول النهار وآخره، فيشمل صلوات الفجر، والظهر، والعصر .﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾ أي في بعض الليل صلِّ لله، ويشمل صلاتي المغرب والعشاء، وتقديم الظرف لما في صلاة الليل من مزيد الكلفة والخلوص لله .﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ أي وتهجد له طائفة طويلة من الليل، وهي صلاة التطوع.

﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ الدنيا .﴿وَرَآءَهُمْ﴾ أمامهم .﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ شديداً، أي يوم القيامة، مستعار من الثقل المتعب للحامل، وهو كالتعليل لما أمر به ونهى عنه. ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ﴾ أحكمنا وقوينا أعضاءهم ومفاصلهم، وكذلك ربطها بالأعصاب والعروق، وفي اللغة: الأسر: شدة الخَلْق والخُلُق .﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي وإذا أردنا أهلكناهم، وبدَّلنا أمثالهم في الخلقة وشدة الأعضاء.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ﴾ إن هذه السورة أو الآيات القريبة موعظة وعبرة للناس .﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ طريقاً يتقرب إليه بالطاعة .﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ اتّخاذ السبيل بالطاعة .﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾ أي إلا وقت مشيئة الله. ﴿عَلِيمًا﴾ بخلقه وبما يستأهل كل أحد .﴿حَكِيمًا﴾ في فعله، لا يشاء إلا ما تقتضيه حكمته .﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ﴾ أي يدخل من يريد وهم المؤمنون في جنته، بعد الهداية والتوفيق للطاعة .﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ﴾ أي عذَّب أو كافأ الظالمين وهم الكافرون .﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مؤلماً.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٤):

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة أنه بلغه أن أبا جهل قال: لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن عنقه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾.

المناسبة:

بعد بيان أحوال الكفار والمؤمنين في الآخرة، ثبَّت الله تعالى الرسول ﷺ وشرح صدره، بسبب ما نسبوه إليه من كِهانة وسحر، فذكر الله تعالى أن ذلك وحي من الله، ثم أمره بالصبر على أذى قومه، ثم ذكر أحوال هذين الفريقين في الدنيا، مقدِّماً بيان أحوال الطائعين وهم الرسول ﷺ وأمته على أحوال الكفار العصاة.

التفسير والبيان:

امتن الله تعالى على رسوله ﷺ بما أنزله عليه من القرآن العظيم مفرَّقاً منجّماً، فقال:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ أي إنا نحن الإله الحق أنزلنا عليك أيها الرسول القرآن مفرَّقاً منجّماً في الإنزال في مدى ثلاث وعشرين سنة، ولم ننزله جملة واحدة، ليسهل حفظه ووعيه والعمل به، وليتثبت المؤمنون في معالجة الحوادث، ولم تأت به من عندك كما يدّعيه المشركون.

والمراد من ذلك تثبيت قلب الرسول ﷺ في مواجهة افتراءات المشركين الذين نسبوا إليه الكِهانة والسحر، وإعلام الناس قاطبة أن ما جاء به وحي من الله تعالى، لا من عند محمد ﷺ.

وبعد بيان هذه المقدمة، جاء الأمر بالصبر والنهي عن طاعة الكفار، فقال سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ أي كما أكرمتك بما أنزلت عليك من القرآن، فاصبر على قضاء الله وقدره في تأخير نصرك على المشركين، إلى أجل اقتضته حكمته، وفي القيام بتبليغ رسالته ووحيه الذي أوحاه إليك، فلكل أجل كتاب، وسيتولاك ربك بحسن تدبيره، ولا تطع أحداً من الكافرين والمنافقين، المغالين في الكفر، أو مرتكبي الإثم والفجور والمعاصي إن أرادوا صدّك عما أنزل إليك، بل بلّغ ما أنزل إليك من ربِّك، وتوكل على الله، فإن الله يعصمك من الناس. والآثم كما تقدم: هو مرتكب المعاصي، والكفور: هو جاحد النعمة، المغالي في الكفر، فكل كفور آثم، وليس كل آثم كفوراً.

ومن أمثلة الآثم: عتبة بن ربيعة؛ لأنه كان متعاطياً لأنواع الفسوق، يروى أنه قال للنبي ﷺ: ارجع عن هذا الأمر، حتى أزوّجك ولدي، فإني من أجمل قريش ولداً.

ومن أمثلة الكفور: الوليد بن المغيرة؛ لأنه كان شديد الشكيمة في الكفر، روي أنه قال للنبي ﷺ: أنا أعطيك من المال حتى ترضى، فإني من أكثرهم مالاً، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ من أول ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ فصلت إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ١٣] فانصرفا عنه، وقال أحدهما: ظننت أن الكعبة ستقع.

وبالرغم من أنه ﷺ ما كان يطيع أحداً منهم، إلا أنه وجه النهي له؛ لأنه القدوة، وإشارة إلى أن الناس محتاجون دائماً إلى مواصلة التنبيه والإرشاد، لوجود نزعة الشر والفساد في نفوسهم، فلو أن أحداً استغنى عن توفيق الله وإرشاده، لكان أحق الناس بذلك هو الرسول المعصوم ﷺ، فوجب على كل مسلم أن يرغب إلى الله تعالى ويتضرع إليه في أن يصونه عن اتباع الأهواء والشهوات.

ثم عقَّب النهي بالأمر، فقال سبحانه:

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ أي داوم على ذكر الله في جميع الأوقات بالقلب واللسان، وصلِّ لربِّك أول النهار وآخره، فأول النهار: صلاة الصبح، وآخره: صلاة العصر. وكذلك صلِّ لربِّك في الليل، وذلك يشمل صلاتي المغرب والعشاء، وتهجد له طائفة من الليل، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٧٩]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل: ٧٣/١-٤].

وعلى هذا تكون كلمات الآية جامعة الصلوات الخمس، والتهجد. وبعد بيان حال الطائعين، أبان الله تعالى أحوال الكفار والمتمردين، وأنكر عليهم وعلى أشباههم حبّ الدنيا والإقبال عليها، وترك الآخرة وراء ظهورهم، فقال:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ أي إن هؤلاء كفار مكة وأمثالهم يحبون الدار العاجلة، وهي دار الدنيا، ويُقبلون على لذاتها وشهواتها، ويتركون وراءهم ظهرياً يوم القيامة ذا الشدائد والأهوال، فلا يستعدون له، ولا يعبؤون به. وسمي يوماً ثقيلاً: لما فيه من الشدائد والأهوال. والآية تتضمن توبيخ المتمردين واستحقارهم.

وهذا هو الخط الفاصل بين المؤمنين والكافرين، فالمؤمنون يعملون للدنيا والآخرة، والكفار يعملون للدنيا وحدها، وهي النظرة المادية والسلوك المادي النفعي، مما يدل على أن الداعي لهم إلى الكفر هو حبّ العاجل.

ثم أوضح الله تعالى كمال قدرته، وأقام الدليل بالبداءة في الخلق على الرجعة والبعث، فقال: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ

﴿تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ أي كيف يتغافل هؤلاء الكفار عن ربّهم وعن الآخرة، ونحن الذين خلقناهم، وأحكمنا أعضاءهم ومفاصلهم وربطها بالعروق والأعصاب، ولو شئنا لأهلكناهم وجئنا بأطوع لله منهم.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء: ٤/١٣٣] ، وقوله سبحانه: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ، وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/١٩-٢٠] .

وبعد بيان أحوال السعداء وأحوال الأشقياء في الدنيا، أرشد إلى فائدة القرآن فقال:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾ أي إن هذه السورة بما فيها من مواعظ، وترغيب وترهيب، ووعد ووعيد، تذكرة للمتأملين، وتبصرة للمستبصرين، وعظة للعقلاء، فمن شاء الخير لنفسه في الدنيا والآخرة، اتَّخذ طريقاً للتقرب إلى ربّه بالإيمان والطاعة، واجتناب المعصية، ومن شاء اهتدى بالقرآن.

ثم أوضح الله تعالى أن مشيئة العبد في إطار مشيئة الله، ولكن دون قهر ولا جبر، فقال:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ أي وما تشاؤون أن تتخذوا إلى الله سبيلاً إلى النجاة، إلا بمشيئة الله، ولا يقدر أحد أن يهدي نفسه، ولا يدخل في الإيمان، ولا يجر لنفسه نفعاً إلا بتوفيق الله، فالأمر إليه سبحانه، ليس إلى عباده، والخير والشر بيده، فمشيئة العبد وحدها لا تأتي بخير ولا تدفع شراً، إلا إن أذن الله بذلك، ولكن يثاب الإنسان على اختياره الخير، ويعاقب على اختياره الشر، وإن الله تعالى عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له، ويقيّض له أسبابها، وعليم بمن يستحق الغواية، فيصرفه

عن الهدى، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، فيضع الأشياء في محالّها.
والخلاصة: أن جميع ما يصدر عن العبد فبمشيئة الله ولكن دون إجبار.

ثم ختم السورة بخاتمة عجيبة تدل على أن دخول الجنة والنار ليس إلا بمشيئة الله، فقال:

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾ أي يدخل في جنته من يشاء من عباده أن يدخله فيها، فضلاً من الله وإحساناً، ويعذب الظالمين الكافرين الذين ظلموا أنفسهم، فقد أعدَّ لهم في الآخرة عذاباً موجعاً مؤلماً، هو عذاب جهنم.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات الكريمات على ما يأتي:

١ - إن القرآن الكريم كلام الله ووحيه الذي أنزله على عبده محمد ﷺ في مدى ثلاث وعشرين سنة، مفرَّقاً منجَّماً بحسب الحوادث والمسائل، فهو ليس مفترىً به من عنده، ولا جاء به من تلقاء نفسه كما يدّعيه المشركون.

وبما أن السورة تضمنت الوعد والوعيد، فالناس بحاجة ماسة إلى هذا الكتاب، الذي ليس بسحر ولا كهانة ولا شعر، وأنه حق من عند الله. قال ابن عباس: أنزل القرآن متفرّقاً، آية بعد آية، ولم ينزل جملة واحدة، فلذلك قال: ﴿نَزَّلْنَا﴾.

٢ - ما دام هذا القرآن حقاً من عند الله، ودستوراً منقذاً لحياة البشرية من التردي والضياع والضلال، وَجَب الصبر على أذى القوم في تبليغه للناس، والصبر على ما حكم به من الطاعات، ومخالفة أهل الإثم والكفر، وعدم إطاعتهم في شيء من ضلالهم.

وهذا أمر للنبي ﷺ، ونهي له ولكل واحد من أمته.

٣ - إن العبد بأشد الحاجة للارتباط بالله والاستعانة به والاتكال عليه، لذا كانت الصلاة صلة بين العبد وربّه، وتقوية على الإيمان وصلابة الاعتقاد، وتربية المهابة لله في النفس، وتهذيب السلوك. ولأجل هذا أمر الله بذكره ليل نهار، وبالصلاة أول النهار وآخره، وذلك يشمل الصلوات الخمس المفروضة، وزيد عليها التطوع في الليل.

٤ - وبخ الله تعالى الكفار وقرَّعهم على محبتهم الدنيا وحدها، وتركهم العمل للآخرة، فلا يؤمنون بيوم القيامة، ولا يستعدون لمواجهة موقف الحساب العسير الشديد في ذلك اليوم.

٥ - مما يدل على كمال قدرة الله تعالى: أنه هو الذي خلق الناس، وأحكم تركيب أجسادهم، وتشديد مفاصلهم وأوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والأعصاب، وأنه قادر على إهلاك الناس والمجيء بأطوع لله منهم.

٦ - إن هذه السورة وأمثالها من القرآن موعظة وعبرة، فمن أراد الخير لنفسه اتخذ طريقاً موصلاً إلى طاعة ربِّه وطلب مرضاته. لكن الطاعة والاستقامة واتِّخاذ سبيل الله لا تقع قهراً عن الله في ملكه، وإنما بمشيئة الله، فالأمر إليه سبحانه، ليس لعباده، ولا تنفذ مشيئة أحد ولا تتقدم إلا أن تتقدم مشيئة الله، وكل ذلك دون قهر ولا إجبار ولا إكراه من الله على اختيار شيء معين، إنما الاختيار للإنسان، والله عليم بأعمال عباده، حكيم في أمره ونهيه لهم.

٧ - كذلك دخول الجنة برحمة الله، ودخول النار بمشيئة الله، فهو الذي يرحم عباده المؤمنين، ويعذب الظالمين الكافرين عذاباً مؤلماً في نار جهنم، وبئس المصير.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةُ المُرسَلات

مكية، وهي خمسون آية

تسميتها:

سميت سورة المرسلات تسمية لها باسم مطلعها الذي أقسم الله به وهو ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾ أي أقسم برياح العذاب التي تهب متتابعة كعُرْف الفرس، أو شعر الفرس.

مناسبتها لما قبلها:

وجه اتصالها بما قبلها من وجهين:

١ً - أنه تعالى وعد المؤمنين الأبرار، وأوعد الظالمين الفجار في آخر السورة المتقدمة بقوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾ ثم أقسم في مطلع هذه السورة على تحقيق ما وعد به هنالك المؤمنين، وأوعد به الظالمين، ثم ذكر وقته وأشراطه بقوله: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾﴾.

٢ً - ذكر تعالى في سورة الإنسان نزراً من أحوال الكفار في الآخرة، وأطنب في وصف أحوال المؤمنين فيها، والأمر في هذه السورة على العكس: إطناب في وصف الكفار، وإيجاز في وصف المؤمنين، فوقع بذلك الاعتدال بين السورتين[١].

---

(١) البحر المحيط: ٤٠٨/٨

ما اشتملت عليه السورة:

محور هذه السورة المكية الكلام على البعث وأحوال الآخرة، فهي كسائر السور المكية متعلقة بأمور العقيدة، فذكر فيها القسم على وقوع البعث، ثم بيان مقدماته، ثم إيراد بعض دلائل القدرة والوحدانية، وتلاها وصف بعض الأمور الغيبية وأحوال الكفار والمؤمنين في عالم الآخرة، ولوم الكفار على بعض أعمالهم.

افتتحت بالقسم بالرياح والملائكة على وقوع يوم القيامة (أو يوم الفصل) وحدوث العذاب للكفار: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾﴾ [الآيات: ١-٧] وبيان علامات ذلك العذاب ووقته: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الآيات: ٨-١٥].

ثم أوردت بعض دلائل القدرة الإلهية على البعث وإحياء الناس بعد الموت، وهو إهلاك بعض الأمم المتقدمة وخلق الناس، وجعل الأرض كفاتاً (جامعة ضامة لمن عليها) والجبال الشامخات للتثبيت. وتضمن ذلك وعيد الكافرين بعقوبة مماثلة، وتوبيخ المكذبين على إنكار نعم الله عليهم في الأنفس ومخلوقات الأرض: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الآيات: ١٦-٢٨].

ثم حددت مصير المجرمين، ووصفت عذاب الكافرين وصفاً تشيب له الولدان: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَـٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الآيات: ٢٩-٤٠].

ثم وصفت نعيم المؤمنين المتقين، وألوان التكريم والإحسان والإفضال في جنان الخلد: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الآيات ٤١-٤٥].

وختمت السورة بتقريع الكفار وتوبيخهم على بعض أعمالهم، وأبانت سبب امتناعهم عن عبادة الله، وهو طغيانهم وإجرامهم: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الآيات ٤٦-٥٠].

فضلها:

أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غار بمنى، إذ نزلت عليه ﴿وَٱلْمُرْسَلَـٰتِ﴾ فإنه ليتلوها، وإني لأتلقاها من فيه، وإن فاه لرطب بها، إذ وثبت علينا حية، فقال النبي ﷺ: «اقتلوها» فابتدرناها، فذهبت، فقال النبي ﷺ: «وُقيتْ شرَّكم، كما وُقيتم شرَّها» .

وأخرج أحمد عن ابن عباس عن أمه: أنها سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات عرفاً. وفي رواية مالك والشيخين في الصحيحين عن ابن عباس: أن أم الفضل سمعته يقرأ ﴿وَٱلْمُرْسَلَـٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾ فقالت: يا بني أذكرتني

بقراءتك هذه السورة، إنها لآخر ما سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب.

وقوع يوم القيامة حتماً ووقته وعلاماته

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾

القراءات:

﴿أَوْ نُذْرًا﴾:

قرأ أبو عمرو، وحفص، وحمزة، والكسائي (أَوْ نُذْراً). وقرأ الباقون (أَوْ نُذُراً).

﴿أُقِّتَتْ﴾:

وقرأ أبو عمرو (وُقِّتَت).

الإعراب:

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾ إن جعلت ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ بمعنى الرياح، كان ﴿عُرْفًا﴾ منصوباً على الحال، وإن جعلت بمعنى الملائكة كان ﴿عُرْفًا﴾ منصوباً بتقدير حذف حرف جر، أي والمرسلات بعرف، أي بمعروف، والمعنى الأول أظهر.

﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣﴾ عصفاً ونشراً: منصوبان على المصدر المؤكد.

﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾: منصوبان من ثلاثة أوجه: إما على المفعول لأجله، أي للإعذار والإنذار، أو على البدل من ﴿ذِكْرًا﴾ أي فالملقيات عذراً أو نذراً، أو بالمصدر نفسه وهو (ذكر) وتقديره: أن ذكّر عذراً أو نذراً.

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾ ﴿ٱلنُّجُومُ﴾: مرفوع بفعل دلَّ عليه ﴿طُمِسَتْ﴾ وتقديره: إذا طمست النجوم طمست، وجواب إذا مقدر، تقديره: وقع الفصل، أو الجواب: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾.

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١﴾ أصل ﴿أُقِّتَتْ﴾ وقتت، إلا أنه لما انضمت الواو ضماً لازماً، قلبت همزة، كقولهم في وجوه: أُجوه.

البلاغة:

﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤﴾ تأكيد بذكر المصدر لزيادة البيان، وتقوية الكلام.

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ بينهما طباق.

﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤﴾ وضع الظاهر في الجملة الأخيرة موضع الضمير، وجيء بصيغة الاستفهام، لزيادة تهويل الأمر وتعظيمه والتعجيب من هوله.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾ الأظهر أنها الرياح المتتابعة كعرف الفرس: وهو الشعر المتتابع النابت على الرقبة، وقيل: إنها الملائكة المرسلة للمعروف

والإحسان. ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾﴾ الرياح الشديدة. ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾﴾ الأظهر أنها أيضاً الرياح التي تنشر المطر، أو تنشر السحاب في آفاق السماء، كما يشاء الرب عز وجل، وقيل: إنها الملائكة الموكلون بالسحب يسوقونها حيث يشاء الله تعالى لنشر المطر وإحياء الأرض.

﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾ أي الملائكة التي تنزل بالوحي إلى الأنبياء والرسل، لتفرّق بين الحق والباطل، والحلال والحرام، وتلقي بالعلم والحكمة إلى الأنبياء، للإعذار والإنذار، الإعذار من الله للعباد لئلا يبقى لهم حجة عند الله، والإنذار من الله تعالى للناس بالنقمة والعذاب إذا لم يؤمنوا.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾ جواب القسم، أي إن الذي توعدون به يا كفار مكة وأشباهكم من مجيء القيامة والبعث والعذاب كائن لا محالة. ﴿طُمِسَتْ﴾ محقت وذهب نورها. ﴿فُرِجَتْ﴾ شقت وصدعت. ﴿أُقِّتَتْ﴾ جمعت لوقت، وعين لها وقت تحضر فيه للشهادة على الأمم بالتبليغ، قال الزمخشري: والوجه أن يكون معنى (وقتت) بلغت ميقاتها الذي كانت تنتظره وهو يوم القيامة. ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾﴾ أي يقال: لأي يوم أخّرت وأمهلت للشهادة على الأمم بالتبليغ، وهذا القول تعظيم لليوم، وتعجيب من هوله. ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾ بيان ليوم التأجيل، وهو اليوم الذي يفصل فيه بين الخلائق بأعمالهم: إما إلى الجنة، وإما إلى النار. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾ تهويل لشأنه، والمعنى: ومن أين تعلم كنهه ولم تر مثله؟ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ بذلك، وهذا وعيد لهم، والويل: العذاب والخزي. وويل في الأصل: مصدر منصوب بإضمار فعل، عدل به إلى الرفع، للدلالة على ثبات الهلاك للمدعو عليه، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرفه، أو صفته.

التفسير والبيان:

﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۝١ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۝٣﴾ أي أقسم بالرياح المتتابعة كعرف الفرس إذا ذهبت شيئاً فشيئاً، وبالرياح التي ترسل عاصفة لما أمرت به من نعمة ونقمة، وبالرياح التي تنشر السحاب وتفرقه في آفاق السماء كما يشاء الرب عز وجل. وهذا هو الأظهر كما قال ابن كثير وابن جزي صاحب التسهيل لعلوم التنزيل، وقال القرطبي: جمهور المفسرين على أن المرسلات: الرياح.

وقيل: المقصود بالمرسلات: الملائكة المرسلة بوحي الله وأمره ونهيه بالإحسان والمعروف، والعاصفات: الملائكة الموكلون بالرياح يعصفون بها، والناشرات: الملائكة الموكلون بالسحب ينشرونها أو ينشرون أجنحتهم في الجوّ عند النزول بالوحي. وقيل: المراد بهؤلاء وما يأتي: طوائف الأنبياء أرسلوا بالوحي المحقق لكل خير، الذي أخذ أمرهم في العصوف والاشتداد إلى أن بلغ غايته، وانتشرت دعوتهم، ففرقوا بين المؤمن والكافر، والمقر والجاحد، وألقوا الذكر والتوحيد إلى الناس كافة، أو إلى طائفة معينين.

﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٥ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ۝٦﴾ ثم أقسم بالملائكة الذين ينزلون بأمر الله على الرسل بما يفرق بين الحق والباطل، والهدى والغي، والحلال والحرام، ويلقون الوحي إلى الأنبياء، إعذاراً من الله إلى خلقه، وإنذاراً من عذابه إن خالفوا أمره. وقيل: المراد بالفارقات والملقيات: الرياح أيضاً.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ۝٧﴾ هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام، أي إن ما وعدتم به من مجيء الساعة والنفخ في الصور، وبعث الأجساد، وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، ومجازاة كل عامل بعمله خيراً أو شراً، إن هذا كله لواقع وكائن لا محالة.

ثم بيَّن الله سبحانه وقت وقوعه وأشراطه، فقال:

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴿١٠﴾﴾ أي فإذا محي نور النجوم وذهب ضوءها، وفتحت السماء وشقت وصدعت ووهت أطرافها، وقلعت الجبال من مكانها، وذهب بها، وطارت في الجو هباء، فلا يبقى لها عين ولا أثر، واستوى مكانها بالأرض.

ونظير الآية في النجوم: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾﴾ [التكوير: ٨١/ ٢] وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾﴾ [الانفطار: ٨٢/ ٢]. وفي السماء: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق: ٨٤/ ١] وقوله: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ﴿١٩﴾﴾ [النبأ: ٧٨/ ١٩] وقوله: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٥]. وفي الجبال: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴿١٠٥﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١٠٥].

ووجه الجمع بين الرياح في الثلاثة الأول، وبين الملائكة في الرابع والخامس هو اللطافة وسرعة الحركة.

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾﴾ أي وإذا الرسل جمعت وجعل لها وقت للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم، كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة: ٥/ ١٠٩] ويقال لتعجيب العباد من هول ذلك اليوم: لأي يوم عظيم أخرت الأمور المتعلقة بهؤلاء الرسل: وهي تعذيب من كذبهم، وتعظيم من صدّقهم، وظهور ما كانوا قد أوعدوا به الأمم، وخوفوهم من العرض والحساب ونشر الدواوين، ووضع الموازين. والمراد بذلك تهويل أمر هذا اليوم وتعظيم شأنه، وهو يوم القيامة.

ثم أجاب الله تعالى بأنهم أجِّلوا ليوم الفصل بين الخلائق، يفصل فيه بين الناس بأعمالهم، فيُفرَّقون إلى الجنة والنار.

ثم عظم تعالى ذلك اليوم ثانياً، فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾﴾ أيْ وما أعلمك بيوم الفصل، وأيّ شيء شدته ومهابته؟ يعني أنه أمر هائل لا يعرف وصفه، ولا يقدر قدره.

ثم عقبه الله تعالى بتهويل ثالث، فقال:

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي ويل لهم من عذاب الله غداً، في ذلك اليوم المصحوب بالأهوال لمن كذب الله ورسله وكتبه، والويل تهديد بالهلاك، ولا يصح أنه واد في جهنم، كما قال ابن كثير.

وقد كرر هذا التهويل في السورة في تسعة مواضع أخر، لمزيد التأكيد والتقرير، كما مرَّ في سورة الرحمن: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - أقسم الله تعالى بالرياح وبالملائكة جامعاً بينهم بسبب اللطافة وسرعة الحركة، على أن يوم القيامة والبعث حق كائن لا محالة، تحقيقاً لما أوعد الله به الظالمين في السورة السابقة.

والمقصود بالقسم: التنبيه على جلالة المقسم به، ومعروف مدى تأثير الرياح، سواء لإنزال المطر أو لإصابة العذاب، كما أن شرف الملائكة وعلو رتبتهم أمر ظاهر من وجوه: هي شدة مواظبتهم على طاعة الله تعالى، ولتنوع طوائفهم، فمنهم الموكل بإنزال الوحي على الأنبياء، ومنهم المرسل ليلاً أو نهاراً لرصد أعمال بني آدم وكتابتها، والعمل يشمل القول من اللسان والفعل

الصادر من الجوارح (الأعضاء) ومنهم الموكل بقبض الأرواح، ومنهم الذين ينزلون من البيت المعمور إلى الكعبة[١].

٢ً - ثم ذكر الله تعالى متى يقع يوم القيامة وعلاماته (أو أشراطه) وهو يوم ذهاب ضوء النجوم ومحو نورها، كطمس الكتاب، وتشقق السماء (أو انفطارها) وزوال معالمها، ونسف الجبال والذهاب بها دون بقاء أثر لها حتى تسوى بالأرض، وجمع الرسل ليوم القيامة في الميقات المخصص لهم للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم. والخلاصة: هذه مقدمات البعث.

٣ً - عيَّن الله تعالى ميعاد جمع الرسل: وهو يوم الفصل الذي أجِّلوا إليه، فيفصل الله تعالى فيه بين الناس بأعمالهم إلى الجنة أو إلى النار.

٤ً - عظّم الله تعالى ذلك اليوم وأشاع عنه التهويل ثلاث مرات: في قوله: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣)﴾ وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤)﴾ وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥)﴾ أي العذاب والخزي لمن كذّب بالله وبرسله وبكتبه وبيوم الفصل، فهو وعيد شديد.

تخويف الكفار وتحذيرهم من الكفر

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٨)﴾

(١) تفسير الرازي: ٣٠/ ٢٦٥

القراءات:

﴿فَقَدَرْنَا﴾:

وقرأ نافع، والكسائي (فَقَدَّرنا).

الإعراب:

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾: إنما لم يجزم فعل نتبع بالعطف على ﴿نُهْلِكِ﴾ لأنه في نية الاستئناف، وتقديره: ثم نحن نتبعهم.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾﴾ ﴿كِفَاتًا﴾ و﴿وَأَمْوَاتًا﴾ إما منصوبان على الحال، أي نجمعهم في هاتين الحالين، أو أن يكونا بدلاً من ﴿الْأَرْضَ﴾ على معنى أن تكون ﴿كِفَاتًا﴾ إحياء نبت، و﴿وَأَمْوَاتًا﴾ لا تنبت، وتقديره: ألم نجعل الأرض ذات نبات وغير ذات نبات.

البلاغة:

﴿الْأَوَّلِينَ﴾ و﴿الْآخِرِينَ﴾ بينهما طباق، وكذا بين ﴿أَحْيَاءً﴾ و﴿وَأَمْوَاتًا﴾.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾ استفهام تقريري، ومثله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿مَّهِينٍ﴾ ﴿مَّكِينٍ﴾ جناس ناقص غير تام.

المفردات اللغوية:

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾ كقوم نوح وعاد وثمود، وقرئ (نَهْلك) من هلكه بمعنى أهلكه. ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي ثم نحن نتبعهم نظراءهم ككفار مكة، وقرئ بجزم الفعل، عطفاً على ﴿نُهْلِكِ﴾ فيكون المراد من ﴿الْآخِرِينَ﴾ المتأخرين من المهلكين، كأقوام لوط وشعيب وموسى عليهم السلام. ﴿كَذَٰلِكَ

نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ أي مثل ذلك الفعل نفعل بالمجرمين أي بكل من أجرم. ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾ بآيات الله وأنبيائه، والتكرار للتأكيد، أو إن الويل الأول لعذاب الآخرة، وهذا للإهلاك في الدنيا.

﴿مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ من نطفة مذرة ذليلة، أو من ماء ضعيف، وهو المني. ﴿فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ﴾ أي مستقر حريز حصين، وهو الرحم. ﴿إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢٢﴾﴾ إلى زمان معلوم، أو إلى مقدار معلوم من الوقت، وهو وقت الولادة، قدره الله تعالى. ﴿فَقَدَرۡنَا﴾ على تصويره وخلقه. ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾ نحن. ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ بقدرتنا على ذلك، أو على الإعادة. ﴿كِفَاتًا﴾ ضامة جامعة، من كفت الشيء: إذا ضمه وجمعه. ﴿أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ﴿٢٦﴾﴾ الأحياء: ما ينبت، والأموات: ما لا ينبت.

﴿رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ﴾ جبالاً مرتفعة. ﴿فُرَاتٗا﴾ عذباً.

المناسبة:

بعد تحذير الكفار وإنذارهم بأهوال يوم القيامة، أعقبه بتخويفهم وتحذيرهم من الكفر، بالإهلاك كإهلاك الأمم المتقدمة، ثم هددهم بإنكار إحسانه إليهم، مبيناً أمثلة ومظاهر لقدرة الله عز وجل، كخلق الإنسان وحواسه، والأرض وتثبيتها بالجبال الشامخات، وتزويدها بينابيع المياه العذبة، وذلك كله يستدعي شكر نعم الله في النفس والآفاق.

التفسير والبيان:

هدد الله تعالى الكفار بقوله:

﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي ألم نهلك الكفار المكذبين للرسل المخالفين لما جاؤوهم به من الأمم الماضية، من لدن آدم عليه السلام كأقوام نوح وعاد وثمود وغيرهم إلى زمن محمد ﷺ، بالعذاب في

الدنيا، ثم نتبعهم بأمثالهم وأشباههم، وهم كفار مكة حين كذبوا محمداً ﷺ، أهلكهم الله يوم بدر وغيره من المواطن.

وفي هذا وعيد شديد لكل من كفر بالله وتخويف وتحذير من الكفر.

ثم أخبر تعالى بأن تلك سنة الله لا تبديل فيها، مع بيان حكمة الإهلاك، فقال:

﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ أي إن سنتنا في جميع الكفار واحدة، فمثل ذلك الإهلاك للمكذبين بكتب الله ورسله، الذين أجرموا في حق أنفسهم، نفعل بكل مشرك، إما في الدنيا أو في الآخرة.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾ أي الخزي والعذاب يوم ذلك الإهلاك للمكذبين بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر.

ثم وبخهم بتعداد النعم والامتنان عليهم، وبيان آثار القدرة الإلهية عليهم، ومحتجاً بالبداءة على الإعادة فقال:

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ؟ أي ألا ترون وتدركون أننا نحن خلقناه من ماء ضعيف حقير، وهو المني، وضعفه واضح بالنسبة إلى قدرة الباري عز وجل، وجعلناه وجمعناه في مستقر أو مكان حريز حصين، وهو الرحم، ثم أبقاه الله إلى مدة معينة هي مدة الحمل من ستة أشهر إلى تسعة أشهر.

ونحن قدَّرنا أعضاءه وصفاته، وجعلنا كل حال على الصفة التي أردنا، فنعم المقدِّر الله، أو فنعم المقدِّرون له نحن. أو على قراءة التخفيف (فقدَرنا) أي فقدرنا على خلقه وتصويره كيف شئنا، فنعم أصحاب القدرة نحن، حيث خلقناكم في أحسن تقويم.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي خزي وعذاب في ذلك اليوم الهائل، يوم القيامة لمن كذب بقدرتنا على ذلك وبهذه المنن والنعم.

وهذا توبيخ وتخويف من وجهين:

أحدهما - أن النعمة كلما كانت أعظم، كان كفرانها أفحش.

والثاني - أن القادر على الإبداء (الخلق الأول) قادر على الإعادة، فالمنكر لهذا الدليل الواضح يستحق غاية التوبيخ.

ثم عدّ عليهم نِعَم الآفاق الثلاثة بعد ذكر الأنفس، فقال:

أ - ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾﴾ أي ألم نجعل الأرض ضامّة للأحياء على ظهرها في منازلهم، والأموات في بطنها، تضمهم وتجمعهم؟ قال الشعبي: بطنها لأمواتكم، وظهرها لأحيائكم. والكفات: اسم ما يكفت أي يضم ويجمع، ويجوز أن يكون اسماً لما يكفت به، مبنياً للمفعول، كالشداد لصمام يشد به رأس القارورة.

٢، ٣ - ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ أي وأوجدنا في الأرض جبالاً ثوابت عاليات، لئلا تميد وتضطرب بكم، وأسقيناكم من ينابيعها أو من السحاب ماء عذباً زلالاً، وهذا كله أعجب من البعث.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ أي عذاب شديد في الآخرة لمن كذب أو كفر بهذه النعم، وويل لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها، ثم استمر على تكذيبه وكفره.

فقه الحياة أو الأحكام:

ذكر الله تعالى عشرة أنواع من تخويف الكفار وتحذيرهم من الكفر، أذكر منها هنا أربعة وهي:

النوع الأول من التخويف - أنه أقسم في الآيات السابقة على أن اليوم الذي يوعدون به، وهو يوم الفصل، واقع.

النوع الثاني - أنه أهلك الكفرة المتقدمين بسبب كفرهم، وأخبر أنه يفعل مثل ذلك في الأقوام المتأخرين، فلا بدّ أن يهلكهم أيضاً، لتماثلهم مع المتقدمين في علة الإهلاك، وهي التكذيب بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر. وذكر تعالى أن هذا الإهلاك إنما نفعله بهم لكونهم مجرمين، فعمم الحكم جميع المجرمين.

ثم أكد تعالى التخويف بقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ والمراد أن مآلهم في الدنيا الهلاك، وفي الآخرة العذاب الشديد، كما قال تعالى: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١/٢٢] . وهؤلاء وإن أهلكوا وعذبوا في الدنيا، فالمصيبة العظمى والطامة الكبرى معدَّة لهم يوم القيامة.

والنوع الثالث من تخويف الكفار - التذكير بعظيم إنعامه عليهم، والتحذير من مغبة كفران النعمة وإنكار إحسانه إليهم، وهو خلقه الإنسان من النطفة الضعيفة الحقيرة، ثم إيداعها في مكان حريز وهو الرَّحم إلى أن يتم تصويره ويحين وقت ولادته، وذلك لا يمكن من غير قادر عليه، فنعم القادر والمقدِّر وهو الله تعالى.

ووجه التخويف من جانبين كما تقدم:

الأول - أنه كلما كانت نعمة الله عليهم أكثر، كانت جنايتهم في حقه أقبح وأفحش، وكان العقاب أعظم، لذا قال عقيب هذا الإنعام: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

الثاني - أنه تعالى ذكّرهم كونه قادراً على الابتداء، ومن المقرر الظاهر عقلاً عند البشر أن القادر على الابتداء، قادر على الإعادة، فلما أنكروا هذه الدلالة الظاهرة، قال في حقهم: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾[١].

والنوع الرابع من تخويف الكفار - أنه تعالى بعد أن ذكّرهم بالنعم التي له عليهم في الأنفس، ذكّرهم بالنعم التي له عليهم في الآفاق، وذكر ثلاثة أشياء: هي الأرض التي هي كفات الأحياء والأموات، والجبال الرواسي الشامخات، أي الثوابت على ظهر الأرض فلا تزول، العاليات، والماء الفرات الذي هو الغاية في العذوبة.

وأعقب التذكير بهذه النعم في الآفاق في آخر الآية: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ لأن النعم كما تقدم كلما كانت أكثر، كانت الجناية أقبح، فكان استحقاق الذم عاجلاً، والعقاب آجلاً أشدَّ، كما قال الرازي.

هذا وقد استنبط العلماء من آية ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾ حكمين[٢]:

الأول - إذا كانت الأرض ضامَّة تضم الأحياء على ظهورها، والأموات في بطنها، فهذا يدل على وجوب مواراة الميت ودفنه، ودفن شعره وسائر ما يزيله عنه.

والثاني - روي عن ربيعة في النبَّاش (سارق أكفان الموتى) قال: تقطع يده، فقيل له: لِمَ قلت ذلك؟ قال: إن الله عز وجل يقول: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾﴾ فالأرض حِرز. وكانوا يسمّون بقيع الغَرْقد في المدينة كَفْتة؛ لأنه مقبرة تضم الموتى، فالأرض تضم الأحياء إلى منازلهم، والأموات في قبورهم. وأيضاً استقرار الناس على وجه الأرض، ثم اضطجاعهم عليها، انضمام منهم إليها.

---

(١) التفسير الكبير للرازي: ٣٠/ ٢٧٢

(٢) تفسير القرطبي: ١٩/ ١٦١

وكذلك استدل الشافعية بالآية على قطع النباش: بأن الله تعالى جعل الأرض كفاتاً للأموات، فكان بطنها حرزاً لهم، فالنباش سارق من الحرز. هذا.. وأما بقية أنواع تخويف الكفار وتهديدهم، فمحلها الآيات الآتية.

أنواع ثلاثة أخرى من وجوه تخويف الكفار كيفية عذابهم في الآخرة

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

القراءات:

﴿جِمَٰلَتٌ﴾:

قرأ حفص، وحمزة، والكسائي (جِمالة) وقد رسمت بالتاء، فوقف الكسائي بالهاء، والباقون بالتاء.

وقرأ الباقون (جِمالات).

الإعراب:

﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾ وقرئ: (جمالات) : جمع جمالة، وجمالة جمع جَمل، كحَجَر وحِجارة، وذكَر وذِكارة، فعلى هذا (جمالات) جمع الجمع.

﴿لَا يَنطِقُونَ ، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ عطف على ﴿يَنطِقُونَ﴾ كأنه قال: لا ينطقون ولا يعتذرون، كقراءة من قرأ: ﴿لَا يُقْضَىٰ

عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ [فاطر: ٣٦/٣٥] بالياء والنون، كأنه قال: لا يقضى عليهم ولا يموتون. فلو حملت الآية على ظاهرها لتناقض المعنى؛ لأنه يصير التقدير: هذا يوم لا ينطقون فيعتذرون، فيكون ذلك متناقضاً؛ لأن الاعتذار نطق. أو معطوف على يؤذن، ليدل على نفي الإذن، أي لا إذن فلا اعتذار.

البلاغة:

﴿تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ تشبيه مرسل مجمل لحذف وجه الشبه، و﴿كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾ تشبيه مرسل مفصل، وفي التشبيه بالقصر وهو الحصن تشبيه من جهتين: من جهة العظم، ومن جهة الارتفاع. وفي التشبيه بالجمالات وهي القلوس تشبيه من ثلاث جهات: من جهة العظم، والارتفاع، والصفرة.

﴿انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِى ثَلَثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾ أسلوب التهكم، سمى العذاب ظلاً تهكماً وسخرية بهم.

﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ سجع مرصع، وهو توافق الفواصل في الحرف الأخير.

المفردات اللغوية:

﴿انطَلِقُوا﴾ وفي قراءة (انْطَلَقُوا) إخباراً عن امتثالهم للأمر اضطراراً. ﴿إِلَى ظِلٍّ ذِى ثَلَثِ شُعَبٍ﴾ ظل دخان جهنم، إذا ارتفع افترق ثلاث فِرَق، لعظمه، والشعب: الفروع. ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ لا وقاية فيه من حرّ ذلك اليوم، وهو تهكم بهم، وردّ لما أوهم لفظ الظل. ﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ﴾ لا يفيدهم من حرّ اللهب شيئاً، واللهب: شعلة النار. ﴿إِنَّهَا﴾ أي النار. ﴿بِشَرَرٍ﴾ ما تطاير من النار، جمع شرارة. ﴿كَالْقَصْرِ﴾ كالبناء الكبير المشيد في عظمه وارتفاعه. ﴿جِمَلَتٌ﴾ جمع جَمَل، وقرئ: جمالات: جمع الجمع. ﴿صُفْرٌ﴾ في الهيئة

واللون، وقيل: سود، فإن سواد الإبل يضرب إلى الصفرة، والأول تشبيه في العظم والارتفاع، والثاني في العظم والارتفاع واللون، والكثرة والتتابع والاختلاط وسرعة الحركة .﴿هَٰذَا يَوْمُ﴾ أي يوم القيامة، وقرئ: يوماً، أي هذا المذكور واقع يومئذ .﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ فيه بشيء يستحق الذكر، فإن النطق بما لا ينفع كلا نطق .﴿الْفَصْلِ﴾ بين المحق والمبطل .﴿جَمَعْنَاكُمْ﴾ أيها المكذبون من هذه الأمة .﴿وَالْأَوَّلِينَ﴾ من المكذبين قبلكم، فتحاسبون وتعذبون جميعاً. ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾ أي إن كان لكم حيلة في دفع العذاب عنكم، فافعلوها واحتالوا علي. وهذا تقريع لهم على كيدهم للمؤمنين في الدنيا، وإظهار لعجزهم .﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ عذاب يوم القيامة لمن كذب بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، إذ لا حيلة لهم في التخلص من العذاب.

المناسبة:

بعد أن هدد الله تعالى الكفار بعذاب يوم الفصل والقيامة، أبان كيفية عذابهم في الآخرة، بزجهم في النيران، وافتضاحهم على رؤوس الأشهاد، حيث لا عذر لهم ولا حجة في قبائحهم، وتعذيبهم بالتقريع والتخجيل، وتلك أنواع ثلاثة أخرى من أنواع تخويف الكفار وتهديدهم.

التفسير والبيان:

أخبر الله تعالى عما يقال يوم القيامة للكفار المكذبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار، فقال مبيناً النوع الخامس من أنواع التهديد:

﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي يقال للكفار من قبل خزنة جهنم: اركضوا أو سيروا واذهبوا إلى ما كنتم تكذبون به من العذاب الأخروي في الدنيا.

ثم وصف الله تعالى هذا العذاب بأربع صفات، بقوله:

أ - ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ٣٠﴾ هذا تهكم بهم، معناه: سيروا إلى ظل من دخان جهنم متشعب إلى شعب ثلاث أو فِرق، فإن لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان، صار له ثلاث شعب من شدته وقوته. والمراد أنهم يتنقلون من عذاب إلى آخر، وأن العذاب محيط بهم من كل جانب، كما قال تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ [الكهف: ٢٩/١٨] وسرادق النار: هو الدخان فتكون تسمية النار بالظل مجازاً من حيث إنها محيطة بهم من كل جانب، كقوله سبحانه: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾ [الزمر: ١٦/٣٩] وقوله: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ [العنكبوت: ٥٥/٢٩].

٢، ٣ - ﴿لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ٣١﴾ وهذا أيضاً تهكم بهم وتعريض بأن ظلهم غير ظل المؤمنين، فذلك الظل لا يمنع حرّ الشمس، وليس فيه برد ظلال الدنيا، ولا يفيد في ردّ حرّ جهنم عنكم شيئاً؛ لأن هذا الظل في جهنم، فلا يظلهم من حرها، ولا يسترهم من لهيبها، كما جاء في آية أخرى: ﴿فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ٤٢ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ٤٣ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ٤٤﴾ [الواقعة: ٤٢/٥٦-٤٤].

واللهب: ما يعلو على النار إذا اضطرمت، من أحمر وأصفر وأخضر.

٤ - ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ٣٢ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ٣٣﴾ أي إن هذه النار يتطاير منها شرر متفرق، كل شرارة من شررها التي ترمي بها كالقصر (البناء العظيم) في العظم والارتفاع، وكالإبل الصفر في اللون والكثرة والتتابع وسرعة الحركة. وقال الفرَّاء: الصفر سود الإبل؛ لأنها مشربة بصفرة، لذلك سمت العرب سود الإبل صفراً. والأكثرون على أن المراد بهذه الصفرة سواد يعلوه صفرة. والشرر جمع شرارة: وهو ما تطاير من النار في كل جهة.

والمقصود بالتشبيه الأول بيان أن تلك النار عظيمة جداً، والمقصود بالتشبيه الثاني شدة اشتعالها، والتهكم بهم، كأنه قيل: كنتم تتوقعون من وثنيتكم كرامة ونعمة وجمالاً، إلا أن تلك الجمال هي هذه الشرارات التي هي كالجمال، لذا أعقبه بقوله:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾ أي عذاب وخزي في يوم القيامة الهائل للمكذبين لرسل الله وآياته، الذين لا مفر لهم من ذلك العذاب.

ثم وصف تعالى ماذا يكون للكفار في ذلك اليوم من ألوان العذاب الأدبية، وهو النوع السادس من أنواع التخويف، فقال:

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي هذا اليوم لا يتكلمون فيه، لهول ما يرون، وللحيرة والدهشة التي تعتريهم، ولا يأذن الله لهم، فيكون لهم اعتذار، بل قد قامت عليهم الحجة، لذا قال تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٩/٦٦] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [التحريم: ٦٦/٧].

والمراد بهذا النوع بيان أنه ليس لهم عذر ولا حجة فيما ارتكبوا من المفاسد والقبائح والمنكرات، وأنه لا قدرة لهم على دفع العذاب عن أنفسهم. وبيان هذا النوع للدلالة على شدة أهوال القيامة.

وإنما لم يؤذن لهم في الاعتذار؛ لأنه تعالى قدّم الإنذار في الدنيا، بدليل قوله في مطلع السورة: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾. ولهذا قال في آخر هذا الإخبار:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي عذاب يوم القيامة للمكذبين بما أنذرتهم به الرسل من العذاب في الدنيا، إن استمروا على الكفر، وخالفوا أوامر الرسل.

ثم أخبر الله تعالى عن النوع السابع من أنواع تهديد الكفار، فقال:

﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ أي ويقول الخالق لهم: هذا يوم الفصل الذي يفصل فيه بين الخلائق، ويتميز فيه الحق من الباطل، جمعناكم بقدرتنا يا معشر كفار قريش وأمثالكم المتأخرين على مرّ الدهور فيه مع الكفار الأولين، وهم كفار الأمم الماضية، في صعيد واحد، ولجزاء واحد.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾ أي إن قدرتم أيها الكفار بحيلة ما على أن تتخلصوا من العذاب، فافعلوا، فإنكم لا تقدرون على ذلك. وهذا نهاية في التقريع والتحقير والتخجيل والتعجيز والتوبيخ، وهو من جنس العذاب الروحاني، لذا قال عقيبه:

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أي عذاب يوم القيامة لكل من كذب بالبعث؛ لأنه ظهر لهم عجزهم وفقدوا كل أمل لهم بالنجاة من العقاب.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه ثلاثة أنواع أخرى من تخويف الكفار إضافة للأنواع الأربعة المتقدمة:

النوع الخامس - بيان كيفية عذابهم في الآخرة: يقال للكفار تبكيتاً وتهكماً وتقريعاً من خزنة جهنم: سيروا إلى ما كذبتم به من العذاب وهو النار، فقد شاهدتموها عياناً.

وعذاب النار له أوصاف أربعة: يتشعب ظله أو دخانه إلى ثلاث شعب، كما هو شأن الدخان العظيم إذا ارتفع تشعب، وليس كالظل الذي يقي حرّ الشمس، ولا يدفع من لهب جهنم شيئاً، وترمي النار بشرارات، كل شرارة كالقصر: البناء العالي، في العظم والارتفاع، مما يدل على أن تلك النار عظيمة جداً، وهي أيضاً كالجمالات الصُّفْر: وهي الإبل السود، والعرب تسمي السُّود من الإبل صفراً، مما يدل على أن تلك النار شديدة الاشتعال كثيفة، متتابعة، سريعة الالتهاب.

وذكر القرطبي أن في هذه الآية دليلاً على جواز ادّخار الحطب والفحم، وإن لم يكن من القوت، فإنه من مصالح المرء، مما يقتضي أن يكتسبه في غير وقت حاجته؛ ليكون أرخص، وحالة وجوده أمكن، كما كان النبي ﷺ يدّخر القوت في وقت عموم وجوده من كسبه وماله، وكل شيء محمول عليه[١].

النوع السادس - بطلان الحجة، وفقد العذر، والعجز: أبان تعالى أنه ليس للكفار يوم القيامة عذر ولا حجة فيما ارتكبوا من القبائح، ولا قدرة لهم على دفع العذاب عن أنفسهم، فاجتمع عليهم عذاب التخجيل والعذاب الجسماني وهو مشاهدة النار وأهوالها.

النوع السابع - التعذيب بالتقريع والتخجيل: يقال للكفار يوم القيامة: هذا اليوم الذي يفصل فيه بين الخلائق، فيتبين المحقّ من المبطل، والذي جمع فيه في صعيد واحد أوائل الكفار وأواخرهم، سواء الذين كذبوا الرسل المتقدمين قبل نبينا، أو كذبوا محمداً ﷺ. وقد تحداهم الله تعالى بأن يجدوا لأنفسهم ملجأ أو وقاية من العذاب على المعاصي التي اقترفوها في الدنيا، ولكنهم يعجزون عن ذلك وعن الدفع عن أنفسهم.

ويكون الفصل فيما بين العباد بعضهم مع بعض من حقوق وظلامات، فهذا يدعي على آخر أنه ظلمه، أو قتله، وآخر يدعي أنه اغتصب منه شيئاً أو سرق ماله، وهكذا.

أما ما يتعلق بحقوق الله تعالى فلا حاجة فيه للفصل، وإنما يلقى العبد الثواب الذي يستحقه على عمله الصالح، والعقاب الذي يجازى به على عمله السيئ، إلا أنه فيما يتعلق بجانب العبد، فإنه تقرر عليه أعماله التي عملها، حتى يعترف[٢].

---

(١) تفسير القرطبي: ١٩/ ١٦٥

(٢) تفسير الرازي: ٣٠/ ٢٨١

الأنواع الباقية من تهديد الكفار وتعذيبهم

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

القراءات:

﴿وَعُيُونٍ﴾:

وقرأ ابن كثير، وابن ذكوان، وحمزة، والكسائي (وعِيون). وقرأ الباقون (وعُيون).

﴿قِيلَ﴾:

بإشمام كسرة القاف الضم، قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

الإعراب:

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾، المقدر في الظرف الآتي بعده، أي هم مستقرون في ظلال، مقولاً لهم ذلك. و﴿هَنِيٓـًٔا﴾ حال أي متهنئين.

﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا﴾ حال من المكذبين، أي الويل ثابت لهم، في حال ما يقال لهم: كلوا وتمتعوا.

البلاغة:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا

بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ مقابلة، قابل الجملة الأخيرة بقوله بعدئذ: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ مجاز مرسل، أطلق الركوع، وأراد به الصلاة، فهو من قبيل إطلاق البعض وإرادة الكل.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾ سجع مرصع، وهو توافق الفواصل في الحرف الأخير.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾ أي إن المؤمنين المتقين من الشرك، الذين هم في مقابلة المكذبين، هم في ظلال وارفة تحت أشجار متكاثفة في الجنة؛ إذ لا شمس يظل من حرها، وعيون - أي أنهار - نابعة بالماء، ويتمتعون بفواكه مما يشتهون، فهم مستقرون في أنواع الترفّه. وفيه دلالة على أن نعم الجنة بحسب الرغبة والميل، بخلاف الدنيا تكون بحسب ما يجد الناس في الأغلب. والفرق بين الظل والفيء: أن الظل أعم من الفيء، فيقال: ظل الليل وظل الجنة وظل الجدار، أما الفيء: فهو ما زالت عنه الشمس.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ أي متهنئين، أي يقال لهم ذلك. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الطاعة .﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ أي كما جزينا المتقين نجزي المحسنين .﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ أي يقال للكفار في الدنيا تهديداً لهم: كلوا ما شئتم في الدنيا، وتمتعوا بنعيمها مدة قليلة من الزمان يعقبها الموت، ثم تنالون عقابكم وننتقم منكم على كفركم وتكذيبكم لرسلنا، فإنكم مشركون بالله، لا تستحقون الإنعام والتكريم .﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ حيث عرّضوا أنفسهم للعذاب الدائم بالتمتع القليل.

﴿ارْكَعُوا﴾ صلوا .﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ لا يصلُّون، واستدل به على أن الأمر

للإيجاب، وأن الكفار مخاطبون بالفروع. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي بأي كلام يصدقون إذا لم يصدقوا بهذا القرآن؟ فهو معجز في ذاته، مشتمل على الحجج الواضحة والمعاني الكريمة، ولا يمكن إيمانهم بعدئذ بغيره من كتب الله، بعد تكذيبهم به.

سبب النزول:

نزول الآية (٤٨):

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾: أخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ قال: نزلت في ثقيف، امتنعوا من الصلاة، فنزل ذلك فيهم. وقال مقاتل: قال لهم النبي ﷺ: «أسلموا» وأمرهم بالصلاة، فقالوا: لا ننحني فإنها مَسَبَّة علينا، فقال النبي ﷺ: «لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود».

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى أنواع العذاب والخزي والنكال على الكفار، قابل ذلك للعظة والعبرة بأحوال المؤمنين في الآخرة، وبيَّن ما لهم من أنواع السعادة والكرامة، فتتضاعف حسرة الكافر، وتتزايد غمومه وهمومه، وهذا من جنس العذاب الروحاني.

ثم وبَّخ الله تعالى الكفار وهددهم بزوال نعم الدنيا في وقت قصير، وتعرضهم للآفات العظيمة في الآخرة، ثم ذكرهم بتقصيرهم في طاعة الله، وإهمالهم فريضة الصلاة، وتركهم الإيمان بالقرآن الذي لا جدوى من الإيمان بغيره من الكتب السماوية الأخرى التي بادت وتبدلت ونسخت.

والخلاصة: تضمنت هذه الآيات ثلاثة أنواع أخرى من تخويف الكفار وتعذيبهم.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن عباده المتقين الذين عبدوه بأداء الواجبات، وترك المحرمات، وعن أحوالهم يوم القيامة، فيقول:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي يكون المتقون في الآخرة في جنات وظلال وارفة تحت الأشجار والقصور، وتحيط بهم العيون الجارية والأنهار المتدفقة، بخلاف ما يكون فيه الكفار الأشقياء من ظل اليحموم وهو الدخان الأسود المنتن، والنار المستعرة بهم.

ونظير الآية: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس: ٣٦/٥٦].

﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي ولديهم أنواع من الفواكه والثمار، مما تطلبه أنفسهم، وتستدعيه شهواتهم، فمهما طلبوا وجدوا.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي ويقال لهم في الآخرة بدليل قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على سبيل الإحسان إليهم والتكريم: كلوا أيها المتقون من طيبات الجنة وفواكهها، واشربوا متهنئين بسبب ما كنتم تعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة. وهذا أمر إكرام، لا أمر تكليف، وهذا أيضاً من جنس العذاب الروحاني بالنسبة إلى الكافرين حين يرون الذين اتقوا الشرك في النعيم المقيم.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ أي هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل، ومثل ذلك الجزاء العظيم لهؤلاء المتقين نجزي المحسنين في أعمالهم، فلا نضيع لهم أجراً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ١٨/٣٠].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ أي عذاب وخزي يوم القيامة للمكذبين بالله

ورسله وبما أخبر الله من تكريم هؤلاء المتقين في الآخرة، حيث صاروا في شقاء عظيم، وصار المؤمنون في نعيم مقيم. وهذا هو النوع الثامن من أنواع تهديد الكفار.

ثم خاطب الله تعالى المكذبين بيوم الدين، وأمرهم على سبيل التهديد والوعيد، فقال:

﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ أي يقال لهم في الدنيا[1]: كلوا من مآكل الحياة ولذائذها، وتمتعوا بخيراتها زماناً قليلاً، ومدة قصيرة تزول بانتهاء العمر، ثم تساقون إلى نار جهنم، فإنكم مشركون بالله. وهذا إن خوطبوا به في الآخرة توبيخ وتذكير بحالهم السمجة، وبما جنوا على أنفسهم من إيثار المتاع القليل على النعيم المقيم، وعلل ذلك بكونهم مجرمين إيعاداً لكل مجرم.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ أي عذاب لأولئك المشركين المكذبين بأوامر الله تعالى ونواهيه، وبما أخبرهم به أنه فاعل بهم، كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٤].

وهذا هو النوع التاسع من أنواع تخويف الكفار، ثم ذكر بعده النوع العاشر، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي وإذا أمروا بالصلاة لا يصلون، فهم مستكبرون عن طاعة الله تعالى. وهذا ذم على ترك الخشوع والتواضع لله بقبول وحيه وأمره وتكليفه.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ بأوامر الله سبحانه ونواهيه.

ثم ختم السورة بالتعجب من الكفار، فقال:

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن وما فيه من

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٠٨

الدلائل على وجود الله تعالى وتوحيده وصدق نبيه ﷺ، فبأي كلام بعده يصدقون؟ فالقرآن فيه كل ما يرشد إلى الخير وسعادة الدارين.

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة كان إذا قرأ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾ فقرأ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾ قال: فليقل: آمنت بالله وبما أنزل.

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت هذه الآيات الأنواع الثلاثة الأخيرة من أنواع تخويف الكفار العشرة وتعذيبهم:

النوع الثامن - مضاعفة حسرة الكفار، وتزايد غمومهم وهمومهم: وهو من جنس العذاب الروحاني، فإنهم إذا وجدوا ما أعد الله للمتقين المؤمنين من أنواع السعادة والكرامة، تحسروا واغتموا، وكانت حالهم في غاية الذل والهوان والخزي.

لقد أخبر الله تعالى عما يصير إليه المتقون غداً من الاستمتاع والاستقرار بظلال الأشجار وظلال القصور، في مواجهة الشعب الثلاث لظل النار، والتمتع بالفواكه التي يطلبونها ويتمنونها، ويقال لهم غداً: كلوا واشربوا متهنئين، بدل ما يقال للمشركين: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ۝٣٩﴾. وهذا هو الثواب الذي يثيب الله به الذين أحسنوا في تصديقهم بمحمد ﷺ وأعمالهم في الدنيا.

والنوع التاسع - وعيد الكفار وتهديدهم إذ يقال لهم في الدنيا: كلوا وتمتعوا زمناً قليلاً، فإنكم مجرمون مشركون بالله، ومجازون بسوء أعمالكم، فقد عرضتم أنفسكم للعذاب لأجل حب الدنيا، والرغبة في طيباتها وشهواتها القليلة الفانية بالنسبة لتلك الآفات العظيمة التي تلقونها يوم القيامة.

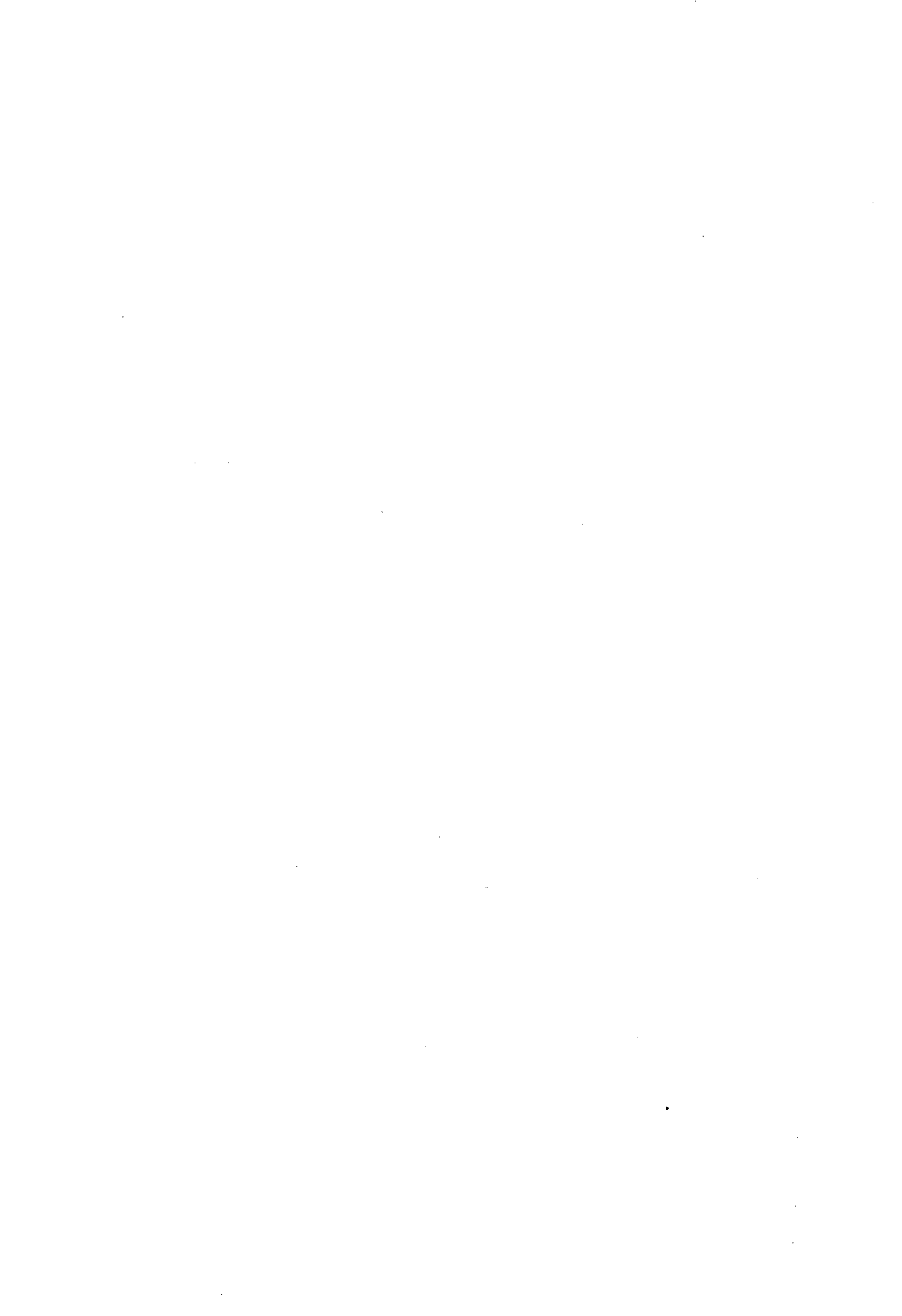
والنوع العاشر - توبيخهم وتقريعهم على جهلهم وكفرهم وتعريضهم

أنفسهم للعقاب الشديد، وعدم انقيادهم لطاعة الله، وعدم أداء فريضة الصلاة، فإذا أمروا بها لم يؤدوها.

وقد كرر تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾ بعد كل نوع لتأكيد التخويف والوعيد.

ثم ختم الله السورة بعظة بليغة موجزة وهي أنه إن لم يصدقوا بالقرآن الذي هو المعجز والدال قطعاً على صدق الرسول ﷺ، فبأي شيء يصدقون؟!!

انتهى هذا الجزء التاسع والعشرون ولله الحمد



بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

الجزء الثلاثون



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النبإ

مكية، وهي أربعون آية

تسميتها:

تسمى سورة ﴿عَمَّ﴾ وسورة (النبأ) لافتتاحها بقول الله تبارك وتعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢)﴾ وهو خبر القيامة والبعث الذي يهتم بشأنه، ويسأل الناس عن وقت حدوثه.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها وهي المرسلات من وجوه ثلاثة:

١ - تشابه السورتين في الكلام عن البعث وإثباته بالدليل، وبيان قدرة الله عليه، وتوبيخ الكفار المكذبين به، ففي المرسلات: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦)﴾ ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠)﴾ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥)﴾ وفي هذه قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦)﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥)﴾ الآيات: [٦-٢٥].

٢ - اشتراك السورتين في وصف الجنة والنار، ونعيم المتقين وعذاب الكافرين، ووصف يوم القيامة وأهواله.

٣ - فصّلت هذه السورة ما أُجْمِلَ في السورة المتقدمة، فقال تعالى في المرسلات: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾ [١٢-١٤] وقال سبحانه في هذه السورة: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾﴾ [١٧] إلى آخر السورة.

ما اشتملت عليه السورة:

إن محور السورة إثبات البعث بالأدلة المختلفة، لذا ابتدأت السورة بوصف تساؤل المشركين عنه، والإخبار عن يوم القيامة، وما يتبعه من البعث والنشور والجزاء، وأعقبته بتهديد المشركين على إنكارهم إياه: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [١-٥].

ثم أقامت الأدلة والبراهين على إمكان البعث، بتعداد مظاهر قدرة الله على الخلق والإبداع وإيجاد مختلف عجائب الكون، مما يدل على إمكان إعادة الناس بعد الموت: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [٦-١٦].

ثم حددت السورة ميقات البعث وميعاده، وهو يوم الفصل بين الخلائق الذي يجمع فيه الأولون والآخرون: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [١٧-٢٠].

ثم وصفت ألوان عذاب الكافرين، وأنواع نعيم التقين، بطريق المقابلة والموازنة، والجمع بين الترغيب والترهيب: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾ ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾ [٢١-٣٨].

وختمت السورة بالإخبار بأن هذا اليوم حق لا ريب فيه، وبإنذار الكفار بالعذاب الأليم القريب الذي يتمنون من شدته أن يعودوا تراباً.

والسورة كلها يشيع فيها جو التهويل والتخويف، والتهديد والإنذار، حتى لكأن التالي لها يكاد يلمس الصور الرهيبة لأحداث القيامة، ويتملكه الذعر والخوف من شدائدها وأحوالها.

الإخبار عن البعث وأدلة إثباته

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾

الإعراب:

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾﴾ ﴿عَمَّ﴾ أصله: عن ما، إلا أنه لما دخلت (عن) على (ما) الاستفهامية، حذفت ألفها للفرق بين الاستفهام والخبر.

﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ إما بدل من ﴿عَمَّ﴾ بإعادة الجار، أو متعلق بفعل مقدر، دلَّ عليه ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ ولا يكون بدلاً؛ لأنه لو كان بدلاً، لوجب أن تكرر (عمَّ).

﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾﴾ أي مختلفين، حال من الكاف والميم في ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ﴾.

﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ ﴿أَلْفَافًا﴾ صفة جنات، وهو إما جمع لِفّ مثل جذع

وأجذاع، أو جمع الجمع لكلمة (لُفّ) جمع ألفّ ولفّاء، وفُعل بضم الفاء يجمع على أفعال، فيكون جمع الجمع. وقال أبو عبيدة: واحدها لفيف، كشريف وأشراف.

البلاغة:

﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ إيجاز بحذف الفعل، لدلالة المتقدم عليه، أي يتساءلون عن النبأ العظيم.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ تشبيه بليغ، أي جعلنا الأرض كالمهاد الذي يفترشه النائم، والجبال كالأوتاد التي تثبت غيرها. ومثله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾ أي كاللباس في الستر.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ بينهما مقابلة، قابل بين الليل والنهار، والراحة والعمل.

﴿أَوْتَادًا﴾ ﴿أَزْوَٰجًا﴾ ﴿سُبَاتًا﴾ ﴿لِبَاسًا﴾ ﴿مَعَاشًا﴾ ﴿شِدَادًا﴾ ﴿وَهَّاجًا﴾ ﴿ثَجَّاجًا﴾ ﴿وَنَبَاتًا﴾ ﴿أَلْفَافًا﴾ سجع مرصع.

المفردات اللغوية:

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾ أي عن أي شيء يسأل بعض أهل مكة بعضاً، ومعنى الاستفهام: تفخيم شأن ما يتساءلون عنه، كأنه لفخامته خفي جنسه، فسئل عنه. وقد كان التساؤل من أهل مكة عن البعث فيما بينهم، أو يسألون الرسول ﷺ والمؤمنين عنه استهزاء. ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ عن خبر يوم البعث المهم، وهو بيان شأن المفخم. ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ يترددون فيه بين الإقرار والإنكار أو بين الإثبات والنفي.

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم وزجر، لرد الكلام المتقدم ونفيه، والردع عن التساؤل

والوعيد عليه. ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ ما يحل بهم على إنكارهم للبعث. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ تأكيد وتكرير للمبالغة، وجيء بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ للإشعار بأن الوعيد الثاني أشد من الأول.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾﴾ ممهدة مذللة فراشاً، كالمهد في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٢٠/ ٥٣]. والاستفهام للتقرير، وهذا بدء ببيان القدرة على البعث بالتذكير ببعض عجائب الكون التي أبدعها الله. ﴿أَوْتَادًا﴾ لتثبيت الأرض، كما تثبت الخيام بالأوتاد: جمع وتِد: وهو ما يدق في الأرض لربط حبال الخيمة التي تشد بها. ﴿أَزْوَٰجًا﴾ ذكوراً وإناثاً. ﴿سُبَاتًا﴾ راحة لأبدانكم بقطع الحركة وإيقافها. ﴿لِبَاسًا﴾ كاللباس في الستر، وهو ما يلبسه الإنسان لستر جسمه، أي إنه تعالى جعل الليل غطاء يستتر بظلمته من أراد الاختفاء.

﴿مَعَاشًا﴾ وقتاً لتحصيل أسباب المعاش أو المعايش. ﴿سَبْعًا﴾ سبع سماوات. ﴿شِدَادًا﴾ أي سبع سماوات قوية محكمة لا يؤثر فيها مرور الزمان، ولا تصدع فيها. ﴿سِرَاجًا﴾ ما يضيء وينير. ﴿وَهَّاجًا﴾ وقاداً متلألئاً، والمراد به الشمس.

﴿ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ السحب والغيوم التي حان لها أن تعصر الماء، فيسقط منها. ﴿ثَجَّاجًا﴾ أي مطراً صباباً كثير الهطول، جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي عن ابن عمر: «أفضل الحج العَجّ والثَّجّ» العج: رفع الصوت بالتلبية، والثج: إراقة دم الهدي. ﴿حَبًّا﴾ ما يقتات به الإنسان كالحنطة والشعير والذرة. ﴿وَنَبَاتًا﴾ ما تقتات به الدواب من التبن والحشيش. ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ بساتين وحدائق، جمع جنة. ﴿أَلْفَافًا﴾ ملتفة الأشجار والأغصان، يلتف بعضها ببعض.

سبب النزول:

نزول الآية (١):

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ①﴾: أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن البصري قال: لما بعث النبي ﷺ جعلوا يتساءلون بينهم، فنزلت: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ① عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ②﴾.

التفسير والبيان:

ينكر الله تعالى على المشركين تساؤلهم عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعها، فيقول: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ① عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ② الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ③﴾ أي عن أي شيء يتساءل المشركون من أهل مكة وغيرهم فيما بينهم؟ ثم أجاب الله تعالى عن هذا السؤال بقوله: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ②﴾ أي عن الخبر المهم الهائل، العظيم الشأن الذي اختلفوا في أمره، بين مكذِّب ومصدِّق، وكافر ومؤمن به، ومنكر ومُقرّ، وشاكّ ومُثْبت، وهو يوم البعث بعد الموت، كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ㊲﴾ [المؤمنون: ٢٣/٣٧] وقوله: ﴿مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٤٥/٣٢] .

وقال مجاهد في تفسير النبأ العظيم: هو القرآن، قال ابن كثير: والأظهر الأول أي إنه البعث بعد الموت؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ③﴾ وقال الرازي: إنه يوم القيامة، وهو الأقرب.

والمراد من الاستفهام تفخيم الأمر وتعظيمه وتعجيب السامعين من أمر المشركين. وإيراد الكلام في صورة السؤال والجواب، أقرب - كما قال الرازي - إلى التفهيم والإيضاح، وتثبيت الجواب في نفوس الناس السائلين، كما في قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ٤٠/١٦] .

ثم ردَّ الله تعالى عليهم متوعداً إنكارهم القيامة بقوله:

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ أي لا ينبغي لهم أن يختلفوا في شأن البعث، فهو حق لا ريب فيه، وسيعلم الذين يكفرون به عاقبة تكذيبهم. وكلمة ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم وزجر، ثم كرر الردع والزجر بالجملة الثانية، أي فليزدجروا عما هم فيه من الكفر والتكذيب، فإنهم سيعلمون قريباً حقيقة الأمر إذا حلَّ بهم العذاب.

وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، قال أهل المعاني: تكرير الردع مع الوعيد دليل على غاية التهديد. وفي ﴿ثُمَّ﴾ إشارة إلى أن الوعيد الثاني أبلغ من الأول.

ثم أورد الله تعالى بعض مظاهر قدرته العظيمة على خلق الأشياء العجيبة الدالة على قدرته على أمر المعاد وغيره، فقال معدداً تسعة أشياء تثبت صحة البعث والحشر الذي أنكروه، وتدل على قدرته على جميع الممكنات وعلمه بجميع المعلومات:

١ - ٢ - ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ أي كيف تنكرون البعث، وقد عاينتم أدلة قدرة الله التامة، من جعل الأرض ممهدة مذللة للخلائق، كالمهد للصبي: وهو ما يمهد له من الفراش، فينوَّم عليه، وجعل الجبال الراسيات كالأوتاد للأرض، لتسكن ولا تتحرك، وتهدأ ولا تضطرب بأهلها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات: ٧٩/ ٣٢] .

٣ - ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾﴾ أي وأوجدناكم أصنافاً: ذكوراً وإناثاً، للأنس والتعاون والحفاظ على النوع البشري، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٢١] .

٤ - ٥ - ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾ أي وجعلنا

نومكم راحة لأبدانكم وقطعاً للحركة ولأعمالكم المتعبة في النهار، فبالنوم تتجدد القوى، وينشط العقل والجسم، والسبات: أن ينقطع عن الحركة، والروحُ في بدنه. وجعلنا الليل سكناً وكاللباس الذي يغطي بظلامه الأشياء والأجسام، فكما أن اللباس يغطي الجسد ويقيه من الحر والبرد، ويستر العورات، كذلك الليل يستتر فيه من أراد الاختفاء لقضاء مصالح وتحقيق فوائد لا تتيسر في النهار، كالاستتار من العدو وقضاء بعض الحوائج.

٦ - ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ أي وجعلنا وقت النهار مشرقاً مضيئاً ليتمكن الناس من تحصيل أسباب المعايش والتكسب والتجارة والزراعة والصناعة ونحو ذلك من موارد الرزق.

٧ - ٨ - ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ أي وبنينا فوقكم سبع سماوات قوية الخلق، محكمة البناء، متقنة الصنع، مزينة بالكواكب الثوابت والسيارات، وجعلنا الشمس سراجاً منيراً على جميع العالم، يستضاء به، ويستنار بنوره، ويشع بحرارته، فإن الوهج يجمع النور والحرارة، وبهما تستفيد جميع الكائنات الحية.

٩ - ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ أي وأنزلنا من السحب والغيوم التي تنعصر بالماء ولم تمطر بعد مطراً منصباً بكثرة، كثير السيلان، لنخرج بذلك الماء الكثير الطيب النافع حباً يقتات به الناس، كالحبوب المختلفة من قمح وشعير وذرة وأرز، ونباتاً تأكله الدواب من التبن والحشيش وسائر النبات، وبساتين وحدائق ذات بهجة وأغصان ملتفة على بعضها وثمرات متنوعة وألوان مختلفة وطعوم وروائح متفاوتة، وإن كان ذلك في بقعة واحدة، كما قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ٤].

والثج: الصب الكثير المتتابع، ومنه قول النبي ﷺ فيما أخرجه الترمذي عن ابن عمر: «أفضل الحج: العجُّ والثجّ» أي رفع الصوت بالتلبية، وصب دماء البُدْن أو الهدي وإراقتها.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - تفخيم شأن البعث وتهويله وتعظيم أمره، وتأكيد وقوعه وأنه حق ثابت لا ريب فيه.

٢ً - سيعلم الكفار المكذِّبون صدق ما جاء به محمد ﷺ من القرآن، ومما ذكره لهم من البعث بعد الموت، حين يحل بهم العذاب والنكال. وفيه وعيد بعد وعيد.

٣ً - ردَّ الله تعالى على المشركين منكري البعث، وأثبت لهم قدرته على البعث والمعاد والحشر والنشر من خلال الإتيان بما هو مشاهد معاين لهم، وهو إيجاد عجائب المخلوقات، والقدرة على إيجاد هذه الأمور أعظم من القدرة على الإعادة.

٤ً - ذكر الله تعالى من عجائب مخلوقاته الدالة على كمال القدرة وتمام العلم والحكمة أموراً تسعة: هي جعل الأرض ممهدة مذللة كالمهد للصبي، وهو ما يمهد له فينوّم عليه، وجعل الجبال للأرض كالأوتاد التي تشدّ بها حبال الخيام، لتسكن وتثبت ولا تميل بأهلها، وخلق الناس أصنافاً: ذكوراً وإناثاً وأضداداً متقابلين حسناً وقبحاً وطولاً وقصراً ليكتمل الكون، ويزهو بالجمال والأنس، ويتيسر التعاون، ويستمر بقاء النوع الإنساني.

وتصيير النوم راحة للأبدان وقطعاً للحركة والأعمال التي يكابد بها الإنسان طوال النهار، فتتجدد قواه، ويستعيد نشاطه، فالنوم يزيل التعب عن الإنسان.

وجعل الليل بظلمته كاللباس ساتراً، أو سكناً للناس، فظلمة الليل تستر الإنسان عن العيون إذا أراد هرباً من عدو، أو بياتاً له، أو إخفاء ما لا يحب الإنسان إطلاع غيره عليه، وأيضاً فكما أن الإنسان بسبب اللباس يزداد جماله وتتكامل قوته، ويندفع عنه أذى الحر والبرد، فكذا لباس الليل، بسبب ما يحصل فيه من النوم، يزيد في جمال الإنسان، وفي طراوة أعضائه، وفي تكامل قواه الحسية والحركية، ويندفع عنه أذى التعب الجسماني، وأذى الوساوس والأفكار الموحشة.

وجَعْل النهار وقت معاش، يتردد فيه الناس لطلب معايشهم: وهي كل ما يُعاش به من المطعم والمشرب وغير ذلك.

وبناء سبع سماوات محكمات، محكمة الخلق، وثيقة البنيان، وجعل الشمس سراجاً منيراً مضيئاً وقاداً متلألئاً، وفي كل ذلك خير ونفع للإنسان. وإنزال الأمطار من السحب المحفلة بالماء، فيحدث منها الغيث الذي يحيي الأرض بعد جدبها، وينعش النفوس والأجسام بعد عنائها وتكدرها، ويخرج به الحب للإنسان كالحنطة والشعير وغير ذلك، والنبات للحيوان وهو ما تأكله الدواب من الحشيش، وتوجد به البساتين والحدائق الغناء التي تلتف أغصانها بعضها ببعض لكثرة تشعبها، وتزهو بالخضرة والنضرة والجمال، والثمار والألوان، والطعوم والروائح.

وهذه الأمور التسعة نظراً لحدوثها وإمكانها وتجددها تدل على وجود الفاعل المختار، كما يدل ما فيها من الإتقان والإحكام على كمال العلم والحكمة الذاتية، وإذا ثبت كمال الله تعالى في هذه الأوصاف، ثبت قطعاً إمكان الحشر دون أي شك، ثم في إخراج النبات بعد جفافه ويبسه دليل ظاهر حسي قريب للأذهان على إمكان إخراج الموتى من القبور، وبعثهم بعد الموت أحياء.

وفضلاً عن ذلك، فإن كل أمر من الأمور التسعة نعمة عظمى، يجب أن تشكر بالتوفر على الطاعة، ولا تُكْفَر بالإقدام على المعصية[١].

٥ - آية ﴿لِنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ تشمل كل أنواع النبات الثلاثة التي تنبت من الأرض: وهي ما له أكمام وهو الحب، وما لا يكون له أكمام وهو الحشيش، وهذان النوعان لا ساق لهما، والنوع الثالث: هو ما له ساق وهو الشجر، فإذا اجتمع منها شيء كثير سميت جنة[٢].

أوصاف يوم القيامة وأماراته ونوع عذابه

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾

القراءات:

﴿وَفُتِحَتِ﴾: قرئ:

١- (وَفُتِحت) وهي قراءة عاصم، وحمزة، والكسائي.

٢- (وَفُتِّحت) وهي قراءة الباقين.

﴿لَّـٰبِثِينَ﴾:

---

(١) غرائب القرآن: ٣٠/ ٧

(٢) تفسير الرازي: ٣١/ ٩

وقرأ حمزة (لبثين).

﴿وَغَسَّاقًا﴾:

قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف (وغسّاقاً).

وقرأ الباقون (وغسَاقاً).

الإعراب:

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ منصوب على البدل من ﴿يَوْمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾. ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ ﴿لَّٰبِثِينَ﴾ حال مقدر، أي مقدّرين اللبث، و﴿أَحْقَابًا﴾ منصوب على الظرف، وعامله ﴿لَّٰبِثِينَ﴾. وذكر ﴿أَحْقَابًا﴾ للكثرة، لا لتجديد اللبث، كقولك: أقمت سنين وأعواماً.

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ ﴿لَّا يَذُوقُونَ﴾ جملة في موضع نصب صفة لـ ﴿لَّٰبِثِينَ﴾، أو حال من ضمير ﴿لَّٰبِثِينَ﴾. و ﴿حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ بدل منصوب من ﴿بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾. والحميم: يطلق على الحار والبارد من البرودة، فإن كان بمعنى النوم فهو استثناء منقطع، و ﴿جَزَآءً﴾ منصوب على المصدر. والخلاصة: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ استثناء منقطع في قول من جعل البرد: النوم، ومن جعله من البرودة كان بدلاً منه.

﴿كِذَّابًا﴾ منصوب على المصدر لـ (كذّب) وزيدت الألف في ﴿كِذَّابًا﴾ كما زيدت الهمزة في «أحسن إحساناً، وأجمل إجمالاً» .

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾﴾ ﴿كِتَٰبًا﴾ منصوب على المصدر، وعامله إما ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ بمعنى كتبنا، وإما فعل مقدر من لفظه دلَّ عليه. ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ أي كتبناه كتاباً.

البلاغة:

﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ تشبيه بليغ، أي كالأبواب في التشقق والتصدع، فحذفت الأداة ووجه الشبه. ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ أمر يراد به الإهانة والتحقير، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في التوبيخ. ﴿بَرْدًا﴾ و ﴿حَمِيمًا﴾ بينهما طباق.

﴿أَفْوَاجًا﴾ ﴿أَبْوَابًا﴾ ﴿سَرَابًا﴾ ﴿مَآبًا﴾ ﴿أَحْقَابًا﴾ ﴿شَرَابًا﴾ ﴿حِسَابًا﴾ سجع مرصع.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ هو يوم القيامة، وسمي بذلك؛ لأن الله يفصل فيه بحكمه بين الخلائق. ﴿كَانَ﴾ أي في علم الله، أو في حكمه. ﴿مِيقَاتًا﴾ وقتاً للثواب والعقاب، وحداً تنتهي عنده الدنيا. ﴿الصُّورِ﴾ البوق الذي ينفخ فيه، فيخرج منه صوت شديد، والنافخ فيه: هو إسرافيل عليه السلام. ﴿فَتَأْتُونَ﴾ من قبوركم إلى الموقف. ﴿أَفْوَاجًا﴾ جماعات مختلفة، جمع فوج: أي جماعة.

﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ﴾ شققت وصدّعت. ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ ذات أبواب، أو صارت من كثرة الشقوق كأنها أبواب. ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ أزيلت عن أماكنها، وأصبحت في الهواء كالهباء. ﴿سَرَابًا﴾ مثل السراب، إذ ترى على صورة الجبال وليست جبالاً في الحقيقة بل غباراً. ﴿مِرْصَادًا﴾ موضع رصد، يرصد فيه خزنة النار الكفار. ﴿لِّلطَّاغِينَ﴾ الكافرين، الذين طغوا بمخالفة أوامر ربهم. ﴿مَآبًا﴾ مرجعاً ومأوى. ﴿لَّابِثِينَ﴾ مقيمين. ﴿أَحْقَابًا﴾ دهوراً لا نهاية لها، جمع حُقُب، وواحدها حِقْبة، وهي مدة مبهمة من الزمان.

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ برودة الهواء، ويطلق أيضاً على النوم. ﴿وَلَا شَرَابًا﴾ أي ما يشرب تلذذاً لتسكين العطش. ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ الحميم: الماء الحارّ الشديد

الغليان. ﴿وَغَسَّاقًا﴾ قيح وصديد أهل النار الدائم السيلان من أجسادهم. ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ أي جوزوا بذلك جزاء موافقاً لأعمالهم وكفرهم، فلا ذنب أعظم من الكفر، ولا عذاب أعظم من النار. ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ لا يخافون أو لا يتوقعون. ﴿حِسَابًا﴾ محاسبة على أعمالهم؛ لإنكارهم البعث. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القرآن. ﴿كِذَّابًا﴾ تكذيباً كثيراً. ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ﴾ أي من الأعمال. ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ ضبطناه. ﴿كِتَٰبًا﴾ أي ضبطناه بالكتابة. ﴿فَذُوقُوا۟﴾ أي فيقال لهم في الآخرة عند وقوع العذاب عليهم: ذوقوا جزاءكم. ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ أي فوق عذابكم.

المناسبة:

بعد إثبات قدرة الله تعالى على تخريب الدنيا، وإيجاد عالم آخر، بإثبات إمكان الحشر وعموم القدرة والعلم، أخبر تعالى عن يوم الفصل وهو يوم القيامة أنه مؤقت بأجل معلوم لا يزاد عليه ولا ينقص منه، ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله عز وجل، ثم ذكر علامات ذلك اليوم من نفخ الصور، وتصدع السماء، وتسيير الجبال عن أماكنها وصيرورتها هباء كالهواء، ثم أوضح أن جهنم مرصد للطغاة وهم الكافرون المكذبون بآيات الله، الذين أحصى الله عليهم كل شيء من أعمالهم، وسيلقون جزاء ما صنعوا.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾ أي إن يوم القيامة وقت ومجمع وميعاد للأولين والآخرين، ينالون فيه ما وعدوا به من الثواب والعقاب. وسمي يوم الفصل؛ لأن الله تعالى يفصل فيه بحكمه بين خلقه.

ثم ذكر الله تعالى علامات ثلاثاً لهذا اليوم، فقال:

١ - ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ أي إن يوم الفصل هو اليوم

الذي ينفخ فيه إسرافيل بالبوق أو القرن، فتأتون أيها الخلائق من قبوركم إلى موضع العرض زمراً زمراً، وجماعات جماعات، تأتي فيه كل أمة مع رسولها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧١] .

٢ - ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩)﴾ أي وتصدعت السماء وشقت، فصارت ذات أبواب كثيرة وطرقاً ومسالك لنزول الملائكة، ونظير الآية كثير مثل: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (١)﴾ [الانشقاق: ٨٤/ ١] . ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١)﴾ [الانفطار: ٨٢/ ١] . ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (٢٥)﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٥] . وهذا يعني تبدل نظام الكون، وذهاب التماسك بين أجزائه.

٣ - ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠)﴾ أي وأزيلت الجبال عن أماكنها، وبددت في الهواء، فكانت هباء منبثاً، يظن الناظر أنها سراب، وتبدأ أولاً بالدكّ كما قال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤)﴾ [الحاقة: ٦٩/ ١٤] ثم تصير كالعهن أو الصوف المنفوش كما قال: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥)﴾ [القارعة: ١٠١/ ٥] ثم تتقطع وتتبدد وتصير كالهباء، كما قال: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (٦)﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٤-٦] ثم تنسف عن الأرض بالرياح، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥)﴾ [طه: ٢٠/ ١٠٥] وقوله: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٢٧/ ٨٨][1] .

ثم ذكر الله تعالى ما يلاقيه المكذبون الضالون الأشقياء يومئذ بقوله:

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣)﴾ أي إن نار جهنم كانت في حكم الله وقضائه مرصدة معدَّة للطغاة المتجبرين

(١) تفسير الرازي: ٣١/ ١١-١٢

المتكبرين وهم المردة العصاة المخالفون للرسل، ومرجعاً ومصيراً ونزلاً لهم، حالة كونهم ماكثين فيها ما دامت الدهور. والأحقاب جمع حُقُب ومفردها حِقْبة: وهي المدة الطويلة من الزمان، إذا مضى حُقُب دخل آخر، وهكذا إلى الأبد. والمرصاد: إما اسم للمكان الذي يرصد فيه، وإما صفة بمعنى أنها ترصد أعداء الله.

والآية دليل على أن جهنم كانت مخلوقة؛ لأن قوله: ﴿مِرْصَادًا﴾ أي معدَّة، ومثلها الجنة أيضاً إذ لا فرق بينهما.

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾[1] أي لا يذوقون في جهنم أو في الأحقاب برداً ينفعهم من حرها، ولا شراباً ينفعهم من عطشها إلا الحميم: وهو الماء الحار الشديد الغليان، والغساق: وهو صديد أهل النار، وهذا العذاب موافق الذنب العظيم الذي ارتكبوه نوعاً ومقداراً، فلا ذنب أعظم من الشرك، ولا عذاب أعظم من النار، وقد كانت أعمالهم سيئة، فجوزوا بمثلها، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٠] . وقيل: البرد: النعاس والنوم. ويلاحظ أنه تعالى بعد أن شرح أنواع عقوبة الكفار، بين أنه جزاء حق وعدل موافق لأعمالهم.

ثم عدد الله تعالى أنواع جرائمهم، فقال:

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾ أي إنهم اقترفوا الأعمال السيئة والقبائح المنكرة؛ لأنهم لا يطمعون في ثواب، ولا

---

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط (٨/ ٤١٤): والذي يظهر أن قوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ﴾ كلام مستأنف، وليس في موضع الحال، و ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ استثناء متصل من قوله: ﴿وَلَا شَرَابًا﴾ وأن ﴿أَحْقَابًا﴾ منصوب على الظرف، حملاً على المشهور من لغة العرب، لا منصوب على الحال.

يخافون من حساب؛ لأنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث. فقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾ أي لا يخافون أو لا يتوقعون حساباً: علة التأبيد في العذاب.

وكذبوا بالآيات القرآنية والبراهين الدالة على التوحيد والنبوة والمعاد تكذيباً شديداً. وهذا إشارة إلى فساد عقائدهم، حتى جحدوا الحق وكذبوا الرسل. ثم أخبر الله تعالى عن إحصاء جميع أعمالهم بقوله:

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾﴾ أي إننا علمنا جميع أعمال العباد، وكتبناها عليهم، وكتبها الحفظة كتابة تامة شاملة، وسنجزيهم على ذلك، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وقوله: ﴿كِتَٰبًا﴾ مصدر في موضع إحصاء، أو أن ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ في معنى كتبنا، لالتقاء الإحصاء والكتابة في معنى الضبط والتحصيل[1].

ثم ذكر ما يقال لهم في التعذيب تقريعاً وتوبيخاً لهم:

﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ أي يقال لأهل النار لكفرهم، وتكذيبهم بالآيات، وقبح أفعالهم: ذوقوا ما أنتم فيه من العذاب الأليم، فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه. قال عبد الله بن عمرو: لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه الآية: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ فهم في مزيد من العذاب أبداً.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات الكريمات إلى ما يأتي:

---

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط (٨/ ٤١٥): ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾: عام مخصوص أي كل شيء مما يقع عليه الثواب والعقاب، وهي جملة اعتراض معترضة.

١ً - إن يوم القيامة الذي يفصل الله فيه بين الخلائق وقت، ومجمع، وميعاد للأولين والآخرين، لما وعد الله من الجزاء والثواب.

٢ً - تحدث في بداية يوم القيامة ظواهر خطيرة ثلاث: هي نفخ إسرافيل في الصور (القرن) فيأتي الناس من قبورهم زمراً وجماعات، وتفتُّح وتشقُّق أو تفطر السماء، فتصير كلها كأنها أبواب، وتسيير الجبال وإزالتها من أماكنها الأصلية.

٣ً - أخبر الله تعالى عن حال الأشقياء، وقدم ذكرهم على السعداء؛ لأن الكلام في السورة بني على التهديد، وهو أن جهنم تكون مكاناً مرصداً للطغاة الذين طغوا في دينهم بالكفر، وفي الدنيا بالظلم، أو أنها ترصد أعداء الله وتراقبهم حتى ينزلوا فيها، وتكون المرجع الذي يرجعون فيه إليها.

٤ً - كيفية استقرارهم في النار: هي أنهم يكونون ماكثين في نار جهنم إلى الأبد ما دامت الأحقاب تتوالى، وهي لا تنقطع، فكلما مضى حُقُب جاء حُقُب، والحقُب: الدهر، والأحقاب: الدهور، والحِقْبة: السنة.

٥ً - لا يذوق الطغاة في جهنم أو في الأحقاب برداً يخفف الحر أو نوماً، ولا شراباً يروي من العطش إلا الماء الحار والغساق: صديد أهل النار.

٦ً - لا ظلم في هذا الجزاء، وإنما هو موافق لأعمالهم، فإنهم كانوا لا يخافون محاسبة على أعمالهم؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث، وكذَّبوا بما جاءت به الأنبياء تكذيباً شديداً. وهذا دليل على أنهم كذبوا بجميع دلائل الله تعالى في التوحيد والنبوة والمعاد والشرائع والقرآن.

وهو جزاء دقيق عادل؛ فإن الله تعالى عالم بأفعالهم علماً لا يزول ولا يتبدل، وقد أحصاها عليهم، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ لتعرفه الملائكة، كما أن الحفظة الملائكة الموكلين بأمر العباد كتبوا كل شيء عليهم بأمر الله

تعالى إياهم بالكتابة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الانفطار: ٨٢/ ١٠-١١] وقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾﴾ دليل على كونه تعالى عالماً بالجزئيات.

٧ - في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ أظهر الله تعالى غاية السخط بطريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، والتعقيب بفاء الجزاء الدال على أن العقاب سبب عن كفرهم بالحسنات، وتكذيبهم بالآيات.

وزيادة العذاب: إما لازدياد كفرهم وعتوهم حيناً بعد حين، كقوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٥] وإما لأن زيادة العذاب عبارة عن استمراره نفسه؛ لأنه يتزايد بمرور الزمان. والمراد: إنا لن نخلصكم من العذاب إلى خلافه، وإن عذاب أهل النار دائم غير متناه، وإنه تعالى يزيد في عذاب الكافر أبداً.

وهذه الآية دالة على المبالغة في التعذيب من وجوه:

أحدها - قوله: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ﴾ وكلمة (لن) للتأكيد في النفي.

وثانيها - أنه في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾ ذكرهم بالغيبة، وفي قوله: ﴿فَذُوقُوا﴾ ذكرهم على سبيل المشافهة، وهذا يدل على كمال الغضب، كما ذكرت.

وثالثها - أنه تعالى عدد وجوه العقاب، ثم حكم بأنه جزاء موافق لأعمالهم، ثم عدد فضائحهم، ثم قال: ﴿فَذُوقُوا﴾ فكأنه تعالى أفتى، وأقام الدلائل، ثم أعاد تلك الفتوى بعينها، وذلك يدل على المبالغة في التعذيب[1].

---

(١) تفسير الرازي: ٣١/ ١٩

أحوال السعداء

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾

القراءات:

﴿وَكَأْسًا﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (وكاساً).

﴿كِذَّٰبًا﴾:

وقرأ الكسائي (كِذَاباً).

الإعراب:

﴿حَدَآئِقَ﴾ بدل من ﴿مَفَازًا﴾ أو عطف بيان له. ﴿وَأَعْنَٰبًا﴾ عطف على ﴿مَفَازًا﴾.

﴿عَطَآءً﴾ بدل من ﴿جَزَآءً﴾ و﴿جَزَآءً﴾ و ﴿عَطَآءً﴾ و ﴿حِسَابًا﴾ منصوبات على المصدر.

المفردات اللغوية:

﴿مَفَازًا﴾ فوزاً وظفراً، أو مكان فوز في الجنة. ﴿حَدَآئِقَ﴾ بساتين مثمرة ومشجرة. ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ جواري في مقتبل العمر، جمع كاعب: وهي الفتاة التي تكعَّب واستدار ثديها. ﴿أَتْرَابًا﴾ من كن في سن واحدة كاللِّدات، جمع تِرْب: وهي التي تُماثل في سنها سن صاحبتها. ﴿وَكَأْسًا﴾ إناء من الزجاج للشرب فيه. ﴿دِهَاقًا﴾ ممتلئة. والمراد خمراً مالئة الأوعية. ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ في الجنة عند

شرب الخمر وغيرها من الأحوال. ﴿لَغْوًا﴾ باطلاً من القول أو الكلام. ﴿وَلَا كِذَّٰبًا﴾ تكذيب بعضهم لبعض، خلافاً لما يحدث في مجالس شرب الخمر في الدنيا. ﴿جَزَآءً﴾ أي جزاهم الله بذلك جزاء، بمقتضى وعده. ﴿عَطَآءً﴾ فضلاً منه وإحساناً. ﴿حِسَابًا﴾ كافياً لهم، تقول: أعطاني فأحسبني، أي أكثر علي، حتى قلت: حسبي، أي كفاني. ومنه قول الله تعالى: ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ أي الله كافيّ.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى شيئاً من أحوال الأشقياء أهل النار، ذكر ما لأهل الجنة السعداء من موضع فوز وظفر، حيث زحزحوا عن النار، وأدخلوا الجنة، وأبان أن ذلك تفضل من الله وإحسان، وفي إيراد أحوال السعداء والأشقياء مجال للتأمل والمقارنة، وترغيب بالطاعة، المؤدية إلى الجنة، وترهيب من المعصية والكفر وتكذيب الرسل المؤدي إلى النار. والخلاصة: أنه تعالى لما ذكر وعيد الكفار، أتبعه بوعد الأخيار.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن السعداء وما أعدَّ لهم من الكرامة والنعيم المقيم، فيقول: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ أي إن للذين اتقوا ربهم بالعمل بأوامره واجتناب نواهيه فوزاً وظفراً بالمطلوب، ونجاة من النار، بالاستمتاع بالبساتين ذات الأشجار والأثمار والأعناب اللذيذة الطعم، وبالنساء الحور الكواعب ذوات الأثداء القائمة على صدورهن لم تتكسر ولم تتدلّ، المتساويات في السن، وبتناول الكؤوس المترعة المملوءة بالخمر غير المسكرة.

وعطف الأعناب على الحدائق من عطف الخاص على العام، الذي يدل

على تعظيم حال تلك الأعناب. وفسر ابن عباس ﴿مَفَازًا﴾ بقوله: متنزهاً، ورجحه ابن كثير؛ لأنه تعالى قال بعده: ﴿حَدَآئِقَ﴾ والحدائق: البساتين من النخيل وغيرها.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾ أي لا يسمعون في الجنة الباطل من الكلام، ولا يكذب بعضهم بعضاً كقوله تعالى: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الطور: ٥٢/٢٣]، وهذا دليل على نظافة البيئة وسموها الأدبي، مما ترتاح له النفوس، خلافاً لحال الدنيا حيث يسمع فيها الإنسان المؤمن ما يجرح الشعور ويؤلم النفس، فليس في الجنة كلام لاغ ساقط عار عن الفائدة، ولا إثم كذب، بل هي دار السلام، وكل ما فيها سالم من النقص.

﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ أي جازاهم الله تعالى على إيمانهم وصالح أعمالهم، وأعطاهم ذلك عطاء تفضلاً منه وإحساناً، كافياً وافياً شاملاً كثيراً، حسبما وعدهم به من مضاعفة أجر الحسنات وتكفير السيئات.

فقه الحياة أو الأحكام:

وعد الله تعالى المتقين الذين اتقوا مخالفة أمر الله بخمسة أمور:

١ً - الفوز والنجاة والخلاص مما فيه أهل النار.

٢ً - التمتع بالرياض الغناء والحدائق أو البساتين المتنوعة الأشجار والأثمار، وهذا هو الأمن الغذائي.

٣ً - الاستمتاع بالحور الكواعب اللواتي تكعبت أثداؤهن، اللدات: الأقران في السن، وهذا هو الإشباع الجنسي أو الغريزي.

٤ً - تناول الكؤوس المترعة الملأى بالخمور غير المسكرة، كما وصفها الله

تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة: ١٩/٥٦]. وهذه متعة اللهو المباح.

٥ - الأمن النفسي في الجنة، حيث لا يسمع أهلها باطلاً من الكلام، ولا تكذيب بعضهم لبعض في مجالس الشراب والمتعة؛ لأن أهل الشراب في الدنيا يسكرون ويتكلمون بالباطل، وأهل الجنة إذا شربوا لم يتغير عقلهم، ولم يتكلموا بلغو.

وبعد تعداد أنواع نعيم أهل الجنة، توِّجوا بالمنحة الربانية، وأخبروا بأن الله جزاهم بما تقدم جزاء منه، وأعطاهم عطاءً كثيراً كافياً وافياً.

عظمة الله ورحمته وتأكيد وقوع يوم القيامة وتهديد الكافرين المعاندين

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾

القراءات:

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: قرئ:

١- (ربُّ السماوات، الرحمنُ) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو.

٢- (ربِّ السماوات، الرحمنِ) وهي قراءة عاصم، وابن عامر.

٣- (ربِّ السماوات، الرحمنُ) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بالجر: بدل من ﴿رَّبِّكَ﴾ المتقدم، وبالرفع: على تقدير مبتدأ محذوف، تقديره: هو رب السماوات. و ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالجر صفة ﴿رَّبِّ﴾ وبالرفع: إما مبتدأ، و ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ﴾ الخبر، وذلك حسن لوجود الهاء في ﴿مِنْهُ﴾ وإما خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو الرحمن.

﴿يَوْمَ يَقُومُ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ ظرف لقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ .﴿صَفًّا﴾ حال، أي: مصطفين.

﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ﴿مَنْ﴾ في موضع رفع على البدل من واو ﴿يَتَكَلَّمُونَ﴾ ويجوز أن يكون في موضع نصب على الأصل في الاستثناء. والرفع على البدل أوجه.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ ظرف لقوله: ﴿عَذَابًا﴾.

البلاغة:

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ عطف عام على خاص؛ لأن الروح هو جبريل عليه السلام، وهو من الملائكة، وأفرد بالذكر تنويهاً بقدره.

المفردات اللغوية:

﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ أي العباد .﴿مِنْهُ﴾ من الله تعالى .﴿خِطَابًا﴾ مخاطبة ومكالمة، أي لا يقدر أحد أن يخاطبه خوفاً منه .﴿ٱلرُّوحُ﴾ جبريل عليه السلام .﴿صَفًّا﴾ مصطفين .﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أي العباد، وهو تقرير وتوكيد لقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ قال البيضاوي: فإن هؤلاء الذين هم أفضل الخلائق وأقربهم إلى الله، إذا لم يقدروا أن يتكلموا بما يكون صواباً، كالشفاعة لمن ارتضى إلا بإذنه، فكيف يملكه غيرهم؟

﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ في الكلام .﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي وقال قولاً صائباً من المؤمنين والملائكة، كأن يشفعوا لمن ارتضى .﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ الثابت وقوعه، الكائن لا محالة، وهو يوم القيامة.﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ إلى ثوابه .﴿مَـَٔابًا﴾ مرجعاً، أي رجع إلى الله بالإيمان والطاعة، ليسلم من العذاب فيه .﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ﴾ يا كفار مكة وأمثالكم، والإنذار: التحذير من المكروه قبل وقوعه. ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾ عذاب يوم القيامة الآتي، وكل آت قريب .﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ حين يرى كل امرئ ما قدمه من خير أو شر، والمرء عام، يشمل الذكر والأنثى، والمؤمن والكافر .﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ أي فلا أعذب، يقول ذلك عندما يحشر الله البهائم للاقتصاص من بعضها لبعض، ثم تردّ تراباً، فيود الكافر حالها.

المناسبة:

بعد أن وصف الله تعالى وعيد الكفار ووعد المتقين، ختم الكلام بالإخبار عن عظمته وجلاله وشمول رحمته وعلى التخصيص يوم القيامة، وأردفه ببيان أن هذا اليوم حق لا ريب فيه، وأن الناس فيه فريقان: فريق بعيد من الله، ومصيره إلى النار، وفريق قريب من الله، وتكريمه وثوابه، ومرجعه إلى الجنة، ثم عاد إلى تهديد الكفار المعاندين وتحذيرهم من عاقبة عنادهم وكفرهم.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن عظمته وجلاله وشمول رحمته كل شيء، فيقول:

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾ أي إن الجزاء الحسن والعطاء الكافي الوافي لأهل الإيمان والطاعة هو ممن اتصف بالعظمة والجلال، ورب السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، والرحمن الذي شملت رحمته كل شيء، والذي لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه، لهيبته وتعاليه، ثم أكد هذا وقرره بقوله:

﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ﴿٣٨﴾﴾ أي إن عظمة الله تتجلى في يوم القيامة وتظهر عياناً للخلائق، حتى إن جبريل عليه السلام وجميع الملائكة المصطفين، مع رفعة أقدارهم ودرجاتهم؛ لأنهم أعظم المخلوقات قدراً ورتبة لا يتكلمون في يوم القيامة الرهيب إلا بشرطين:

أحدهما - الإذن من الله بالشفاعة، كقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥] وقوله سبحانه: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [هود: ١١/ ١٠٥] وقوله عز وجل: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١٠٩] .

والثاني - أن يقول صواباً: أي أن يقول حقاً وصدقاً إذا كان الإذن للشافع، وأن يكون ذلك الشخص المشفوع له ممن قال في الدنيا صواباً، أي شهد بالتوحيد بأن قال: لا إله إلا الله، إذا كان الإذن للمشفوع.

والروح: هو جبريل عليه السلام في رأي الأكثرين؛ لقوله عز وجل: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٩٣-١٩٤] . وقال ابن عباس: هو مَلَك عظيم من أعظم الملائكة خلقاً. وقال ابن مسعود: إنه ملك أعظم من السماوات والأرض.

وفي الآية دلالة على أن الملائكة وجبريل عليهم السلام أعظم المخلوقات قدراً ومكانة، وعلى عظمة يوم القيامة ورهبته.

ثم أخبر الله تعالى بأن يوم القيامة حق لا ريب فيه، فقال:

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾ أي إن ذلك اليوم الذي تقوم فيه الملائكة على تلك الصفة هو اليوم الثابت، الكائن الواقع المتحقق الذي لا ريب فيه، فمن أراد النجاة فيه، اتخذ إلى ثواب ربِّه مرجعاً

وطريقاً يهتدي إليه، ويقرِّبه منه، ويُدْنيه من كرامته، ويباعده عن عقابه، بالإيمان الحق والعمل الصالح.

ثم عاد الله تعالى إلى تهديد الكفار وتحذيرهم وتخويفهم من ذلك اليوم، فقال:

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾ أي إننا يا أهل مكة وأمثالكم من الكفار حذَّرناكم وخوَّفناكم عذاباً قريب الوقوع وهو يوم القيامة؛ فإنه لتأكد وقوعه صار قريباً، ولأن كل ما هو آتٍ قريب، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٧٩/٤٦] . وفي هذا اليوم القريب ينظر كل امرئ ما قدَّم من خير أو شرّ في حياته الأولى في الدنيا، كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣/ ٣٠] .

ويقول الكافر من شدة ما يعانيه من أنواع الأهوال والعذاب، مثل أبيّ بن خلف وعقبة بن أبي مُعَيط وأبي جهل: ليتني كنت تراباً، فهو يتمنى أن لم يكن إنساناً يبعث، وإنما كان تراباً، ويتمنى أن يصير تراباً كالحيوانات بعد الاقتصاص من بعضها لبعض، وقد ورد معنى هذا في حديث الصور المشهور، وورد فيه آثار عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو وغيرهما، كما ذكر ابن كثير، ومضمون تلك الأخبار: أن البهائم تحشر، فيقتصّ للجمَّاء من القرناء، ثم تردّ تراباً، فيودّ الكافر حالها ليتخلص من العذاب.

والآيتان الأخيرتان تدلان على أن الناس يكونون يوم القيامة فريقين: فريق المؤمنين المقربين من ثواب الله وكرامته ورضاه، وفريق الكافرين الجاحدين البعيدين من رحمة الله، الواقعين في صنوف العذاب.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - لله تعالى في الدنيا والآخرة صفتان عظيمتان: هما العظمة والجلال، فهو ربّ السماوات والأرض والكون، والرحمة الشاملة لكل شيء، فهو الرحمن الرحيم.

٢ً - اقتضت عظمة الله ألا يقدر أحد على مخاطبته يوم القيامة إلا لمن أذن له بالشفاعة.

٣ً - لا يتكلم جبريل والملائكة في موقف القيامة إجلالاً لربِّهم وخوفاً منه وخضوعاً له، فكيف يكون حال غيرهم؟

٤ً - إن يوم القيامة كائن واقع حتماً لا شك فيه، فالسعيد من اتَّخذ فيه إلى ربِّه مرجعاً بالإيمان والعمل الصالح.

٥ً - إن يوم القيامة وما فيه من العذاب قريب الوقوع؛ لأن كل آتٍ قريب، وفيه يجد كل إنسان ما قدم من خير أو شر.

٦ً - يتمنى الكافر يوم القيامة لما يرى من أنواع العذاب أن يكون تراباً أو حيواناً غير مكلف بشيء.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النازعات

مكية، وهي ست وأربعون آية

تسميتها:

سميت سورة النازعات؛ لافتتاحها بالقسم الإلهي بالنازعات، وهم الملائكة الذين ينزعون أرواح بني آدم، إما بيسر وسهولة وهم المؤمنون، وإما بعسر وشدة وهم الكفار.

مناسبتها لما قبلها:

تتعلق السورة بما قبلها من وجهين:

أ - تشابه الموضوع: فكلتا السورتين تتحدثان عن القيامة وأحوالها، وعن مآل المتقين، ومرجع المجرمين.

٢ - تشابه المطلع والخاتمة: فإن مطلع السورتين في الحديث عن البعث والقيامة، الأولى تؤكد وجود البعث وما فيه من أهوال وحساب وجزاء، والثانية افتتحت بالقسم على وقوع القيامة لتحقيق ما في آخر ﴿عَمَّ﴾. والأولى اختتمت بالإنذار بالعذاب القريب يوم القيامة، والثانية ختمت بالكلام عما في أولها من إثبات الحشر والبعث، وتأكد حدوث القيامة، فكان ذلك كالدليل والبرهان على مجيء القيامة وأهوالها.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع السورة كما أشرنا كسائر موضوعات السور المكية، التي تهتم بأصول العقيدة من التوحيد، والنبوة، والبعث.

شرعت السورة بالقسم بالملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد لإثبات البعث: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥﴾ [الآيات: ١-٥] والمقسم عليه محذوف وهو (لتبعثن) لدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة، وهو: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧﴾ [٦-٧]، أو بدليل إنكارهم للبعث في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠﴾ [١٠].

ثم وصفت أحوال المشركين المنكرين البعث، فصوَّرت مدى الذعر الشديد والاضطراب الذي يكونون عليه يوم القيامة، وذكرت مقالتهم في إنكار البعث والردّ عليهم: ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨﴾ [الآيات: ٨-١٤].

وناسب ذلك إيراد قصة موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية الجبار الذي ادَّعى الربوبية، ثم أهلكه الله وجنوده بالغرق في البحر، للعظة والعبرة، والدلالة على كمال القدرة الإلهية، بإفهامهم أن الكرَّة والإعادة ليست صعبة على الله، فما هي إلا زجرة أو صيحة واحدة: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥﴾[الآيات: ١٥-٢٦].

ثم خاطب الله منكري البعث خطاباً يتضمن إثبات البعث بالبرهان الحسي، متحدياً طغيانهم وتمردهم على رسول الله ﷺ، ومذكراً إياهم أنهم أضعف من خلق السماوات والأرض والجبال: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧﴾ [الآيات: ٢٧-٣٢].

وختمت السورة ببيان أهوال يوم القيامة، وانقسام الناس فيه فريقين:

سعداء وأشقياء، وسؤال المشركين عن ميقات الساعة، وتفويض أمرها إلى الله تعالى، لا إلى أحد حتى الرسول ﷺ، وتأكيد حدوثها، وذهول المشركين من شدة هولها، ومعرفتهم أن مكثهم في الدنيا كمقدار العشي أو الضحى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ [الآيات: ٣٤-٤٦].

الحلف على وقوع البعث وأحوال المشركين فيه والرد على إنكارهم إياه

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾

القراءات:

﴿أَءِنَّا﴾ ...﴿أَءِذَا﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر، الكسائي (أئِنّا... إذا).

﴿نَّخِرَةً﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: (ناخرة).

الإعراب:

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾﴾ ﴿غَرْقًا﴾ منصوب على المصدر، وكذلك ﴿نَشْطًا﴾ و﴿سَبْحًا﴾ و﴿سَبْقًا﴾ كلها منصوبات على المصدر.

﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ⑤﴾ ﴿أَمْرًا﴾ منصوب إما لأنه مفعول به لـ ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ﴾ أو بتقدير حذف حرف الجر، وتقديره: والمدبرات بأمر؛ لأن التقدير ليس إلى الملائكة، وإنما هو إلى الله تعالى، فهي مرسلة بما يأمرها به.

وجواب القسم محذوف تقديره: لتبعثن، بدليل إنكارهم للبعث في قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ أو الجواب: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ⑥﴾ على تقدير حذف اللام، أي ليوم ترجف، وهذا ضعيف، أو الجواب: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ⑥﴾ ﴿يَوْمَ﴾: إما منصوب بفعل دلّ عليه قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ⑧﴾ أي وجفت قلوبهم، فيكون ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدلاً من ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ⑥﴾ أو بتقدير: اذكر يوم ترجف، والجملة حال.

البلاغة:

﴿تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ①﴾ أقسم الله بالملائكة التي تنزع أرواح الكفار نزعاً بشدة وألم. ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ②﴾ الملائكة التي تخرج أرواح المؤمنين برفق وسهولة. ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ③﴾ الملائكة التي تَسْبَحُ من السماء، أي تنزل مسرعة بأمره تعالى. ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ④﴾ الملائكة تسبق بالأرواح إلى مستقرها. ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ⑤﴾ تنزل بتدبير ما أمرت به.

فهذه كلها صفات الملائكة، وقيل: إنها الكواكب الجارية على نظام معين في سيرها، ﴿غَرْقًا﴾ مسرعة في جريها. ﴿نَشْطًا﴾ خارجة من برج إلى برج. ﴿سَبْحًا﴾ سائرة في أفلاكها بهدوء. ﴿سَبْقًا﴾ مسرعة قبل غيرها في سبحها.

﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾ تدبر أمراً نيط بها، كاختلاف الفصول وتقدير الأزمنة وظهور مواقيت العبادات.

﴿تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ تضطرب الأرض والجبال وتتحرك، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ [المزمل: ٧٣/ ١٤]. ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ تلحق بها السماء والكواكب، فتنشق وتنتثر، وقيل: ﴿الرَّاجِفَةُ﴾: النفخة الأولى، و ﴿الرَّادِفَةُ﴾: النفخة الثانية. ﴿وَاجِفَةٌ﴾ خائفة قلقة شديدة الاضطراب، من الوجيف: وهي صفة القلوب. ﴿خَاشِعَةٌ﴾ ذليلة، لهول ما ترى، أي أبصار أصحابها ذليلة من الخوف. ﴿يَقُولُونَ﴾ أي أصحاب القلوب والأبصار استهزاءً وإنكاراً للبعث. ﴿أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ أي أنرد بعد الموت إلى الحياة؟ و ﴿الْحَافِرَةِ﴾ الحياة الأولى، يقال: فلان رجع في حافرته، أي طريقته التي جاء فيها، فيرجع من حيث جاء.

﴿نَخِرَةً﴾ بالية متفتتة. ﴿قَالُوا تِلْكَ﴾ أي رجعتنا إلى الحياة. ﴿إِذًا﴾ إن صحت. ﴿كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ رجعة ذات خسران يخسر أصحابها. ﴿زَجْرَةٌ﴾ صيحة وهي النفخة الثانية لبعث الأموات. ﴿فَإِذَا هُم﴾ كل الخلائق. ﴿بِالسَّاهِرَةِ﴾ أي فإذا هم أحياء على وجه الأرض، بعد أن كانوا ببطنها أمواتاً.

سبب النزول:

نزول الآية (١٠، ١٢):

أخرج سعيد بن منصور عن محمد بن كعب قال: لما نزل قوله: ﴿أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ قال كفار قريش: لئن حيينا بعد الموت لنخسرن، فنزلت: ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾.

التفسير والبيان:

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ

سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾[1]، أقسم الله سبحانه بالملائكة التي تنزع أرواح الكفار من أجسادهم بشدة وعنف وإغراق في النزع؛ حيث تنزعها من أقاصي الأجساد، وتخرج أرواح المؤمنين بسرعة ولطف وسهولة، وبالملائكة الذين ينزلون من السماء مسرعين، لأمر الله تعالى، والملائكة التي تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة، وتدبر الأمر بأن تنزل بالحلال والحرام وتفصيلهما، وتدبر أهل الأرض بالرياح والأمطار وغير ذلك. قيل: إن تدبير أمر الدنيا إلى أربعة من الملائكة: جبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل. فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود، وأما ميكائيل: فموكل بالقطر والنبات، وأما عزرائيل: فموكل بقبض الأنفس، وأما إسرافيل: فهو ينزل بالأمر عليهم.

وقال الحسن البصري: المراد بالكلمات الخمس: النجوم والكواكب في جريها وتنقلها بين الأبراج وسيرها في أفلاكها هادئة أو مسرعة أو مدبرة أمراً بأمر الله تعالى.

وإنما قال: ﴿أَمْرًا﴾، لا أموراً؛ لأن المراد به الجنس، فيقوم مقام الجمع، وتدبير الأمر في الحقيقة لله تعالى، وإنما أضيف إلى الملائكة لإتيانها به، ولأنها من أسبابه.

وجواب القسم محذوف، أي لتبعثن بعد الموت، بدليل إنكارهم البعث كما حكى الله عنهم فيما بعد بقوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾﴾ أي أنبعث بعد نخر العظام؟

وإنما عطف الثلاثة الأولى بالواو، والباقيتين بالفاء؛ لأن هاتين مسببتان عن التي قبلها، كما قال الزمخشري.

---

(١) عطف بالواو ثم بالفاء؛ لأن الواو تدل على المغايرة، والمراد هنا تغاير الصفة الدالة على تغاير الذات، والفاء تدل على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، والمراد هنا ترتب الأحوال على ما قبلها.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧)﴾ أي حين تتحرك الأرض وتضطرب الجبال، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ [المزمل: ١٤/٧٣] ثم تتلوها السماء، فتنشق بما فيها من الكواكب وتنتثر. وقيل: ﴿الرَّاجِفَةُ﴾: هي النفخة الأولى التي يموت بها جميع الخلائق، وتليها النفخة الثانية التي يكون عندها البعث.

أخرج أحمد والترمذي وحسنه والحاكم وصححه وغيرهم عن أبي بن كعب رضي الله عنه، واللفظ للترمذي، قال: «إذا ذهب ثلثا الليل قام، فقال: يا أيها الناس، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه» زاد أحمد: «فقال رجل: يا رسول الله، أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك؟ قال: إذن يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك».

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩)﴾ أي هناك قلوب تكون يوم القيامة خائفة مضطربة قلقة؛ لما عاينت من أهوال يوم القيامة، وهي قلوب الكفار، وأبصار أصحابها ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال، بسبب موتهم على غير الإسلام، وإنكارهم البعث، وهذه هي أقوالهم:

﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢)﴾ أي يقول مشركو قريش وأمثالهم المنكرون المعاد، المستبعدون وقوع البعث إذا قيل لهم: إنكم تبعثون: هل نردّ إلى حياتنا الأولى وابتداء أمرنا قبل الموت، فنصير أحياء بعد موتنا، وبعد المصير إلى الحافرة وهي القبور؟ وهو كقولهم: ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٩٨/١٧].

وكيف يتصور أن نرد إلى الحياة بعد تمزق أجسادنا وتفتت عظامنا، وصيرورتها عظاماً بالية ناخرة؟

إن رددنا بعد الموت وصحَّ أَنْ بُعِثْنا يوم القيامة لنخسرنَّ أو لتكونن رَجْعة ذات خسران؛ لتكذيبنا بما أخبر به محمد، وسيصيبنا ما يقوله هذا النبي.

وهذا القول صادر منهم على سبيل الاستهزاء والتهكم، لاعتقادهم أن لا بعث.

ثم ردّ الله تعالى عليهم وأفحمهم قائلاً:

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجۡرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ أي لا تستبعدوا ذلك، فإنما الأمر يسير، ولا تحسبوا تلك الكرّة صعبة على الله، وما هي إلا صيحة واحدة، وهي النفخة الثانية التي يبعث الله بها الموتى من القبور، فإذا هم على وجه الأرض أحياء، وحينئذٍ يحاسب الخلائق. والساهرة على الصحيح هي أرض الآخرة، وهي أرض بيضاء مستوية، والمراد بها هنا: وجهها الأعلى، وسطحها الظاهر. وإنما قيل لها ساهرة؛ لأنهم لا ينامون عليها حينئذٍ، وقيل: هي أرض بالشام.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - أقسم الله سبحانه بأنواع خمسة من الملائكة ذوي مهام متنوعة على أن القيامة حق. والقسم بها تعظيم لها وتنويه بها. ولله أن يقسم على ما يشاء في أي وقت يشاء، ولإثبات أو نفي ما يشاء؛ كالتوحيد، وأن القرآن حق والرسول حق والبعث حق.

والمقسم به من المخلوقات في القرآن الكريم أحد نوعين:

الأول - أن تكون المخلوقات معظمة عند بعض الناس، كالشمس والقمر.

الثاني - أن تكون المخلوقات مهملة مذهولاً عنها في أنظار الناس، كمواقع النجوم والرياح والملائكة.

٢ - في يوم القيامة الرهيب ترجف الأرض والجبال، وتتحرك وتضطرب، وتتبعها السماء، فتنشق وتنتثر، والأرض: هي الراجفة، والسماء: هي

الرادفة، وقيل: الراجفة هي النفخة الأولى، والرادفة هي النفخة الثانية. والظاهر المعنى الأول، قال مجاهد: الرادفة حين تنشق السماء، وتُحمل الأرض والجبال فتدك دكة واحدة.

٣ - تكون قلوب الكفار الذين ماتوا على غير دين الإسلام خائفة وجلة، وأبصار أصحابها منكسرة ذليلة من هول ما ترى.

٤ - أثبت المشركون المكذبون منكرو البعث على أنفسهم إنكار المعاد والبعث بأقوال ثلاثة، فإذا قيل لهم: إنكم تبعثون، قالوا منكرين متعجبين: أنرد بعد موتنا إلى أول الأمر، فنعود أحياء كما كنا قبل الموت؟

ولا نتصور أن نعود كما كنا بعد أن نصير عظاماً نخرة، أي بالية متفتّتة.

وزادوا في الاستهزاء والتهكم، فقالوا: إننا إذا بعثنا فتلك رجعة خائبة، كاذبة باطلة.

٥ - ردّ الله تعالى عليهم وأفحمهم فقال: لا تحسبوا تلك الكَرَّة صعبة على الله، فما هي إلا صيحة واحدة، فإذا هم بالساهرة أي على وجه الأرض أو سطحها، بعد أن كانوا في بطونها. قال الثوري: الساهرة: أرض الشام.

التهديد بقصة موسى عليه السلام مع فرعون

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (٢٥) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٢٦)﴾

القراءات:

﴿طُوًى﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (طِوَى).

﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير (إلى أن تَزَّكّى).

الإعراب:

﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ ﴿لَّكَ﴾: جار ومجرور خبر مبتدأ محذوف، أي هل لك ميل أو رغبة؟ وهو استفهام معناه العرض، وهو لطف في الاستدعاء؛ لأن كل عاقل يجيب عن مثل هذا السؤال بنعم، فهو كلام محمول على (أدعو) فكأنه قال: أدعو إلى التزكي: وهو التحلي بالفضائل والتطهر من الرذائل. و ﴿تَزَكَّىٰ﴾ أصله: تتزكى، فحذفت إحدى التاءين للتخفيف، ومنهم من أبدل من التاء الثانية زاياً، وأدغم التاء في الزاي، ولم يدغم الزاي في التاء؛ لأن في الزاي زيادة صوت.

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ ﴿نَكَالَ﴾: إما مفعول لأجله، أو منصوب على أنه مصدر، فهو مصدر مؤكد، كـ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ و ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٢/ ١٣٨]، كأنه نكل الله به نكال الآخرة والأولى، والنكال بمعنى التنكيل، كالسلام بمعنى التسليم، والمراد الإغراق في الدنيا والإحراق في الآخرة.

البلاغة:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ أسلوب التشويق إلى معرفة القصة.

المفردات اللغوية:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ خطاب للنبي ﷺ بقصد تسليته على تكذيب قومه، وتهديدهم عليه بأن يصيبهم مثلما أصاب من هو أعظم منهم.

﴿ٱلْمُقَدَّسِ﴾ المبارك المطهر، و﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ وادٍ بأسفل جبل طور سيناء. ﴿طُوًى﴾ وادٍ بين أَيْلَة ومصر. ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ على إرادة القول، أي وقال له. ﴿طَغَىٰ﴾ تجاوز الحد في الكفر. ﴿هَل لَّكَ﴾ أدعوك أو هل ترغب فيه؟ ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ تتحلى بالفضائل وتتطهر من الرذائل، والمراد: هل لك ميل إلى أن تتطهر من الكفر أو الشرك والطغيان بأن تشهد أن لا إله إلا الله؟ وقرئ: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ بتشديد الزاي بإدغام التاء الثانية في الزاي. والتزكي في الأصل: التطهر من العيوب.

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أرشدك إلى معرفته، أو أدلك على معرفته. ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ فتخاف؛ بأداء الواجبات وترك المحرمات. ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ أي فذهب وبلغ، فأراه المعجزة الكبرى والعلامة الدالة على صدقه في دعوى النبوة، وهي انقلاب العصا حية، أو اليد تخرج بيضاء. ﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعون موسى. ﴿وَعَصَىٰ﴾ الله تعالى بعد ظهور الآية وتحقق أمر النبوة. ﴿أَدْبَرَ﴾ ترك موسى وأعرض عن الإيمان والطاعة. ﴿يَسْعَىٰ﴾ في الأرض بالفساد، وفي إبطال أمر موسى ومكايدته. ﴿فَحَشَرَ﴾ جمع السحرة وجُنده. ﴿فَنَادَىٰ﴾ في الجمع بنفسه أو بمناد. ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ في ولاية أمركم، لا ربّ فوقي. ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ﴾ أهلكه بالغرق. ﴿نَكَالَ﴾ عقوبة أو عذاب. ﴿ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ القيامة والدنيا، أي أخذه منكلاً به في الآخرة بالإحراق في جهنم، وفي الدنيا بالإغراق. وقيل: المراد كلمته الآخرة وهي هذه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وكلمته الأولى قبلها، وهي قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٢٨/٣٨] وكان بينهما أربعون سنة. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور. ﴿لَعِبْرَةً﴾ لعظة. ﴿لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ لمن شأنه الخشية من الله تعالى.

المناسبة:

بعد أن حكى الله تعالى عن الكفار إصرارهم على إنكار البعث،

واستهزاءهم في قولهم: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ وكان ذلك يشق على النبي محمد ﷺ، ذكر له قصة موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية، حيث تحمل المشقة الكثيرة في دعوة فرعون، ليكون ذلك كالتسلية للرسول ﷺ عن تكذيب قومه وشدة عنادهم وإعراضهم عن دعوته. كما يكون ذلك تهديداً للكفار بأن يصيبهم مثل ما أصاب من هو أقوى وأعتى وأشد شوكة وأكثر جمعاً، فإن أصروا على كفرهم، واستمروا في تمردهم أخذهم الله، وجعلهم نكالاً وعبرة، كما جاء في آية أخرى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [فصلت: ٤١/١٣-١٤].

التفسير والبيان:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾ أي ألم يبلغك قصة موسى عليه السلام مع فرعون، حيث ابتعثه الله إليه، وأيّده بالمعجزات، حين ناداه ربّه ليلاً، مكلماً إياه، مكلِّفاً له بالنبوة والرسالة في الوادي المبارك المطهَّر وهو طُوى: وهو الوادي في جبل سيناء الذي نادى الرّب فيه موسى.

وإنما ذكَّر الله بقصة موسى عليه السلام؛ لأنه أبهر الأنبياء المتقدمين معجزة، ولأن فيها تسلية للنبي ﷺ عما يلاقيه من إعراض قومه، ولتهديد كفار قريش بإنزال عذاب مشابه لما أنزل بفرعون وجنوده، مع أنه كان أكثر جمعاً وأشد قوة منهم.

ثم أبان الله تعالى مهمة موسى عليه السلام بقوله:

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ أي قال الله له: اذهب إلى فرعون طاغية مصر، فإنه جاوز الحد في العصيان والتكبر والكفر بالله، حيث ادّعى الربوبية، وتجبر على بني إسرائيل، واستعبد قومه.

ثم علّمه أسلوب الدعوة فقال:

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ أي فقل لفرعون بعد وصولك إليه: هل لك رغبة في التطهر من الشرك والعيوب؟ وإني أرشدك إلى معرفة الله وتوحيده وعبادته، فتخاف عقابه، بأداء ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه. والخشية لا تكون إلا من مهتد راشد.

وإنما أمره الله بلين القول، ليكون أنجع في الدعوة؛ لأن دعوة الجبابرة تتطلب عادة التلطف والرفق والمداراة، لتخفيف غلوائهم، واستنزال شيء من عتوهم وتجبرهم. وقد تكرر الأمر باللين في هذه القصة في القرآن الكريم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٤٤].

والآية دليل على أن المقصود الأعظم من بعثة الرسل هداية الناس إلى معرفة الله، وأن معرفة الله تستفاد من الهادي.

ثم أبان الله تعالى أن موسى أظهر لفرعون معجزته، فقال:

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ أي فأظهر له العلامة والمعجزة الكبرى الدالة على صدق نبوته، وهي انقلاب العصا حية، أو اليد، ومع ذلك كذّب وخالف، كما قال تعالى:

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ أي فكذب فرعون بموسى وبما جاء به وبالحق، وعصى الله عزّ وجلّ فلم يطعه، وتولى وأعرض عن الإيمان، وأخذ يسعى بالفساد في الأرض، ويجتهد في مكايدة موسى ومعارضة ما جاء به.

والجمع بين ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾ للدلالة على أنه كذب بالقلب واللسان، وعصى بأن أظهر التمرد والتجبر.

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤)﴾ أي فجمع جنوده للتشاور، أو جمع السحرة للمعارضة، ثم نادى في المقام الذي اجتمعوا فيه معه، أو أمر منادياً ينادي قائلاً: أنا الرّب الأعلى، وصاحب السلطان المطلق، الذي ليس لأحد سواي ولاية أمركم، ولا ربّ فوقي، فكان جزاؤه الإغراق مع جنوده، كما قال تعالى:

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (٢٥) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٢٦)﴾ أي أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وانتقم منه انتقاماً جعله به عبرةً ونكالاً لأمثاله المتمردين في الدنيا، ونكّل به نكال الآخرة وهو عذاب النار، ونكال الأولى وهو عذاب الدنيا بالغرق، ليتعظ به من يسمع خبره، وإن فيما ذكر من قصة فرعون وما فعل به عبرة عظيمة لمن شأنه أن يخشى الله ويتقيه ويتعظ وينزجر، فينظر في أحداث الماضي، ويقيس بها أحوال الحاضر والمستقبل. فقوله: ﴿الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ أي الدنيا والآخرة، وهو الصحيح في معنى الآية كما قال ابن كثير.

فقه الحياة أو الأحكام:

إن قصة موسى عليه السلام مع فرعون وجنوده عبرة لمن اعتبر، وعظة لمن اتعظ، فقد أرسله الله إليه، وأيّده بالمعجزات، ومع هذا استمر فرعون في كفره وطغيانه، فانتقم الله منه انتقاماً شديداً، وأغرقه وجنوده في البحر الأحمر.

وفي القصة تسلية للنبي ﷺ عما يلاقيه من صدود قومه، وتحذير للكفار المتمردين والعتاة المتجبرين بإنزال عقاب مماثل إن استمروا في كفرهم وعتوهم وإعراضهم عن قبول دعوة الإسلام.

فلقد كان فرعون أقوى من كفار أي عصر، فإنه تجاوز الحدّ في العصيان، وأبى قبول دعوة موسى إلى تطهير نفسه من الذنوب والمآثم والكفر، ولم يقبل ما أرشده إليه من طاعة ربّه، ولم يصدّق بمعجزته وهي انقلاب العصا حية، أو

اليد البيضاء تبرُق كالشمس، وكذَّب نبوته وعصى ربّه عزّ وجلّ، وولّى مدبراً معرضاً عن الإيمان، ساعياً في الأرض بالفساد، وقال لقومه بصوت عال: أنا ربّكم الأعلى، أي لا ربّ لكم فوقي.

ولكنه مع كل هذا لم يعجز الله القوي القادر القاهر، فأهلكه الله في الدنيا مع جنوده بالغرق، وسيعذبه في الآخرة بنار جهنم.

إن في هذه القصة، وما أحل الله بفرعون من الخزي، وتحقيق العلو والنصر لموسى عليه السلام، لاعتباراً وعظة لمن يخاف الله عزّ وجلّ، ففيها بيان العقاب العادل وأسبابه ومسوغاته، وبها يتبين لكل عاقل ضرورة أن يدع التمرد على الله تعالى، والتكذيب لأنبيائه، خوفاً من أن ينزل به ما نزل بفرعون وجنوده. كما عليه أن يعلم بأن الله تعالى ينصر أنبياءه ورسله.

فمن ارتكب ما يوجب العقاب من مثل ذلك قولاً وفعلاً، اشترك في العقاب نفسه في الدنيا والآخرة.

إثبات البعث بخلق السماوات والأرض والجبال

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾

الإعراب:

﴿بَنَىٰهَا﴾ الجملة صفة للسماء.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا﴾ الجملة حال بإضمار (قد) أي مخرجاً.

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ مفعول لأجله، لفعل مقدر، أي فعل ذلك متعة، أو منصوب على المصدر، أي تمتيعاً.

البلاغة:

﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ، رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ بينهما مقابلة.

﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ و﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ بينهما طباق.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ استعارة تصريحية في كلمة ﴿وَمَرْعَىٰهَا﴾ أي نباتها، شبه أكل الناس برعي الأنعام، واستعير الرعي للإنسان، بجامع الأكل، فإطلاق المرعى على ما يأكله الناس استعارة.

﴿ضُحَىٰهَا﴾، ﴿دَحَىٰهَآ﴾، ﴿وَمَرْعَىٰهَا﴾، ﴿أَرْسَىٰهَا﴾ سجع مرصع، وهو توافق الفواصل في الحرف الأخير.

المفردات اللغوية:

﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أصعب خلقاً. ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أشد خلقاً. ﴿بَنَىٰهَا﴾ بيان لكيفية خلقها، والمسؤول يجيب، ولا بدَّ أن يكون الجواب: السماء، لما يرى من ديمومة بقائها وعدم تأثرها. ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ تفسير لكيفية البناء، والسمك أو السمت: مقدار الارتفاع من الأسفل إلى الأعلى، والمعنى: جعل الله مقدار ارتفاعها من الأرض وسماكتها باتجاه العلو رفيعاً ثخيناً. ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ جعلها مستوية الخلق معدلة محكمة بلا عيب، بحيث جعل كل جزء في موضعه.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أظلمه. ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أبرز نور شمسها، والمراد بالضحى: النهار، كقوله: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾﴾ [الشمس: ٩١/١]، أي النهار. ﴿دَحَىٰهَآ﴾ بسطها ومهّدها للإنسان، وجعلها كالبيضة ليست تامة الكروية، كما هو معروف، فهي مفلطحة من جانبها. ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا﴾ أي أخرج مخرجاً منها. ﴿مَآءَهَا﴾ بتفجير العيون. ﴿وَمَرْعَىٰهَا﴾ نباتها، وهو يشمل ما ترعاه الأنعام من الشجر والعشب، وما يأكله الناس من الأقوات والثمار. ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ أي

متعة ومنفعة لكم ولأنعامكم، أو تمتيعاً لكم ولمواشيكم، والأنعام: جمع نعم: وهي الإبل والبقر والغنم.

المناسبة:

بعد بيان قصة موسى وفرعون، عاد إلى مخاطبة منكري البعث محتجاً عليهم ببدء الخلق على إعادته، فإنه تعالى خلق السماوات البديعة، والأرض الوسيعة المعدَّة للاستقرار والحياة عليها بإعداد وسائل المعيشة فيها، وخلق الجبال الرواسي لإرساء الأرض وتثبيتها.

التفسير والبيان:

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ أي هل أنتم أيها الناس أصعب خلقاً بعد الموت، وبعثكم أشد عندكم وفي تقديركم من خلق السماء؟ لا شك بأن السماء أشد خلقاً، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧/٤٠] وقال سبحانه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ﴾ [يس: ٨١/٣٦]. فمن قدر على خلق السماء ذات الأجرام العظيمة التي يتحدث عنها علماء الفلك والفضاء بدهشة، وفيها من عجائب الصنع وبدائع القدرة ما هو واضح، كيف يعجز عن إعادة الأجسام التي أماتها بعد أن خلقها أول مرة؟!

ثم بيَّن الله تعالى صفة خلق السماوات، وأنه بناها بضم أجزائها بعضها إلى بعض، مع ربطها بما يمسكها حتى صارت بناء واحداً، ورفع ثخانتها في الجو، وجعلها كالبناء المرتفع فوق الأرض بدون أعمدة، وجعلها عالية البناء، مستوية الخلق، معدّلة الشكل، لا تفاوت فيها ولا اعوجاج، ولا فطور ولا شقوق، بأن أبدع في خلق الكواكب العديدة التي تفوق الملايين، وجعل لكل كوكب حجماً معيناً، ومداراً يسير فيه دون تصادم مع غيره، حتى صار من مجموعها ما يسمى بالسماء، وما يشبه البناء.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾﴾ أي جعل ليل السماء مظلماً، وأبرز وأنار نهارها المضيء بإضاءة الشمس، وجعل تعاقب الليل والنهار واختلاف الفصول مناخاً صالحاً للعيش والسكنى.

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾﴾ أي بسط الأرض ومهدها وجعلها مفلطحة كالبيضة بعد خلق السماء، إلا أنها كانت مخلوقة غير مدحوة قبل خلق السماء، ثم دحيت بعد خلق السماء، كما جاء في سورة السجدة (فصّلت): ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [٩-١١] فهذه الآية دليل على أن خلق السماوات كان بعد خلق الأرض، إلا أن دحو الأرض وتمهيدها كان بعد خلق السماوات[١].

ثم أوضح ما تمَّ في أثناء الدحو من إعداد وسائل الحياة والعيش، فقال:

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ أي فجّر من الأرض الأنهار والبحار والعيون والينابيع، وأنبت فيها النبات لبني آدم قوتاً كالحبوب والثمار، وللأنعام مرعى كالأعشاب والحشائش، وجعل الجبال كالأوتاد للأرض لئلا تميد بأهلها، وقررها وثبّتها في أماكنها.

وجعل تعالى كل ذلك منفعة وفائدة أو تمتيعاً لكم أيها الناس، ولأنعامكم أكلاً وركوباً، وهي الإبل والبقر والغنم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ

(١) تفسير ابن كثير: ٤/٤٦٨

مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١٠].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - أثبت الله تعالى لمنكري البعث قدرته على إعادة الخلق والمعاد، بقدرته على بدء الخلق، وقدرته على خلق السماوات العظيمة، المحكمة البناء، والتي جعل فيها الليل والنهار، وخلق الأرض التي دحاها وبسطها ومهدها بعد خلق السماوات، وفجر منها الأنهار والينابيع، وأرسى الجبال في أماكنها، كل ذلك لتحقيق المنفعة للإنسان ودوابه التي يأكل منها ويركب عليها. ومعنى الكلام التقريع والتوبيخ.

فمن قدر على خلق السماء قدر على الإعادة، وإذا كان الله قادراً على إنشاء العالم الأكبر، يكون على خلق العالم الأصغر، بل على إعادته أقدر.

٢ - نبّه الله تعالى بهذا الدليل على أمر معلوم بالمشاهدة، وهو أن خلق السماء أعظم وأبلغ في القدرة.

٣ - أشار الله تعالى إلى كيفية خلق السماء بقوله: ﴿بَنَىٰهَا﴾ وفيه تصوير للأمر المعقول، وهو الإبداع والاختراع، بالأمر المحسوس وهو البناء.

ثم ذكر هيئة البناء بقوله: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ وهو الامتداد القائم من السفل إلى العلو، وعكسه يسمى عمقاً.

٤ - دلّ قوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ على أن الأرض كروية، كما دلّ قوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ على أن كروية الأرض ليست تامة، بل هي مفلطحة كالبيضة. ودحو الأرض لا ينافي تقدم خلق الأرض على السماء في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى

خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٩] .

٥ً - إنما نسب الله تعالى الليل والنهار إلى السماء؛ لأنهما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها، وهذان إنما يحصلان بسبب حركة الفلك.

٦ً - وصف الله تعالى كيفية خلق الأرض بعد وصف كيفية خلق السماء، وذكر صفات ثلاثاً: هي دحو الأرض، أي بسطها وتمهيدها الذي حصل بعد خلق السماء، وإخراج الماء والمرعى من الأرض، والمرعى: يشمل جميع ما يأكله الناس والأنعام، وإرساء الجبال وتثبيتها في أماكنها. قال القُتَبي: دلَّ الماء والمرعى على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنام من العشب والشجر والحب والتمر والعصف والحطب واللباس والنار والملح؛ لأن النار من العيدان، والملح من الماء.

٧ً - امتن الله تعالى على خلقه بأنه إنما خلق هذه الأشياء في السماء والأرض متعة ومنفعة لهم ولأنعامهم، أو تمتيعاً لهم ولأنعامهم.

٨ً - دلَّ مجموع الآيات هنا، وفي سورة السجدة (فصلت) وسورة البقرة وغيرها، على أن الله تعالى خلق الأرض أولاً، ثم خلق السماء ثانياً، ثم دحا الأرض بعد ذلك ثالثاً؛ لأنها كانت أولاً كالكرة المجتمعة، ثم إن الله تعالى مدها وبسطها.

جزاء فريقي الناس في الآخرة وتفويض علم الساعة للّه تعالى وقصر مدة الدنيا

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾﴾

القراءات:

﴿الْمَأْوَىٰ﴾ :

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (الماوى).

الإعراب:

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ ﴿يَوْمَ﴾ : بدل من قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ وما: موصولة أو مصدرية.

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ الفاء في ﴿فَأَمَّا﴾ : جواب إذا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾؟ وهي المأوى له؛ لأنه لا بدَّ من ضمير يعود من الجملة إلى المبتدأ. وذهب الكوفيون إلى أن الألف واللام عوض عن الضمير العائد، والتقدير فيه: مأواه. ويصح أن يكون جواب ﴿فَإِذَا جَاءَتِ﴾ محذوفاً، دلَّ عليه: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ﴾ أو ما بعده من التفصيل.

﴿هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ هي إما ضمير فصل أو مبتدأ.

البلاغة:

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ بينهما مقابلة.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ تشبيه مرسل مجمل.

﴿عَشِيَّةً﴾ و ﴿ضُحَىٰهَا﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ الداهية العظمى وهي القيامة، التي تطمّ، أي تعلو على سائر الدواهي، والتي هي أكبر الطامات، أو النفخة الثانية التي يكون معها البعث، أو ساعة سوق أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار. ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ بأن يراه مدوناً في صحيفته، وكان قد نسيه من فرط الغفلة أو طول المدة، والمراد: كل ما عمل في الدنيا من خير أو شر. ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ أظهرت. ﴿ٱلْجَحِيمُ﴾ النار المحرقة. ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ لكل راءٍ، بحيث لا تخفى على أحد.

﴿طَغَىٰ﴾ تكبر وتجاوز الحد، حتى كفر. ﴿وَءَاثَرَ﴾ قدَّم وفضل. ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ باتباع الشهوات، ولم يستعد للآخرة بالعبادة وتهذيب النفس. ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾ المستقر، أي مأواه، واللام فيه سادّة مسدّ الإضافة، للعلم بأن صاحب المأوى هو الطاغي. ﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ مقامه بين يدي ربه لعلمه بالمبدأ والمعاد، أو جلاله وعظمته. ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ زجرها وكفَّها عن هواها المردي باتباع الشهوات. ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ ليس له سواها مأوى. والحاصل أن العاصي في النار والمطيع في الجنة.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أي كفار مكة. ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ متى إرساؤها أي وقوعها وقيامها. ﴿فِيمَ﴾ أي في أي شيء. ﴿أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي ما أنت من ذكراها

لهم، والمراد: ليس عندك علمها حتى تذكرها. ﴿مُنتَهَىٰهَآ﴾ منتهى علمها، لا يعلمه غيره. ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ﴾ إنما ينفع إنذارك. ﴿مَن يَخْشَىٰهَا﴾ يخافها، أي إنما بعثت لإنذار من يخاف هولها، وهو لا يناسب تعيين الوقت. وأما تخصيص (من يخشى) فلأنه المنتفع بالإنذار. ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ في الدنيا أو في القبور. ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ أي عشية يوم أو ضحاه، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥/٤٦]، إنما أضاف الضحى إلى العشية؛ لأنهما من يوم واحد.

سبب النزول:

نزول الآية (٤٢):

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾: أخرج الحاكم وابن جرير عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يَسْأَلُ عن الساعة، حتى أنزل عليه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أن مشركي أهل مكة سألوا النبي ﷺ، فقالوا: متى تقوم الساعة؟ استهزاء منهم، فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾ إلى آخر السورة.

وأخرج الطبراني وابن جرير عن طارق بن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ يُكثر ذكر الساعة حتى نزلت: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾. وأخرج ابن أبي حاتم عن عروة مثله[١].

المناسبة:

بعد بيان أدلة القدرة الإلهية على البعث والحشر والنشر، من خلق السماء والأرض، وإثبات إمكان الحشر عقلاً، أخبر الله تعالى بعد ذلك عن وقوعه

---

(١) أسباب النزول للسيوطي بهامش تفسير الجلالين.

فعلاً، وما يصحبه من أهوال، وما يترتب عليه من انقسام الناس إلى فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير.

وبعد بيان البرهان العقلي على إمكان القيامة، والإخبار عن وقوعها، وذكر أحوالها العامة وأحوال الأشقياء والسعداء فيها، أجاب الله تعالى عن تساؤل المشركين استهزاء وعناداً عن وقت حدوثها، وأوضح أن علمها مفوض إلى الله تعالى، وأن النبي ﷺ مبعوث للإنذار فقط، وأن ما أنكروه سيرونه، حتى كأنهم أبداً فيه، وكأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار، ثم مضت.

التفسير والبيان:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ أي إذا حان وقت مجيء الداهية العظمى التي تطم على سائر الطامات، وهي يوم القيامة، أو النفخة الثانية التي يكون معها البعث، أو تسليم أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، وينسى الإنسان كل شيء قبلها في جنبها، فَصَل الله تعالى بين الخلائق، فمنهم شقي وسعيد، فجواب (إذا) محذوف وهو: فصل الله..

ولذلك اليوم صفتان: إنه حين يتذكر الإنسان جميع ما عمله من خير أو شر؛ لأنه يشاهده مدوناً في صحائف عمله، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٨٩/٢٣]وقال سبحانه: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٥٨/٦]. وفيه تظهر نار جهنم المحرقة إظهاراً لا يخفى على أحد. سواء أكان مؤمناً أم كافراً، كما قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٩١] . قال مقاتل: «يكشف عنها الغطاء، فينظر إليها الخلق» فأما المؤمن: فيعرف برؤيتها قدر نعمة الله عليه بالسلامة منها، وأما الكافر: فيزداد غماً إلى غمه، وحسرة إلى حسرته.

ثم فصّل الله تعالى ما يحكم به بين الخلائق، فقال:

- ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾[1] أي فأما من تكبر وتمرد، وتجاوز الحد في الكفر والمعاصي، وقدّم الحياة الدنيا على أمر الدين والآخرة، ولم يستعد لها، ولا عمل عملها، فالنار المحرقة هي مأواه ومثواه ومستقره؛ لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة. قيل: نزلت الآية في النضر وابنه الحارث، وهي عامة في كل كافر آثر الحياة الدنيا على الآخرة.

- ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ أي وأما من خاف القيام بين يدي الله عز وجل وخاف حكم الله فيه يوم القيامة، وأدرك عظمة الله وجلاله، ونهى نفسه عن هواها، وزجرها عن المعاصي والمحارم التي تشتهيها، وردها إلى طاعة مولاها، فالجنة مكانه الذي يأوي إليه، ومستقره ومقامه، لا غيرها. والآية نزلت في مصعب بن عمير وأخيه عامر بن عمير، وهي عامة في كل مؤمن خاف الله، ولم يتبع هواه.

وهذان الوصفان مضادان للوصفين اللذين وصف الله بهما أهل النار، فقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ ضد قوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ وقوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ ضد قوله: ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾.

والخوف من الله لا بدَّ وأن يكون مسبوقاً بالعلم بالله، على ما قال الله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٣٥/٢٨] . ولما كان الخوف من الله هو السبب المعين لدفع الهوى، لذا قدمه على قوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾[2].

ثم ذكر الله تعالى تساؤل المشركين على سبيل الاستهزاء عن ميعاد القيامة، فقال:

(١) اللام: للعهد الذهني، أي مأواه اللائق به، ولهذا استغنى عن العائد، ولا حاجة إلى تكلف أن الألف واللام بدل من الإضافة.

(٢) تفسير الرازي: ٥١/٣١

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾ أي يسألك أيها النبي المشركون المكذّبون بالبعث عن وقت إرساء القيامة وميعاد وقوعها، متى يقيمها الله ويوجدها، أو ما منتهاها ومستقرها كرسوّ السفينة؟ وذلك حين كانوا يسمعون النبي ﷺ يذكر القيامة بأوصافها الهائلة، مثل الطامة والصاخة والآزفة والحاقة والقارعة، فقالوا على سبيل الاستهزاء: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي زمان إرسائها.

عن عائشة رضي الله عنها - كما تقدم -: لم يزل رسول الله ﷺ يذكر الساعة ويسأل عنها، حتى نزلت، فلما نزلت هذه الآية انتهى. وقال ابن عباس: سأل مشركو مكة رسول الله ﷺ متى تكون الساعة، استهزاءً؟ فأنزل الله عز وجل الآية.

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ أي: في أي شيء أنت يا محمد من ذكر القيامة والسؤال عنها؟ أو في أي شيء أنت من ذكر تحديدها ووقتها؟، أي لست من ذلك في شيء[1]. وهذا تعجب من كثرة ذكره لها، كأنه قيل: في أيّ شغل واهتمام أنت من ذكرها والسؤال عنها، حرصاً على جوابهم. والمعنى ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق، بل مردها ومرجعها ومنتهى علمها إلى الله عز وجل، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين، ولا يوجد علمها عند غيره، فكيف يسألونك عنها ويطلبون منك بيان وقت قيامها؟ وهم يسألونك عنها، فلحرصك على جوابهم لا تزال تذكرها وتسأل عنها.

ونظير الآية: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧/٧] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤/٣١] . ولهذا لما سأل جبريل عليه السلام رسول الله

---

(١) البحر المحيط: ٤٢٤/٨

ﷺ عن وقت الساعة قال فيما أخرجه مسلم عن عمر: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» .

﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ ﴾ أي إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه، وما أنت إلا مخوِّف لمن يخشى قيام الساعة، فمن خشي الله وخاف مقامه ووعيده، اتَّبعك فأفلح ونجا، ومن كذب بالساعة وخالفك، خسر وخاب، فدع علم ما لم تكلف به، واعمل بما أمرت به من إنذار. وخص الإنذار بأهل الخشية؛ لأنهم المنتفعون بذلك.

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ أي إن هذا اليوم الذي يسألون عنه واقع حتماً، وكأنهم فيه، فإنهم إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر، ورأوا الساعة (القيامة) استقصروا مدة الحياة الدنيا، ورأوا كأنها ساعة من نهار، أو عشية من يوم أو ضحى من يوم. والمراد تقليل مدة الدنيا في نفوسهم إذا رأوا أهوال القيامة. وقال ابن عباس: كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا يوماً واحداً. وقيل: لم يلبثوا في قبورهم إلا عشية أو ضحاها، وذلك أنهم استقصروا مدة لبثهم في القبور لِما عاينوا من الهول.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - ليس هناك تصوير أوقع لحال تفاعل النفس وانفعالها بمشهد خطير، مثل هذا التصوير لعلاقة النفس الإنسانية بقيام القيامة.

فإنه إذا وقعت الواقعة، وأتت الداهية العظمى، وهي النفخة الثانية التي يكون معها البعث، كما قال ابن عباس، تذكّر الإنسان ما عمل من خير أو شر، وشاهد الجحيم النار المحرقة التي تبرز عياناً لكل إنسان مؤمن أو كافر. قال ابن عباس: «يكشف عنها، فيراها تتلظى كل ذي بصر» يراها الكافر بما

فيها من أصناف العذاب، ويراها المؤمن ليعرف قدر النعمة التي أنعم الله بها عليه، ويشاهد الكافر الذي يَصْلى النار.

٢ - الناس يوم القيامة والبعث فريقان: السعداء والأشقياء. فأما من عتا وتمرد، وتكبر وتجاوز الحد في الكفر والعصيان، وقدَّم الحياة الدنيا على الآخرة، فمأواه ومستقرُّه النار.

وأما من حَذِر مقامه بين يدي ربه، وزجر نفسه عن المعاصي والمحارم، فمثواه ومستقره الجنة. قال سهل: ترك الهوى مفتاح الجنة؛ لقوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

٣ - أدَّى تساؤل المشركين عن وقت قيام الساعة استهزاء إلى كثرة سؤال النبي ﷺ عن ذلك، حرصاً على جوابهم. ولكن الله جلّت حكمته اختص بعلم الساعة، ولم يطلع أحداً عليها؛ لأن الإنذار والتخويف إنما يتمان إذا لم يكن العلم بوقت قيام القيامة حاصلاً، فلا حاجة إلى الاستفهام عن وقتها بعد العلم باقترابها، فإن هذا القدر من العلم يكفي في وجوب الاستعداد لها، بل لا يتم الغرض من التكليف إلا بإخفاء وقتها كالموت.

٤ - حجب الله نبيه عن السؤال عن الساعة، وأعلمه بأن علمها إلى الله وحده، ووجَّهه للعناية والقيام بمهمته الأصلية: وهي الإنذار والتخويف لمن يخشى مقام الله؛ لأنهم المنتفعون به، وإن كان منذراً لكل مكلف، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ٣٦/ ١١].

٥ - كل ما هو في حكم الواقع واقع حتماً، فكأن الكفار والمشركين الذين يتساءلون عن القيامة استهزاء وتهكماً واقعون فيها، قائمون في ساحاتها، وهم حين يرونها وما فيها من أهوال تشيب لها الولدان، يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا، ويقدِّرون أنها قدر عشية من ليل أو ضحى من نهار يتبع تلك العشية، والمراد تقليل مدة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٣٥].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة عبس

مكية، وهي اثنتان وأربعون آية

تسميتها:

سميت سورة (عبس) لافتتاحها بهذا الوصف البشري المعتاد الذي تقتضيه الجبلَّة الإنسانية، ويغلب على الإنسان حينما يكون مشغولاً بأمر مهم، ثم يطرأ عليه أمر آخر يصرفه عن الأمر السابق، ومع ذلك عوتب النبي ﷺ على عبوسه تسامياً لقدره، وارتفاعاً بمنزلته النبوية.

مناسبتها لما قبلها:

لهذه السورة تعلق بما قبلها وهي النازعات؛ لأنه تعالى ذكر هناك أن النبي ﷺ منذر من يخشى الساعة، وهنا ذكر من ينفعه الإنذار، وهم الذين كان رسول الله ﷺ يناجيهم في أمر الإسلام ويدعوهم إليه، وهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة. كما أن بينهما تشابهاً في موضوع الحديث عن يوم القيامة وأهوالها، وإثبات البعث بمخلوقات الله في الإنسان والكون، فهناك وصفت القيامة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ وهنا وصفت بقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾ وهما من أسماء يوم القيامة.

وهناك أثبت الله البعث بخلق السماء والأرض والجبال، وهنا أثبته بخلق الإنسان والنبات والطعام.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع السورة كسائر موضوعات السور المكية التي تعنى بالعقيدة والرسالة والأخلاق التي قوامها في الإسلام المساواة بين الناس، دون تفرقة بين غني وفقير.

ابتدأت السورة بذكر قصة الأعمى عبد الله بن أم مكتوم ابن خال خديجة بنت خويلد الذي قدم إلى الرسول ﷺ للتعلم، في وقت كان فيه مشغولاً مع جماعة من صناديد قريش يدعوهم إلى الإيمان، فعبس النبي ﷺ في وجهه وأعرض عنه، فعاتبه الله بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ [الآيات ١-١٦] وأبانت أن القرآن ذكرى وموعظة لمن عقل وتدبر.

ثم نددت بجحود الإنسان وكفره بنعم ربه وإعراضه عن هداية الله: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝١٧﴾ [الآيات ١٧-٢٣].

وأردفت ذلك بإقامة الأدلة على قدرة الله ووحدانيته بخلق الإنسان والنبات وتيسير طعام ابن آدم وشرابه، لإثبات القدرة على البعث: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤﴾ [الآيات ٢٤-٣٢].

وختمت السورة بوصف أهوال يوم القيامة، وفرار الإنسان من أقرب الناس إليه، وبيان حال المؤمنين السعداء والكافرين الأشقياء في هذا اليوم: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣﴾ [الآيات ٣٣-٤٢].

سبب نزول السورة:

نزلت هذه السورة في شأن عبد الله بن أم مكتوم ابن خال خديجة رضي الله

عنها. ويقال: عمرو بن قيس بن زائدة، وهذا أشهر وأكثر كما في جامع الأصول، واسم أم مكتوم: عاتكة بنت عامر بن مخزوم.

وذلك أنه أتى رسول الله ﷺ، وعنده صناديد قريش: عُتبة وشَيْبة ابنا ربيعة، وأبو جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأمية بن خلَف، والوليد بن المغيرة، يدعوهم إلى الإسلام، رجاء أن يُسلم بإسلامهم غيرُهم، فقال: يارسول الله، أقرئني وعلِّمني مما علمك الله، وكرر ذلك، وهو لا يعلم شغله بالقوم، فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه، وعبس وأعرض عنه، فنزلت، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه ويقول إذا رآه: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي» ويقول له: «هل لك من حاجة؟» . واستخلفه على المدينة والياً مرتين في غزوتين غزاهما[١].

قال أنس: فرأيته يوم القادسية راكباً، وعليه درع، ومعه راية سوداء. ويروى: أنه ﷺ ما عبس بعدها في وجه فقير قط، ولا تصدَّى لغني.

وعلّق القرطبي على أسماء الصناديد المذكورين بقوله: وهذا كله باطل وجهل من المفسرين الذين لم يتحققوا الدين، ذلك أن أمية بن خلف والوليد كانا بمكة، وابن أم مكتوم كان بالمدينة، ما حضر معهما ولا حضرا معه، وكان موتهما كافرين، أحدهما قبل الهجرة، والآخر ببدر، ولم يقصد قط أمية المدينة، ولا حضر عنده مفرداً، ولا مع أحد[٢]

ثم علّق أبو حيان على ذلك بقوله: والغلط من القرطبي، كيف ينفي حضور ابن أم مكتوم معهما، وهو وهم منه، وكلهم من قريش، وكان ابن أم مكتوم منها، والسورة كلها مكية بالإجماع، وابن أم مكتوم كان أولاً بمكة، ثم هاجر

---

(١) تفسير القرطبي: ١٩/ ١٢١، غرائب القرآن: ٣٠/ ٢٧، تفسير الرازي: ٣١/ ٥٤

(٢) تفسير القرطبي، المكان السابق.

إلى المدينة، وكانوا جميعهم بمكة حين نزول هذه الآية، وابن أم مكتوم: هو عبد الله بن شُرَيح بن مالك بن أبي ربيعة الفِهْري من بني عامر بن لؤي القرشي، وأم مكتوم أم أبيه عاتكة، وهو ابن خال خديجة رضي الله عنها[1].

المساواة في الإسلام

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾

القراءات:

﴿فَتَنفَعَهُ﴾:

قرأ عاصم (فتنفعَه) وقرأ الباقون (فتنفعُه).

﴿تَصَدَّىٰ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير (تَصَّدَّى).

الإعراب:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾: في موضع نصب؛ لأنه مفعول لأجله، وتقديره: لأن جاءه، فحذف اللام فاتصل الفعل به. ومنهم من جعله في موضع جر، بإعمال حرف الجر مع الحذف، لكثرة حذفها معها، وهي وحرف الجر في موضع نصب بالفعل قبلها.

---

(١) البحر المحيط: ٨/٤٢٧.

﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ ﴿فَتَنفَعَهُ﴾: بالنصب على جواب الترجي: (لعل) بالفاء بتقدير (أن). وبالرفع بالعطف على ﴿يَذَّكَّرُ﴾.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨﴾ ﴿يَسْعَىٰ﴾: حال من فاعل: جاء. ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾ حال من فاعل: يسعى، وهو الأعمى.

البلاغة:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ ثم قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب دلالة على مزيد الإنكار، وزيادة في العتاب، وتنبيهاً للرسول ﷺ إلى العناية بشأن الأعمى، كمن يشكو جانياً بطريق الغيبة، وهو حاضر، ثم يقبل على الجاني مواجهاً بالتوبيخ. وفي ذكر الأعمى إنكار أيضاً؛ لأن العمى يوجب العطف والرأفة عند ذوي الآداب غالباً، لا التولي والعبوس.

﴿يَذَّكَّرُ﴾ و ﴿ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ جناس اشتقاق.

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ سجع مرصع.

﴿تَصَدَّىٰ﴾ ﴿تَلَهَّىٰ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿عَبَسَ﴾ قطَّب وجهه. ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أعرض. ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ لأجل أن جاءه عبد الله بن أم مكتوم، فقطعه عما هو مشغول به من محاولة هداية أشراف قريش إلى الإسلام. وقد أطبق المفسرون على أن الذي عبس هو الرسول ﷺ، والأعمى: هو ابن أم مكتوم، واسمه عبد الله بن شُرَيح بن مالك بن ربيعة الزهري. وقد عاتب الله نبيه على عبوسه في وجه الأعمى، حتى لا تنكسر قلوب أهل الصُّفَّة؛ أو ليعلم أن المؤمن الفقير خير من الغني،

وأن النظر إلى المؤمن أولى وأصلح، وإن كان فقيراً، من النظر إلى غيره، وهو الإقبال على الأغنياء طمعاً في إيمانهم، وإن كان فيه نوع من المصلحة أيضاً[١].

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ أيْ: أيُّ شيء يعلمك ويعرّفك حال هذا الأعمى؟ ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ يتطهر من الذنوب بما يسمع منك وبما يتعرف عليه من الشرائع، وفيه إيماء بأن إعراضه كان لتزكية غيره .﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ﴾ يتعظ، أصله يتذكر، فأدغم التاء في الذال .﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾ العظة المسموعة منك.

﴿ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ بالمال والجاه والقوة عن سماع القرآن .﴿تَصَدَّىٰ﴾ تُقْبِلُ وتَعْرِض، وقرئ: (تصّدَّى) وأصله: تتصدى، فأدغم التاء الثانية بالصاد .﴿أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ يتطهر ويؤمن، أي ليس عليك بأس في ألا يتزكى بالإسلام، حتى يبعثك الحرص على إسلامه إلى الإعراض عمن أسلم، إن عليك إلا البلاغ .﴿وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩﴾ أي يخاف الله، وهو الأعمى .﴿تَلَهَّىٰ﴾ تتشاغل، وأصله تتلهى، فحذفت التاء الأخرى.

سبب النزول:

نزول الآية (١):

﴿عَبَسَ﴾ : أخرج الترمذي والحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت: أنزل ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ، فجعل يقول: يا رسول الله، أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه، ويقبل على الآخر، فيقول له: أترى بما أقول بأساً؟ فيقول: لا ، فنزلت: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾. وأخرج أبو يعلى مثله عن أنس.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٩/٢١٣

التفسير والبيان:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ أي قطب النبي ﷺ وجهه، وأعرض، لأن جاءه الأعمى وقطع كلامه، وهو عبد الله بن أم مكتوم، فكره رسول الله ﷺ أن يقطع عليه ابن أم مكتوم كلامه، فأعرض عنه، فنزلت. وعُذْر ابن أم مكتوم أنه لم يدر بتشاغل النبي ﷺ.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾ أي وما يعلمك ويعرفك يا محمد لعل الأعمى يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح بسبب ما يتعلمه منك، أو يتذكر فيتعظ بما تعلمه من المواعظ، فتنفعه الموعظة.

وفي هذا إيماء إلى أن غير الأعمى ممن تصدى لتزكيتهم وتذكيرهم من المشركين لا يرجى منهم الهداية. وفيه تعظيم من الله سبحانه لابن أم مكتوم.

وكان هذا التصرف من النبي ﷺ بمثابة ترك الاحتياط وترك الأفضل، فلم يكن ذلك ذنباً ألبتة، ولا مصادماً لمبدأ عصمة الأنبياء، لصدور الفعل عن أمر تابع للجبلّة الإنسانية كالرضا والغضب والضحك والبكاء، والتي رفع عنها التكليف في شريعة الإسلام.

وبعد هذا الوصف المؤذن بالعتاب جاء العتاب صريحاً في قوله تعالى:

أ - ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ أي أما من استغنى بماله وثروته وقوته عما لديك من معارف القرآن والهداية الإلهية، وعن الإيمان والعلم، فأنت تقبل عليه بوجهك وحديثك، وهو يظهر الاستغناء عنك والإعراض عما جئت به.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ أي لا بأس ولا شيء عليك في ألا يسلم ولا يهتدي، ولا يتطهر من الذنوب، فإنه ليس عليك إلا البلاغ، فلا تهتم بأمر من كان مثل هؤلاء من الكفار.

٢ - ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ أي وأما

من أتى إليك مسرعاً في طلب الهداية والإرشاد إلى الخير، والعظة بمواعظ الله، وهو يخاف الله تعالى، فأنت تتشاغل عنه وتعرض وتتغافل.

لذا أمر الله تعالى رسوله ﷺ ألا يخص بالإنذار أحداً، بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف، والغني والفقير، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والصغار والكبار، ثم يهدي الله تعالى من يشاء إلى صراط مستقيم.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - الآية عتاب من الله تعالى لنبيه ﷺ في إعراضه وتوليه عن عبد الله بن أم مكتوم، حتى لا تنكسر قلوب الفقراء، وليعلم أن المؤمن الفقير خير من الغني.

٢ - بالرغم من أن ابن أم مكتوم كان يستحق التأديب والزجر؛ لأنه أبى إلا أن يكلم النبي ﷺ حتى يُعلِّمه، فكان في هذا نوع جفاء منه، بالرغم من هذا عاتب الله تعالى نبيه ﷺ؛ لأن الأهم مقدم على المهم. ويستحق التأديب أيضاً؛ لأنه كان قد أسلم وتعلَّم ما كان يحتاج إليه من أمر الدين. أما أولئك الكفار فما كانوا قد أسلموا، وإسلامهم سبب لإسلام جمع عظيم.

٣ - عُذْر ابن أم مكتوم: أنه لم يكن عالماً بأن النبي ﷺ مشغول بغيره، وأنه يرجو إسلامهم.

٤ - الآية دليل واضح على وجوب المساواة في الإسلام في شأن الإنذار وتبليغ الدعوة دون تمييز بين فقير وغني. ونظير هذه الآية في العتاب قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٦/ ٥٢] وقوله سبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٨].

٥ - أراد الله توفير جهد نبيه ﷺ في دعوة رؤساء قريش إلى الإسلام، وهم في الحقيقة لن يؤمنوا، وكفاهم ما بلَّغهم به من دعوته إلى التوحيد، ونبذ عبادة الأوثان، وليس عليه بأس بعدئذ في ألا يهتدوا ولا يؤمنوا، فإنما هو رسول، ما عليه إلا البلاغ، ولا يصح أن يكون الحرص على إسلامهم مؤدياً إلى الإعراض عمن أسلم، للاشتغال بدعوة من لم يسلم.

القرآن موعظة وتذكرة ونعم الله في نفس الإنسان

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾

الإعراب:

﴿فِى صُحُفٍ﴾ خبر ثان لـ ﴿إِنَّهَا﴾ وما قبله اعتراض، أو خبر لمبتدأ محذوف.

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ ﴿مَآ﴾ إما تعجبية، وإما استفهامية.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ السبيل منصوب بفعل يفسره الظاهر، للمبالغة في التيسير.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ ﴿لَمَّا﴾ حرف جزم، معناه النفي لما قرب من الحال. و﴿مَآ أَمَرَهُۥ﴾ تقديره: لِما أمَرَهُ به، فحذف الباء من (به) ثم حذف الهاء العائدة إلى (ما) فصار: لما أمره.

البلاغة:

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ أسلوب التعجب، تعجب من إفراط كفره، مع كثرة إحسان الله إليه.

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾﴾ إجمال، ثم تفصيل بقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾﴾.

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾﴾ كناية بالسبيل عن خروجه من فرج الأم.

﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ إلخ توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات، وهو المسمى بالسجع المرصع.

المفردات اللغوية:

﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر، والمراد هنا زجر المخاطب عن المعاتب عليه، أو عن معاودة مثله، أي لا تفعل مثل ذلك. ﴿إِنَّهَا﴾ أي الهداية أو آيات القرآن. ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ موعظة، وهي في معنى الذكر والوعظ، لذا ذكّر الضمير العائد إليها في قوله: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾﴾ أي اتعظ به، أو حفظه. والمراد أن هذا القرآن، أو هذا التأديب الذي عرّفناكه في إجلال الفقراء وعدم الالتفات إلى أهل الدنيا ثبت في اللوح المحفوظ الذي قد وكل بحفظه أكابر الملائكة.

﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾﴾ أي إن التذكرة مثبتة كائنة مودعة في صحف شريفة عند الله. ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ رفيعة القدر في السماء. ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ منزهة عن أيدي الشياطين، وعن النقص. ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾ كَتَبة من الملائكة ينسخونها من اللوح المحفوظ. ﴿كِرَامٍ﴾ أعزاء على الله تعالى. ﴿بَرَرَةٍ﴾ أتقياء مطيعين لله تعالى، وهم الملائكة.

﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾﴾ دعاء عليه بأشنع الدعوات، وتعجب من إفراطه في كفران النعم، أو استفهام توبيخ، أي ما حمله على الكفر؟! ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾﴾ بيان لما أنعم عليه، والاستفهام للتحقير.

﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ﴾ من مني ثم من علقة ثم من مضغة إلى آخر خلقه. ﴿فَقَدَّرَهُ﴾ أي أنشأه في أطوار وأحوال مختلفة. ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾﴾ أي سهّل له

مخرجه من بطن أمه، وهو كناية، أو سهل له طريق الخير والشر .﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾ جعله في قبر يستره، ويُوارى فيه .﴿أَنشَرَهُۥ﴾ بعثه بعد الموت .﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عما هو عليه من الترفع والتكبر .﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أي لم يفعل ما أمره الله به بنحو كامل؛ إذ لا يخلو أحد من التقصير في شيء ما.

سبب النزول:

نزول الآية (١٧):

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾: أخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ قال: نزلت في عُتْبة بن أبي لَهَب حين قال: كفرت برب النجم.

المناسبة:

بعد عتاب الله لنبيه على عبوسه في وجه عبد الله بن أم مكتوم بسبب انشغاله مع رؤساء قريش، سرّى الله عنه بقوله: ﴿كَلَّآ﴾ أي لا تفعل مثل ذلك، وعرَّفه بأن الهداية لا تحتاج لجهود ومحاولات كثيرة، وأن هذا التأديب الذي أوحى إليه به كان لإجلال الفقراء وعدم الالتفات إلى أهل الدنيا، وهذا القرآن مجرد تذكرة لتنبيه الغافلين، فمن رغب فيها، اتعظ بها وحفظها وعمل بموجبها، وهي مودعة في صحف شريفة القدر.

وبعد بيان حال القرآن وأنه كتاب الذكرى والموعظة، ذمّ الله الإنسان ووبخه على كفران نعم ربه، وتكبره وتعاظمه عن قبول هداية الله له، وأنه استحق أعظم أنواع العقاب لأجل ارتكابه أعظم أنواع القبائح.

التفسير والبيان:

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾ أي لا تفعل مثل فعلك مع ابن أم مكتوم، من

الإعراض عن الفقير، والتصدي للغني مع كونه ليس ممن يتزكى، وإن هذه الآيات أو السورة أو القرآن موعظة، جدير بك وبأمتك أن تتعظ بها وتعمل بموجبها.

وفي الآية تعظيم شأن القرآن، فسواء قبله الكفرة أم لا، فلا يؤبه بهم، ولا يلتفت إليهم.

ثم وصف تلك التذكرة بأمرين:

١ - ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾ أي إن هذه تذكرة بيِّنة ظاهرة، مقدور على فهمها والاتعاظ بها والعمل بموجبها، فمن رغب فيها اتعظ بها، وحفظها، وعمل بموجبها.

٢ - ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ أي إنها تذكرة مثبتة مودعة كائنة في صحف مكرمة عند الله، لما فيها من العلم والحكمة، ولنزولها من اللوح المحفوظ، رفيعة القدر عند الله، منزَّهة لا يمسّها إلا المطهرون، مصانة عن الشياطين والكفار، لا ينالونها، ومنزَّهة عن النقص والضلالات، محمولة بأيدي ملائكة سفرة وسائط يسفرون بالوحي بين الله ورسله لتبليغها للناس، من السفارة: وهي السعي بين القوم.

وهم كرام على ربهم، كرام عن المعاصي، أتقياء مطيعون لربهم، صادقون في إيمانهم، أي إن الله تعالى وصف الملائكة بصفات ثلاث: هي كونهم سفراء ينزلون بالوحي بين الله وبين رسله، وكرام على ربهم، ومطيعون لله، كما قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٢٦] وقال: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦٦/٦] .

قال ابن جرير الطبري: والصحيح أن السفرة: الملائكة، والسفرة يعني بين الله تعالى وبين خلقه، ومنه يقال: السفير: الذي يسعى بين الناس في الصلح والخير.

أخرج الجماعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن، وهو ماهر به، مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه، وهو عليه شاق، له أجران» .

ثم ذم الله تعالى من أنكر البعث والنشور من الناس بقوله:

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ أي لعن الإنسان الكافر، أو قتل أو عذب، ما أشد كفره؟! وهذا دعاء عليه بأشنع الدعوات، وتعجب من إفراطه في الكفر، ودليل على سخط عظيم وذم بليغ، يدل على قبح حاله، وبلوغه حداً من العتو والكبر لا يستحق معه الحياة. وهذا جارٍ على أسلوب العرب عند التعجب من شيء، فيقال: قاتله الله ما أفصحه؟! والمراد بالكلام الملائم في حقه تعالى هنا: إرادة إيصال العقاب الشديد للكافر.

ثم ذكّره بخلقه من الشيء الحقير، وأنه قادر على إعادته كما بدأه، فقال تعالى:

﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ أي من أي شيء مهين حقير، خلق الله هذا الكافر بربِّه؟ فلا ينبغي له التكبر عن الطاعة، إنه تعالى خلقه من ماء مهين، وقدَّره أطواراً وأحوالاً، وسوَّاه وهيَّأه لمصالح نفسه، وأتَّم خلقه وأكمله بأعضائه الملائمة لحاجاته مدة حياته، وزوّده بطاقات العقل والفكر والفهم، والقوى والحواس للاستفادة من نعم الله تعالى، فلا يستعملها فيما يغضب الله، وإنما عليه استعمالها في رضوان الله.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ إما كناية عن خروجه بسهولة من فرج أمه، وإما أنه تعالى يسر له الطريق إلى تحصيل الخير أو الشر، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٩٠/١٠] أي بيَّنا له طريق الخير وطريق الشر، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٧٦/٣] .

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾﴾ أي إنه بعد خلقه له وتمكينه من الحياة قبض روحه، وجعله في قبر يوارى فيه إكراماً له، ولم يجعله ملقى على وجه الأرض تأكله السباع والطير، ثم إذا شاء الله إنشاره أحياه بعد موته، أو بعثه بعد موته، في الوقت الذي يريده الله تعالى. ومنه يقال: البعث والنشور.

والإماتة ستر للعيوب بعد الهرم أو المرض، والإقبار تكرمة حيث لم يُلْقَ للطير والسباع، والإنشار أي البعث عدل وفضل. ثم لامه على تقصيره، وأكد كفره بالنعم، فقال:

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾﴾ أي هذا ردع وزجر للإنسان عما هو عليه، فلم يخل إنسان من تقصير قط، فبعض الناس أخل بالكفر، وبعضهم بالعصيان، وبعضهم بارتكاب خلاف الأولى والأفضل بما يليق بمنزلته، وما قضى ما أمره الله إلا القليل. والآية تدل على العجب من حال الإنسان، فإنه قد ينكر خالقه بعد قيام الأدلة على وجوده في نفسه وفي السماوات والأرض، وقد يجحد نعمة ربه، فلا يقابلها بالحمد والشكر وعرفان الجميل، وينسبها إلى نفسه، وقد يعصي الله بالرغم من وجود أدلة الهداية والرشد، وإدراكه مخاطر العصيان.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - القرآن الكريم كتاب تذكرة وموعظة وتبصرة للناس جميعاً، فمن أراد اتعظ بالقرآن وانتفع به وعمل بموجبه. وهذا دليل على حرية الاختيار.

٢ - القرآن كتاب جليل عند الله، فهو مثبت مودع في صحف مكرمة عند الله، لما فيها من العلم والحكمة، رفيعة القدر عند الله، مطهرة من كل دنس، مصانة عن أن ينالها الكفار، محمولة بأيدي ملائكة جعلهم الله سفراء بينه وبين

رسله، وهم كرام على ربهم، كرام عن المعاصي، يرفعون أنفسهم عنها، مطيعون لله، صادقون لله في أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٧٧-٧٩].

٣ - لعن الإنسان حيث كفر بالقرآن، وما أظلمه حيث أنكر البعث والنشور، فالله قادر على إعادته كما قدر على بدء خلقه، فإنه خلقه من ماء يسير مهين، ثم جعله يمر بأطوار بعد كونه نطفة، إلى وقت إنشائه خلقاً آخر، وبأحوال من كونه ذكراً أو أنثى أو شقياً أو سعيداً، حسناً أو دميماً، قصيراً أو طويلاً، فكيف يليق به التكبر والتجبر عن أوامر الله؟ ثم يسر له سلوك طريق الخير والشر، أي بيَّن له ذلك، كما قال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٧٦/ ٣] وقال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٩٠/ ١٠].

ثم جعل له قبراً يوارى فيه إكراماً له، ولم يجعله مما يلقى على وجه الأرض تأكله الطير والسباع. وهذا دليل على أن الله سبحانه أمر بدفن الأموات الإنسية تكرمة لهم، سواء أكانوا مؤمنين أم كفاراً، دون أن يطرحوا على وجه الأرض، طعمة للسباع، كسائر الحيوان.

ثم إذا شاء الله أنشره، أي أحياه بعد موته.

وكل هذه الانتقالات دلالات واضحة على أنه سبحانه إذا شاء أن ينشر الإنسان ببعثه من قبره أنشره. وهذه الانتقالات أو المراتب ثلاث: الأولى بداية خلقه من ماء مهين، وهذا دليل على زيادة التقرير في التحقير، والثانية المتوسطة -التمييز بين الخير والشر، والثالثة الأخيرة- الإماتة والإقبار، والإنشار، أي الإحياء بعد البعث.

٤ - كل إنسان إلا القليل مقصر في حق الله، فلا يقضي أحد ما أمر به، من الإيمان والطاعة، والتأمل في دلائل الله، والتدبر في عجائب خلق الله وبينات حكمته.

نعم الله فيما يحتاج إليه الإنسان

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾

القراءات:

﴿أَنَّا صَبَبْنَا﴾:

قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي (أنا صببنا) وقرأ الباقون (إنا صببنا).

الإعراب:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾ ﴿أَنَّا﴾ إما بدل من ﴿طَعَامِهِۦٓ﴾ بدل اشتمال؛ لأن هذه الأشياء تشتمل على الطعام، وإما على تقدير اللام، ، أي لأنا صببنا. وتقرأ بالكسر (إنا) على الابتداء والاستئناف.

المفردات اللغوية:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ نظر تأمل واعتبار .﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ كيف أوجد وقدر ودبر له؟ والظاهر أن الطعام هو المطعوم .﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾ أي أنزلناه بسخاء وكثرة من السحاب، وهو بيان لكيفية إحداث الطعام .﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾ أي شققناه بالنبات، وإسناد الصب والشق إلى الله نفسه إسناد الفعل إلى السبب .﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾ كالحنطة والشعير .﴿وَقَضْبًا﴾ هو القت الرطب أو البرسيم، سمي قضباً لأنه يقضب، أي يقطع مرة بعد أخرى. ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾﴾ بساتين ضخاماً عظاماً، كثيرة الأشجار، جمع غلباء، وصف به الحدائق لتكاثفها وكثرة أشجارها .﴿وَأَبًّا﴾ الأب: العشب أو ما

ترعاه البهائم، سمي أبّاً؛ لأنه يُؤبّ، أي يُؤَم وينتجع. ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٢﴾﴾ متعة أو تمتيعاً، أي أنبتناه لكم لتتمتعوا وتنتفع أنعامكم، فبعض الأنواع المذكورة طعام وبعضها علف.

المناسبة:

بعد بيان الدلائل على قدرة الله تعالى وتعداد نعمه في الأنفس البشرية أو الذوات، ذكر الله دلائل الآفاق، وعدَّد النعم التي يحتاج إليها الإنسان لقوام حياته.

التفسير والبيان:

﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ أي فليتأمل الإنسان كيف خلق الله طعامه الذي يعيش به، ويكون سبباً لحياته، وكيف دبره وهيأه له. وفي هذا امتنان بهذه النعمة، واستدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعدما كانت عظاماً بالية.

ثم أوضح كيفية إيجاد الطعام، فقال:

﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾﴾ أننا أنزلنا الماء من السماء أو السحاب على الأرض بغزارة وكثرة، فصب الماء هو المطر، ثم أسكناه في الأرض، ثم رَوينا البذر المودع فيها، ثم شققناها بالنبات الخارج منها، فارتفع وظهر على وجهها، فكان هناك أنواع مختلفة من النباتات في الصغر والكبر، والهيئة والشكل، واللون والطعم، والأغراض المتنوعة كالغذاء والدواء والمرعى، لذا ذكر تعالى بعدئذ ثمانية أنواع من النبات بقوله:

أ - ٣ - ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾﴾ أي فأنبتنا في الأرض الحبوب التي يتغذى بها كالحنطة والشعير والذرة، والأعناب المتنوعة، والرطبة أو القت أو البرسيم أو الفصفصة التي تأكلها الدواب رطبة. والمعنى أن النبات لا يزال ينمو ويتزايد إلى أن يصير حباً وعنباً وقضباً. وقيل: القضب: العلف.

٤ - ٥ - ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾﴾ أي وأنبتنا أيضاً شجر الزيتون والنخيل، وثمرتهما معروفة.

٦ - ٨ - ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ أي بساتين ذات أشجار ضخمة ومتكاثفة كثيرة، وفاكهة وهي كل ما يتفكه به من الثمار، أي يستمتع به، كالتفاح والكمّثرى والموز والخوخ والتين ونحوها، وعشباً أوحشيشاً مرعى للدواب، فالأبُّ: كل ما أنبتت الأرض مما لا يأكله الناس ولا يزرعونه من الكلأ وسائر أنواع المرعى للحيوان.

ثم ذكر وجه النعمة أو الحكمة في خلق هذه النباتات، فقال:

﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ أي جعلنا ذلك متعة أو عيشة لكم ولأنعامكم، لتنتفعوا بها وتأكلها بهائمكم، والأنعام: هي الإبل والبقر والغنم.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - أمر الله تعالى بالنظر والاستدلال والتدبر إلى الطعام الذي يتناوله الإنسان، ويعيش به، كيف دبَّر الله أمره، من إنزال الماء من السماء، ثم شق الأرض بالنبات أو بالحراثة على الدواب أو بالآلات، وإخراج أنواع النبات المختلفة.

٢ - ذكر الله تعالى ثمانية أنواع من النبات: وهي الحب: وهو كل ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما، وقُدِّم لأنه كالأصل في الغذاء، والعنب، وذكر بعد الحب، لأنه غذاء من وجه وفاكهة من وجه آخر، والقضب عند أهل مكة واليمن: وهو الرطبة المسماة بالقت، والزيتون والنخيل، والحدائق ذات الأشجار الضخمة الكثيرة، والفاكهة: وهي ما يأكله الناس من الثمار،

وقد ذكرها مجملة ليعم جميع أنواعها، والأب: وهو المرعى الذي يؤبّ أي يؤم وينتجع، وهو ما تأكله البهائم من العشب.

٣ً - الغاية من خلق هذه النباتات التي تشمل ما يتغذى به الإنسان والحيوان: هي الانتفاع بها، سواء بالنسبة للناس أو للدواب؛ لأن إنبات هذه الأشياء إمتاع لجميع الحيوانات.

٤ً - القصد من إيراد هذه الأشياء: ضرب المثل من الله تعالى، لبعث الموتى من قبورهم، والامتنان من الله على عباده بما أنعم به عليهم.

والخلاصة: أن المقصود من هذه الأشياء أمور ثلاثة:

أولها - إيراد الدلائل الدالة على التوحيد.

وثانيها - إيراد الدلائل الدالة على القدرة على المعاد.

وثالثها - الترغيب بالإيمان والطاعة؛ فإنه لا يليق بالعاقل أن يتمرد عن طاعة الإله الذي أحسن إلى عباده بهذه الأنواع العظيمة من الإحسان.

أهوال القيامة

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾

القراءات:

﴿شَأْنٌ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (شان).

الإعراب:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾ جواب إذا: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ أي استقر لكل امرئ منهم.

البلاغة:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ بينهما مقابلة، قابل فيها بين وجوه السعداء ووجوه الأشقياء.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ هي القارعة أو الطامة الكبرى أو القيامة، وهي النفخة الثانية التي يكون معها البعث، والمراد بها الصيحة التي تصم الآذان لشدتها، وصفت بها مجازاً؛ لأن الناس يصخون لها، والصخ: الضرب بالحديد على الحديد أو بالعصا على شيء، فيسمع صوت شديد.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ لاشتغاله بشأنه، وعلمه بأنهم لا ينفعونه. ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ شغل أو حال يكفيه في الاهتمام به، ويشغله عن شأن غيره، أي اشتغل كل واحد بنفسه، مما يدل على الرهبة والخوف الشديد، و﴿يُغْنِيهِ﴾ يصرفه عن غيره.

﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ مضيئة متهللة مشرقة من البشر، يقال: أسفر الصبح: إذا أضاء. ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ فرحة بما ترى من النعيم، وهم المؤمنون. ﴿غَبَرَةٌ﴾ غبار وكدورة، وهم الكافرون. ﴿تَرْهَقُهَا﴾ تغشاها. ﴿قَتَرَةٌ﴾ سواد وظلمة كالدخان. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أصحاب هذه الحالة. ﴿هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ الجامعون بين أنواع

الكفر: (إنكار وجود الله أو إنكار وحدانيته) والفجور: العصيان والخروج عن حدود الله.

المناسبة:

بعد بيان نعم الله تعالى في نفس الإنسان وفي الآفاق، وإقامة الأدلة والبراهين بها على كمال قدرة الله عز وجل على البعث وكل شيء، أبان الله تعالى بعض أهوال القيامة وأحوالها التي تملأ النفس خوفاً ورهبة، ليكون ذلك مدعاة إلى التأمل في الدلائل والإيمان بها والإعراض عن الكفر، وإلى ترك التكبر على الناس، وإلى إظهار التواضع إلى كل أحد.

والناس في ذلك الموقف فريقان: سعداء وأشقياء، والفريق الأول ضاحك مستبشر: وهو من آمن بالله ورسله وأطاع ما أمر الله به. والفريق الثاني عابس متكدر، تعلو وجهه الغبرة وترهقه القترة: وهو الذي أنكر وجود الله وتوحيده، وأعرض عن قبول ما جاءت به رسل الله.

قال القرطبي: لما ذكر أمر المعاش، ذكر أمر المعاد، ليتزودوا له بالأعمال الصالحة، وبالإنفاق مما امتنّ به عليهم.

التفسير والبيان:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾ أي إذا جاءت القيامة أو صيحة يوم القيامة التي تصخ الأذن، أي تصمها فلا تسمع. والصاخّة: اسم من أسماء القيامة، عظّمه الله وحذّر عباده. قال البغوي: الصاخة: يعني صيحة يوم القيامة، سميت بذلك؛ لأنها تصُخّ الأسماع وتُصِمُّ الآذان لشدتها، أي تبالغ في إسماعها حتى تكاد تُصِمُّها. وقال ابن جرير: لعله اسم للنفخة في الصور.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ أي إذا جاءت الصاخة حين يرى المرء أعز أقاربه

وأخصهم لديه، وأولاهم بالحنو والرأفة والعطف، من أخ وأم وأب وزوجة وولد، ويفر منهم ويبتعد عنهم؛ لأن الهول عظيم والخطب جليل، ولكل امرئ منهم يومئذ حال أو شغل يشغله عن الأقرباء ويصرفه منهم، ويفرّ عنهم، حذراً من مطالبتهم إياه بشيء يهمهم، ولئلا يروا ما هو فيه من الشدة، وهو كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الدخان: ٤٤/ ٤١] وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [المعارج: ٧٠/ ١٠].

والمراد: أن الذين كان المرء في دار الدنيا يفرّ إليهم ويستجير بهم، فإنه يفرّ منهم في دار الآخرة. وفائدة الترتيب واضحة، وهي الفرار من الأبعد وهو الأخ، ثم من الأبوين، ثم من الزوجة والولد، من قبيل الترقي إلى الأحب عادة والأقرب، قال الزمخشري: بدأ بالأخ، ثم بالأبوين؛ لأنهما أقرب منه، ثم الصاحبة والبنين؛ لأنهم أقرب وأحب، كأنه قال: يفرّ من أخيه، بل من أبويه، بل من صاحبته وبنيه. وأيده الرازي في هذا.

وعقب النظام النيسابوري في غرائب القرآن على ذلك فقال: هذا القول يستلزم أن تكون الصاحبة أقرب وأحب من الأبوين، ولعله خلاف العقل والشرع. والأصوب أن يقال: أراد أن يذكر بعض من هو مطيف بالمرء في الدنيا من أقاربه في طرفي الصعود والنزول فبدأ بطرف الصعود؛ لأن تقديم الأصل أولى من تقديم الفرع، وذكر أولاً في كل من الطرفين من هو معه في درجة واحدة وهو الأخ في الأول والصاحبة في الثاني. على أن وجود البنين موقوف على وجود الصاحبة، فكانت بالتقديم أولى[١].

والأظهر أن الفرار المعني: هو قلة الاهتمام بشأن هؤلاء، بدليل قوله: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ أي يصرفه ويصدّه عن قرابته[٢].

---

(١) تفسير الكشاف: ٣/ ٣١٤، تفسير الرازي: ٣١/ ٦٤، غرائب القرآن: ٣٠/ ٣١

(٢) غرائب القرآن، المكان السابق.

روى ابن أبي حاتم والنسائي والترمذي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «تحشرون حفاة عراة مشاة غُرْلاً» أي غير مختونين، قال: فقالت زوجته: يا رسول الله، نظر أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: «﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾» أو قال: «ما أشغله عن النظر!!».

ثم ذكر الله تعالى أحوال الناس حينئذ وانقسامهم في ذلك اليوم إلى سعداء وأشقياء، فقال واصفاً السعداء أولاً:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ أي يكون الناس هنالك فريقين: وجوه متهللة مشرقة مضيئة، وهي وجوه المؤمنين أهل الجنة؛ لأنهم قد علموا إذ ذاك ما لهم من النعيم والكرامة.

ثم وصف الأشقياء بقوله:

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ أي ووجوه أخرى في القيامة عليها غبار وكدورة، لما تراه مما أعدّه الله لها من العذاب، يغشاها سواد وكسوف، وذلّة وشدة، وأصحاب تلك الوجوه المغبَّرة هم الذين كفروا بالله فلم يؤمنوا به، ولا بما جاء به أنبياؤه ورسله، واقترفوا السيئات، فهم الفاسقون الكاذبون الذين جمعوا بين الكفر والفجور، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٧١/ ٢٧]. ولا نسلم أن صاحب الكبيرة فاجر، بدليل هذه الآية: ﴿ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ فالكفار هم الفجار لا غيرهم.

ووجود هذين الفريقين في هذه الآية ونحوها لا يقتضي نفي وجود فريق ثالث وهم المؤمنون العصاة أو الفساق، كما قال الرازي[١].

---

(١) تفسير الرازي: ٣١/ ٦٥

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - إذا جاءت صيحة القيامة وهي النفخة الثانية أو الأخيرة، والتي يهرب في يومها الأخ من أخيه، والولد من والديه، والزوج من زوجته وأولاده، لاشتغاله بنفسه، يكون لكل إنسان يومئذ حال أو شغل يشغله عن غيره.

جاء في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُحشر الناس يوم القيامة حُفاة عُراة غُرْلاً» قلت: يا رسول الله! الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض».

ولفظ رواية الترمذي عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: «يُحشرون حفاة عُراة غُرْلاً»، فقالت امرأة: أينظر بعضنا، أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: «يا فلانة ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٨٠/٣٧] » قال: حديث حسن صحيح.

٢ً - يكون الناس يوم القيامة فريقين: فريق وجوههم مشرقة مضيئة، مسرورة فَرِحة مستبشرة بما آتاها الله من الكرامة، قد علمت ما لها من الفوز والنعيم، وهي وجوه المؤمنين. وفريق وجوههم يعلوها غبار ودخان تغشاها ظلمة وسواد، وهي وجوه الكافرين بالله وبرسله، العاصين الكاذبين المفترين على الله تعالى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

مكية، وهي تسع وعشرون آية

تسميتها:

سميت سورة التكوير، لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ أي جمع بعضها إلى بعض، ثم لُفّت، فرمي بها، ومُحي ضوءُها.

مناسبتها لما قبلها:

توضح كل من السورتين أهوال القيامة وشدائدها، ففي سورة ﴿عَبَسَ﴾ قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ۝٤٢﴾ [٣٣-٤٢] وفي هذه السورة قال سبحانه: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ إلخ، فلما ذكر سبحانه الطامة والصاخة في خاتمتي السورتين المتقدمتين، أردفهما بذكر سورتين مشتملتين على أمارات القيامة وعلامات يوم الجزاء.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة كغيرها من السور المكية تتعلق بالعقيدة، فهي تقرر ما يوجد في يوم القيامة من أحوال، وتثبت أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى.

وقد ابتدأت ببيان أهوال القيامة، وما يصحبها من تغيرات كونية غريبة، تشمل كل ما يشاهده الإنسان في الدنيا من السماء وكواكبها، والأرض وجبالها وبحارها ووحوشها، والنفوس البشرية ومظالمها، وتبرز بعدئذ الجحيم ونيرانها، والجنة ونعيمها: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ [الآيات: ١-١٤].

ثم تحدثت عن القرآن وتنزيله من الله بواسطة جبريل الأمين على قلب النبي المصطفى ﷺ، وإثبات نبوته ورسالته وأمانته في تبليغ الوحي وأهليته العالية لتلقي الوحي، ورؤيته جبريل عليه السلام على صورته الحقيقية: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥﴾ [الآيات: ١٥-٢٥].

وختمت السورة ببيان ضلال المشركين، وأن القرآن عظة وذكرى لجميع العالمين من الإنس والجن ممن أراد الهداية وأقبل على الخير، وأن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله تعالى، فلا يستطيع الاستقلال بعمل ما دون إرادة الله.

فضلها:

أخرج الإمام أحمد والترمذي والحاكم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة، كأنه رأي عين، فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾ و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾».

أحوال القيامة وأهوالها

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾

القراءات:

﴿سُجِّرَتۡ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (سُجِرَتْ).

﴿نُشِرَتۡ﴾:

قرأ عاصم، ونافع، وابن عامر (نُشِرَت) وقرأ الباقون (نُشِّرَت).

﴿سُعِّرَتۡ﴾:

قرأ نافع، وابن ذكوان، وحفص (سُعِّرت)، وقرأ الباقون (سُعِرَت).

الإعراب:

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾ ﴿إِذَا﴾ ظرف، والعامل فيه وفي كل ﴿إِذَا﴾ بعدها قوله تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ۝١٤﴾. و﴿ٱلشَّمۡسُ﴾ فاعل لفعل مضمر يفسره ﴿كُوِّرَتۡ﴾ كما ذكر الزمخشري؛ لأن ﴿إِذَا﴾ لا تدخل إلا على فعل، لما فيها من معنى الشرط.

البلاغة:

﴿كُوِّرَتۡ﴾ ﴿ٱنكَدَرَتۡ﴾ ﴿عُطِّلَتۡ﴾ ﴿حُشِرَتۡ﴾ ﴿سُجِّرَتۡ﴾ ﴿زُوِّجَتۡ﴾ ﴿سُئِلَتۡ﴾ ﴿قُتِلَتۡ﴾ ﴿نُشِرَتۡ﴾ ﴿كُشِطَتۡ﴾ ﴿سُعِّرَتۡ﴾ ﴿أُزۡلِفَتۡ﴾ ﴿أَحۡضَرَتۡ﴾ سجع مرصع، وهو توافق الفواصل رعاية لرؤوس الآيات.

﴿ٱلۡجَحِيمُ﴾ و ﴿ٱلۡجَنَّةُ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿كُوِّرَتۡ﴾ لُفَّت وطويت وأزيل ضياؤها ونورها .﴿ٱنكَدَرَتۡ﴾ تساقطت

وتهاوت على الأرض ومُحي ضوءُها .﴿سُيِّرَتۡ﴾ أزيلت عن مواضعها بزلزلة الأرض، وبددت في الجو، فصارت هباء منبثاً .﴿ٱلۡعِشَارُ﴾ النوق الحوامل التي مضى على حملها عشرة أشهر، وهي كرائم أموال العرب جمع عُشَراء. ﴿عُطِّلَتۡ﴾ تركت مهملة بلا راع وبلا حلب، لما دهاهم من الأمر.

﴿ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ﴾ جمعت بعد البعث للاقتصاص من بعضها لبعض، ثم تصير تراباً .﴿سُجِّرَتۡ﴾ أوقدت، فصارت ناراً تحترق، بالبركان والزلزال. ﴿زُوِّجَتۡ﴾ قرنت الأرواح بالأجساد .﴿ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ﴾ البنت التي تدفن حية خوف العار والحاجة، وكان هذا عادة بعض العرب في الجاهلية. سئلت تبكيتاً لقاتلها أو وائدها، كتبكيت النصارى بقوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٥/ ١١٦] .﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩﴾ حكاية لما تخاطب به، وجوابها أن تقول: قتلت بلا ذنب.

﴿ٱلصُّحُفُ﴾ صحف الأعمال .﴿نُشِرَتۡ﴾ فتحت وبسطت، فهي تُطوى عند الموت، وتُنشر وقت الحساب .﴿كُشِطَتۡ﴾ قُلعت كما يقلع السقف، وأزيلت عن أماكنها كما ينزع الجلد من الشاة .﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ﴾ النار .﴿سُعِّرَتۡ﴾ أججت وأوقدت إيقاداً شديداً .﴿أُزۡلِفَتۡ﴾ قرِّبت وأدنيت لأهلها المتقين .﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ۝١٤﴾ جواب أول السورة، وما عطف عليها وهو اثنتا عشرة خصلة، ست منها في بدء قيام الساعة قبل فناء الدنيا، وست بعده أي يوم القيامة. وكلمة ﴿نَفۡسٞ﴾ في معنى العموم أي كل نفس، و ﴿مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ أي ما قدمت من خير أو شر.

التفسير والبيان:

هذه أوصاف القيامة وأحداثها الجسام، لتعظيمها وتخويف الناس بها:

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣﴾ أي إذا لُفَّت الشمس، وجمعت، بعضها على بعض كتكوير العمامة، وجمع

الثياب مع بعضها، ثم رمي بها، وذهب بضوئها، إيذاناً بخراب العالم؛ وإذا انقضَّت النجوم وتساقطت وتناثرت، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾ [الانفطار: ٨٢/٢]؛ وإذا قلعت الجبال عن الأرض، وسيِّرت في الهواء حين زلزلة الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾ [النبأ: ٧٨/٢٠] وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ١٨/٤٧].

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ أي وإذا النوق الحوامل التي في بطونها أولادها، وهي أنْفَس مال عند العرب وأعزّه عندهم، تركت مهملة بلا راع، لشدة الخطب، وعظمة الهول؛ وإذا الوحوش الدواب البرية غير الإنسية بعثت حتى يقتص لبعضها من بعض، وقيل: حشرها: موتها وهلاكها؛ وإذا البحار أوقدت بالبراكين والزلازل فصارت ناراً تضطرم، بعد أن فاض بعضها إلى بعض، وصارت شيئاً واحداً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣﴾ [الانفطار: ٨٢/٣] وقال: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ [الطور: ٥٢/٦] وحينئذ تصير البحار والأرض شيئاً واحداً في غاية الحرارة والإحراق.

قال أبيّ بن كعب رضي الله عنه: ست آيات قبل يوم القيامة، بينا الناس في أسواقهم، إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحركت واضطربت واختلطت، ففزعت الجن إلى الإنس، والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب والطير والوحوش، فماجوا بعضهم في بعض. وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣﴾ اثنتا عشرة خصلة: ستّ في الدنيا، وست في الآخرة. والستة الستُّ الأولى بيناها بقول أبي بن كعب، والستُّ الأخرى في الآيات التالية.

لذا ذكر الله تعالى ما يحدث بعدئذ من البعث، فقال:

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾ أي وإذا قرنت الأرواح بأجسادها حين النشأة الآخرة، وإذا الفتاة المدفونة حية خوف العار أو الحاجة، كما كان بعض قبائل العرب يفعل في الجاهلية، سئلت لتوبيخ قاتلها أو وائدها؛ لأنها قتلت بغير ذنب فعلته. فقد كان بعض أهل الجاهلية يدسونها في التراب، كراهية البنات، فيوم القيامة تسأل الموءودة على أي ذنب قتلت، ليكون ذلك تهديداً لقاتلها، فإنه إذا سئل المظلوم، فما ظن الظالم إذن؟! وقال ابن عباس: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾: سألت. والوأد جريمة عظمى.

وهذا السؤال للموءودة لتوبيخ الفاعلين للوأد؛ لأن سؤالها يؤول إلى سؤال الفاعلين(١).

أخرج الإمام أحمد عن خنساء ابنة معاوية الصريمية عن عمها قال: قلت: يا رسول الله من في الجنة؟ قال: «النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والموءودة في الجنة».

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١﴾ أي إذا عرضت ونشرت للحساب صحائف الأعمال، في موقف الحساب، فكل إنسان يُعطى صحيفته بيمينه أو بشماله، وإذا تشققت السماء وأزيلت، فلم يبق لها وجود.

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣﴾ أي وإذا أوقدت النار لأعداء الله إيقاداً شديداً، قال تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤] وإذا قربت الجنة وأدنيت لأهلها المتقين، كما قال تعالى: . ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١﴾ [ق: ٥٠/ ٣١] .

---

(١) البحر المحيط: ٨/ ٤٣٣

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ جواب إذا وما عطف عليها، أي إذا حصل كل ما تقدم من الأحداث، ووقعت هذه الأمور، علمت كل نفس ما أحضرته عند نشر الصحف، وما عملت من خير أو شر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣/ ٣٠] وقال سبحانه: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ١٣] . والآيات من أول السورة إلى هنا شرط، وجوابه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾. وقال الحسن البصري: هذا قسم وجواب له. قال القرطبي: والقول الأول أصح.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه ظواهر تحدث قبل أو بعد البعث يوم القيامة، فتملأ النفس رهبة، وتثير الخوف والذعر بين الناس، لتبدّل ما كانوا يألفون ويشاهدون، والقصد من تعدادها تخويف البشر والإعداد ليوم القيامة بما يحقق لهم النجاة والأمن والسلامة.

فهو إنذار مسبق، ولقد أعذر من أنذر، ولقد تضمن الإنذار مواجهة اثنتي عشرة علامة للقيامة: وهي تكوير الشمس، وانكدار النجوم، وتسيير الجبال، وتعطيل العشار، وحشر الوحوش، وتسجير البحار، وتزويج النفوس، وسؤال الموءودة، ونشر صحف الأعمال، وكشط السماء كما يكشط الإهاب (الجلد) عن الذبيحة، وتسعير الجحيم (إيقادها) وإزلاف الجنة (إدناؤها). وأي رهبة تحدث حينما يذهب ضوء الشمس، فيظلم الكون، وتتهافت النجوم وتتساقط وتتناثر، فتزول معالم الجمال، وتقلع الجبال من الأرض وتسير في الهواء، فتكون كثيباً مهيلاً، أي رملاً سائلاً، وتصبح كالعِهْن، وتكون هباء منثوراً، وسراباً لا حقيقة ولا وجود له، كالسراب الذي ليس بشيء، وتعود الأرض قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمْتاً، أي ارتفاعاً، فتزول المتعة بها في عين الرائي.

وتهمل النوق الحوامل التي في بطونها أولادها، بعد العناية بها؛ لأنها أعز ما تكون على العرب، وهذا على وجه المثل؛ لأن في القيامة لا تكون ناقة عُشَراء، ولكن أراد به المثل، أن هول يوم القيامة لو كان للرجل ناقة عُشَراء لعطلها واشتغل بنفسه.

وتحشر الوحوش، أي تجمع حتى يقتص لبعضها من بعض، فيقتصّ للجمَّاء من القَرْناء، ثم يقال لها: كوني تراباً، وهذا هو المعنى الأصح، وقيل: حشرها: موتها وهلاكها، وعلى كل حال، تتعاظم المخاوف من رؤية ما يحدث.

وتسجّر البحار، أي توقد إيقاداً شديداً، وتصير البحار والأرض كلها بساطاً واحداً، بأن يملأ مكان البحار بتراب الجبال، فتزول صورة جمال البحر في مشهد الطبيعة.

ويحدث البعث، فتقرن الأرواح بالأجساد، وتسأل البنت المدفونة حية عن سبب وأدها وقتلها، لتوبيخ الفاعل، ولومه على فعله مخافة الحاجة والإملاق (الفقر) أو السبي والاسترقاق، ولإلحاق البنات بالملائكة؛ لأنهم كانوا يقولون: الملائكة بنات الله، وكل ذلك غير مقبول، فإنها قتلت بغير ذنب، وعقاب القاتل النار.

وتنشر صحائف الأعمال التي كتبت الملائكة فيها ما فعل أهلها من خير وشرّ، تطوى بالموت، وتنشر في يوم القيامة، فيقف كل إنسان على صحيفته، فيعلم ما فيها، فيقول: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ١٨/٤٩] .

وتكشط السماء كما يكشط الجلد عن الكبش وغيره، وفي هذا غاية الرهبة.

وتوقد النار للكفار ويُزاد في إحمائها، وتُدنى الجنة وتقرب من المتقين، فيتحدد مصير الخلائق.

حين حدوث هذه الوقائع الجسام، تعلم كل نفس علم اليقين ما عملت من خير وشرّ، وتعرف مصيرها. جاء في الصحيحين عن عديّ بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وسيكلّمُه الله، ما بينه وبينه تَرْجُمان، فينظرُ أيْمَنَ منه، فلا يرى إلا ما قدّمه، وينظر أشأم منه، فلا يرى إلا ما قدّم بين يديه، فتستقبله النار، فمن استطاع منكم أن يتّقي النار، ولو بشِقّ تمرة، فليفعل» .

الحلف لإثبات صدق الوحي القرآني ونبوة الرسول ﷺ

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

القراءات:

﴿بِضَنِينٖ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي (بظنين).

الإعراب:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾﴾ جواب القسم؛ لأن معنى ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾﴾ أقسم.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ عطف على جواب القسم .﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ ﴿عِندَ﴾: متعلق بـ ﴿مَكِينٖ﴾.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ عطف أيضاً على جواب القسم.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ تقديره: إلى أين تذهبون؟ إلا أنه حذف حرف الجر كما حذف من قولهم: ذهبتُ الشامَ، أي إلى الشام.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ ﴿لِمَن﴾: بدل من قوله: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ بدل بعض من كل.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ أي ببخيل، وقرئ (بظنين) بالظاء، أي بمتهم.

البلاغة:

﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾ و ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾ بينهما جناس ناقص.

﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ استعارة تصريحية، شبه إقبال النهار وانتشار الضياء بنسمات الهواء العليل، واستعار لفظ التنفس لإقبال النهار بعد الظلام الدامس.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ كناية، كنى عن محمد ﷺ بلفظ ﴿صَاحِبُكُم﴾.

﴿أَمِينٍ﴾ و ﴿مَكِينٍ﴾ بينهما جناس ناقص غير تام.

﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾، و ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾، و ﴿عَسْعَسَ﴾، و﴿تَنَفَّسَ﴾ إلخ سجع مرصع، وهو توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ أي أقسم، و(لا): لتأكيد الخبر .﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾ بالكواكب الرواجع، من خنس يخنُس: إذا تأخر، وواحدها: خانس: أي منقبض مستخفٍ، فهي التي ترجع في مجراها وراء الشمس، وهي عند الجمهور:

الكواكب السيارة كالشمس والقمر وزُحَل وعطارد والمريخ والزهرة والمشتري. ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ السيارة التي تجري مع الشمس والقمر، وترجع حتى تخفى مع ضوء الشمس. ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾ التي تكنِس في أبراجها، أي تستتر، فهي تختفي تحت ضوء الشمس، من كنس الظبي أو الوحش: إذا دخل كِناسه، وهو بيته المتخذ من أغصان الشجر، وقيل: المراد الكواكب الخمسة السيارة، فخنوسها: رجوعها إلى أول البرج، وكنوسها: اختفاؤها نهاراً تحت ضوء الشمس، وغيبتها في المواضع التي تغيب فيها عن البصر نهاراً ثم تظهر ليلاً. والخلاصة: أن ﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾ على الأرجح: هي جميع الكواكب، كما جاء في الصحاح؛ لأنها تخنس (تختفي) نهاراً، وتختفي عن البصر في المغيب، وتظهر ليلاً، ثم تكنِس وتستتر في مغيبها تحت الأفق، كما تكنس الظباء في المغار، فكل من ﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾ و﴿ٱلْكُنَّسِ﴾ يختفي بعد ظهوره. والأصح أن معناها النجوم، لذكر الليل والصبح بعد هذا.

﴿عَسْعَسَ﴾ أقبل بظلامه، أو أدبر، فهو من ألفاظ الأضداد. ﴿تَنَفَّسَ﴾ أضاء وظهر نوره. ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ أي إن هذا المقسم عليه وهو القرآن لقول منقول نازل من رسول كريم عزيز على الله تعالى وهو جبريل عليه السلام، أضيف القول إليه، لنزوله به، وقوله عن الله تعالى. ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ شديد القوى، حافظ. ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ الله تعالى. ﴿مَكِينٍ﴾ ذي مكانة وجاه عند ربِّه، يعطيه ما سأل. ﴿مُّطَاعٍ﴾ تطيعه ملائكة السماء. ﴿ثَمَّ﴾ هنالك. ﴿أَمِينٍ﴾ على الوحي والرسالة.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ محمد ﷺ، ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ كما زعمتم. ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ رأى محمد ﷺ جبريل على صورته التي خلق عليها. ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ الأفق الواضح، وهو مطلع الشمس الأعلى. ﴿وَمَا هُوَ﴾ محمد ﷺ. ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ الوحي وخبر السماء. ﴿بِضَنِينٍ﴾ ببخيل مقصر بالتعليم والتبليغ، فينتقص منه شيئاً، وقرئ: (بظنين)، أي متهم. ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ﴾ أي القرآن. ﴿شَيْطَٰنٍ﴾ مُسْتَرِقٍ

السمع. ﴿رَجِيمٍ﴾ مرجوم ملعون مطرود من رحمة الله. ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أيَّ طريق تسلكون بعد إنكاركم القرآن وإعراضكم عنه، وقد قامت الحجة عليكم؟ ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما هو. ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة وعبرة. ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ الإنس والجن. ﴿أَن يَسْتَقِيمَ﴾ على الطريق الواضح باتباع الحق. ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ الاستقامة على الحق. ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إلا وقت أن يشاء الله استقامتكم. ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ مالك الخلق كلهم.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٩):

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾: أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن سليمان بن موسى قال: لما أنزلت ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ قال أبو جهل: ذاك إلينا، إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم، فأنزل الله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

التفسير والبيان:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾ أي أقسم بجميع الكواكب التي تخنُس أي تختفي بالنهار تحت ضوء الشمس، والتي تجري في أفلاكها، وتكنِس بالليل، أي تظهر بالليل في أماكنها، كما تظهر الظباء من كُنُسها، أي بيوتها، وهي جمع كِناس: وهو الذي يختفي فيه الوحش. وقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ يراد بها القسم في أسلوب العرب، ويراد بها تأكيد الخبر، كأنه في ثبوته وظهوره لا يحتاج إلى قسم. وإنما أقسم سبحانه بهذه الكواكب، لما في تبدل أحوالها من الظهور والخفاء من الدلالة على قدرة مبدعها ومصرّفها.

ويرى الجمهور: أن المراد بها الكواكب السيارة كلها، ويرى بعضهم أنها ما عدا الشمس والقمر.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ أي والليل إذا أقبل بظلامه، لما فيه من الرهبة، وهذا هو الأولى، أو أدبر وولى، لما في إدباره من كشف الغمة. والصبح إذا أقبل وأضاء بنوره الأفق؛ لأنه يقبل بروح نشطة ونسيم عليل.

قال ابن كثير: ﴿عَسۡعَسَ﴾: أقبل، وإن كان يصح استعماله في الإدبار أيضاً، لكن الإقبال ههنا أنسب، كأنه أقسم بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضيائه إذا أشرق، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [الليل: ٩٢/١-٢] وقال تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ [الضحى: ٩٣/١-٢] وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦/٦]، وغير ذلك من الآيات.

وقال كثير من علماء الأصول: إن لفظة ﴿عَسۡعَسَ﴾ تستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما، والله أعلم[1].

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾﴾ هذا هو المقسم عليه، أي إن القرآن تبليغ رسول كريم، ومقول قاله جبريل عليه السلام الشريف الكريم العزيز عند الله، ونزل به من جهة الله سبحانه إلى رسوله ﷺ، فليس القرآن من كلام البشر، وإنما وصل إلى النبي ﷺ من جبريل الذي تلقاه عن ربّه عزّ وجلّ.

﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾﴾ هذه أوصاف أربعة أخرى لجبريل عليه السلام، فهو شديد القوى في الحفظ التام والتبليغ الكامل، وذو رفعة عالية، ومكانة سامية عند الله سبحانه، ومطاع بين الملائكة، يرجعون إليه ويطيعونه، فهو من السادة الأشراف، مؤتمن على

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٤٧٩

الوحي والرسالة من ربِّه، وعلى غير ذلك. وإنما قال: ﴿ثَمَّ﴾ أي عند الله، وقرئ (ثُم) تعظيماً للأمانة وبياناً لأنها أفضل صفاته المعدودة.

ووصف جبريل بالأمين تزكية عظيمة من الله لرسوله الملكي وعبده جبريل، كما زكى عبده ورسوله البشري محمداً ﷺ بقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾.

وبعد بيان أوصاف الرسول الملَك، ذكر تعالى وصف المرسل إليه، فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي وليس محمد ﷺ يا أهل مكة بمجنون، كما تزعمون. وذكره بوصف الصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره، وبأنه أعقل الناس وأكملهم.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٤]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ: ٣٤/٤٦]، وقوله: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾ [الدخان: ٤٤/ ١٣-١٤].

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ أي قد رأى محمد جبريل على صورته الأصلية، له ست مئة جناح، في مطلع أو أفق الشمس الأعلى من قبل المشرق، بحيث حصل له علم ضروري (بدهي) بأنه مَلَك مقرب يُطْمأن لنزوله بالوحي عليه، لا شيطان رجيم. وهذا كما جاء في سورة النجم: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾. وهذه الرؤية بعد رؤيته في بدء الوحي عند غار حراء حين رآه على كرسي بين السماء والأرض في صورته، له ست مئة جناح.

وقيل: هي الرؤية التي رآه فيها عند سدرة المنتهى، وسمي ذلك الموضع أفقاً مجازاً، وقد كانت له عليه السلام رؤية ثانية بالمدينة، وليست هذه[1].

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ أي ليس محمد ﷺ على ما أنزله الله عليه من الوحي وخبر السماء ببخيل مقصر في التعليم والتبليغ، بل يعلّم الخلق كلام الله وأحكامه دون أي انتقاص، وهو ثقة مؤتمن لا يأتي بشيء من عند نفسه، ولا يبدل ولا يغير أي حرف أو معنى فيه.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ أي وما القرآن بقول شيطان يسترق السمع، مرجوم بالشهب، فالقرآن ليس بشعر ولا كهانة، كما قالت قريش، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢١٠-٢١٢] .

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أيْ: أيُّ طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي قد بيّنت لكم؟ وأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه وبيان كونه حقاً من عند الله تعالى؟

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ أي ما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين، وتذكير لهم بما ينفعهم، وتحذير لهم عما يضرهم، لمن أراد من البشر أن يستقيم على الحق والإيمان والطاعة، فمن أراد الهداية فعليه بهذا القرآن، فإنه مناجاة له وهداية، ولا هداية فيما سواه.

قال الزمخشري: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾ بدل من ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ وإنما أبدلوا منهم؛ لأن الذين شاؤوا الاستقامة بالدخول في الإسلام هم المنتفعون بالذكر، فكأنه لم يوعظ به غيرهم، وإن كانوا موعوظين جميعاً.

---

(١) البحر المحيط: ٨/ ٤٣٤-٤٣٥

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي وما تشاؤون الاستقامة ولا تقدرون على ذلك إلا بمشيئة الله وتوفيقه، فليست المشيئة موكولة إليكم، فمن شاء اهتدى، ومن شاء ضل، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى ربّ الإنس والجن والعالم كله. آمنت بالله وبما يشاء، فلا يقدر أحد على شيء إلا بما يخلق فيه من قوة، وبما يودع الله فيه من قدرة يتمكن من توجيهها نحو الإيمان والخير، أو نحو الكفر والشر، وهذا يعني أن الله أودع في الناس قدرة الاختيار، بدليل الآيات الأخرى التي تنفي الإجبار والإكراه.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - لله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته من حيوان وجماد، وإن لم يعلم وجه الحكمة في ذلك، كما قال القرطبي[1].

٢ً - أقسم الله تعالى بجميع الكواكب التي تخنُس (تختفي) بالنهار وعند غروبها، وخنوسها: غيبتها عن البصر بالنهار، والتي تجري في أفلاكها، وتكنِس، وكنوسها: ظهورها للبصر في الليل، كما يظهر الظبي أو الوحش من كِناسه، ثم تغيب وتستتر في مغيبها تحت الأفق، لما في تحركها وظهورها مرة، واختفائها مرة أخرى من الدليل على قدرة خالقها ومصرّفها.

وأقسم الله أيضاً بالليل إذا أقبل بظلامه لما فيه من السكون والرهبة، وبالصبح إذا أضاء وامتد حتى يصير نهاراً واضحاً، لما فيه من التفتح والبهجة.

والمقسم المحلوف عليه هو أن القرآن الكريم نزل به جبريل: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٨٠] . وإنما نسب الكلام إلى جبريل عليه السلام باعتبار أنه الواسطة بين الله وبين أنبيائه ورسله.

(١) تفسير القرطبي: ١٩/ ٢٣٧

٣ً - وصف الله تعالى جبريل عليه السلام بخمسة أوصاف، هي: كريم عزيز على الله، ذو قوة في الحفظ وأداء طاعة الله ومعرفته وترك الإخلال بها، وذو مكانة وجاه عند ربّ العرش، ومطاع بين الملائكة فهو من السادة الأشراف، وأمين على وحي الله ورسالاته، قد عصمه الله من الخيانة والزلل.

وقوله: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ هذه العندية ليست عندية المكان، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء: ١٩/٢١] وليست عندية الجهة، بدليل قوله في الحديث: «أنا عند المنكسرة قلوبهم» بل عندية الإكرام والتشريف والتعظيم(١).

٤ً - ردّ الله تعالى على المشركين المتقولين بأن محمداً ﷺ ليس بمجنون كما زعموا، بأنهم أعلم الناس بأمره، وبأنه أعقل الناس وأكملهم.

٥ً - رأى النبي ﷺ جبريل عليه السلام في صورته الحقيقية، له ست مئة جناح بالأفق المبين، أي بمطلع الشمس من قِبَل المشرق، فهو مبين؛ لأنه تُرى الأشياء من جهته، وذلك ليتأكد ويطمئن بأنه ملَك مقرب، لا شيطان رجيم.

٦ً - أخبر الله تعالى عن نبيِّه بأنه لا يضنّ بشيء من الغيب أي الوحي وخبر السماء على أحد، وإنما يقوم بتعليمه وتبليغه دون انتقاص شيء منه، قال مجاهد: لا يضنّ عليكم بما يعلم، بل يعلِّم الْخَلْقَ كلام الله وأحكامه.

٧ً - بعد وصف كل من الرسول الوسيط جبريل والمرسل إليه بالأمانة في تبليغ الوحي، حسم الأمر في شأن القرآن، فأعلن بأن القرآن ليس بقول شيطان مرجوم ملعون، كما قالت قريش، ولا بقول كاهن ولا مجنون، وإنما هو موعظة وبيان وهداية للخلق أجمعين، لمن أراد أن يستقيم أي يتبع الحق ويقيم عليه.

---

(١) تفسير الرازي: ٧٣/٣١

٨ - حكم الله بعد هذا الوصف على قريش بالضلال والضياع بقوله: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي فأيّ طريقة تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بيّنت لكم، أو بعد هذه البيانات التي أوضحتها لكم.

٩ - لا يعمل العبد خيراً إلا بتوفيق الله، ولا شراً إلا بخذلانه، وليس للإنسان مشيئة إلا أن يشاء الله تعالى أن يعطيه تلك المشيئة، وفعل الاستقامة موقوف على إرادة الاستقامة. والله هدى بالإسلام، وأضل بالكفر.

والاستقامة: هي سلوك الصراط المستقيم صراط الله الذي له ما في السماوات والأرض. قال الحسن البصري: والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاءه الله لها.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٦/١١١] ، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠/١٠٠] ، وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٢٨/٥٦] .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الانفطار

مكية، وهي تسع عشرة آية

تسميتها:

سميت سورة (الانفطار)، لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾ أي انشقت، كما قال سبحانه: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ٧٣/١٨].

مناسبتها لما قبلها:

هذه السورة وما قبلها وسورة (الانشقاق) في وصف يوم القيامة وأهواله وأحواله، كما تقدم.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة المكية كغيرها من السور المكية تتحدث عن أمور في العقيدة، وهي هنا بعض أمارات القيامة وما يصحبها من تبدل في الكون، ووقوع أحداث جسام، ووصف أحوال الأبرار والفجار يوم البعث، كالسورة المتقدمة.

ابتدأت بوصف الأحداث الكونية التي ترى في القيامة وهي انشقاق السماء، وانتثار الكواكب، وتفجير البحار، وبعثرة القبور، ثم الإخبار عن

علم كل نفس بما قدّمت وأخّرت: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾ [الآيات: ١-٥].

ثم ندّدت بجحود الإنسان نعم ربِّه، وبتقصيره في مقابلة الإحسان بالشكر والعرفان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾ [الآيات: ٦-٨].

ثم ذكرت سبب هذا الجحود وهو إنكار البعث، وبيَّنت أن أعمال الإنسان كلها محفوظة مسجلة عليه، يقوم برصدها ملائكة كرام كاتبون: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾ [الآيات: ٩-١٢].

وأردفت ذلك ببيان مصير الناس وانقسامهم إلى فريقين: أبرار وفجّار، وأيلولتهم إلى نعيم أو جحيم: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣﴾ [الآيات: ١٣-١٦].

وختمت السورة بالتحذير من يوم الدِّين، أي الجزاء والقيامة، واستقلال كل إنسان بالمسؤولية عن نفسه، وتفرد الله بالحكم والأمر: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ [الآيات: ١٧-١٩].

والخلاصة: أن الله تعالى ذكر في السورة السعداء والأشقياء ويوم الجزاء وعظم شأن يومه.

فضلها:

أخرج الإمام أحمد كما تقدم عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ، قال: «من سرّه أن ينظر إلى القيامة رأي العين، فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾، و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾، و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾».

وأخرج النسائي، وأصل الحديث في الصحيحين عن جابر قال: قام معاذ،

فصلى العشاء الآخرة فطوّل، فقال النبي ﷺ: «أفتّان أنت يا معاذ؟ أين كنت عن ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ و﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾ و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾ » ؟!

أمارات القيامة والجزاء على العمل وتوبيخ الإنسان على جحود النعم

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾

القراءات:

﴿فَعَدَلَكَ﴾:

قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: (فَعَدَلك) وقرأ الباقون (فعَدَّلك).

الإعراب:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ فاعل لفعل مقدر يفسره ﴿ٱنفَطَرَتْ﴾؛ لأن ﴿إِذَا﴾ لا تدخل إلا على الفعل.

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ﴾ ﴿مَا﴾: استفهامية في موضعِ رفع، مبتدأ، و﴿غَرَّكَ﴾: خبره.

﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾: ﴿مَّا﴾: إما زائدة لتفخيم المعنى وتعظيمه، و﴿فِىٓ﴾ تتعلق بـ ﴿رَكَّبَكَ﴾ أي ركّبك في أي صورة شاء، فحذف:

ما، أو شرطية، و ﴿شَآءَ﴾: فعل الشرط المجزوم بـ ﴿مَّا﴾، و﴿رَكَّبَكَ﴾: جواب الشرط، و ﴿فِيٓ﴾ حينئذٍ متعلقة بعامل مقدر؛ لأن ما بعد حرف الشرط لا يعمل فيما قبله، وتقديره: كوَّنك في أي صورة. ولا يكون متعلقاً بـ ﴿فَعَدَلَكَ﴾؛ لأن الاستفهام لا يتعلق بما قبله.

البلاغة:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾ سجع مرصَّع.

﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾ استعارة مكنية، شبَّه الكواكب بجواهر متناثرة متفرقة، وحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه، وهو الانتثار على طريق الاستعارة المكنية.

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ استفهام يراد به التوبيخ والإنكار.

المفردات اللغوية:

﴿ٱنفَطَرَتْ﴾ انشقت. ﴿ٱنتَثَرَتْ﴾ تساقطت متفرقة. ﴿فُجِّرَتْ﴾ شقِّقت جوانبها، فصارت بحراً واحداً. ﴿بُعْثِرَتْ﴾ قلب ترابها الذي وضع على موتاها، وبعث موتاها. ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ جواب ﴿إِذَا﴾ وما عطف عليها، أي علمت نفس وقت حدوث هذه الأمور، وهو يوم القيامة ما قدمت من الأعمال، وما أخرت منها فلم تعمله بسبب الكسل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ جنس الإنسان. ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ ما خدعك وأي شيء جرّأك على عصيانه؟ و﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ العلي العظيم، وذكر للمبالغة في المنع عن الاغترار. ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ جعل أعضاءك سوية سليمة معدّة لمنافعها. ﴿فَعَدَلَكَ﴾ جعلك معتدلاً متناسب الْخَلْق والأعضاء، فلا تجد تنافراً بينها ولا عيباً فيها، فليست يد أو رجل أطول من الأخرى. ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ أي ركَّبك وكوَّنك في أي صورة هي من أعجب الصور وأحكمها.

سبب النزول:

نزول الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾ :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾ قال: نزلت في أُبيّ بن خَلَف. وقيل: نزلت في أبي الأشدّ بن كَلَدة الجُمَحِيّ، وقال ابن عباس: الإنسان هنا الوليد بن المغيرة.

وروى غالب الحنفي قال: لما قرأ رسول الله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾ قال: «غرّه الجهل» .

التفسير والبيان:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢﴾ أي إذا انشقت السماء، كما قال تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٨/٧٣] ، وقال سبحانه: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥/٢٥] ، وقال عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧﴾ [الرحمن: ٣٧/٥٥] ، وقال عزّ من قائل: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ۝١٩﴾ [النبأ: ١٩/٧٨] .

وإذا تساقطت الكواكب وتفرقت، وذلك بعد تشقق السماء.

﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤﴾ أي فجّر الله بعضها في بعض فصارت بحراً واحداً، ثم تسجّر أي توقد فتصير ناراً تضطرم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦﴾ [التكوير: ٦/٨١] .

وإذا قلب تراب القبور، وأخرج موتاها، وصار باطنها ظاهرها.

وإذا وقعت هذه الأشياء التي هي أشراط الساعة، فهناك يحصل الحشر والنشر، وبما أن المراد من هذه الآيات بيان تخريب العالم، وفناء الدنيا، فإنه يلاحظ الترتيب، فيبدأ أولاً بتخريب السماء التي هي كالسقف، ويلزم من

تخريب السماء انتثار الكواكب، ثم يخرب ما على وجه الأرض التي هي كالبناء، وهو تفجير البحار، ثم تقلب الأرض ظهراً لبطن، وبطناً لظهر، وهو بعثرة القبور.

وجواب الشرط قوله تعالى:

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ أي إذا حدثت الأمور المتقدمة، علمت كل نفس عند نشر الصحف ما قدمت من عمل خير أو شر، وما أخّرت من الأعمال بسبب التكاسل والإهمال، كما قال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة: ٧٥/١٣] .

وبما أن المراد بهذه الأمور يوم القيامة، فيكون المقصود بالآية الأخيرة في الأصح الزجر عن المعصية، والترغيب في الطاعة.

وبعد بيان تبدل نظام العالم، والإخبار عن وقوع الحشر والنشر، وبّخ الله تعالى الإنسان على تقصيره في عمل الخير، وجحوده النعم، بأن لم يطع أوامر الله شكراً على النعمة، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ أي يا أيها الإنسان المدرك نهاية العالم ما الذي خدعك وجرأك على عصيان ربّك الكريم الذي أنعم عليك في الدنيا، حيث خلقك من نطفة بعد العدم، وجعلك سوياً مستقيماً، معتدل القامة في أحسن هيئة وشكل، متناسب الأعضاء، لا تفاوت فيها، مزوّداً بالحواس من السمع والبصر، وطاقة العقل والفهم؟

والأصح أن الآية تتناول جميع العصاة؛ لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذي نزلت الآية من أجله.

وقد وصف الله تعالى نفسه في هذا المقام بالكرم، وهذا الوصف يقتضي الاغترار به، حتى قالت العقلاء: من كرم الرجل سوء أدب غلمانه. فكان الكرم سبب الاغترار، وإنما وقع الإنكار عليه؛ لأن الإنسان لم يدرك أن كرمه صادر عن الحكمة، وهي تقتضي ألا يهمل وإن أمهل، وأن ينتقم للمظلوم من الظالم ولو بعد حين، وقيل: غرّه: جهله، وقيل: غرَّه عدوه المسلَّط عليه، وهو الشيطان، وقيل: غرّه عفو الله إذ لم يعاجله بالعقوبة أول مرة.

﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ أي ركّبك في أي صورة شاءها من أبهى الصور وأجملها، وأنت لم تختر صورة نفسك، كما قال: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤﴾ [التين: ٩٥/ ٤] .

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - إن من علامات يوم القيامة تبدل النظام الكوني، بتشقق السماء، وتساقط الكواكب، وتفجير البحار بعضها في بعضها، حتى تصير بحراً واحداً، ثم توقد حتى تصير ناراً تضطرم، وبعثرة القبور وإخراج موتاها منها.

٢ - إذا حدثت هذه الأشياء التي هي أشراط الساعة، حصل الحشر والنشر، وختمت صحائف الأعمال، فعلمت كل نفس ما كسبت، ووجدت ما قدمت من خير أو شر، وحوسبت كل نفس بما عملت، وأوتيت كتابها بيمينها أو بشمالها، فتذكرت عند قراءته جميع أعمالها، ولم يعد ينفعها عمل بعد ذلك.

٣ - مسكين هذا الإنسان لا يشكر نعم ربّه بإطاعة أوامره، ولا يدخر من العمل الصالح ما يفيده في سفينة النجاة في آخرته، وغرّه كرم الله الذي تجاوز عنه في الدنيا، أو حمقه وجهله، أو شيطانه المسلط عليه. أخرج ابن أبي حاتم

عن سفيان أن عمر سمع رجلاً يقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ فقال عمر: الجهل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٧٢]. وقيل للفضيل بن عياض: لو أقامك الله تعالى يوم القيامة بين يديه، فقال لك: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ ماذا كنت تقول؟ قال: كنت أقول: غرَّني سُتورك المرخاة؛ لأن الكريم هو الستَّار.

٤ - نعم الله على الإنسان لا تعدّ ولا تحصى، وأهمها ما يتعلق بنفسه، حيث خلقه الله من نطفة ولم يك شيئاً، وجعله سليم الأعضاء، منتصب القامة، متناسب الأعضاء، مستعداً لقبول الكمالات، بالسمع والبصر والعقل وغير ذلك، وصوَّره في أحسن الصور وأعجبها وأبدعها، واختار له الهيئة الجميلة والشكل البديع، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٩٥/ ٤].

علة الجحود وكتابة الملائكة وانقسام الناس فريقين

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾

القراءات:

﴿يَوْمَ لَا﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (يومُ لا).

الإعراب:

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ﴾ ﴿يَوْمَ﴾: بالنصب على البدل من ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾

[الآية: ١٥] الأول المنصوب. ويقرأ بالرفع على البدل من ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الآية: ١٨] المرفوع، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو يوم لا تملك.

البلاغة:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ سجع مرصع، ومثله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾. والسجع: هو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير، وهو ثلاثة أنواع: مطرف ومتوازٍ وترصيع.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ بينهما مقابلة، قابل بين الأبرار والفجار، وبين النعيم والجحيم. وفيها سجع الترصيع: وهو أن يكون في إحدى الفقرتين مثل ما يقابله من الأخرى في الوزن والتقفية، وهو من المحسنات اللفظية. والمقابلة من المحسنات المعنوية: وهي أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب، فقد تكون بين اثنين أو ثلاثة أو أكثر.

﴿نَعِيمٍ﴾ و ﴿جَحِيمٍ﴾ التنكير للتعظيم والتهويل.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾﴾ إطناب بإعادة الجملة، لتعظيم هول ذلك اليوم وبيان شدته.

المفردات اللغوية:

﴿كَلَّا﴾ ردع عن الاغترار بكرم الله تعالى، فهي كلمة تفيد نفي شيء تقدم، وتحقق غيره .﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ ﴿بَلْ﴾: إضراب إلى بيان ما هو السبب الأصلي في اغترارهم. والمراد ﴿بِٱلدِّينِ﴾: الجزاء على الأعمال يوم القيامة. ﴿لَحَـٰفِظِينَ﴾ ملائكة حفظة لأعمالكم، يحصون كل ما كان منها من خير أو شر. ﴿كِرَامًا﴾ عند الله، ووصفهم بذلك لتعظيم الجزاء .﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ يعلمون جميع الأفعال.

﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾ هم المؤمنون الصادقون في إيمانهم، الذين يفعلون البرّ (الخير) ويتقون الله في كل أفعالهم، جمع بَرّ. ﴿نَعِيمٍ﴾ جنة. ﴿ٱلْفُجَّارَ﴾ هم الكفار التاركون لما شرع الله لعباده، جمع فاجر. ﴿جَحِيمٍ﴾ نار محرقة. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها ويقاسون حرَّها. ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء. ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي لا يخرجون منها، لخلودهم فيها.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ ما أعلمك وعرَّفك، وكرر الجملة لتفخيم شأن اليوم وتعظيم هوله، بحيث لا يدركه إنسان. ﴿لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ من المنفعة. ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ أي لا أمر لغيره فيه، فلا يمكّن أحد من التوسط فيه. والمقصود بالآية تقرير شدة هول ذلك اليوم، وتفخيم أمره إجمالاً.

المناسبة:

بعد بيان أمارات الساعة الدالة على صحة القول بالبعث والنشور، وبعد تعداد نعم الله على الإنسان، وجحوده إياها، ذكر الله تعالى علة هذا الجحود وهو التكذيب بالبعث، ثم رغب بالطاعة، وحذر من المعصية بسبب كتابة الحفظة جميع الأعمال، ثم أوضح أن الناس يوم القيامة فريقان: أبرار منعمون، وفجار معذبون مخلَّدون في النار، وأن يوم القيامة ذو شدائد وأهوال، تتجرد فيه النفوس من قواها، ويتفرد الله عزّ وجلّ بالحكم والسلطان.

التفسير والبيان:

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾﴾ أي ارتدعوا وانزجروا عن الاغترار بكرم الله وجعله ذريعة إلى الكفر به، والواقع أنكم تكذبون بيوم المعاد والحساب والجزاء، حيث لا يحملكم الخوف من هذا اليوم على التزام طاعة الله واجتناب معاصيه.

ثم زاد في التحذير من العناد والتكذيب بالإخبار أن جميع الأعمال مرصودة على الناس بالملائكة، فقال:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي إن عليكم لملائكة حفظة كراماً، فلا تقابلوهم بالقبائح، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم، ويعلمون جميع ما تفعلون، كما قال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ، مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ٥٠/١٧-١٨].

وروى ابن أبي حاتم عن مجاهد مرسلاً قال: قال رسول الله ﷺ: «أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين: الجنابة والغائط. فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجرم حائط، أو ببعيره، أو ليستره أخوه».

ورواه الحافظ أبو بكر البزار، فوصله بلفظ آخر، وأسنده عن مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ينهاكم عن التعري، فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم، الكرام الكاتبين، الذين لا يفارقونكم إلا عند ثلاث حالات: الغائط، والجنابة، والغسل، فإذا اغتسل أحدكم بالعراء، فليستتر بثوبه أو بجرم حائط، أو ببعيره».

لذا كره العلماء الكلام عند الغائط والجماع، لمفارقة الملَك العبد عند ذلك.

ثم ذكر الله تعالى تصنيف الناس العاملين يوم القيامة فريقين نتيجة كتابة الحفظة لأعمال العباد، فقال:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾﴾ أي ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾: وهم الذين أطاعوا الله عزّ وجلّ، ولم يقابلوه بالمعاصي يصيرون إلى دار النعيم وهي الجنة، ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ﴾: وهم الذين كفروا بالله وبرسله، وقابلوا ربّهم بالمعاصي، يصيرون إلى دار الجحيم، وهي النار المحرقة، يدخلونها ويقاسون حرّها يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به، كما قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٤٢/٧].

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي لا يفارقون الجحيم ولا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة، ولا يخفف من عذابها، بل هم فيها إلى الأبد، ملازمون لها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢/١٦٧] .

ثم وصف يوم القيامة وصفاً إجمالياً في غاية التهويل وأكد ذلك مرتين، فقال:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾﴾ أي وما أعلمك وما أعرفك ما يوم الجزاء والحساب، وكرر الجملة تعظيماً لشأن يوم القيامة، وتفخيماً لقدره، وتهويلاً لأمره، مما يستدعي التدبر والتأمل، فلو عرف المرء تلك الأهوال، لما فارق طاعة الله ساعة، وابتعد عن المعصية بُعْد السماء من الأرض، ولكن الإنسان في غفلة وسهو وتجاهل، يعيش في الآمال، ويعتمد على الأحلام أحياناً، ويهرب من الواقع.

ثم حسم الله تعالى الأمر، وأبان حقيقة الموقف، ودور الإنسان فيه، فقال: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ أي إنه اليوم الذي لا يقدر فيه أحد كائناً من كان على نفع أحد، ولا خلاصه مما هو فيه، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، ولا يملك أحد القضاء بشيء أو صنع شيء، إلا الله ربّ العالمين، فهو المتفرد بالحكم والسلطان، فبيده الأمر كله، وإليه ترجع الأمور كلها. قال قتادة: والأمر، واللهِ اليومَ، لله، ولكنه لا ينازعه فيه يومئذٍ أحد.

ونظير الشطر الأول من الآية قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٢/٤٨] ، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ٤٠/١٧] ، وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٨٠/٣٤-٣٧] . وجاء في الحديث الثابت الذي أخرجه الترمذي: «يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار، لا أملك لكم من الله شيئاً» .

ونظير الشطر الآخر قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦/٤٠] ، وقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٥/٢٦] ، وقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ١/ ٤] .

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - أمر تعالى بأن نرتدع عن الاغترار بحلم الله وكرمه، وأن نتفكر في آيات الله.

٢ً - إن منشأ عدم الخوف من الله والتجرؤ على الكفر والعصيان في الحقيقة والواقع هو التكذيب بالجزاء والحساب في يوم القيامة.

٣ً - حال الناس مما يثير التعجب، فهم يكذبون بيوم الحساب والجزاء، وملائكة الله موكلون بهم، يكتبون أعمالهم، حتى يحاسبوا بها يوم القيامة. ولا يختلف الحال بين المؤمنين والكفار، فعليهم جميعاً الحفظة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة: ٦٩/١٩] ، ثم قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٦٩/٢٥] ، وفي آية أخرى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾ [الانشقاق: ٨٤/ ١٠] ، فهذا خبر يدل على أن الكفار يكون لهم كتاب، ويكون عليهم حفظة.

سئل سفيان الثوري: كيف تعلم الملائكة أن العبد قد همّ بحسنة أو سيئة؟ قال: إذا همّ العبد بحسنة، وجدوا منه ريح المسك، وإذا همّ بسيئة وجدوا منه ريح النَّتْن.

٤ً - وصف الله تعالى الملائكة الحفظة بصفات أربع: هي كونهم حافظين، وكونهم كراماً، وكونهم كاتبين، وكونهم يعلمون ما تفعلون. ووصف الله إياهم بهذه الصفات يدل على أنه تعالى أثنى عليهم وعظم شأنهم، وفي

تعظيمهم تعظيم لأمر الجزاء، وأنه عند الله تعالى من جلائل الأمور، ولولا ذلك لما وكلوا بضبط ما يحاسب عليه كل إنسان. قال بعض العلماء: من لم يزجره من المعاصي مراقبة الله إياه، كيف يرده عنها كتابة الكرام الكاتبين؟

٥ - أحوال العاملين ومصيرهم يوم القيامة: إن الأبرار يكونون في جنات النعيم، وإن الفجار يكونون في نيران الجحيم، يدخلونها ويقاسون لُهابها وحرها يوم الجزاء والحساب، ويلازمونها إلى أبد الآبدين، فلا يغيبون عنها. وليس صاحب المعصية الكبيرة فاجراً، وإنما الكفار هم الفجرة لا غيرهم كما تقدم، وليس صاحب الكبيرة بفاجر على الإطلاق، لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس: ٨٠/ ٤٢].

وفي هذا تهديد عظيم للعصاة، حكي أن سليمان بن عبد الملك مرَّ بالمدينة، وهو يريد مكة، فقال لأبي حازم: كيف القدوم على الله غداً؟ قال: أما المحسن فكالغائب يقدم من سفره على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه، قال: فبكى، ثم قال: ليت شعري ما لنا عند الله! فقال أبو حازم: اعرض عملك على كتاب الله، قال: في أي مكان من كتاب الله؟ قال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ قال سليمان: فأين إذن هي رحمة الله؟ فأجابه بقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[١] [الأعراف: ٧/ ٥٦].

٦ - في يوم القيامة والجزاء والحساب الرهيب لا يستطيع أحد مهما كان أن يقدم منفعة لآخر، والأمر كله حينئذ لله الواحد القهار، لا ينازعه فيه أحد.

وفي هذا وعيد عظيم وتهويل جسيم ليوم القيامة، ودليل على أنه لا يغني عن الناس إلا البر والطاعة يومئذ، دون سائر ما كان قد يغني عنهم في الدنيا

(١) تفسير الرازي: ٣١/ ٨٥.

من مال وولد وأعوان وشفعاء. قال الواسطي في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ إشارة إلى فناء غير الله تعالى، وهناك تذهب الرسالات والكلمات والغايات، فمن كانت صفته في الدنيا كذلك، كانت دنياه أخراه.

وقال الرازي في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾: هو إشارة إلى أن البقاء والوجود لله، والأمر كذلك في الأزل وفي اليوم، وفي الآخرة، ولم يتغير من حال إلى حال، فالتفاوت عائد إلى أحوال الناظر، لا إلى أحوال المنظور إليه[١].

---

(١) تفسير الرازي: ٣١/٨٦.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المطففين

مكية، وهي ست وثلاثون آية

تسميتها:

سميت سورة (المطففين)، لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ وهم الذين يبخسون المكيال والميزان، إما بالازدياد إن اقتضوا من الناس، وإما بالنقصان إن قضوهم أو وزنوا أو كالوا لهم.

مناسبتها لما قبلها:

تتعلق هذه السورة بما قبلها من وجوه أربعة:

١ - قال الله تعالى في آخر السورة المتقدمة واصفاً يوم القيامة: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ وذلك يقتضي تهديداً عظيماً للعصاة، فلهذا أتبعه هنا بقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ والمراد: الزجر عن التطفيف: والبخس في المكيال والميزان بالشيء القليل على سبيل الخفية. أما الكثير فيظهر، فيمنع منه.

٢ - في كل من السورتين توضيح أحوال يوم القيامة.

٣ - ذكر الله تعالى في السورة السابقة: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا

كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ وذكر هنا ما يكتبه الحافظون: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢٠﴾﴾ يُجعل في عليين، أو في سجين.

٤ - ذكر الله تعالى تصنيف الناس إلى فريقين: أبرار وفجار في كل من السورتين، وذكر مآل كل فريق، إما إلى الجنة، وإما إلى النار. قال أبو حيان: لما ذكر تعالى السعداء والأشقياء ويوم الجزاء وعظم شأن يومه، ذكر ما أعد لبعض العصاة، وذكّرهم بأخس ما يقع من المعصية، وهي التطفيف الذي لا يكاد يجدي شيئاً في تثمير المال وتنميته[١].

ما اشتملت عليه السورة:

عنيت هذه السورة كسائر السور المكية بأمور العقيدة، وعلى التخصيص أحوال يوم القيامة وأهوالها، وعنيت بأمور الأخلاق الاجتماعية، وهي هنا تطفيف الكيل والميزان.

بدأت السورة بمطلع مخيف، وهو وعيد المطففين بالعذاب الشديد: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ [الآيات ١-٦].

ثم أبانت أن كتاب الفجار الأشقياء في ديوان الشر، وفي كتاب مرقوم بعلامة، وأن مصيرهم أسفل السافلين في نار جهنم: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ﴿٧﴾﴾ [الآيات ٧-١٧].

وأردفت ذلك على سبيل المقارنة والعبرة والجمع بين الترغيب والترهيب ببيان أن صحائف الأبرار في أعلى عليين، وأنها في كتاب مرقوم بعلامة متميزة عن صحائف الفجار: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾ [الآيات ١٨-٢٨].

(١) البحر المحيط: ٨/٤٣٩.

وختمت السورة بوصف موقف المجرمين من المؤمنين، حيث كانوا يستهزئون ويضحكون منهم في الدنيا لإيمانهم وتقواهم ربهم، ثم انعكاس هذا الموقف في الآخرة حيث صار المؤمنون يتضاحكون من الأشقياء المجرمين ويسخرون منهم، وينظرون إليهم وهم يعذبون في النار وما يلقونه من النكال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

وعيد المطففين

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾

الإعراب:

﴿كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ الهاء والميم: إما ضمير منصوب بالفعل، وتقديره: كالوا لهم ووزنوا لهم، فحذفت اللام، فاتصل الفعل به، وإما ضمير مرفوع مؤكد لواو الجماعة في الفعل. قال ابن كثير: والأحسن أن يجعل كالوا ووزنوا متعدياً، ويكون (هم) في محل نصب. وقال أبو حيان: كال ووزن مما يتعدى بحرف الجر، فتقول: كلت لك ووزنت لك، ويجوز حذف اللام كقولك: نصحت لك ونصحتك، وشكرت لك وشكرتك.

﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ الثاني: إما منصوب بفعل مقدر، دلَّ عليه ﴿مَّبْعُوثُونَ﴾ أي مبعوثون يوم يقوم الناس، وإما بدل من موضع الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾﴾.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾﴾ ﴿أَلَا﴾ هنا: ليست أداة استفتاح، وإنما الهمزة للإنكار والتعجب، و(لا) للنفي.

البلاغة:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ تنكير ﴿وَيْلٌ﴾ للتهويل والتفخيم.

﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ و ﴿يُخْسِرُونَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَيْلٌ﴾ كلمة عذاب، أي شدة عذاب في الآخرة. ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ المنقصين، جمع مطفّف: وهو المقل حق صاحبه بنقصانه عن الحق، في كيل أو وزن، والمراد بالتطفيف هنا: إما الازدياد إن اقتضوا من الناس، وإما النقصان إن قضوهم. وسمي بذلك لأن ما يبخس شيء حقير طفيف. ﴿اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أخذوا منهم حقوقهم. ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ يأخذون الكيل وافياً كاملاً. ﴿كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ كالوا لهم أو وزنوا لهم. ﴿يُخْسِرُونَ﴾ ينقصون الكيل أو الوزن.

﴿أَلَا يَظُنُّ﴾ يتيقن، وهو استفهام توبيخ وإنكار وتعجب من حالهم، وعبر بالظن؛ لأن من ظن ذلك لم يتجاسر على أمثال هذه القبائح، فكيف بمن تيقنه. ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾﴾ أي يوم القيامة، عظمه لعظم ما يكون فيه. ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ﴾ من قبورهم. ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي رب الخلائق، والمراد: يوم يقف الناس أمام ربهم لأجل أمره وحكمه وحسابه وجزائه. قال البيضاوي: وفي هذا الإنكار والتعجب، وذكر الظن، ووصف اليوم بالعظم، وقيام الناس فيه لله، والتعبير برب العالمين مبالغات في المنع عن التطفيف وتعظيم إثمه.

سبب النزول:

نزول الآية (١):

أخرج النسائي وابن ماجه بسند صحيح عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة، كانوا من أبخس الناس كيلاً، فأنزل الله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك. وقال السُّدِّي: كان بالمدينة رجل يكنى أبا جهينة له مكيالان، يأخذ بالأوفى ويعطي بالأنقص فنزلت. وهي آخر سورة نزلت بمكة، فهي مكية في قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل. ويقال: إنها أول سورة نزلت بالمدينة، فهي مدنية في قول الحسن وعكرمة. روي أن رسول الله ﷺ قدم المدينة، وكانوا من أخبث الناس كيلاً، فنزلت، فأحسنوا الكيل[1]. وهذا على أن السورة مدنية، أو قرأها عليهم بعد قدومه إن كانت مكية.

التفسير والبيان:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ أي عذاب شديد للمنقصين في الكيل أو الوزن، والتطفيف: الأخذ في الكيل أو الوزن شيئاً طفيفاً، أي نزراً حقيراً أو يسيراً، والمطفف: هو المقلل حق صاحبه بنقصانه عن الحق في كيل أو وزن. قال ابن كثير رحمه الله: البخس في المكيال والميزان: إما بالازدياد إن اقتضى من الناس، وإما بالنقصان إن قضاهم، ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخسار والهلاك وهو الويل بقوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ أي هم الذين إذا اكتالوا من الناس وقبضوا لهم، يأخذون حقهم وافياً زائداً، وإذا كالوا أو وزنوا لغيرهم من الناس أو أقبضوهم، ينقصون الكيل أو الوزن.

---

(١) رواه النَّسائي عن ابن عباس.

وقد أمر الله تعالى بالوفاء في الكيل والميزان، فقال: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٣٥] وقال سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥٢] وقال عز وجل: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٩] . وأهلك الله قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس في الميزان والمكيال، بعد أن كرر النصح لهم، فقال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود: ١١/ ٨٥] .

ثم توعد الله تعالى المطففين بقوله:

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾﴾ أي ألا يخطر ببال أولئك المطففين أنهم مبعوثون، فمسؤولون عما يفعلون؟ وأما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي ربهم في يوم عظيم الهول كثير الفزع، جليل الخطب، من خسر فيه أدخل ناراً حامية؟ وهو يوم القيامة.

إنه يوم يقوم الناس فيه حفاة عراة، في موقف صعب حرج، منتظرين لأمر رب العالمين وجزائه وحسابه. وفي هذا دلالة على عظم ذنب التطفيف، ومزيد إثمه، وشدة عقابه، لما فيه من خيانة الأمانة وأكل حق الغير. وفي الإشارة إليهم بأولئك، وقد ذكرهم عما قريب، تبعيد لهم عن رتبة الاعتبار، بل عن درجة الإنسانية. وفي هذا الإنكار والتعجيب، وكلمة الظن، ووصف اليوم بالعظيم، وقيام الناس فيه لرب العالمين، بيان بليغ لعظم هذا الذنب. ويلاحظ أن المطففين إن كانوا من أهل الإسلام، فالظن بمعنى اليقين أو العلم، وإن كانوا كفاراً منكري البعث، فالظن بمعناه الأصلي، والمراد: هب أنهم لا يقطعون بالبعث، أفلا يظنونه أيضاً؟ كقوله: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٣٢].

فقه الحياة أو الأحكام:

يستفاد من الآيات ما يأتي:

١ - التطفيف: وهو إنقاص حق الآخر في الكيل أو الوزن ونحوهما من المقاييس، حرام شرعاً، موجب للإثم الشديد والعذاب الأليم في الآخرة، وهو أيضاً رذيلة اجتماعية ونقيصة وعيب يطعن في الخلق، ويؤدي إلى ابتعاد الناس عن فاعله.

روي أن أهل المدينة كانوا تجاراً يطففون، وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة، يعني بيع الغرر، كالطير في الهواء، فنزلت - على أن السورة مدنية في رأي جماعة - فخرج رسول الله، فقرأها عليهم، فقال:

«خمسٌ بخمسٍ، ما نقض قوم العهد إلا سُلِّط عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طَفَّفوا المكيالَ إلاّ مُنعوا النَّباتَ، وأُخذوا بالسِّنينَ، ولا مَنَعوا الزكاةَ إلا حُبِس عنهم القَطْر»[1].

٢ - المراد بالتطفيف هنا: الزيادة في الكيل أو الوزن ونحوهما عند استيفاء الحق، ونقص الكيل أو الوزن ونحوهما عند إيفاء الحق.

٣ - قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤﴾ توبيخ للمطففين، وإنكار وتعجيب عظيم من حالهم، في الاجتراء على التطفيف، كأنهم لا يظنون أنهم مبعوثون يوم القيامة، فمسؤولون عما يفعلون. والظن هنا كما تقدم بمعنى اليقين، أي ألا يوقن أولئك؟ ولو أيقنوا ما نقصوا في الكيل والوزن. وهذا دليل على أن التطفيف من الكبائر.

---

(١) أخرجه الطبراني عن ابن عباس، وهو حديث صحيح. وأخرجه أبو بكر البزار بمعناه، ومالك بن أنس أيضاً من حديث ابن عمر.

وهذا الوعيد يتناول من يفعل ذلك، ومن يعزم عليه؛ إذ العزم عليه أيضاً من الكبائر[١].

وأكثر العلماء على أن قليل التطفيف وكثيره يوجب الوعيد، وبالغ بعضهم كما تقدم، حتى عدَّ العزم عليه من الكبائر.

وقال الشيخ أبو القاسم القشيري رحمه الله: لفظ المطفف يتناول التطفيف في الوزن والكيل، وفي إظهار العيب وإخفائه، وفي طلب الإنصاف والانتصاف، ومن لم يرض لأخيه المسلم ما يرضاه لنفسه، فليس بمنصف، والذي يرى عيب الناس ولا يرى عيب نفسه، فهو من هذه الجملة، ومن طلب حق نفسه من الناس، ولا يعطيهم حقوقهم، كما يطلب لنفسه، فهو من هذه الجملة، والفتى من يقضي حقوق الناس، ولا يطلب من أحد لنفسه حقاً[٢].

ويحكى أن أعرابياً قال لعبد الملك بن مروان: إن المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم الذي سمعت به، فما ظنك بنفسك، وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ووزن؟!

٤ - قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ أي للعرض والحساب، فيه غاية التخويف؛ لأن جلال الله وعظمته يملآن النفس رهبة وهيبة، والقيام له شيء حقير أمام عظمته وحقه.

أما قيام الناس بعضهم لبعض، ففيه خلاف، فمنهم من أجازه، ومنهم من منعه، وقد روي أن النبي ﷺ قام إلى جعفر بن أبي طالب واعتنقه، وقام طلحة لكعب بن مالك يوم تِيب عليه، وقال النبي ﷺ للأنصار، حين طلع عليه سعد

(١) وهذا رأي الرازي، تفسير الرازي: ٣١/ ٨٩.

(٢) غرائب القرآن: ٣٠/ ٤٩.

ابن معاذ فيما رواه أبو داود عن أبي سعيد الخدري: «قوموا إلى سيِّدكم». وقال أيضاً: «من سرّه أن يتمثل له الناس قياماً، فليتبوأ مقعده من النار»[١].

قال القرطبي: وذلك يرجع إلى حال الرجل ونيته، فإن انتظر ذلك واعتقده لنفسه، فهو ممنوع، وإن كان على طريق البشاشة والوُصلة، فإنه جائز، وبخاصة عند الأسباب، كالقدوم من السفر ونحوه[٢].

والخلاصة كما ذكر الرازي: جمع الله سبحانه في هذه الآية أنواعاً من التهديد، فقال أولاً: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ وهذه الكلمة تذكر عند نزول البلاء، ثم قال ثانياً: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وهو استفهام بمعنى الإنكار، ثم قال ثالثاً: ﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥﴾ والشيء الذي يستعظمه الله لا شك أنه في غاية العظمة، ثم قال رابعاً: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ وفيه نوعان من التهديد:

أحدهما - كونهم قائمين مع غاية الخشوع ونهاية الذل والانكسار.

والثاني - أنه وصف نفسه بكونه رباً للعالمين[٣].

---

(١) تفسير القرطبي: ١٩/٢٥٦.

(٢) تفسير القرطبي: ١٩/٢٥٦.

(٣) تفسير الرازي: ٣١/ ٩٠-٩١.

ديوان الشر وقصة الفجار

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾

القراءات:

﴿بَلْ ۜ رَانَ﴾:

سكت حفص سكتة لطيفة من غير تنفس على لام (بل) ويلزم منه الإظهار، وقرأ غيره بترك السكت مع إدغام اللام في الراء.

الإعراب:

﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾ ﴿سِجِّينٍ﴾: من السجن، وهو الحبس والتضييق، وقيل: النون فيه بدلٌ من اللام.

﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو كتاب مرقوم، أي هو في موضع كتاب مرقوم، وكذا التقدير في قوله بعدئذ: ﴿عِلِّيُّونَ﴾ [١٩] ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾﴾ [٢٠] فحذف المبتدأ والمضاف جميعاً، وإنما وجب هذا التقدير، لقيام الدليل على أن ﴿عِلِّيِّينَ﴾ مكان، قال النبي ﷺ: «إنكم لترون أهل عليين، كما يُرى الكوكب الذي في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم». وعليين: جمع لا واحد له، كعشرين، سُمي به.

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾﴾ بدل أو عطف بيان للمكذبين.

﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾ ﴿هَٰذَا﴾: في موضع رفع مبتدأ، وخبره ﴿ٱلَّذِى﴾. والجملة في موضع رفع نائب فاعل.

البلاغة:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧﴾ و﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨﴾ بينهما مقابلة، حيث قابل بين حال ﴿ٱلْفُجَّارِ﴾ وحال ﴿ٱلْأَبْرَارِ﴾، وبين ﴿سِجِّينٍ﴾ و ﴿عِلِّيِّينَ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿كَلَّآ﴾ للردع والزجر عما هم فيه من التطفيف والتكذيب بالنسبة للكافر، أو الغفلة عن البعث والحساب بالنسبة للمؤمن .﴿كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ كتاب أعمال الكفار، وهو ما يكتب فيه من أعمالهم .﴿سِجِّينٍ﴾ كتاب جامع لأعمال الفجرة من الثقلين: الشياطين والفسقة والكفرة، فهو ديوان الشر، بدليل قوله تعالى بعدئذ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾ والمعنى أن ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان. وقيل: هو مكان في أسفل السافلين، و﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾ ليس تفسيراً للسجين، بل التقدير: كلا إن كتاب الفجار لفي سجين، وإن كتاب الفجار مرقوم وموقع. لكن قال الزمخشري: سجين كتاب جامع هو ديوان الشر، دوَّن الله فيه أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفسقة من الجن والإنس، وهو كتاب مرقوم مسطور بيِّن الكتابة، أو مُعْلَم يعلم من رآه أنه لا خير فيه، فالمعنى أن ما كتب من أعمال الفجار مثبَّت في ذلك الديوان، وسمي سجيناً فعّيلاً من السجن وهو الحبس والتضييق؛ لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم، فهو اسم علم لا صفة، منقول من وصف كخاتم، وهو منصرف؛ لأنه ليس فيه إلا سبب واحد وهو التعريف[1].

وقال أبو حيان: والظاهر أن سجيناً هو كتاب، ولذلك أبدل منه ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾[2].

(١) الكشاف: ٣/ ٣٢٢.

(٢) البحر المحيط: ٨/ ٤٤٠.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨﴾ ما كتاب سجين؟ ﴿كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ۝٩﴾ كتاب مسطور بيِّن الكتابة، أو مُعْلَم، يعلم من رآه أنه لا خير فيه، كما تقدم، يقال: رقم الكتاب: إذا جعل له علامة، وتسمى العلامة رقماً. ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بالحق. ﴿مُعۡتَدٍ﴾ متجاوز حدود الشرع والنظر والعقل. ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الآثام أي المعاصي منهمك في الشهوات المعيبة، صيغة مبالغة.

﴿ءَايَٰتُنَا﴾ القرآن. ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ حكايات وأخبار القدماء، جمع أسطورة، أو إسطارة، ﴿كَلَّآ﴾ ردع وزجر لهم عن هذا القول. ﴿بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ غطّاها وغلب عليها، أي اسودت من الذنوب، وهو ردّ لما قالوه وبيان سبب قولهم، وهو حب المعاصي بالانهماك فيها، حتى صار ذلك صدأ على قلوبهم، فعمّى عليهم معرفة الحق والباطل. والرين: الصدأ. ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ من المعاصي، فهو كالصدأ.

﴿كَلَّآ﴾ ردع عن الكسب الزائد. ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ يوم القيامة. ﴿لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ فلا يرونه، بخلاف المؤمنين، ومن أنكر الرؤية جعله تمثيلاً لإهانتهم بإهانة حجاب الملوك الذين يمنعون عن الدخول عليهم. ﴿لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾ لداخلو النار المحرقة وملازموها. ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾ يقول لهم الزبانية: هذا هو العذاب الذي كنتم تكذبون به.

المناسبة:

بعد بيان عظم ذنب التطفيف، وبيان سببه، وهو إنكار البعث والحساب أو الغفلة عنهما، ردعهم الله تعالى عن الأمرين معاً، ثم بيّن أن كل ما يعمل من خير أو شر، فإنه مكتوب مسطر عند الله، وأوعد منكري البعث المكذبين به، والقائلين بأن القرآن أساطير الأولين، وليس وحياً من عند الله، ثم زجرهم عن هذه المقولة الباطلة، وأوضح سببها وهو انغماسهم في المعاصي التي حجبت قلوبهم عن رؤية الحق والباطل، فصاروا لا يميزون بين الخير

والشر، وأعقب ذلك بيان جزائهم، وهو طردهم من رحمة الله ودخولهم نار جهنم وملازمتهم لها.

وقدّم ديوان الشر عن ديوان الخير؛ لأن المذكور قبله هو وعيد أهل الفجور، فناسب إيراد حال الأشرار أولاً.

التفسير والبيان:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾ أي ارتدعوا وانزجروا عما أنتم عليه من التطفيف والغفلة عن البعث والحساب، فإن الفجار ومنهم المطففون أعمالهم مكتوبة في ديوان الشر وسجل أهل النار وهو السجين، أو في حبس وضيق شديد، فكلمة ﴿سِجِّينٍ﴾ من السجن: وهو الضيق والحبس.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ أي وما أعلمك أنت ولا قومك ما هو السجين؟ إنه الكتاب الذي رصدت فيه أسماؤهم، فهو كتاب مسطور بيِّن الكتابة، جامع لأعمال الشر الصادر من الشياطين والكفرة والفسقة. وهذا السجل المسمى بالسجين هو السجل الكبير أو العظيم، الذي فيه لكل فاجر صحيفة.

وهذا هو الظاهر في معنى كلمة ﴿سِجِّينٍ﴾. وقد عرفنا سابقاً أن بعضهم يرى أن السجين هو مكان وهو جهنم وهي أسفل السافلين، لذا قال محمد بن كعب القرظي: قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ ليس تفسيراً لقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾﴾ وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين، أي مرقوم مكتوب مفروغ منه، لا يزاد فيه أحد، ولا ينقص منه أحد[1]. وهو رأي النحويين كما تقدم.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٤٨٥.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾﴾ أي عذاب شديد يوم القيامة لمن كذب بالبعث والجزاء وبما جاء به الرسل، فهؤلاء المكذبون هم الذين لا يصدقون بوقوع الجزاء، ولا يعتقدون كونه، ويستبعدون أمره. وهذا وعيد للذم لا للبيان؛ لأن كل مكذب فالوعيد يتناوله، سواء كان مكذباً بالبعث أو بسائر آيات الله تعالى.

ثم أبان الله تعالى صفات من يكذب بيوم الدين وهي ثلاث، فقال:

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي لا يكذب بيوم الدين إلا من كان متصفاً بهذه الصفات الثلاث: وهي أولاً - كونه معتدياً، أي فاجراً جائراً متجاوزاً منهج الحق، ثانياً - أنه أثيم: وهو المنهمك في الإثم في أفعاله، من تعاطي الحرام وتجاوز المباح، وفي أقواله: إن حدَّث كذب، وإن وعد أخلف، وإن خاصم فجر، وثالثاً - أنه إذا تلي عليه القرآن قال: أساطير الأولين، أي أخبار الأولين المتقدمين وأكاذيبهم وأباطيلهم التي زخرفوها، تلقاها محمد ﷺ من غيره من السابقين، وهذا يعني في زعمهم أن القرآن ليس وحياً من عند الله تعالى.

وهذه الصفة الثالثة تشبه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٢٤] وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٥] قيل: نزل هذا في الوليد بن المغيرة وأبي جهل ونظرائهما.

ثم بيّن الله تعالى أسباب افترائهم على القرآن، فقال:

﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي ارتدعوا وانزجروا عن هذه الأقوال، فليس الأمر كما زعمتم أيها المعتدون الآثمون، ولا كما قلتم: إن هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله، ووحيه، وتنزيله على رسوله ﷺ، وإنما السبب هو كثرة الذنوب والخطايا التي حجبت قلوبكم عن الإيمان

بالقرآن، والتي كوّنت عليها الرَّين الذي منع نفاذ الحق والخير والنور إليها، فأعماها عن رؤية الحقيقة. والرين: يعتري قلوب الكافرين، فقوله: ﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ أي غطى عليها. أخرج ابن جرير وأحمد والترمذي والنسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن العبد إذا أذنب ذنباً، نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر، صقل قلبه، وإن عاد زادت حتى تغلف قلبه، فذلك الرانُ الذي ذكره الله سبحانه في القرآن». قال الحسن البصري عن الران: هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب، ويسودّ من الذنوب. والطبع: أن يطبع على القلب، وهو أشد من الرين.

ثم أبان الله تعالى أنهم مطرودون من أي رحمة أو تكريم، فقال:

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ أي ليس الأمر كما يقولون من أن لهم في الآخرة منزلة حسنى، بل إن هؤلاء الكفار محجوبون عن ربهم يوم القيامة، لا ينظرون إليه كما ينظر المؤمنون، فكما حجبهم في الدنيا عن توحيده بسبب سوء أعمالهم، حجبهم في الآخرة عن رؤيته وكرامته.

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل يومئذ[1]. وهذا استدلال بمفهوم الآية، يدل عليه منطوق قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ٢٢-٢٣] .

ثم إنهم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن هم من أهل النيران، فهم داخلو النار، وملازموها غير خارجين منها، ومقاسو حرها، وصِلِيُّ الجحيم أشد من الإهانة وحرمان الكرامة.

ويقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ:

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٤٨٥.

﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي تقول لهم خزنة جهنم وزبانيتها تبكيتاً لهم وتوبيخاً: هذا هو العذاب الذي كنتم تكذبون به في الدنيا، فانظروه وذوقوه.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ً - إن أعمال الفجار العصاة الكفرة مرصودة في كتاب مسطور بيِّن الكتاب، مُعْلَم بعلامة، ومصيرهم السجن والضيق في جهنم والعذاب المهين.

٢ً - هناك شدة وعذاب أليم يوم القيامة للذين يكذبون بيوم الحساب والجزاء والفصل بين العباد.

٣ً - لا يصدر التكذيب بالبعث والآخرة إلا من الفاجر المتجاوز حدود الحق، المعتدي على الخلق في معاملته إياهم، وعلى نفسه، وهو الأثيم العاصي في ترك أمر الله، وهو القائل عن القرآن إذا تلي عليه: إنه أساطير الأولين، أي أحاديثهم وأباطيلهم التي كتبوها وزخرفوها.

٤ً - ليس القرآن أساطير الأولين كما زعموا، وإنما هو كلام الله الحق المنزل على قلب نبيه المصطفى ﷺ. وسبب زعمهم كثرة القبائح والمعاصي التي غطت قلوبهم بالران وهو الحجاب الكثيف الذي يحدث بسبب تراكم الذنوب، فمنعتها من رؤية الحق والباطل، والتمييز بين الخير والشر.

٥ً - حقاً، إن هؤلاء الكفار المنكرين للبعث المكذبين بالقرآن محجوبون عن رؤية ربهم يوم القيامة، فلا ينظر إليهم نظرة رحمة، ولا يرونه، ثم إنهم يلازمون الجحيم (النار المحرقة) فلا يخرجون منها، كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها، وكلما خبت نارها زادهم الله سعيراً، ويقال لهم من خزنة جهنم: هذا هو العذاب الذي كنتم تكذبون به رسل الله في الدنيا.

٦ - قال الزجاج في آية: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾: في هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يُرَى في القيامة، ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة، ولا خسّت منزلة الكفار بأنهم يحجبون.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ٢٢-٢٣] فأعلم الله جلَّ ثناؤه أن المؤمنين ينظرون إليه، وأعلم أن الكفار محجوبون عنه.

وقال مالك بن أنس في هذه الآية: لما حجب أعداءه، فلم يروه، تجلى لأوليائه حتى رأوه.

وقال الشافعي: لما حجب قوماً بالسخط، دلَّ على أن قوماً يرونه بالرضا. ثم قال: أما والله، لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه في المعاد، لما عبده في الدنيا.

ديوان الخير وقصة الأبرار

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

القراءات:

﴿خِتَٰمُهُۥ﴾:

وقرأ الكسائي (خاتَمُهُ).

الإعراب:

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ ﴿عَيْنًا﴾: تمييز، أو حال من ﴿تَسْنِيمٍ﴾؛

لأنها بمعنى جارية، على أن (تسنيماً) اسم للماء الجاري من علو الجنة، فهو معرفة، تقديره: ومزاجه من الماء جارياً من علو، أو منصوب بـ ﴿تَسْنِيمٍ﴾ وهو مصدر، مثل: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا﴾ أي ومزاجه من ماء تسنيم عيناً، أو منصوب بتقدير (أعني عيناً) أو منصوب على المدح و ﴿يَشْرَبُ﴾: جملة فعلية في موضع نصب على الموضع لقوله: ﴿عَيْنًا﴾. وباء ﴿بِهَا﴾ إما زائدة، أي يشربها بمعنى: يشرب منها، أو بمعنى فيها.

البلاغة:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾﴾ تفخيم وتعظيم لمراتب الأبرار.

﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ جناس اشتقاق.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ إطناب بذكر أوصاف المتقين ومقر نعيمهم.

﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ تشبيه بليغ، أي كالمسك في الطيب والبهجة، فحذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه.

المفردات اللغوية:

﴿كَلَّآ﴾ حقاً، أو ردع وزجر عن الباطل. ﴿كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ ما يكتب من أعمال المؤمنين الصادقين في إيمانهم. ﴿لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ لمثبت في ديوان الخير، فهو إما أنه الكتاب الجامع لأعمال الخير من الملائكة ومؤمني الثقلين، بدليل تفسيره بعدئذ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾﴾ وإما أنه مكان عال في الجنة. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾﴾ ما أعلمك ما كتاب عليين؟ ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾﴾ مسطور بيِّن الكتابة أو مُعْلَم بعلامة. ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ يحضرونه فيحفظونه، وهم الملائكة. ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾ جنة.

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ السرُر أو الأسرّة في الحجال، والحجال: جمع حجلة وهي كالقبة، ولا تطلق الأريكة على السرير إلا إذا كان في حجلة وهي الكلّة. ﴿يَنظُرُونَ﴾ ما أعطوا من نعيم يسرّهم. ﴿نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ بهجة التنعم وحسنه وبريقه. ﴿رَّحِيقٍ﴾ شراب خالص لا غش فيه، وهو أجود الخمر غير المسكرة. ﴿مَّخْتُومٍ﴾ ختم إناؤه بالمسك، لا يفكه إلا الأبرار تكريماً لهم. ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ ختام إنائه المسك، مكان الطين أو غيره. ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ فليتسارع أو فليستبق المتسابقون بالمبادرة إلى طاعة الله تعالى، وليجاهدوا النفوس، ليلحقوا بالركب المتقدم من العاملين المخلصين. وأصل التنافس: التنازع في الشيء بغية أن ينفرد به أحد المتنازعين دون غيره، أي يضن به.

﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾ ما يمزج به أو يخلط، فالمِزاج والمِزْج: الشيء الذي يمزج بغيره، والمَزْج: خلط أحد الشيئين بالآخر. ﴿تَسْنِيمٍ﴾ عين من ماء تجري من الأعلى إلى الأسفل، وهو أشرف شراب في الجنة. ﴿يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ يشرب منها، أو ضمن يشرب معنى يلتذ، و﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ هم الأبرار السابق ذكرهم.

المناسبة:

بعد بيان حال المطففين وحال الفجار المكذبين بيوم الدين، وتبيين درجتهم يوم القيامة، أتبعه ببيان حال الأبرار الذين آمنوا بالله ورسله واليوم الآخر، وعملوا صالحاً في الدنيا، والتعريف بمنزلتهم عند الله، وأن الله رصد أعمالهم في كتاب مرقوم هو ﴿عِلِّيُّونَ﴾ وأن لهم الجزاء الحسن على إحسانهم في الدنيا، حتى يتبين أن كتاب الأبرار ضد كتاب الفجار بجميع معانيه، فيقبل العاقل على مقوّمات الأولين، ويبتعد عن محاكاة الآخرين.

التفسير والبيان:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾ أي حقاً، إن كتاب الأبرار،

وهم المؤمنون المخلصون العاملون المطيعون، مرصود في كتاب بيِّن مسطور، أو في أعالي الجنة، ومصيرهم إلى الجنة، وهم بخلاف الفجار، وهو بخلاف سجين.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي وما أعلمك يا محمد أي شيء هو عليون؟ ويراد بذلك تفخيم أمره وتعظيم شأنه، إنه كتاب مسطور، سطرت فيه أسماؤهم وأعمالهم، وهو السجل الكبير، الذي تُحضره الملائكة وتحفظه ويرونه كما يحفظ اللوح المحفوظ، أو يشهدون بما فيه يوم القيامة.

ثم أبان الله تعالى حالهم فقال:

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي إن أهل الطاعة لفي تنعم عظيم يوم القيامة، وفي جنات الخلود، على الأسرَّة التي في الحجال (ذات القبب الساترة) ينظرون إلى ما أعده الله لهم من أنواع النعيم في الجنة، وإلى ما لهم من الكرامات المادية والمعنوية، أما الماديات فهي مختلف أنواع الأطعمة الشهية والأشربة الهنية والحور العين والمراكب الفارهة والمساكن الفخمة، وأما المعنويات فأنسهم بالله ورؤيتهم له ورضاه عنهم وشعورهم بالأمن والطمأنينة والسعادة الأبدية.

﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ أي إذا رأيتهم عرفت آثار النعمة والترف والسرور والدعة في وجوههم، التي تتلألأ بالنور والحسن والبياض، والبهجة والرونق؛ لأن الله تعالى زاد في جمالهم وفي ألوانهم ما لا يصفه واصف، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾﴾ [عبس: ٨٠/٣٨-٣٩].

﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي يسقون من الخمر التي لا غش فيها ولا يشوبها شيء يفسدها، وقد

ختم إناؤها بالمسك فلا يفكه إلا الأبرار، ويكون آخر طعمه ريح المسك، وفي ذلك فليرغب الراغبون، وليتسابق المتسابقون بالمبادرة إلى طاعة الله باتباع أوامره، واجتناب نواهيه. وهذا يعني أن التسابق أو التنافس يكون فيما يؤدي إلى النعيم، لا إلى الجحيم، كما قال تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٦١].

أخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: «أيما مؤمن سقى مؤمناً شَرْبة ماء على ظمأ، سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم، وأيما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع، أطعمه الله من ثمار الجنة، وأيما مؤمن كسا مؤمناً ثوباً على عُري، كساه الله من خُضْر الجنة».

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي ومزاج ذلك الرحيق، وهو ما يخلط به، من تسنيم، وهو شراب ينصب عليهم من علوّ، وهو أشرف شراب الجنة. ويسقون الرحيق أو التسنيم من عين جارية من الأعلى إلى الأسفل يمزجون بها كؤوسهم، وهي التي يشرب منها الأبرار المقربون صرفاً، وتمزج لأصحاب اليمين مزجاً.

سئل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ فقال: هذا مما قال الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ٣٢/ ١٧].

فقه الحياة أو الأحكام:

يتبين من الآيات ما يأتي:

أ - إن صحف أعمال الأبرار مدونة في السجل الكبير، وهو الكتاب المسطر البيِّن الكتابة، الذي يتميز بعلامته الخاصة، ويشهد عمل الأبرار مقربو كل سماء من الملائكة. وهذه أضداد كتاب الفجار.

وبالمقارنة بينهما يتبين أن العلو والفسحة والضياء والطهارة من علامات

السعادة، والسفل والضيق والظلمة من علامات الشقاوة. والمقصود من وضع كتاب الفجار في أسفل السافلين وفي أضيق المواضع: إذلال الفجار وتحقير شأنهم. والمقصود من وضع كتاب الأبرار في أعلى عليين وشهادة الملائكة لهم بذلك: إجلالهم وتعظيم شأنهم[1].

٢ - بعد أن عظم الله تعالى كتاب الأبرار عظم منزلتهم، فأبان أنهم في نعيم الجنة. ووصف كيفية ذلك النعيم بأمور ثلاثة:

أولها - على الأرائك ينظرون، أي على الأسرة في الحجال ينظرون إلى ما أنعم الله به عليهم من الكرامات، ومن أنواع النعيم في الجنة من الحور العين والولدان، وأنواع الأطعمة والأشربة والملابس والمراكب وغيرها، قال ﷺ: «يلحظ المؤمن، فيحيط بكل ما آتاه الله، وإن أدناهم يتراءى له مثل سعة الدنيا» .

ثانيها - تعرف في وجوههم نضرة النعيم، أي بهجته وغضارته ونوره، والنظر المقرون بالنضرة هو رؤية الله عز وجل، على ما قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ٢٢-٢٣] .

ثالثها - يسقون من رحيق مختوم، أي يسقون من شراب لا غِشّ فيه، والرحيق: صفوة الخمر، وخمر الجنة غير مسكرة، كما قال تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٤٧] . وقال عز وجل: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ١٩] .

وهذا النوع من الخمر يختلف عن النوع الآخر الذي يجري في الأنهار، المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ [محمد: ٤٧/ ١٥] لكن هذا المختوم أشرف وأفضل من الجاري.

---

(١) تفسير الرازي: ٣١/ ٩٧.

وللرحيق صفات أربع هي:

الأولى - أنه شراب مختوم قد ختم عليه تكريماً له بالصيانة على ما جرت به العادة من ختم ما يكرم ويصان.

الثانية - ختامه مسك، أي عاقبته المسك، بمعنى أن يختم له آخره بريح المسك. قال الفراء: الختام آخر كل شيء.

الثالثة - أنه محل التنافس والتنازع لرفعته وطيبه، والمراد: فليرغب الراغبون به إلى المبادرة إلى طاعة الله عز وجل.

الرابعة - ومزاجه من تسنيم، أي مزاج ذلك الرحيق الذي يخلط به من تسنيم، وهو شراب ينصب عليهم من علوّ، وهو أشرف شراب في الجنة. وأصل التسنيم في اللغة: الارتفاع، فهي عين ماء تجري من علو إلى أسفل، ومنه سنام البعير لعلوّه من بدنه، وكذلك تسنيم القبور.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: تسنيم: عين في الجنة يشرب بها المقرّبون صِرْفاً، ويمزج منها كأس أصحاب اليمين، فتطيب.

وقال ابن عباس كما تقدم في قوله عز وجل: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾: هذا مما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ٣٢/١٧].

لذا قال تعالى بعدئذ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي يشرب منها أهل جنة عدنٍ، وهم أفاضل أهل الجنة، صِرْفاً وهي لغيرهم مِزاج.

ويلاحظ أنه تعالى لما قسم المكلفين في سورة الواقعة إلى ثلاثة أقسام: المقربون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، وذكر كرامة المذكورين في هذه السورة بأنه يمزج شرابهم من عين يشرب بها المقربون، علمنا أن

المذكورين هنا هم أصحاب اليمين. وهذا يدل على أن الأنهار متفاوتة في الفضيلة، فتسنيم أفضل أنهار الجنة، والمقربون أفضل أهل الجنة[1].

سوء معاملة الكفار للمؤمنين في الدنيا ومقابلتهم بالمثل في الآخرة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

القراءات:

﴿أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ﴾:

قرأ أبو عمرو (أهلهِمِ) وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (أهلهُمُ) وقرأ الباقون (أهلهِمُ).

﴿فَكِهِينَ﴾:

قرأ حفص (فكهين) وقرأ الباقون (فاكهين).

الإعراب:

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ﴾ في موضع نصب بـ ﴿يَنظُرُونَ﴾. وقيل: لا موضع لها من الإعراب؛ لأنها مستأنفة. وقرئ: «هل ثوّب»: بإدغام اللام في ﴿هَلْ﴾ في الثاء،

(١) تفسير الرازي: ٣١/١٠٠.

وبإظهارها، من أدغم، فلما بينهما من المناسبة؛ لأنهما من حروف اللسان والثنايا العليا.

البلاغة:

﴿يَكْسِبُونَ﴾ ﴿يَضْحَكُونَ﴾ ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ ﴿يَنظُرُونَ﴾ ﴿يَفْعَلُونَ﴾ سجع مرصع، وهو توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ هم رؤساء قريش ومشركو مكة: أبو جهل والوليد ابن المغيرة وأمثالهما. ﴿كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾ أي يضحكون استهزاء من عمَّار وصهيب وبلال وغيرهم من فقراء المؤمنين. ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ﴾ مروا بالمؤمنين. ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ يغمز بعضهم بعضاً، ويشيرون بأعينهم بالجفن والحاجب استهزاء. والغمز: إرخاء الجفن والحاجب استهزاء وسخرية، أو لغرض آخر يعبر به عن شيء بين الناس، إما خير أو شر، وأكثر ذلك إنما يكون على سبيل الخبث.

﴿ٱنقَلَبُواْ﴾ رجعوا. ﴿فَكِهِينَ﴾ معجَبين بذكرهم المؤمنين، أي ينسبونهم إلى الضلال، وقرئ: فاكهين، أي ملتذين بالسخرية منهم، والمعنى في القراءتين واحد. ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ أي رأوا المؤمنين. ﴿لَضَآلُّونَ﴾ ينسبونهم إلى الضلال، لإيمانهم بمحمد ﷺ. ﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ﴾ وما أرسل الكفار على المؤمنين. ﴿حَـٰفِظِينَ﴾ لهم أو لأعمالهم، أي رقباء يهيمنون على أعمالهم، شاهدين عليها، يشهدون برشدهم وضلالهم.

﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ أي يوم القيامة. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ يهزؤون بهم حين يرونهم أذلاّء مغلولين في النار، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ على الأسرة في الحجال في الجنة. ﴿يَنظُرُونَ﴾ من منازلهم إلى الكفار، وهم يعذبون، فيضحكون منهم،

كما ضحك الكفار منهم في الدنيا .﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾ جوزي، من التثويب والإثابة: المجازاة، أي هل أثيبوا؟ ﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ نعم.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٩):

ذكر العلماء في سبب النزول وجهين:

الأول - أن المراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ أكابر المشركين كأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل السَّهْمي، كانوا يضحكون من عمار وصهيب وبلال وغيرهم من فقراء المسلمين ويستهزئون بهم.

الثاني - جاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه في نفر من المسلمين، فسخر منهم المنافقون، وضحكوا، وتغامزوا، ثم رجعوا إلى أصحابهم، فقالوا: رأينا اليوم الأصلع، فضحكوا منه، فنزلت هذه الآية قبل أن يصل عليّ إلى رسول الله ﷺ[١].

المناسبة:

بعد بيان قصة الفجار وقصة الأبرار وما أعد لكل فئة في الآخرة، حكى الله تعالى بعض قبائح أفعال الكافرين في الدنيا بالاستهزاء بالمؤمنين، ومعاملتهم بالمثل في الآخرة، جزاء ما فعلوا في الدنيا. والمقصود منه تسلية المؤمنين وتقوية قلوبهم.

التفسير والبيان:

حكى الله تعالى عن رؤساء الشرك وأمثالهم أربعة أشياء من المعلومات القبيحة، فقال:

(١) تفسير الرازي: ٣١/١٠١.

١ - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي إن كفار قريش ومن وافقهم على الكفر كانوا في الدنيا يستهزئون بالمؤمنين، ويسخرون منهم. وهكذا شأن الأقوياء والأغنياء في كل عصر يسخرون من المؤمنين المصلّين أو الفقراء المتأدبين بآداب الإسلام والقرآن، ويهزؤون من المتدينين ومن دينهم، اعتماداً منهم على قوتهم، أو سلطتهم ونفوذهم، أو ثروتهم وغناهم. قال ابن عباس في تفسير ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾: هو الوليد بن المغيرة، وعُقْبة بن أبي مُعَيط، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والعاص بن هشام، وأبو جهل، والنضر بن الحارث. وأولئك الذين آمنوا من أصحاب محمد ﷺ مثل عمار، وخبَّاب، وصُهيب، وبلال.

٢ - ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي وإذا مرَّ الكفار بالمؤمنين يتغامزون عليهم محتقرين لهم، يعيرونهم بالإسلام، ويعيبونهم به. والتغامز: صيغة تفاعل تقتضي المشاركة، من الغمز: وهو الإشارة بالجفن والحاجب استهزاء، ويكون الغمز أيضاً بمعنى العيب، يقال: غمزه: إذا عابه، وما في فلان غميزة، أي ما يعاب به، والمعنى: أنهم يشيرون إليهم بالأعين استهزاء، ويعيبونهم، ويقولون: انظروا إلى هؤلاء يتعبون أنفسهم، ويحرمونها لذاتها، ويخاطرون بأنفسهم في طلب ثواب لا يتيقنونه.

٣ - ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي وإذا رجع الكفار إلى أهلهم في منازلهم من مجالسهم في السوق، رجعوا معجبين بما هم فيه، متلذذين به، يتفكهون بما فعلوا بالمؤمنين، وبما قاموا به من طعن فيهم، واستهزاء بهم، ووصفهم بالسخف والطيش وضعف الرأي وقلة العقل.

٤ - ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي وإذا رأى المشركون المؤمنين، وصفوهم بالضلال؛ لكونهم على غير دينهم وعقائدهم الموروثة، ولاتباعهم محمّداً، وتمسكهم بما جاء به، وتركهم التنعم الحاضر بسبب طلب ثواب لا يدرى: هل له وجود أم لا.

فردَّ الله تعالى عليهم ما قالوه بقوله:

﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَـٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي وما بعث هؤلاء المجرمون من قبل الله رقباء على المؤمنين، يحفظون عليهم أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم، ولا كُلِّفوا بهم؟ وإنما كلفوا بالنظر في شؤون أنفسهم.

ثم قرر الله تعالى مبدأ المعاملة بالمثل في الآخرة، تسلية للمؤمنين وتقوية لقلوبهم، فقال:

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي ففي اليوم الآخر يوم القيامة، يضحك المؤمنون ويهزؤون من الكفار حين يرونهم أذلاّء مغلوبين، قد نزل بهم ما نزل من العذاب، كما ضحك الكفار منهم في الدنيا، معاملة بالمثل، وتبياناً أن الكفار الجاحدين هم في الواقع سفهاء العقول والأحلام، خسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين. وكلمة ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ دليل على أن التكلم واقع في يوم القيامة.

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي ينظر المؤمنون إلى أعداء الله، وهم يعذبون في النار، والمؤمنون متنعمون على الأرائك. وهذا دائم خالد لا يعادل بشيء من المؤقت الفاني.

﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي هل أثيب وجوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والطعن والتنقيص، أم لا؟ نعم، قد جوزي الكفار أتم الجزاء بما كان يقع منهم في الدنيا من الضحك من المؤمنين والاستهزاء بهم. والثواب: من ثاب يثوب: إذا رجع، فالثواب: ما يرجع على العبد في مقابلة عمله، ويستعمل في الخير والشر. والاستفهام بمعنى التقرير للمؤمنين، أي هل جوزوا بها؟

فقه الحياة أو الأحكام:

استدل العلماء بالآيات على ما يأتي:

١ً - الكفار دائماً في عداوة وحقد وتغاير مع المؤمنين، فلا يلتقي الإيمان مع الكفر، ولا الدين الصحيح مع الضلال، ولا الأخلاق العالية مع الأخلاق المرذولة. فقد كان يصدر من المشركين ألوان متعددة من أذى المؤمنين، منها ما ذكرته هذه الآيات: وهو الاستهزاء والسخرية من المؤمنين، وتعييبهم والطعن بهم وتعييرهم بالإسلام، والتفكه بذكر المسلمين بالسوء أمام أهاليهم، والعُجْب بما هم فيه من الشرك والمعصية والتنعم بالدنيا، وقولهم بأن المؤمنين في ضلال لتركهم دين الآباء والأجداد واتباعهم محمداً ﷺ، وتركهم التنعم الحاضر بسبب طلب ثواب غير مؤكد الحصول.

٢ً - قوبل الكفار في الآخرة بمثل فعلهم وقولهم، تسلية للمؤمنين، وتثبيتاً لهم على الإسلام، وتصبراً على متاعب التكاليف، وأذية الأعداء، في أيام معدودة، لنيل ثواب لا نهاية له ولا غاية، ففي الآخرة يهزأ المؤمنون من الكفار ويضحكون منهم، كما ضحك الكفار منهم في الدنيا، بسبب الضر والبؤس، فضحك المؤمنون منهم بسبب ما هم فيه من أنواع العذاب والبلاء.

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾: ذُكِر لنا أن كعباً كان يقول: إن بين الجنة والنار كُوىً، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوّ كان له في الدنيا، اطلع من بعض الكُوى؛ قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٥٥] قال: ذُكر لنا أنه اطلع فرأى جماجم القوم تَغْلي.

ويدخل المؤمنون الجنة، وأجلسوا على الأرائك ينظرون إلى الكفار، كيف يعذبون في النار، وكيف يصطرخون فيها، ويدعون بالويل والثبور، ويلعن بعضهم بعضاً.

ويقال على سبيل التهكم: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٤/ ٤٩] والمعنى:

كأنه تعالى يقول للمؤمنين: هل جازينا الكفار على عملهم الذي كان من جملته ضحكهم بكم واستهزاؤهم بطريقتكم، كما جازيناكم على أعمالكم الصالحة؟ فيكون هذا القول زائداً في سرورهم؛ لأنه يقتضي زيادة في تعظيمهم والاستخفاف بأعدائهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الانشقاق

مكية، وهي خمس وعشرون آية

تسميتها:

سميت سورة الانشقاق؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾أي تشققت وتصدعت مؤذنة بخراب العالم، ومنذرة بهول يوم القيامة.

مناسبتها لما قبلها:

السور الأربع: الانشقاق وما قبلها وهي سورة المطففين والانفطار والتكوير كلها في صفة حال يوم القيامة، ذكرت على ترتيب ما يقع فيه، فغالب ما وقع في التكوير، وجميع ما وقع في الانفطار يقع في صدر يوم القيامة، وأغلب ما ذكر في المطففين في أحوال الأشقياء الفجار والمتقين الأبرار في الآخرة، وعنيت سورة الانشقاق بالجمع بين ما يحدث من مقدمات ومشاهد الآخرة الرهيبة وبين ما يعقب ذلك من الحساب اليسير لأهل اليمين والحساب العسير لأهل الشمال.

وفي السورة المتقدمة ذكر مقر كتب الحفظة، وفي هذه ذكر كيفية عرضها يوم القيامة.

ما اشتملت عليه السورة:

محور السورة كالسور المكية الأخرى: شؤون العقيدة، وتصوير أهوال القيامة. وقد بدئت ببيان بعض التبدلات الكونية الخطيرة عند قيام الساعة: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ [الآيات: ١-٥].

وأردفت ذلك حال الإنسان في موقف العرض والحساب يوم القيامة، وانقسام الناس فريقين: أهل اليمين وأهل الشمال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [الآيات: ٦-١٥].

ثم أقسم الله بالشفق والليل والقمر على ملاقاة المشركين في القيامة أهوالاً شديدة، وأحوالاً عصيبة: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦﴾ [الآيات: ١٦-١٩].

وختمت السورة بتوبيخ المشركين والكفار والملاحدة والوجوديين وأمثالهم على عدم إيمانهم بالله تعالى، وبإنذارهم بالعذاب الأليم، والتنبيه على نجاة المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ومنحهم الثواب الدائم المستمر الذي لا ينقطع ولا ينقص: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠﴾ [الآيات: ٢٠-٢٥].

والخلاصة: أن السورة اشتملت على مقصدين: بيان ما يلاقيه الإنسان من نتائج أعماله يوم القيامة، وانحصار المصير إما في جنات النعيم وإما في نيران الجحيم.

فضلها:

أخرج مسلم والنسائي: أن أبا هريرة قرأ بهم: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ فسجد فيها، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها.

وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه عن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة العَتَمة (العشاء) فقرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ

(١)﴾ فسجد، فقلت له، فقال: سجدت خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزال أسجد بها، حتى ألقاه.

وزاد النسائي عن أبي هريرة نفسه قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ (١)﴾ و﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ (١)﴾.

أهوال يوم القيامة وانقسام الناس فريقين

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ (١) وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ (٢) وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ (٣) وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ (٤) وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ (٥) يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ (٧) فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا (٩) وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ (١٠) فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا (١١) وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا (١٣) إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا (١٥)﴾

القراءات:

﴿وَيَصۡلَىٰ﴾:

قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، والكسائي (ويُصلى)، وقرأ الباقون (ويَصْلَى).

الإعراب:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ (١)﴾ ﴿إِذَا﴾ ظرف، والعامل فيه جوابه، وجوابه إما مقدر، أي بعثتم، أو جوابه: ﴿وَأَذِنَتۡ﴾ والواو فيها زائدة، والتقدير: إذا السماء انشقت أذنت. وقيل: جوابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ على تقدير: فيا أيها الإنسان، فحذفت الفاء، أو جوابه: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ (٧)﴾.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ ﴿أن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف أي إنه، وقد سدت مسد مفعولي﴿ظَنَّ﴾. و ﴿ظَنَّ﴾ وما عملت فيه: في موضع رفع خبر: إن.

البلاغة:

﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ و ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ بينهما طباق.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾﴾ و﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾ بينهما مقابلة.

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾﴾ إلخ سجع مرصع: وهو توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿ٱنشَقَّتْ﴾ تشققت وتصدعت .﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ استمعت له، وانقادت لتأثير قدرته حين أراد انشقاقها، انقياد المطواع الذي يأذن للأمر، والأَذَن: هو الاستماع للشيء والإصغاء إليه[1].

ويكون انشقاقها بالغمام، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/٢٥] .

﴿وَحُقَّتْ﴾ وحق لها أن تسمع وتطيع وتنقاد .﴿مُدَّتْ﴾ بسطت واتسعت رقعتها بزوال جبالها وآكامها وأبنيتها .﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ من الموتى والكنوز إلى ظاهرها .﴿وَتَخَلَّتْ﴾ تكلفت في الخلو أقصى جهدها، حتى لم يبق في باطنها شيء .﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ سمعت وأطاعت في ذلك، أي في الإلقاء والتخلية. ﴿وَحُقَّتْ﴾ حق لها أن تسمع وتطيع، وذلك كله يوم القيامة.

---

(١) قال ﷺ: «ما أذِن الله لشيء كأذَنِه لنبي يتغنى بالقرآن» أي يتلوه يجهر به (النهاية لابن الأثير: ١/ ٣٣).

وجواب ﴿إِذَا﴾ وما عطف عليها محذوف دلَّ عليه ما بعده تقديره: لقي الإنسان عمله، أو بعثتم.

﴿كَادِحٌ﴾ جاهد ومُجِدٌّ في عملك. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى لقاء ربك، وهو الموت. ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ ملاق عملك من خير أو شر يوم القيامة. ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾ أعطي كتاب عمله. ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ هو المؤمن. ﴿حِسَابًا يَسِيرًا﴾ سهلاً لا يناقش فيه، بأن يعرض عليه عمله، كما في حديث الصحيحين، ثم يتجاوز عنه، وفي الحديث المذكور: «من نوقش الحساب عُذِّب». ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ أي يرجع في الجنة إلى عشيرته المؤمنين، مسروراً بحسابه اليسير.

﴿مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ هو الكافر، يؤتى كتاب عمله بشماله من وراء ظهره، قيل: غل يمناه إلى عنقه، وجعل يسراه وراء ظهره. ﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾﴾ ينادي عند رؤية ما فيه هلاكه، قائلاً: يا ثبوراه، وهو الهلاك. ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ يقاسي ناراً مستعرة، ويدخل ناراً شديدة. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ كان في عشيرته في الدنيا فرحاً بطراً باتباعه لهواه. ﴿يَحُورَ﴾ يرجع، والمراد: أنه لن يرجع إلى ربه. ﴿بَلَىٰٓ﴾ أي بلى يحور ويرجع إليه، فهو إيجاب لما بعد ﴿لَّن﴾ أي جواب لما بعد النفي، أي نعم يرجع. ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ عالماً بأعماله وبرجوعه إليه، فلا يهمله، بل يرجعه ويجازيه.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن أهوال يوم القيامة وأماراتها بقوله:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾﴾ أي إذا تشققت السماء وتصدعت مؤذنة بخراب العالم، وانشقاقها من علامات القيامة، وأطاعت ربها وانقادت له فيما أمر، وحق لها أن تطيع أمره وتنقاد وتسمع؛ لأنه العظيم القاهر الذي لا يمانع ولا يغالب، بل قد قهر كل شيء، وخضع له كل شيء.

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾ أي وإذا الأرض بسطت وسُوِّيت ووسِّعت بزوال جبالها وآكامها، ونسفها حتى صارت قاعاً صفصفاً، ولفظت وأخرجت ما فيها من الأموات والكنوز، وطرحتهم إلى ظهرها، وخلت خلواً تاماً عما فيها، وتخلت إلى الله وتبرأت من كل من فيها، ومن أعمالهم.

ونظير الآية: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ٢٠/١٠٥-١٠٧] .

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾﴾ أي استمعت وأطاعت أوامر ربها، وحق لها أن تتخلى وتستمع لما يريد ربها أن يأمرها به؛ لأنها واقعة في قبضة القدرة الإلهية. وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف لإرادة التهويل على الناس، والتقدير: إذا حدث ما حدث، رأيتم أعمالكم من خير أو شر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾: أي يا أيها الإنسان، والمراد به الجنس الذي يشمل المؤمن والكافر، إنك عامل في هذه الحياة ومجاهد ومُجِدٌّ في عملك، ومصير سعيك وعملك إلى ربك، أو إلى لقائه بالموت، وإنك ستلقى ما عملت من خير أو شر، أو سوف تلقى ربك بعملك. والكدح: جهد النفس في العمل حتى تأثرت.

روى أبو داود الطيالسي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «قال جبريل: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت، فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه» .

فقوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ يعود الضمير إلى العمل من خير أو شر، وقيل: يعود الضمير على قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ أي فملاق ربك، ومعناه: فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك.

ثم ذكر أحوال الناس وانقسامهم إلى فريقين يوم القيامة، فقال: الفريق الأول - المؤمنون: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ أي فأما من أعطي كتاب أعماله بيمينه وهم المؤمنون، فإنه يحاسب حساباً سهلاً، بأن تعرض عليه سيئاته، ثم يغفرها الله ويتجاوز عنها، من غير أن يناقشه الحساب، فذلك هو الحساب اليسير.

روى أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نوقش الحساب عُذِّب، قالت: فقلت: أفليس الله تعالى قال: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ ؟ قال: ليس ذاك بالحساب، ولكن ذلك العرض، ومن نوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب» .

وهذا الذي يعطى كتابه بيمينه ويحاسب حساباً يسيراً بالعرض يرجع إلى أهله وعشيرته في الجنة مغتبطاً فرحاً مسروراً بما أعطاه الله عز وجل وما أوتي من الخير والكرامة.

روى الطبراني عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أنه قال: «إنكم تعملون أعمالاً لا تعرف، ويوشك الغائب أن يثوب إلى أهله، فمسرور أو مكظوم» .

ونظير الآية قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ١٩-٢١] .

الفريق الثاني - الكافرون: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ أي وأما من أعطي كتاب أعماله بشماله من وراء ظهره؛ حيث تثنى يده خلفه، ويعطى كتابه بها، وتكون يمينه مغلولة إلى عنقه، فإذا قرأ كتابه، نادى يا ثبوراه، أي بالهلاك والخسار، ثم يدخل جهنم، ويصلى حرَّ نارها وشدتها.

ونظير الآية قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٢٥-٢٩] .

ثم ذكر الله تعالى سببين لعذابه فقال:

١ - ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ أي إنه كان في الدنيا فرحاً لا يفكر في العواقب، ولا يخاف مما أمامه، وإنما يتبع هواه، ويركب شهواته، بطراً أشِراً لعدم خطور الآخرة بباله، فأعقبه ذلك الفرح اليسير حزناً طويلاً.

٢ - ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ أي إن سبب ذلك السرور والبطر ظنه بأنه لا يرجع إلى الله، ولا يبعث للحساب والعقاب، ولا يعاد بعد الموت.

ثم ردَّ الله عليه ظنه قائلاً:

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ أي بلى إنه سيحور ويرجع إلى ربه، وسيعيده الله كما بدأه، ويجازيه على أعماله خيرها وشرها، فإن الله ربه كان به وبأعماله عالماً خبيراً، لا يخفى عليه منها شيء أو خافية.

وفي هذا إشارة إلى أنه لا بدَّ من دار للجزاء غير دار التكليف؛ لأن ذلك مقتضى العلم التام والقدرة والحكمة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات الكريمات على ما يأتي:

١ - من علامات القيامة: أولاً - تصدع السماء وتفطرها بالغمام، والغمام مثل السحاب الأبيض، وثانياً - بسط الأرض ودكّ جبالها، وإخراج أمواتها، وتخليها عنهم، وكل من السماء والأرض تصغي وتسمع وتنقاد وتخضع لأمر ربها، وحق لها أن تسمع أمره.

٢ً - يكدح كل إنسان ويتعب في حياته، ثم يرجع يوم القيامة بعمله إلى ربه رجوعاً لا محالة، فملاق ربه، أو ملاق عمله. قال قتادة: يا بن آدم، إن كَدْحَك لضعيف، فمن استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله، فليفعل، ولا قوة إلا بالله. وهذا دليل على أن الدنيا دار عناء وتعب، ولا راحة ولا فرح فيها.

٣ً - الناس فريقان يوم القيامة: سعداء مؤمنون وأشقياء كفار، أما الفريق الأول - فهم الذين يعطون كتب أعمالهم بأيمانهم، ويعرضون على ربهم عرضاً لا مناقشة فيه، ويتجاوز الله عنهم، ويرجعون إلى عشيرتهم مسرورين، فاللهم اجعلنا منهم.

وأما الفريق الثاني - فهم الذين يتناولون كتب أعمالهم بشمائلهم مباشرة، أو بشمائلهم من وراء ظهورهم، فينادون بالهلاك على أنفسهم، فيقول الواحد منهم: يا ويلاه، يا ثبوراه، والثبور: الهلاك والخسارة، ثم يدخلون النار حتى يصلوا حَرَّها.

وسبب خسار هذا الفريق: البطر في الدنيا، وإنكار المعاد والحساب والجزاء والثواب والعقاب، والله خبير بهم، عليم بأن مرجعهم إليه.

والفرح المنهي عنه: ما يتولد من البطر والترفه، لا الذي يكون من الرضى بالقضاء ومن حصول بعض الكمالات والفضائل النفسية؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: ١٠/٥٨] .

قال ابن زيد: وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء والشفقة في الدنيا، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة، وقرأ قول الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور: ٥٢/٢٦-٢٧] .

ثم قال: ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحك فيها والتفكه، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴿١٣﴾﴾.

٤ - قوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ﴾ أي ليبعثن: دليل على الجزم بوقوع البعث، وأنه دار العدل المطلق الذي ينال فيه كل إنسان جزاء عمله خيراً أو شراً.

تأكيد وقوع القيامة وما يتبعها من الأهوال

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾﴾

القراءات:

﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾:

قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وخلف (لتركَبَن)، وقرأ الباقون (لتركَبُن).

﴿ٱلۡقُرۡءَانُ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (القران).

الإعراب:

﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ أي حالاً بعد حال، و ﴿عَن﴾ تأتي بمعنى (بعد) ومنه قولهم: سادوا كابراً عن كابر، أي بعد كابر. وتركبن: أصله تركبونن، حذفت نون الرفع لتوالي الأمثال والواو لالتقاء الساكنين.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في موضع نصب على الحال من الهاء والميم في﴿لَهُمْ﴾ وعامله معنى الفعل الذي تعلقت به اللام في ﴿لَهُمْ﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ﴾ إما استثناء متصل من الجنس، فيكون ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في موضع نصب؛ لأنه استثناء من الهاء والميم في ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ وإما استثناء منقطع الجنس، فيكون منصوباً؛ لأن الاستثناء المنقطع منصوب.

البلاغة:

﴿وَسَقَ﴾ و ﴿ٱتَّسَقَ﴾ بينهما جناس ناقص.

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩﴾ كناية، كنَّى به عن الشدة والأهوال التي يتعرض لها الإنسان.

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤﴾ أسلوب تهكمي، استعمال البشارة في موضع الإنذار تهكم وسخرية بالكفار.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩﴾ سجع مرصَّع: وهو توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات، كما تقدم.

المفردات اللغوية:

﴿بِٱلشَّفَقِ﴾ الحمرة التي ترى في الأفق الغربي بعد غروب الشمس، وعن أبي حنيفة رضي الله عنه: إنه البياض الذي يليها، سمي به لرقته، مأخوذ من الشفقة .﴿وَسَقَ﴾ ضمَّ وجمَع وستر جميع ما دخل عليه من الدواب وغيرها. ﴿ٱتَّسَقَ﴾ اجتمع وتم نوره وصار بدراً وذلك في منتصف الشهر القمري، وهو ما يعرف بظاهرة القمر الأزرق. ويرى الفلكيون أنه يمكن أن يكتمل القمر بدراً مرتين في شهر واحد في أوربا وآسيا لوجود القمر في نصف الكرة الغربي،

على مدى ١٢ عاماً بين كل ١٩ عاماً، واكتمل القمر بدراً في الحادي والثلاثين من تموز (يوليو) عام ١٩٨٥ م، وقد اكتمل القمر بدراً في المرة القادمة في الثاني من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٩٠ م .﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ لتلاقُنَّ. حالاً بعد حال، متطابقين في الشدة. والطبق: الحال المطابقة لغيرها، والمراد: مرور الكفار بأحوال بعد أحوال هي طبقات في الشدة، بعضها أشد من بعض، وهي الموت وما بعده من الحياة من أحوال القيامة .﴿فَمَا لَهُمْ﴾ أي الكفار ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أيُّ مانع لهم عن الإيمان بيوم القيامة؟ ﴿لَا يَسْجُدُونَ﴾ لا يخضعون، بأن يؤمنوا بالقرآن لإعجازه.

﴿يُكَذِّبُونَ﴾ بالقرآن والبعث وغيرهما .﴿يُوعُونَ﴾ يجمعون في صدورهم من الشرك أو الكفر والمعصية والتكذيب والإعراض وأعمال السوء من حسد وبغي وعداوة .﴿فَبَشِّرْهُم﴾ البشارة: الإخبار بما يسرّ، والمراد هنا الإخبار عن العذاب تهكماً واستهزاء بهم .﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ﴾ أي لكن، فهو استثناء منقطع، ويصح كونه استثناء متصلاً أي من تاب وآمن به .﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع ولا منقوص ولا يمن به عليهم، يقال: فلان منّ الحبل: إذا قطعه.

المناسبة:

بعد بيان أحوال الناس وانقسامهم فريقين يوم القيامة: سعداء وأشقياء، أكد الله تعالى وقوع يوم القيامة وما يتبعها من الأهوال، بالقسم بآيات واضحة في الكون: وهي الشفق والليل والقمر، على أن البعث كائن لا محالة، وأن الناس يتعرضون لشدائد الأهوال.

ثم حكى تعالى بعض عجائب الناس أنهم لا يؤمنون بالقرآن وبالبعث، ولا يخضعون لآي القرآن العظيم، عناداً منهم واستكباراً، فيجازون أشد العذاب، إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً، فله الثواب الدائم غير الممنون به عليه.

التفسير والبيان:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨﴾ أي يقسم الله تعالى بالشفق الذي هو الحمرة التي تكون بعد غروب الشمس إلى وقت العشاء، وبالليل الأسود البهيم وما جمع وضم، وستر كل ما كان منتشراً ظاهراً في النهار، وبالقمر إذا اجتمع وتكامل وصار بدراً في منتصف كل شهر قمري. والقسم بهذه الأشياء دليل على تعظيمها وتعظيم قدر مبدعها.

ولا أقسم: قسم، وأما حرف (لا) فهو نفي ورد لكلام سابق قبل القسم، وهنا ردّ الله تعالى على المشرك الذي ظن أن لن يحور، بأنه سيرجع ويبعث، وأبطل ظنه، ثم أقسم بعده بالشفق.

﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ۝١٩﴾ جواب القسم، أي لتصادفن أحوالاً بعد أحوال، هي طبقات في الشدة، بعضها أشد من بعض، وهي الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها، ثم يكون المصير الأخير: الخلود في الجنة أو في النار.

ونظير الآية قوله: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ [التغابن: ٦٤/٧] . وقوله: ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ۝١٧﴾ [المزمل: ٧٣/ ١٧].

ثم أنكر الله تعالى على الكفار استبعادهم البعث، فقال:

﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠﴾ أي فأي شيء، أو فماذا يمنعهم عن الإيمان بصحة البعث والقيامة، وبمحمد ﷺ، وبما جاء به القرآن، مع وجود موجبات الإيمان بذلك، من الأدلة الكونية القاطعة الدالة على قدرة الله على كل شيء، والمعجزات الظاهرة الدالة على صدق النبي ﷺ وصدق الوحي القرآني المنزل عليه؟

وهذا استفهام إنكار، وقيل: تعجب، أي اعجبوا منهم في ترك الإيمان مع هذه الآيات.

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾﴾ أيْ: وأيّ مانع لهم من سجودهم وخضوعهم عند قراءة القرآن الذي دلَّ إعجازه على كونه منزلاً من عند الله تعالى؟! ويكون سجودهم إعظاماً وإكراماً واحتراماً لآي القرآن، بعد أن علموا كونه معجزاً، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة.

قد احتج أبو حنيفة رحمه الله بالآية على وجوب السجود، فإنه ذم لمن سمعه ولم يسجد.

ثم أبان الله تعالى سبب عدم إيمانهم بالله تعالى ورسوله ﷺ واليوم الآخر، فقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي والواقع أن الكفار يكذبون بالكتاب المشتمل على إثبات التوحيد والبعث والثواب والعقاب، إما حسداً للرسول ﷺ، وإما خوفاً من ضياع المنافع والمراكز والمناصب والرياسات، وإما عناداً وإمعاناً في البقاء على تقليد الآباء والأجداد والأسلاف.

والله أعلم من جميع الخلائق بما يضمرونه أو يكتمونه في أنفسهم من التكذيب، وأعلم بأسباب الإصرار على الشرك أو الكفر، وجمع الأعمال الصالحة والسيئة.

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾ أي فأخبرهم أيها النبي بأن الله عز وجل قد أعدّ لهم عذاباً أليماً. واستعمال البشارة التي هي في الأصل لما هو سار، في الإخبار عن العذاب، تهكم واستهزاء بهم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾ أي لكن الذين آمنوا بالله تعالى ورسوله ﷺ واليوم الآخر، وخضعوا للقرآن الكريم،

وعملوا بما جاء به، والتزموا صالح الأعمال بأعضائهم، لهم في الدار الآخرة ثواب غير مقطوع ولا منقوص، ولا يمنّ به عليهم، كما قال تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨/١١] . والاستثناء منقطع في رأي الزمخشري. وقال الأكثرون: معناه إلا من تاب منهم وعمل صالحاً، فله الثواب العظيم.

وفي هذا ترغيب شديد بالإيمان والطاعة، وزجر عن الكفر والمعصية.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - أقسم الله عز وجل بالشفق (وهو حمرة السماء التي تكون عند مغيب الشمس حتى تأتي صلاة العشاء الآخرة) وبالليل وما جمع وضم ولفّ، وبالقمر إذا اجتمع وتم واستوى، على وقوع البعث والقيامة وما يتبعها من أهوال عظام وشدائد ضخام.

٢ً - ماذا يمنع الكفار عن الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ واليوم الآخر والقرآن بعدما وضحت لهم الآيات وقامت الدلالات؟!

وماذا يمنعهم عن الخضوع والسجود للقرآن عند سماعه، بعدما عرفوا أنه معجز، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة؟!

وهذا توبيخ على أنهم لا ينظرون في الدلائل حتى يورثهم الإيمان والسجود عند تلاوة القرآن.

٣ً - جمهور العلماء على أن هذه الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾﴾ موضع سجدة تلاوة، بدليل ما تقدم في الصحيح عن أبي هريرة أنه قرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ فسجد فيها، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها.

وقال الإمام مالك: إنها ليست من عزائم السجود؛ لأن المعنى: لا يُذْعنون ولا يطيعون في العمل بواجباته. وعقب على ذلك ابن العربي ونقله عنه القرطبي قائلاً: والصحيح أنها منه، أي من عزائم السجود، وهي رواية المدنيين عنه، أي عن مالك، وقد اعتضد فيها القرآن والسنة[1].

٤ - الواقع أن الكفار يكذبون الدلائل الموجبة للإيمان وتوابعه، وإن كانت جلية ظاهرة، وتكذيبهم بها إما لتقليد الأسلاف، أو عناداً، أو حسداً، أو خوفاً من أنهم لو أظهروا الإيمان، لفاتتهم مناصب الدنيا ومنافعها.

والله عالم بما يضمرونه في أنفسهم من التكذيب والشرك والعناد وسائر العقائد الفاسدة والنيات الخبيثة، فهو يجازيهم على ذلك.

٥ - صرح الله تعالى بوعيدهم قائلاً لنبيه: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾ أي موجع في جهنم على تكذيبهم، أي جعل ذلك بمنزلة البشارة تهكماً واستهزاء بهم.

٦ - استثنى الله تعالى من الوعيد السابق الذين صدقوا بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ، وعملوا الصالحات، أي أدّوا الفرائض المفروضة عليهم، فلهم ثواب غير منقوص ولا مقطوع، ولا يمنُّ عليهم به.

والاستثناء منقطع عند الزمخشري كما بينا، ولا بأس بكونه متصلاً، كأنه قال: إلا من آمن منهم، فله أجر غير مقطوع، أو هو من المنة.

وذكر ناس من أهل العلم أن قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ليس استثناء، وإنما هو بمعنى الواو، كأنه قال: والذين آمنوا.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي: ٤/ ١٨٩٩، تفسير القرطبي: ١٩/ ٢٨٠-٢٨١.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة البروج

مكية، وهي اثنتان وعشرون آية

تسميتها:

سميت سورة البروج، لافتتاحها بقسم الله بالسماء ذات البروج: وهي منازل الكواكب السيارة في أثناء سيرها، تنويهاً بها لاشتمالها على الظهور والغياب.

مناسبتها لما قبلها:

تتعلق السورة بما قبلها من وجوه ثلاثة:

أ - التشابه في الافتتاح بذكر السماء، ولهذا ورد في الحديث ذكر السماوات مراداً بها السور الأربع، كما قيل في المسبِّحات. وتلك السور هي الانفطار والانشقاق، والبروج، والطارق.

٢ - اشتمال السورتين على وعد المؤمنين، ووعيد الكافرين، والتنويه بعظمة القرآن.

٣ - تضمنت السورة السابقة أن الله عليم بما يجمع المشركون في صدورهم للنبي ﷺ والمؤمنين معه من أنواع الأذى المادي، كالضرب والقتل والتعذيب

في حرّ الشمس، والأذى المعنوي، من حقد وحسد، وعداوة، ومكر، وخوف على فوت المنافع، وذكر في هذه السورة أن هذا شأن من تقدمهم من الأمم الكافرة الفاجرة. وفي هذا عظة للمشركين وتثبيت للمؤمنين.

ما اشتملت عليه السورة:

أبرزت هذه السورة المكية جانباً مهماً من جوانب العقيدة وهو التضحية في سبيل الإيمان والاعتقاد، ممثلاً في قصة (أصحاب الأخدود).

افتتحت السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات منازل الكواكب، وبيوم القيامة، وبالأنبياء الذين يشهدون على أممهم، على إهلاك وتدمير وإبادة المجرمين، الذين أحرقوا جماعة من المؤمنين والمؤمنات في النار ليفتنوهم عن دينهم: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾ [الآيات: ١-٩].

وأعقبت ذلك بوعيد هؤلاء العتاة الطغاة، وإنذارهم بعذاب جهنم، وبوعد المؤمنين بالجنان: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الآيتان: ١٠-١١].

وختمت السورة بإظهار عظمة الله وجليل صفاته وقدرته على الانتقام من أعدائه، والاتعاظ بقصة الطاغية فرعون الجبار: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢﴾ [الآيات: ١٢-٢٢].

فضلها:

أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بـ ﴿ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ و ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾.

وأخرج أحمد عن أبي هريرة أيضاً أن رسول الله ﷺ أمر أن يقرأ بالسماوات في العشاء.

سبب نزولها والحكمة منها:

المقصود من هذه السورة تسلية النبي ﷺ وأصحابه عن إيذاء الكفار، ببيان أن سائر الأمم السابقة كانوا كأهل مكة، مثل أصحاب الأخدود في نجران اليمن، ومثل فرعون وثمود. وكان كل الكفار سواء في التكذيب، فانتقم الله منهم؛ لأنهم جميعاً في قبضة القدرة الإلهية: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾. وهذا شيء مثبت في اللوح المحفوظ ممتنع التغيير؛ لقوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴿٢٢﴾﴾.

وسبب نزول هذه السورة التي تدور على قصة أصحاب الأخدود: ما رواه مسلم في صحيحه وأحمد والنسائي، وموجزها: أن أحد ملوك الكفار وهو ذو نُواس اليهودي، واسمه زُرْعة بن تُبَّان أسعد الحميري، بلغه أن بعض رعيته آمن بدين النصرانية[1]، فسار إليهم بجنود من حِمْيَر، فلما أخذوهم خيَّروهم بين اليهودية والإحراق بالنار، فاختاروا القتل، فشقوا لهم الأخدود، وأضرموا فيه النار، ثم قالوا للمؤمنين: من رجع منكم عن دينه تركناه، ومن لم يرجع ألقيناه في النار، فصبروا، فألقوهم في النار، فاحترقوا، والملك وأصحابه ينظرون. قيل: قتل منهم عشرين ألفاً، وقيل: اثني عشر ألفاً، وقال الكلبي: كان أصحاب الأخدود سبعين ألفاً.

والخلاصة: أن ذا نواس آخر ملوك حمير، وكان مشركاً، قتل أصحاب الأخدود الذين كانوا نصارى، وكانوا قريباً من عشرين ألفاً[2].

تفصيل القصة - قصة الساحر والراهب والغلام:

المعتمد من قصص أصحاب الأخدود: ما جاء في الصحاح عن النبي

---

(١) وقال الضحاك: هم قوم من النصارى كانوا باليمن قبل مَبْعث رسول الله ﷺ بأربعين سنة، أخذهم يوسف بن شراحيل بن تُبَّع الحميري، وكانوا نيفاً وثمانين رجلاً، وحفر لهم أخدوداً وأحرقهم فيه.

(٢) تفسير ابن كثير: ٥٤٩/٤.

ﷺ: «أنه كان لبعض الملوك ساحرٌ، فلما كبرَ ضمَّ إليه غلاماً ليعلِّمَه السِّحر، وكان في طريق الغلام راهب يتكلّم بالمواعظ لأجل الناس، فمال قلب الغلام إلى حديثه، فرأى في طريقه ذات يوم دابة أو حية قد حَبَست الناس، فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان الراهب أحبَّ إليك من الساحر، فاقتلها بهذا الحجر، فقتلها.

وكان ذلك الغلام بعدئذ يتعلّم من الراهب إلى أن صار بحيث يبرئ الأكمه والأبرص، ويَشْفي من الداء. وعمي جليس للملك فأبرأه، فأبصره الملك فسأله: من ردّ عليك بصرك؟ فقال: ربي، فغضب، فعذّبه.

فدلَّ على الغلام، فعذّب الغلام حتى دلَّ على الراهب، فلم يرجع الراهب عن دينه، فقُدَّ بالمِنْشار، وأتى الغلام، فذُهب به إلى جبل ليُطرح من ذِرْوته، فدعا فرَجف بالقوم فطاحوا ونجا، فذهبوا به إلى قُرْقُور: وهي سفينة صغيرة، فلجَّجُوا به ليُغْرِقوه، فدعا، فانكفأت بهم السفينة، فغرِقوا ونجا، وقال للملك: لستَ بقاتلي حتى تجمع الناس في صعيد، وتصلبُني على جِذْع، وتأخذ سهماً من كِنانتي وتقول: بسم الله ربِّ الغلام، ثم ترميني به.

فرماه فوقع في صُدْغه، فوضع يده عليه ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، فقيل للملك: نزل بك ما كنت تحذَر، فأَمر بأخاديد في أفواه السِّكك وأُوقدت فيها النيران، فمن لم يرجع منهم طرحه فيها، حتى جاءت امرأة معها صبي، فتقاعست أن تقع فيها، فقال الصبي: يا أمّاه، اصبري فإنك على الحق، وما هي إلا غُمَيْضَةٌ، فصبرت واقتحمت» .

القسم بأشياء عظام على لعنة أصحاب الأخدود

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾

الإعراب:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾ ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾: قسم، وجوابه إما مقدر محذوف: وهو لتبعثن، أو قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢﴾. واختار أبو حيان أن يكون الجواب هو قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾ وحذفت اللام، أي لقتل، وحسن حذفها كما حسن في قوله: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ ثم قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ أي لقد أفلح من زكاها، ويكون الجواب دليلاً على لعنة الله على من فعل ذلك وطرده من رحمة الله، وتنبيهاً لكفار قريش الذين يؤذون المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم على أنهم ملعونون بجامع ما اشتركا فيه من تعذيب المؤمنين. وإذا كان ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾ جواباً للقسم، فهي جملة خبرية، وقيل: دعاء، فيكون الجواب غيرها (البحر المحيط: ٨/ ٤٥٠).

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢﴾ أي الموعود به، وحذف للعلم به، وإنما وجب هذا التقدير؛ لأن ﴿ٱلْمَوْعُودِ﴾ صفة لليوم، ولا بدّ من أن يعود من الوصف إلى الموصوف ذكر.

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾ ﴿ٱلنَّارِ﴾: مجرور على البدل من ﴿ٱلْأُخْدُودِ﴾ بدل الاشتمال.

البلاغة:

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ بينهما جناس اشتقاق.

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨﴾ تأكيد المدح بما يشبه الذم، كأنه يقول: لا جُرْم لهم إلا إيمانهم بالله، وهذه مفخرة عظمى.

﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ صيغة مبالغة.

﴿الْمَوْعُودِ﴾، ﴿وَمَشْهُودٍ﴾، ﴿الْأُخْدُودِ﴾، ﴿الْوَقُودِ﴾ سجع مرصع: وهو توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿الْبُرُوجِ﴾ منازل الكواكب الاثني عشر، وقيل: ﴿الْبُرُوجِ﴾: النجوم العظام، جمع بُرْج: وهو الحصن، أو القصر العالي، أو منزل الكوكب، سميت بروجاً لظهورها. والبروج على المعنى الأول اثنا عشر برجاً للكواكب السيارة، تسير الشمس مثلاً في كل واحد منها شهراً، ويسير القمر في كل واحد منها يومين وثلث يوم، فذلك ثمانية وعشرون منزلة، ويستتر ليلتين، أي يخفى.

ستة من بروج الشمس شمال خط الاستواء، وستة في جنوبه، أما التي في شماله: فهي الْحَمَل والثور والْجَوْزاء والسَّرَطان والأسد والسُّنْبُلة. وأما التي في جنوبه: فهي الميزان والعَقْرَب والقَوْس والْجَدْي والدَّلْو والْحُوت. وتقطع الشمس الثلاثة الأولى الشمالية في ثلاثة أشهر هي فصل الربيع، أولها ٢١ آذار (مارس) وتقطع الثلاثة الثانية في ثلاثة أشهر أخرى هي فصل الصيف، أولها ٢١ حزيران (يونيو) وتقطع الثلاثة الأولى الجنوبية في ثلاثة أشهر هي فصل الخريف، أولها ٢١ أيلول (سبتمبر) وتقطع الثلاثة الثانية الجنوبية في ثلاثة أشهر أيضاً هي فصل الشتاء، أولها ٢٢ من شهر كانون الأول (ديسمبر)[1].

(١) تفسير المراغي: ٣٠/٩٨.

وإذا كان القصد بالبروج الكواكب العظيمة فهي التي لا يحصى عددها، والتي هي ذات أبعاد هائلة عن الأرض، فبعضها لا يصل ضوءُه إلى الأرض إلا بعد مليون ونصف مليون سنة ضوئية، علماً بأن الضوء يسير بسرعة ثلاث مئة ألف كيلومتر في الثانية الواحدة، ويصل إلى القمر في ثانية وثلث، ويجري حول الكرة الأرضية في ثانية واحدة نحو ثمان مرات. والمريخ يبعد عن الأرض ٢٥٦ مليون ميل، وقد أطلقت روسيا مكوكاً إلى المريخ في ١٣/ ٧/ ١٩٨٨ يصل إليه في منتصف عام ١٩٩٠. وأقسم الله بهذه الكواكب حيث نيط بها تغيرات في الأرض بحلول الكواكب فيها.

﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢﴾ يوم القيامة. ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣﴾ الشاهد في ذلك اليوم على غيره من الخلائق، والمشهود عليه: ما يشهد به الشهود على المجرمين من الجرائم التي فعلوها بالشهود أنفسهم؛ كأصحاب الأخدود أو بغيرهم، وهذا هو الأصح، أو الأنبياء الشاهدين على أممهم، أو مخلوقات الله الظاهرة التي هي عالم الشهادة، الدالة على تمام القدرة الإلهية وعظم الحكمة، وهي مشهودة أيضاً لكل ناظر إليها. وقال الأكثرون: الشاهد: يوم الجمعة؛ فإنه يشهد بالعمل فيه، والمشهود: يوم عرفة الذي تشهده الناس والملائكة. ﴿قُتِلَ﴾ لعن، وهو جواب القسم بتقدير: لقد. ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ الشق المستطيل المحفور في الأرض، وجمعه أخاديد، وأصحاب الأخدود: قوم جبارون أحرقوا جماعة من المؤمنين في أخدود في نجران اليمن، بعد أن أوقدوا فيه ناراً عظيمة، ثم ألقوهم فيها. ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥﴾ أي الأخدود المشتمل على النار ذات الوقود، أي ما توقد به، وهو وصف لها بالعظمة وكثرة ما يرتفع به لهبها.

﴿إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٦﴾ قاعدون على حافة النار. ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ۝٧﴾ أي وهم حضور على تعذيب المؤمنين بالله، بالإلقاء في النار، إن لم يرجعوا عن إيمانهم، ويشهدون على ما يفعلون يوم القيامة حين

تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم. ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ أنكروا وعابوا. ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب الذي يخشى عقابه ولا يغلب. ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ المحمود على نعمه وعلى كل حال، والذي يرجى ثوابه. ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾ شاهد عالم، وهو للإشعار بما يستحق أن يؤمن به ويعبد.

التفسير والبيان:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾ أي أقسم بالسماء وبروجها وهي النجوم العظام، وأشهر الأقوال أنها منازل الكواكب، وهي اثنا عشر برجاً لاثني عشر كوكباً. وهي التي تقطعها الشمس في سنة، والقمر في ثمانية وعشرين يوماً. أقسم الله بها تنويهاً بها وتعظيماً وتشريفاً لها، حيث نيط بها تغيرات في الأرض بحلول الكواكب فيها، فينشأ عنها الفصول الأربعة، وما فيها من حرارة وبرودة، وينشأ عنها عدد السنين والحساب.

وجاء ذكر البروج في آيتين أخريين هما: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحجر: ١٥/١٦]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/٦١].

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾﴾ أي وأقسم بيوم القيامة الموعود به، وبمن يشهد في ذلك اليوم، ومن يشهد عليه. وهذا إن كان ذلك مأخوذاً من الشهادة. فإن كان مأخوذاً من الحضور بمعنى أن الشاهد هو الحاضر، كقوله: ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الزمر: ٣٩/٤٦]، فالشاهد: الخلائق الحاضرون للحساب، والمشهود عليه: اليوم، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١١/١٠٣] فالله يقسم بالخلائق والعوالم الشاهد منها والمشهود، لما في التأمل بها من تقدير عظمة تدل على الموجد.

والخلاصة: أن الشاهد والمشهود إما من الشهود: الحضور، وإما من الشهادة، والصلة محذوفة، أي مشهود عليه أو به.

﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ﴿٥﴾﴾ هذا جواب القسم، وهو إخبار أو دعاء على هؤلاء الكفار بالإبعاد من رحمة الله تعالى، أي لعن أصحاب الأخدود المشتمل على النار ذات الحطب الذي توقد به. وهم قوم من الكفار في نجران اليمن طلبوا من المؤمنين بالله عزّ وجلّ أن يرجعوا عن دينهم، فأبوا عليهم، فحفروا لهم في الأرض أخدوداً (شقاً مستطيلاً) وأجّجوا فيه ناراً، وأعدُّوا لها وقوداً يسعرونها به، ثم أرادوهم أن يرجعوا عن دينهم، فلم يقبلوا منهم، فقذفوهم فيها. وقد أشار سبحانه إلى عظم النار إشارة مجملة بقوله: ﴿ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ﴾ أي لها ما يرتفع به لهبها من الحطب الكثير وأبدان الناس.

﴿إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ﴿٦﴾ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ﴿٧﴾﴾ أي لعنوا حين أحدقوا بالنار، قاعدين على الكراسي عند الأخدود، وهؤلاء الذين حفروا الأخدود، وهم الملك وأصحابه، مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين، من عرضهم على النار ليرجعوا إلى دينهم، ويشهدون بما فعلوا يوم القيامة، حيث تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم.

وهذا أي حضورهم الإحراق دليل على أنهم قوم غلاظ الأكباد قساة القلوب، تمكّن الكفر والباطل منهم، وتجرّدوا عن الإنسانية، وفقدوا الرحمة، ودليل أيضاً على أن المؤمنين كانوا أشد صلابة من الجبال في دينهم والإصرار على إيمانهم وحقهم في حرية الاعتقاد.

ثم ذكر الله تعالى سبب هذا التعذيب والإحراق بالنار، فقال:

﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾ أي إن هؤلاء الكفار الجبابرة ما أنكروا عليهم ذنباً إلا إيمانهم، ولا عابوا على المؤمنين إلا أنهم صدقوا بالله الغالب الذي لا يغلب، المحمود في كل حال، وهو مالك السماوات

والأرض، وإليه الأمر كله، ومن كان بهذه الصفات، فهو حقيق بأن يؤمَنْ به ويوحَّد، والله شاهد عالم بما فعلوا بالمؤمنين، لا تخفى عليه خافية، ومجازيهم بأفعالهم. وأشار بقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ إلى أنه لو شاء لمنع أولئك الجبابرة من تعذيب أولئك المؤمنين، ولأطفأ نيرانهم وأماتهم، وأشار بقوله: ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ إلى أن المعتبر عنده سبحانه من الأفعال عواقبها، فهو وإن كان قد أمهل لكنه ما أهمل، فإنه سيثيب المؤمنين، ويعاقب أولئك الكفرة.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ وعيد شديد لأصحاب الأخدود، ووعد بالخير لمن عُذِّب من المؤمنين على دينه، فصبر ولم يتراجع في موقف الشدة.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥/٥٩].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

ً١ - أقسم الله عزّ وجلّ بالسماء وبروجها، وهي نجومها العظام أو منازل الكواكب؛ لإناطة تغييرات في الأرض كالفصول الأربعة، وبيوم القيامة الذي وعدنا به؛ لأنه يوم الفصل والجزاء، وتفرد الله بالحكم والقضاء، وبالشاهد والمشهود، أي الخلائق والعوالم الشاهد منها والمشهود؛ لما في التأمل بها من إدراك عظمة خالقها، أقسم بها على أن أصحاب الأخدود ملعونون مطرودون من رحمة الله.

قال الزمخشري: كأنه قيل: أقسم بهذه الأشياء، إنهم ملعونون، يعني كفار قريش، كما لعن أصحاب الأخدود، وذلك أن السورة وردت في تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم

من التعذيب على الإيمان، وإلحاق أنواع الأذى وصبرهم وثباتهم حتى يأنسوا بهم، ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم، ويعلموا أن كفارهم أحقاء بأن يقال فيهم: قتلت قريش، أي لعنوا، كما قتل أصحاب الأخدود[١].

٢ - أسباب اللعنة على أصحاب الأخدود: أنهم حفروا أخدوداً أي شقاً مستطيلاً في الأرض وأوقدوا فيه ناراً عظيمة، ثم ألقوا فيه جماعة المؤمنين، بنجران اليمن في الفترة بين محمد وعيسى عليهما الصلاة والسلام، وهم يتلذذون ويستمتعون بما تفعل النيران الملتهبة بأجساد هؤلاء المعذَّبين، ويحضرون ذلك المنظر الرهيب إلى تمام الإحراق والالتهاب، فهم قوم قساة، مجدّون في التعذيب.

٣ - القصة درس وعظة وتذكير للمؤمنين بالصبر على ما يلاقونه من الأذى والآلام، والمشقات التي يتعرضون لها في كل زمان ومكان ليتأسوا بصبر المؤمنين وتصلبهم في الحق وتمسكهم به، وبذلهم أنفسهم من أجل إظهار دعوة الله.

وليس هذا بمنسوخ، فإن الصبر على الأذى لمن قويت نفسه، وصلب دينه أولى[٢] قال الله تعالى مخبراً عن لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: ٣١/١٧] . وأخرج الترمذي عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «إن من أعظم الجهاد كلمةَ عدل عند سلطان جائر» .

ولقد امتُحن كثير من أصحاب النبي ﷺ بالقتل والصَّلْب والتعذيب الشديد، فصبروا ولم يلتفتوا إلى شيء من ذلك، مثل قصة عاصم وخُبيب وأصحابهما، وما لَقوا من الحروب والمِحَن والقتل والأسر والحرق وغير ذلك.

---

(١) الكشاف: ٣/ ٣٢٦.

(٢) تفسير القرطبي: ١٩/ ٢٩٣.

٤ - ما أنكر الملك وأصحابه من الذين حَرَّقوهم إلا إيمانهم بالله العزيز الغالب المنيع، الحميد المحمود على كل حال، مالك السماوات والأرض الذي لا شريك له فيهما ولا نديد، وهو عالم بأعمال خلقه، لا تخفى عليه خافية.

عقاب الكفار وثواب المؤمنين

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾

البلاغة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بينهما مقابلة.

المفردات اللغوية:

﴿فَتَنُوا۟﴾ ابتلوا واختبروا، والمراد هنا ابتلوهم بالأذى والإحراق. ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ بكفرهم وإحراقهم المؤمنين. ﴿عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ هو عذاب جهنم، وهو بيان وتفسير لما سبق. ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ النجاح الأكبر الذي تصغر الدنيا وما فيها دونه.

المناسبة:

بعد بيان قصة أصحاب الأخدود وما فعلوه بالمؤمنين من الإحراق بالنار، أتبع الله تعالى ذلك بأحكام الثواب والعقاب، وأوضح ما أعد للكفار من عذاب جهنم، وما أعد للمؤمنين من الثواب الجليل والتنعم بجنان الخلد.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ أي إن الذين أحرقوا بالنار المؤمنين والمؤمنات بالله ورسله، ولم يتركوهم أحراراً في دينهم، وأجبروهم إما على الإحراق أو الرجوع عن دينهم، ثم لم يتوبوا من قبيح صنعهم ويرجعوا عن كفرهم، فلهم في الآخرة بسبب كفرهم عذاب جهنم، ولهم عذاب الاحتراق بالنار؛ لأن الجزاء من جنس العمل. وعذاب الحريق تأكيد لعذاب جهنم، وقيل: إنهما مختلفان في الطبقة، الأول: لكفرهم، والثاني: لأنهم فتنوا أهل الإيمان وأحرقوهم بالنار، وهذا عذاب آخر زائد على عذاب كفرهم، وهي نار أخرى عظيمة تتسع كما يتسع الحريق. أو لهم عذاب جهنم في الآخرة، ولهم عذاب الحريق في الدنيا، لما روي أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾ إشارة إلى أنهم لو تابوا إلى الله، وندموا على ما فعلوا، غفر الله لهم. ولكن لم ينقل أن أحداً منهم تاب، بل الظاهر أنهم لم يُلْعَنوا إلا وهم قد ماتوا على الكفر. قال الحسن البصري رحمه الله: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة.

ثم رغّب الله تعالى وأرشد إلى ما أعدّ للمؤمنين من الثواب العظيم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ أي إن الذين آمنوا وصدقوا بالله ربّاً واحداً لا شريك له، وبالرسل واليوم الآخر والملائكة والكتب الإلهية، وعملوا صالح الأعمال باتباع أوامره واجتناب نواهيه، ومنهم الذين صبروا على نار الأخدود، وثبتوا على دينهم ولم يرتدوا، لهم بسبب الجمع بين الإيمان والعمل الصالح جنات (بساتين) تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، وذلك الثواب والنعيم المذكور هو الفوز أو الظفر الكبير الذي لا يَعْدِلُه فوز، ولا يقاربه ولا يدانيه، جزاء إيمانهم وطاعة ربهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

تدل الآيتان في الجملة على حكمين:

الأول - أن الذين حرَّقوا المؤمنين بالنار، من أصحاب الأخدود وغيرهم[١]، ثم ماتوا على الكفر، ولم يتوبوا من قبيح صنيعهم، فلهم في الآخرة عذاب جهنم المخزي؛ لكفرهم، ولهم العذاب المحرق؛ لإحراقهم المؤمنين بالنار. وعذاب جهنم وعذاب الحريق إما متلازمان، والغرض من الثاني التأكيد، وإما مختلفان في الدركة: الأول لكفرهم، والثاني؛ لأنهم فتنوا أهل الإيمان. وقيل: الأول في الآخرة، والثاني في الدنيا، أو أن الأول عذاب ببرد جهنم وزمهريرها، والثاني عذاب بحرّها.

وفي هذا تصريح بأن التوبة تسقط أثر الذنب وترفع العقوبة، والله يرغب دائماً بها.

الثاني - أن الذين آمنوا أي صدقوا بالله وبرسله، وعملوا الصالحات المأمور بها وتركوا المنهي عنها، لهم جنات (أي بساتين) تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار من ماء غير آسن، ومن لبن لم يتغير طعمه، ومن خمر لَذّةٍ للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، وذلك الفوز الساحق العظيم الذي لا فوز يشبهه.

وإنما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ﴾ ولم يقل (تلك) لأن ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى إخبار الله تعالى بحصول هذه الجنات، وقوله (تلك) إشارة إلى الجنات، وإخبار الله تعالى عن ذلك يدل على كونه راضياً، و﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾: هو رضا الله، لا حصول الجنة، فاللهم أرضنا وارض عنا يا كريم.

وقصة أصحاب الأخدود، ولا سيما آية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

---

(١) لأن اللفظ عام، والحكم عام، فالتخصيص ترك للظاهر من غير دليل.

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تدل على أن المستكره على الكفر بالإهلاك الشديد، الأولى به أن يصبر على ما خوف منه، وأن إظهار كلمة الكفر كالرخصة في ذلك؛ روى الحسن أن مسيلمة أخذ رجلين من أصحاب النبي ﷺ، فقال لأحدهما: تشهد أني رسول الله؟ فقال: نعم، فتركه، وقال للآخر مثله، فقال: لا، بل أنت كذَّاب، فقتله، فقال ﷺ: «أما الذي تُرك، فأخذ بالرخصة فلا تبعة عليه، وأما الذي قُتل فأخذ بالفضل فهنيئاً له»[١].

كمال القدرة الإلهية لتأكيد الوعد والوعيد والاعتبار بإهلاك الأمم الكافرة السالفة

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْمَجِيدُ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (المجيدِ).

﴿قُرْءَانٌ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (قران).

﴿مَّحْفُوظٍۭ﴾:

---

(١) تفسير الرازي: ٣١/ ١٢١-١٢٢.

وقرأ نافع (محفوظٌ).

الإعراب:

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ بالرفع صفة: ﴿ذُو﴾ أو خبر بعد خبر، وبالجر: إما وصف للعرش، أو صفة: ﴿رَبِّكَ﴾ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ وهذا أولى؛ لأن ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ من صفات الله.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ ﴿فَعَّالٌ﴾: إما بدل من ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو فعّال، أو خبر بعد خبر.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾ ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾: في موضع جر على البدل من ﴿ٱلْجُنُودِ﴾، وقيل: في موضع نصب بتقدير أعني.

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ ﴿مَّحْفُوظٍۭ﴾ بالجر صفة ﴿لَوْحٍ﴾، وبالرفع صفة ﴿قُرْءَانٌ﴾.

البلاغة:

﴿يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ بينهما طباق.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾ ؟ أسلوب التشويق لاستماع ما يأتي والاعتبار به.

﴿لَشَدِيدٌ﴾، ﴿ٱلْغَفُورُ﴾، ﴿ٱلْوَدُودُ﴾، ﴿فَعَّالٌ﴾ إلخ: صيغ مبالغة.

المفردات اللغوية:

﴿بَطْشَ﴾ البطش: هو الأخذ بعنف وشدة، فإذا وصف بالشدة كان نهاية، والمراد بالآية: أنه تعالى مضاعف عنفه بالكفار بحسب إرادته. ﴿يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ يبدئ الخلق ويعيده، فلا يعجزه ما يريد. ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لمن تاب من المذنبين.

﴿ٱلۡوَدُودُ﴾ المحب لمن أطاع. ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ خالقه ومالكه وصاحبه. ﴿ٱلۡمَجِيدُ﴾ العظيم الجليل المتعالي، المستحق لكل صفات العلو الكاملة، أو العظيم في ذاته وصفاته، فإنه واجب الوجود، تام القدرة والحكمة. ومجده: علوه وعظمته. ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٦﴾ لا يعجزه شيء، ويفعل ما يريد.

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧﴾ هل بلغك يا محمد خبر الأقوام أو الجماعات الذين كذبوا الرسل وما حاق بهم؟ وأصل معنى الجنود: العسكر أو الأعوان. والمقصود تسلية النبي ﷺ والصبر على تكذيب قومه، وأمره بأن يحذرهم مثلما أصاب هؤلاء. ﴿فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ١٨﴾ المراد بفرعون: هو وجنوده، أي هؤلاء هم الجنود: فرعون وأتباعه، وقبيلة ثمود من العرب البائدة، قوم صالح عليه السلام، أهلكهم الله بكفرهم. وهذا تنبيه لمن كفر بالنبي ﷺ والقرآن ليتعظوا.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ١٩﴾ لما حدث من إهلاك الأقوام، فلا يرعوون عن تكذيبهم، ومعنى الجملة والإضراب: أن حال كفار قريش أعجب من الأمم السابقة، فإنهم سمعوا قصتهم، ورأوا آثار هلاكهم، وكذبوا أشد من تكذيبهم. ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠﴾ لا يفوتونه، ولا عاصم لهم منه، فهم في قبضته وحوزته. ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١﴾ عظيم معظم، والمعنى: بل هذا الذي كذبوا به كتاب شريف، وحيد في النظم والمعنى. ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾ من الزيادة والنقص، والتغيير والتحريف.

المناسبة:

بعد بيان وعيد الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات، ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وجزاء كل فريق، أكّد الله تعالى الوعد والوعيد بما يدل على تمام قدرته على ذلك. ثم بيّن أن حال الكفار في كل عصر، مع الأنبياء، شبيه بحال أصحاب الأخدود، في إلحاق أذى الكفار بالمؤمنين، فهم دائماً في صراع معهم

وعداوة وإيذاء. والقصد من هذا كله ترهيب الكفار، وتثبيت المؤمنين على إيمانهم، وشدّ عزائمهم بالصبر، وتطمينهم بأن كفار قريش سيلقون مثلما أصاب الأقوام السابقة: فرعون وأتباعه وثمود.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ أي إن جزاء ربك وانتقامه من الجبابرة والظلمة، ومن أعدائه الذين كذبوا رسله، وخالفوا أمره، لشديد عظيم قوي، مضاعف إذا أراد، فإنه تعالى ذو القوة المتين، الذي ما شاء كان، ويكون ما يريد مثل لمح البصر أو هو أقرب. وفي هذا تأكيد للوعيد، وإرهاب لكفار قريش وأمثالهم.

ثم زاد الأمر تأكيداً بقوله:

﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ أي إنه تعالى تام القدرة، فهو الذي يبدأ الخلق ويخلقهم أولاً في الدنيا، ثم يعيدهم أحياء بعد الموت. أو هو الذي يبدأ البطش ويعيده، أي يبطش بالجبابرة في الدنيا والآخرة. وفيه وعيد للكفرة بأنه يعيدهم ليبطش بهم؛ إذ كفروا بنعمة الإبداء إبداء الخلق، وكذبوا بالإعادة.

ثم أكّد الله تعالى الوعد بإيراد خمس صفات لجلاله وكبريائه وهي:

١ - ٢: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ أي والله سبحانه بالغ المغفرة لذنوب عباده المؤمنين إذا تابوا وأنابوا إليه، يغفر ذنب من تاب إليه، وخضع لديه، مهما كان الذنب كبيراً أو صغيراً، وهو تعالى بالغ المحبة للمطيعين من أوليائه، بليغ الوداد، والمراد به: إيصال الثواب لأهل طاعته على الوجه الأتم، فيكون كقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤] ، أو هو بمعنى مفعول فيكون كقوله: ﴿وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤] .

٣ - ٤: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ أي هو تعالى ربّ العرش العظيم العالي

على جميع الخلائق، وصاحب الملك والسلطان، والعظيم الجليل المتعالي، صاحب النهاية في الكرم والفضل، وبالغ السمو والعلو.

٥ - ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ أي صاحب القدرة المطلقة على فعل ما يريد، فمهما أراد فعل شيء، لا معقّب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل لعظمته وقهره، وحكمته وعدله. فإذا أراد إهلاك الظالمين الجاحدين، ونصر المؤمنين الصادقين، فعل دون أن يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يصرفه عنه صارف.

ثم ذكّر الله تعالى الكفار وغيرهم، وسلّى نبيه ﷺ بقصة فرعون وثمود من متأخري الكفار ومتقدميهم، فقال:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾ أي هل أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم، والتي جندت جنودها لقتالهم؟ أو هل بلغك ما أحلّ الله بهم من البأس، وأنزل عليهم من النقمة بسبب تماديهم في الكفر والضلال؟ ومن هؤلاء الجنود وأشهر حديثهم وخبرهم المتعارف: فرعون وجنوده، وقبيلة ثمود من العرب البائدة قوم صالح عليه السلام. والمراد بحديثهم: ما وقع منهم من الكفر والعناد، وما حلّ بهم من العذاب. والمراد بفرعون: هو وجنوده. أما فرعون وأتباعهم فأغرقهم الله في اليمّ: البحر الأحمر، وأما ثمود الذين عقروا ناقة نبيهم صالح، فدمّر الله بلادهم وأهلكهم بالطاغية أي الصيحة المجاوزة للحدّ في الشدة.

ثم أشار الله تعالى إلى أن هذا شأن الكفار وصنيعهم في كل زمان، فقال: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾﴾ أي فالواقع القائم أن هؤلاء المشركين العرب في تكذيب شديد لك أيها النبي، ولما جئت به، ولم يعتبروا بمن كان قبلهم من الكفار.

وفي هذا إضراب عن التذكير بقصة الجنود إلى التصريح بتكذيب كفار قريش.

وبعد تطييب قلب الرسول ﷺ بحكاية أحوال الأولين وموقفهم من الأنبياء، سلاّه بعد ذلك من وجه آخر، فقال:

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾﴾ أي إن الله تعالى قادر على أن ينزل بهم ما أنزل بأولئك، قاهر الجبارين لا يفوتونه ولا يعجزونه، فهو مقتدر عليهم، وهم في قبضته لا يجدون عنها مهرباً. وهذا دليل على أنه تعالى عالم بهم فيجازيهم، وعلى أنه لا داعي للجزع من تكذيبهم وإصرارهم على الكفر وعنادهم.

ثم ردَّ على تكذيبهم بالقرآن، فقال:

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ أي إن هذا القرآن الذي كذبوا به شريف الرتبة في نظمه وأسلوبه حتى بلغ حدّ الإعجاز، متناهٍ في الشرف والكرم والبركة، وليس هو كما يقولون: إنه شعر وكهانة وسحر. وإنما هو كلام الله المصون عن التغيير والتحريف، المكتوب في اللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/٧٧-٧٨] . أي إن الكتاب المكنون واللوح المحفوظ واحد.

قال بعض المتكلمين: اللوح شيء يلوح للملائكة، فيقرؤونه، وأمثال هذه الحقائق مما يجب به التصديق سمعاً، أي إن اللوح المحفوظ شيء أخبرنا الله به، فيجب علينا الإيمان به كما أخبر الله، وإن لم نعرف حقيقته.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - إن عقاب الله وانتقامه، وأخذه الجبابرة والظلمة لشديد قوي، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١١/١٠٢] .

٢ً - إن الله تعالى بدأ خلق الناس أولاً في الدنيا، ثم يعيدهم عند البعث.

٣ً - لله تعالى صفات عليا لا تتحقق في غيره، فهو الغفور الستور لذنوب عباده المؤمنين لا يفضحهم بها، الودود المحب لأوليائه، صاحب العرش الأعظم من كل المخلوقات، وصاحب الملك والسلطان المطلق، المجيد البالغ النهاية في الكرم والفضل، السامي القدر المتناهي في علوه، الفعال لما يريد، أي لا يمتنع عليه شيء يريده. قال القفال: فعَّال لما يريد على ما يراه، لا يعترض عليه معترض، ولا يغلبه غالب، فهو يدخل أولياءه الجنة، لا يمنعه منه مانع، ويدخل أعداءه النار، لا ينصرهم منه ناصر، ويمهل العصاة على ما يشاء إلى أن يجازيهم، ويعاجل بعضهم بالعقوبة إذا شاء، ويعذب من شاء منهم في الدنيا وفي الآخرة، يفعل من هذه الأشياء ومن غيرها ما يريد(١).

٤ً - قد أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم، وهذا إيناس له وتسلية، والجموع: فرعون وأتباعه وثمود، وذكرا لأن حديثهما مشهور معروف من طريق اليهود في المدينة وغيرهم، فإن ثمود في بلاد العرب، وقصتهم عندهم مشهورة، وإن كانوا من المتقدمين، وأمر فرعون كان مشهوراً عند أهل الكتاب وغيرهم، وكان من المتأخرين في الهلاك؛ فدلّ الله بهما على أمثالهما في الهلاك.

والواقع أن كفار قريش في تكذيبهم لرسول الله ﷺ، كدأب من قبلهم.

٥ً - الله يقدر على أن ينزل بكفار مكة في الدنيا ما أنزل بفرعون، والله عالم بهم، فهو يجازيهم في الآخرة.

٦ً - ليس القرآن كما زعم المشركون أنه سحر أو كهانة أو شعر، بل هو كتاب متناه في الشرف والكرم والبركة، وهو بيان ما يحتاج إليه الناس من

---

(١) تفسير الرازي: ٣١/١٢٣-١٢٤.

أحكام الدين والدنيا. وهو مكتوب عند الله في لوح، ومحفوظ عند الله من وصول الشياطين إليه.

قال ابن عباس: أول شيء كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ: «إني أنا الله، لا إله إلا أنا، محمد رسولي، من استسلم لقضائي، وصبر على بلائي، وشكر نعمائي، كتبته صدِّيقاً وبعثته مع الصدّيقين، ومن لم يستسلم لقضائي، ولم يصبِر على بلائي، ولم يشكر نعمائي، فليتخذ إلهاً سواي»[1].

(١) تفسير القرطبي: ١٩/٢٩٨.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الطارق

مكية، وهي سبع عشرة آية

تسميتها:

سميت سورة (الطارق) تسمية لها بما أقسم الله به في مطلعها بقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١)﴾ ﴿وَالطَّارِقِ﴾: هو النجم الثاقب الذي يطلع ليلاً، سمي طارقاً؛ لأنه يظهر بالليل ويختفي بالنهار. وكذلك الطارق: هو الذي يجيء ليلاً.

مناسبتها لما قبلها:

السورة مرتبطة بما قبلها من ناحيتين:

١ - ابتداء السورتين بالحلف بالسماء كسورتي (الانشقاق) و(الانفطار).

٢ - التشابه في الكلام عن البعث والمعاد، وعن صفة القرآن للردّ على المشركين المكذّبين به وبالبعث، ففي سورة (البروج): ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣)﴾، وفي هذه السورة: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨)﴾، وفي السورة السابقة: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢)﴾، وفي هذه السورة: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣)﴾.

ما اشتملت عليه السورة:

إن محور هذه السورة المكية كغيرها من السور المكية الكلام عن الإيمان

بالبعث والمعاد والحساب والجزاء، وإثباته بخلق الإنسان من العدم؛ لأن القادر على البدء قادر على الإعادة بعد الموت.

وقد افتتحت السورة بالقسم بالسماء وبالكواكب المضيئة ليلاً على أن كل إنسان محفوظ بالملائكة الأبرار: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾ [الآيات: ١-٤].

ثم أقام الله تعالى الدليل على إمكان البعث وقدرته عليه بعد الموت والفناء بخلق الإنسان أول مرة من تراب ثم من نطفة: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾ [الآيات: ٥-٨].

وأعقبت السورة ذلك ببيان كشف الأسرار في الآخرة على نحو كامل تام، في حالة كون الإنسان بين يدي العدالة الإلهية دون أن يكون له قوة ولا نصير: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [٩-١٠].

وختمت السورة بالقسم الإلهي بالسماء والأرض على صدق القرآن وأنه القول المحكم الفصل بين الحق والباطل، وعلى تهديد الكفار المكذبين به ووعيدهم: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١﴾ [١١-١٧].

فضلها:

أخرج الإمام أحمد عن خالد بن أبي حبل العدواني أنه أبصر رسول الله ﷺ في مشرق ثقيف، وهو قائم على قوس أو عصا، حين أتاهم يبتغي عندهم النصر، فسمعته يقول: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾ حتى ختمها، قال: فوعيتها في الجاهلية، وأنا مشرك، ثم قرأتها في الإسلام، قال: فدعتني ثقيف، فقالوا: ماذا سمعت من هذا الرجل؟ فقرأتها عليهم، فقال من معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا، لو كنا نعلم ما يقول حقاً لاتبعناه.

وأخرج النسائي عن جابر بن عبد الله قال: صلى معاذ المغرب، فقرأ البقرة والنساء، فقال النبي ﷺ: «أفتّان أنت يا معاذ! ما كان يكفيك أن تقرأ بـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ ونحوها؟» .

القسم على أن لكل نفس حافظاً من الملائكة يراقبها وإثبات إمكان البعث

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠)﴾

القراءات:

﴿لَّمَّا﴾:

قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة (لَمَّا) وقرأ الباقون (لَمَا).

الإعراب:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ جملة ﴿أَدْرَاكَ﴾ خبر ﴿مَا﴾. ﴿مَا الطَّارِقُ﴾ مبتدأ وخبر في محل المفعول الثاني لأدرى.

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤)﴾ ﴿لَّمَّا﴾ **بالتخفيف**، فتكون ﴿مَا﴾ زائدة، و ﴿إِن﴾ مخففة من الثقيلة واسمها محذوف، أي إنه، واللام فارقة، أي إن كل نفس لعليها حافظ. **وبالتشديد**، فتكون ﴿إِن﴾ بمعنى (ما) النافية، و﴿لَّمَّا﴾ بمعنى (إلا) مثل: نشدتك الله لَمّا فعلت، أي إلا فعلت، وتقديره: ما كل نفس إلا عليها حافظ.

﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩)﴾ الهاء في ﴿إِنَّهُ﴾ إما أن تعود على الماء، أي على رجع الماء إلى موضعه من الصلب لقادر، وحينئذٍ ينصب ﴿يَوْمَ﴾ بتقدير: اذكر؛ لأن رد الماء لا يكون في الآخرة، وإما أن تعود على

الإنسان، أي على بعثه لقادر، وهو الظاهر، و﴿يَوْمَ﴾ ظرف، ولا يجوز أن يتعلق بـ ﴿رَجْعِهِۦ﴾ لأن يؤدي إلى الفصل بين الصلة والموصول بخبر إن، وهو قوله: ﴿لَقَادِرٌ﴾. وإنما يتعلق بفعل دلّ عليه قوله: ﴿رَجْعِهِۦ﴾ أي يرجعه يوم تبلى السرائر، أو يتعلق بقوله: ﴿لَقَادِرٌ﴾ والوجه الأول أوجه؛ لأن الله قادر في جميع الأوقات، فأي فائدة في تعيين هذا الوقت؟

البلاغة:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾﴾ استفهام للتفخيم والتعظيم ورفعة الشأن.

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ كناية، كنى بالصلب عن الرجل، وبالترائب عن المرأة.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ كل ما علاك فأظلك. ﴿وَٱلطَّارِقِ﴾ النجم الطالع ليلاً، وأصله عرفاً: كل آتٍ ليلاً، أو الذي يجيئك ليلاً، ثم استعمل للبادي فيه، وأطلق على النجوم لطلوعها ليلاً. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ وما أعلمك؟ وفيه تعظيم لشأن الطارق. ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾ المضيء، كأنه يثقب الظلام بضوئه، فينفذ فيه، والمراد به كل نجم، أو الثريا. ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾ أي ما كل نفس إلا عليها حافظ، أو إن الشأن كل نفس لعليها، إذا جعلت ﴿إِن﴾ مخففة من الثقيلة، و﴿حَافِظٌ﴾: رقيب وهو الله أو الملائكة تحفظ عملها من خير وشرّ. والجملة على الوجهين جواب القسم، والمراد بالقراءتين واحد.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ فلينظر نظر اعتبار واتعاظ وتأمل من أي شيء خلق؛ لأن وجود الحافظ يستدعي النظر إلى المبدأ ليعلم صحة قضية إعادته بالبعث، فلا يملي على حافظه إلا ما يسرُّه في عاقبته. ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾ أي ماء مدفوق منصب بدفع وسرعة سواء من الرجل والمرأة في رحمها،

والمراد: الممتزج من الماءين في الرحم، بدليل ما يأتي: ﴿ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾، والجملة جواب الاستفهام في قوله: ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾. ﴿ٱلصُّلۡبِ﴾ أي من النخاع الشوكي في ظهر الرجل، ثم ينصب إلى عروق في البيضتين. ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ عظام صدر المرأة، جمع تريبة، مثل فصيلة وفصائل، والمراد: من الماء المتكون من الدم في العروق والشعب النازلة إلى الترائب، ويعدّ الصلب والترائب أقرب أوعية المني، فلذلك خصّا بالذِّكْر.

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ﴿٨﴾﴾ أي إن الله تعالى على بعث الإنسان بعد موته لقدير، فإذا تأمل الإنسان في أصله، علم أن القادر على خلقه ابتداء، قادر على بعثه. ﴿تُبۡلَى﴾ تختبر وتكشف، والمراد: تظهر السرائر وتعرف المكنونات ويميز بين ما طاب من الضمائر وما خفي من الأعمال، وما خبث منهما. ﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾ ضمائر القلوب وما يسرّ فيها من العقائد والنيات وما خفي من الأعمال، جمع سريرة. ﴿فَمَا لَهُۥ﴾ ما لمنكر البعث وهو الإنسان الكافر. ﴿مِن قُوَّةٖ﴾ يمتنع بها من العذاب. ﴿وَلَا نَاصِرٖ﴾ ينصره ويدفع عنه السوء.

سبب النزول:

نزول الآية (٥):

﴿فَلۡيَنظُرِ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ قال: نزلت في أبي الأشد بن كَلَدة الجُمَحي، كان يقوم على الأديم (الجلد)، فيقول: يا معشر قريش: من أزالني عنه فله كذا، ويقول: إن محمداً يزعم أن خزنة جهنم تسعة عشر، فأنا أكفيكم وحدي عشرة، واكفوني أنتم تسعة.

التفسير والبيان:

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾ أي قسماً

بالسماء البديعة، والكوكب النير البادي ليلاً، وما أعلمك ما حقيقته؟ إنه النجم المضيء الشديد الإضاءة، كأنه يخرق بشدة ضوئه ظلمة الليل البهيم.

والحلف بالسماء والكواكب والشمس والقمر والليل والنهار التي أكثر الله تعالى في كتابه الحلف بها؛ لأن أحوالها في أشكالها وسيرها ومطالعها ومغاربها عجيبة، وفيها دلالة على أن لها خالقاً مدبراً ينظم أمرها. وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢﴾ يراد به التهويل والتفخيم، كأن هذا النجم البعيد في آفاق السماوات لا يمكن لبشر إدراكه ومعرفة حقيقته، قال سفيانِ بن عيينة: كل شيء في القرآن: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أخبر الله الرسول به، وكل شيء فيه ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ لم يخبره به، كقوله: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ٤٢/١٧] .

والطارق: اسم جنس، وسمي طارقاً؛ لأنه يطرق بالليل، ويخفى بالنهار، وكل ما أتاك ليلاً فهو طارق.

وفسّره بقوله: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ أي هو طارق عظيم الشأن، رفيع القدر، وهو الذي يضيء ظلمة الليل، ويهتدى به في ظلمات البر والبحر، وتعرف به أوقات الأمطار وغيرها من أحوال المعايش، وهو الثريا عند الجمهور، وقال الحسن وقتادة وغيرهما: هو عام في سائر النجوم؛ لأن طلوعها بليل، وكل من أتاك ليلاً فهو طارق. والظاهر أن المراد جنس النجم الذي يهتدى به في ظلمات البر والبحر.

ويؤيد ذلك ما جاء في الحديث الصحيح: نهى النبي ﷺ أن يطرق الرجل أهله طروقاً، أي يأتيهم فجأة بالليل. وفي حديث آخر مشتمل على الدعاء: «أعوذ بك من شرّ طوارق الليل والنهار، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن» .

ثم ذكر الله تعالى المقسم عليه أو جواب القسم بقوله:

﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤﴾ أي قسماً بالسماء وبالنجم الثاقب، ما

كل نفس إلا عليها من الله حافظ، يحرسها من الآفات، وهم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها وقولها وفعلها، ويحصون ما تكسب من خير وشرّ، كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١٣/١١] . والحافظ على الحقيقة هو الله عزّ وجلّ، وحفظ الملائكة: من حفظه؛ لأنه بأمره.

ولم تبين الآية من هو الحافظ، فقال بعض المفسرين: إن ذلك الحافظ هو الله تعالى، وقال آخرون: إن ذلك الحافظ هم الملائكة، كما قال: ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦/٦١] ، وقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الانفطار: ٨٢/ ١٠-١١] ، وقال: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴿١٧﴾ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ٥٠/١٧-١٨] ، وقال: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ الآية المتقدمة. قال أبو أمامة: قال النبي ﷺ: «وُكِّل بالمؤمن مئة وستون مَلَكاً يَذُبُّون عنه ما لم يُقْدَر عليه، من ذلك البصر، سبعة أملاك يذبون عنه، كما يُذَبُّ عن قَصْعة العسل الذباب، ولو وكِّل العبد إلى نفسه طرفة عين، لاختطفته الشياطين» .

ثم نبَّه الإنسان إلى مبدأ الخلق ليكون ذلك دليلاً على إمكان المعاد، فقال:

﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ أي فعلى الإنسان أن يتفكر في كيفية بدء خلقه، ليعلم قدرة الله على ما هو دون ذلك من البعث، إنه خلق من ماء مدفوق مصبوب في الرحم، وهو ماء الرجل وماء المرأة، وقد جعلا ماءً واحداً لامتزاجهما، وإنه ماء يخرج من ظهر الرجل في النخاع الشوكي الآتي من الدماغ، ومن بين ترائب المرأة، أي عظام صدرها أو موضع القلادة من الصدر، والولد يتكون من اجتماع الماءين، ثم يستقر الماء المختلط في الرحم، فيتكون الجنين بإرادة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [الحج: ٢٢/ ٥] .

ومعنى خروجه من بين الصلب والترائب: أن أكثره ينفصل من هذين الموضعين لإحاطتهما بسور البدن، والماء في الحقيقة يشترك في تكوينه جميع أجزاء البدن، ويتبلور في الخُصية والمبيض في بدء التكوين، وكلاهما يجاور الكُلى، ويقع بين الصلب، والترائب، أي ما بين منتصف العمود الفقري تقريباً ومقابل أسفل الضلوع، وكل ذلك آثار عضوية مولدة من الدماغ، والنخاع قناة الدماغ، وهو في الصلب، وله شعب كثيرة نازلة إلى مقدم البدن، وهو الترائب جمع تريبة.

وبعد السؤال والجواب عنه لمعرفة المبدأ الذي هو مقدمة لمعرفة المعاد، والذي ناسب أن يبدأ الله به، ذكر تعالى النتيجة المترتبة على ذلك وهي بيان القدرة على الإعادة، فقال:

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ أي إن الله تعالى على رجع الإنسان، أي إعادته بالبعث بعد الموت لقادر؛ لأن من قدر على البداءة قدر على الإعادة، وقد ذكر تعالى هذا الدليل في مواضع متعددة في القرآن الكريم. وقيل: إنه تعالى على رجع هذا الماء الدافق إلى مقره الذي خرج منه لقادر على ذلك. والراجح القول الأول بدليل قوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾.

ويرجعه يوم القيامة يوم تختبر وتعرف السرائر، أي ما يسرّ في القلوب من العقائد والنيات وغيرها. وحقيقة البلاء في حقه تعالى ترجع إلى الكشف والإظهار، كقوله: ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٤٧/٣١].

• وكيفية دلالة المبدأ على المعاد: أن حدوث الإنسان إنما كان بسبب اجتماع أجزاء كانت متفرقة في بدن الوالدين، فلما قدر الصانع على جمع تلك الأجزاء المتفرقة حتى خلق منها إنساناً سوياً، فإنه بعد موته وتفرق أجزائه، لا بدّ وأن يقدر على جمع تلك الأجزاء، وجعلها خلقاً سوياً[١].

---

(١) تفسير الرازي: ٣١/ ١٣٠.

﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾ أي فما للإنسان حين بعثه من قوة في نفسه يمتنع بها عن عذاب الله، ولا ناصر ينصره، فينقذه مما نزل به، أي فلا قوة ذاتية له، ولا قوة من غيره، لينقذ نفسه من عذاب الله، فهذا نفي للقوة الذاتية والقوة العرضية الخارجية عن الإنسان.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات الكريمات على ما يأتي:

١ - أقسم الله تعالى بالسماء وبالكواكب المنيرة المضيئة على أن لكل نفس حفظة يحفظون عليها رزقها وعملها وأجلها.

وقد أكثر سبحانه في كتابه الكريم الإقسام بالسماوات؛ لأن أحوالها في مطالعها ومغاربها ومسيراتها عجيبة.

٢ - الدليل على إمكان البعث والمعاد هو بدء الخلق للإنسان. ووجه الاتصال أو التعلق بين هذا وبين ما قبله: أن الله تعالى حين ذكر أن على كل نفس حافظاً، أتبعه بوصيته للإنسان بالنظر في أول أمره وسنته الأولى، حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه؛ فيعمل ليوم الإعادة والجزاء، ولا يملي على حافظه إلا ما يسرّه في عاقبة أمره.

٣ - خلق الله الإنسان ابن آدم من المني المدفوق، مني الرجل والمرأة المجتمعين، والذي يستقر في رحم المرأة، ولا شك أن الصب فعل الشخص، والفاعل الحقيقي هو الله، فيكون ذلك من الإسناد المجازي الظاهري.

وتكوّن المني من عملية مشتركة تشترك فيها جميع أجزاء الإنسان، وقد عبَّر تعالى عن الكل بالأكثر الذي يحسّ به الشخص عادة وهو خروج الماء من بين الصلب أي الظهر، والترائب أي الصدر، جمع تَريبة: وهي موضع القلادة من الصدر. والصلب من الرجل، والترائب من المرأة.

٤ - إذا كان الخالق الحقيقي للإنسان أولاً هو الله تعالى، فإن الله جلّ ثناؤه قادر على إعادته وبعثه مرة أخرى بعد الموت، في يوم القيامة، وفي اليوم الذي تنكشف فيه السرائر وتبدو وتظهر، ويصبح السرّ علانية، والمكنون مشهوراً. والسرائر: كل ما أسرّ في القلوب من العقائد والنيات، وما أخفي من الأعمال الحسنة أو القبيحة. واختبار هذه السرائر معناه الكشف والإظهار وترجيح الاتجاه الراجح من الأفعال وتمييز المرجوح، فتنجلي الحقائق، ويعرف الصحيح من الفاسد، والحق من الباطل.

٥ - نفى الله سبحانه وجود القوة الذاتية والقوة العرضية الخارجية عن الإنسان يومئذٍ، بقوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾. والآية دليل على أنه لا قوة للعبد ذلك اليوم، لا من نفسه ولا من غيره، ولا شك في أن نفي القوة زجر وتحذير، ويتجه أولاً إلى أصحاب القوة والنفوذ في الدنيا الذين يعتمدون على الأعوان والأنصار، وهناك يوم القيامة يفقدون كل شيء.

القسم على صدق القرآن والرسالة وتهديد الكائدين لهما

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾

الإعراب:

﴿رُوَيْدًۢا﴾ مصدر مؤكد لمعنى العامل، مصغر رَوْد أو إرواد على الترخيم.

البلاغة:

﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ و ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ بينهما طباق، وكذا بين (الفصل.. والهزل).

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝١١ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝١٢﴾ سجع رصين يزيد في جمال الأسلوب، ومثله ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۝١٤﴾.

﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ جناس اشتقاق.

﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ۝١٧﴾ إطناب بتكرار الفعل مرة أخرى، مبالغة في الوعيد.

المفردات اللغوية:

﴿ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ الرجع: إعادة الشيء إلى ما كان فيه أولاً، والمراد به هنا المطر: لأنه يعود إلى الأرض من السماء. ﴿ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ الشَّق عن النبات والعيون وغيرهما من كنوز الأرض. ﴿إِنَّهُ﴾ القرآن. ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ يفصل بين الحق والباطل، وبين الحلال والحرام. ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۝١٤﴾ باللعب والباطل، فإنه جِدٌّ كلُّه.

﴿إِنَّهُمْ﴾ الكفار من أهل مكة وأمثالهم. ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ يدبرون ويعملون المكايد لإطفاء نور الإسلام، وإبطال أمر النبي ﷺ. ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾ أقابلهم بما يعلي أمره، وأدبِّر أمراً خفياً لهم، وأستدرجهم للانتقام منهم بحيث لا يحتسبون ولا يعلمون. وليس المقصود بالكيد إذا أسند إلى الله على حقيقته؛ لأن الله تعالى ليس بحاجة إليه، وإنما المراد به جزاء العمل، من قبيل المشاكلة والمشابهة للجرم المرتكب. ﴿فَمَهِّلِ﴾ أنْظِرهم أو أعطهم مهلة يا محمد، فلا تشتغل بالانتقام منهم، أو لا تستعجل بإهلاكهم. ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ أمهلهم إمهالاً يسيراً، أو قليلاً أو قريباً، وتكرار الفعل وتغيير بنيته للمبالغة في الوعيد. وقد أخذهم الله تعالى ببدر، وفتح مكة، وتطهرت الجزيرة العربية من رجس الوثنية.

المناسبة:

بعد إثبات توحيد الله وقدرته على خلق الإنسان أولاً، وإعادته بالبعث

والمعاد، أقسم الله قسماً آخر على صحة نزول القرآن من عند الله مشتملاً على القول الفصل، وصحة رسالة النبي الكريم الذي نزل عليه الوحي القرآني، ثم أردفه بوعيد المفترين على القرآن والكائدين للرسول ﷺ، ووعد هذا النبي وكل داع إلى الحق بالفوز والغلبة على الأعداء.

التفسير والبيان:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ (١١) وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ (١٤)﴾ أي قسماً آخر بالسماء ذات المطر الذي يجيء ويرجع ويتكرر من السماء، فيحيي الأرض بعد موتها، وينبت النبات، والأرض ذات الصدع: وهو ما تتصدع وتنشق عنه الأرض من النبات والثمار والشجر والمعدن والكنز والثروة النفطية والمائية، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ (٣٢)﴾ [عبس: ٨٠/٢٦-٣٢] قسماً بالسماء والأرض، إن القرآن الكريم لقول حق لا ريب فيه، يفصل بين الحق والباطل، ولم ينزل باللعب واللهو، فهو جِدٌّ حقٌّ ليس بالهزل، ولا بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، تنزيل من حكيم حميد. فقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣)﴾ جواب القسم. وسمي المطر رجعاً من ترجيع الصوت وهو إعادته، لكونه عائداً مرة بعد أخرى، ولأنه ينشأ من تبخر بحار الأرض ثم يعود إلى الأرض.

أخرج الترمذي والدارمي عن علي كرم الله وجهه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون فتنة، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله تبارك وتعالى، فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحَكَم ما بينكم، هو الفَصْل ليس بالهزل، من تركه من جَبَّار قَصَمَه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله. وهو حبل الله المتين، ونوره المبين، وهو الذِّكْر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به

الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يملّه الأتقياء، ولا يخلَق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن لمّا سمعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ، يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن: ٧٢/١-٢] ، من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أُجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم» .

ثم أوعد الله تعالى المكذبين بالقرآن الكائدين للمؤمنين بقوله:

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ أي إن الكفار زعماء مكة وأمثالهم يدبرون المكائد للنبي ﷺ لإبطال ما جاء به من الدين الحق، وللصد عن سبيل الله وعن القرآن، بالقول بأن القرآن أساطير الأولين، وبأن محمداً ساحر أو مجنون أو شاعر، ويتآمرون على قتله، كما أخبر تعالى بقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٠] .

ولكني أدبر لهم تدبيراً آخر، فأستدرجهم من حيث لا يعلمون، وأجازيهم جزاء كيدهم. وقد سمى جزاء الكيد بالاستدراج والإمهال المؤدي إلى زيادة الإثم الموجبة لشدة العذاب كيداً.

ثم وعد رسوله بالنصر عليهم، وأمره بالصبر والتمهل، فقال:

﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ أي أخّرهم وأنظرهم، ولا تَدْعُ بهلاكهم، ولا تستعجل به، وارض بما يدبره الله لك في أمورهم.

ثم كرر ذلك المعنى للمبالغة، فقال: أمهلهم إمهالاً يسيراً قليلاً، أو قريباً، وسترى ما يحل بهم من العذاب والنكال، والعقوبة والهلاك، كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٤] .

وهذا وعيد شديد، تحقق يوم بدر، ويعقبه عذاب يوم القيامة، وفيه تحذير عن مثل سيرتهم، وترغيب في خلاف طريقتهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - أقسم الله تعالى بالسماء (السحاب) ذات الأمطار النافعة، والأرض ذات الشقوق والصدوع التي تتصدع عن النبات والشجر والثمار والأنهار على أن القرآن يفصل بين الحق والباطل، وأنه جِدٌّ حق ليس بالهزل، أي اللعب والباطل، وأنه منزل من عند الله تعالى، وأن محمداً رسول الله ﷺ.

٢ - أخبر الله تعالى أن أعداء الله يمكرون بمحمد ﷺ وأصحابه مكراً، ويدبرون لهم مكائد إما بالقتل، أو بتوجيه التهم كالطعن بكون محمد ﷺ ساحراً وشاعراً ومجنوناً، أو بوصف القرآن بأنه أساطير الأولين.

٣ - يجازي الله أولئك الأعداء على كيدهم إما في الدنيا بالاستدراج إلى المعاصي والمنكرات من حيث لا يعلمون، وإما في الآخرة بإعداد العذاب الأليم المهين لهم. ويدفع الله تعالى في الدنيا أيضاً كيد الكفرة عن محمد ﷺ، وينصره ويعلي دينه.

والكيد في حق الله تعالى محمول على هذا الجزاء المذكور، تسمية لأحد المتقابلين باسم الآخر، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٠] وقوله: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ [الحشر: ٥٩/ ١٩] وقوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ٤/ ١٤٢].

٤ - اقتضت الحكمة الإلهية الرفق والتأني بأعداء الإسلام، فأمر الله نبيه بألا يدعو عليهم، ولا يتعجل إهلاكهم، وأن يرضى بما دبره الله في أمورهم، وأن ينتظر حتى يحل العقاب بهم، فإنهم في المستقبل القريب مهزومون مخذولون، ويتحقق في النهاية النصر للنبي ﷺ وصحبه. ويظل عذاب القيامة محفوظاً لهم، وكل ما هو آت قريب.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الأعلى

مكية، وهي تسع عشرة آية

تسميتها:

سميت سورة الأعلى، لافتتاحها بقول الله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ أي نزّه الله عز وجل عن كل نقص، وصفْه بكل صفات التمجيد والتعظيم؛ لأنه العلي الأعلى من كل شيء في الوجود. وتسمى أيضاً سورة ﴿سَبِّحِ﴾.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر صلة هذه السورة بما قبلها في أن سورة (الطارق) ذكرت خلق الإنسان في قوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾ وبدء خلق النبات في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢﴾.

وهذه السورة تحدثت بما هو أعم وأشمل من خلق الإنسان وغيره: ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [٢] وخلق النبات في قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع هذه السورة المكية الحديث عن توحيد الله وقدرته، والقرآن وتيسير

حفظه، والأخلاق الكريمة بتهذيب النفس الإنسانية. وقد افتتحت بالأمر بتنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه، ووصفه بصفات التعظيم والتمجيد، لخلقه المخلوقات وإتقان الخلق وتناسبه، وإخراجه الأعشاب والنباتات: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ①﴾ [الآيات ١-٥].

ثم تحدثت عن تيسير حفظ القرآن وترسيخه في قلب النبي ﷺ بحيث لا ينساه أبداً، لينقله إلى الناس: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ⑥﴾ [٦-٧].

وأردفت ذلك بأمر النبي ﷺ بالتذكير بالقرآن لإصلاح النفوس وتهذيب الطبائع: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ⑨﴾ [الآيات ٨-١٣].

وختمت السورة ببيان فلاح كل من طهر نفسه من الكفر والشرك والمعاصي، وتذكَّر دائماً في نفسه جلال الله وعظمته، ولم يُؤْثر الدنيا على الآخرة، وعرف أن هذه الأصول الاعتقادية والخلقية قديمة جاءت بها جميع الشرائع الإلهية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ⑭﴾ [١٤-١٩].

فضلها:

ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلاّ صليت بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ①﴾، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ①﴾، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ①﴾».

وأخرج الجماعة (أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وبقية أهل السنن) عن النعمان بن بشير: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ①﴾، ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ①﴾، وربما اجتمعا في يوم واحد، فقرأهما».

وروى الإمام أحمد في مسنده من حديث أُبيّ بن كعب وعبد الله بن عباس وعبد الرحمن بن أبْزى وعائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الوتر

بـ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١)﴾، و ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١)﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾، زادت عائشة: والمعوذتين.

وروى أحمد عن علي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يُحبُّ هذه السورة: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١)﴾.

تنزيه الله تعالى وقدرته وتحفيظه القرآن لنبيه

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨)﴾

القراءات:

﴿قَدَّرَ﴾:

وقرأ الكسائي (قَدَر).

الإعراب:

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥)﴾ إن كانت (جعل) بمعنى (خلق) كان ﴿غُثَاءً أَحْوَى﴾ منصوباً على الحال. وإن كانت بمعنى (صير) كان ﴿غُثَاءً أَحْوَى﴾ مفعولاً به ثانياً، أي جعله غثاء أسود يابساً، ولا يكون: ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً﴾ فصلاً بين الصلة والموصول؛ لأن قوله: ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً﴾ داخل في الصلة، والفصل بين بعض الصلة وبعضها مما يتعلق بها غير ممتنع، وإنما الممتنع الفصل بين بعضها وبعض بأجنبي عنها.

﴿فَلَا تَنسَى﴾ لا: نافية، لا ناهية، ولهذا ثبتت الألف في قوله: ﴿تَنسَى﴾ والمعنى: لست ناسياً.

البلاغة:

﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ وقوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ حذف المفعول ليفيد العموم؛ لأن المراد: خلق كل شيء فسواه، وقدر كل شيء فسواه.

﴿أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ، فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ سجع غير متكلف.

﴿ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ بينهما طباق.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾﴾ بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ نزّه اسم الله ربك عما لا يليق به من صفات النقص في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه، واذكره دائماً على وجه التعظيم، فإنه الأسمى والأعلى من كل شيء، جاء في الحديث الذي رواه أحمد وغيره كما سيأتي: «لما نزل: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٧٤] قال ﷺ: اجعلوها في ركوعكم، فلما نزل: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾، قال: اجعلوها في سجودكم، وكانوا يقولون في الركوع: اللهم لك ركعت، وفي السجود: اللهم لك سجدت» .

﴿خَلَقَ﴾ أبدع الكائنات .﴿فَسَوَّىٰ﴾ سوى مخلوقه بأن جعله متناسب الأجزاء، غير متفاوت، وعلى نظام كامل .﴿قَدَّرَ﴾ جعل الأشياء على مقادير مخصوصة، فوضع قدراً لكل حي، وقدّر أجناس الأشياء وأنواعها وأشخاصها ومقاديرها وصفاتها وأفعالها وآجالها حسبما تقتضي مدة بقائها. ﴿فَهَدَىٰ﴾ عرّفه وجه الانتفاع بما خلق له، وبيّن له طريق الخير والشر بالميول والإلهامات وإقامة الدلائل وإنزال الآيات .﴿ٱلْمَرْعَىٰ﴾ كل ما تخرجه الأرض من العشب والنبات والثمار والزروع .﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ بعد خضرته .﴿غُثَآءً﴾ جافاً هشيماً يابساً .﴿أَحْوَىٰ﴾ أسود.

﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ القرآن على لسان جبريل عليه السلام بأن نجعلك قارئاً ونلهمك القراءة .﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ ما تقرؤه، بل تحفظه، مع أنك أمي ليكون ذلك آية أخرى على صدق نبوتك، ولا: للنفي لا للنهي .﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن تنساه، بنسخ تلاوته وحكمه .﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ ما ظهر من الأحوال وما بطن، سواء أكان قولاً أم فعلاً، ومنه الجهر بالقراءة مع جبريل مخافة النسيان والجملة اعتراضية .﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾﴾ نوفقك لأعمال الخير التي تؤدي إلى اليسر وسهولة الحياة. وإنما قال: نيسرك، أي نعدّك للطريقة اليسرى في حفظ الوحي أو التدين أو نوفقك لها، لا نيسر لك، عطفاً على ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾.

سبب النزول:

نزول الآية (٦):

﴿سَنُقْرِئُكَ﴾: قال مجاهد والكلبي: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي، لم يفرغ جبريل من آخر الآية، حتى يتكلم النبي ﷺ بأولها، مخافة أن ينساها؛ فنزلت: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ بعد ذلك شيئاً، فقد كَفَيتُكه. وفي رواية أبي صالح عن ابن عباس: فلم ينس بعد نزول هذه الآية حتى مات.

التفسير والبيان:

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ أي نزّه الله عن كل ما لا يليق به، بقولك: «سبحان ربي الأعلى» . قال القرطبي: والأولى أن يكون الاسم هو المسمى[١]. وقال أبو حيان: الظاهر أن التنزيه يقع على الاسم، أي نزهه عن أن يسمى به صنم أو وثن، فيقال له: ربّ أو إله، وإذا كان قد أمر بتنزيه اللفظ أن يطلق على غيره، فهو أبلغ، وتنزيه الذات أحرى، وقيل: الاسم هنا بمعنى المسمى،

---

(١) تفسير القرطبي: ٢٠/ ١٤.

فالاسم: صلة زائدة، والمراد الأمر بتنزيه الله تعالى[١]. والمراد بالأعلى: أن الله هو العالي والأعلى والأجل والأعظم من كل ما يصفه به الواصفون، كما يوصف بالكبير والأكبر.

أخرج الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن عقبة بن عامر الجُهَني: «لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ قال لنا رسول الله ﷺ: اجعلوها في ركوعكم، فلما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ قال: اجعلوها في سجودكم» .

ثم وصف ذلك الاسم الأعلى بصفات تكون دليلاً على وجود الرب وقدرته لمن أراد معرفته، فقال:

١ - ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾﴾ أي الذي خلق الكائنات جميعها، ومنها الإنسان، وسوَّى كل مخلوق في أحسن الهيئات، فعدل قامته، وناسب بين أجزائه، وجعلها متناسقة محكمة غير متفاوتة ولا مضطربة، للدلالة على إتقانها من إله حكيم مدبر عالم.

٢ - ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ والذي قدر لكل مخلوق ما يصلح له، فهداه إليه، وعرَّفه وجه الانتفاع به، أو قدَّر أجناس الأشياء، وأنواعها، وصفاتها، وأفعالها، وأقوالها، وآجالها، فهدى كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغي له، ويسره لما خلقه له، وألهمه أمور دينه ودنياه، وقدَّر أرزاق الخلق وأقواتهم، وهداهم لمعايشهم إن كانوا إنساً، ولمراعيهم إن كانوا وحشاً، وخلق المنافع في الأشياء، وهدى الإنسان لوجه استخراجها منه[٢].

ونظير الآية كقوله تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ

(١) البحر المحيط: ٨/٤٥٨.

(٢) فتح القدير للشوكاني.

أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ٥٠] أي قدر قدراً، وهدى الخلائق إليه، كما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قدر مقادير الخلق، قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألفَ سنة، وكان عرشه على الماء».

والخلاصة:

إن **التقدير**: عبارة عن التصرف في الأجزاء الجسمية، وتركيبها على وجه خاص لأجله يستعد لقبول تلك القوى.

والهداية: عبارة عن خلق تلك القوى في تلك الأعضاء، بحيث تكون كل قوة مصدراً لفعل معين، ويحصل من مجموعها إتمام المصلحة.

٣ - ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾ أي والذي أنبت العشب وما ترعاه الدواب من النبات الأخضر، وأنبت جميع أصناف النبات والزروع ليأكلها الإنسان.

ثم جعل ذلك المرعى بعد أن كان أخضر، غثاء أحوى، أي بالياً هشيماً جافاً، أسود بعد اخضراره؛ لأن الكلأ إذا يبس اسودّ.

وبما أن التسبيح الذي أمر به النبي ﷺ والذي يليق به هو الذي يرتضيه لنفسه، حرص النبي ﷺ على معرفته وحفظه بقراءة ما أنزله الله تعالى عليه من القرآن، فوعده ربه وبشره بأنه سيقرئه من القرآن ما فيه تنزيهه وأنه لا ينسى، فقال:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي سنجعلك يا محمد قارئاً، بأن نلهمك القراءة، فلا تنسى ما تقرؤه، وقد كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالقرآن، لم يفرغ جبريل من آخر الآية حتى يتكلم النبي ﷺ بأولها، مخافة أن ينساها، فنزلت هذه الآية، فألهمه الله وعصمه من نسيان القرآن.

ونظير الآية قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ٢٠/ ١١٤] وقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [القيامة: ٧٥/١٦-١٧] .

ثم قال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي إنك ستحفظ القرآن المنزل إليك، ولا تنساه، إلا ما شاء الله أن تنساه، فإن أراد أن ينسيك شيئاً، فعل. وقيل: المراد بالاستثناء ما يقع من النسخ، أي لا تنسى ما نقرئك إلا ما يشاء الله رفعه أو نسخه، مما نسخ تلاوته، فلا عليك أن تتركه.

والمعنى الأول أصح؛ قال قتادة: كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئاً إلا ما شاء الله. قال أبو حيان: الظاهر أنه استثناء مقصود، وكذلك قال الألوسي: والظاهر أن النسيان على حقيقته.

ثم أكد الله تعالى الوعد بالإقراء وعدم النسيان إلا ما شاء الله أن ينسيه لمصلحة، فقال:

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ أي يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم، لا يخفى عليه من ذلك شيء. ومن الجهر: كل ما يفعله الإنسان أو يقوله علانية، ﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾: كل ما يُسرِّه بينه وبين نفسه، مما لا يعلمه إلا الله تعالى، فالذي وعدك بأنه سيقرئك ويحفِّظك عالم بالجهر والسرّ.

وهذا على الرأي بأن قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ يعني النسخ: يعد تعليلاً للنسخ، وإذا كان كذلك، كان وضع الحكم ورفعه واقعاً بحسب مصالح المكلفين. ونظير الآية كثير، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١١٠] .

ثم بشره ببشارة أخرى وهو تيسيره، أي توفيقه للأيسر في أحكام الدين والشريعة، فقال:

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾﴾ أي نسهل عليك أفعال الخير وأقواله، ونشرع لك شرعاً سهلاً سمحاً، ونوفقك للطريقة اليسرى والشريعة السمحة في الدين والدنيا، فلا نشرع لك إلا الأيسر، ولا نختار لأمتك إلا الأسهل الذي لا يصعب على النفوس تحمله والقيام به.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - ينبغي للإنسان تعظيم الله وتمجيده وتنزيهه عن كل ما لا يليق به من صفات النقص في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه.

ويستحب للقارئ إذا قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ أن يقول: «سبحان ربي الأعلى» قاله النبي ﷺ وجماعة من الصحابة والتابعين.

وروي أن النبي ﷺ كان يحب هذه السورة، وأكثر السلف كانوا يواظبون على قراءتها في التهجد، ويتعرفون بَرَكَتها.

والمقصود بالآية تنزيه الله وتسبيحه بذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه، حتى ولو سلمنا أن كلمة ﴿ٱسْمَ﴾ ليست صلة زائدة، فإن تسبيح اسمه، أي تنزيهه عما لا يليق، معناه بذاته تعالى وصفاته، أو بأفعاله، أو بأحكامه، فإن العقائد الباطلة والمذاهب الفاسدة لم تنشأ إلا من هذه الفكرة، وهي: هل الاسم نفس المسمى أم لا؟

٢ً - وصف الله تعالى نفسه بصفات كمال ثلاث: هي أنه الذي خلق جميع الخلائق، وجعلها متناسبة الأجزاء، متناسقة التركيب، وجعل الإنسان في أحسن تقويم.

وقدر لكل مخلوق ما يصلح له، فهداه إليه، وأرشده لسلوكه، وعرَّفه وجه الانتفاع به.

وأنبت العشب وأخرج النبات والزرع، ثم صيَّره بالياً هشيماً جافاً أسود.

وهذه الأوصاف تدل على كمال القدرة الإلهية وتمام الحكمة والعلم.

٣ً - بشر الله تعالى نبيه ببشارتين:

الأولى - أن يقرأ عليه جبريل الوحي بالقرآن، وهو أمي لا يكتب ولا يقرأ، فيحفظه ولا ينساه، إلا ما شاء الله أن ينسى، ولكنه لم ينس شيئاً منه بعد نزول هذه الآية.

والثانية - التوفيق لأعمال الخير، وتشريع الشريعة اليسرى، وهي الحنيفية السمحة السهلة.

٤ً - إن الله تعالى يعلم تمام العلم كل ما يجهر به الإنسان، وهو الإعلان من القول والعمل، وكل ما يخفيه، وهو السر، لذا شرع لعباده ما فيه الخير والمصلحة، ورفع عنهم كل ما فيه مشقة وعسر، وحماهم من كل ما فيه ضرر وشر ومفسدة.

التذكير وتزكية النفس والعمل للآخرة

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾

القراءات:

﴿تُؤْثِرُونَ﴾:

وقرأ أبو عمرو (يؤثرون).

الإعراب:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾ جواب ﴿إِن﴾ دلَّ عليه ما قبله وهو ﴿فَذَكِّرْ﴾ وقام مقامه وسدّ مسده.

البلاغة:

﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ بينهما طباق.

﴿فَذَكِّرْ﴾ و ﴿ٱلذِّكْرَىٰ﴾ بينهما جناس اشتقاق.

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾﴾ بينهما مقابلة.

المفردات اللغوية:

﴿فَذَكِّرْ﴾ التذكير: تنبيه الإنسان إلى شيء علمه ثم غفل عنه، والمراد هنا التذكير والوعظ بالقرآن. ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ معنى اشتراط النفع إما لأن النبي ﷺ كان قد استفرغ مجهوده في تذكيرهم، فلم يزدادوا إلا عتواً وطغياناً، فقيل له هذا بعد إلزام الحجة بتكرار التذكير، وإما أن يكون ظاهره شرطاً ومعناه ذم المخاطبين واستبعاد تأثير الذكرى فيهم. وعلى كل فإن التذكير مطلوب وإن لم ينفع، فقد ينفع البعض، وقد أخبر تعالى أن المنتفع بالتذكير هو من يخشى الله سبحانه.

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ أي سيتعظ وينتفع بالذكرى من يخاف الله تعالى، وهو إما مصدق بالله وبالبعث، أو متردد في ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٥٠/٤٥]. ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾﴾ يتجنب الذكرى الكافر، فإنه أشقى من الفاسق. ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ الذي يدخل ويذوق حرّ نار الآخرة، و ﴿ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أسفل دركات الجحيم،

والصغرى: نار الدنيا .﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ أي لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة هنيئة تنفعه ويسعد.

﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ فاز ونجا .﴿تَزَكَّىٰ﴾ تطهر من الكفر والمعصية بالإيمان والتقوى. ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ بقلبه ولسانه، أو كبر تكبيرة الإحرام .﴿فَصَلَّىٰ﴾ صلاته المفروضة .﴿تُؤْثِرُونَ﴾ تفضلون الدنيا على الآخرة .﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ الآخرة المشتملة على الجنة خير من الدنيا وأدوم لا ينقطع نعيمها .﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ فلاح من تزكى وكون الآخرة خيراً وأبقى .﴿لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ المنزلة قبل القرآن .﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهي عشر صحف .﴿وَمُوسَىٰ﴾ وهي أيضاً عشر صحف غير التوراة.

المناسبة:

بعد التبشير بالبشارتين السابقتين: وهما حفظ القرآن وعدم نسيانه، والتيسير والتوفيق للشريعة السهلة السمحة، ولأعمال الخير، أمر الله نبيه بتذكير الخلق بما ينفعهم في دينهم ودنياهم، ودعوتهم إلى الحق، وبيَّن من ينتفع بالذكرى وهو من يخاف الله، ومن يعرض عنها وهو من يعصي الله، ويكون في قعر جهنم.

وبعد وعيد المعرضين عن العظة بالقرآن، ذكر الله تعالى وعد من طهر نفسه من الكفر والشرك والرذائل، وندَّد بمن يؤثر الدنيا على الآخرة، مع أن الخير في تفضيل الآخرة على الدنيا، وأخبر بأن أصول الدعوات الدينية واحدة، فما في القرآن من عظات هو ما في صحف إبراهيم وموسى.

التفسير والبيان:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ أي عظ يا محمد الناس بالقرآن، وأرشدهم إلى سبل الخير، واهدهم إلى شرائع الدين، وذكّر

حيث تنفع الذكرى، والناس نوعان: فريق تنفعه الموعظة، وفريق لا تنفعه، وإنما الذي ينتفع ويتعظ بما تبلّغه يا محمد من كان يخاف الله تعالى بقلبه، ويعلم أنه ملاقيه. وأما من أصرّ على الكفر والعناد، وتمادى في الجحود والإنكار، فلا فائدة في تذكيره.

قال ابن كثير: ومن هاهنا يؤخذ الأدب في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله[1] أخرج مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنت بمحدِّثٍ قوماً حديثاً لا تبلُغه عقولُهم إلا كان لبعضهم فتنة» . وروى الديلمي في الفردوس عن علي، والبخاري موقوفاً قوله: «حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله» . وقال عيسى عليه السلام: «لا تضعوا الحكمة في غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، وكن كالطبيب يضع دواءه حيث يعلم أنه ينفع» .

وقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ إيماء إلى أن ما جاء به الرسول ﷺ صار من الوضوح بحيث لا يحتاج إلا إلى التذكير فحسب. والخلاصة: أن التذكير مشروط بالانتفاع.

وهناك اتجاه آخر في تفسير الآية، وهو أن التذكير مطلوب، وإن لم ينفع، ولا يكون التعليق بالشرط في قوله: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ مراداً، وإنما هو لتصوير وبيان الواقع، مثل آيات كثيرة أخرى، منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٢٤/٣٣] . قال الرازي: إن الناس في أمر المعاد ثلاثة أقسام: القاطع بصحته، والمتردد فيه، والجاحد له، والفريقان الأولان ينتفعان بالتذكير والتخويف.

وكثير من المعاندين إنما يجحدون باللسان فقط، فتبين أن أكثر الخلق

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٥٠٠.

ينتفعون بالوعظ، والمعرض نادر، وترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير، فلهذا وجب تعميم التذكير، وإن كان لا ينتفع بالتذكير إلا البعض الذين علم الله انتفاعهم به، ونحن لا نعلمهم، فبعد أن أمر الله نبيه بالتذكير، بيّن في قوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ الذي تنفعه الذكرى من هو[1]

ثم أوضح الله تعالى من الناحية الواقعية عدم جدوى التذكير بالنسبة للمعاندين، فقال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ أي ويتجنب الذكرى ويبعد عنها الأشقى من الكفار، لعناده وإصراره على الكفر بالله، وانهماكه في معاصيه.

لذا فإنه يقاسي حرّ نار جهنم ويدخلها ويذوق وبالها، فهي النار العظيمة، ونار الدنيا هي النار الصغرى، أو أن النار الكبرى: دركات جهنم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ٤/١٤٥].

والذي يصلى النار الكبرى يخلد في عذابها، فلا يموت فيها، فيستريح مما هو فيه من العذاب، ولا يحيا حياة طيبة هنيئة ينتفع أو يسعد بها، كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٥/٣٦].

وسبب تخصيص الكافر بالذكر: أن الفاسق لم يتجنب التذكير بالكلية، فيكون القرآن ساكتاً عن الشقي الذي هو أهل الفسق.

وبعد وعيد الأشقياء الذين أعرضوا عن ذكرى القرآن، ذكر وعد السعداء الذين يعنون بتزكية نفوسهم وتطهيرها من الشرك والتقليد في العبادة ودنس الرذائل، فقال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ أي قد فاز ونجا من العذاب من تطهّر من الشرك، فآمن بالله ووحّده وعمل بشرائعه، وتعهد نفسه

---

(١) التفسير الكبير للرازي: ٣١/ ١٤٤-١٤٥، غرائب القرآن: ٣٠/ ٧٧.

بالتزكية والتهذيب والتطهير من الرذائل والمفاسد والأخلاق الوضيعة، وتابع ما أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ.

وذكر بلسانه اسم ربه بالتوحيد والإخلاص، وتذكر ربه العظيم في قلبه، فأقام الصلوات الخمس المفروضة في أوقاتها، ابتغاء رضوان الله، وطاعةً لأمر الله، وامتثالاً لشرع الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢] .

وروى أبو بكر البزار عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله، وخلع الأنداد، وشهد أني رسول الله» . وفي قوله: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ قال: «هي الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بها» .

ثم وبَّخ المؤْثِرين الدنيا، المهملين أمر الآخرة، فقال:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ أي لا تفعلون ما أمرتم به سابقاً، بل تؤثرون اللذات الفانية في الدنيا، والآخرة ونعيمها أفضل وأدوم من الدنيا، وثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى، فإن الدنيا دار فانية، والآخرة شريفة باقية، فكيف يُؤْثِرُ عاقل ما يفنى على ما يبقى، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد؟!!

أخرج الإمام أحمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له» . وأخرج أحمد أيضاً عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى» .

ثم أبان الله تعالى وحدة الشرائع في أصولها وآدابها العامة، فقال: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ أي إن كل ما ذكر من

فلاح من تزكى، وما بعده من تذكر اسم الله، وإيثار الناس للدنيا، ثابت في صحف إبراهيم العشر، وكذا صحف موسى العشر غير التوراة، فقد تتابعت كتب الله عز وجل أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا.

والمراد أن ذلك مذكور بالمعنى لا باللفظ في صحف جميع الأنبياء التي منها صحف إبراهيم وموسى، فمعنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف، فهو في الأولى وفي آخر الشرائع، وتقدير الآية: إن هذا لفي الصحف الأولى التي منها صحف إبراهيم وموسى. وإنما خصت هذه الصحف بالذكر لشهرتها بين العرب. ونظير الآية قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/١٩٦] .

أخرج عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن أبي ذر رضي الله عنه: أنه سأل رسول الله ﷺ قائلاً: «كم أنزل الله من كتاب؟ فقال: مئة وأربعة كتب، منها على آدم عشر صحف، وعلى شيث خمسون صحيفة، وعلى إدريس ثلاثون صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وعلى موسى قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان» .

وجاء في صحف إبراهيم: «ينبغي للعاقل أن يكون حافظاً للسانه، عارفاً بزمانه، مقبلاً على شأنه» .

روى الآجُرِّي وغيره من حديث أبي ذرّ المتقدم قال: قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف إبراهيم؟ قال: «كانت أمثالاً كلُّها: أيها الملك المتسلِّط المبتَلى المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض، ولكن بعثتك لتردّ عني دعوة المظلوم، فإني لا أردّها ولو كانت من فم كافر.

وكان فيها أمثال: وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، يفكر فيها في صنع الله عز وجل إليه، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب.

وعلى العاقل أن يكون طالباً لثلاث: تزود لمعاد، ومَرَمَّة لمعاشٍ، ولذة في غير محرَّم. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شانه، حافظاً للسانه. ومن عُدّ كلامه من عمله، قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه.

قال: قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف موسى؟ قال: كانت عِبَراً كلها: عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح! وعجبت لمن أيقن بالقَدَر كيف ينصَب. وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلّبها بأهلها كيف يطمئن إليها!! وعجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم هو لا يعمل!!

قال: قلت: يا رسول الله، فهل في أيدينا شيء مما كان في يدي إبراهيم وموسى، مما أنزل الله عليك؟ قال: نعم اقرأ يا أبا ذر: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ والله تعالى أعلم بصحة هذا الحديث كما قال الألوسي.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - المطلوب تذكير الناس وموعظتهم، سواء نفعت الذكرى أم لم تنفع، ولكنها في النهاية لا تنفع إلا المؤمنين الذين يخشون الله ربهم، قال الحسن البصري: الذكرى تذكرة للمؤمن، وحجة على الكافر. وقال الجُرْجاني: التذكير واجب وإن لم ينفع.

٢ - يتجنب الشقي الذكرى عادة، ويبعد عنها الكافر، الذي يصلى ويدخل النار الكبرى، أي العظمى، وهي السفلى من أطباق النار، أو أن نار جهنم هي الكبرى، والصغرى نار الدنيا.

وإذا دخلها الكافر خُلّد فيها إلى الأبد، فلا يموت فيستريح من العذاب، ولا يحيا حياة تنفعه.

٣ً - قد نجا وفاز كل من تطهر من الشرك بالإيمان، وجنَّب نفسه رذائل الأخلاق، وعمل بما يرضي ربه من الأعمال الصالحات، وذكر ربه بلسانه وقلبه فصلى الفرائض.

٤ً - احتج بعض العلماء بقوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ على أن الافتتاح جائز بكل اسم من أسماء الله عز وجل، والمسألة خلافية بين الفقهاء. واحتجوا بها أيضاً على وجوب تكبيرة الافتتاح، واحتج أبو حنيفة رحمه الله بالآية على أن تكبيرة الافتتاح ليست من الصلاة؛ لأن الصلاة معطوفة عليها، والعطف يستدعي المغايرة. وأجيب بما روي عن ابن عباس: أن المراد ذكر معاده وموقفه بين يدي ربه، فصلى له.

٥ً - يؤثر بعض الناس أو أغلبهم الدنيا، ويترك الاستعداد للآخرة، والآية: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ إشارة إلى الزجر عن الالتفات إلى الدنيا، والترغيب في الآخرة وفي ثواب الله تعالى، وهذه أمور لا يجوز أن تختلف باختلاف الشرائع.

٦ً - الشرائع الإلهية متفقة في أصولها الاعتقادية والأخلاقية وتوجيه العبادة الخالصة لله عز وجل، وهذه نماذج من وحدة الشرائع: وجوب تزكية النفس وتطهيرها من الشرك والكفر ودنس الرذائل، ووجوب التذكر الدائم لله عز وجل، وإقامة الصلوات المفروضة في أوقاتها، وضرورة الاستعداد للآخرة وإيثار ثوابها على ملذات الدنيا الفانية.

بل إن ما في السورة كله من التوحيد والنبوة والوعد والوعيد كان ثابتاً في صحف الأنبياء الأقدمين؛ لأنها قواعد كلية لا تتغير بتغير الأزمان.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الغاشية

مكية، وهي ست وعشرون آية

تسميتها:

سميت سورة الغاشية، لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾ والغاشية: من أسماء يوم القيامة، وهي الداهية التي تغشى الناس بأهوالها، والاستفهام للتهويل وتفخيم شأنها.

مناسبتها لما قبلها:

هذه السورة تفصيل وتبسيط لما جاء في سورة الأعلى من أوصاف المؤمن والكافر والجنة والنار إجمالاً، فلما قال تعالى في الأعلى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ [الآيات: ١٠-١٧] فصل ذلك في هذه السورة بقوله: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ [الآيات: ٢-٧] ثم ذكر صفات وأحوال المؤمنين في الآيات: [٨-١٦]. ولما قال تعالى في الأعلى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ أبان صفة الجنة في الآيات السابقة أكثر من صفة النار، تحقيقاً لمعنى الخيرية.

ما اشتملت عليه السورة:

تتحدث هذه السورة المكية عن أصول الاعتقاد في موضوعات ثلاثة وهي:

أ - وصف أهوال القيامة، وما يلقاه الكافر والمؤمن فيها من الشقاء والسعادة، ووصف أهل الجنة وأهل النار.

٢ - إثبات وحدانية الله وقدرته وحكمته وعلمه بدليل خلق السماء والإبل والجبال والأرض وغيرها من عجائب الصنعة الإلهية.

٣ - ختمت السورة الكريمة بخاتمة تشبه خاتمة السورة المتقدمة وهي تذكير الناس بالرجوع إلى الله عز وجل للحساب والجزاء، وأمر الرسول ﷺ أصالة بالتذكير بما أنزل إليه من الشرائع والأحكام.

فضلها:

تقدم في فضل السورة السابقة ما أخرجه مسلم وأهل السنن عن النعمان بن بشير: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾، والغاشية في الجمعة والعيدين. وأخرج الإمام مالك ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن النعمان بن بشير أيضاً: بِمَ كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة؟ قال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾.

هول القيامة وأحوال أهل النار

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾

القراءات:

﴿تَصْلَىٰ﴾:

وقرأ أبو عمرو (تُصْلى).

الإعراب:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ المرفوع مبتدأ، وجاز الابتداء به وإن كان نكرة لوقوعه في موضع التنويع. وقيل: لأن تقدير الكلام أصحاب وجوه، والخبر ما بعد، والظرف متعلق به.

﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ صفة للطعام أو للضريع.

البلاغة:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾﴾ أسلوب التشويق والتهويل، وهو استفهام أريد به التقرير ولفت النظر إلى هذا الحديث.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾﴾ أي أصحابها وهم الكفار، فهو مجاز مرسل بإطلاق الجزء وهو الوجوه وإرادة الكل وهي الذوات.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾ و﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ فيهما مقابلة بين وجوه الأبرار ووجوه الفجار.

المفردات اللغوية:

﴿الْغَاشِيَةِ﴾ يوم القيامة، وهي الداهية التي تغشى الناس بشدائدها وأهوالها. ﴿خَاشِعَةٌ﴾ ذليلة. ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾ تعمل عملاً في الدنيا، تتعب فيه وهو لا ينفعها يومئذ، أو تتعب في النار بجر السلاسل والأغلال وخوضها، فقوله: ﴿نَّاصِبَةٌ﴾ تعبة من (نصب فلان): تعب، والنَّصَبُ: التعب، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾﴾ [الشرح: ٧/٩٤] أي إذا فرغت من الصلاة، فاتعب في الدعاء. ﴿تَصْلَىٰ نَارًا﴾ تدخلها، يقال: صلي النار: قاسى حرها، ﴿حَامِيَةً﴾ متناهية في الحر. ﴿مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ العين: ينبوع الماء، والآنية: الشديدة الحرارة. ﴿ضَرِيعٍ﴾ نوع من الشوك لا ترعاه دابة؛

لخبثه وضره وشدة مرارته، أما الرطب منه وهو الشِّبْرِق فترعاه الإبل ما دام رطباً، والمراد: طعامهم مما تتحاماه الإبل وتتعافاه .﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ لا يتحقق به أحد هذين الأمرين المقصودين من الطعام.

التفسير والبيان:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾ أي هل بلغك يا محمد حديث القيامة وعلمت خبره؟ وسميت غاشية: لأنها تغشى الخلائق بأهوالها وأفزاعها، والمراد: لم يأتك سابقاً حديث هذه الداهية، وقد أتاك الآن فاستمع، فلا يراد من التعبير حقيقة الاستفهام، وإنما يراد منه تشويق السامع إلى استماعه، وتعجيبه مما سيذكر بعده. والمعنى: قد جاءك يا محمد حديث الغاشية.

ثم ذكر أحوال الناس فيه وانقسامهم إلى فريقين: أشقياء وسعداء، وبدأ بوصف الأشقياء؛ لأن مبنى السورة على التخويف، كما ينبئ عنه لفظ الغاشية، فقال:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾ أي أصحاب وجوه، والمراد بالوجه الذات، أي أصحابها، وأصحاب الوجوه وهم الكفار، تكون في ذلك اليوم ذليلة خاضعة لما هي فيه من العذاب، ونسب الخشوع والذل إلى الوجوه؛ لأن أثره يظهر عليها، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ٣٢/ ١٢] وقوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٥] .

وقد كان أصحابها في الدنيا يعملون عملاً كثيراً، ويتعبون أنفسهم في العبادة، ولا أجر لهم عليها؛ لما هم عليه من الكفر والضلال؛ والإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ شرط قبول الأعمال. والآية في القسّيسين وعُبَّاد الأوثان وكل مجتهد نشط في كفره[1].

(١) البحر المحيط: ٨/ ٤٦٢

ثم ذكر جزاء هؤلاء في يوم القيامة:

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ أي تدخل تلك الوجوه ناراً شديدة الحرارة، وتقاسي حرها، وتعذب بها، لخسارة أعمالها، وتسقى إذا عطشوا من ماء عين أي ينبوع، آنية، أي متناهية في حرها، فهي لا تطفئ لهم عطشاً.

وليس لهم طعام يتغذون به إلا الضريع: وهو شوك يابس شديد المرارة والضر، يقال له في لغة أهل الحجاز الشِّبرِق إذا كان رطباً، فإذا يبس فهو الضريع، وهو سم، وشر الطعام، وأبشعه وأخبثه.

ولا يحصل به مقصود ولا يندفع به محذور، فلا يُسمن آكله، ولا يدفع عنه الجوع. وإنما قدم المشروب على الضريع المطعوم؛ لأن الماء لأهل النار أهم، ويغلب عليهم العطش إذا أثر فيهم حرّ النار.

وهناك طعام آخر لأهل النار وهو الغِسْلين والزقّوم، قال تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/٣٦] وقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ [الدخان: ٤٤/٤٣-٤٤].

ذكر الحافظ أبو بكر البرقاني عن أبي عمران الجوني قال: مرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدير راهب، فناداه: يا راهب، فأشرف، فجعل عمر ينظر إليه ويبكي، فقيل له: يا أمير المؤمنين، ما يبكيك من هذا؟ قال: ذكرت قول الله عز وجل في كتابه: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ فذاك الذي أبكاني.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - القيامة يوم رهيب، يغشى الناس فيه غاشية شديدة من الأهوال والمخاوف.

٢ - تكون وجوه الكفار في ذلك اليوم ذليلة بالعذاب، خاضعة للعقاب، وقد كان أصحابها في الدنيا يعملون ويتعبون أنفسهم؛ لأن الآخرة ليست دار عمل، مثل عبدة الأوثان وأصحاب الصوامع والرهبان وغيرهم، خشعت وجوههم لله، وعملت ونصِبت في أعمالها من غير نفع لهم في الآخرة؛ لأن أعمالهم مبنية على غير أساس من الدين الحنيفي القائم على التوحيد الخالص والإخلاص الكامل لله عز وجل، والله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له، قال تعالى واصفاً عمل هؤلاء: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ١٠٣-١٠٦] .

٣ - ومكانهم هو النار الشديدة الحر، ومشروبهم هو ﴿مِّنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ أي من ينبوع ماء متناه في الحرارة، ومطعومهم الضريع الذي لا يسمن آكله، ولا يدفع الجوع عنه. جاء في الخبر عن ابن عباس: (الضريع: شيء يكون في النار يشبه الشَّوْك، أمَرُّ من الصبر، وأنتن من الجيفة، وأشد حَرّاً من النار)[1].

وقال العلماء: إن للنار دركات، وأهلها على طبقات؛ فمنهم من طعامه الزَّقوم، ومنهم من طعامه غسلين، ومنهم من طعامه ضريع، ومنهم من شرابه الحميم، ومنهم من شرابه الصّديد: ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ١٥/ ٤٤] . ووجود النبت في النار ليس ببدع من قدرة الله، كوجود بدن الإنسان والعقارب والحيات فيها.

(١) تفسير القرطبي: ٢٠/ ٣٠

قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾﴾ قال المشركون على سبيل التعنت: إن إبلنا لتسمن بالضَّريع، فنزلت: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ أي ليس فيه منفعة الغذاء، ولا الإسمان ودفع الجوع.

وهذا دليل على أن طعامهم ليس من جنس طعام الإنس، ولكن من جنس الشوك الذي ترعاه الإبل ما دام رطباً، فإذا يبس، نفرت عنه؛ لأنه سم قاتل. ودليل أيضاً على تكذيب الله لهم في قولهم: «يسَمِّن الضريعُ» .

والخلاصة: أن وصف أحوال النار على النحو المذكور يستدعي الفرار منه، وإبعاد النفس عن موجبات هذا العذاب، من العقيدة الفاسدة، والعمل الخاسر، ولا عقيدة صحيحة إلا بتوحيد الله والإيمان بالقرآن والرسول محمد ﷺ، ولا عمل مقبول إلا على وفق ما جاء به الإسلام. ولا أقول هذا لأني مسلم، وإنما هذا الذي صحَّ دليله.

أحوال المؤمنين المخلصين أهل الجنة

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾

القراءات:

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾﴾ : قرئ:

١- (لاتُسمع فيها لاغيةٌ) وهي قراءة نافع.

٢- (لايُسمع فيها لاغيةٌ) وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو.

٣- (لاتَسمعُ فيها لاغيةً) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾﴾ التاء للخطاب، والفعل مبني للمعلوم (للفاعل)، و﴿لَٰغِيَةً﴾ مفعول ﴿تَسْمَعُ﴾، و﴿لَٰغِيَةً﴾ مصدر كالعافية والعاقبة.

وقرئ بضم التاء ورفع ﴿لَٰغِيَةً﴾ على أن الفعل مبني للمجهول (لما لم يسم فاعله) و(لاغيةٌ) مرفوع؛ لأنه نائب فاعل.

ومن قرأ القراءة الثانية، ذكّر اللاغية إما لأنه أراد بها اللغو، وهو مذكر، وإما لأنه فصل بين الفعل والفاعل، مثل: حَسُن اليوم دارك، واضطرم الليلة نارك، وحضر القاضيَ اليوم امرأةٌ. وإذا جاز التذكير مع المؤنث الحقيقي، فمع غير الحقيقي أولى.

البلاغة:

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾﴾ سجع رصين غير متكلَّف.

المفردات اللغوية:

﴿نَّاعِمَةٌ﴾ ذات بهجة وحسن، أو متنعمة .﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ أي راضية في الآخرة بعملها الذي عملته في الدنيا، وهو طاعة الله، لما رأت ثوابه .﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾ عالية المكان والقدر؛ لأن الجنة درجات، كما أن النار دَرَكات .﴿لَٰغِيَةً﴾ لغواً وهذياناً لا فائدة فيه، وكذباً وبهتاناً .﴿عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ ينبوع ماء جارٍ .﴿سُرُرٌ﴾ جمع سرير: وهو ما يجلس أو ينام عليه. ﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾ رفيعة ذاتاً وقدراً ومحلاً.

﴿وَأَكْوَابٌ﴾ جمع كوب: إناء لا عروة له .﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ معدَّة ومهيأة لشربهم وبين أيديهم .﴿وَنَمَارِقُ﴾ وسائد، جمع نمرقة - بضم النون وفتحها - وبالكسر في لغة ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ اصطف بعضها بجنب بعض للاستناد إليها ﴿وَزَرَابِيُّ﴾ بسط

فاخرة، وطنافس لها خمل، جمع زِرْبي - بكسر الزاي - أو زُرْبِيّة: وأصل الزرابي: أنواع النبات الأحمر والأصفر والأخضر ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ مبسوطة مفرَّقة في المجالس.

المناسبة:

بعد بيان وعيد الكفار الأشقياء، وبيان حالهم ومكانهم وطعامهم وشرابهم، ذكر الله تعالى أحوال المؤمنين السعداء، وما وعدهم به ربهم، واصفاً ثوابهم وأهل الثواب، ثم وصف دار الثواب، لترغيب الناس بأعمالهم، وتشويقهم لما يلاقونه من فضل ربهم.

التفسير والبيان:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ أي ووجوه يوم القيامة ذات نعمة وبهجة ونضرة وحسن، يعرف النعيم فيها، أو متنعمة، كما قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين: ٨٣/ ٢٤] وهي وجوه السعداء، لما شاهدوا من عاقبة أمرهم، وقبول عملهم، فهي لعملها الذي عملته في الدنيا راضية، أي رضيت عملها؛ لأنها قد أعطيت من الأجر ما أرضاها، كما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٩٨/ ٨].

والخلاصة: أن الله تعالى وصف أهل السعادة والثواب بوصفين:

أحدهما - في ظاهرهم وهو قوله: ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ أي ذات بهجة وحسن، أو متنعمة.

والثاني - في باطنهم وهو قوله: ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾.

ثم وصف دار الثواب وهي الجنة بسبعة أوصاف:

١- ٢ - ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾﴾ أي إن أصحاب الوجوه الناعمة وهم المؤمنون السعداء في جنة رفيعة المكان، بهية الوصف، آمنة الغرفات؛ لأن الجنة منازل ودرجات بعضها أعلى من بعض، كما أن النار دركات بعضها أسفل من بعض.

ولا تسمع في كلام أهل الجنة كلمة لغو وهذيان؛ لأنهم لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله تعالى على ما رزقهم من النعيم الدائم، ولأن الجنة منزل أحباب الله، ومنازل الصفاء لا تتعكر باللغو والكذب والبهتان، كما قال تعالى: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٥٢/٢٣] وقال: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ١٩/٦٢] وقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٢٥-٢٦].

٣- ٤ - ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾ أي في الجنة ينبوع أو عين ماء تجري مياهها وتتدفق بأنواع الأشربة المستلذة الصافية، وليس المراد بها عيناً واحدة باعتبارها نكرة في سياق الإثبات، وإنما هذا جنس، يعني فيها عيون جاريات.

وفيها أسرة عالية مفروشة بما هو ناعم الملمس، كثيرة الفرش، مرتفعة السُّمك، إذا جلس عليها المؤمن استمتع بها ورأى رياض الجنة ونعيمها، كما قال تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٣٤].

وفي ذلك غاية التشريف والتكريم.

٥- ٦ - ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ أي وفيها أواني الشرب وأقداح الخمر غير المسكرة معدة مرصودة بين أيديها، يشربون منها متى أرادوا، وفيها وسائد (مخدات) مصفوفة بعضها إلى بعض، للجلوس عليها أو الاستناد إليها، وفيها بُسْط مبسوطة في المجالس، وطنافس (سجّاد) لها خمل رقيق ناعم، مفرّقة في المجالس، كثيرة، تغري بالجلوس عليها، ويستمتع الناظر إليها، وفيها معاني الأبهة والفخامة.

فقه الحياة أو الأحكام:

وصف الله تعالى أهل السعادة والثواب، ودار الثواب بأوصاف جميلة رائعة الجمال والمتعة، لإغراء الناس بها وترغيبهم في الحصول عليها إذا عملوا عمل أصحابها المستحقين لها.

أما أهل الثوابفلهم صفتان: ظاهرية وباطنية، فوجوه المؤمنين ذات نعمة وبهجة ونضرة، ولعملها الذي عملته في الدنيا راضية في الآخرة، حيث أعطيت الجنة بعملها.

وأما دار الثواب فلها صفات سبع كما تقدم:

الأولى - في جنة عالية، أي مرتفعة، وعالية القدر؛ لأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

الثانية - لا تسمع فيها كلاماً ساقطاً غير مرضي، ولا تسمع فيها كلمة لغو.

الثالثة - فيها عين شراب جارية على وجه الأرض، من غير أخدود، وتجري لهم كلما أرادوا، بماء مندفق وبأنواع الأشربة اللذيذة من خمر وعسل ولبن.

الرابعة - فيها سرر عالية المكان، مرتفعة السماء.

الخامسة - فيها أكواب، أي كيزان لا عرا لها، أو أباريق وأوان، والإبريق: هو ما له عُروة وخُرطوم، والكوب: إناء ليس له عروة ولا خرطوم.

السادسة - فيها نمارق، أي وسائد مصفوفة واحدة إلى جنب الأخرى.

السابعة - فيها البُسط المبسوطة، والطنافس التي لها خَمْل رقيق، والكثيرة المتفرقة في المجالس.

إثبات قدرة الله تعالى على البعث وغيره والتذكير بأدلة ذلك

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾

الإعراب:

﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ﴿كَيْفَ﴾ حال مقدم من ضمير ﴿خُلِقَتْ﴾، والجملة بدل اشتمال من الإبل.

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾ قرئ (بمسيطر) على الأصل، وقرئ بالصاد، بإبدال السين صاداً، لتوافق الطاء في الاستعلاء والإطباق، مثل (وزَادَهُ بَصْطَةً فِي العِلْمِ والجِسْمِ) [البقرة: ٢/ ٢٤٧] وأصله: (بسطة) فأبدل من السين صاداً، لتوافق الطاء في الإطباق، وكذلك قالوا: (الصراط) في (السراط)، و(صطر) في سطر.

و ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾: في موضع نصب على الاستثناء من غير الجنس أي استثناء منقطع، وقيل: هو استثناء من الجنس، أي استثناء متصل، وتقديره: إنما أنت مذكر الناس إلا من تولى وكفر.

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ بتخفيف الباء، آب يؤوب إياباً، نحو: قام يقوم مقاماً، وأصله: إواباً وقواماً، وقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها. وقرئ: (إيّابهم) بتشديد الياء، قال أبو الفتح ابن جني: يجوز أن يكون أراد: إوّاباً،

إلا أنه قلبت الواو ياء استحساناً طلباً للخفة، لا وجوباً، مثل اجلوَّذ اجلياذاً، وإن كان المشهور: اجلواذاً.

البلاغة:

﴿فَذَكِّرْ﴾ ﴿مُذَكِّرٌ﴾ بينهما جناس الاشتقاق، وكذا بين ﴿فَيُعَذِّبُهُ﴾ و ﴿ٱلْعَذَابَ﴾.

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ ﴿عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ يوجد بينهما طباق في الحرف.

المفردات اللغوية:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ ينظر أهل مكة ونحوهم نظر اعتبار .﴿ٱلْإِبِلِ﴾ الجمال، جمع بعير، ولا واحد لها من لفظه كنساء وقوم .﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ خلقاً يدل على كمال قدرة الله تعالى وحسن تدبيره، بأن جعلت أداة لحمل الأثقال إلى البلاد النائية، مع احتمال العطش عشراً فأكثر، وخصت بالذكر؛ لأنها أعجب ما عند العرب من هذا النوع، وبدئ بها لأنهم أكثر مخالطة لها من غيرها.

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾ بلا عمد، وأمسكها بما فيها من الكواكب ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾ فهي راسخة لا تميل، وهي أعلام للسائرين. ﴿سُطِحَتْ﴾ بسطت حتى صارت مهاداً موطأة للإقامة عليها. قرئت الأفعال الأربعة بالبناء للمجهول، وحذف المفعول المنصوب أي خِلْقتها رِفْعتها نِصْبتها، والمعنى: أفلا ينظرون إلى أنواع المخلوقات من المركبات وغيرها، ليعرفوا كمال قدرة الخالق ووحدانيته، فلا ينكروا اقتداره على البعث، ولذلك عقب به أمر المعاد، ورتب عليه الأمر بالتذكير.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ أي فذكرهم نعم الله ودلائل توحيده، وعظهم والفت نظرهم إلى الكون كله، وما عليك ألا ينظروا أو لايتذكروا، فإنما عليك البلاغ فقط .﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾ بمسلَّط، لإجبارهم على ما تريد ﴿إِلَّا مَن

تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ لكن من تولى وكفر بالقرآن ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ عذاب الآخرة، وهو في آية سابقة ﴿ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ والأصغر عذاب الدنيا بالقتل والأسر. ﴿إِيَابَهُمْ﴾ رجوعهم بعد الموت. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ في المحشر، وتقديم الخبر في الجملتين الأخيرتين للتخصيص، والمبالغة في الوعيد.

سبب النزول:

نزول الآية (١٧):

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾: أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وعبد بن حميد عن قتادة قال: لما نعت الله ما في الجنة، عجب من ذلك أهل الضلالة، فأنزل الله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾.

المناسبة:

بعد أن حكم الله تعالى بمجيء يوم القيامة، وقسم الناس فيها إلى فريقين: أشقياء وسعداء، ووصف أحوال الفريقين، أقام الدليل على وجوده ووحدانيته وقدرته بما يشاهدونه من آثار القدرة من السماء العالية، والأرض التي يسكنون فيها، والإبل التي ينتفعون بها في نقل الأحمال والانتفاع بلحومها وأوبارها وألبانها، والجبال الراسيات التي ترشد السالكين، فيستدلون بذلك على قدرته تعالى على بعث الأجساد والمعاد وصحة عقيدة التوحيد.

ثم أمر نبيه ﷺ أن يذكّرهم بهذه الأدلة والبراهين وأمثالها، لينظروا فيها، وليصبر على معارضتهم، فإنما بعث لذلك دون غيره.

التفسير والبيان:

يأمر الله تعالى عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته ووجوده وتوحيده، فيقول:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ أي كيف يصح للمشركين إنكار البعث والمعاد واستبعاد وقوع ذلك، وهم يشاهدون الإبل التي هي غالب مواشيهم وأكبر المخلوقات في بيئتهم، كيف خلقها الله على هذا النحو البديع، من عظم الجثة، ومزيد القوة، وبديع الأوصاف، فهي خلق عجيب، وتركيب غريب، ومع ذلك تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للولد الصغير، وتؤكل، وينتفع بوبرها، ويشرب لبنها، وتصبر على الجوع والعطش. وبدأ تعالى التنبيه بها؛ لأن غالب دواب العرب كانت الإبل، وأيضاً مرافق الإبل أكثر من مرافق الحيوانات الأُخَر؛ فهي مأكولة، ولبنها مشروب، وتصلح للحمل والركوب، وقطع المسافات البعيدة عليها، والصبر على العطش، وقلة العلف، وكثرة الحَمْل، وهي معظم أموال العرب.

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾ وألا يشاهدون السماء كيف رفعت فوق الأرض بلا عمد؟ كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق: ٥٠/٦] .

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾ أي جعلت منصوبة قائمة مرفوعة على الأرض، فإنها ثابتة راسية لئلا تميد الأرض بأهلها، والنظر إليها مبعث هيبة وتعجب، ويستفيد من وجودها وتسلسلها السالكون في البراري والقفار، والأعجب من هذا أن كثيراً من الينابيع المائية تنبع منها، وفيها منافع كثيرة ومعادن وفيرة، ويقتطع منها أحجار ضخمة، ورخام ذو ألوان مختلفة بديعة.

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ كيف بسطت ومدَّت ومهِّدت، ليستقر عليها ساكنوها، وينتفعوا بما فيها من خيرات ومعادن دفينة، وما تخرجه من نباتات وزروع وأشجار متنوعة، بها قوام الحياة والمعيشة.

وتسطيح الأرض إنما هو بالنسبة للناظر والمقيم عليها، ولا يعني ذلك أنها

ليست بكرة؛ لأن الكرة - كما ذكر الرازي - إذا كانت في غاية العظمة يكون كل قطعة منها كالسطح[1].

وإنما ذكرت هذه المخلوقات دون غيرها؛ لأنها أقرب الأشياء إلى الإنسان الناظر فيها، فهو يشاهد صباح مساء بعيره، ويرى السماء التي تظلله، والجبال التي تجاوره، والأرض التي تقلّه.

ثم أمر الله نبيه ﷺ بالتذكير بهذه الأدلة، فقال:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم، وعظهم وخوفهم، والفت نظرهم إلى ضرورة التأمل بهذه الأدلة والبراهين وأمثالها الدالة على قدرة الله على كل شيء، ومنها البعث والمعاد، وليس عليك إلا التذكير فقط، فإنما بعثت لهذا الغرض، ولا سلطان ولا سيطرة لك عليهم لحملهم على أن يؤمنوا بالله وبرسالتك، ولجبرهم على ما تريد، فإن آمنوا فقد اهتدوا، وإن أعرضوا فقد ضلوا وكفروا، كما قال سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ١٣/ ٤٠].

وقوله: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ تأكيد لمهمة التذكير فقط، وتقرير لها، ونظير الآية قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠/ ٩٩] وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٥٠/ ٤٥].

روى أحمد ومسلم والترمذي والنسائي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني

---

(١) التفسير الكبير: ٣١/ ١٥٧-١٥٨

دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل» ثم قرأ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾[1].

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ أي لكن من تولى عن الوعظ والتذكير، وكفر بالحق بقلبه ولسانه، فيعذبه الله في الآخرة عذاب جهنم الدائم، عدا عذاب الدنيا من قتل وأسر واغتنام مال؛ لأنه إذا كان لا سلطان لك عليهم، فإن الله هو المسيطر عليهم، لا يخرجون عن قبضته وقوته وسلطانه.

أخرج الإمام أحمد عن أبي أمامة الباهلي: مرّ على خالد بن يزيد بن معاوية، فسأله عن ألين كلمة سمعها من رسول الله ﷺ، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا كلكم يدخل الجنة، إلا من شرد على الله شراد البعير عن أهله» .

ثم أكد الله تعالى وقوع البعث والحساب والعذاب، فقال:

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ أي إن إلينا مرجعهم ومصيرهم، ونحن نحاسبهم على أعمالهم بعد رجوعهم إلى الله بالبعث، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ، فلا مفر للمعرضين، ولا خلاص للمكذبين من العقاب.

وفائدة تقديم الظرف أو الجار والمجرور في الموضعين الحصر والتشديد بالوعيد، أي ليس مرجعهم إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام وإيفاء جزاء كل طائفة، وإن حسابهم ليس بواجب إلا عليه بمقتضى الحكمة البالغة، وهو الذي يحاسب على الصغير والكبير[2].

---

(١) الحديث مخرج في الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة بدون ذكر هذه الآية.

(٢) تفسير الكشاف: ٣/ ٣٣٤، تفسير الرازي: ٣١/ ١٦٠

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - ذكّر الله تعالى الناس بصنعته وقدرته، وأنه قادر على كل شيء، بعد أن ذكر أمر أهل الدارين، فتعجب الكفار من ذلك، فكذبوا وأنكروا. وقد ذكّرهم بخلق الإبل؛ لأنها كثيرة في العرب، وبخلق السماء ورفعها عن الأرض بلا عَمَد، وبخلق الجبال الراسيات المنصوبة على الأرض، بحيث لا تزول، وبخلق الأرض كيف بسطت ومدت ومهدت لأهلها كي يستطيعوا العيش عليها بقرار وأمان.

٢ً - أمر الله تعالى نبيه ﷺ بتذكير قومه وعظتهم وتخويفهم، وطمأنه بأنه مجرد واعظ، ليس بمسلَّط عليهم، فيقتلهم، أو يجبرهم على الإيمان برسالته.

٣ً - حذر الله تعالى من مخالفة دعوة النبي ﷺ ورسالته، فأنذر كل من تولى عن الوعظ والتذكير بالعذاب الأكبر في الآخرة، وهو عذاب جهنم الدائم، ووصف العذاب بالأكبر؛ لأنهم عذبوا في الدنيا بالجوع والقَحْط والأسر والقتل.

وهذا على أن الاستثناء منقطع، وقيل: هو استثناء متصل، والمعنى: لست بمسَلَّط إلا على من تولى وكفر، فأنت مسلّط عليه بالجهاد، والله يعذبه بعد ذلك العذاب الأكبر، فلا نسخ في الآية على هذا التقدير.

والأظهر في رأي بعض المفسرين أن يكون الاستثناء متصلاً، لا باعتبار الحال، فإن السورة مكية، ولكن بالنظر إلى الاستقبال، أي إلا المصرِّين على الإعراض والكفر، فإنك تصير مأموراً بقتالهم، مستولياً عليهم بالغلبة والقهر[١].

---

(١) غرائب القرآن: ٣٠/ ٨٥

والظاهر لدي أن يكون الاستثناء منقطعاً، أي لست بمصيطر ولا بمستول عليهم، ولكن من تولى وكفر، فإن لله الولاية والقهر عليه، فهو يعذبه العذاب الأكبر في الآخرة، بعد العذاب الأصغر في الدنيا، وهو القتل والسبي، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: ٣٢/ ٢١] . وهذا ما سار عليه أغلب المفسرين، مشيرين إلى القول الثاني بصيغة (قيل) المفيدة للتضعيف.

٤ - تضمنت السورة في خاتمتها ما يصلح للوعد والوعيد والترغيب والترهيب، فإن مصير جميع الناس ورجوعهم بعد الموت إلى الله عز وجل، وحسابهم إليه وحده.

والحساب وإن كان حقاً لله تعالى، ولا يجب على المالك أن يستوفي حق نفسه، إلا أنه تعالى جعل الحساب واجباً عليه، إما بحكم وعده الذي لا خلف فيه، وإما بمقتضى الحكمة والعدل، فإنه لو لم ينتقم للمظلوم من الظالم، لكان ذلك شبيهاً بكونه تعالى راضياً بذلك الظلم، وتعالى الله عنه، فلهذا السبب كانت المحاسبة واجبة[1].

---

(١) تفسير الرازي: ٣١/ ١٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفجر

مكية، وهي ثلاثون آية

تسميتها:

سميت سورة الفجر، لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾﴾ وهو قسم عظيم بفجر الصبح المنبلج نوره كل يوم على أن الكفار سيعذبون حتماً.

مناسبتها لما قبلها:

تتعلق السورة الكريمة بما قبلها من وجوه ثلاثة:

١ - إن القسم الصادر في أولها كالدليل على صحة ما ختمت به السورة التي قبلها من قوله جل جلاله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾.

٢ - تضمنت السورة السابقة قسمة الناس إلى فريقين: أشقياء وسعداء، أصحاب الوجوه الخاشعة، وأصحاب الوجوه الناعمة، واشتملت هذه السورة على ذكر طوائف من الطغاة: عاد وثمود وفرعون الذين هم من الفريق الأول، وطوائف من المؤمنين المهتدين الشاكرين نعم الله، الذين هم في عداد الفريق الثاني، فكان الوعد والوعيد حاصلاً في السورتين.

٣ - إن جملة ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ في هذه السورة مشابهة لجملة: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧﴾ في السورة المتقدمة.

ما اشتملت عليه السورة:

اشتملت السورة على أغراض ستة:

١ - القسم الإلهي بالفجر والعشر الأوائل من ذي الحجة والشفع والوتر والليل على أن عذاب الكفار واقع حتماً لا مفر منه: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الآيات: ١-٥].

٢ - إيراد قصص بعض الأمم الظالمة البائدة المكذبة رسل الله، كعاد وثمود وقوم فرعون، لضرب المثل، وبيان ما حلّ بهم من العذاب بسبب طغيانهم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ [الآيات: ٦-١٤].

٣ - بيان أن الحياة ابتلاء للناس بالخير والشر، والغنى والفقر، والتعرف على طبيعة الإنسان في حب المال، وتوضيح أن كثرة النعم على عبد ليست دليلاً على إكرام الله له، ولا الفقر وضيق العيش دليلاً على إهانته: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [الآيات: ١٥-٢٠].

٤ - وصف يوم القيامة وأهواله وشدائده: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١﴾ [الآيات: ٢١-٢٣].

٥ - بيان انقسام الناس إلى فريقين في الآخرة: سعداء وأشقياء، وتمني الأشقياء العودة إلى الدنيا: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ۝٢٤﴾ [الآيات: ٢٤-٢٦].

٦ - الإخبار عن ظفر السعداء بالنعيم العظيم في جنان الله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾ [الآيات: ٢٧-٣٠].

فضلها:

روى النسائي عن جابر قال: صلى معاذ صلاة، فجاء رجل، فصلى معه، فطوّل، فصلّى في ناحية المسجد، ثم انصرف، فبلغ ذلك معاذاً، فقال: منافق، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فسأل الفتى، فقال: يا رسول الله، جئت أصلي معه، فطوّل علي، فانصرفت وصليت في ناحية المسجد، فعلفت ناقتي، فقال رسول الله ﷺ: «أفتّان يا معاذ؟ أين أنت من: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾، ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١﴾، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾».

حتمية عذاب الكفار وجزاء بعضهم في الدنيا

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾

القراءات:

﴿وَٱلْوَتْرِ﴾:

قرأ حمزة، والكسائي، وخلف (والوِتر) وقرأ الباقون (والوَتر).

﴿يَسْرِ﴾:

قرأ نافع، وأبو عمرو: بإثبات الياء وصلاً، وقرأ ابن كثير بإثباتها وصلاً ووقفاً.

وقرأ الباقون بالحذف مطلقاً.

الإعراب:

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ هذا قسم، وجوابه: إما قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ أو محذوف مقدر تقديره: لتبعثن. والأولى أن يكون جواب القسم محذوفاً وهو ليعذبن، كما ذكر في الكشاف (٣/ ٣٣٥) أي وربّ هذه الأشياء ليعذبن الكفار، وقد دلّ عليه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ إلى قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ﴾ ﴿إِرَمَ﴾: مجرور على البدل، أو عطف البيان، ولا يجوز أن يكون وصفاً أو نعتاً؛ لأنه ليس مشتقاً. و﴿إِرَمَ﴾: ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث، ودليل التأنيث وصفها بقوله: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾.

البلاغة:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ استفهام تقريري، لتفخيم شأن الأمور المقسم بها.

﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾ بينهما طباق.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾ استعارة، شبّه العذاب الشديد النازل بهم بالسوط المؤلم، واستعمل الصبّ للإنزال.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾ سجع رصين غير متكلف، وكذا قوله: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١﴾.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١﴾ قسم بالوقت الذي ينبلج فيه نور الصبح كل يوم؛ لتبديد

حجب الظلام، وظهور النور وما يتبعه من الاستعداد والذهاب لقضاء الحوائج وتحقيق المنافع وطلب الرزق، وهو مثل القسم في قوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ [التكوير: ٨١/١٨] وقوله: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ [المدثر: ٧٤/٣٤].

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾﴾ عشر ذي الحجة، وتنكيرها للتعظيم .﴿وَالشَّفْعِ﴾ الزوج. ﴿وَالْوَتْرِ﴾ الفرد من تلك الليالي، والمراد: والأشياء كلها شفعها ووترها، وكلمة (الوتر) : بفتح الواو وكسرها .﴿يَسْرِ﴾ أي يسري بمعنى إذا يمضي، كقوله: ﴿وَالَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾﴾ [المدثر: ٧٤/٣٣].

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾ أي هل في ذلك القسم بهذه الأشياء قسم مُقْنع لكل ذي عقل؟ كأنه يقول: إن هذا لقسم عظيم عند ذوي العقول، فمن كان عاقلاً أدرك أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء فيها دلالة على توحيده وقدرته. وجواب القسم محذوف، أي لتعذبن أيها الكفار. والحِجْر: العقل، سمي بذلك؛ لأنه يمنع من الوقوع فيما لا ينبغي.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم يا محمد .﴿بِعَادٍ﴾ هي قبيلة عربية بائدة، من أولاد عاد ابن عوص بن إرَم بن سام بن نوح عليه السلام، قوم هود عليه السلام، سموا باسم أبيهم كما سمي بنو هاشم باسمه، وتلقب عاد بإرم أيضاً.

﴿إِرَمَ﴾ عطف بيان لعاد على تقدير مضاف، أي سبط إرم، و ﴿إِرَمَ﴾: هي عاد الأولى .﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ ذات البناء الرفيع، سكان الخيام العالية، وهذا كناية عن الغنى والبسطة، وكانت منازلهم بالرمال في الأحقاف بلاد الرمال بين عُمان وحضرموت جنوب جزيرة العرب .﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ في بطشهم وقوتهم.

﴿وَثَمُودَ﴾ قبيلة من العرب البائدة أيضاً من ولد كاثر بن إرم بن سام، كانت تسكن بالحِجْر بين الشام والحجاز، وهم قوم صالح عليه السلام .﴿جَابُوا

﴿ٱلصَّخۡرَ﴾ قطعوا الصخر ونحتوه واتخذوه بيوتاً. ﴿بِٱلۡوَادِ﴾ وادي القرى. ﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٠﴾﴾ حاكم مصر في عهد موسى عليه السلام، صاحب المباني العظيمة الثابتة ثبوت الأوتاد: جمع وتد، وهو ما يدق في الأرض.

﴿طَغَوۡاْ﴾ تجبروا في البلاد وتجاوزوا الحد في الظلم، صفة للمذكورين: عاد وثمود وفرعون. ﴿فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾ بالقتل والتعذيب والمنكرات. ﴿فَصَبَّ﴾ أفرغ وألقى وأنزل بهم العقوبة متتابعة. ﴿سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ أي نوع عذاب ينزل بهم، وأصل السوط: الجلد الذي يضفر ليضرب به. ﴿لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ أي يرصد أعمال العباد فلا يفوته شيء منها، ليجازيهم عليها. وأصل المرصاد: مكان الرَّصَد أو الراصد، والرَّصَد: من يرصُد الأمور، أي يترقبها ليعرف ما فيها من خير أو ضرر، ويطلق أيضاً على الحارس، ويطلق على الواحد والجمع والمؤنث، والترصُّد: الترقب.

التفسير والبيان:

﴿وَٱلۡفَجۡرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشۡرٍ ﴿٢﴾﴾ أي قسماً من الله بالفجر، أي الصبح الذي يظهر فيه الضوء، وينبلج النور؛ لأنه وقت انفجار الظلمة عن الليل، كل يوم، وما يترتب عليه من اليقظة والاستعداد لجلب المنافع وتحقيق المصالح بالانتشار في الأرض وطلب الرزق من الإنسان والحيوان، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ [التكوير: ٨١/ ١٨]، وقوله: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ [المدثر: ٧٤/ ٣٤]. وقيل: المراد: القسم بصلاة الفجر.

وقسماً بالليالي العشر من ذي الحجة ذات الفضيلة؛ ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أيام العمل الصالح أحبُّ إلى الله فيهنّ من هذه الأيام - يعني عشر ذي الحجة - قالوا: ولا الجهادُ في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلاً خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء».

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾﴾ أي والزوج والفرد من كل الأشياء، ومنها هذه الليالي، أي بما حوته من زوج وفرد.

وقيل: الشفع يوم النحر لأنه عاشر الأيام، والوتر يوم عرفة لأنه تاسع الأيام، وقيل: الشفع: يوما التشريق الأول والثاني اللذان يجوز التعجل فيهما بالنفر من منى، والوتر: اليوم الثالث.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾ وقسماً بالليل إذا جاء وأقبل ثم ذهب وأدبر، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾﴾ [المدثر: ٧٤/٣٣]، وقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾﴾ [التكوير: ٨١/١٧] أي أقبل ظلامه، أو أدبر، فكما في إقبال الصبح من عظيم النفع، في الظلام نفع أيضاً، حيث تهدأ النفوس، وتستريح من عناء العمل، ثم في ذهابه نفع أيضاً حيث يستعان بالراحة التي ارتاحها الجسم للعمل في النهار، ومجابهة المتاعب والأعمال.

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾ أي أليس في القسم بهذه الأشياء قسم مُقْنع لكل ذي عقل أو لبّ؟ والْحِجْر: العقل، فمن كان ذا عقل ولبّ، علم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء حقيق بأن يقسم به.

ثم ذكر الله تعالى بعض قصص الأمم السالفة للمثل والعبرة، فقال:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾ أي ألم تعلم أيها الإنسان المخاطب، كيف أهلك الله قبيلة عاد الأولى، وهم ولد عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وتلقب أيضاً بإرَم، فإرم: اسم آخر لعاد الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [النجم: ٥٣/٥٠]، ويقال لمن بعدهم عاد الأخرى. ومساكنهم الأحقاف بلاد الرمال بين عُمان وحضرموت، ونبيهم هود عليه السلام.

وقد كانوا أهل عَمَد وخيام عالية في الربيع، ثم يرجعون إلى منازلهم إذا

هاج النبت، وكانوا طوال القامة، ذوي أجسام قوية شديدة، وأشد الناس في زمانهم خلقة، وأقواهم بطشاً، ولم يكن يوجد في البلاد كلها مدينة محكمة البنيان ذات أعمدة طوال منحوتة كمدينتهم، والصواب لم يوجد مثل تلك القبيلة في الطول والشدة والقوة كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩/٧]، وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥/٤١].

وجواب القسم المبدوء به في أول السورة محذوف تقديره: لتعذبن يا كفار أهل مكة وأمثالكم، وقد دلّ على الجواب هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ وما بعدها.

وضمير ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا﴾ على الصواب عائد على القبيلة، أي لم يخلق مثل عاد تلك القبيلة في البلاد، يعني في زمانهم، وليس على العماد لارتفاعها كما قال ابن زيد؛ لأنه لو كان المراد ذلك لقال: التي لم يعمل مثلها في البلاد، وإنما قال: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾[1].

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾ أي وقبيلة ثمود قوم صالح عليه السلام الذين قطعوا الصخر ونحتوه، وبنوا بالأحجار بيوتاً يسكنون فيها، وقصوراً وأبنية عظيمة، في الحِجْر ما بين الشام والحجاز، أو وادي القرى، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ ۝١٤٩﴾ [الشعراء: ١٤٩/٢٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢﴾ [الحجر: ٨٢/١٥].

(١) تفسير ابن كثير: ٥٠٧/٤

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ أي وحاكم مصر في عهد موسى عليه السلام، الذي هو صاحب المباني العظيمة، ومنها الأهرام التي بناها الفراعنة لتكون قبوراً لهم، وسخّروا في بنائها شعوبهم. وقيل: الأوتاد: الجنود والعساكر والجموع والجيوش التي تشدّ ملكه.

والتعبير بالأوتاد عن الأبنية يشير إلى هياكلهم العظيمة التي لها شكل الأوتاد المقلوبة، فهي عريضة القاعدة، ثم تصير رفيعة دقيقة في رأسها.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾ أي هؤلاء الذين سبق ذكرهم وهم عاد وثمود وفرعون الذين تجاوزوا في بلادهم الحدّ في الظلم والجور، وتمردوا وعتوا، واغتروا بقوتهم، وأكثروا الفساد فيها بالكفر والمعاصي وظلم العباد.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ أي فأنزل الله تعالى على تلك الطوائف نوعاً من العذاب الشديد، مشبهاً ما أوقعه بهم بالسوط المؤلم الذي يستعمل في تطبيق العقوبات. وقد ذكر نوع عقوباتهم تفصيلاً في سورة الحاقة [الآيات: ٥-١٠].

ثم ذكر الله تعالى سبب العذاب وهو الجريمة، فقال:

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ أي إن الله يرصد عمل كل إنسان، فلا يفوته شيء، حتى يجازيه عليه بالخير خيراً، وبالشر شرّاً، ولا يهمل منه شيئاً قلّ أو كثر، صغر أو كبر. والمرصاد: المكان الذي يرقب فيه الرصد.

والغرض من تكرار هذه القصص في مواضع مختلفة من القرآن الكريم هو التذكير بها، والعظة والعبرة منها، إما بالاستدلال على قدرته تعالى، وإما ببيان قهره العباد، وإما بإنذارهم وتخويفهم، ليدركوا أن ما جرى على شخص أو قوم، يجري على النظير والمثيل.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - حتمية عذاب الكفار، فقد أقسم الله تعالى بالفجر أي الصبح، أو بصلاة الفجر، وبالليالي العشر من ذي الحجة، وبالشفع والوتر أي الزوج والفرد من الأشياء كلها؛ لأن الموجودات لا تخلو من هذين القسمين، فتكون كقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/٣٨-٣٩]، وبالليل إذا يسري أي يمضي كقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾﴾ [المدثر: ٧٤/٣٣] والمراد عموم الليل كله، أقسم الله بهذه الأشياء على أنه ليعذبن الكفار.

وإقسام الله تعالى بهذه الأمور ينبئ عن شرفها، وأن فيها فوائد دينية ودنيوية، مثل كونها دلائل باهرة على التوحيد، أو توجب الحثّ على الشكر(١). قال القرطبي: قد يُقسِم الله تعالى بأسمائه وصفاته لعلمه، ويقسم بأفعاله لقدرته؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [الليل: ٩٢/٣] ويقسم بمفعولاته، لعجائب صنعه؛ كما قال: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾﴾ [الشمس: ٩١/١]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾﴾ [الشمس: ٩١/٥]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾﴾ [الطارق: ٨٦/١](٢).

٢ - أكّد الله تعالى ما أقسم به وأقسم عليه بقوله: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ﴿٥﴾﴾ أي بل في ذلك مَقْنع لذي لُبّ وعقل، فالمراد بالاستفهام تقرير أن هذه المذكورات لشرفها وعظم شأنها يحق أن يؤكد بمثلها المقسم عليه، وهو تعذيب الكفار، كَمَنْ ذَكَر حجة باهرة، ثم قال: هل فيما ذكرته حجة؟ يريد أنه لا حجة فوق هذا. ومن هنا قال بعضهم: فيه دليل على أنه تعالى أراد ربّ هذه الأشياء، ليكون غاية في القسم.

---

(١) تفسير الرازي: ٣١/ ١٦١

(٢) تفسير القرطبي: ٢٠/ ٤١

٣ً - ذكر الله تعالى للعبرة، ولتسلية النبي ﷺ قصة ثلاث فرق على سبيل الإجمال؛ لأنهم أعلام في القوة والشدة والتجبر، وهم عاد الأولى أو إرم ذات الأبنية المرفوعة على العَمَد، ومعنى إرم: القديمة، والتي لم يخلق مثل تلك القبيلة في زمنها في البلاد، قوة وشدة، وعظم أجساد، وطول قامة.

وثمود قوم صالح عليه السلام الذين قطعوا الصخر ونحتوه، وبنوا به البيوت العظيمة بوادي القرى، قال المفسرون: أول من نحت الجبال والصور والرخام: ثمود، فبنوا من المدائن ألفاً وسبع مئة مدينة كلها من الحجارة، ومن الدور والمنازل ألفي ألف وسبع مئة ألف، كلها من الحجارة.

وفرعون حاكم مصر ذو الأوتاد أي صاحب الأبنية الشاهقة، أو الجنود الكثيرة، أو الأوتاد الأربعة لتعذيب الناس.

٤ً - هؤلاء الطوائف الثلاث: عاد وثمود وفرعون طغوا في البلاد، أي تجاوزوا الحدّ في الظلم والعدوان، وتمرّدوا وعَتَوْا، فأكثروا فيها الفساد، أي الجور والأذى، فعاقبهم الله عقاباً شديداً، وصبّ عليهم سوط عذاب، أي أفرغ عليهم وألقى نوعاً من العذاب الشديد عليهم؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

وفيه إشارة إلى أن عذاب الدنيا بالنسبة إلى عذاب الآخرة كالسوط بالنسبة إلى القتل مثلاً، ثم أشار إلى عذاب الآخرة أو إليه مع عذاب الدنيا بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ أي يمهل ولكنه لا يهمل، ويرصد عمل كل إنسان حتى يجازيه به.

توبيخ الإنسان على قلة اهتمامه بالآخرة وفرط تماديه في الدنيا

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾

القراءات:

﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾، ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (ربيَ أكرمن، ربيَ أهانن).

﴿فَقَدَرَ﴾:

وقرأ ابن عامر (فقدَّر).

﴿تُكْرِمُونَ﴾، ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾، ﴿وَتَأْكُلُونَ﴾، ﴿وَتُحِبُّونَ﴾: قرئ:

١- (تُكرمون، ولاتحضُّون، وتأكلون، وتُحبون) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وابن عامر.

٢- (يُكرمون، ولايَحُضُّون، وتأكلون، ويُحبون) وهي قراءة أبي عمرو.

٣- (تُكرمون، ولا تحاضُّون، وتأكلون، وتُحبون) وهي قرأ الباقين.

الإعراب:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾

﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿فَيَقُولُ﴾ خبر المبتدأ، وأتى بالفاء لأن في (أما) معنى الشرط بالإنعام. والظرف المتوسط: ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ في تقدير التأخير، كأنه قيل: فأما الإنسان فقائل: ربي أكرمني وقت ابتلائه.

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾ إما أن يكون ﴿طَعَامِ﴾ بمعنى إطعام، فيكون اسماً أقيم مقام المصدر، مثل: سلمت عليه سلاماً، أي تسليماً، وكلمته كلاماً، أي تكليماً، وإقامة الاسم مقام المصدر كثير في كلام العرب، وإما أن يكون التقدير فيه: ولا تحضون على إطعام طعام المسكين، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه.

البلاغة:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾ وقوله: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ بينهما مقابلة، قابل بين ﴿أَكْرَمَنِ﴾ و ﴿أَهَٰنَنِ﴾، وبين توسعة الرزق وتضييقه.

﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ فيه التفات من ضمير الغائب إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والعتاب. والأصل أن يقال: كلا بل لا يكرمون.

المفردات اللغوية:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ متصل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ قال البيضاوي: كأنه قيل: إنه لبالمرصاد في الآخرة، فلا يريد إلا السعي لها، فأما الإنسان فلا يهمه إلا الدنيا ولذاتها. ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ اختبره بالغنى واليسر. ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ بالجاه والمال. ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ فضّلني بما أعطاني، وصيَّرني مكرماً، يتمتع بالنعيم.

﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ بالفقر والتقتير ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ ضيّقه. ﴿أَهَٰنَنِ﴾ أذلني وبادرني بالإهانة، وهذا لقصور نظره وسوء تفكيره، فإن التقتير قد يؤدي إلى كرامة الدارين، والتوسعة قد تؤدي إلى الانهماك في حبّ الدنيا.

ولذلك ذمّه على قوليه السابقين وردعه بقوله: ﴿كَلَّا﴾ كلمة للردع والزجر، أي ليس الإكرام بالغنى، والإهانة بالفقر، وإنما هو بالطاعة والمعصية، والكفار لا يتنبهون لذلك. ﴿لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ لا يحسنون إليهم مع غناهم. ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾ لا يحثون أنفسهم أو غيرهم على إطعام المسكين. ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ الميراث. ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ شديداً ذا لمّ، أي جمع بين الحلال والحرام، فإنهم لا يورثون النساء والصبيان، ويأكلون أنصباءهم. ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ حبّاً كثيراً.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى أنه بمرصد من أعمال بني آدم، يراقبهم ويجازيهم، عقّبه بتوبيخ الإنسان على قلة اهتمامه بأمر الآخرة، وفرط تماديه في إصلاح المعاش الدنيوي، كأنه قيل: إن الله يؤثر الآخرة ويرغّب فيها، وأما الإنسان فلا يهمه إلا الدنيا ولذاتها وشهواتها، فإذا صار في راحة قال: ربي أكرمني ورفعني، وإن فقد الراحة قال: ربي أهانني وأذلني.

وبعد بيان خطأ الإنسان في تصوره واعتقاده هذا، زجر الناس عن تقصيرهم وارتكابهم المنكرات، ونبَّه لما هو شرّ من ذلك، وهو أنه يكرمهم بكثرة المال، ثم لا يؤدون حق الله فيه، فلا يحسنون إلى اليتامى والمساكين، ويتناهبون الميراث دون إعطاء النساء والصبيان حقوقهم، ويحرصون على جمع المال حرصاً شديداً.

التفسير والبيان:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾ أي إن الإنسان مخطئ في تفكيره أنه إذا امتحنه ربّه واختبره بالنعم، فأكرمه بالمال،

ووسع عليه الرزق، فيقول: ربي أكرمني وفضلني واصطفاني ورفعني وعافاني من العقوبة، معتقداً أن ذلك هو الكرامة، فرحاً بما نال، وسروراً بما أعطي، غير شاكر الله على ذلك، ولا مدرك أن ذلك امتحان له من ربِّه.

والمراد بالإنسان الجنس، وليس الكافر فقط، ويوجد هذا في كثير من أهل الإسلام(١).

والمقصود من الآية أن الله ينكر على الإنسان ويوبخه في اعتقاده أنه إذا وسع الله عليه في الرزق ليختبره فيه، كان ذلك إكراماً من الله له، وليس كذلك، بل هو ابتلاء وامتحان، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٥٥-٥٦] .

ونظيره أيضاً قوله تعالى في صفة الكفار: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٧] ، وقوله أيضاً: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج: ٢٢/ ١١] .

والخلاصة: أن الغنى والثروة أو الجاه والسلطة ليس دليلاً على رضا الله عن العبد؛ لأن ذلك لا قيمة له عند الله تعالى.

ثم ذكر الجانب الآخر وهو أن الفقر والتقتير ليس دليلاً على سخط الله على العبد، فقال: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ أي وأما إذا ما اختبره وامتحنه بالفقر والتقتير، وضيَّق عليه رزقه ولم يوسعه له، فيقول: ربي أهانني وأذلني. وهذا خطأ أيضاً فلا يصح أن يعتقد أن ذلك إهانة له وإذلال لنفسه.

(١) البحر المحيط: ٨/ ٤٧٠

فالإنسان مخطئ في الحالين؛ لأن سعة الرزق لا تدل على أحقية العبد لها، بدليل ما نشاهده من غنى الكفار وثروة الفساق والعصاة.

وضيق الرزق ليس دليلاً على عدم الاستحقاق، بدليل ما نراه من فقر بعض الأنبياء وأكابر المؤمنين والصلحاء والعلماء.

والكرامة عند الله للطائع الموفق لعمل الآخرة، والإهانة والخذلان عند الله للعاصي غير الموفق للطاعة وعمل أهل الجنة، وليست سعة الدنيا كرامة ورفعة، ولا ضيقها إهانة ومذلة، وإنما الغنى اختبار للغني هل يشكر، والفقر اختبار له هل يصبر[1].

ونظراً للخطأ في الحالين ردع الله الإنسان بقوله:

﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾ أي ردع وزجر للإنسان القائل في الحالتين السابقتين ما قال، فليس الأمر كما زعم، فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين، فإذا كان غنياً، شكر الله على نعمته، وإذا كان فقيراً صبر.

وبعد أن ذمّهم على قبح الأقوال، ذمّهم على قبح الأفعال الذي هو شرّ من سابقه، وهو أنه يكرمهم بكثرة المال، ثم لا يؤدون حق الله فيه، فأنتم أيها الأغنياء الموسرون لا تكرمون اليتيم ولا تحسنون إليه، ولا تحضون أنفسكم أو غيركم على إطعام المساكين، ولا يحث بعضكم بعضاً على صلة الفقراء، ولا يأمر بعضكم بعضاً بالإحسان إلى المحتاجين.

وفي قوله: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ أمر بإكرام الأيتام، كما جاء

---

(١) فتح القدير للشوكاني.

في الحديث الذي رواه عبد الله بن المبارك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم، يُحسَن إليه، وشرّ بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُساء إليه، ثم قال بأصبعيه: أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» . وروى أبو داود عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة» وقرن بين أصبعيه: الوسطى والتي تلي الإبهام. قال مقاتل: كان قدامة بن مظعون يتيماً في حِجْر أمية بن خلف، وكان يدفعه عن حقه، فنزلت.

فترك إكرام اليتيم: ترك برّه، ودفعه عن حقه الثابت له في الميراث، وأخذ ماله منه.

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ أي وإنكم تأكلون الميراث أكلاً شديداً، وجمعاً من أي جهة حصل، من حلال أو حرام.

وتحبون المال حبّاً كثيراً فاحشاً، والجمّ: الكثير، قال بعضهم:

إن تغفر اللهمّ تغفر جمّا وأيُّ عبد لك لا ألمّا

والخلاصة: أنكم تؤثرون الدنيا على الآخرة، والله يحب السعي للآخرة، وترك الإفراط والمغالاة والتمادي في حبّ الدنيا وملذاتها.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

أ - يخطئ الإنسان في فهم حال الغنى والفقر، فليس الغنى وبسط الرزق دليلاً على الإكرام والتفضيل والاصطفاء، كما أن الفقر ليس دليلاً على الإهانة والإذلال.

فالكرامة عند الله والهوان ليس بكثرة الحظ في الدنيا وقلته، وإنما الكرامة

عنده أن يكرم الله العبد بطاعته وتوفيقه، المؤدي إلى حظ الآخرة، وإن وسَّع عليه في الدنيا حمده وشكره.

والله لا يريد من عبده إلا الطاعة والسعي للعاقبة الآخرة، وأما الإنسان فلا يريد ذلك، ولا يهمه إلا الدنيا العاجلة وما يلذه وينعمه فيها.

٢ - أكّد تعالى المعنى السابق بكلمة ﴿كَلَّا﴾ للرد على سوء فهم الإنسان، وزجراً وردعاً له عن اعتقاده وتصوره السابق، فليس الأمر كما يُظَنُّ، بأن الغنى لفضله، والفقر لهوانه، وإنما الغنى والفقر من تقدير الله وقضائه، وعلى العبد أن يحمد الله عزّ وجلّ على الفقر والغنى. جاء في الحديث: «يقول الله عزّ وجلّ: كلا، إني لا أكرم من أكرمت بكثرة الدنيا، ولا أهين من أهنت بقلتها، إنما أكرم من أكرمت بطاعتي، وأهين من أهنت بمعصيتي»[1].

٣ - أخبر الله تعالى عما كان الناس يصنعونه من ترك بِرّ اليتيم ومنعه من الميراث، وأكل ماله إسرافاً وبداراً أن يكبَروا، وأنهم لا يأمرون أهليهم بإطعام مسكين يجيئهم، وأكلهم ميراث اليتامى والنساء والصبيان أكلاً شديداً وجمعاً شاملاً، ومحبتهم المال حبّاً جمّاً، كثيراً، فقد كان أهل الشرك لا يورّثون النساء ولا الصبيان، بل يأكلون ميراثهم مع ميراثهم، وتُراثهم مع تُراثهم، وكانوا يجمعون المال دون تفرقة بين الحلال والحرام.

وهذا ما يشيع الآن كثيراً في العالم، بل بين المسلمين أنفسهم.

---

(١) تفسير القرطبي: ٢٠/٥٢

حال الإنسان الحريص على الدنيا والمترفع عنها يوم القيامة

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾

القراءات:

﴿وَجِاْىٓءَ﴾:

بإشمام كسرة الجيم الضم قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

﴿لَّا يُعَذِّبُ﴾، ﴿وَلَا يُوثِقُ﴾:

وقرأ الكسائي (لايعذَّب، ولايوثَق).

الإعراب:

﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ جواب ﴿إِذَا﴾ قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ﴾. و ﴿دَكًّا دَكًّا﴾: منصوب على المصدر المؤكد، وكرر للتأكيد.

﴿صَفًّا صَفًّا﴾ منصوب على المصدر، في موضع الحال، أي مصطفين أو ذوي صفوف كثيرة.

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ﴿بِجَهَنَّمَ﴾: في موضع رفع نائب فاعل. و ﴿يَوْمَئِذٍۭ﴾ الأول: ظرف متعلق بـ ﴿وَجِاْىٓءَ﴾، و﴿يَوْمَئِذٍۭ﴾ الثاني: إما بدل من ﴿يَوْمَئِذٍۭ﴾ الأول، أو يتعلق بـ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾.

﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ، وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ قرئ (يُعذِّب) و(يُوثَق) بكسر الذال وفتحها، وبكسر الثاء وفتحها، فمن قرأ بكسر الذال والثاء، كان تقديره: لا يعذِّب أحدٌ أحداً عذاباً مثل عذابه، ولا يوثق أحدٌ أحداً وثاقاً مثل وثاقه، والهاء تعود على الله تعالى، وإن لم يذكر، لدلالة الحال عليه. و ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾ و ﴿وَثَاقَهُۥٓ﴾: منصوبان على المصدر، والمصدر مضاف إلى الفاعل، و ﴿أَحَدٌ﴾ فاعل مرفوع.

ومن قرأ بفتحهما كان تقديره: لا يعذَّب أحد مثل عذابه، ولا يوثق أحد مثل وثاقه، والهاء تعود على الإنسان، لتقدم ذكره، والمصدر مضاف إلى المفعول، و﴿أَحَدٌ﴾: نائب فاعل.

﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ حالان.

البلاغة:

﴿يَتَذَكَّرُ﴾ و﴿ٱلذِّكْرَىٰ﴾ بينهما جناس اشتقاق، وكذا بين ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ﴾ وبين ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ﴾.

﴿فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾﴾ الإضافة إلى الله للتشريف.

المفردات اللغوية:

﴿كَلَّآ﴾ ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم: وهو التقصير في أداء الحقوق. ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ زلزلت حتى يتهدم كل بناء عليها وينعدم، دكّاً بعد دكّ حتى صارت الجبال والتلال هباءً منبثاً، وأرضاً مستوية. والدّكّ: الهدم والتسوية للشيء المرتفع، قال المبرد: الدكّ: حطّ المرتفع بالبسط، واندك سنام البعير: إذا انفرش في ظهره، ومنه الدكان لاستوائه في الانفراش. وجواب ﴿إِذَا﴾ هو قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ﴾.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أمر ربّك، وظهرت آيات قدرته وآثار قهره .﴿وَٱلۡمَلَكُ﴾ الملائكة .﴿صَفّٗا صَفّٗا﴾ مصطفين أو ذوي صفوف كثيرة بحسب منازلهم ومراتبهم .﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ﴾ كشفت للناظرين بعد الغيبة، مثل قوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ٣٦﴾ [النازعات: ٧٩/٣٦] .﴿يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ يتذكر معاصيه، أو يتعظ؛ لأنه يعلم قبحها، فيندم عليها .﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ أي ومن أين له فائدة التذكر، وقد فات الأوان؟ وهو استفهام بمعنى النفي، أي لا ينفعه تذكره ذلك، واستدل به على عدم قبول التوبة في الآخرة .﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾ أي يقول مع تذكره: يا ليتني قدمت لحياتي هذه الخيرَ والإيمان، أو وقت حياتي في الدنيا، و(يا): للتنبيه.

﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٦﴾ أي لا يتولى أحد عذاب الله ووثاقه يوم القيامة سواه، إذ الأمر كله له، ولا يعذّب أحد مثل تعذيبه، ولا يوثق مثل إيثاقه، والوثاق: الشدّ والربط بالسلاسل والأغلال. وضمير ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾ و ﴿وَثَاقَهُۥٓ﴾ للكافر.

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ﴾ أي يقال لها عند الموت ما يأتي .﴿ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ المستقرة الثابتة المتيقنة بالحق، الآمنة، وهي المؤمنة التي اطمأنت بذكر الله .﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ ارجعي إلى ثوابه وتكريمه، وأمره وإرادته .﴿رَاضِيَةٗ﴾ بالثواب .﴿مَّرۡضِيَّةٗ﴾ عند الله بعملك، أي جامعة بين الوصفين .﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩﴾ في جملة، أو في زمرة عبادي الصالحين المقرَّبين المكرَّمين .﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ معهم.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٧):

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن بريدة في قوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧﴾ قال: نزلت في حمزة.

وأخرج أيضاً عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: من يشتري بئر رُومة، يستعذب بها، غفر الله له، فاشتراها عثمان، فقال: هل لك أن تجعلها سقاية للناس؟ قال: نعم، فأنزل الله في عثمان: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾.

المناسبة:

بعد أن أنكر الله على الناس تصورهم عن الغنى والفقر، وأفعالهم المنكرة، بالحرص على الدنيا، وإيثارها على الآخرة، وترك المواساة منها، وجمعها دون تفرقة بين حلال أو حرام، ردعهم عن ذلك، وأخبر عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة، وأبان أنهم يندمون حين لا ينفع الندم: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ فإن الآخرة دار جزاء لا دار عمل، ثم ذكر تحسر المقصر في طاعة الله يوم القيامة: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾.

وبعد بيان حال هذا الإنسان الحريص على الدنيا، ذكر الله تعالى حال المؤمن المخلص المترفع عنها، المتسامي بطبعه إلى مراتب الكمال، فيكون جزاؤه دخول الجنان في زمرة الصالحين المقربين من عباد الله تعالى.

التفسير والبيان:

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾ أي زجراً وردعاً لأقوالكم وأفعالكم هذه، ولا ينبغي أن يكون هكذا عملكم في الحرص على الدنيا، وترك المواساة منها، وجمع الأموال فيها من حيث تتهيأ، دون تفرقة بين حلال وحرام، وتوهم ألا حساب ولا جزاء.

وسيأتي يوم القيامة وما يقع فيه من الأهوال الرهيبة، وتظهر فيه أوصاف ثلاثة، فتدكّ الأرض دكّاً بعد دكّ، أي تكسر وتدق، وتتزلزل وتتحرك تحركاً بعد تحريك، وتهدّ جبالها حتى تستوي مع سطح الأرض، فتسوّى الأرض والجبال، ويقوم الناس من قبورهم. وقوله: ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ يدل على تكرار الدك حتى صارت الجبال هباءً منبثاً.

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ أي وجاء الله سبحانه وتعالى لفصل القضاء بين عباده، وتصدر أوامره وأحكامه بالجزاء والحساب، وتظهر آيات قدرته وآثار قهره، ويقف الملائكة مصطفين صفوفاً للحراسة والحفظ والهيبة. وهذه هي الصفة الثانية من صفات ذلك اليوم.

﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ أي وكشفت للناظرين بعد غيبتها وتحجبها عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/٩١] ، وقال أيضاً: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات: ٧٩/٣٦] . وهذه هي الصفة الثالثة من صفات ذلك اليوم.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ، يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾ أي في ذلك اليوم يندم الإنسان على ما قدّم في الدنيا من الكفر والمعاصي، وعلى ما عمل من أعمال السوء، وكيف تنفعه الذكرى؟ أي لا تنفعه، فقد فات الأوان، وإنما كانت تنفعه الذكرى لو تذكر الحق قبل حضور الموت. ويقول مبيناً تذكره: يا ليتني قدمت الخير والعمل الصالح لحياتي الأخروية الدائمة الباقية، فهي الحياة الأخيرة لأهل النار ولأهل الجنة جميعاً. ويصح جعل اللام بمعنى الوقت، أي وقت حياتي في الدنيا.

قال الرازي: فيه دليل على أن قبول التوبة على الله لا يجب عقلاً. والواقع أن الآية ليست في هذا الجانب، لأنه لا يلزم من عدم قبول التوبة في الآخرة عدم قبولها في دار التكليف في الدنيا، كإيمان اليأس.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ هذا جواب الشرط السابق في ﴿إِذَا دُكَّتِ﴾ أي فيومئذٍ لا يتولى أحد تعذيب العصاة وحسابهم وجزاءهم ووثاقهم، ولا يعذب أحد مثل عذاب الله، ولا يوثق أحد الكافرَ بالسلاسل والأغلال كوثاق الله.

وفي هذا ترغيب بالعمل الصالح والإيمان، وترهيب من الكفر والعصيان.

ثم ذكر حال الإنسان المترفع عن أطماعه وملذاته وشهواته في الدنيا، وبشارة الأبرار، فقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ أي يقول الله للمؤمن، بذاته أو على لسان مَلَك: يا أيتها النفس الموقنة بالإيمان والحق وتوحيد الله، التي لا يخالجها شك في صدق عقيدتها، وقد رضيت بقضاء الله وقدره، ووقفت عند حدود الشرع، فتجيء يوم القيامة مطمئنة بذكر الله، ثابتة لا تتزعزع، آمنة مؤمنة غير خائفة، ارجعي إلى ثواب ربك الذي أعطاك، وإلى محل كرامته الذي منحك إياه، راضية بهذا الثواب عما عملت في الدنيا، وبما حكم الله، ومرضية عند الله، كما قال تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [البينة: ٩٨/٨] وهذه هي صفة أرباب النفوس الكاملة.

فادخلي في زمرة عبادي الصالحين، وكوني في جملتهم، وادخلي معهم جنتي، فتلك هي الكرامة لا كرامة سواها، جعلنا الله من أهلها، والظاهر العموم، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذي نزلت به الآية.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - زجر الله الناس وردعهم عن انكبابهم على الدنيا، وجمعهم لها، فإن من يفعل ذلك يندم يوم تُدَكُّ الأرض ولا ينفع الندم.

٢ - وصف الله يوم القيامة بصفات ثلاث هي:

الأولى - دكّ الأرض، أي زلزلتها وتحريكها بشدة تحريكاً بعد تحريك، ومرة بعد مرة.

الثانية - مجيء أمر الله وقضائه وآياته العظيمة واصطفاف الملائكة صفوفاً، كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٠] .

الثالثة - بروز جهنم وانكشافها وظهورها للناس بعد احتجابها عنهم.

٣ً - في يوم القيامة يتعظ الكافر ويتوب، كما يتعظ من حرصه على الدنيا دون الآخرة، ولكن من أين له الاتعاظ والتوبة والمنفعة، وقد فرط فيها في الدنيا. ويقول نادماً متأسفاً: يا ليتني قدمت في الدنيا عملاً صالحاً لحياتي الأخيرة التي لا موت فيها.

٤ً - لا يُعذِّب أحد كعذاب الله، ولا يُوثق بالسلاسل والأغلال أحد كوثاق الله، وهذه كناية ترجع إلى الله تعالى، في حق المجرمين من الخلائق، تعني أن السلطان المطلق في الحساب والجزاء لله، ولا يخرج أحد عن قبضة الله وسلطانه.

٥ً - أما النفس الزكية المطمئنة بالإيمان والعمل الصالح وبوعد الله دون خوف ولا فزع، فيقال لها: ارجعي إلى رضوان ربِّك وجنته، راضية بما أعطاك الله من النعم، مرضية عند الله بما قدمت من عمل. وهذا الخطاب والنداء يكون عند الموت أو الاحتضار، كما ذكر المفسرون، وتتمة المقالة: فادخلي في زمرة عباد الله الصالحين، وادخلي جنتي دار الأبرار المقربين.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة البلد

مكية، وهي عشرون آية

تسميتها:

سميت سورة البلد؛ لأن الله تعالى أقسم في فاتحتها بالبلد الحرام (مكة) الذي شرفه الله بالبيت العتيق، وجعله قبلة المسلمين، تعظيماً لشأنه.

مناسبتها لما قبلها:

ترتبط السورة بما قبلها من وجهين:

١ - ذم الله تعالى في السورة السابقة (الفجر) من أحب المال، وأكل التراث، ولم يحض على طعام المسكين، وذكر في هذه السورة الخصال التي تطلب من صاحب المال من فك الرقبة (إعتاق العبيد) والإطعام في يوم المسغبة (المجاعة).

٢ - ختم الله تعالى السورة المتقدمة ببيان حال النفس المطمئنة في الآخرة، وذكر هنا طريق الاطمئنان، وحذَّر من ضده، وهو الكفر بآيات الله ومخالفة أوامر الرحمن.

ما اشتملت عليه السورة:

محور هذه السورة المكية الحديث عن سعادة الإنسان وشقاوته، ومنهجه في اختيار أحد الطريقين. بدأت بالقسم بالبلد الحرام - مكة أم القرى، التي يأمن الناس فيها، تنبيهاً على عظمة قدرها، سواء في حال الإحرام أو الحل، وتنويهاً بموطن النبي ﷺ وتعظيم تحريم إيذائه في البلد الأمين، ثم ذكرت المقسم عليه وهو أن حال الإنسان في الدنيا في نصب وتعب: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾ [الآيات: ١-٤] .

وأردفت ذلك بالإخبار عن خلق ذميم في الإنسان وهو اغتراره بقوته، مما حدا بكفار مكة الذين اغتروا بقوتهم أن يعاندوا الحق، ويكذبوا رسول الله ﷺ، وينفقوا أموالهم في المفاسد والشرور، وهو شأن المفتونين المغرورين بمالهم وغناهم: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾ [الآيات: ٥-٧] .

ثم ذكّرت الإنسان بما أنعم الله عليه من العينين واللسان والشفتين وبيان طريق الخير والشر له، واختياره أحد السبيلين بعقله وإرادته: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾[الآيات: ٨-١٠] .

ثم أبانت للإنسان ما يعترضه من الأهوال والمصاعب يوم القيامة وطريق اجتيازها بالإيمان والعمل الصالح وإنفاق المال في جهات البر والخير، ليكون من الأبرار السعداء أهل اليمين: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾ [الآيات: /١١-١٨].

وقابلت ذلك بتوضيح منهج الأشقياء الفجار أهل الشمال، وهو الكفر بآيات الله، فيتميز المؤمنون عن الكفار، ويتبين مآل الفريقين إما إلى الجنة أو إلى النار: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾ [الآيات ١٩-٢٠] .

ابتلاء الإنسان بالتعب واغتراره بقوته وماله

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾

القراءات:

﴿أَيَحْسَبُ﴾:

قرأ عاصم، وحمزة، وابن عامر (أيحسَب)، وقرأ الباقون (أيحسِب).

الإعراب:

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أن مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف أي أنه.

البلاغة:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾ أي أقسم بهذا البلد، وزيادة ﴿لَآ﴾ لتأكيد الكلام وتأكيد القسم، تقول: لا والله ما قلت كذا، أي والله. وهذا مستفيض في لغة العرب.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾ بينهما جناس اشتقاق، فكل من الوالد والولد مشتق من الولاد.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾ استفهام إنكاري للتوبيخ، وكذا قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾.

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ أي أقسم. ﴿بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ مكة. ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾ أي وأنت يا محمد حلال وحالّ مقيم فيه، أقسم سبحانه بالبلد الحرام، وحال كون النبي ﷺ مقيماً فيه، إظهاراً لمزيد فضله، وإشعاراً بأن شرف المكان بشرف أهله. وهذه الجملة وما بعدها اعتراض بين القسم والمقسم عليه وهو قوله بعدئذ: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤﴾.

﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾ أي وأُقسم بكل والد كآدم أو إبراهيم وغيرهما، وبكل مولود من أي شيء آخر، والمراد: أن الله أقسم ببلد النبي ﷺ الذي هو مسقط رأسه، وحرم أبيه إبراهيم، ومنشأ أبيه إسماعيل، وبمن ولد فيه. والتنكير للتعظيم، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ [آل عمران: ٣/٣٦] أي بأي شيء وضعت، يعني موضوعاً عظيم الشأن.

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ جنس الإنسان. ﴿فِي كَبَدٍ﴾ أي خلقناه مغموراً في مكابدة المشاق والشدائد، والتعب والنصب، والإنسان لا يزال في شدائد مبدؤها ظلمة الرحم ومضيقه، ومنتهاها الموت وما بعده، وهو تسلية وتثبيت للرسول ﷺ مما كان يكابده من قريش، وبَعْث له على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة، وتعجيب من حالهم في عداوته.

﴿أَيَحۡسَبُ﴾ أيظن الإنسان. ﴿أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ أي أنه يغتر بقوته، ويعتقد ألا أحد ينتقم منه، ولكن الله قادر عليه، كأبي الأشد بن كلَدة، فإنه كان يُبْسَط تحت قدمه أديم عكاظي، ويجذبه عشرة، فينقطع، ولا تَزِلّ قدماه. ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ۝٦﴾ أي وأنه يقول: أنفقت مالاً كثيراً، من تلبد الشيء: إذا اجتمع، على عداوة محمد، أو سمعة ومفاخرة. ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾ فيما أنفقه، فيعلم قدره، والله عالم بقدره، وأنه ليس مما يتكثر به، ومجازيه على فعله السيئ.

سبب النزول:

نزول الآية (٥):

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ﴾: روي أن هذه الآية: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾ نزلت في أبي الأشدّ بن كَلَدة الجُمَحي، الذي كان مغتراً بقوته البدنية. قال ابن عباس: كان أبو الأشدّين يقول: أنفقت في عداوة محمد مالاً كثيراً، وهو في ذلك كاذب.

نزول الآية (٦):

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ﴾ : قال مقاتل: نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل، أذنب، فاستفتى النبي ﷺ، فأمره أن يُكَفِّر، فقال: لقد ذهب مالي في الكفّارات والنفقات، منذ دخلت في دين محمد. وهذا القول منه يحتمل أن يكون استطالة بما أنفق، فيكون طغياناً منه، أو أسفاً عليه، فيكون ندماً منه.

التفسير والبيان:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾ أي أقسم بالبلد الحرام وهو مكة، تنبيهاً على كرامة أم القرى وشرفها عند الله تعالى؛ لأن فيها بيته الحرام قبلة المسلمين، وهي بلد إسماعيل ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وفيها مناسك الحج. وقوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ قسم مؤكد وليس نفياً للقسم، كقول العرب: لا والله لا فعلت كذا، ولا والله ما كان كذا، ولا والله لأفعلن كذا.

أُقسم بهذا البلد في حال كون الساكن فيها حلالاً مقيماً به، وهو محمد ﷺ، وكل من دخله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٧] تشريفاً لك، وتعظيماً لقدرك؛ لأنه قد صار بإقامتك فيه عظيماً شريفاً، ولا شك أن الأمكنة تشرف بأهلها. والحل: الحلال. ورد في الحديث المتفق على صحته:

«إن هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شجره، ولا يختلى خلاه، وإنما أُحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب».

والمراد أن مكة عظيمة القدر في كل حال، حتى في حال اعتقاد الكفار أنك حلال لا حرمة لك، فلا يرون لك من الحرمة ما يرونه لغيرك. وفي هذا تقريع وتوبيخ لهم.

وأقسم بكل والد ومولود من الإنسان والحيوان، تنبيهاً على عظم آية التناسل والتوالد، ودلالتها على قدرة الله وحكمته وعلمه.

ثم ذكر المقسم عليه، فقال:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ أي لقد خلقنا الإنسان مغموراً بالتعب والنصب، وفي مكابدة المشاقّ والشدائد، فهو لا يزال في تلك المكابدة بدءاً من الولادة، إلى المتاعب المعيشية والأمراض الطارئة، ثم إلى الموت وما يتبعه في قبره والبرزخ وآخرته من شدائد ومتاعب وأهوال.

وفيه تثبيت لرسول الله ﷺ، وحَمْله على احتمال مكائد أهل مكة، وصبره على المشاق والمتاعب، فذلك لا يخلو منه إنسان، وفيه لوم لهم على عداوته.

ثم وبخ الإنسان على الاغترار بقوته، فقال:

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾﴾ أي أيظن ابن آدم أن لن يقدر عليه، ولا ينتقم منه أحد، فإن الله هو القادر على كل شيء.

ثم لام الإنسان على الإنفاق مراءاة، فقال:

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾﴾ أي أنفقت مالاً كثيراً مجتمعاً بعضه على

بعض. والمراد أن الإنسان يقول في يوم القيامة: أنفقت مالاً كثيراً فيما كان يسميه أهل الجاهلية مكارم، ويدعونه معالي ومفاخر.

ثم عابه على جهله، فقال:

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾﴾ أي أيظن الإنسان والمدعي النفقة في سبيل الخير أن الله سبحانه لم يطلع عليه، ولا يسأله عن ماله من أين كسبه، وأين أنفقه؟

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - أقسم الله تعالى بالبلد الحرام - مكة أم القرى، وبالوالد والمولود كآدم وذريته، وكل أب وولده، وما يتوالده الحيوان، على أنه خلق الإنسان مغموراً في شدة وعناء من مكابدة الدنيا.

ولله أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته لتعظيمها، والمراد تعظيم البلد الحرام المشتمل على البيت العتيق، وكونه بلد إسماعيل ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ووجود مناسك الحج فيه ومنشأ كل بركة وخير، وتظل الحرمة لهذا البلد، وإن اعتقد كفار مكة أن محمداً ﷺ حلال لهم، لا حرمة له.

والقسم بالوالد والولد ونسلهم؛ لأنهم أعجب ما خلق الله تعالى على وجه الأرض؛ لما فيهم من التِّبيان والنطق والتدبير، وفيهم الأنبياء والدُّعاة إلى الله تعالى.

٢ً - وبخ الله تعالى الإنسان على بعض الأفكار والاعتقادات والتصورات، كظنه ألا قدرة لأحد عليه، وإنفاقه المال الكثير مراءاة، أو مضايقة من أداء الواجبات المالية الخيرية، وجهله بأن الله عالم به مطلع على جميع أقواله وأفعاله، وسائله عن ماله من أين كسبه، وفي أي شيء أنفقه؟

إن الله قادر على كل شيء من الإنسان والحيوان والجماد والنبات، عالم بقصد كل إنسان حين ينفق ما ينفق رياء وافتخاراً وحباً للانتساب إلى المعالي والمكارم، أو معاداة لرسول الله ﷺ، ويرى كل أحد فيما يعمل ويجني ويكتسب وينفق.

مبدأ الاختيار وطريق النجاة في الآخرة

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

القراءات:

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي (فكَّ رقبةً أو أَطْعَم).

﴿مُّؤْصَدَةٌۢ﴾:

قرأ أبو عمرو، وحفص، وحمزة، وخلف (مؤصدة)، وقرأ الباقون (موصدة).

الإعراب:

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾ أي لم يقتحم، و(لا) في الماضي مثل (لم) في المستقبل، كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ٣١] أي لم يصدق ولم يصلّ، وكقول الشاعر أبي خراش الهذلي:

إن تـغـفـر الـلـهـم تـغـفـر جمّـا وأي عــبـــد لــك لا ألمّـــا

أي لم يُلمّ.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا﴾ ﴿مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾: تقديره: ما اقتحام العقبة، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. و﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾: خبر مبتدأ محذوف، تقديره: اقتحامها فك رقبة. ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ﴾: عطف عليه، و﴿يَتِيمًا﴾: مفعول ﴿إِطۡعَٰمٞ﴾ وهو مصدر (أطعم) أي أن أطعم يتيماً.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ اسم كان: ضمير مستتر تقديره هو، أي ثم كان مقتحمها من الذين آمنوا. وإنما قال ﴿ثُمَّ﴾ وإن كان الإيمان مقدماً في الرتبة عن العمل؛ لأن ﴿ثُمَّ﴾ إذا عطفت جملة على جملة لا تفيد الترتيب، بخلاف ما إذا عطفت مفرداً على مفرد، فهي ليست هنا للتراخي في الزمان؛ إذ شرط الأعمال الحسنة الإيمان، وإنما التراخي في الذكر والبيان.

البلاغة:

﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ﴿٩﴾﴾ استفهام تقريري للتذكير بالنعم، أي جعلنا له، وفيه مراعاة الفواصل.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾ الاستفهام للتهويل والتعظيم. و﴿ٱلۡعَقَبَةُ﴾: استعارة تبعية لهذا العمل الشاق على النفس من حيث هو بذل مال، تشبيه بعقبة الجبل: وهو ما صعب منه، أي إن العقبة: الطريق الوعر في الجبل، استعير للأعمال الصالحة ذات المشقة.

﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴿١٠﴾﴾ استعارة، استعار النجدين لطريقي الخير والشر، أو السعادة والشقاوة، وأصل النجد: الطريق المرتفع.

﴿مَقۡرَبَةٍ﴾ و﴿مَتۡرَبَةٖ﴾ جناس ناقص لتغير بعض الحروف.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝١٨﴾ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ بينهما مقابلة.

المفردات اللغوية:

﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨﴾ يبصر بهما، أي جعلنا له. ﴿وَلِسَانًا﴾ يترجم به عما يريد ضميره. ﴿وَشَفَتَيۡنِ﴾ يستر بهما فاه، ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب وغيرها. ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠﴾ بينا له طريقي الخير والشر، أو السعادة والشقاوة، وأصل النجد: المكان المرتفع. ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١﴾ فهلا اجتازها أو دخلها بسرعة وشدة، والعقبة: الطريق الصعب في الجبل. والمراد: مجاهدة النفس لفعل الخير وترك الشر.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢﴾ وما أعلمك ما اقتحام العقبة؟ والجملة اعتراضية لتعظيم شأنها، أي لم تدر صعوبتها وثوابها. ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ إعتاقها من الرق، أو المعاونة عليه. ﴿ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾ مجاعة. ﴿ذَا مَقۡرَبَةٍ﴾ قرابة في النسب. ﴿ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾ ذا فقر، يقال: ترب فلان: إذا افتقر، أي أصبحت يده ملصقة بالتراب لفقره، والمراد: هم المطروحون على ظهر الطريق قعوداً على التراب، لا بيوت لهم. وإنما ذكر الإعتاق والإطعام لما فيهما من مجاهدة النفس.

﴿ثُمَّ﴾ عطف على ﴿ٱقۡتَحَمَ﴾ و﴿ثُمَّ﴾ للترتيب الذكري لا الزماني، والمعنى: وكان وقت الاقتحام مؤمناً. ﴿وَتَوَاصَوۡاْ﴾ أوصى ونصح بعضهم بعضاً. ﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾ على الطاعة، وعن المعصية. ﴿بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ الرحمة على الناس. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الصفات. ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ اليمين، وأصحاب طريق النجاة والسعادة. ﴿ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ الشمال، أصحاب طريق الشقاء. ﴿مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ مطبقة مغلقة عليهم.

المناسبة:

بعد توبيخ الإنسان وذمه على طبائع غريبة وعجيبة، أقام الله تعالى الدليل

على كمال قدرته بخلق الأعين واللسان والشفتين والعقل المميز بين الخير والشر، ومنحه الخيار للإنسان ليثبت ذاتيته، ويتحرر من عبودية أهوائه وشهواته، وليعرف البشر أنه تعالى مصدر لأفضل ما يتمتعون به من البصر والنطق والعقل.

ثم بيَّن الله تعالى أنه كان على الإنسان بعدئذ أن يشكر هذه النعم، ويختار طريق الخير والسعادة، فيبادر إلى الإيمان والعمل الصالح، ومنه إعتاق أو تحرير الرقاب، وإطعام الأيتام الأقارب والمساكين المحتاجين، والتواصي بالرحمة على الناس، وأدى اختيار الإنسان بالتالي إلى أن يكون من أحد الفريقين: أصحاب اليمين والسعادة ومآلهم إلى الجنة، وأصحاب الشمال والشقاوة ومآلهم إلى النار.

التفسير والبيان:

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾ أي ألم أمنحك أيها الإنسان الجاهل المغرور بقوتك، المرائي بعملك بإنفاق المال طلباً للشهرة والسمعة، أمنحك العينين اللتين تبصر بهما، واللسان الذي تنطق به، والشفتين اللتين تستر بهما ثغرك، وتستعين بهما على الكلام وأكل الطعام، وجمالاً لوجهك وفمك، والمراد أنني أنا الله الذي منحتك القدرة على البصر والنطق أو الكلام.

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ أي ألم نبين لك ونعرفك طريق الخير والشر، فأودعنا في فطرتك السليمة أداة التمييز بينهما، وجعلنا لك من العقل والفكر ما تستطيع به إدراك محاسن الخير، ومفاسد الشر وأبعاد كل منهما. وعبَّر عن هذين الطريقين بالنجدين: وهما الطريقان المرتفعان، للدلالة على صعوبتهما ووعورتهما، واحتياجهما إلى مجاهدة النفس لعبورهما بشدة وسرعة.

لذا أردفه ببيان وجوب اختيار الأفضل وشكر تلك النعم، فقال تعالى:

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾ أي فهلا نشط واخترق الموانع المانعة من طاعة الله، من تسويل النفس واتباع الهوى والشيطان، وهلا جاهد نفسه لاجتياز الطريق الصعب، وأي شيء أعلمك ما اقتحام العقبة؟ استفهام للتفخيم والتعظيم.

ثم أرشد إلى طريق اقتحامها فقال:

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾﴾ أي إن اقتحام العقبة ودخولها يكون بإعتاق الرقبة من العبودية، وتخليصها من إسار الرق، أو المعاونة عليه، أو إطعام في يوم المجاعة الذي يعز فيه الطعام اليتيم القريب: وهو الصغير الذي فقد أباه، وكان قريباً في نسبه من المطعم، أو إطعام المسكين المحتاج الذي لا شيء له، ولا قدرة على كسب المال لضعفه وعجزه، كأنه ألصق يده بالتراب، لفقد المال.

فمن حرر الرقبة أو أطعم اليتيم أو المسكين في يوم المجاعة، كان طائعاً لله، نافعاً عباده، فهو من أصحاب اليمين. وهذا مثل ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والهوى والشيطان.

قال الصاوي على الجلالين: إنما قيّد الإطعام بيوم المجاعة؛ لأن إخراج المال فيه أشد على النفس. وقد يستدل بقوله: ﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾﴾ للشافعي: أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير، وأنه قد يكون بحيث يملك شيئاً، وإلا وقع قوله: ﴿ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾ تكراراً. وقد استدل أبو حنيفة بتقديم العتق على أنه أفضل من الصدقة، وعند بعضهم بالعكس؛ لأن في الصدقة إنقاذ النفس من الهلاك؛ فإن الغذاء قوام البدن، وأما الفك فهو تخليص من القيد في الأغلب.

أخرج أحمد عن عُقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «من أعتق رقبة مؤمنة، فهي فكاكه من النار» . وأخرج أحمد أيضاً عن البراء بن عازب قال:

«جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، علِّمني عملاً يُدخلني الجنة، فقال: لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة، أعتق النَّسَمة، وفُكَّ الرَّقَبة، فقال: يا رسول الله، أو ليستا بواحدة؟ قال: لا، إن عتق النسمة: أن تنفرد بعِتْقها، وفكُّ الرقبة: أن تُعين في عِتْقها» .

وأخرج أحمد والترمذي والنسائي عن سَلْمان بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة» .

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ أي قام بالأفعال الخيرية السابقة بعد أن آمن بالله ورسوله وكتبه واليوم الآخر، فإن هذه القربات إنما تنفع بشرط الإيمان، فكان من جملة المؤمنين العاملين صالحاً: المتواصين بالصبر على أذى، وعلى الرحمة بهم، كما قال النبي ﷺ في الحديث الثابت: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمْكم من في السماء»[١] وفي الحديث الآخر: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله»[٢].

والصبر يكون أيضاً على طاعة الله، وعن المعاصي، وعلى المصائب والبلايا. والرحمة على عباد الله ترقق القلب، ومن كان رقيق القلب، عطف على اليتيم والمسكين، واستكثر من فعل الخير بالصدقة.

ثم ذكر الله تعالى جزاء هؤلاء مبشراً بهم، فقال:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾ أي أولئك المتصفون بهذه الصفات هم من أصحاب اليمين، وهم أصحاب الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الشيخان والترمذي عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

مَّسۡكُوبٖ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٢٧-٣٤] .

ثم ذكر أضداد هؤلاء للمقارنة والعبرة، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴿٢٠﴾﴾ أي والذين جحدوا بآياتنا التنزيلية والآيات الكونية الدالة على قدرتنا، هم أصحاب الشمال، وعليهم نار مطبقة مغلقة، وأصحاب الشمال هم أهل النار المشؤومة كما قال تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٤١-٤٤] .

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - جيء بآيات ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴿١٠﴾﴾ للتذكير بنعم الله تعالى على الإنسان من البصر والنطق والجمال والعقل والفكر المميز بين الحق والباطل وبيان طريقي الخير والشر، وللدلالة على كمال قدرة الله تعالى، ولبيان مبدأ اختيار الإنسان للإيمان والكفر أو السعادة والشقاوة أو الخير والشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٧٦/ ٣] .

٢ - إن هذه النعم تقتضي الشكر عليها والاستعداد للنجاة في الآخرة؛ بالإيمان والعمل الصالح الشامل للتواصي بالصبر على التكاليف الشرعية؛ بطاعة الله، وعن معصيته وعلى البلايا والمحن، والتواصي بالمرحمة على الخَلْق أي التعاطف والتراحم، وتحرير الرقاب (العبيد) وإطعام اليتامى والأرامل والمساكين. وإخراج المال في وقت القحط والضرورة والجوع أثقل على النفس، وأوجب للأجر، لذا قال: ﴿ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾ كقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ

حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٧] وقوله: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينًا﴾ [الإنسان: ٧٦/ ٨].

والإيمان شرط قبول هذه الأعمال الخيرية، وإنما أخر للترقية من الأدنى إلى الأعلى، والترتيب ذِكْري، لا زماني.

وهؤلاء أصحاب اليمين أهل الجنة، وهم الذين يُؤْتَون كتبهم بأيمانهم.

ويلاحظ أنه ذكر في باب الكمال أمرين: فك الرقبة والإطعام، والإيمان، وفي باب التكميل شيئين: التواصي بالصبر على الوظائف الدينية، والتواصي بالتراحم، وكل من النوعين مشتمل على تعظيم أمر الله، والشفقة على خلق الله، إلا أنه في الأول قدم جانب الخلق، وفي الثاني قدم جانب الحق(١).

٣ - ذكر الله تعالى للمقابلة والمقارنة والعظة أصحاب الشمال بعد أصحاب اليمين، والفريق الأول هم الذين كفروا بالقرآن، وهم الذين يأخذون كتبهم بشمائلهم، ومصيرهم إلى النار التي تطبق وتغلق أبوابها عليهم.

---

(١) تفسير الرازي: ٣١/ ١٨٧، غرائب القرآن: ٣٠/ ١٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشمس

مكية، وهي خمس عشرة آية

تسميتها:

سميت سورة الشمس لافتتاحها بالقسم الإلهي بالشمس المنيرة المضيئة لآفاق النهار.

مناسبتها لما قبلها:

ترتبط السورة بما قبلها من وجهين:

١ - ختم الله سبحانه سورة البلد بتعريف أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة، ثم أوضح المراد من الفريقين في سورة الشمس بعمل كل منهما حيث قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

٢ - أبان الله تعالى في آخر آيات السورة السابقة مصير أو مآل الكفار في الآخرة وهو النار، وذكر تعالى في أواخر هذه السورة عقاب بعض الكفار في الدنيا، وهو الهلاك، فاختتمت السابقة بشيء من أحوال الكفار في الآخرة، واختتمت هذه بشيء من أحوالهم في الدنيا.

ما اشتملت عليه السورة:

تضمنت هذه السورة الكلام عن موضوعين مهمين هما:

١ - الإقسام بالمخلوقات الكونية العظيمة في العالم العلوي والسفلي وآلة التفكر في ذلك وهو النفس على أحوال النفس الإنسانية، ودور الإنسان في تهذيبها، وتعويدها الأخلاق الفاضلة ليفوز وينجو، أو إهمالها وتركها بحسب هواها فيخيب.

٢ - ضرب المثل بثمود لمن دسَّى نفسه وأهملها، فتمادت في الطغيان، فنزل بها العقاب الشديد وأهلكها ودمرها عياناً في الدنيا.

والخلاصة: المقصود من هذه السورة الترغيب في الطاعات، والتحذير من المعاصي.

جزاء إصلاح النفس وإهمالها

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾

الإعراب:

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾﴾ الواو الأولى واو القسم، وسائر الواوات عطف عليها، وجواب القسم: إما مقدر، وهو لتبعثن، أو هو ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ أي لقد أفلح من زكاها، وحذفت اللام لطول الكلام. وقال الزمخشري: تقدير الجواب: ليدمدمن الله على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله ﷺ كما دمدم على ثمود، أي أطبق عليهم العذاب؛ لأنهم كذبوا صالحاً، وأما ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ فكلام تابع لقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم في شيء.

﴿إِذَا﴾ في المواضع الثلاثة لمجرد الظرفية والعامل فيها فعل القسم.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ ﴿وَمَا﴾ إما مصدرية، أيْ وبنائها، أو بمعنى الذي، أي والذي بناها، وهو الأحسن، أو بمعنى (مَنْ) أي ومن بناها، وقد جاءت (ما) بمعنى (من) قال أهل الحجاز للرعد: سبحان ما سبَّحتَ له، أي سبحان من سبَّحت له.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ ﴿دَسَّىٰهَا﴾ أصله: دسَّسَها، فاجتمعت الأمثال، فوجد الاستثقال، فأبدل من السين الأخيرة ياء، كما قالوا: قصَّيت أظفاري، في قصصت، فصار (دسيها) ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها.

البلاغة:

﴿وَٱلشَّمْسِ﴾ ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾ بينهما طباق، وكذا بين ﴿وَٱلَّيْلِ﴾ ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾ وبين ﴿فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ مقابلة بينها وبين ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾ وكذا بين ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ وبين ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾. والطباق والمقابلة من المحسنات البديعية، كما هو معروف.

في السورة كلها سجع مرصع، وهو توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿وَضُحَىٰهَا﴾ قال مجاهد: هو ارتفاع الضوء وكماله، وقال أبو حيان: المعروف في اللغة أن الضحى هو بعيد طلوع الشمس قليلاً، فإذا زاد فهو الضَّحاء - بالمد وفتح الضاد: إلى الزوال. ﴿تَلَىٰهَا﴾ تبعها، أي إن القمر يتبع الشمس طالعاً عند غروبها. ﴿جَلَّىٰهَا﴾ أي جلّى الشمس وكشفها وأتم وضوحها.

﴿يَغْشَاهَا﴾ يغشى الشمس فيغطي ضوءها بظلمته، أي يزيله ويحجبه. ﴿وَالسَّمَاءِ﴾ كل ما علاك وارتفع فوق رأسك فهو سماء، والمراد به الكون الذي فوقك، وفيه الكواكب. ﴿وَمَا بَنَاهَا﴾ أي ومن رفعها، وجعل كل كوكب بمنزلة لبنة من بناء سقف، قال الزمخشري والبيضاوي: وإنما أوثرت (ما) على (من) لإرادة معنى الوصفية كأنه قيل: والسماء والقادر العظيم الذي بناها. ﴿طَحَاهَا﴾ بسطها، مثل دحاها.

﴿سَوَّاهَا﴾ أحكم خلقتها وتسويتها وتعديل أعضائها بخلق القوى والغرائز فيها، وجعل وظيفة لكل منها. ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ عرَّفها وأفهمها، وبيَّن لها طريق الخير والشر. والفجور: الفسوق والشر وكل ما يؤدي إلى الخسارة والهلاك. والتقوى: التزام جادة الاستقامة، وإتيان ما يحفظ النفس من سوء العاقبة.

﴿أَفْلَحَ﴾ فاز ونجا وأدرك المطلوب. ﴿مَن زَكَّاهَا﴾ طهرها من الذنوب، وهذَّبها ونمَّاها بالعلم والعمل، وهو جواب القسم. ﴿خَابَ﴾ خسر. ﴿دَسَّاهَا﴾ أهمل تهذيبها، والتدسية: النقص والإخفاء، فمن فعل الشر والمعصية، أنقص نفسه عن مرتبة الكمال، وأخفاها بالذنوب والمعاصي، وهي ضدّ التزكية.

التفسير والبيان:

أقسم الله تعالى في مطلع هذه السورة بسبعة أشياء، فقال:

١ - ٢ - ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾﴾ أي أقسم بالشمس المضيئة نفسها، سواء غابت أم طلعت؛ لأنها شيء عظيم، أبدعها الله، وأقسم بضوئها وضحاها، وهو وقت ارتفاع الشمس بعد طلوعها إذا تمّ ضَوءُها؛ لأنه مبعث حياة الأحياء.

وأقسم بالقمر المنير إذا تبع الشمس في الطلوع بعد غروبها، وبخاصة في

الليالي البيض: وهي الليالي الثالثة عشرة إلى السادسة عشرة وقت امتلائه وصيرورته بدراً بعد غروب الشمس إلى الفجر. وهذا قسم بالضوء وقت الليل كله.

٣ - ٤ - ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾ أي وأقسم بالنهار إذا جلّى الشمس وكشفها وأظهر تمامها، ففي اكتمال النهار كمال وضوح الشمس، وأقسم بالليل إذا يغشى الشمس ويغطي ضوءها بظلمته، فيُزيل الضوء وتغيب الشمس، وتظلم الدنيا في نصف الكرة الأرضية، ثم تطلع في النصف الآخر.

وفي هذا التبدل والتغير ردّ على المشركين الذين يؤلهون الكواكب، والثنوية الذين يقولون بأن للعالم إلهين اثنين: النور والظلمة؛ لأن الإله لا يغيب ولا يتبدل حاله.

وبعد التنويه بعظم هذه الأشياء الكونية، ذكر الله تعالى صفات حدوثها، فقال:

٥ - ٦ - ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾ أي وأقسم بالسماء وبناء الله تعالى لها بالكواكب، كأن كل كوكب لبنة في سقف، أو قُبَّة تحيط بالأرض وأهلها. وأقسم بالأرض كوكب الحياة البشرية، والذي بسطها من كل جانب، وجعلها ممهدة موطأة للسكنى مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠﴾ [النازعات: ٧٩/ ٣٠] أي بسطها، والطحو كالدحو وهو البسط، ثم مكَّن الناس من الانتفاع بها ظاهراً بالنبات، وباطناً بالمعادن والثروات. ونظير الآية: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢].

وختم الأشياء المحلوف بها بالنفس البشرية التي خلقت هذه الأشياء من أجلها، وكونها أداة الانتفاع بها ووسيلة ترقي الحياة وتقدمها، فقال:

٧ - ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ أي وأقسم بالنفس الإنسانية، والذي خلقها سوية، مستقيمة، على الفطرة القويمة، وتسويتها: إعطاء قواها بحسب حاجتها إلى تدبير البدن، وهي الحواس الظاهرة والباطنة، والقوى الطبيعية، أي تعديل أعضائها، وتزويدها بطاقات وقوى ظاهرية وباطنية متعددة، وتحديد وظيفة لكل عضو فيها.

ثم إنه تعالى عرّف هذه النفس وأفهمها ما هو شر وفجور، وما هو خير وتقوى، وما فيهما من قبح وحسن، لتمييز الخير من الشر، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٩٠/١٠] أي علمناه وعرفناه سلوك طريقي الخير والشر. ويعضده ما بعده: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾. وهذا قول المعتزلة، وقال أهل السنة: الضميران في قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ وقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ﴾ لله تعالى، والمعنى: قد سعدت نفس زكاها الله تعالى، وخلقها طاهرة، وخابت نفس دسّاها الله، وخلقها كافرة فاجرة[١].

والظاهر التفسير الأول، بدليل ما قال ابن كثير: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾: أي فأرشدها إلى فجورها وتقواها، أي بيّن لها ذلك، وهداها إلى ما قُدِّر لها[٢]. وقال ابن عباس: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ بيّن لها الخير والشر[٣]. وهذا دليل على مبدأ الاختيار للإنسان.

ثم ذكر الله تعالى جزاء ما تختاره النفس، فقال:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ أي قد فاز بكل مطلوب، وظفر بكل محبوب من زكى نفسه فهذبها ونمَّاها وأعلاها بالتقوى والعمل الصالح، وقد خسر من أضل نفسه وأغواها وأهملها وأخملها، ولم

---

(١) وهذا قول سعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومقاتل والكلبي.

(٢) تفسير ابن كثير: ٥١٦/٤

(٣) المرجع السابق، وهذا أيضاً قول مجاهد وقتادة والضحاك والثوري.

يهذبها، ولم يتعهدها بالطاعة والعمل الصالح. وهذا جواب القسم الذي افتتحت به السورة.

روى الطبراني عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا مرَّ بهذه الآية: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ وقف وقال: «اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وخير من زكاها».

وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ قال: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها».

وروى الإمام أحمد عن عائشة: أنها فقدت النبي ﷺ من مضجعه، فلمسته بيدها، فوقعت عليه، وهو ساجد، وهو يقول: «رب أعطِ نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكّاها، أنت وليها ومولاها».

وروى أحمد ومسلم عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والهرم والجبن والبخل وعذاب القبر، اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكَّاها، أنت وليها ومولاها. اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، وعلم لا ينفع، ودعوة لا يستجاب لها» قال زيد: كان رسول الله ﷺ يعلمناهن، ونحن نعلمكموها.

فقه الحياة أو الأحكام:

أقسم الله تعالى بسبعة أشياء: لقد أفلح وفاز من زكى نفسه بالطاعة، وخسرت نفس أهملها صاحبها وتركها تنغمس في المعصية.

والأشياء السبعة: هي الشمس وضوءُها وإشراقها، وهو قسم ثان، والقمر إذا تبع بالطلوع الشمس بعد غروبها، فاستوى واستدار، وكان مثلها

في الضياء والنور، والنهار إذا جلّى أو كشف الشمس، أي أبان بضوئه جِرْمها، والليل إذا يغشى الشمس، أي يذهب بضوئها عند غروبها، والسماء وبنيانها وبانيها وهو الله، والأرض ومن طحاها أي بسطها، والنفس الإنسانية وتسويتها ومن سوّاها وهو الله عز وجل، بأن عدَّلها وزوَّدها بالأعضاء المتناسبة، وبالقوى العضلية والفكرية والحسية، وعرَّفها طريق الفجور والتقوى، وسلوك سبيل الخير والشر، والطاعة والمعصية.

وقد أقسم الله عز وجل بهذه المخلوقات لما فيها من عجائب الصنعة الدالة عليه، وأراد أن ينبه عباده دائماً بأن يذكر في القسم أنواع مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة، حتى يتأمل المكلف فيها، ويشكر عليها؛ لأن الذي يقسم الله تعالى به يحصل له وقع في القلب، فتكون الدواعي إلى تأمله أقوى[(١)].

العظة بقصة ثمود

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾

القراءات:

﴿وَلَا يَخَافُ﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر (فلايخاف).

الإعراب:

﴿فَسَوَّىٰهَا ، وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ سوَّاها: تعود على الدمدمة، ﴿وَلَا

(١) تفسير الرازي: ٣١/١٨٨

﴿يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ في موضع نصب على الحال، وتقديره: سوّاها غير خائف عاقبتها.

البلاغة:

﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ الإضافة للتكريم والتشريف.

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾ تهويل، فالتعبير بالدمدمة يدل على هول العذاب.

المفردات اللغوية:

﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾ أي بسبب طغيانها، والطغوى والطغيان: تجاوز الحد المعتاد. ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ﴾ حين أسرع أو قام، وهو ظرف لكذّبت أو طغوى. ﴿أَشْقَىٰهَا﴾ أشقى ثمود، وهو قُدَارُ بن سالف، الشخص الذي عقر الناقة. ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ صالح عليه السلام. ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ أي ذروا ناقة الله، واحذروا التعرض لها وعقرها. ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾ شِرْبها الخاص بها في يومها، فلا تذودوها عنها. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما حذرهم من حلول العذاب إن فعلوا. ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ نحروها أو ذبحوها. ﴿فَدَمْدَمَ﴾ فأطبق عليهم العذاب. ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ سوى الدمدمة عليهم أي عمهم بها، فلم يفلت منها صغير ولا كبير. ﴿عُقْبَٰهَا﴾ عاقبتها وتبعتها. أي عاقبة الدمدمة.

المناسبة:

بعد الحلف بأشياء عظيمة على فوز من زكّى نفسه وهذبها وطهرها من الذنوب، وخيبة وخسار من أهملها وتركها تعيث في الأرض فساداً بفعل المعاصي، وترك فعل الخير، وعظهم الله تعالى بقصة ثمود، لقربها من ديار العرب، ليحذروا معاندة الرسول ﷺ وتكذيبه، وإلا حلّ بهم ما حلّ بأمثالهم من الأمم السابقة.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحاً عليه السلام، بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي، فيقول:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾ أي كذبت قبيلة ثمود نبيها صالحاً عليه السلام بسبب طغيانها وبغيها، فإنه الذي حملها على التكذيب. والطغيان: مجاوزة الحد في المعاصي.

وذلك حين قام أشقى ثمود، وهو قُدار بن سالف، أحيمر ثمود، فعقر الناقة، بتحريض قومه ورضاهم بما يفعل، فكان عقرها دليلاً على تكذيبهم جميعاً لنبيهم، وبرهاناً على صدق رسالته إذ حلّ بهم العذاب الذي أوعدهم به.

ونظير الآية: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [القمر: ٥٤/٢٩] . وكان أشقى ثمود عزيزاً فيهم، شريفاً في قومه، نسيباً رئيساً مطاعاً، كما ذكر أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عبد الله بن زَمْعة قال: خطب رسول الله ﷺ، فذكر الناقة، وذكر الذي عقرها، فقال: «إذ انبعث أشقاها، انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه، مثل أبي زمعة» .

ثم يذكر الله تعالى ما توعدهم به رسولهم على فعلهم، فيقول:

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾ أي فقال لهم -أي للجماعة الأشقياء- النبي صالح عليه السلام: ذروا ناقة الله واحذروا التعرض لها أو أن تمسوها بسوء، واتركوها وتناولها شِرْبها من الماء المخصص لها، فإن لها شرب يوم، ولكم شرب يوم معلوم، ولا تتعرضوا لها يوم شربها.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ أي فكذبوه في تحذيره إياهم من العذاب، ولم يبالوا بما أنذرهم به من العقاب، فعقر الأشقى الناقة، وجميع قومه رضوا بما فعل. أو كذبوه فيما جاءهم به، فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التي أخرجها الله لهم من الصخرة آية لهم وحجة عليهم.

ثم يبين ما عوقبوا به، فيقول:

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا، وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾ أي فأطبق عليهم العذاب وأهلكهم، وغضب عليهم فدمر عليهم، فسوّى الدمدمة عليهم، وعمَّهم بها، أي فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء، فاستوت على صغيرهم وكبيرهم. قال قتادة: بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، فلما اشترك القوم في عقرها، دمدم الله عليهم بذنبهم، فسواها.

وقد فعل الله ذلك بهم، وأهلكهم، غير خائف هذا الأشقى من عاقبة ولا تبعة، أي فإنه تجرأ على عقر الناقة دون أن يخاف الذي عقرها عاقبة إهلاك قومه، وعاقبة ما صنع، والمراد بذلك أنه أقدم على عقرها، وهو كالآمن من نزول الهلاك به وبقومه.

وقال ابن عباس: لا يخاف الله من أحد تبعة. قال ابن كثير: وهذا القول أولى لدلالة السياق عليه. وقال أبو حيان: الظاهر عود الضمير إلى أقرب مذكور، وهو ﴿رَبُّهُم﴾ أي لا دَرَك عليه تعالى في فعله بهم، لا يسأل عما يفعل، قال ابن عباس والحسن، وفيه ذم لهم وتعقبة لآثارهم. والمراد أن الله لا يخاف عاقبة ما فعل بهم؛ لأنه عادل في حكمه. وقال الزمخشري: ولا يخاف الله عاقبتها وتبعتها، كما يخاف كل معاقب من الملوك، فيبقي بعض الإبقاء. ويجوز أن يكون الضمير لثمود، على معنى: فسوّاها بالأرض أو في الهلاك، ولا يخاف عقبى هلاكها.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذا خبر قاطع من الله العلي القدير، أخبرنا به عن قبيلة ثمود التي تجاوزت الحد بطغيانها وهو خروجها عن الحد في العصيان. وذلك حين نهض أشقاها لعقر الناقة، واسمه قُدار بن سالف.

ولكنَّ رسولهم صالحاً عليه السلام حذرهم عاقبة فعلهم، وقال لهم: احذروا عقر ناقة الله، وذروها، كما قال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧/٧٣] وذروها وشِرْبها المخصص لها في يومها. فإنهم لما اقترحوا الناقة، وأخرجها الله لهم من الصخرة، جعل لهم شِرْب يوم من بئرهم، ولها شِرْب يوم مكان ذلك، فشقَّ عليهم.

وكذبوا صالحاً عليه السلام في قوله لهم: «إنكم تُعَذَّبون إن عقرتموها» فعقرها الأشقى، وأضيف العقر إلى الكل بقوله: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ لأنهم رضوا بفعله.

والجُرْم وهو العَقْر وتكذيب النبي يستدعيان بلا شك عقاباً صارماً، فكان العقاب أن أهلكهم الله، وأطبق عليهم العذاب بذنبهم الذي هو الكفر والتكذيب والعَقْر، وسوَّى عليهم الأرض، أو سوى الدمدمة والإهلاك عليهم؛ لأن الصيحة أهلكتهم فأتت على صغيرهم وكبيرهم.

والعبرة من ذلك أن الله فعل بهم ما فعل غير خائف أن تلحقه تبعة الدمدمة من أحد، كما قال ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد. وهاء ﴿عُقْبَٰهَا﴾ ترجع إلى الفَعْلة. وقال السدّي والضحاك والكلبي: ترجع إلى العاقر، أي لم يخف الذي عقرها عقبى ما صنع.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الليل

مكية، وهي إحدى وعشرون آية

تسميتها:

سميت سورة الليل لافتتاحها بإقسام الله تعالى بالليل إذا يغشى، أي يغطي الكون بظلامه، ويستر الشمس والنهار والأرض والوجود بحجابه.

مناسبتها لما قبلها:

لما ذكر في سورة الشمس قبلها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ ذكر هنا من الأوصاف ما يحصل به الفلاح، وما تحصل به الخيبة بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ فهي كالتفصيل لما قبلها.

ولما كانت سورة الليل نازلة في بخيل، افتتحت بالليل الذي هو ظلمة.

ما اشتملت عليه السورة:

محور السورة سعي الإنسان وعمله وجزاؤه في الآخرة.

افتتحت السورة بالقسم بالليل والنهار وخالق الذكر والأنثى على أن عمل الناس مختلف، فمنهم التقي ومنهم الشقي، ومنهم المؤمن ومنهم الفاجر: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾﴾ [الآيات: ١-٤].

ثم أوضحت أن الناس فريقان، وحددت منهج وطريق كل فريق، وجزاء كل منهم في الآخرة: أهل الإيمان والسعادة والجنة: وهم الذين بذلوا المال وصدقوا بوعد الله في الآخرة، وأهل الكفر والشقاوة والنار: وهم الذين بخلوا بالأموال واستغنوا عن ربهم عز وجل، وأنكروا ما وعد الله به من الجنة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥﴾ [الآيات: ٥-١٠] .

وأعقبت ذلك ببيان عدم جدوى المال في الآخرة، وأن الله واضع دستور الهداية، وأنه مالك الدنيا والآخرة: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾ [الآيات: ١١-١٣].

ودلّ هذا التحذير من عذاب الله والإنذار بالنار على أنه العقاب المستحق لكل من كذب بآيات الله تعالى وبرسوله ﷺ: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤﴾ [الآيات: ١٤-١٦] .

يبذل ماله في طرق الخير مخلصاً لوجه الله، دون قصد مكافأة أحد، ولا لمصلحة دنيوية عند إنسان، وذلكم المثال هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧﴾ [الآيات: ١٧-٢١] .

فضلها:

تقدم حديث جابر في الصحيحين أن النبي ﷺ قال لمعاذ: «فهلاً صَلَّيتَ بـ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾» .

اختلاف مسعى الناس

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾

الإعراب:

﴿إِذَا يَغۡشَىٰ﴾، ﴿إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ ﴿إِذَا﴾ في الموضعين: لمجرد الظرفية، والعامل فيها فعل القسم.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣﴾ (ما) : فيها ثلاثة أوجه كما في السورة السابقة.

﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ إما أن تكون مصدرية، أو بمعنى الذي وهو الأولى، أو بمعنى (مَنْ). ويجوز الجر في الذكر والأنثى على البدل من (ما).

﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ جواب القسم.

﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ﴾ (ما): نافية.

البلاغة:

﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ و﴿وَٱلنَّهَارِ﴾ بينهما طباق، وكذا بين ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ وبين (اليسرى، والعسرى) وبين ﴿وَصَدَّقَ﴾ و﴿وَكَذَّبَ﴾.

﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧﴾ و﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠﴾ بينهما مقابلة، والمقابلة والطباق من المحسنات البديعية.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ بينهما جناس اشتقاق.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾﴾ حذف المفعول لإفادة التعميم وإطالة التأمل.

المفردات اللغوية:

﴿يَغْشَىٰ﴾ يغطي كل شيء بظلامه. ﴿تَجَلَّىٰ﴾ ظهر وانكشف. ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ أي والقادر الذي خلق آدم وحواء وكل ذكر وأنثى في الإنسان والحيوان والنبات. ﴿سَعْيَكُمْ﴾ عملكم أو مسعاكم. ﴿لَشَتَّىٰ﴾ مختلف متفرق، جمع شتيت: وهو المتباعد عن غيره. واختلاف المنهج والمسعى إما بالعمل للجنة بالطاعة، أو للنار بالمعصية.

﴿أَعْطَىٰ﴾ بذل المال. ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ التزم الأوامر وفعل الخير، واجتنب النواهي والشر. ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾﴾ بالكلمة أو الخصلة الحسنى - صفة تأنيث الأحسن، وهي كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، والجنة والثواب، وكل فضيلة. ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ نهيئه للحالة التي هي أيسر عليه وأهون والتي تؤدي إلى الخير، وذلك في الدنيا والآخرة، كدخول الجنة.

﴿بَخِلَ﴾ أمسك المال وشحّ به ولم يؤد حق الله فيه. ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ عن ربه عز وجل وعن الثواب. ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ نهيئه للحالة السيئة في الدنيا والآخرة التي لا تنتج إلا شراً. ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ﴾ لا يفيده ماله وغناه. ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ هوى وسقط في النار أو في القبر.

سبب النزول:

نزول الآية (٥):

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾: أخرج ابن جرير والحاكم عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: كان أبو بكر رضي الله عنه يعتق على الإسلام بمكة، فكان يعتق عجائز

ونساء إذا أسلمن، فقال له أبوه (أبو قحافة): أي بني! أراك تعتق أناساً ضعفاء، فلو أنك تعتق رجالاً جلداء، يقومون معك، ويمنعونك، ويدفعون عنك، فقال: أي أبتِ، إنما أريد ما عند الله، فنزلت هذه الآيات فيه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥﴾ إلى آخر السورة.

نزول الآية (٨):

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾: قال ابن عباس: نزلت في أمية بن خَلَف.

التفسير والبيان:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣﴾ أي أقسم بالليل حين يغطي بظلامه كل ما كان مضيئاً، وبالنهار متى ظهر وانكشف ووضح، لزوال ظلمة الليل، والقادر العظيم الذي خلق الذكر والأنثى من جميع الأجناس، من الناس وغيرهم، كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨﴾ [النبأ: ٧٨/٨].

ولم يذكر مفعول ﴿يَغْشَىٰ﴾ للعلم به، وقيل: يغشى النهار، أو الخلائق أو الأرض أو كل شيء بظلمته.

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ هذا هو المحلوف عليه جواب القسم، أي إن أعمال العباد مختلفة متباعدة، فمن فاعل خيراً، ومن فاعل شراً، وبعض الأعمال ضلال وبعضها هدى، وبعضها يوجب الجنة، وبعضها يوجب النار.

ويقرب من هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝٢٠﴾ [الحشر: ٥٩/٢٠] وقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ ۝١٨﴾ [السجدة: ٣٢/١٨] وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١﴾ [الجاثية: ٤٥/٢١].

ثم فصل أحوال الناس وقسمهم فريقين، فقال:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ أي فأما من بذل ماله في وجوه الخير، واتقى محارم الله التي نهى عنها، وصدق بموعود الله الذي وعده عوضاً عن الإيمان والنفقة الخيرية، فإنا نسهل عليه كل ما كلِّف به من الأفعال والتروك، ونهيئه للخطة السهلة التي تؤدي به إلى الخير، ونيسر له الإنفاق في سبيل الخير والعمل بطاعة الله.

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝١١﴾ أي وأما من بخل بماله، فلم يبذله في سبل الخير، واستغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة، وزهد في الأجر والثواب وفضل الله، وكذَّب بالجزاء في الدار الآخرة، فسنهيئه للخصلة العسرى والطريقة الصعبة التي لا تنتج إلا شراً، حتى تتعسر عليه أسباب الخير والصلاح، ويضعف عن فعلها، حتى يصل إلى النار، ولا يغني عنه شيئاً ماله الذي بخل به، إذا سقط في جهنم. ويلاحظ أن التيسير والبشارة في الأصل على الشيء المفرح والسّار، لكن إذا جمع في الكلام بين خير وشر، جاء التيسير والبشارة فيهما جميعاً.

أخرج البخاري ومسلم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغَرْقَد في جنازة، فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة، ومقعده من النار، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل؟ فقال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾. وهناك أحاديث كثيرة في هذا المعنى[١].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير: ٤/٥١٨-٥١٩

فقه الحياة أو الأحكام:

أقسم الله عز وجل بالليل حينما يغطّي كل شيء بظلامه، وبالنهار إذا انكشف ووضح وظهر، وبالذي خلق الذكر والأنثى؛ فيكون قد أقسم بنفسه عز وجل، على أن عمل الناس مختلف في الجزاء، فبعضهم مؤمن وبر، وكافر وفاجر، ومطيع وعاص، وبعضهم في هدى أو في ضلال، وبعضهم ساعٍ في فَكاك نفسه من النار، وبعضهم بائع نفسه فموبقها في المعاصي، كما ذكر الثعلبي من قوله ﷺ: «الناس غاديان: فبائع نفسه فمعتِقها، أو موبقها».

ثم أوضح سبحانه معنى اختلاف الأعمال المذكور من العاقبة المحمودة والمذمومة، والثواب والعقاب، وذكر فريقين:

الأول - من بذل ماله في سبيل الله، وأعطى حق الله عليه، واتقى المحارم والمنكرات، وصدَّق بوعد الله بالعوض على عطائه، فالله يهيئ له الطريق اليسرى السهلة للوصول إلى غايته، ويرشده لأسباب الخير والصلاح، حتى يسهل عليه فعلها. جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ومَلَكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعطِ منفقاً خَلَفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تَلَفاً».

والثاني - من ضنَّ بما عنده، فلم يبذل خيراً، وكذلك بتعويض الله، فالله يسهل طريقه للشر، ويعسّر عليه أسباب الخير والصلاح، حتى يصعب عليه فعلها.

قال العلماء: ثبت بهذه الآية: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ وبقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣] وقوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٤] إلى غير ذلك من الآيات أن الجود من مكارم الأخلاق، والبخل من أرذلها، والجواد: هو الذي يعطي في موضع العطاء، والبخيل: هو الذي يمنع في موضع العطاء، فكل من استفاد بما

يعطي أجراً وحمداً، فهو الجواد، وكل من استحق ذماً أو عقاباً، فهو البخيل، والمسرف المذموم، وهو من المبذِّرين الذين جعلهم الله إخوان الشياطين، وأوجب الْحَجْر عليهم[1].

ولا يفيد هذا البخيل ماله إذا مات أو صار في القبر أو سقط في جهنم.

قد أعذر من أنذر

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾

الإعراب:

﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ بدل من ﴿يُؤْتِي﴾ أو حال من فاعله.

﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ ﴿ابْتِغَاءَ﴾ منصوب لأنه استثناء منقطع، وهو قول أكثر النحويين؛ لأن الابتغاء ليس من جنس النعمة، أي لكن ابتغاء.

البلاغة:

﴿الْأَشْقَى﴾ و﴿الْأَتْقَى﴾ بينهما طباق.

﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾ ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾ سجع رصين غير متكلف.

---

(١) تفسير القرطبي: ٢٠/ ٨٤-٨٥

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ علينا الإرشاد إلى الحق، بموجب قضائنا، أو بمقتضى حكمتنا. ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ أي لله الآخرة والدنيا، نعطي ما نشاء لمن نشاء، فمن طلبهما من غيرنا فقد أخطأ، ولا يضرنا ترك الاهتداء. ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ خوفتكم. ﴿تَلَظَّىٰ﴾ تتلظى أي تتوقد وتتلهب. ﴿لَا يَصْلَاهَا﴾ لا يدخلها ولا يحترق بها إلى الأبد. ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾ الشقي الكافر كأبي جهل وأمية بن خلف، أما الفاسق وإن دخلها فلا يلزمها.

﴿كَذَّبَ﴾ كذب النبي فيما جاء به. ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أعرض عن الإيمان والطاعة لربه. ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ يبعد عنها. ﴿الْأَتْقَى﴾ التقي الذي اتقى الكفر والمعاصي. ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ يتطهر بأن يخرجه لله تعالى، لا رياء ولا سمعة، فيكون زاكياً عند الله. ﴿تُجْزَىٰ﴾ تكافأ وتجازى. ﴿إِلَّا﴾ لكن فعل ذلك. ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ أي طلب ثواب الله. ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ بما يعطاه من الثواب في الجنة. والآية تشمل كل من فعل مثل هذا، فيبعد عن النار ويثاب.

سبب النزول:

نزول الآية (١٧):

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن عروة: أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة، كلهم يعذب في الله، وفيه نزلت: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾ إلى آخر السورة.

نزول الآية (١٩):

﴿وَمَا لِأَحَدٍ﴾ : روى عطاء عن ابن عباس قال: إن بلالاً لما أسلم، ذهب إلى الأصنام فسلح عليها، وكان عبداً لعبد الله بن جُدْعان، فشكا إليه المشركون ما فعل، فوهبه لهم، ومئة من الإبل ينحرونها لآلهتهم، فأخذوه

وجعلوا يعذبونه في الرمضاء، وهو يقول: أَحَدٌ أَحَدٌ، فمرَّ به رسول الله ﷺ فقال: ينجيك أحدٌ أحدٌ. ثم أخبر رسول الله ﷺ أبا بكر: أن بلالاً يعذّب في الله، فحمل أبو بكر رطلاً من ذهب، فابتاعه به.

فقال المشركون: ما فعل أبو بكر ذلك إلا ليد كانت لبلال عنده، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾[1].

وأخرج البزار عن ابن الزبير قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾﴾ إلى آخرها، في أبي بكر الصديق.

المناسبة:

بعد أن عرّف الله تعالى أن سعي الناس شتى في العواقب، وبيّن ما للمحسن من اليسرى، وما للمسيء من العسرى، أخبر أنه قد قام بما عليه من البيان والدلالة، والترغيب والترهيب، والإرشاد والهداية، وأعلم أنه مالك الدنيا والآخرة، ولا يزيد في ملكه اهتداء الناس، ولا يضره ترك اهتدائهم بهداه، ويعطي ما يشاء لمن يشاء، فتطلب سعادة الدارين منه.

ثم أنذر الناس جميعاً بعذاب النار، وأبان من يصلاها ويحترق بها، ومن يبعد عنها ويسلم من عذابها، وقد أعذر من أنذر.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ أي علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال، والحلال من الحرام، والحق من الباطل، والخير من الشر، من طريق الأنبياء وإنزال الكتب التي فيها تشريع الأحكام، وتبيان العقائد والعبادات والأخلاق وأنظمة المعاملات.

---

(١) أسباب النزول للنيسابوري: ص ٢٥٥ وما بعدها.

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ أي لنا كل ما في الآخرة، وكل ما في الدنيا، نتصرف به كيف نشاء، فمن أراد شيئاً من الدارين، فليطلبه منا، نهب ونعطي ما نشاء لمن نشاء، ولا يضرنا ترك الاهتداء بهدانا، ولا يزيد في ملكنا اهتداؤهم، بل نفع ذلك وضره عائدان عليكم أيها الناس. ومن ملك الدنيا والآخرة وكان هو المتصرف فيهما، كان هديه وشرعه هو الذي يجب اتباعه.

ثم حذر من سلوك طريق النار، فقال:

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ أي لقد خوفتكم ناراً عظيمة شديدة تتوهج وتتلهب، لا يدخلها ويذوق حرها إلا الكافر الذي كذب الحق الذي جاءت به الرسل، وكذب رسول الله ﷺ فيما جاء به عن ربه، وأعرض عن الإيمان بالله واتباع شرائعه وأحكامه، وطاعة أوامره.

وأبان سبيل النجاة من النار، فقال:

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ أي وسيباعد عن النار المتقي للكفر والمعاصي اتقاء بالغاً، قال الواحدي كما مرَّ: الأتقى أبو بكر الصديق في قول جميع المفسرين، أي إنها نزلت فيه، وإلا فحكمها عام.

وهذا الأتقى هو الذي ينفق ماله ويعطيه في وجوه الخير، طالباً أن يكون عند الله زكياً متطهراً نقياً من الذنوب، لا يريد بذلك رياء ولا سمعة، ولا مديحاً وثناء من الناس.

روى الإمام أحمد والبخاري عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: رجل توضع في أخمص قدميه جَمْرتان يغلي منهما دماغه».

وروى مسلم الحديث بلفظ آخر: «إن أهون أهل النار عذاباً: من له نعلان

وشراكان من نار يغلي منهما دماغه، كما يغلي المرجل، ما يريد أن أحداً أشد منه عذاباً، وإنه لأهونهم عذاباً» .

وروى أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار إلا شقي، قيل: ومن الشقي؟ قال: الذي لا يعمل بطاعة ولا يترك لله معصية» .

وروى أحمد أيضاً والبخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى» .

ثم ذكر صفة الإخلاص في العمل، فقال:

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ أي لا يتصدق بماله مقابل نعمة لأحد من الناس عليه، يكافئه عليها، وإنما يريد بذلك طلب رضوان الله ومثوبته، لا لمكافأة نعمة، وتالله لسوف يرضى بما نعطيه من الكرامة والجزاء العظيم.

جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله، دعته خزنة الجنة: يا عبد الله! هذا خير، فقال أبو بكر: يا رسول الله، ما على من يُدْعَى منها ضرورة، فهل يُدْعَى منها كلها أحد؟ قال: نعم وأرجو أن تكون منهم» .

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - اقتضت حكمة الله تعالى ورحمته بعباده أن يبين لهم كل ما هو رشاد وهداية موصلة إلى جنته ورضاه، وقد تعهد الله عز وجل بذلك لبيان أحكام الحلال والحرام، والطاعة والمعصية.

٢ - لله تعالى ملك الدنيا والآخرة، وهو المتصرف فيهما، ومانح ثوابهما، يعطي ما يشاء لمن يشاء، فمن طلبهما من غير مالكهما ومن غير المتصرف فيهما، فقد أخطأ الطريق. ولا يضره عصيان العاصين، ولا ينفعه طاعة المطيعين، وإنما يعود ضره أو نفعه إليهم.

٣ - حذر الله تعالى بعد هذه البيانات الوافية من نار جهنم التي تتوهج وتتوقد، ولا يجد صَلاها وهو حرها على الدوام إلا الشقي الكافر الذي كذَّب نبي الله محمداً ﷺ، وأعرض عن الإيمان.

٤ - سيكون بعيداً من النار المتقي المعاصي، الخائف من عذاب الله، وصفة الأتقى أو المتقي: هو الذي يعطي ماله طالباً أن يكون عند الله زاكياً طاهراً متطهراً من الآثام والذنوب، لا يطلب بذلك رياء ولا سمعة، ولا مكافأة لأحد، بل يتصدق به مبتغياً به وجه الله تعالى، قاصداً ثوابه ورضاه، ولسوف يرضى عن الله، ويرضى الله عنه، فيكون راضياً مرضياً. وهو وعد كريم من رب رحيم.

والخلاصة: أن كلاً من الأتقى والأشقى يشمل قسمين، فالأتقى: يشمل المؤمن البار الذي ابتعد عن الفواحش كلها، والمؤمن الذي يذنب أحياناً فيتوب ويندم، وثواب كل منهما الجنة.

والأشقى: يشمل الكافر الجاحد بالله وبرسله وبما أنزل عليه، والمسلم الذي آمن في قلبه بالله ورسله، ولكنه يصر على بعض المعاصي والسيئات ولا يتوب منها، وهذا دليل على نقص تصديقه، بدليل قوله ﷺ فيما أخرجه ابن ماجه: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن» .

والأول مخلّد في النار، والثاني معذب فيها على وفق مشيئة الله، ثم يخرج إلى الجنة. وأما صفة الأتقى والأشقى فهو كلام وارد على سبيل المبالغة.

قال الزمخشري: الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين، وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين، فقيل: ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ وجعل مختصاً بالصَلْي، كأن النار لم تخلق إلا له، وقيل: ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ وجعل مختصاً بالنجاة، كأن الجنة لم تخلق إلا له. وقيل: هما أبو جهل أو أمية بن خلف، وأبو بكر رضي الله عنه(١).

أخرج الإمام أحمد وابن ماجه وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار إلا من شقي، قيل: ومن الشقي؟ قال: الذي لا يعمل لله تعالى طاعة، ولا يترك لله تعالى معصية» .

(١) الكشاف: ٣/ ٣٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الضحى

مكية، وهي إحدى عشرة آية

تسميتها:

سميت سورة الضحى تسمية لها باسم فاتحتها، حيث أقسم الله بالضحى: وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس، تنويهاً بهذا الوقت المهم الذي هو نور، ولأنها نزلت في شأن النبي ﷺ، فافتتحت بالضحى. ولما كانت سورة الليل نازلة في بخيل، افتتحت بالليل.

مناسبتها لما قبلها:

هذه السورة متصلة بسورة الليل من وجهين:

١ - ختمت سورة الليل بوعد كريم من الله تعالى بإرضاء الأتقى في الآخرة، وقال تعالى في سورة الضحى مؤكداً وعده لنبيه ﷺ بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾.

٢ - ذكر تعالى في السورة السابقة: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾ ثم عدد الله تعالى نعمه على سيد الأتقياء في هذه السورة وهو محمد ﷺ.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع سورة الضحى المكية الحديث عن شخصية النبي ﷺ. وقد تضمنت أربعة مقاصد:

١ - ابتدأت بالقسم الإلهي العظيم على أن الله عز وجل ما قلا رسوله ولا أبغضه، ولا هجره ولا تركه، وإنما هو محل العناية الربانية، وهو عظيم القدر عند الله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤﴾ [الآيات: ١-٤] .

٢ - بشَّره ربه بالعطاء الجمّ في الآخرة ومنه الشفاعة العظمى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الآية: ٥] .

٣ - عددت نعم الله على نبيه منذ صغره ;﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ [الآيات: ٦-٨] .

٤ - ختمت بإيصائه بفضائل ثلاث: العطف على اليتيم، وصلة المسكين، وشكر النعمة العظمى وهي النبوة وغيرها من هذه النعم المذكورة: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الآيات: ٩-١١] .

فضلها:

ثبت عن الإمام الشافعي أنه يسن التكبير بأن يقول «الله أكبر» أو «الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر» عقب قراءة سورة ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾ وخاتمة كل سورة بعدها. وذكر القراء في مناسبة التكبير: أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ وفتر مدة، ثم جاء الملك، فأوحى إليه: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ السورة بتمامها، كبَّر فرحاً وسروراً. قال ابن كثير: ولم يرو ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف.

نعم الله تعالى على النبي محمد ﷺ

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾

الإعراب:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾ قسم، وجواب القسم: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ والتوديع: مبالغة في الودع؛ لأن من ودعك مفارقاً فقد بالغ في تركك، وقرئ: (وَدَعَك) أي تركك. و﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي ما قلاك، أي ما أبغضك، فحذف الكاف وهي مفعول، كما حذف الكاف التي هي المفعول من قوله: ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ أي فآواك، وفي قوله: ﴿فَأَغۡنَىٰ﴾ أي فأغناك، والحذف للتخفيف كثير. وهنا حذفت المفاعيل رعاية للفواصل.

﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ﴾ دخلت اللام على (سوف) دون السين؛ لأن (سوف) أشبهت الاسم؛ لأنها على ثلاثة أحرف. ولما دخلت اللام عليها علم أنها لام قسم، لا لام ابتداء، لأن لام الابتداء لا تدخل على (سوف). و﴿يُعۡطِيكَ﴾ فعل متعد إلى مفعولين، وحذف هنا أحدهما، وتقديره: ولسوف يعطيك ربك ما تريده، فترضى. وهو من الأفعال التي يجوز الاقتصار فيها على أحد المفعولين دون الآخر، فيجوز أن تقول في (أعطيت زيداً درهماً): (أعطيت زيداً).

﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ﴾ ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾ ﴿ٱلۡيَتِيمَ﴾ مفعول ﴿تَقۡهَرۡ﴾، و﴿ٱلسَّآئِلَ﴾ مفعول ﴿تَنۡهَرۡ﴾، والباء في ﴿بِنِعۡمَةِ﴾ تتعلق بـ

﴿فَحَدِّثْ﴾ والفاء في ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾، و﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾، و﴿فَحَدِّثْ﴾ جواب (أمّا) في هذه المواضع؛ لأن فيها معنى الشرط.

البلاغة:

﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ ﴿الْأُولَى﴾ بينهما طباق، أي بين الآخرة والدنيا.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴿٦﴾﴾ ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴿٨﴾﴾ مقابلة بينها وبين ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾.

﴿تَقْهَرْ﴾ و﴿تَنْهَرْ﴾ جناس ناقص لتغير الحرف الثاني من الكلمة.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴿٨﴾﴾ سجع مرصّع: وهو توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿وَالضُّحَى ﴿١﴾﴾ وقت ارتفاع الشمس أول النهار .﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿٢﴾﴾ سكن وغطى بظلامه الأشياء. وإنما قدم ذكر الليل في السورة السابقة، وأخره في هذه السورة، للتنويه بفضيلة كل واحد من الليل والنهار، فالليل له فضيلة السبق، وللنهار فضيلة النور، فيقدم هذا تارة، وهذا تارة أخرى. وإنما حلف بالضحى والليل فقط للتنويه بقيمة الزمان الذي يدل عليه مرور النهار والليل. وخص وقت الضحى بالذكر؛ لأنه وقت اجتماع الناس، وكمال الأنس بعد وحشة زمان الليل. وذكر الضحى وهو ساعة من النهار، وذكر الليل كله إشارة إلى أن ساعة من النهار في الإنتاج توازي جميع الليل، كما أن محمداً إذا قورن بغيره يوازي جميع الأنبياء[١].

﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ ما قطعك أو فارقك قطع المودّع أو مفارقته، وقرئ (وَدَعَك)

---

(١) تفسير الرازي: ٣١/ ٢٠٧-٢٠٨

بالتخفيف، أي تركك. وهو جواب القسم .﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ ما أبغضك ربك، والقِلَى: شدة الكُرْه، وقد نزل هذا لما قال الكفار عند تأخر الوحي عنه خمسة عشر يوماً: إن ربه ودعه وقلاه .﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ لما فيها من الكرامات، ولأنها باقية خالصة عن الشوائب، والدنيا فانية مشوبة بالمضارّ. وهذا تنويه بقدر النبي ﷺ وإعداده للنبوة، ومواصلته بالوحي والكرامة في الدنيا، والإخبار بعلو منزلته في الآخرة، فإنه لا يزال يتصاعد في الرفعة والكمال.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾ يعطيك ربك في الآخرة من الخيرات عطاء جزيلاً، فترضى به، وهو وعد شامل بالعطاء الجزيل، ومنه الشفاعة العظمى، فقال ﷺ فيما رواه الخطيب في تلخيص المتشابه: «إذن لا أرضى، وواحد من أمتي في النار» . وهذا تمام جواب القسم بمثبتين بعد منفيين.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ استفهام تقرير، أي وجدك ﴿يَتِيمًا﴾ بفقد أبيك قبل ولادتك أو بعدها .﴿فَآوَىٰ﴾ ضمك إلى عمك أبي طالب. وهذا وما بعده تعداد لما أنعم الله به على نبيه محمد ﷺ، تنبيهاً على أنه كما أحسن إليه فيما مضى، يحسن إليه فيما يستقبل .﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ لا يمكن حمل الضلال هنا على ما يقابل الهدى؛ لأن الأنبياء معصومون من ذلك، قال العلماء: إنه ما كفر بالله طرفة عين، وإنما المراد بالضلال: الخطأ في معرفة أحكام الشرائع، فهداه إلى مناهجها وكيفياتها. والمراد: الحيدة عن معالم الشريعة الحنيفية، كقوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٥٢] .

﴿عَائِلًا﴾ فقيراً .﴿فَأَغْنَىٰ﴾ بالقناعة بربح التجارة وغيرها، جاء في الحديث الذي أخرجه أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة: «ليس

الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس» .﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ فلا تستذله وتستضعفه بأخذ ماله أو بتسخيره ونحو ذلك .﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾ تزجره لفقره .﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ أي نعمته عليك بالنبوة وغيرها .﴿فَحَدِّثْ﴾ أخبر واشكر مولاك.

سبب النزول:

نزول الآية (١) وما بعدها:

أخرج الشيخان وغيرهما عن جندب قال: اشتكى النبي ﷺ، فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتته امرأة، فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾.

وأخرج سعيد بن منصور والفريابي عن جندب قال: أبطأ جبريل على النبي ﷺ، فقال المشركون: قد وُدِّع محمد، فنزلت.

وأخرج الحاكم عن زيد بن أرقم قال: مكث رسول الله ﷺ أياماً لا ينزل عليه جبريل، فقالت أم جميل امرأة أبي لهب: ما أرى صاحبك إلا قد ودَّعك وقَلاك، فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾﴾ الآيات.

وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن شداد: أن خديجة قالت للنبي ﷺ: ما أرى ربك إلا قد قلاك، فنزلت. والخبر مرسل، ورواته ثقات. قال الحافظ ابن حجر: فالذي يظهر أن كلاً من أم جميل وخديجة قالت ذلك، لكن أم جميل قالته شماتة، وخديجة قالته توجعاً.

والخلاصة: أبطأ جبريل عليه السلام على النبي ﷺ، فقال المشركون: قلاه الله وودّعه؛ فنزلت الآية.

نزول الآية (٤):

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ : أخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس قال: قال

رسول الله ﷺ: «عُرض عليّ ما هو مفتوح لأمتي بعدي، فسرّني» فأنزل الله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ وإسناده حسن.

نزول الآية (٥):

أخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل والطبراني وغيرهم عن ابن عباس قال: عُرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته كَفْراً كَفْراً - أي قرية قرية - فسُرّ به، فأنزل الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾.

التفسير والبيان:

﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ أي قسماً بالضحى: وقت ارتفاع الشمس أول النهار، والمراد به النهار، لمقابلته بالليل، وبالليل إذا سكن وغطى بظلمته النهار مثلما يُسَجَّى الرجل بالثوب، ما قطعك ربك قطع المودِّع، وما تركك، ولم يقطع عنك الوحي، وما أبغضك وما كرهك، كما يزعم بعضهم أو تتوهم في نفسك. وهذه الواقعة تدل على أن القرآن من عند الله؛ إذ لو كان من عنده لما توقف.

ثم بشره بأن مستقبله أفضل من ماضيه، فقال:

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ أي وللدار الآخرة خير لك من هذه الدار، إذا فرض انقطاع الوحي وحصل الموت، وكذلك فإن أحوالك الآتية خير لك من الماضية، وأنك كل يوم تزداد عزاً إلى عز، ومنصباً إلى منصب، فلا تظن أني قليتك، بل تكون كل يوم يأتي أسمى وأرفع، فإني أزيدك رفعة وسمواً، وإن شرف الدنيا يصغر عنده كل شرف، ويتضاءل بالنسبة إليه كل مكرمة في الدنيا.

أخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن ابن مسعود قال: اضطجع رسول الله ﷺ على حصير، فأثر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه،

وقلت: يا رسول الله، ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما لي وللدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب، ظلَّ تحت شجرة، ثم راح وتركها».

وبشره بعطاء جزيل فقال:

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ أي ولسوف يمنحك ربك عطاء جزيلاً ونعمة كبيرة في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فهو الفتح في الدين، وأما في الآخرة فهو الثواب والحوض والشفاعة لأمتك، فترضى به. وهذا دليل على تحقيق العلو والسمو في الدارين، فيعلو دينه على كل الأديان، ويرتفع قدره على جميع الأنبياء والناس بالشفاعة العظمى يوم العرض الأكبر يوم القيامة. وإنما أتى بحرف التوكيد والتأخير، ليفيد بأن العطاء كائن لا محالة، وإن تأخر لما في التأخير من المصلحة.

ثم عدد الله تعالى نعمه على رسوله ﷺ قبل إرساله، وكأنه قال: ما تركناك وما قليناك قبل أن اخترناك واصطفيناك، فتظن أنا بعد الرسالة نهجرك ونخذلك، فقال:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ أي ألم يجدك ربك يتيماً لا أب لك، فجعل لك مأوى تأوي إليه، وهو بيت جدك عبد المطلب وعمك أبي طالب، فإنه فقد أباه وهو في بطن أمه، أو بعد ولادته، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب، وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب، إلى أن توفي، وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب، ثم لم يزل يحوطه وينصره بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة.

ووجدك غافلاً عن أحكام الشرائع حائراً في معرفة أصح العقائد، فهداك لذلك، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا

﴿ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢/٤٢].

ووجدك فقيراً ذا عيال لا مال لك، فأغناك بربح التجارة في مال خديجة، وبما منحك الله من البركة والقناعة، أخرج الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس». وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنَّعه الله بما آتاه».

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ قال: كانت هذه منازل رسول الله ﷺ قبل أن يبعثه الله عز وجل.

ثم أمره ربه ببعض الأخلاق الاجتماعية وبشكره على هذه النعم، فقال:

١ - ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾ أي كما كنت يتيماً فآواك الله، فلا تستذل اليتيم وتهنه وتتسلط عليه بالظلم لضعفه، بل أدّه حقه، وأحسن إليه، وتلطف به، واذكر يتمك. لذا كان رسول الله ﷺ يحسن إلى اليتيم ويبره ويوصي باليتامى خيراً.

٢ - ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ أي وكما كنت ضالاً، فهداك الله، فلا تنهر السائل المسترشد في العلم، وطلب المال، ولا تزجره، بل أجبه، أو ردَّ عليه رداً جميلاً.

٣ - ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ أي تحدث بنعمة ربك عليك، واشكر هذه النعمة وهي النبوة والقرآن، وما ذكر في الآيات، والتحدث بنعمة الله شكر، فكما كنت عائلاً فقيراً، فأغناك الله، فتحدث بنعمة الله عليك، كما جاء في الدعاء النبوي المأثور: «واجعلنا شاكرين لنعمتك، مُثْنِين عليها، قابليها، وأتمها علينا».

وأخرج أبو داود والترمذي وصححه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» .

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - أقسم الله بالضحى، أي بالنهار، وبالليل إذا سكن، على أنه ما ترك نبيه وما أبغضه منذ أحبه. قال ابن جريج: احتبس عنه الوحي اثني عشر يوماً. وقال ابن عباس: خمسة عشر يوماً. وقيل: خمسة وعشرين يوماً. وقال مقاتل: أربعين يوماً.

قال الرازي: هذه الواقعة تدل على أن القرآن من عند الله، إذ لو كان من عنده لما امتنع[1]. كما تقدم.

٢ً - بشر الله نبيه ببشارتين عظيمتين: الأولى - أنه جعل أحواله الآتية خيراً له من الماضية، ووعده بأنه سيزيده كل يوم عزاً إلى عز، وجعل ما عنده في الآخرة حين مرجعه إليه، خيراً له مما عجل له من الكرامة في الدنيا.

والثانية - أنه سيعطيه غاية ما يتمناه ويرتضيه في الدنيا بالنصر والتفوق وغلبة دينه على الأديان كلها، وفي الآخرة بالثواب والحوض والشفاعة.

روى الخطيب أنه ﷺ، لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ قال: «إذن لا أرضى وواحد من أمتي في النار» ، كما تقدم.

والخلاصة: آية ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ﴾ عدة كريمة شاملة لما أعطاه الله عز وجل في الدنيا من كمال النفس وعلوم الأولين والآخرين، وظهور الأمر

(١) تفسير الرازي: ٣١/ ٢١٠

وإعلاء الدين بالفتوحات وانتشار الدعوة في المشارق والمغارب، ولما ادخر له عليه السلام في الآخرة من الكرامات التي لا يعلمها إلا هو عز وجل.

وورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص: «أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦/١٤] وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨/٥] فرفع يديه، وقال: اللهم أمتي أمتي، وبكى؛ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام، فسأله، فأخبره ﷺ بما قال، وهو أعلم؛ فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد، فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نَسوءُك» .

٣ - عدد الله تعالى نعمه ومِنَنَه على نبيه محمد ﷺ، وذكر منها في السورة ثلاثاً هي الإيواء بعد اليتم، والهدى بعد الغفلة، والإغناء بعد الفقر.

أما الإيواء فقد تكفله بعد موت أبيه وأمه وجده عبد المطلب، ثم عمه أبي طالب، فكفله وآزره، ودفع عنه الأذى.

وأما الهدى فهو بيان القرآن والشرائع، فهداه الله إلى أحكام القرآن وشرائع الإسلام، بعد الجهل بها والغفلة عنها. وليس معنى الضلالة الكفر أو كونه على دين قومه؛ لأن الأنبياء معصومون عن ذلك. واتفق جمهور العلماء على أنه ﷺ ما كفر بالله لحظة واحدة. وقالت المعتزلة: هذا غير جائز عقلاً، لما فيه من التنفير.

وأما الإغناء فهو الإمداد بالفضل والمال والرزق بالتجارة في مال خديجة رضي الله عنها. وفي زمان الرسالة أغناه بمال أبي بكر، ثم بمال الأنصار بعد الهجرة، ثم بالغنيمة.

والحكمة في اختيار اليتم له: أن يعرف قدر اليتامى، ويقوم بحقهم وصلاح

أمرهم. ثم إن اليتم والفقر نقص في حق الناس عادة، فلما صار محمد عليه الصلاة والسلام نبياً ورسولاً، وأكرم الخلق، مع هذين الوصفين، كان ذلك قلباً للعادة، فكان من جنس المعجزات.

٤ - أدّب الله نبيه محمداً ﷺ بأن يتعامل مع الخَلْقِ مثل معاملة الله معه، فأمره بألا يظلم اليتيم، ويدفع إليه حقه، ويذكر أنه كان يتيماً مثله. ودلت الآية على طلب اللطف باليتيم وبره والإحسان إليه، حتى قال قتادة: كن لليتيم كالأب الرحيم. وروي عن أبي هريرة أن رجلاً شكا إلى النبي ﷺ قسوة قلبه، فقال: «إن أردت أن يلين، فامسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين» وفي الصحيح الذي رواه البخاري وأحمد وغيرهما عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم له أو لغيره كهاتين» وأشار بالسبابة والوسطى.

ونهى الله تعالى نبيه ﷺ عن زجر السائل وعن إغلاظ القول له، وأمره بأن يردّه ببذل يسير، أو ردّ جميل، وأن يتذكر فقره. روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمنعن أحدكم السائلَ، وأن يعطيه إذا سأل، ولو رأى في يده قُلْبين[١] من ذهب» . وقال النبي ﷺ أيضاً: «رُدُّوا السائل ببذل يسير، أو ردّ جميل، فإنه يأتيكم من ليس من الإنس ولا من الجن، ينظر كيف صنيعكم فيما خوَّلكم الله»[٢].

وأمر الله تعالى رسوله ﷺ بشكر نعمة الله عليه وهي النبوة والرسالة، وإنزال القرآن الكريم عليه. ويكون الشكر بنشر ما أنعم الله عليه، والتحدث بنعم الله، والاعتراف بها شكر لها.

ويلاحظ أنه تعالى نهاه عن شيئين وأمره بواحد: نهاه عن قهر اليتيم جزاء

---

(١) القُلْب: السوار.

(٢) تفسير القرطبي: ٢٠/١٠١

لما أنعم به عليه في قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾﴾. ونهاه عن نهر السائل في مقابلة قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾. وأمره بالتحديث بنعمة ربه، وهو في مقابلة قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾.

قال العلماء المحققون: التحديث بنعم الله تعالى جائز مطلقاً، بل مندوب إليه إذا كان الغرض أن يقتدي به غيره، أو أن يشيع شكر ربه بلسانه، وإذا لم يأمن على نفسه الفتنة والإعجاب، فالستر أفضل.

وإنما أخر التحديث تقديماً لمصلحة المخلوقات على حق الله؛ لأن الله غني وهم المحتاجون، ولهذا رضي لنفسه بالقول فقط.

وروي عن الشافعي أنه رأى التكبير سُنَّةً في خاتمة ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾﴾ إلى آخر القرآن؛ لأنه حين انقطع الوحي كما تقدم، وأنزلت السورة، قال رسول الله ﷺ: «الله أكبر» تصديقاً لما أتى به القرآن.

وهذا التكبير ليس بقرآن؛ لأنه لم ينقل كالقرآن نقلاً متواتراً بسوره وآياته وحروفه، دون زيادة ولا نقصان. وقال العلماء: لا نقول: إنه لا بدّ لمن ختم أن يفعله، ولكنه من فعل فقد أحسن، ومن ترك فلا حرج.

ولفظ التكبير إما بأن يقول: «الله أكبر» أو يقول: «لا إله إلا الله والله أكبر».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الشرح

مكية، وآياتها ثمانٍ

تسميتها:

سميت سورة الشرح أو الانشراح أو ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ لافتتاحها بالخبر عن شرح صدر النبي ﷺ، أي تنويره بالهدى والإيمان والحكمة، وجعله فسيحاً رحيباً واسعاً، كقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٥] .

مناسبتها لما قبلها:

هي شديدة الاتصال بسورة الضحى، لتناسبهما في الجمل والموضوع؛ لأن فيهما تعداد نعم الله تعالى على نبيه ﷺ، مع تطمينه وحثه على العمل والشكر، حيث قال في السورة السابقة: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾﴾ وأضاف هنا وعطف: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾.

ولهذا ذهب بعض السلف إلى أنهما سورة واحدة بلا بسملة بينهما، والأصح المتواتر كونهما سورتين، وإن اتصلتا معنىً.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع هذه السورة كسابقتها الحديث عن شخصية النبي ﷺ وما أمده الله به من نعم عظيمة، تستحق الحمد والشكر.

وقد اشتملت على أمور أربعة:

١ً - تعداد نعم ثلاث أنعم الله بها على نبيه المصطفى ﷺ وهي شرح صدره بالحكمة والإيمان، وتطهيره من الذنوب والأوزار، ورفع منزلته ومقامه وقدره في الدنيا والآخرة: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الآيات: ١-٤] وذلك بقصد تسلية الرسول ﷺ وإيناسه عما يلقاه من أذى قومه الشديد في مكة والطائف وغيرهما.

٢ً - وعد الله له بتيسير المعسر، وتفريج الكرب عليه، وإزالة المحن والشدائد، وتبشيره بقرب النصر على الأعداء: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الآيات: ٥-٦].

٣ً - أمره بالمواظبة على العبادة والتفرغ لها بعد القيام بتبليغ الرسالة؛ شكراً لله على ما أنعم عليه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ [الآية:٧].

٤ً - أمره بعد كل شيء بالتوكل على الله وحده، والرغبة فيما عنده: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الآية: ٨].

نعم الله على نبيه وما أمره به

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾

البلاغة:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ استفهام تقريري للتذكير بنعم الله، أي قد شرحنا لك صدرك.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾ استعارة تمثيلية، شبه الذنوب بحمل ثقيل يرهق كاهل حامله بطريق التمثيل.

﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ تنكير اليسر للتعظيم والتفخيم، كأنه قال: يسراً عظيماً.

﴿ٱلْعُسْرِ﴾ و ﴿يُسْرًا﴾ بينهما جناس ناقص.

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ إطناب بتكرير الجملة، لتثبيت معناها في النفوس، وبما أن العسر معروف فهو مفرد، واليسر منكر فهو متعدد، أي مع كل عسر يسران، فالعسر الأول عين الثاني، واليسر تعدد.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾ سجع مرصع مراعاة لرؤوس الآيات. وكذا في قوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾ وهو من المحسنات البديعية.

المفردات اللغوية:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ ألم نُفْسِحْ ونبسط ونوسع لك يا محمد صدرك، حتى وسع مناجاة الحق، ودعوة الخلق، بما أودعنا فيه من الحكمة والإيمان والنبوة، وأزلنا عنه ضيق الجهل. والعرب تطلق سعة الصدر وعظمه على الحلم والقوة، فهو كناية عن السرور وانبساط النفس وراحة البال وسعة الأفق. وهو استفهام تقرير، أي قد شرحنا وأفسحنا.

﴿وَوَضَعْنَا﴾ حططنا وأزلنا وخفَّفْنا عنك .﴿وِزْرَكَ﴾ حملك الثقيل .﴿أَنقَضَ﴾ أثقل، حتى سمع له نقيض أي صوت. وهذا كقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٤٨/٢] . وليس المراد بالذنوب المعاصي والآثام، فإن الرسل معصومون من ارتكاب الذنوب، وإنما المراد ما فعله اجتهاداً مما هو خلاف الأولى، كإذنه للمنافقين بالتخلف عن غزوة تبوك، وأخذ الفداء من

أسرى بدر، وعبوسه في وجه الأعمى ونحو ذلك. وقيل: المراد من قوله: ﴿وِزْرَكَ﴾ تخفيف أعباء النبوة والرسالة التي تثقل الظهر من القيام بأمرها، وأداء واجباتها وحفظ حقوقها، فسهل الله تعالى ذلك عليه، وحطّ عنه ثقلها، بأن صارت يسيرة له.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ بالنبوة وغيرها، كأن جعلتك تُذكر مع ذِكْري في الأذان والإقامة والتشهد والخُطبة وغيرها .﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ﴾ الشدة والضعف والفقر ونحوها من المضايقات ﴿يُسْرًا﴾ سهولة وتوفيقاً للاهتداء والطاعة، وقد قاسى النبي ﷺ من كثير من الكفار، وعانى منهم الشدائد، ثم حصل له اليسر، بنصره عليهم.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من أداء الرسالة وتبليغ الناس بها .﴿فَٱنصَبْ﴾ اتعب في الدعاء والعبادة .﴿فَٱرْغَب﴾ تضرع وتوكل، واجعل رغبتك بالله في جميع شؤونك.

سبب النزول:

نزول الآية (٦):

﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾: نزلت لما عيَّر المشركون المسلمين بالفقر. وأخرج ابن جرير عن الحسن البصري قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ قال رسول الله ﷺ: «أبشروا، أتاكم اليسر، لن يغلب عسر يسرين» .

التفسير والبيان:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ أي قد شرحنا لك صدرك لقبول النبوة، وتحمل أعبائها، وحفظ الوحي. قال الرازي: وقد استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار، فأفاد إثبات الشرح وإيجابه، فكأنه قيل: شرحنا لك صدرك. والأولى أن يقال كما بينا: الاستفهام تقريري، يراد به إثبات الشرح.

والمراد بشرح الصدر تنويره وجعله فسيحاً وسيعاً رحيباً، كقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٥][١]. وقال أبو حيان: شرح الصدر: تنويره بالحكمة، وتوسيعه لتلقي ما يوحى إليه، وهو قول الجمهور، والأولى العموم لهذا ولغيره من مقاساة الدعاء إلى الله تعالى وحده، واحتمال المكاره من إذاية الكفار[٢]. والأكثرون على أن الشرح أمر معنوي.

وقيل: المراد بذلك شرح صدره ليلة الإسراء، كما رواه الترمذي عن مالك ابن صَعْصَعَة. قال ابن كثير: ولكن لا منافاة، فإن من جملة شرح صدره: الذي فعل بصدره ليلة الإسراء، وما نشأ عنه من الشرح المعنوي أيضاً[٣].

وروى أيضاً حديث شرح الصدر عبد الله ابن الإمام أحمد عن أبي بن كعب: أن أبا هريرة كان جريئاً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء، لا يسأله عنها غيره، فقال: يا رسول الله، ما أولُ ما رأيتَ من أمر النبوة؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالساً، وقال: «لقد سألت يا أبا هريرة، إني في الصحراء ابن عشر سنين وأشهر، وإذ بكلام فوق رأسي، وإذا رجل يقول لرجل: أهو هو؟ فاستقبلاني بوجوه لم أرها قط، وأرواحٍ لم أجدها من خَلْق قط، وثياب لم أرها على أحد قط، فأقبلا إلي يمشيان، حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي، لا أجد لأحدهما مسّاً، فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه، فأضجعاني بلا قصر ولا هصر، فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره، فهوى أحدهما إلى صدري، ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغل والحسد، فأخرج شيئاً كهيئة العلقة، ثم نبذها، فطرحها، فقال له: أدخل

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٥٢٤

(٢) البحر المحيط: ٨/ ٤٨٧

(٣) تفسير ابن كثير، المرجع السابق.

الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة، ثم هزّ إبهام رِجْلي اليمنى، فقال: اغْدُ واسلم، فرجَعْتُ بها أغْدُو رِقَّة على الصغير، ورحمة على الكبير».

وفي الصحيح عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة - رجلٍ من قومه: أن النبي ﷺ قال: «فبينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان، إذ سمعت قائلاً يقول: أحد الثلاثة بين الرجلين، فأُتيت بطَسْتٍ من ذهب، فيها ماء زمزم، فشرح صدري إلى كذا وكذا» - قال قتادة: قلت: ما يعني؟ قال: إلى أسفل بطني - قال: «فاستخرج قلبي، فغُسل قلبي بماء زمزم، ثم أعيد مكانه، ثم حُشِي إيماناً وحكمة».

والخلاصة من حديث شق الصدر: إن جبريل عليه السلام أتى محمداً ﷺ في صغره، وشق صدره، وأخرج قلبه وغسله وأنقاه من المعاصي، ثم ملأه علماً وإيماناً، ووضعه في صدره.

وقد طعن بعضهم في هذه الرواية؛ لأن هذه الواقعة حدثت في حال الصغر، وذلك من المعجزات، فلا يجوز أن تتقدم نبوته، ولأن تأثير الغسل في إزالة أوساخ الأجسام، والمعاصي ليست بأجسام، فلا يكون للغسل فيها أثر، ولأنه لا يصح أن يملأ القلب علماً، بل الله تعالى يخلق فيه العلوم.

وأجاب الإمام فخر الدين الرازي عن ذلك بأن هذا يسمى الإرهاص، وهو مقدمات النبوة وبشائرها، ومثله في حق الرسول ﷺ كثير، ولا يبعد أن يكون غسل الدم الأسود من قلب الرسول ﷺ علامة للقلب الذي يميل إلى المعاصي، ويحجم عن الطاعات، فإذا أزالوه كان ذلك كالعلامة على كون صاحبه معصوماً، مواظباً على الطاعات، محترزاً عن السيئات، وأيضاً فلأن الله تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد[1].

(١) تفسير الرازي: ٣٢/٢

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾ أي حططنا عنك ما كنت تتصور من وجود ذنوب ومعاصٍ أثقلت كاهلك، وأتعبت نفسك، سواء قبل النبوة أم بعدها مما تفعله خلاف الأولى، وهو لا يتفق مع سمو قدرك، ورفعة منزلتك، وعلو شأنك، كالإذن لبعض المنافقين بالتخلف عن الجهاد في موقعة تبوك، وقبول الفداء من أسرى بدر، والعبوس في وجه الأعمى.

وقيل: المراد حططنا عنك حمل أعباء النبوة والرسالة، فسهلناها عليك، حتى تيسرت لك.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ أي جعلنا ذِكْرك مرفوعاً عالياً في الدنيا والآخرة، بالنبوة وختم الرسالات بك، وإنزال القرآن العظيم عليك، وتكليف المؤمنين بالقول بعد «أشهد أن لا إله إلا الله» : «أشهد أن محمداً رسول الله» سواء في الأذان أم في التشهد أم في الخطبة وغيرها، وأمرهم بالصلاة والسلام عليه، وأمر الله بطاعته، وجعل طاعته طاعة لله تعالى.

قال قتادة: رفع الله ذِكْره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة، إلا ينادي بها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

وروى ابن جرير عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أتاني جبريل، فقال: إن ربي وربك يقول: كيف رَفَعتُ ذِكْرك؟ قال: الله أعلم، قال: إذا ذُكِرتُ ذُكِرتَ معي» .

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي مسألة، وددت أني لم أسأله، قلت: قد كان قبلي أنبياء، منهم من سخّرت له الريح، ومنهم من يحيي الموتى، قال: يا محمد، ألم أجدك يتيماً فآويتك؟ قلت: بلى يا ربّ، قال: ألم أجدك ضالاً فهديتك؟ قلت: بلى يا ربّ، قال: ألم أجدك عائلاً فأغنيتك؟ قلت: بلى يا رب، قال: ألم أشرح لك صدرك، ألم أرفع لك ذكرك؟ قلت: بلى يا رب» .

وبعد التذكير بهذه النعم، ذكر الله تعالى أن ذلك جارٍ على وفق سنته، من إيراد اليسر بعد العسر، فقال ردّاً على المشركين الذين كانوا يعيرون رسول الله ﷺ بالفقر:

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ أي إن مع ذلك العسر المذكور سابقاً يسراً، وإن مع الضيق فرجاً، وقد أكّد تعالى ذلك في الجملة الثانية. وفي هذا بشارة لرسول الله ﷺ وتسلية له أنه سيبدل حاله من فقر إلى غنى، ومن ضعف إلى عزة وقوة، ومن عداوة قومه إلى محبتهم. والأظهر أن المراد باليسرين: الجنس، ليكون وعداً عاماً لجميع المكلفين في كل عصر، ويشمل يسر الدنيا ويسر الآخرة، ويسر العاجل والآجل.

قال الفراء والزجاج: العسر مذكور بالألف واللام، وليس هناك معهود سابق، فينصرف إلى الحقيقة، فيكون المراد بالعسر في اللفظين شيئاً واحداً. وأما اليسر فإنه مذكور على سبيل التنكير، فكان أحدهما غير الآخر.

يؤيد ذلك ما رواه الحاكم عن ابن مسعود مرفوعاً: «لو كان العسر في حَجَر، لتبعه اليسر حتى يدخل فيه، فيخرجه، ولن يغلب عسر يسرين، إن الله يقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾».

ثم أمره ربه بمهام تتناسب مع مقامه ومع شكر هذه النعم السابقة واللاحقة من اليسر والظفر، فقال:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ أي إذا فرغت من تبليغ الدعوة، أو من الجهاد، أو مشاغل الدنيا وعلاقاتها، فأتعب نفسك في العبادة، واجتهد في الدعاء، واطلب من الله حاجتك، وأخلص لربّك النيّة والرغبة. وهذا دليل على طلب الاستمرار في العمل الصالح والخير والمثابرة على الطاعة؛ لأن استغلال الوقت مطلوب شرعاً، وإن الله يكره العبد البطال.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾ أي أقبل على الله، واجعل رغبتك إلى الله وحده، وتضرع إليه راهباً من النار، راغباً في الجنة، ولا تطلب ثواب عملك إلا من الله، فإنه الجدير بالتوجه والتضرع إليه، وبالتوكل عليه.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - هذه باقة أخرى من نعم الله على نبيه المصطفى ﷺ، بالإضافة لما ذكر في سورة الضحى السابقة، وهي:

أولاً - شرح الصدر، أي جعله فسيحاً رحيباً، قوياً عظيماً لتحمل أعباء النبوة والرسالة.

وثانياً - حطّ الذنوب والمعاصي التي تعد ثقيلة وكبيرة بالنسبة لقدره ومنزلته، وإلا فهي ليست ذنوباً على الحقيقة؛ لأن الأنبياء معصومون منها، ولم يسجد لصنم أو وثن قط، ولم يصدر عنه كفر أصلاً قبل النبوة. وهذا يستدعي كمال عقله وروحه، وتبرئته من الوزر الذي ينشأ عن النفس والهوى، وهو معصوم منهما.

وثالثاً - رفع ذكره وإعلاء شأنه ومقامه في الدنيا والآخرة وتنزيه مقامه عن كل وصم، قال ابن عباس: يقول له: لا ذُكِرتُ إلا ذُكِرتَ معي في الأذان، والإقامة، والتشهد، ويوم الجمعة على المنابر، ويوم الفطر، ويوم الأضحى، وأيام التشريق، ويوم عرفة، وعند الجمار، وعلى الصفا والمروة، وفي خُطب النكاح، وفي مشارق الأرض ومغاربها.

ولو أن رجلاً عَبَدَ الله جلّ ثناؤه، وصدّق بالجنة والنار وكل شيء، ولم يشهد أن محمداً رسول الله، لم ينتفع بشيء، وكان كافراً[1].

(١) تفسير القرطبي: ٢٠/١٠٦ - ١٠٧

٢ً - جعل الله تيسيراً ورحمة على العباد يسرين مع كل عسر، قال قوم: إن من عادة العرب إذا ذكروا اسماً معرَّفاً، ثم كرروه، فهو هو، وإذا نكّروه فهو غيره، وهما اثنان، ليكون أقوى للأمل، وأبعث على الصبر.

٣ً - الحثّ على المواظبة على العمل الصالح واستدامته، وعلى عمل الخير والإقبال على فعله، فعلى العاقل ألا يضيع أوقاته في الكسل والدعة، ويحرص بكل قواه على تحصيل ما ينفعه في الدارين.

٤ً - التوكل على الله وحده، والرغبة إليه والتضرع لوجهه الكريم، فإنه أهل التوجه والضراعة، ولا يطلب ثواب العمل الصالح إلا منه سبحانه.

قال ابن العربي: روي عن شُريح أنه مرّ بقوم يلعبون يوم عيد، فقال: ما بهذا أمرَ الشارع. وفيه نظر؛ فإن الْحَبَش كانوا يلعبون بالدَّرَق والْحِراب في المسجد يوم العيد، والنبي ﷺ ينظر. ودخل أبو بكر بيت رسول الله ﷺ على عائشة وعندها جاريتان من جَواري الأنصار تغنِّيان، فقال أبو بكر: أمِزْمارة الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟ فقال: «دعهما يا أبا بكر، فإنه يوم عيد». وليس يلزم الدُّؤوب على العمل، بل هو مكروه لِلْخَلْق[1].

(١) أحكام القرآن: ٤/ ١٩٣٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةُ التِّينِ

مكية، وآياتها ثمانٍ

تسميتها:

سميت سورة ﴿وَٱلتِّينِ﴾؛ لأن الله تعالى أقسم في مطلعها بالتين والزيتون؛ لما فيهما من خيرات وبركات، ومنافع: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾﴾.

مناسبتها لما قبلها:

ذكر الله تعالى في السورة المتقدمة حال أكمل الناس خَلْقاً وخُلُقاً، وأنه أفضل العالم، ثم ذكر في هذه السورة حال النوع الإنساني وما ينتهي إليه أمره من التدني ودخول جهنم إن عادى رسول الله ﷺ، أو دخول الجنة إن آمن به وعمل صالحاً.

ما اشتملت عليه السورة:

تضمنت هذه السورة المكية بيان أمور ثلاثة متعلقة بالإنسان وعقيدته:

أ - تكريم النوع الإنساني، حيث خلق الله الإنسان في أحسن صورة وشكل، منتصب القامة، سَوِيّ الأعضاء، حسن التركيب: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [الآيات: ١-٤].

٢ - بيان انحدار مستوى الإنسان وزجّ نفسه في نيران جهنم بسبب كفره بالله تعالى ورسوله ﷺ، وإنكاره البعث والنشور، بالرغم من توافر الأدلة القاطعة على قدرة الله عزّ وجلّ بخلق الإنسان في أحسن تقويم: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ [الآية: ٥].

واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ [الآية: ٦].

٣ - إعلان مبدأ العدل المطلق في ثواب المؤمنين، وتعذيب الكافرين: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ [الآيات: ٧-٨].

فضلها:

أخرج الجماعة في كتبهم ومالك في موطئه عن البراء بن عازب: كان النبي ﷺ يقرأ في سفره في إحدى الركعتين بالتين والزيتون، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه.

حال النوع الإنساني خَلْقاً وعملاً

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾

الإعراب:

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ ﴿ٱلْأَمِينِ﴾: إما من الأمن أي الآمن، كعليم بمعنى عالم، أو بمعنى المؤمِن؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٧] كحكيم بمعنى مُحكِم، وسميع بمعنى مسمع.

﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ ﴿أَحۡسَنِ﴾: صفة لمحذوف، أي في تقويم أحسن.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾ (ما) : استفهامية في موضع رفع مبتدأ، و﴿يُكَذِّبُكَ﴾: خبره.

البلاغة:

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١﴾ إن أريد موضعهما وهما الشام وبيت المقدس، فهو مجاز مرسل علاقته الحالية بإطلاق الحالّ وإرادة المحل، مثل: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣﴾ [الانفطار: ٨٢/١٣] فالنعيم مجاز، وهو شيء معنوي يحل في الجنة، والجنة محل له، وهو حالّ فيها، فأطلق على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته الحالّية.

﴿أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ و﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ بينهما طباق.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التوبيخ والعتاب.

﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ استفهام تقريري.

﴿بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ بينهما جناس اشتقاق.

﴿ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾، ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، ﴿بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ سجع مرصَّع.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١﴾ هما الشجرتان المعروفتان، أو الشام وبيت المقدس موضعا إنبات هاتين الشجرتين، أو جبلان بالشام ينبتان المأكولين، قال أبو حيان: والظاهر أن التين والزيتون هما المشهوران بهذا الاسم، وفي الحديث: مدح التين، وأنها تقطع البواسير، وتنفع من النقرس. وقال البيضاوي: خصَّهما من بين الثمار بالقسم؛ لأن التين فاكهة طيبة، لا فضل (بقايا) لها،

وغذاء لطيف، سريع الهضم، ودواء كثير النفع، فإنه يلين الطبع، ويحلل البلغم، ويطهر الكليتين، ويزيل رمل المثانة، ويفتح سدّة الكبد والطحال. والزيتون فاكهة وإدام ودواء، وله دهن لطيف، كثير المنافع، مع أنه قد ينبت حيث لا دهنية فيه كالجبال.

﴿وَطُورِ سِينِينَ (٢)﴾ الجبل الذي كلم الله تعالى موسى عنده، وناجى عليه موسى ربّه، و﴿سِينِينَ﴾ وسيناء: اسمان للموضع الذي فيه. ومعنى ﴿سِينِينَ﴾: المبارك، أو الحسن بالأشجار المثمرة. ﴿ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ مكة المكرمة التي كرمها الله بالكعبة، و﴿ٱلْأَمِينِ﴾: إما الآمن، أو المأمون فيه، يأمن فيه من دخله.

﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ أراد به الجنس. ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ تعديل لصورته وشكله، بأن خصه بانتصاب القامة وحسن الصورة واستجماع خواص الكائنات، يقال: قوَّم الشيء تقويماً: جعله على أعدل وجه وأكمل صورة. والتقويم أيضاً: معرفة قدر الشيء وقيمته. ﴿ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ﴾ رددنا بعض أفراده، وهو الكافر، أو بعض الناس. ﴿أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ﴾ أي جعلناه من أهل النار الذين هم أسفل من كل سافل، وقيل: هو كناية عن الهرم والضعف، وأرذل العمر (أي الخرَف) فيكون: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ﴾ استثناء منقطعاً بمعنى لكن. ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع عنهم، جاء في الحديث الذي أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس: «إذا كبر العبد وضعف عن العمل، كتب له أجر ما كان يعمل في شبيبته».

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ أيها الكافر. ﴿بَعْدُ﴾ بعدما ذكر من خلق الإنسان في أحسن صورة، ثم رده إلى أرذل العمر، الدال على القدرة الإلهية على البعث. ﴿بِٱلدِّينِ﴾ الجزاء بعد البعث والحساب، أي ما يجعلك مكذباً بالبعث، ولا جاعل ولا موجب لهذا التكذيب؟

سبب النزول:

نزول الآية (٥):

﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ﴾ : أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ قال: هم نفر، ردوا إلى أرذل العمر، على عهد رسول الله ﷺ، فسئل عنهم حتى سفهت عقولهم، فأنزل الله عذرهم، أن لهم أجرهم الذي عملوا، قبل أن تذهب عقولهم.

التفسير والبيان:

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ أي قسماً بالتين الذي يأكله الناس، وبالزيتون الذي يعصرون منه الزيت، فالمراد من التين والزيتون هذان الشيئان المشهوران، قال ابن عباس: هو تينكم وزيتونكم هذا.

وهما كناية عن البلاد المقدسة التي اشتهرت بإنبات التين والزيتون. وإنما أقسم بالتين؛ لأنه غذاء وفاكهة ودواء، فهو غذاء لأنه طعام لطيف، سريع الهضم، لا يمكث في المعدة، يلين الطبع، ويقلل البلغم، ويطهر الكليتين، ويزيل ما في المثانة من الرمل، ويسمِّن البدن، ويفتح مسام الكبد والطحال، وهو خير الفواكه وأحمدها.

وكونه دواء لأنه يتداوى به في إخراج فضول البدن، وفي الحديث الحسن الذي رواه ابن السني وأبو نعيم عن أبي ذر، وضعفه السيوطي: «إنه يقطع البواسير، وينفع من النِّقرس» .

وكذلك الزيتون فاكهة وإدام ودواء، يعصر منه الزيت الذي هو إدام غالب لبعض أهل البلاد ودهنهم، ويدخل في كثير من الأدوية، قال تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: ٢٤/ ٣٥] . وقال ﷺ فيما رواه أبو نعيم في الطب عن أبي هريرة وهو ضعيف: «كلوا الزيت وادَّهنوا به، فإنه من شجرة مباركة» .

﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ هو الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام، وهو طور سيناء.

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ أي مكة المكرمة التي كرمها الله بالكعبة المشرفة، وبميلاد النبي ﷺ وإرساله فيه، سمي أميناً لأنه آمن ومأمون فيه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٧] .

أقسم الله سبحانه بهذه المواضع الثلاثة؛ لأنها مهابط وحي الله على أولي العزم من الرسل، ومنها أضاءت الهداية للبشر. وجاء في آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة: جاء الله من طور سيناء - يعني الذي كلم الله عليه موسى بن عمران - وأشرق من ساعير - يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى - واستعلن من جبال فاران - يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً ﷺ. وذكَرَهم مُخْبِراً عنهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان، ولهذا أقسم بالأشرف ثم الأشرف منه، ثم بالأشرف منهما.

ثم ذكر جواب القسم المحلوف عليه، فقال:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ أي أُقسم بالأشياء الثلاثة المذكورة على أننا خلقنا الإنسان في أحسن صورة وأجمل شكل، منتصب القامة، سويّ الأعضاء، حسن التركيب، يأكل بيده، يتميز بالعلم والفكر والكلام والتدبير والحكمة، فصلح بذلك أن يكون خليفة مستخلفاً في الأرض كما أراد الله له. والخلاصة: خلقناه في أحسن تعديل شكلاً وانتصاباً، كما قال أكثر المفسرين.

ذكر القرطبي القصة التالية التي توضح حسن تقويم الإنسان، فقال:

كان عيسى بن موسى الهاشمي يحب زوجته حبّاً شديداً، فقال لها يوماً: أنت طالق ثلاثاً إن لم تكوني أحسن من القمر؛ فنهضت واحتجبت عنه، وقالت: طلقتني! وبات بليلة عظيمة، فلما أصبح، غدا إلى دار المنصور، فأخبره

الخبر، وأظهر للمنصور جزعاً عظيماً، فاستحضر الفقهاء واستفتاهم، فقال جميع من حضر: قد طُلِّقت؛ إلا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة، فإنه كان ساكتاً.

فقال له المنصور: ما لك لا تتكلم؟ فقال له الرجل: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾. يا أمير المؤمنين، فالإنسان أحسن الأشياء، ولا شيء أحسن منه.

فقال المنصور لعيسى بن موسى: الأمر كما قال الرجل، فأقبل على زوجتك. وأرسل أبو جعفر المنصور إلى زوجة الرجل: أن أطيعي زوجك ولا تعصيه، فما طلقك.

ثم عقب القرطبي على هذا قائلاً: فهذا يدلك على أن الإنسان أحسن خلق الله باطناً وظاهراً، جمال هيئة، وبديع تركيب: الرأس بما فيه، والصدر بما جمعه، والبطن بما حواه، والفرج وما طواه، واليدان وما بطشتاه، والرجلان وما احتملتاه. ولذلك قالت الفلاسفة: إنه العالَم الأصغر؛ إذ كل ما في المخلوقات جمع فيه[1].

لكنه غفل عن هذه المقومات، وأهمل هذه الميزات، وأخذ يعمل بهواه وشهواته، لذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ قيل: إلى النار التي هي أسفل الدرجات إن لم يطع الله ويتبع الرسل، والأولى أن يقال: رددناه إلى أرذل العمر، وهو الهرم والضعف، والخرف ونقص العقل، بعد الشباب والقوة، وجمال النطق، وسلامة الفكر.

(١) تفسير القرطبي: ٢٠/ ١١٤

والقول الأول، أي إلى النار بسبب كفر بعض الناس هو قول الحسن ومجاهد وأبي العالية وابن زيد وقتادة، وعلى هذا يكون الاستثناء الآتي: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ استثناءً متصلاً.

والقول الثاني، أي إلى أرذل العمر هو قول ابن عباس وعكرمة والضحاك والنخعي، وعلى هذا يكون الاستثناء التالي منقطعاً. وليس المعنى أن كل إنسان يعتريه هذا، بل في الجنس من يعتريه ذلك. واختار ذلك ابن جرير.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ أي إلا الذين آمنوا بالله ورسله واليوم الآخر، وعملوا صالح الأعمال من أداء الفرائض والطاعات، فلهم ثواب على طاعاتهم دائم غير منقطع.

والمعنى كما أشرنا على التفسير الأول وكون الاستثناء متصلاً: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بأن جمعوا بين الإيمان والعمل في حال الاستطاعة، فلهم ثواب جزيل، ينجون به من النار أسفل السافلين، وهو الجنة دار المتقين.

والمعنى على التفسير الثاني وكون الاستثناء منقطعاً وهو الراجح لدينا: لكن المؤمنين المتقين، فإن الله يكافئهم بثواب دائم غير منقطع، بسبب صبرهم على ما ابتلوا به من الشيخوخة والهرم والمواظبة على الطاعات بقدر الإمكان، مع ضعف البنية، وفتور الأعضاء، أي إنهم قد يردون إلى أرذل العمر كغيرهم، لكن لهم أجراً كبيراً دائماً على أفعالهم.

قال الألوسي: المتبادر من السياق الإشارة إلى حال الكافر يوم القيامة، وأنه يكون على أقبح صورة وأبشعها، بعد أن كان على أحسن صورة وأبدعها؛ لعدم شكره تلك النعمة وعمله بموجبها[1].

(١) تفسير الألوسي: ٣٠/ ٤٧٦

أخرج أحمد والبخاري وابن حبان عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مرض العبد أو سافر، كتب الله تعالى له من الأجر مثلما كان يعمل صحيحاً مقيماً» . وفي رواية عنه: ثم قرأ ﷺ: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

وأخرج الطبراني عن شدّاد بن أوس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تبارك وتعالى يقول: إذا ابتليت عبداً من عبادي مؤمناً، فحمدني على ما ابتليته، فإنه يقوم من مضجعه كيوم ولدته أمه من الخطايا، ويقول الربّ عزّ وجلّ: إني أنا قيَّدت عبدي هذا، وابتليته، فأجْروا له ما كنتم تُجرون له قبل ذلك» وهو حديث صحيح.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في الآية: إذا كَبِر العبد، وضعف عن العمل، كتب له أجر ما كان يعمل في شبيبته.

ورأى بعضهم أن الاستثناء متصل حتى على القول الثاني، فلا يردُّ المؤمن المتقي إلى أرذل العمر، بدليل ما أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس قال: من قرأ القرآن لم يردّ إلى أرذل العمر، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قال: إلا الذين قرؤوا القرآن. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير نحوه، فقال: من جمع القرآن لم يرد إلى أرذل العمر.

ثم وبَّخ الكفار على التكذيب بالجزاء بعد البعث، فقال:

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾﴾ المراد: فأي شيء يلجئك بعد هذه البيانات والأدلة على قدرة الله إلى أن تكون كاذباً، بسبب تكذيب الجزاء؛ لأن كل مكذِّب بالحق فهو كاذب؟ فإذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم، وأنه يردّك بسبب الكفر أسفل سافلين، فما يحملك على أن تكذب بالبعث والجزاء؟ لقد علمت البدأة، وعرفت أن من قدر على البدأة، فهو قادر

على الرجعة بطريق أولى، فأي شيء يحملك على التكذيب بالمعاد، وقد عرفت هذا؟

ثم أكَّد ما سبق بقوله:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ أي أما هو أحكم الحاكمين قضاءً وعدلاً، الذي لا يجور ولا يظلم، ومن عدله أن يقيم القيامة، فينتصف للمظلوم في الدنيا ممن ظلمه؟!

أخرج الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً: «فإذا قرأ أحدكم: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾، فأتى على آخرها: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين».

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

أ - أقسم الله تعالى بمواضع ثلاثة مقدسة: هي أماكن نبات التين والزيتون، التي هي مقام الأنبياء ومهبط الوحي، وطور سيناء الذي كلم الله عليه موسى، ومكة البلد الحرام الآمن على أنه خلق جنس الإنسان في أحسن تقويم، وهو اعتداله واستواء شبابه. ثم يرد بعض النوع الإنساني أسفل سافلين، أي إلى أرذل العمر، وهو الهَرَم بعد الشباب، والضعف بعد القوة، حتى يصير كالصبي في طوره الأول من أطوار الحياة.

قال ابن العربي: ولامتنان الباري سبحانه، وتعظيم النعمة أو المنة في التين، وأنه مقتات مدخر، فلذلك قلنا بوجوب الزكاة فيه[1].

---

(١) أحكام القرآن: ٤/ ١٩٣٩

٢ً - استثنى الله تعالى الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، فإنه تكتب لهم حسناتهم، وتُمحى عنهم سيئاتهم، وهم الذين أدركهم الكِبَر، لا يؤاخذون بما عملوه في كِبرهم.

٣ً - وبَّخ الله الكافر وألزمه الحجة بكفره بالجزاء بعد البعث بقوله فيما معناه: إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم، وأنه يردّك إلى أرذل العمر، وينقلك من حال إلى حال، فما يحملك على أن تكذِّب بالبعث والجزاء، وقد أخبرك محمد ﷺ به؟

٤ً - أليس الله أتقن الحاكمين صنعاً في كل ما خلق، وأنه أحكم الحاكمين قضاءً بالحق وعدلاً بين الخلق؟! وفي هذا تقدير لمن اعترف من الكفار بالصانع القديم وهو الله تعالى. وهو وعيد للكفار، وأنه يحكم عليهم بما هم أهله.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العلق

مكية، وهي تسع عشرة آية

تسميتها:

سميت سورة العلق، سورة (اقرأ)، أو (القلم)؛ لأن الله سبحانه افتتحها بقوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾. والعلق: الدم المتجمد على شكل الدودة الصغيرة.

مناسبتها لما قبلها:

ذكر الله تعالى في سورة (التين) أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم، وهذا بيان للصورة، وذكر هنا أنه: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ وهذا بيان للمادة.

وذكر تعالى في هذه السورة من أحوال الآخرة بياناً توضيحياً لما ذكر في السورة السالفة.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة المكية أول شيء نزل من القرآن على قلب النبي ﷺ لبيان الأمور الثلاثة التالية:

أً - بيان حكمة الله في خلق الإنسان من ضعف إلى قوة، والإشادة بما

زوّده وأمره به من فضيلة القراءة ﴿اقْرَأْ﴾ والكتابة ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ لتمييزه على غيره من المخلوقات: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾﴾ [الآيات: ١-٥] .

٢ - الإخبار عن مدى طغيان الإنسان وتمرده على أوامر الله، وجحوده نعم الله عليه، وغفلته عنها رغم كثرتها في حال توافر الثروة والمال والغنى لديه، فقابل النعمة بالنقمة، وكان الواجب عليه أن يشكر ربّه على فضله، فجحد النعمة وتجبّر واستكبر: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾﴾ [الآيات: ٦-٨] .

٣ - افتضاح شأن فرعون هذه الأمة أبي جهل الذي كان ينهى رسول الله ﷺ عن الصلاة، انتصاراً للأوثان والأصنام، وتوعده بأشد العقاب إن استمر على ضلاله وكفره وطغيانه، وتنبيه الرسول ﷺ إلى عدم الالتفات لما كان يتوعده به ويتهدده: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾﴾ [الآيات: ٩-١٩] .

كيفية نزول هذه السورة - حديث بدء نزول الوحي:

نزل صدر هذه السورة أول ما نزل من القرآن الكريم، أما بقية السورة فهو متأخر النزول، بعد انتشار دعوته ﷺ بين قريش، وتحرشهم به وإيذائهم له.

أخرج الإمام أحمد والشيخان (البخاري ومسلم) عن عائشة رضي الله عنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ: الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخَلاء، فكان يأتي حِراء، فيتحنَّث فيه - وهو التعبّد - الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى فاجأه الوحي، وهو في غار حراء، فجاءه المَلَك فيه فقال: (اقرأ).

قال رسول الله ﷺ: «فقلت: ما أنا بقارئ» قال: فأخذني فغَطَّني - ضمَّني - حتى بلغ مني الجَهْد، ثم أرسلني، فقال: (اقرأ)، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطَّني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: (اقرأ)، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطَّني الثالثة، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني.

فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

قال: فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة، فقال: زمِّلوني زمِّلوني، فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوْع، فقال: يا خديجة، ما لي؟ وأخبرها الخبر، وقال: قد خشيت على نفسي، فقالت له:

كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصِل الرَّحِمَ، وتصدُق الحديث، وتحمل الْكَلّ - الضعيف العاجز - وتَقْري الضيف، وتُعين على نوائب الحق. ثم انطلقتْ به خديجة، حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزّى بن قُصَيّ، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرأ قد تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت خديجة: أي ابنَ عم، اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة:

ابن أخي، ما ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أُنزل على موسى، ليتني فيها جَذَعاً[1]، ليتني أكون حيّاً حين يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أوَ مُخْرِجيَّ هم؟ فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزّراً. ثم لم يَنْشَب[2] ورقة أن توفي، وفتَر الوحي، حتى حزن رسول الله ﷺ فيما بلغنا حُزْناً، غدا منه مراراً كاد يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذِرْوة جبل لكي يُلقي نفسه منه، تبدَّى له جبريل، فقال: يا محمد، إنك رسول الله حقاً، فيَسْكُن بذلك جأشه، وتقَرُّ نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة الجبل، تبدَّى له جبريل، فقال له مثل ذلك.

---

(١) الجذع: الشاب القوي الجَلْد.

(٢) لم ينشب: لم يلبث.

الحكمة في خلق الإنسان وتعليمه القراءة والكتابة

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (٨)﴾

الإعراب:

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣)﴾ ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾: جملة اسمية في موضع نصب على الحال من ضمير ﴿اقْرَأْ﴾.

﴿عَلَّمَ﴾ بدل اشتمال من ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ أي علمه به وبدونه من الأمور الكلية والجزئية والجلية والخفية.

﴿أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧)﴾ ﴿أَنْ رَآهُ﴾: في موضع نصب على أنه مفعول لأجله، أي لأن رآه، وأصله (رأيه) فتحركت الياء وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً. ورأى: يتعدى إلى مفعولين؛ لأنه من رؤية القلب، فالمفعول الأول: الهاء، والثاني: ﴿اسْتَغْنَى﴾.

وقرئ (رأه) بهمزة من غير ألف بعدها، على أساس حذف لام الفعل مثل (حاش لله) أو لأن مضارعه (يرى) وقد حذفت عينه بعد نقل حركتها إلى ما قبلها، أو حذفت لسكونها وسكون السين في ﴿اسْتَغْنَى﴾.

البلاغة:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢)﴾ سجع مرصّع.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ و﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣)﴾ إطناب بتكرار الفعل، لمزيد الاهتمام بشأن القراءة والعلم.

﴿خَلَقَ﴾ و﴿عَلَقٍ﴾ بينهما جناس ناقص.

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ بينهما طباق السلب.

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب، تهديداً وتحذيراً من عاقبة الطغيان.

المفردات اللغوية:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ ابتدئ قراءة القرآن مفتتحاً باسم ربِّك، أو مستعيناً به. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ الذي خلق كل شيء. ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ جنس الإنسان. ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ جمع علقة: وهي قطعة دم يسيرة جامدة، فإذا جرى الدم فهو المسفوح. ﴿ٱقْرَأْ﴾ تأكيد للأول. ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ الذي لا يوازيه كريم، الزائد في الكرم على كل كريم، فإنه يُنعم بلا غرض. ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ علّم الخط والكتابة بالقلم، وأول من خط به إدريس عليه السلام. ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ علم جنس الإنسان بخلق القوى، وإقامة الدلائل، وإنزال الآيات، وبتعليمه الأشياء من غير معلِّم كالكتابة والصناعة وغيرها، والمقصود: أنه يعلمك القراءة وإن لم تكن قارئاً. وقال: ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ بلفظ الجمع؛ لأنه أراد بالإنسان الجمع، وكل الناس خلقوا من علق بعد النطفة. والعلقة: قطعة من دم رطب، سميت بذلك؛ لأنها تعلق لرطوبتها بما تمر عليه، فإذا جفّت لم تكن علقة.

وقد أبان في هذه الآيات مبدأ خلق الإنسان الذي يدلّ على الأوصاف الإلهية، وأهمها بيان وجوده وقدرته تعالى، ثم أشار إلى إثبات العلوم السمعية الموقوفة على النقل والكتابة، ثم إثبات النبوة.

﴿كَلَّآ﴾ أي حقاً عند بعض المفسرين؛ لأنه ليس قبله ولا بعده شيء يتوجه إليه الردع، وقال الزمخشري: إنه ردع لمن كفر بنعمة الله عليه وطغى، وهذا معلوم من سياق الكلام، وإن لم يذكر. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: أيَّ فرد من النوع

الإنسانيّ. ﴿لَيَطْغَىٰٓ﴾ يتكبر ويتجاوز الحدّ في العصيان. ﴿أَن رَّءَاهُ﴾ لأن رأى نفسه. ﴿ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ اغتنى بالمال وغيره، أي صار ذا مال وأعوان يغنى بهما، والآية نزلت في أبي جهل، كما سأبيّن. ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يا إنسان. ﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ الرجوع، والرجعى والمرجع والرجوع: مصادر، أي المصير والعودة، والمراد تخويف الإنسان، فإن الله يجازي الطاغي بما يستحقه.

سبب النزول:

نزول الآية (٦):

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ : أخرج أحمد ومسلم والنسائي وابن المنذر وغيرهم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يُعفِّر محمدٌ وجْهَه بين أظهركم؟ فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى، لئن رأيته يفعل لأطأنّ على رقبته، ولأعفرنّ وجهه في التراب، فأنزل الله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾ الآيات.

ثم إنه رأى رسول الله ﷺ في الصلاة، فنكص على عقبيه، فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار، وهولاً شديداً.

التفسير والبيان:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ أي اقرأ مبتدئاً باسم ربِّك، أو مستعيناً باسم ربِّك، الذي أوجد وخلق كل شيء. وقد وصف الله لنا نفسه بأنه الخالق للتذكير بأول النعم وأعظمها. والمراد: الأمر من الله لنبيّه بأن يصير قارئاً، بقدرة الله الذي خلقه وإرادته، وإن لم يكن من قبل قارئاً ولا كاتباً، فمن خلق الكون قادر على أن يوجد فيه القراءة، وإن لم يتعلمها سابقاً.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ أوجد بني آدم من قطعة دم جامد وهي العلقة، التي هي طور من أطوار خلق الجنين، فإنه يبدأ نطفة، ثم يتحول بقدرة الله إلى علقة: وهي كأنها قطعة من الدم الجامد، ثم يكون مضغة: وهي كأنها قطعة لحم، ثم يظهر فيها بقية التخليق من عظام، فلحم، فإنسان كامل الخلقة.

ويلاحظ أنه تعالى أطلق الخلق أولاً ليتناول كل المخلوقات، ثم خصّ الإنسان بالذِّكر لشرفه، أو لعجيب فطرته، أو لأن الآية سيقت من أجله.

وإنما قال: باسم ربِّك، ولم يقل: باسم الله كما في التسمية المعروفة: (بسم الله الرحمن الرحيم) لأن الربّ: من صفات الفعل، والله: من أسماء الذات، وبما أنه أمره بالعبادة، وصفات الذات لا تستوجب شيئاً، وإنما يستوجب العبادة صفات الفعل، فكان ذلك أبلغ في الحثّ على الطاعة، والخلاصة: أنه لم يأت بلفظ الجلالة، لما في لفظ الرّب من معنى الذي ربّاك، ونظر في مصلحتك، وجاء الخطاب ليدل على التأنيس والاختصاص، أي ليس لك ربّ غيره.

وإنما أضاف ذاته إلى رسوله، فقال: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ للدلالة على أنه له، تصل إليه منفعته، أما طاعة العبد فلا تحقق منفعة لله، فإذا أتى بما طلبه منه من طاعة أو توبة، أضافه إلى نفسه بوصف العبودية، فقال: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٧/١].

وإنما ذكر قوله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ بعد قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ للاستدلال على أنه ربّه، وهو الذي أوجده، فصار موجوداً بعد أن كان معدوماً، والخلق والإيجاد تربية، وكذلك جاء بصفة الخالق، أي المنشئ للعالم، للإتيان بصفة لا يمكن للأصنام شركة فيها، فيكون ردّاً على العرب التي كانت تسمي الأصنام أرباباً.

﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾ أي افعل ما أُمرت به من القراءة، وربّك الذي أمرك بالقراءة هو الأكرم من كل كريم، ومن كرمه: تمكينك من القراءة وأنت أميّ. وإنما كرر كلمة ﴿ٱقْرَأْ﴾ للتأكيد، ولأن القراءة لا تتحقق إلا بالتكرار والإعادة. وقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ لإزاحة المانع، وإزالة العذر الذي اعتذر به النبي ﷺ لجبريل حين طلب منه بقوله: ﴿ٱقْرَأْ﴾، فقال: ما أنا بقارئ.

والأوجه: أن يراد بقوله الأول: ﴿ٱقْرَأْ﴾: أوجد القراءة، وبالثاني: استعن باسم ربّك.

ثم قرن القراءة بالكتابة، فقال:

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ أي علّم الإنسان الكتابة بالقلم، فهو نعمة عظيمة من الله عزّ وجلّ، وواسطة للتفاهم بين الناس كالتعبير باللسان، ولولا الكتابة لزالت العلوم، ولم يبقَ أثر لدين، ولم يصلح عيش، ولم يستقر نظام، فالكتابة قيد العلوم والمعارف، ووسيلة ضبط أخبار الأولين ومقالاتهم، وأداة انتقال العلوم بين الأمم والشعوب، فتبقى المعلومات، ثم يبنى عليها ويزاد إلى ما شاء الله، فتنمو الحضارات، وتسمو الأفكار، وتحفظ الأديان، وتنشر الهداية. جاء في الأثر: «قيدوا العلم بالكتابة»[١].

لهذا بدأت دعوة الإسلام بالترغيب في القراءة والكتابة، وبيان أنها من آيات الله في خلقه، ومن رحمته بهم، وكانت معجزة محمد ﷺ الخالدة، وهو العربي الأميّ، قرآناً يتلى، وكتاباً يكتب، وأنه بذلك نقل أمته من حال الأميّة والجهل إلى أفق النور والعلم، كما قال تعالى ممتناً بذلك: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة: ٦٢/ ٢] .

ثم أبان عموم فضله وكثرة نعمه، فقال:

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ أي علَّم الله الإنسان بالقلم كثيراً من الأمور ما لم يعلم بها، فلا عجب أن يعلمك الله أيها النبي القراءة، وكثيراً من العلوم، لنفع أمتك. ورد في الأثر: «من عمل بما علم، ورّثه الله علم ما لم يكن يعلم»[٢].

ثم ردع الإنسان على طغيانه حال الغنى، فقال:

---

(١) أخرجه الطبراني والحاكم عن عبد الله بن عمرو، وهو صحيح.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤/ ٥٢٨

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ أي ارتدعْ وانزجرْ أيها الإنسان، عن كفرك بنعمة الله عليك، وتجاوزك الحدّ في العصيان، لأن رأيت نفسك مستغنياً بالمال والقوة والأعوان.

وقيل: المراد بالآية: حقاً إن أمر الإنسان عجيب، يستذل ويضعف حال الفقر، ويطغى ويتجاوز الحدّ في المعاصي ويتكبّر ويتمرد حتى أحسّ بنفسه القدرة والثروة. وأكثر المفسرين على أن المراد بالإنسان هنا أبو جهل وأمثاله.

ثم أنذر بالعقاب في الآخرة، فقال:

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ أي إن الرجوع والمصير إلى الله وحده، لا إلى غيره، فهو الذي يحاسب كل إنسان على ماله من أين جمعه، وأين صرفه. ويلاحظ أن هذا الكلام جاء على طريقة الالتفات إلى خطاب الإنسان، تهديداً له، وتحذيراً من عاقبة الطغيان.

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود: منهومان لا يشبعان: صاحب العلم، وصاحب الدنيا، ولا يستويان، فأما صاحب العلم فيزداد رضا الرحمن، وأما صاحب الدنيا، فيتمادى في الطغيان، ثم قرأ عبد الله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ، أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ وقال للآخر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

وقد روي هذا مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ: «منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا» .

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - بيان قدرة الله تعالى بالخلق، فهو الخالق، والتنبيه على ابتداء خلق

الإنسان من علقة: قطعة دم جامد رطب غير جاف. وهذه الآيات الكريمات أول شيء نزل من القرآن، وهن أول رحمة من الله لعباده، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم.

٢ً - أمر الله سبحانه الرسول ﷺ بأن يقرأ القرآن باسم ربّه الذي خلق، واسم الذي علّم الإنسان ما لم يعلم.

٣ً - أمر الله تعالى أيضاً بتعلم القراءة والكتابة؛ لأنهما أداة معرفة علوم الدين والوحي، وإثبات العلوم السمعية ونقلها بين الناس، وأساس تقدم العلوم والمعارف والآداب والثقافات، ونمو الحضارة والمدنية.

٤ً - من كرم الله تعالى وفضله: أن علم الإنسان ما لم يكن يعلمه، لينقله من ظلمة الجهل إلى نور العلم، فقد شرّفه وكرّمه بالعلم، وبه امتاز أبو البرية آدم على الملائكة، والعلم إما بالفكر والذهن، وإما باللسان، وإما بالكتابة بالبنان. قال قتادة: القلم نعمة من الله تعالى عظيمة، لولا ذلك لم يقم دين، ولم يصلُح عيش.

وفضائل الكتابة والخط كثيرة، فحيث منّ الله على الإنسان بالخط والتعليم، مدح ذاته بالأكرمية، فقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ، ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ أي علَّم الإنسان بواسطة القلم، أو علّمه الكتابة بالقلم.

مع أنه سبحانه حين عدد على الإنسان نعمة الخلق والتسوية وتعديل الأعضاء الظاهرة والباطنة، وصف نفسه بالكرم قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ [الانفطار: ٨٢/٦-٧] .

جاء في الحديث الصحيح: «أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فكتب ما يكون إلى يوم القيامة، فهو عنده في الذِّكْر فوق عرشه»[١].

---

(١) تفسير القرطبي: ٢٠/ ١٢١

وكانت أميَّة الرسول ﷺ ثم تعليمه من الله أثبت لمعجزته بين العرب الأميين، وأقوى في حجته.

٥ً - أخبر الله تعالى عن طبع ذميم في الإنسان وهو أنه ذو فرح وأشر، وبطر وطغيان إذا رأى نفسه قد استغنى، وكثر ماله.

لذا هدده الله وتوعده ووعظه ليضبط طغيانه ويوقف تهوره بإخباره بأنه إلى الله المصير والمرجع، وسيحاسب كل إنسان على ماله، من أين جمعه، وفيمَ صرفه وأنفقه.

وأصل نزول الآية في أبي جهل عند أكثر المفسرين، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية وسمع بها المشركون، أتاه أبو جهل فقال: يا محمد، تزعم أنه من استغنى طغى؛ فاجعل لنا جبال مكة ذهباً، لعلنا نأخذ منها، فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: «يا محمد خيِّرهم في ذلك، فإن شاؤوا فعلنا بهم ما أرادوه، فإن لم يسلموا فعلنا بهم كما فعلنا بأصحاب المائدة» . فعلم رسول الله ﷺ أن القوم لا يقبلون ذلك؛ فكفَّ عنهم إبقاء عليهم[١].

٦ً - أول السورة يدل على مدح العلم، وآخرها يدل على مذمة المال، وكفى بذلك مرغباً في الدين، ومنفراً عن الدنيا والمال[٢].

---

(١) تفسير القرطبي: ٢٠/ ١٢٣

(٢) تفسير الرازي: ٣٢/ ٩

صور أخرى من الطغيان وتهديد الطغاة ووعيدهم

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب۩ ﴿١٩﴾﴾

القراءات:

﴿أَرَءَيْتَ﴾:

وقرأ الكسائي: (أريت).

الإعراب:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾﴾ ﴿أَرَءَيْتَ﴾: يقرأ بالهمز على الأصل، وبالتخفيف بجعل الهمزة بين الهمزة والألف؛ لأن حركة الهمزة فتحة، وتخفيف الهمزة: أن تجعل بين الهمزة والحرف الذي حركتها منه. وتقرأ بالإبدال: بجعل الهمزة ألفاً تشبيهاً لها بما إذا كانت ساكنة، مفتوحاً ما قبلها، وليس لقياس. و﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾: مفعول أول لـ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الأول، و ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الثاني مكرر للتأكيد ولطول الكلام. وقوله: ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ مع ما عطف عليه مفعول ثان له. وجواب الشرط محذوف يدل عليه جواب الشرط الثاني وهو قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾. ويجوز أن يكون ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الثالث أيضاً مكرراً. وجواب الشرط بالحقيقة هو ما تدل عليه هذه الجملة الاستفهامية وهي: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ كأنه قيل: إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى أو كذب وتولى، فإن الله مجازيه.

﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ، نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ نون (نسفعن) نون التوكيد

الخفيفة، وتكتب بالألف عند البصريين كالتنوين، وبالنون عند الكوفيين، وهي مكتوبة في المصحف بالألف، كمذهب البصريين، مثل: ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ١٢/٣٢] وليس في القرآن لهما نظير. ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ﴾: بدل من الناصية، وهذا بدل النكرة من المعرفة.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ أي أهل مجلسه، أهل ناديه، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

البلاغة:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا﴾ ؟ كناية، كنى بالعبد عن رسول الله ﷺ، ولم يقل: ينهاك؛ تفخيماً لشأنه وتعظيماً لقدره. و﴿أَرَءَيْتَ﴾ استفهام للإنكار والتعجب، وهي بمعنى أخبرني.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾﴾ ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾﴾؟ استفهام للتعجيب من حال الناهي الذي ينهى.

﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ مجاز عقلي، أسند الكذب والخطأ إلى الناصية مجازاً، والمراد صاحبها؛ لأنه السبب.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ مجاز مرسل علاقته المحلية، أي أهل ناديه، بإطلاق المحل وإرادة الحالّ.

المفردات اللغوية:

﴿أَرَءَيْتَ﴾؟ أي أخبرني، وهي في المواضع الثلاثة للتعجب، والمراد من الاستخبار: إنكار الحال المستخبر عنها وتقبيحها، مثل: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾﴾ [الماعون: ١/١٠٧]. ﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ، عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾ الناهي: هو أبو جهل، والعبد: هو النبي ﷺ. والمعنى: أخبرني عمن ينهى

بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله، أو كان آمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد، وكذلك إن كان على التكذيب للحق والتولي عن الدين الصحيح كما نقول نحن؟!

وقيل: أرأيت إن كان المنهي على الهدى أو أمر بالتقوى؟ و(أو): للتقسيم. ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ﴾ الناهي النبيَّ؟ ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ عن الإيمان. ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾؟ أي ألم يدر بأن الله يرى ويشاهد ما يصدر منه، فيجازيه عليه؟ أي اعْجَبْ منه يا مخاطب من حيث نهيه عن الصلاة، ومن حيث إن المنهي عن الهدى آمر بالتقوى، ومن حيث إن الناهي مكذب متول عن الإيمان؟!

والخطاب في قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾﴾ للرسول ﷺ على وجه التعجب. وفيه أنه ﷺ كان يقول: «اللهم أعِزّ الإسلام بعُمر، أو بأبي جهل بن هشام» وكأنه تعالى قال له: يا محمد، كنت تظن أنه يعِزّ به الإسلام، وهو ينهى عن الصلاة التي هي أول أركان الإسلام. وكان يلقب بأبي الحكم، فقيل له: كيف يليق به هذا اللقب، وهو ينهى العبد عن خدمة ربه، ويأمره بعبادة الجماد؟!

وجواب شرط: ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ محذوف تقديره: إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى، ألم يعلم بأن الله يرى، أي فإن الله مجازيه.

﴿كَلَّا﴾ ردع للناهي. ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ عما هو فيه أو عليه من الكفر، واللام: لام القسم. ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ لنأخذن بناصيته، ولنسحبنه بها إلى النار. والسفع: الجذب بشدة، والناصية: شعر الجبهة. والمراد بذلك: القهر والإذلال بأنواع العذاب. ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ وصفها بالكذب والخطأ، والمراد صاحبها، بالإسناد المجازي للمبالغة. ﴿نَادِيَهُۥ﴾ أي أهل ناديه، والنادي: المجلس أو مكان اجتماع القوم للتحدث فيه، ولا يسمى نادياً حتى يكون فيه أهله.

﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ ليجروه إلى النار، و﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ الملائكة الغلاظ الشداد جمع زبنية وزِبْني، قال ابن عباس فيما ذكره أحمد: «لو دعا ناديه لأخذته الزبانية عياناً». ﴿كَلَّا﴾ ردع للناهي أيضاً. ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ يا محمد في ترك الصلاة، واثبت أنت على طاعتك. ﴿وَٱسْجُدْ﴾ ودم على سجودك، وصلِّ لله. ﴿وَٱقْتَرِب﴾ تقرب إلى ربك بطاعته.

سبب النزول:

نزول الآية (٩):

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾﴾: أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يصلي، فجاءه أبو جهل، فنهاه، فأنزل الله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾.

نزول الآية (١٧):

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾: أخرج أحمد والترمذي والنسائي وابن جرير عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يصلي، فجاءه أبو جهل، فقال: ألم أنهك عن هذا؟ فزجره النبي ﷺ، فقال أبو جهل: إنك لتعلم ما بها نادٍ أكثر مني، فأنزل الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ وهو حسن صحيح كما قال الترمذي.

المناسبة:

بعد أن أبان سبحانه في مطلع السورة مظاهر القدرة الإلهية، وعدد نعمه ومننه العظمى على الإنسان بتعليمه القراءة والكتابة وما لم يعلم، ذكر السبب الحقيقي لكفر الإنسان وطغيانه وبغيه، وهو حب الدنيا والثروة والاغترار بها؛ مما شغله عن النظر في آيات الله وشكر نعمه.

ثم ذكر صوراً أخرى من طغيان الإنسان، وهي النهي عن الصلاة

والعبادة، وهل يأمر بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان؟ وتكذيبه بالحق والتولي عن الدين والإيمان.

وناسب بعد هذا تهديده ووعيده بالعقاب الشديد والنكال الأليم يوم العرض والحساب، من غير أن يجد نصيراً ينصره أو معيناً يمنعه من العذاب.

وختمت السورة بأمر النبي ﷺ بعدم طاعة هذا الطاغية، والإقبال على عبادة ربه، والتقرب إليه بالطاعة.

التفسير والبيان:

أخبر الله تعالى عن حالات قبيحة جداً من أحوال الطغاة وهي:

أ - ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ ؟ أي أخبرني عن حال هذا الطاغية المغرور وهو أبو جهل وأمثاله، كيف يجرؤ على أن ينهى عبداً هو محمد رسول الله ﷺ وأتباعه عن أداء الصلاة والعبادة لله رب العالمين، ويريد طاعته في عبادة الأوثان، وترك عبادة الخالق الرزاق؟ وتنكير كلمة ﴿عَبْدًا﴾ يدل على كونه كاملاً في العبودية. والمراد بالآية: ما أجهل من ينهى أشد الخلق عبودية عن الصلاة، وذلك مذموم عند العقلاء.

روي أن علياً رضي الله عنه رأى في المصلى أقواماً يصلون قبل صلاة العيد، فقال: ما رأيت رسول الله ﷺ يفعل ذلك، فقيل له: ألا تنهاهم؟ فقال: أخشى أن أدخل تحت قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ فلم يصرح بالنهي عن الصلاة. وأخذ أبو حنيفة منه هذا الأدب الجميل حين قال أبو يوسف: أيقول المصلي حين يرفع رأسه من الركوع: اللهم اغفر لي؟ فقال: يقول: ربنا لك الحمد، ويسجد، ولم يصرح بالنهي عن الدعاء[١].

---

(١) تفسير الرازي: ٣٢/ ٢١، غرائب القرآن: ٣٠/ ١٣٦

٢ - ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾ أي أخبرني أيضاً عن حال هذا الطاغية الناهي، إن كان على طريق سديد فيما ينهى عنه من عبادة الله تعالى، أو هل هو آمر بالتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان، كما يعتقد؟

والأكثرون على أن الخطاب للنبي ﷺ أيضاً، ليكون الكلام على نسق واحد. وقيل: الخطاب للكافر، والمعنى: أرأيتِ يا كافر إن كانت صلاة هذا العبد المنهي هدى، ودعاؤه إلى الدين أمراً بالتقوى، أتنهاه مع ذلك؟ والتقوى: الإخلاص والتوحيد والعمل الصالح الذي تُتقى به النار. ويتصور هذا كأن الظالم والمظلوم حضرا عند الحاكم، أحدهما المدعي، والآخر المدعى عليه، ثم خاطب هذا مرة، أي في الكلام الأول: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾﴾ وهذا مرة أي في الكلام الثاني: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾﴾.

٣ - ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ أي أخبرني يا محمد عن حال هذا الكافر أبي جهل إن كذب بدلائل التوحيد الظاهرة، ومظاهر القدرة الباهرة، وبما جاء به رسول الله، وأعرض عن الإيمان بدعوتك؟ والجواب فيما دلّ عليه ما يأتي: ألم يعلم بعقله أن الله يرى منه هذه الأعمال القبيحة، وأنه سيجازيه ويحاسبه على جرائمه؟

وهذا على رأي الأكثرين في أن الخطاب في ﴿أَرَءَيْتَ﴾ في المواضع الثلاثة للنبي ﷺ. فإن كان الخطاب للكافر فالمراد بالآية الثالثة: إن كان محمد كاذباً أو متولياً عن الحق، ألا يعلم أن خالقه يراه حتى ينتهي، فلا يحتاج إلى نهيك؟

قال العلماء: هذه الآية وإن نزلت في حق أبي جهل، إلا أن كل من ينهى عن طاعة الله فهو شريك في وعيد أبي جهل.

ثم جاء الزجر والتهديد والوعيد بصيغ مختلفة مبالغ فيها، وبعضها أشد من بعض:

١ - ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ أي أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ويسمع كلامه ويطلع على أحواله، وسيجازيه بها أتم الجزاء، فكيف اجترأ على ما اجترأ عليه؟!

٢ - ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ أي ليرتدع وينزجر هذا الناهي عن البرّ والعبادة لله تعالى، فوالله لئن لم ينته عما هو عليه ولم ينزجر عن الشقاق والعناد، لنأخذن بناصيته، ولنجرّنه إلى النار. والناصية: شعر مقدم الرأس، وصاحبها كاذب خاطئ مستهتر بفعل الخطايا والذنوب.

وفي هذا توعد شديد، وتهديد أكيد عن طغيان هذا الطاغية.

٣ - ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ أي فليدع هذا الناهي أهل ناديه أي قومه وعشيرته، ليستنصر بهم ويعينوه، والنادي: المجلس الذي يجتمع فيه القوم أو الأهل والعشيرة، فإنه إن دعاهم لنصرته، تعرض لسخط ربه وعقابه الأشد، وسندعو له حينئذ الزبانية، أي الملائكة الغلاظ الشداد، ليأخذوه ويلقوه في نار جهنم. وفي هذا تحدٍّ بالغ.

روي أن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً؟ فنزلت، كما تقدم.

وروى البخاري والترمذي والنسائي وابن جرير عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «لئن فعل لأخذته الملائكة» .

٤ - ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ أي إياك يا محمد أن تجامل هذا الطاغية في شيء، أو تطيعه فيما دعاك إليه من ترك الصلاة كما قال: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾ [القلم: ٨/٦٨] ، وصلِّ لله غير مكترث به، ولا مبال بتهديده

أو نهيه، وتقرب إلى الله سبحانه بالطاعة والعبادة، فذلك يكسبك قوة وعزة، ومنعة وهيبة في قلوب الأعداء، والعبادة هي الحصن والوقاية، وطريق النجاة والنجاح والنصر.

وقوله: ﴿كَلَّا﴾ ردع لأبي جهل عن قبائح أحواله وأفعاله. والمراد بنهي النبي ﷺعن طاعة أبي جهل: قطع كل الصلات والعلاقات معه، والمراد بالأمر بالسجود: أن يزداد غيظ الكافر.

وهذا تهكم بهذا الطاغية، واستخفاف به، وتعريض بأن الله سبحانه وتعالى عاصم نبيه وحافظه.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - وصف الله تعالى أبا جهل وأمثاله من الطغاة المتمردين المتكبرين بأنه ينهى الرسول ﷺ وأتباعه عن عبادة الله تعالى، وأنه فيما يأمر به من عبادة الأوثان ليس على طريق سديدة، ولا على منهج الهدى، ولا من الآمرين بالتقوى، أي التوحيد والإيمان والعمل الصالح، وأنه في الحقيقة مكذب بكتاب الله عز وجل، ومعرض عن الإيمان.

٢ - هدّد الله تعالى هذا الطاغية بالحشر والنشر، فإن الله تعالى عالم بجميع المعلومات، حكيم لا يهمل، عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فلا بدّ أن يجازي كل أحد بما عمل. وفي هذا تخويف شديد للعصاة، وترغيب قوي لأهل الطاعة.

وهذه الآية، وإن نزلت في حق أبي جهل، فكل من نهى عن طاعة الله، فهو شريك أبي جهل في هذا الوعيد، كما تقدم.

ولا يعترض عليه بالمنع من الصلاة في الدار المغصوبة، والأوقات المكروهة؛ لأن المنهي عنه غير الصلاة، وهو المعصية.

كذلك لا يعترض عليه بمنع الزوجة عن صوم التطوع وعن الاعتكاف؛ لأن ذلك لاستيفاء مصلحة الزوج بإذن الله، لا بغضاً بعبادة ربه.

٣ً - زاد الله تعالى في الزجر والوعيد لذلك الطاغية أبي جهل وأمثاله: بأنه إن لم ينته عن أذى محمد ليأخذن الله بناصيته (مقدم شعر رأسه) وليذلّنه ويجرّنه إلى نار السعير؛ لأن ناصية أبي جهل كاذبة في قولها، خاطئة في فعلها، والخاطئ معاقب مأخوذ، والمخطئ[1] غير مؤاخذ. والمراد أن صاحب تلك الناصية كاذب خاطئ، كما يقال: نهاره صائم، وليله قائم، أي هو صائم في نهاره، قائم في ليله.

٤ً - تحدى الله تعالى هذا الطاغية مع التهكم والتوبيخ بأن يطلب أهل مجلسه وعشيرته، ليستنصر بهم، فإنه إذا فعل أحضر الله الزبانية الملائكة الغلاظ الشداد لإلقائه في نار السعير.

٥ً - بالغ الله تعالى في زجر هذا الكافر عن كبريائه، ونَفَى قدرتَه على تحقيق تهديده، وحقَّره وأبان صغر شأنه وعجز نفسه، فليس الأمر كما يظنه أبو جهل، ولا تطعه يا محمد فيما دعاك إليه من ترك الصلاة، وصلِّ لله، وتقرب إلى جنابه بالطاعة والتعبد.

وإنما عبَّر عن الصلاة لله بقوله ﴿وَٱسْجُدْ﴾ لما روى عطاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه، وأحبه إليه، جبهتُه في الأرض، ساجداً لله» . وعند مسلم عن أبي هريرة: «أقرب ما يكون العبد من ربه، وهو ساجد، فأكثروا الدعاء» .

(١) الخاطئ: الآثم القاصد للذنب. والمخطئ: من أراد الصواب، فصار إلى غيره.

وإنما كان ذلك؛ لأن السجود على الأرض نهاية العبودية والذلة، ولله غاية العزة، وله العزة التي لا مقدار لها، فكلما بعدت من صفته، قربت من جنته، ودنوت من جواره في داره. جاء في الحديث الصحيح: أن النبي ﷺ قال: «أما الركوع فعظموا فيه الرب. وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فإنه قَمِن[١] أن يستجاب لكم»[٢].

(١) قَمِن: خليق وجدير.

(٢) تفسير القرطبي: ١٢٨/٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القدر

مكية، وهي خمس آيات

تسميتها:

سميت سورة القدر، أي العظمة والشرف تسمية لها بصفة ليلة القدر الذي أنزل الله فيها القرآن، فقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ أي في ليلة عظيمة القدر والشرف.

مناسبتها لما قبلها:

أمر الله تعالى في سورة العلق نبيه ﷺ بقراءة القرآن باسم ربه الذي خلق، واسم الذي علّم الإنسان ما لم يعلم، ثم أبان في هذه السورة زمن البدء في نزول القرآن، وهو ليلة القدر ذات الشرف الرفيع والقدر العالي بسبب نزول القرآن فيها.

ما اشتملت عليه السورة:

تحدثت هذه السورة المكية عن تاريخ بدء نزول القرآن الكريم، وعن فضل ليلة القدر على سائر الأيام والليالي والشهور، لنزول الملائكة وجبريل فيها بالأنوار والأفضال والبركات والخيرات على عباد الله المؤمنين الصالحين، من لدن أرحم الراحمين الذي يفيض بها على من يشاء.

معنى نزول القرآن في ليلة القدر:

معنى نزول القرآن في ليلة القدر، مع العلم بأنه نزل منجّماً مقسّطاً على مدى ثلاث وعشرين سنة: أنه ابتدأ إنزاله ليلة القدر؛ لأن بعثة النبي ﷺ كانت في رمضان.

وذلك لأن الله تعالى قال في هذه السورة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ وقال في سورة الدخان: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾﴾ [الدخان: ٤٤/١-٦].

وأما قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٥] فمعناه أنه ابتدأ نزول القرآن في شهر رمضان المبارك.

وأما آية الأنفال: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ﴾ [الأنفال: ٨/ ٤١] فلا تعني تحديد موعد نزول القرآن، وإنما تذكّر المؤمنين بما أنزل على محمد ﷺ يوم بدر في السابع عشر من رمضان من الآيات المتعلقة بأحكام القتال، والملائكة، والنصر. وسمي يوم بدر يوم الفرقان لأنه فرق فيه بين الحق والباطل.

بدء نزول القرآن وفضائل ليلة القدر

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾

القراءات:

﴿مَطۡلَعِ﴾:

وقرأ الكسائي (مطلِع).

الإعراب:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ يراد بالهاء القرآن، وأضمره وإن لم يجر له ذكر، للعلم به.

﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣﴾ فيه صفة محذوفة، تقديره: خير من ألف شهر، لا ليلة قدر فيه، فحذف الصفة.

﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ ﴿هِيَ﴾: مبتدأ، و﴿سَلَٰمٌ﴾: خبره المقدم.

﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ أي إلى مطلع الفجر. ويقرأ أيضاً ﴿مَطۡلِعِ﴾ بكسر اللام، والقياس هو الفتح؛ لأنه من طلَع يطلُع، بضم عين المضارع، والكسر على خلاف القياس.

البلاغة:

﴿لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ إطناب لذكرها ثلاث مرات، للتفخيم وزيادة العناية بها.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢﴾ استفهام بقصد التفخيم والتعظيم.

﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ ذكر الخاص بعد العام، ذكر جبريل بعد الملائكة، للتنويه بقَدْره.

﴿ٱلۡقَدۡرِ﴾، ﴿شَهۡرٖ﴾، ﴿أَمۡرٖ﴾، ﴿ٱلۡفَجۡرِ﴾ سجع مرصع: وهو توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ القرآن، أضمره من غير سابقة ذكر له، للعلم به، والشهادة

بأنه غني عن التصريح والتعريف، وقد عظَّمه بإسناد إنزاله إليه، وعظَّم الوقت الذي نزل فيه بقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢﴾.

﴿أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ أي ابتدأ إنزاله فيها، أو أنزله جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا على السفرة الكرام البررة، ثم كان جبريل ينزل به على رسول الله ﷺ منجّماً مقسطاً على التدريج في ثلاث وعشرين سنة. قال ابن العربي: وهذا باطل؛ ليس بين جبريل وبين الله واسطة، ولا بين جبريل ومحمد عليهما السلام واسطة. ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢﴾ أي ما أعلمك يا محمد ما هذه الليلة؟ والاستفهام لتعظيم شأنها، وسميت بذلك لشرفها، أو لتقدير الأمور فيها، كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدخان: ٤٤/٤].

﴿خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ ليس فيها ليلة قدر، فالعمل الصالح فيها خير منه في ألف شهر ليست فيها. ﴿تَنَزَّلُ﴾ أي تتنزل إلى الأرض أو السماء الدنيا، أو تقربهم إلى المؤمنين. ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ جبريل عليه السلام. ﴿فِيهَا﴾ في الليلة. ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِم﴾ بأمره. ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾ أي كل أمر قضاه الله فيها لتلك السنة إلى قابل، وقوله: ﴿مِّن﴾ سببية، بمعنى الباء، أي من أجل كل أمر قدّر في تلك السنة. والآية: ﴿تَنَزَّلُ﴾ لبيان سبب تفضيلها على ألف شهر.

﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ أي ما هي إلا سلامة، والمعنى: لا يقدر الله فيها إلا السلامة، وأما في غيرها فيقضي بالسلامة والبلاء، أو لكثرة سلام الملائكة فيها على كل مؤمن ومؤمنة. ﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ أي إلى وقت مطلعه أو طلوعه.

سبب النزول:

نزول الآية (١):

أخرج الترمذي والحاكم وابن جرير عن الحسن بن علي أن ليلة القدر خير

من ألف شهر، ونزول السورة هي بسبب ما ساءه من حكم بني أمية الذي دام ألف شهر، ولكنه حديث غريب ومنكر جداً.

وأخرج ابن أبي حاتم والواحدي عن مجاهد: أن رسول الله ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك، فأنزل الله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ التي لبس ذلك الرجل السلاح فيها في سبيل الله.

نزول الآية (٣):

أخرج ابن جرير عن مجاهد قال: كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح، ثم يجاهد العدو بالنهار حتى يمسي، فعمل ذلك ألف شهر، فأنزل الله: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ عملها ذلك الرجل.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ أي إننا نحن الله بدأنا إنزال القرآن في ليلة القدر، وهي الليلة المباركة، كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾﴾ [الدخان: ٤٤/٣] وهي في شهر رمضان؛ لقول الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٥] . ثم أتممنا إنزاله بعد ذلك منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الحاجة وما تقتضيه الوقائع والحوادث، تبياناً للحكم الإلهي فيها. قال الزمخشري رحمه الله: عظَّم الله القرآن من ثلاثة أوجه: أحدها - أن أسند إنزاله إليه، وجعله مختصاً به دون غيره، والثاني - أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه، والثالث - الرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فيه[1].

---

(١) الكشاف: ٣/ ٣٥١

ثم ذكر الله تعالى فضائل تلك الليلة، فقال:

أ - ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾ أي وما أعلمك ما ليلة القدر؟ وهذا لتفخيم شأنها وتعظيم قدرها، وبيان مدى شرفها، وسميت بذلك؛ لأن الله تعالى يقدر فيها ما شاء من أمره إلى السنة القابلة، أو لعظيم قدرها وشرفها. قال الزمخشري: معنى ليلة القدر: ليلة تقدير الأمور وقضائها، من قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدخان: ٤٤/٤].

وقدرها أيضاً: أن العمل فيها، وهي ليلة واحدة، خير من العمل في ألف شهر.

أخرج الإمام أحمد والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما حضر رمضان قال رسول الله ﷺ: «قد جاءكم شهر رمضان، شهر مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حُرم خيرها فقد حُرم».

وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه».

٢ - ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤﴾ أي تهبط الملائكة وجبريل من السماوات إلى الأرض بكل أمر ومن أجل كل أمر قدِّر في تلك الليلة إلى قابل، قال النبي ﷺ: «إن الله يقدِّر المقدَّر في ليلة البراءة، فإذا كان ليلة القدر يسلِّمها إلى أربابها». ولا يفعلون شيئاً إلا بإذن الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ١٩/ ٦٤]. والروح: هو جبريل عليه السلام، خصّ بالذكر لزيادة شرفه، فيكون من باب عطف الخاص على العام.

ومن فوائد نزول الملائكة: أنهم يرون في الأرض من أنواع الطاعات ما لم

يروه في سكان السماوات، ويسمعون أنين العصاة الذي هو أحب إلى الله من زجل المسبّحين، فيقولون: تعالوا نسمع صوتاً هو أحب إلى ربنا من تسبيحنا.

ولعلَّ للطاعة في الأرض خاصية في هذه الليلة، فالملائكة أيضاً يطلبونها طمعاً في مزيد الثواب، كما أن الرجل يذهب إلى مكة لتصير طاعاته هناك أكثر ثواباً.

٣ً - ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ أي هذه الليلة المحفوفة بالخير بنزول القرآن وشهود الملائكة، ما هي إلا سلامة وأمن وخير وبركة كلها، لا شرَّ فيها، من غروب الشمس حتى وقت طلوع الفجر، يستمر فيها نزول الخير والبركة، ونزول الملائكة بالرحمة فوجاً بعد فوج إلى طلوع الفجر.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستدل بالآيات على ما يأتي:

١ً - بدأ نزول القرآن العظيم في ليلة القدر من ليالي رمضان المبارك.

٢ً - ليلة القدر هي ليلة الشرف والتعظيم، وليلة الحكم والتقدير، يقدِّر الله فيها ما يشاء من أمره، إلى مثلها من السنة القابلة؛ من أمر الموت والأجل والرزق وغيره، ويسلِّمه إلى مدبِّرات الأمور، وهم أربعة من الملائكة: إسرافيل، وميكائيل، وعزرائيل، وجبرائيل عليهم السلام.

٣ً - العمل في ليلة القدر خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وفي تلك الليلة يقسم الخير الكثير الذي لا يوجد مثله في ألف شهر.

٤ً - تهبط الملائكة من كل سماء، ومن سِدْرة المنتهى، وجبريل حيث مسكنه على وسطها إلى الأرض، ويؤمِّنون على دعاء الناس، إلى وقت طلوع الفجر. وهم ينزلون في ليلة القدر بأمر ربهم من أجل كل أمر قدّره الله وقضاه في تلك

السنة إلى قابل، كما قال ابن عباس: وهذه الآية دالة على عصمة الملائكة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ١٩/ ٦٤] وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٢٧].

٥ - تلك الليلة ليلة أمن وسلام، وخير وبركة من الله تعالى، فلا يقدّر الله في تلك الليلة إلا السلامة، وفي سائر الليالي يقضي بالبلايا والسلامة، وهي ليلة ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان في مؤمن ومؤمنة. وليلة سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً ولا أذى. وهي خير كلها، ليس فيها شر إلى مطلع الفجر. والخلاصة: اشتملت هذه الليلة على الخيرات والبركات وتقدير الأرزاق، والمنافع الدينية والدنيوية.

يؤيد هذا ما أخرجه الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «ليلة القدر في العشر البواقي، من قامهن ابتغاء حسبتهن، فإن الله يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهي ليلة وتر: تسع أو سبع أو خامسة أو ثالثة أو آخر ليلة».

تعيين ليلة القدر:

الذي عليه أكثر العلماء أنها ليلة سبع وعشرين من رمضان، كل عام؛ لحديث زِرّ بن حُبَيش الذي أخرجه مسلم والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، قال: قلت لأبيّ بن كعب: إن أخاك عبد الله بن مسعود يقول: من يَقُم الحول يُصِب ليلة القدر، فقال: يغفر الله لأبي عبد الرحمن! لقد علم أنها في العشر الأواخر من رمضان، وأنها ليلة سبع وعشرين؛ ولكنه أراد ألا يتّكل الناس، ثم حلف لا يستثني[1]: أنها ليلة سبع وعشرين. قال: قلت: بأي شيء تقول ذلك يا أبا المنذر؟ قال: بالآية التي أخبرنا بها رسول الله ﷺ، أو بالعلامة: أن الشمس تطلع يومئذ لا شعاع لها.

---

(١) أي جزم في حلفه بلا استثناء فيه، بأن يقول عقب يمينه: إن شاء الله.

والجمهور على أن هذه الليلة باقية في كل عام، ومختصة برمضان.

أماراتها أو علاماتها:

من علاماتها أن الشمس تطلع في صبيحتها بيضاء لا شعاع لها. روى أبو داود الطيالسي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «ليلة سَمْحة طَلْقة، لا حارّة ولا باردة، وتصبح شمس صبيحتها ضعيفة حمراء». وروى ابن أبي عاصم النبيل بإسناده عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ قال: «إني رأيت ليلة القدر، فأُنسيتها، وهي في العشر الأواخر من لياليها، وهي طَلْقة بَلْجَة، لا حارّة ولا باردة، كأن فيها قمراً، لا يخرج شيطانها حتى يضيء فجرها».

وروي أن النبي ﷺ خرج ليخبر عن ليلة القدر، فوجد رجلين يتنازعان، فنسي الخبر.

الحكمة في إخفائها بين الليالي:

الحكمة في إخفاء ليلة القدر كالحكمة في إخفاء وقت الوفاة، ويوم القيامة، حتى يرغب المكلف في الطاعات، ويزيد في الاجتهاد، ولا يتغافل، ولا يتكاسل، ولا يتكل. ومن الإشفاق أيضاً ألا يعرفها المكلف بعينها لئلا يكون بالمعصية فيها خاطئاً متعمداً. وإذا اجتهد العبد في طلب ليلة القدر بإحياء الليالي المظنونة، باهى الله تعالى ملائكته، ويقول: كنتم تقولون فيهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠] فهذا جِدُّهم في الأمر المظنون، فكيف لو جعلتها معلومة لهم؟ فهنالك يظهر سرّ قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فضائلها:

أوجز الله تعالى كما تقدم بيان فضائلها بقوله سبحانه: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ

أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾. والآية الأولى فيها بشارة عظيمة وفيها تهديد عظيم، أما البشارة: فهي أنه تعالى ذكر أن هذه الليلة خير، ولم يبين قدر الخيرية. وأما التهديد: فهو أنه تعالى توعد صاحب الكبيرة بالدخول في النار، وأن إحياء مئة ليلة من القدر، لا يخلصه عن ذلك العذاب المستحق، بتطفيف حبة واحدة، فدلّ ذلك على تعظيم حال الذنب والمعصية[١]. وفي الصحيحين عن أبي هريرة كما تقدم: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً، غُفر له ما تقدّم من ذنبه» .

وقال الشعبي: وليلُها كيومها، ويومها كليلها. وقال الفرّاء: لا يقدر الله في ليلة القدر إلا السعادة والنعم، ويقدِّر في غيرها البلايا والنقم. وقال سعيد بن المسيب في الموطأ: من شهد العِشاء من ليلة القدر، فقد أخذ بحظه منها. ومثله ومثل ما تقدمه لا يُدْرَك بالرأي.

(١) تفسير الرازي: ٣٢/ ٣١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة البيّنة

مكية، وهي ثمان آيات

تسميتها:

سميت سورة البيِّنة؛ لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾ أي مفارقين ما هم عليه من الكفر، منتهين زائلين عن الشرك، حتى تأتيهم الحجة الواضحة، وهي ذلك المُنْزَلُ الذي يتلوه رسول الله ﷺ، وتسمى أيضاً سورة ﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾، أو: ﴿لَمْ يَكُنِ﴾.

مناسبتها لما قبلها:

هذه السورة كالعلة لما قبلها، فكأنه لما قال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ قيل: لم أُنزل القرآن؟ فقيل: لأنه لم يكن الذين كفروا منفكّين عن كفرهم، حتى تأتيهم البينة، فهي كالعلة لإنزال القرآن، المشار إليه في سورة القدر المتقدمة.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة المدنية تحدثت عن الأمور الثلاثة التالية:

أً - بيان علاقة أهل الكتاب (اليهود والنصارى) والمشركين برسالة النبي ﷺ، وموقفهم منها، وإقلاعهم عن كفرهم بسببها: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾ [الآيات: ١-٤] .

٢ً - تحديد الهدف الجوهري من الدين والإيمان، وهو إخلاص العبادة لله عز وجل: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [الآية: ٥] .

٣ً - توضيح مصير كل من الكفار المجرمين الأشقياء شر البرية، والمؤمنين الأتقياء السعداء خير البرية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الآيات: ٦-٨] .

فضلها:

أخرج الإمام أحمد عن مالك بن عمرو بن ثابت الأنصاري قال: «لما نزلت: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلى آخرها، قال جبريل: يا رسول الله! إن ربك يأمرك أن تقرئها أُبيّاً، فقال النبي ﷺ لأبيّ: إن جبريل أمرني أن أقرئك هذه السورة، قال أبيّ: وقد ذكرت ثَمّ يا رسول الله؟ قال: نعم، قال: فبكى أبيّ» .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: وسماني لك؟ قال: نعم، فبكى» .

وأخرج أحمد والترمذي عن أبي بن كعب قال: إن رسول الله ﷺ قال لي: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن، فقرأ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فقرأ فيها: ولو أن ابن آدم سأل وادياً من مال فأعطيه لسأل ثانياً، ولو سأل ثانياً فأعطيه لسأل ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب

الله على من تاب، وإن ذات الدين عند الله الحنيفية غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية، ومن يفعل خيراً فلن يُكْفَره» وقال الترمذي: حسن صحيح.

لا تكليف بلا بيان ولا عقوبة دون إنذار

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾

الإعراب:

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾: معطوف على ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ و﴿مُنفَكِّينَ﴾: خبر كان.

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟﴾ ﴿رَسُولٌ﴾: بدل مرفوع من ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ قبله، أو على تقدير مبتدأ محذوف، تقديره هي رسول، وقرئ: (رسولاً) بالنصب على الحال.

﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أي الملة القيمة، فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه، ولولا هذا التقدير، لكان ذلك يؤدي إلى أن يكون ذلك إضافة الشيء إلى نفسه، وذلك لا يجوز.

﴿مُخْلِصِينَ﴾ منصوب على الحال.

البلاغة:

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ ثم قال: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾ إجمال ثم تفصيل.

﴿يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ استعارة تصريحية في لفظ ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ حيث شبه تنزه الصحف عن الباطل بطهارتها عن الأنجاس.

﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾، ﴿ٱلْقَيِّمَةِ﴾، ﴿خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾، ﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ توافق الفواصل، وهو من المحسنات البديعية.

المفردات اللغوية:

﴿مِنْ﴾ للبيان .﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اليهود والنصارى .﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عبدة الأوثان والأصنام .﴿مُنفَكِّينَ﴾ منتهين عن كفرهم، زائلين عما هم عليه، مفارقين له .﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ الحجة الواضحة التي يتميز بها الحق من الباطل، مأخوذة من البيان: وهو الظهور، والمراد هنا: الرسول أو القرآن، فإنه مبين للحق .﴿صُحُفًا﴾ جمع صحيفة: وهي ما يكتب فيه .﴿مُّطَهَّرَةً﴾ خالية من الباطل، مبرَّأة من الضلال والزور.

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾ في الصحف مكتوبات مستقيمة ناطقة بالحق، أي إن الرسول يتلو مضمون الكتب، وهو القرآن .﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ عما كانوا عليه، بأن آمن بعضهم بالقرآن، وكفر به بعضهم .﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ الدليل الواضح الدال على الحق، وهو الرسول ﷺ أو القرآن الجائي به معجزة له.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ في كتبهم كالتوراة والإنجيل .﴿إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي إلا أن يعبدوه، فحذفت (أن) وزيدت اللام .﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ جاعلين الدين له وحده نقيّاً من الشرك، لا يشركون به. والإخلاص: الإتيان بالعمل خالصاً لله تعالى دون إشراك به. والدين: العبادة .﴿حُنَفَآءَ﴾ مائلين عن الباطل والعقائد الزائغة، جمع حنيف: وهو في الأصل المائل المنحرف عن الشيء إلى غيره، والمراد هنا: المستقيمين على دين إبراهيم ودين محمد حين مجيئه .﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ دين الملة المستقيمة.

التفسير والبيان:

أرسل الله تعالى رسوله محمداً ﷺ لجميع العالمين من الإنس والجن، ولجميع الأمم والشعوب في عصره والعصور التالية له، ولكل أهل الملل والأديان، حتى أهل الكتاب والمشركين الذين بعدوا عن الدين الصحيح، لذا قال تعالى:

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾ أي لم يكن الذين جحدوا رسالة النبي ﷺ وأنكروا نبوته، من اليهود والنصارى وعبدة الأصنام والأوثان من مشركي العرب وغيرهم، منتهين عما هم عليه من الكفر، مفارقين لكفرهم الموروث، حتى تأتيهم الحجة الواضحة، وهي رسول الله ﷺ أو القرآن الكريم.

والمراد إخبار الله تعالى عن الكفار أنهم لن ينتهوا عن كفرهم وشركهم بالله، حتى يأتيهم الرسول ﷺ وما جاء به من القرآن، فإنه بيَّن لهم ضلالتهم وجهالتهم، ودعاهم إلى الإيمان.

ثم أوضح المراد بالبيِّنة فقال:

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾ أي تلك البينة هي محمد ﷺ الذي أرسله رحمة للعالمين، يقرأ عليهم ما تتضمنه صحف القرآن، المطهرة من الخلط والكذب، والشبهات والكفر، والتحريف واللَّبْس، بل فيها الحق الصريح الذي يبين لأهل الكتاب والمشركين كل ما يشتبه عليهم من أمور الدين، وفيها الآيات والأحكام المكتوبة المستقيمة المستوية المحكمة، دون زيغ عن الحق، وإنما هي صلاح ورشاد، وهدى وحكمة، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٤٢] وقال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ١-٢] .

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ٨٠/١٢-١٦] .

ثم أبان تفرُّق الكتابيين، فقال:

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ أي لا تتأسف يا محمد على الكتابيين، فإن تفرقهم واختلافهم لم يكن لاشتباه الأمر عليهم، بل كان بعد وضوح الحق، وظهور الصواب، ومجيء الدليل المرشد إلى الدين الحق والبينة الواضحة وهو محمد ﷺ الذي جاء بالقرآن موافقاً لما في أيديهم من الكتاب بنعته ووصفه، فلما بعث الله محمداً، تفرقوا في الدين، فآمن به بعضهم، وكفر آخرون، وكان عليهم أن يتفقوا على طريقة واحدة، من اتباع دين الله، ومتابعة الرسول الذي جاءهم من عند الله، مصدِّقاً لما معهم.

ونظير الآية: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ٣/١٠٥] . وقد أعذر من أنذر، كما قال تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ﴾ [الأنفال: ٨/٤٢] .

وجاء في الحديث المروي من طرق: «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى اختلفوا على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي»(١).

ثم وبَّخهم على انحرافهم عن الهدف الجوهري من الدين، وهو إخلاص العبادة لله، فقال:

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/٥٣٧

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ أي إنهم تفرقوا واختلفوا، مع أنهم لم يؤمروا في التوراة والإنجيل أو في القرآن الذي جاءهم من عند الله إلا بعبادة الله وحده، وتكون عبادتهم خالصة لا يشركون به شيئاً، ويخلصون العبادة لله عز وجل، مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، ويفعلون الصلوات على الوجه الذي يريده الله في أوقاتها، ويعطون الزكاة لمستحقيها عن طيب نفس عند حلول وقتها. وهذا الذي أمروا به يقتضي الاتحاد والاتفاق، لا الشقاق والافتراق، ولم يجئ محمد ﷺ إلا بمثل ما أمر به الرسل من ذلك، ومنهجه اتباع ملة إبراهيم عليه السلام الذي مال عن وثنية أهل زمانه إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله كما قال: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾ [النحل: ١٦/١٢٣] .

وذلك الدين: وهو إخلاص العبادة، وترك كل ما يعبد من دونه، وأداء الصلوات لله في أوقاتها، وبذل الزكاة للمحتاجين، هو دين الملة المستقيمة.

وقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ أي وما أمروا في التوراة والإنجيل إلا بالدين الحنيفي، أي إن المشروع في حقهم مشروع في حقنا. والأولى أن يكون المراد كما ذكر الرازي: وما أمر أهل الكتاب في القرآن أو على لسان محمد ﷺ إلا بهذه الأشياء، لأن الآية على هذا التقدير تفيد شرعاً جديداً، وحمل كلام الله على ما يكون أكثر فائدة أولى، ولقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ أي محمد ﷺ، ولأن الله تعالى ختم الآية بقوله: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ وهو شرع محمد ﷺ.

وهذه الآية دالة على أن التفرق والكفر فِعْلُهم بدليل قوله: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾. والمقصود من هذه الآية تسلية الرسول ﷺ، أي لا يحزنك أو لا يغمّنك تفرقهم، فليس ذلك لقصور في الحجة، بل لعنادهم، وهكذا كان

سلفهم، تفرقوا في السبت وعبادة العجل بعد قيام البينة عليهم، فهي عادة قديمة لهم.

وقوله: ﴿لِيَعْبُدُوا﴾ اللام في موضع (أن) أي إلا أن يعبدوا، والعرب تجعل اللام في موضع (أن) في الأمر والإرادة كثيراً، مثل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٤/٢٦] وقوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا﴾ [الصف: ٦١/٨] وقال في الأمر: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ﴾ [الأنعام: ٦/٧١].

وبما أن الإخلاص: عبارة عن النية الخالصة، والنية معتبرة، فقد دلت الآية على أن كل مأمور به، فلا بدّ وأن يكون مَنْوياً. قالت الشافعية: بما أن الوضوء مأمور به في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٥/٦] ودلت هذه الآية على أن كل مأمور يجب أن يكون مَنْوياً، فيلزم من مجموع الآيتين وجوب كون الوضوء مَنْوياً. وعلى هذا لا بدّ في المأمورات من النية: بأن يقصد الشخص بعمله وجه الله. أما المنهيات فإنْ تَرَكَها بدون نية لم يؤجر في تَرْكِها، وإن تركها ابتغاء وجه الله، كان مأجوراً على تركها، وأما المباحات كالأكل والنوم، فإن فعلها بغير نية لم يؤجر، وإن فعلها بقصد وجه الله والتقوي بها على الطاعة، كان له فيها أجر.

واللام في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ تدل على مذهب أهل السنة حيث قالوا: العبادة ما وجبت لكونها مفضية إلى ثواب الجنة أو إلى البعد عن عقاب النار، بل لأجل أنك عبد، وهو رب، فلو لم يكن هناك ثواب ولا عقاب ألبتة، ثم أمرك بالعبادة، وجبت لمحض العبودية. وفيها أيضاً إشارة إلى أنه من عبد الله للثواب والعقاب، فالمعبود في الحقيقة هو الثواب والعقاب، والحق واسطة.

والعبادة هي التذلل، ومن زعم أنها الطاعة فقد أخطأ؛ لأن جماعة عبدوا الملائكة والمسيح والأصنام، وما أطاعوهم. والعبادة بهذا المعنى لا يستحقها إلا من يكون واحداً في ذاته وصفاته الذاتية والفعلية.

والإخلاص: هو أن يأتي بالفعل خالصاً لداعية واحدة، ولا يكون لغيرها من الدواعي تأثير في الدعاء إلى ذلك الفعل. وقوله: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ تنبيه على ما يجب من تحصيل الإخلاص من ابتداء الفعل إلى انتهائه، والمخلص: هو الذي يأتي بالحسن لحسنه، والواجب لوجوبه، فيأتي بالفعل مخلصاً لربه، لا يريد رياء ولا سمعة ولا غرضاً آخر، بل قالوا: لا يجعل طلب الجنة مقصوداً، ولا النجاة من النار مطلوباً، وإن كان لا بدّ من ذلك. وقالوا أيضاً: من الإخلاص: ألا يزيد في العبادات عبادة أخرى لأجل الغير، مثل الواجب من الأضحية شاة، فإذا ذبحت اثنتين: واحدة لله، وواحدة للأمير، لم يجز؛ لأنه شرك.

ثم إن هذه الآية: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ دليل على أن الإيمان عبارة عن مجموع القول والاعتقاد والعمل؛ لأن الله تعالى ذكر العبادة المقرونة بالإخلاص وهو التوحيد، ثم عطف عليه إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم أشار إلى المجموع بقوله: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[(١)].

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ - للإسلام وشارعه فضل على جميع الأمم والخلائق، فلولاه لما عرف إيمان صحيح، ولا دين حق.

٢ - من هذه الفضائل والمزايا: أن أهل الكتاب (اليهود والنصارى) والمشركين عبدة الأوثان والأصنام لم يصيروا منتهين عن كفرهم، مائلين أو زائلين عنه إلا بمجيء البينة وهي الحجة الواضحة، وهي محمد ﷺ بما جاء به من القرآن العظيم، حجة الله على عباده، ومعجزة رسوله مدى الحياة، وهو

(١) تفسير الرازي: ٣٢/٤٣ - ٤٨

الذي يتلو منه على أسماع البشر صحفاً مطهرة من الزور والشك والنفاق والضلالة، كما قال ابن عباس، وفي تلك الصحف مكتوبات مستقيمة مستوية محكمة، مستقلة بالدلائل.

والصحف: القراطيس التي يكتب فيها القرآن، المطهر من النقائص، ومسّ المحدث إياه. ومعنى تلاوة الصحف: إملاؤه إياها. عن جعفر الصادق رضي الله عنه: أنه ﷺ كان يقرأ من الكتاب، وإن كان لا يكتب، ولعلّ هذا من معجزاته.

٣ً - تقتضي الآية الأولى: ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ أن أهل الكتاب منهم كافر، ومنهم مؤمن ليس بكافر. أما المشركون فلا ينقسمون هذه القسمة، وكلهم كفار؛ لأن كلمة ﴿مِنْ﴾ هنا ليست للتبعيض، بل للتبيين، كقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٢٢/ ٣٠] فقوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بيان للذين كفروا، والمراد أن الكفار فريقان: بعضهم أهل الكتاب ومن يجري مجراهم كالمجوس، وبعضهم مشركون. وكلمة ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وصف لأهل الكتاب؛ لأن النصارى مثلِّثة، وعامة اليهود مشبِّهة، وهذا كله شرك.

٤ً - في الآية الأولى أحكام شرعية هي:

أولاً - أنه تعالى فسّر قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بأهل الكتاب وبالمشركين، وهذا يقتضي كون الكل واحداً في الكفر، لذا قال العلماء: الكفر كله ملة واحدة، فالمشرك يرث اليهودي وبالعكس.

ثانياً - أن العطف أوجب المغايرة، فلذلك نقول: الذمي ليس بمشرك. وقال ﷺ عن المجوس فيما أخرجه الشافعي عن عبد الرحمن بن عوف: «سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحي نسائهم ولا آكلي ذبائحهم» فأثبت التفرقة بين الكتابي والمشرك. لكن قوله: «غير ناكحي» إلخ، زيادة ضعيفة.

ثالثاً - نبَّه بذكر الكتاب على أنه لا يجوز الاغترار بأهل العلم؛ إذ قد حدث في أهل القرآن مثلما حدث في الأمم الماضية[1].

٥ً - خصَّ الله تعالى أهل الكتاب بظهور التفرق فيهم دون غيرهم، وإن اشتركوا مع بقية الكفار في الكفر؛ لأنه مظنون بهم علم، فإذا تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل في هذا الوصف.

٦ً - حدثت ظاهرة تفرق أهل الكتاب بعد البعثة النبوية، وذلك أنهم كانوا مجتمعين متفقين على نبوته، فلما بعث محمد ﷺ، جحدوا نبوته وتفرقوا، فمنهم من كفر بغياً وحسداً، ومنهم من آمن، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الشورى: ٤٢/ ١٤] .

٧ً - ما أمر هؤلاء الكفار في التوراة والإنجيل والقرآن إلا أن يوحِّدوا الله تعالى، ويخلصوا له العبادة، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١﴾ [الزمر: ٣٩/ ١١] وأن يكونوا حنفاء، أي مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام المرضي وحده عند الله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩] وأن يقيموا الصلاة بحدودها في أوقاتها، ويعطوا الزكاة عند حلول أجلها، وذلك الدين الذي أمروا به دين القيمة، أي الدين المستقيم، أو دين الملة القيمة، أو دين الأمة القيمة القائمة بالحق.

٨ً - قوله تعالى: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ دليل على وجوب النية في العبادات؛ فإن الإخلاص من عمل القلب، وهو الذي يراد به وجه الله تعالى، لا غيره.

٩ً - الإخلاص لبّ العبادة، جاء في الحديث القدسي الذي أخرجه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري، تركته وشركه» .

---

(١) تفسير الرازي: ٣٢/ ٤١

وعيد الكفار ووعد الأبرار وجزاء الفريقين

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾:

وقرأ نافع، وابن ذكوان (البريئة).

الإعراب:

﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ ﴿خَـٰلِدِينَ﴾ منصوب على الحال من ضمير مقدر، تقديره: يجزونها خالدين فيها. و﴿أَبَدًا﴾ ظرف زمان مستقبل يتعلق بـ ﴿خَـٰلِدِينَ﴾ وأما (قط) فللماضي، تقول: والله لا أكلمه أبداً، وما كلمته قط.

البلاغة:

﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ و﴿خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ بينهما طباق.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ الآية، و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ الآية فيهما مقابلة بين عذاب الكفار الفجار، وبين نعيم المؤمنين الأبرار.

المفردات اللغوية:

﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ ماكثين فيها يوم القيامة على الدوام، بتقدير الله تعالى، ويلاحظ أن اشتراك أهل الكتاب والمشركين في جنس العذاب لا يوجب

اشتراكهما في نوعه، فربما اختلف لتفاوت كفرهما. ﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ الخليقة أو الخلق، ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ إقامة. ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بطاعته، وهو زيادة على جزائهم. ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بثوابه وفضله، وهو أقصى أمانيهم. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي المذكور من الجزاء والرضوان. ﴿لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ خاف عقابه، فانتهى عن معصية الله تعالى، فإن الخشية ملاك الأمر، والباعث على كل خير.

قال البيضاوي عن وعد المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فيه مبالغات: تقديم المدح، وذكر الجزاء المؤذن بأن ما منحوا في مقابلة ما وصفوا به، والحكم عليه بأنه من عند ربهم، وجمع جنات، وتقييدها إضافة ووصفاً بما يزداد لها نعيماً، وتأكيد الخلود بالتأبيد[١].

المناسبة:

بعد بيان موقف الكفار والمشركين من دعوة النبي ﷺ، ذكر الله تعالى وعيد الكفار، ووعد الأبرار، وجزاء الفريقين، وقدم وعيد أهل الكتاب على المشركين؛ لأنه ﷺ كان يقدّم حق الله على حق نفسه، ولهذا حين كسروا رَباعيته في غزوة أحد قال: «اللهم اهد قومي، فإنهم لا يعلمون» وحيث فاتته صلاة العصر يوم الخندق قال: «ملأ الله بطونهم وقبورهم ناراً» فقال الله تعالى: كما قدَّمت حقي على حقك، فأنا أيضاً أقدم حقك على حقي. فمن ترك الصلاة طول عمره لم يكفر، ومن طعن فيك بوجه يكفر، ثم إن أهل الكتاب طعنوا فيك، فقدّمتهم في الوعيد على المشركين الذين طعنوا فيَّ. ثم إن أهل الكتاب أولى بالإيمان بالرسول محمد ﷺ، فهم في الجملة يؤمنون بدين، ويقرون بنبي آخر الزمان، وعلاماته في كتبهم، فطعنهم به في غير محله، فاستحقوا التقديم في الوعيد لذلك[٢].

---

(١) تفسير البيضاوي: ص ٨٠٦

(٢) غرائب القرآن: ٣٠/١٥٣، تفسير الرازي: ٣٢/٤٩

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن مآل الفجار الكفار فيقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾ أي إن الذين خالفوا كتب الله المنزلة، وأنبياء الله المرسلة، من اليهود والنصارى وعبدة الأصنام، مآلهم يوم القيامة في نار جهنم المستعرة، يصيرون إليها، ماكثين فيها على الدوام، لا يخرجون منها ولا يموتون فيها، وهم حالاً شر الخليقة التي برأها الله وذرأها؛ لأنهم تركوا الحق حسداً وبغياً، فسيكونون شر الخليقة مصيراً. والسبب في أنه لم يقل هنا خالدين فيها أبداً، كما فعل في الأبرار؛ لأن رحمته أزيد من غضبه. وقوله: ﴿هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ لإفادة النفي والإثبات، أي هم دون غيرهم.

ثم أخبر الله تعالى عن حال الأبرار، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾ أي إن الذين آمنوا بقلوبهم بربهم وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعملوا الصالحات بأبدانهم، هم أفضل الخلق حالاً ومآلاً.

وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء على تفضيل المؤمنين الأبرار على الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

ثم ذكر جزاءهم فقال:

﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ أي جزاؤهم يوم القيامة عند خالقهم ومالكهم على الإيمان والعمل الصالح جنات، أو بساتين إقامة دائمة تجري من تحت أشجارها وغرفها الأنهار، ماكثين فيها على الدوام، لا يخرجون منها، ولا يرحلون عنها، ولا يموتون، بل هم دائمون في نعيمها،

مستمرون في لذاتها إلى الأبد، لا نهاية لنعيمهم. وكلمة الجزاء تفيد معنيين: أحدهما - أن يعطيه الجزاء الوافر من غير نقص، والثاني - أنه تعالى يعطيه ما يقع به الكفاية؛ لأن الجزاء اسم لما يقع به الكفاية، فلا يبقى في نفسه شيء إلا ويحققه له، كما قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١/٤١]. وقوله: ﴿تَجْرِي﴾ إشارة إلى أن الماء الجاري ألطف من الراكد.

رضي الله عنهم؛ لأنهم أطاعوا أمره، وقبلوا شرائعه، ورضوا عنه، بما منحهم من الثواب والفضل العميم، وتحقيق المطالب مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وهذا الجزاء والرضوان حاصل لمن خاف الله واتقاه حق تقواه، وعبده كأنه يراه، وانتهى عن معاصيه بسبب ذلك الخوف.

وفي ذلك تحذير من خشية غير الله، وتنفير من إشراك غيره به في جميع الأعمال، وترغيب في تقوى الله ورهبته، حتى يصبح العمل خالصاً لله وحده. كما أن فيه إيماء إلى أن شرط أداء العبادة كالصوم والصلاة: خشية الله والخشوع له.

أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير البرية؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: رجل أخذ بعِنان فرسه في سبيل الله، كلما كانت هَيْعة استوى عليه، ألا أخبركم بخير البرية؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: رجل في ثُلّة من غنمه، يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة. ألا أخبركم بشر البرية؟ قالوا: بلى، قال: الذي يسأل بالله ولا يعطى به».

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أً - استحق أهل الكتاب (اليهود والنصارى) والمشركون عبدة الأصنام

بسبب كفرهم بالإسلام ثلاث عقوبات: دخول نار جهنم، والخلود فيها، ووصفهم بأنهم دون غيرهم هم شر البرية وشر خلق الله.

وقوله في وعيدهم: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ وفي آية الرعد: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ إشارة كما تقدم إلى كمال كرمه وسعة رحمته، كما قال في الحديث القدسي الذي أخرجه مسلم عن أبي هريرة: «سبقت رحمتي غضبي».

٢ً - قال العلماء: آية الوعيد هذه مخصوصة في صورتين:

إحداهما - أن من تاب منهم وأسلم، خرج من الوعيد.

والثانية - أن من مضى من الكفرة يجوز ألا يدخل فيها؛ لأن فرعون كان شراً منهم.

٣ً - استحق الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح أربعة أنواع من الجزاء: وصفهم بأنهم خير البرية، ودخول جنات عدن تجري من تحتها الأنهار، والخلود فيها أبداً، ورضوان الله عليهم، أي رضا أعمالهم، ورضاهم عن الله، أي رضاهم بثواب الله تعالى.

٤ً - وعملوا الصالحات: والخلود في الجنة خير من الجنة، ورضا الله خير من الجنة. إما من مقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة آحاداً، أو مقابلة الفرد بالفرد، فلا مكلف يأتي بجميع الصالحات، بل لكل مكلف حظ، فحظ الغني الإعطاء، وحظ الفقير الأخذ، كما لو قال لامرأتيه: إن دخلتما هاتين الدارين فأنتما كذا، فيحمل على أن يدخل كل واحدة منهما داراً على حدة.

٥ً - احتج بعضهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ أي الخليقة، ويؤيده قراءة الهمز، على تفضيل البشر على الملائكة، أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة مرفوعاً، قال: «أتعجبون من منزلة الملائكة من الله، والذي نفسي بيده لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة، أعظم من ذلك، وقرأ هذه الآية.»

والجواب بأن الملائكة أيضاً داخلون في الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أو المراد بالبرية: بنو آدم؛ لأن اشتقاقها من البرى: وهو التراب، لا من برأ الله الخلق، فلا يدخل الملائكة في الآية البتة.

٦ - قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ مع قوله:﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [فاطر: ٢٨/٣٥] ظاهر في أن العلماء بالله هم خير البرية، اللهم اجعلنا منهم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةُ الزَّلزَلَةِ

مدنية، وهي ثمان آيات

تسميتها

سميت سورة الزلزلة أو الزلزال؛ لافتتاحها بالإخبار عن حدوث الزلزال العنيف قبيل يوم القيامة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾. وهي سورة مدنية، وقال ابن كثير: هي مكية.

مناسبتها لما قبلها:

لما ذكر الله تعالى في آخر سورة البيِّنة وعيد الكافر ووعد المؤمن، وأن جزاء الكافرين نار جهنم، وجزاء المؤمنين جنات، بيَّن هنا وقت ذلك الجزاء وبعض أماراته، وهو الزلزلة وإخراج الأرض أثقالها، فكأنه قيل: متى يكون ذلك؟ فقال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ أي يكون يوم زلزلة الأرض. ثم إنه تعالى أراد أن يزيد في وعيد الكافر، فقال: أجازيه حينما تزلزل الأرض، مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٦] . ثم ذكر ما للطائفتين، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [آل عمران: ٣/١٠٦] ، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [آل عمران: ٣/١٠٧] . ثم جمع بينهما هنا في آخر السورة بذكر الذرَّة من الخير والشر.

ما اشتملت عليه السورة:

أسلوب هذه السورة المدنية وموضوعها يشبه أسلوب وموضوع السور المكية، لإخبارها عن أهوال القيامة وشدائدها.

وقد اشتملت على مقصدين:

١ - بيان حدوث الزلزال والاضطراب الشديد للأرض يوم القيامة، فينهار كل ما عليها، ويخرج الناس الموتى من بطنها من قبورهم، وتشهد حينئذ على كل إنسان بما عمل على ظهرها: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ [الآيات: ١-٥].

٢ - الحديث عن ذهاب الخلائق لموقف العرض والحساب، ثم مجازاتهم على أعمالهم، وقسمتهم فريقين: سعيد إلى الجنة، وشقي إلى النار: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦﴾ [الآيات: ٦-٨].

سبب نزولها:

كان الكفار يسألون كثيراً عن الساعة ويوم الحساب، فيقولون: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ٧٥/٦]. ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الملك: ٦٧/ ٢٥]. ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾[١] [السجدة: ٣٢/ ٢٨] ونحو ذلك، فأبان لهم في هذه السورة علامات القيامة فحسب، ليعلموا أن علم ذلك عند الله، ولا سبيل إلى تعيين ذلك اليوم للعرض والحساب والجزاء.

فضلها:

أخرج الترمذي وأبو داود والنسائي عن عبد الله بن عمرو قال: «أتى رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: أقرئني يا رسول الله، قال له: اقرأ ثلاثاً من ذوات

---

(١) أي متى الفتح الذي تعدوننا به، وهو يوم البعث الذي يقضي الله فيه بين عباده؟

الراء، فقال له الرجل: كبر سني واشتد قلبي وغلظ لساني، قال: فاقرأ من ذوات حم، فقال مثل مقالته الأولى، فقال: اقرأ ثلاثاً من المسبِّحات، فقال مثل مقالته، فقال الرجل: ولكن أقرئني يا رسول الله سورة جامعة، فأقرأه ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ حتى إذا فرغ منها، قال الرجل: والذي بعثك بالحق نبياً، لا أزيد عليها أبداً، ثم أدبر الرجل، فقال رسول الله ﷺ: أفلح الرويجل، أفلح الرويجل، ثم قال: عليّ به، فجاءه، فقال له:

أمرتُ بيوم الأضحى، جعله الله عيداً لهذه الأمة، فقال له الرجل: أرأيت إن لم أجد إلا منيحة أنثى، فأضحّي بها؟ قال: لا[1]، ولكنك تأخذ من شعرك، وتقلّم أظفارك، وتقص شاربك، وتحلق عانتك، فذاك تمام أضحيتك عند الله عز وجل».

وأخرج الترمذي - وقال: هذا حديث حسن - عن أنس بن مالك: «أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: هل تزوجت يا فلان؟ قال: لا والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج!! قال: أليس معك: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، تزوج».

---

(١) هذا في بداية الأمر، ثم أبيح التضحية بالأنثى، واتفقت المذاهب على جواز ذلك، إلا أن الفحل أفضل من الأنثى.

أمارة القيامة والجزاء على الخير والشر

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾

القراءات:

﴿يَصْدُرُ﴾:

قرأ حمزة، والكسائي، وخلف بإشمام الصاد الزاي، وقرأ الباقون بالصاد الخالصة.

الإعراب:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ ﴿إِذَا﴾ ظرف، والعامل فيه إما ﴿فَمَن يَعْمَلْ﴾ أو ﴿تُحَدِّثُ﴾ ويكون ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تكراراً وبدلاً من ﴿إِذَا﴾، وتقديره: إذا زلزلت الأرض تحدث أخبارها. و﴿زِلْزَالَهَا﴾: منصوب على المصدر، بكسر الزاي الأولى، ولو فتح لكان اسماً، وقيل: هو بالفتح أيضاً مصدر.

﴿أَشْتَاتًا﴾ منصوب على الحال من ﴿ٱلنَّاسُ﴾ جمع (شَتٌّ) وهو المتفرق.

﴿فَمَن يَعْمَلْ﴾ ﴿وَمَن يَعْمَلْ﴾ (من) في الموضعين: شرطية في موضع رفع بالابتداء. و﴿يَرَهُۥ﴾: خبره.

البلاغة:

﴿زِلْزَالَهَا﴾ الإضافة للتهويل. و﴿زُلْزِلَتِ﴾ ﴿زِلْزَالَهَا﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ إظهار في مقام الإضمار لزيادة التقرير والتوكيد.

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾؟ استفهام للتعجب والاستغراب أو الاستهجان.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾﴾ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ بينهما مقابلة.

﴿زِلْزَالَهَا﴾، ﴿أَثْقَالَهَا﴾، ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾، ﴿أَخْبَارَهَا﴾، ﴿مَا لَهَا﴾ سجع مرصع من المحسنات البديعية.

﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ تضمين، ضمن ذلك معنى الإذن والأمر لها.

المفردات اللغوية:

﴿زُلْزِلَتِ﴾ الزلزال: التحريك والاضطراب الشديدان، وذلك يحصل عند النفخة الأولى أو الثانية أو الممكِّن لها في الحكمة الإلهية. ﴿أَثْقَالَهَا﴾ الأثقال في الأصل: أمتعة البيت، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ [النحل: ١٦/ ٧] جمع ثقل: متاع البيت، والمراد هنا: ما في جوف الأرض من الكنوز والدفائن والأموات، وتخرج أثقالها: تلقيها على ظهرها. ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾ يتساءل الإنسان عما يبهره من الأمر الفظيع وإنكاراً لتلك الحالة، وقيل: المراد بالإنسان: الكافر بالبعث، فإن المؤمن يعلم ما لها. ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ تخبر بما عمل عليها من خير وشر. وهي تحدِّث الخلق إما بلسان الحال وهو ما لأجله زلزالها وإخراجها، أو ينطقها الله فتخبر بما عمل عليها. وهو جواب ﴿إِذَا﴾ جاء في الحديث الذي أخرجه أحمد والترمذي عن أبي هريرة: «تشهد على كل عبد أو أمة بكل ما عمل على ظهرها».

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ﴾ أي تحدِّث بسبب أن ربك ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أمرها بذلك، والوحي: الإلهام بخفاء، يقال: أوحى له وإليه، ووحى له وإليه: كلّمه خفية

أو ألهمه. ﴿يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ﴾ يرجعون وينصرفون من موقف الحساب. ﴿أَشۡتَاتٗا﴾ متفرقين متمايزين بحسب مراتبهم وأعمالهم. ﴿لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ يروا جزاء أعمالهم من الجنة أو النار. ﴿ذَرَّةٍ﴾ الذرة: الهباء الذي يرى في ضوء الشمس الداخل من نافذة، أو النملة الصغيرة، و﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾ زنة نملة أو هباء، وهو مثل في الصغر. ﴿خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾ يرى ثوابه. ﴿شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ يرى جزاءه. وقوله: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ﴾ تفصيل ﴿لِّيُرَوۡاْ﴾.

سبب النزول:

نزول الآية (٧، ٨):

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ الآية، كان المسلمون يرون أنهم لا يُؤْجَرون على الشيء القليل، إذا أعْطَوْه، وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير: الكذبة، والنظرة، والغيبة، وأشباه ذلك، ويقولون: إنما وعد الله النار على الكبائر، فأنزل الله: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

وقد سمّى رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الجامعة الفاذّة، حين سئل عن زكاة الْحُمُر، فقال فيما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة: «ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الفاذَّة الجامعة: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾[1]».

وقال مقاتل: نزلت هذه الآية في رجلين، وذلك أنه لما نزل: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ كان أحدهما يأتيه السائل، فيسأل أن يعطيه التمرة والكسرة

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

والجوزة، ويقول: ما هذا بشيء، وإنما نؤجر على ما نعطي. وكان أحدهما يتهاون بالذنب الصغير، ويقول: لا شيء عليَّ من هذا، فرغب الله تعالى في القليل من الخير؛ لأنه يوشك أن يكثر، وحذر من الذنب اليسير، فإنه يوشك أن يعظم، فلهذا قال النبي ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم عن عدي بن حاتم: «اتقوا النار ولو بشِقّ تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيِّبة» .

التفسير والبيان:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ أي إذا تحركت الأرض من أسفلها حركة شديدة، واضطربت اضطراباً هائلاً حتى يتكسر كل شيء عليها، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ [الحج: ٢٢/١] وقال سبحانه: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾ [الواقعة: ٥٦/٤] .

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ ألقت ما في جوفها من الأموات والدفائن، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾ [الانشقاق: ٨٤/٣-٤] . وأخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل، فيقول: في هذا قَتَلْتُ، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قُطِعتْ يدي، ثم يَدَعونه فلا يأخذون منه شيئاً» .

وتخرج الأرض الأموات في النفخة الثانية.

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾ أي قال كل فرد من أفراد الإنسان لما يبهره أمرها ويذهله خَطْبها: ما لهذه الأرض؟ ولأي شيء زلزلت، وأخرجت أثقالها؟

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾ أي في ذلك الوقت المضطرب، وقت الزلزلة، تخبر الأرض بأخبارها، وتحدِّث بما عمل عليها من خير وشر، ينطقها الله سبحانه، لتشهد على العباد. قال ابن عباس في الآية: قال لها ربها: قولي، فقالت.

أخرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي - واللفظ له - عن أبي هريرة قال: «قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾ قال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها؛ أن تقول: عمل كذا وكذا، يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها»[1]. وقال الطبري: إن هذا تمثيل، والمراد أنها تنطق بلسان الحال، لا بلسان المقال.

ثم أبان الله تعالى مصدر هذه الواقعة: فقال:

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ أي تحدِّث أخبارها بوحي الله وإذنه لها بأن تتحدث وتشهد. فقوله: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي أذن لها وأمرها، أو أوحى إليها، أي ألهمها.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾﴾ أي في هذا اليوم المضطرب، وفي يوم الخراب المدمر، يصدر الناس من قبورهم إلى موقف الحساب، مختلفي الأحوال، فبعضهم آمن، وبعضهم خائف، وبعضهم بلون أهل الجنة، وبعضهم بلون أهل النار، ليريهم الله أعمالهم معروضة عليهم. هذا ما يراه بعض المفسرين كالشوكاني. فالصدر على هذا الرأي: هو قيامهم للبعث بعد أن كانوا مدفونين في الأرض، و﴿أَشْتَاتًا﴾ فرقاً: مؤمن وكافر وعاص، سائرون إلى العرض، ليروا أعمالهم.

(١) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

وقال آخرون كابن كثير: يرجعون عن موقف الحساب أشتاتاً، أي أنواعاً وأصنافاً، ما بين شقي وسعيد، مأمور به إلى الجنة، ومأمور به إلى النار، ليجازوا بما عملوه في الدنيا من خير وشر، فيكون المراد بقوله: ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ﴾ ليروا جزاء أعمالهم، وهو الجنة والنار، ولهذا قال:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ أي فمن يعمل في الدنيا وزن نملة صغيرة أو هباء لا يرى إلا في ضوء الشمس، والمراد أي عمل مهما كان صغيراً، فإنه يجده يوم القيامة في كتابه، ويلقى جزاءه، فيفرح به، أو يراه بعينه معروضاً عليه. وكذلك من يعمل في الدنيا أي شيء من الشر ولو كان حقيراً أو قليلاً، يجد جزاءه يوم القيامة، فيسوؤه. والذرّ كما تقدم: ما يرى في شعاع الشمس من الهباء، أو هو النملة الصغيرة.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الأنبياء: ٢١/٤٧] وقوله سبحانه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [الكهف: ١٨/٤٩].

وفي صحيح البخاري عن عدي مرفوعاً: «اتقوا النار ولو بشِقّ تمرة، ولو بكلمة طيبة» وفي الصحيح له أيضاً: «لا تحقِرنَّ من المعروف شيئاً، ولو أن تفرغ من دَلْوك في إناء المستسقي، ولو أن تلقى أخاك، ووجهك إليه منبسط» وفي الصحيح أيضاً: «يا معشر نساء المؤمنات لا تحقِرنَّ جارة لجارتها، ولو فِرْسَنَ شاة» يعني ظلفها. وفي الحديث الآخر الذي أخرجه أحمد والبخاري في التاريخ والنسائي عن حوَّاء بنت السكن: «ردُّوا السائل، ولو بظلف محرق».

وأخرج الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة استتري من النار، ولو بشق تمرة، فإنها تسدّ من الجائع مسدّها من الشبعان».

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أنس قال: «كان أبو بكر يأكل مع النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ فرفع أبو بكر يده، وقال: يا رسول الله ﷺ إني أُجزى بما عملت من مثقال ذرة من شر، فقال: يا أبا بكر، ما رأيت في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذرّ الشر، ويدخر الله لك مثاقيل ذرّ الخير، حتى تُوفّاه يوم القيامة».

وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: «لما نزلت: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه قاعد، فبكى، فقال له رسول الله ﷺ: ما يبكيك يا أبا بكر؟ قال: يبكيني هذه السورة، فقال له رسول الله ﷺ: لولا أنكم تخطئون وتذنبون، فيغفر الله لكم، لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون، فيغفر لهم».

حسنات الكافر: قال ابن عباس: ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً إلا أراه الله تعالى إياه، فأما المؤمن فيغفر له سيئاته، ويثاب بحسناته. وأما الكافر فترد حسناته ويعذب بسيئاته.

وعلى هذا يعاقب الكافر بسبب كفره، وأما حسناته فتنفعه في الدنيا، كدفع شر أو ضرر عنه، وأما في الآخرة فلا تفيده، ولا تنجيه من عذاب الكفر الذي يخلد به في النار، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٣].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - من أمارات الساعة: الزلزلة الشديدة للأرض، وإخراج الأرض أثقالها، أي ما في جوفها من الدفائن والأموات. قالوا: إنها عند النفخة الأولى تتزلزل، فتلفظ بالكنوز والدفائن، وعند النفخة الثانية ترجف فتخرج الأموات أحياء، كالأم تلد حياً.

٢ً - لا شك بأن الإنسان في وقت الزلازل والبراكين يرتجف ويخاف ويتساءل: ما للأرض زلزلت؟ ما لها أخرجت أثقالها؟ وهي كلمة تعجيب.

٣ً - إذا زلزلت الأرض تخبر يومئذ بما عمل عليها من خير أو شر، ومعنى تحديث الأرض عند أبي مسلم الأصفهاني: يومئذ يتبين لكل أحد جزاء عمله، فكأنها حدثت بذلك، كقولك: الدار تحدثنا بأنها كانت مسكونة، فكذا انتقاض الأرض بسبب الزلزلة تحدث أن الدنيا قد انقضت، وأن الآخرة قد أقبلت. وقال الطبري: تُبين أخبارها بالرّجة والزلزلة وإخراج الموتى.

وقال الجمهور: المعنى أن الله تعالى يجعل الأرض حيواناً عاقلاً ناطقاً، ويعرفها جميع ما عمل أهلها، فحينئذ تشهد لمن أطاع، وعلى من عصى، قال ﷺ في حديث الترمذي عن أبي هريرة: «إن الأرض لتخبر يوم القيامة بكل عمل عمل عليها» ثم تلا هذه الآية[١].

٤ً - الذي تخبر به الأرض: إما أعمال العباد على ظهرها، كما جاء في حديث الترمذي عن أبي هريرة المتقدم: «أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمِل على ظهرها، تقول: عمل يوم كذا، كذا وكذا، قال: فهذه أخبارها» .

أو أنها تخبر بما أخرجت من أثقالها، كما جاء في حديث ابن ماجه عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا كان أجل العبد بأرض أوْثَبَتْه الحاجة

(١) تفسير الرازي: ٥٩/٣٢، تفسير القرطبي: ١٤٩/٢٠، غرائب القرآن: ١٥٧/٣٠

إليها، حتى إذا بلغ أقصى أثره، قبضه الله، فتقول الأرض يوم القيامة: ربِّ هذا ما استودعتني» .

أو أنها تحدث بقيام الساعة إذا قال الإنسان: ما لها؟ وهذا قول ابن مسعود، فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى، وأمر الآخرة قد أتى، فيكون ذلك منها جواباً لهم عند سؤالهم، ووعيداً للكافر، وإنذاراً للمؤمن[١].

٥ً - في يوم الزلزلة يذهب الناس من مخارج قبورهم إلى الموقف، بعضهم إثر بعض، أو يرجعون وينصرفون من موقف الحساب إلى موضع الثواب والعقاب فِرقاً فرقاً، ليروا صحائف أعمالهم، أو جزاء أعمالهم، وهو الجنة أو النار، وما يناسب كلّاً منهما.

ويؤيد هذا قول النبي ﷺ: «ما من أحد يوم القيامة إلا ويلوم نفسه، فإن كان محسناً فيقول: لم لا ازددت إحساناً؟ وإن كان غير ذلك يقول: لم لا نزعت عن المعاصي»[٢]؟ وهذا عند معاينة الثواب والعقاب.

٦ً - كل من يعمل في الدنيا عملاً خيراً صغيراً أو كبيراً، يره بعينه، أو يُره الله إياه يوم القيامة، وكل من يعمل في الدنيا عملاً شراً مهما كان قليلاً، يره بنفسه، أو يُره الله إياه يوم القيامة. أو أن المراد: يجد جزاءه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

أما الكافر كما تقدم فحسناته في الآخرة محبطة بكفره، وترد في وجهه، ويجد عقاب ما فعل من كفر أو شر، فيعذب بسيئاته، أي إن عموم الآية قائم، ولكن لا تقبل حسنات الكفار.

قال ابن مسعود عن آية: ﴿فَمَن يَعْمَلْ﴾ : هذه أحكم آية في القرآن. وقد

(١) تفسير القرطبي: ١٤٨/٢٠ - ١٤٩

(٢) تفسير القرطبي: ١٥٠/٢٠

اتفق العلماء على عموم هذه الآية. قال كعب الأحبار: لقد أنزل الله على محمد آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزَّبور والصُّحف: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ وكان النبي ﷺ - كما تقدم - يسمي هذه الآية الجامعة الفاذّة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة العاديات

مكية، وهي إحدى عشرة آية

تسميتها:

سميت سورة العاديات؛ لأن الله افتتحها بالقسم بالعاديات: وهي خيل المجاهدين المسرعة في لقاء العدو.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر المناسبة بين السورتين من وجهين:

١ - هناك تناسب وعلاقة واضحة بين قوله تعالى في الزلزلة: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ [الزلزلة: ٩٩/ ٢] وقوله في هذه السورة: ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾.

٢ - لما ختمت السورة السابقة ببيان الجزاء على الخير والشر، وبّخ الله تعالى الإنسان على جحوده نعم ربه، وإيثاره الحياة الدنيا على الآخرة، وترك استعداده للحساب في الآخرة بفعل الخير والعمل الصالح، وترك الشر والعصيان.

ما اشتملت عليه السورة:

تضمنت هذه السورة المكية مقاصد ثلاثة:

أ - القسم الإلهي بخيل المجاهدين على أن الإنسان كفور جحود لنعم ربه عليه، وأنه مقر شاهد على ذلك: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾﴾ [الآيات: ١-٧].

٢ - التحدث عن غريزة الإنسان في حبه الشديد للثروة والمال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [الآية: ٨].

٣ - الحض على فعل الخير والعمل الصالح الذي ينفع الإنسان حين رجوع الخلائق إلى الله للحساب والجزاء، والتهديد بالعقاب الشديد يوم القيامة: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾﴾ [الآيات: ٩-١١].

جحود النعم والبخل لحب الخير وإهمال الاستعداد للآخرة

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾

الإعراب:

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾﴾: ﴿ضَبْحًا﴾: منصوب على المصدر في موضع الحال، وهو صوت أنفاس الخيل حين عَدْوها، و﴿قَدْحًا﴾: مصدر مؤكد؛ لأن الموريات بمعنى القادحات.

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾﴾: ﴿صُبْحًا﴾: منصوب على الظرف، وأثرن: عطف على قوله: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ﴾ لأن المعنى: اللاتي أغرن صبحاً، فأثرن به نقعاً، أي جاز عطف الفعل على الاسم لأنه في تأويل الفعل. وهاء ﴿بِهِۦ﴾ تعود إلى المكان، وقد دلَّ الحال عليه.

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦﴾ جواب القسم، ولام ﴿لِرَبِّهِۦ﴾ يتعلق بـ (كنود) أي إن الإنسان لكنود لربه. وقد حسَّن دخولَ لام الجر تقديمُه على اسم الفاعل، كما مع الفعل الذي يشبهه في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٤] وقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ [يوسف: ١٢/ ٤٣].

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾ أي، وإنه لأجل حب المال لبخيل، واللام تتعلق بـ (شديد) أي وإنه لشديد لأجل حب المال، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه.

﴿۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ٩﴾ العامل في ﴿إِذَا بُعۡثِرَ﴾: ما دلّ عليه: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ١١﴾. ولا يجوز أن يعمل فيه (خبير) لأنه لا يجوز أن يعمل ما بعد (إنّ) فيما قبلها، ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿يَعۡلَمُ﴾ لأن الإنسان لا يطلب منه العلم في الآخرة، وإنما في الدنيا. و﴿يَوۡمَئِذٖ﴾: ظرف عمل فيه ﴿لَّخَبِيرُۢ﴾ وجاز أن يعمل فيما قبله؛ لأن اللام في تقدير التقديم، بخلاف (إنّ).

البلاغة:

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾ ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ١١﴾ التأكيد بإن واللام لزيادة التقرير والبيان.

﴿لَشَهِيدٞ﴾ ﴿لَشَدِيدٌ﴾ بينهما جناس ناقص، وكذلك بين ﴿ضَبۡحٗا﴾ و﴿صُبۡحٗا﴾.

﴿۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ٩﴾ استفهام إنكاري للتهديد والوعيد.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ١١﴾ تضمين، ضمن لفظ ﴿لَّخَبِيرُۢ﴾ معنى المجازاة، أي يجازيهم على أعمالهم.

﴿لَشَهِيدٌ﴾، ﴿لَشَدِيدٌ﴾، ﴿ٱلصُّدُورِ﴾، ﴿ٱلْقُبُورِ﴾ سجع مرصع.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾﴾ أُقسم بخيل المجاهدين تَعْدو، فتضبح ضبحاً، قال أبو حيان: والظاهر أن المقسم به هو جنس العاديات، ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ الخيل التي تعدو وتسرع في العَدْو أي الجري، جمع عادية. والضَّبْح: صوت أنفاس الخيل حين العَدْو أو الجري .﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ﴾ الخيل القادحات التي توري النار، أي تخرجها، جمع مورية، والإيراء: إخراج النار بزَنْد ونحوه .﴿قَدْحًا﴾ القدح: إخراج النار، ويلاحظ أن الخيل إذا ركضت أو سارت في أرض ذات حجارة بالليل تقدح شرارة من النار بحوافرها .﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾﴾ الخيل التي تغير أو تهجم على العدو بإغارة أصحابها، وقت الصبح، جمع مغيرة.

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ﴾ هيجن بمكان عَدْوهن، أو بذلك الوقت وهو الصبح. ﴿نَقْعًا﴾ غباراً، بشدة حركتهن .﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾﴾ توسطن بذلك الوقت أو بالعدو أو بالنقع جمعاً من جموع الأعداء، أي صرن وسط الجمع.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ أي لكفور جحود نعمة الله تعالى عليه، والمراد به جنس الإنسان المتحدث عنه، وقيل: المراد به هنا: الكافر .﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾ أي وإنه على كنوده لشاهد، يشهد على نفسه بصنعه، لظهور أثره عليه .﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ المال؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٠] .﴿لَشَدِيدٌ﴾ لبخيل، أو لشديد الحب له، فيبخل به.

﴿بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أثير وأخرج ما في القبور من الموتى، أي بعثوا. ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ جمع محصلاً وأظهر وبُيِّن ما في القلوب من الكفر والإيمان، والشر والخير، والعزائم والنوايا، وتخصيص ذلك؛ لأن القلوب هي الأصل .﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ لعالم، فيجازيهم على كفرهم. ويلاحظ أنه أعيد الضمير: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ﴾ جمعاً، نظراً لمعنى الإنسان.

وهذه الجملة: دلت على مفعول ﴿يَعۡلَمُ﴾، أي إنا نجازيه حينئذ. وتعلق (خبير) بـ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ مع أنه تعالى خبير دائماً بكل شيء؛ لأنه يوم المجازاة.

سبب النزول:

نزول الآية (١):

أخرج البزار وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ خيلاً، ولبثت شهراً، لا يأتيه منها خبر، فنزلت: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ۝١﴾.

التفسير والبيان:

﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ۝١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ۝٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ﴾ أي قسماً بالخيل التي تجري وتعدو بفرسانها المجاهدين في سبيل الله إلى العدو، ويسمع لها حينئذ صوت زفيرها الشديد وأنفاسها المتصاعدة، بسبب شدة الجري. وتخرج شرر النار بحوافرها أثناء الجري بسبب اصطكاك نعالها بالصخر أو الحجر؛ وتغير أو تهجم على العدو وقت الصباح.

﴿فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ۝٤ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ۝٥﴾ فهيجن في الصبح أو مكان معترك الخيول غباراً يملأ الجو، ثم توسطن بعَدْوهن جمعاً من الأعداء، اجتمعوا في مكان، ففرّقنه أشتاتاً.

وإنما أقسم الله تعالى بالخيل؛ لأن لها في الركض (العَدْو) من الخصال الحميدة ما ليس لسائر الدواب، ولأن الخيل في نواصيها الخير(١) إلى يوم القيامة، ولأنها وسيلة الغزو عند العرب، ولا تكاد تخلو في الأغلب من

(١) قال النبي ﷺ: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة» رواه أحمد والشيخان والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة.

الخطور ببالهم. والمراد إعلاء شأنها في نفوس المؤمنين، ليُعْنَوا بتربيتها، وليتدربوا عليها من أجل الجهاد في سبيل الله، وليعتادوا على معالي الأمور، وظواهر الجد والعمل.

وفي هذا القسم ترغيب باقتناء الخيل لهذه الأغراض النبيلة، لا للسمعة والمفاخرة والرياء.

وعلى هذا فاللام في العاديات للعهد، ويحتمل وهو الظاهر كما تقدم عن أبي حيان أن تكون للجنس، وليست أل فيه للعهد، ويدخل فيها خيل الجهاد والسرية دخولاً أولياً.

وجواب القسم المحلوف عليه هو:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ أي إن الإنسان كفور بطبعه للنعمة، كثير الجحد لها، وعدم الإقرار بمقتضاها الموجب لشكر الخالق المنعم، والخضوع لشرعه وأحكامه، إلا من جاهد نفسه، وعقل أمر الدنيا والآخرة، فأقبل على الطاعة والفضيلة، وأحجم عن المعصية والرذيلة.

والظاهر أن المراد بالإنسان هو الجنس، والأكثرون على أن الإنسان هو الكافر؛ لقوله بعد ذلك: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾. لكنهم قالوا أيضاً: ويحتمل أن يراد أن جنس الإنس مفطور على ذلك، إلا من عصمه الله بلطفه وتوفيقه، وقوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ يجوز أن يكون توبيخاً على أنه لا يعمل بعلمه.

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾ أي وإن الإنسان على كونه كنوداً جحوداً لشهيد، يشهد على نفسه بالجحد والكفران، أي بلسان حاله، وظهور أثر ذلك عليه في أقواله وأفعاله بعصيان ربه، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٩/١٧] .

وقال قتادة وسفيان الثوري: وإن الله على ذلك لشهيد.

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ أي وإن الإنسان بسبب حبه للمال لبخيل به، أو إن حبه للمال قوي، فتراه مجدّاً في طلبه وتحصيله، متهالكاً عليه. فصار هناك رأيان في المعنى: أحدهما - وإنه لشديد المحبة للمال، والثاني - وإنه لحريص بخيل بسبب محبة المال، قال ابن كثير: وكلاهما صحيح.

ثم هدّد الإنسان وتوعده إذا ظلَّ بهذه الصفات، فقال:

﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾ أي أفلا يدري الجاحد إذا أخرج أو نثر ما في القبور من الأموات، وأبرز وأظهر ما يُسِرُّ الناس في نفوسهم من النوايا والعزائم، والخير والشر، إن رب هؤلاء المبعوثين لخبير بهم، مطلع على جميع أحوالهم، لا تخفى عليه منهم خافية في ذلك اليوم وفي غيره، ومجازيهم في ذلك اليوم على جميع أعمالهم أوفر الجزاء، ولا يظلمون مثقال ذرة. فإذا علموا ذلك ووعوه، فعليهم ألا يشغلهم حب المال عن شكر ربهم وعبادته والعمل للآخرة.

وخص أعمال القلوب بالذكر؛ لأن أعمال الأعضاء الأخرى تابعة لأعمال القلب؛ فإنه لولا البواعث والإرادات في القلوب، لما حصلت أفعال الجوارح.

وأعاد الضمير في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ﴾ بصيغة الجمع؛ لأن الإنسان في معنى الجمع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر: ١٠٣/٢] ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر: ١٠٣/٣].

وإنما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مع أنه تعالى عالم بأحوال الناس في كل وقت، للتأكيد على أنه عالم بذلك يوم المجازاة.

وعبَّر عن المجازاة بالخبرة والعلم المحيط بهم وبأعمالهم؛ لأن القصد هو التهديد، كما قال تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨١] مع أن كتابة

أقوالهم وأفعالهم حاصلة فعلاً، وإنما أراد أننا سنجازيهم بما قالوا الجزاء المناسب. فيكون قوله تعالى: ﴿لَّخَبِيرٌ﴾ وهو تعالى خبير دائماً فيه تضمين (خبير) معنى مجاز لهم في ذلك اليوم[١].

وهذه الآية تدل على كونه تعالى عالماً بالجزئيات الزمانيات؛ لأنه تعالى نص على كونه عالماً بكيفية أحوالهم في ذلك اليوم، فيكون منكر ذلك كافراً.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ - أقسم سبحانه بالخيل التي تشغل بها أذهان العرب عادة على رداءة جبلة الإنسان؛ من قلة الشكر والصبر، والحرص على المال، بحيث يكاد يشغله عن تحصيل الكمال الحقيقي، وعن العمل للمعاد الذي إليه مآل العباد.

فقد طبع الإنسان على كفران النعمة، وحب المال وبخله به، وعليه أن يروض نفسه على ما يكون له به النجاة والسعادة.

٢ - ثم وبخ الله تعالى بمقتضى العلم التام الأزلي الأبدي الشامل لأحوال مبدأ الإنسان ومعاده، والتوبيخ أو التهديد مدعاة للعقلاء إلى التأمل في المصير المحتوم، والاستعداد للآخرة بزاد التقوى والفضيلة، والبعد عن العصيان والمخالفة والرذيلة.

ولا يختلف العلم وقت المجازاة بالأعمال والأقوال والأحوال عن العلم الأزلي لله تعالى بذلك، وإنما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ للتأكيد على شمول العلم في الماضي والحاضر والمستقبل، ولأن الجزاء منوط بالعمل السابق، فيكون تخصيصه دالاً على التذكر وعدم النسيان، وعلى التزام العدل وتوافر العلم وقت الجزاء.

---

(١) البحر المحيط: ٨/ ٥٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القارعة

مكية، وهي إحدى عشرة آية

تسميتها:

سميت سورة القارعة لبدء السورة بها تهويلاً وتخويفاً، كابتداء سورة الحاقة، والقارعة من أسماء يوم القيامة؛ كالحاقة والطامّة والصاخّة والغاشية ونحو ذلك. وسميت بهذا؛ لأنها تقرع القلوب بهولها.

مناسبتها لما قبلها:

ختمت السورة السابقة بوصف يوم القيامة: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ وأعقبتها هذه السورة برمّتها بالحديث عن القيامة، ووصفها الرهيب، وأهوالها المخيفة.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع هذه السورة المكية التخويف بأهوال القيامة، وهي كلها تدور حول الموضوع نفسه.

فقد بدأت بالحديث عن أهوال القيامة وشدائدها، وانتشار الناس فيها من

قبورهم كالفراش المتطاير: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾ [الآيات: ١-٤].

ثم أشارت إلى بعض أمارات الساعة، وهو نسف الجبال وجعلها كالصوف المندوف، مما يوجد الذعر والهلع والتأثر الشديد في قلوب الناس: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [الآية: ٥].

وكانت خاتمتها الإخبار عن نصب موازين الحساب التي توزن بها أعمال الناس، فثقيل الميزان بالحسنات إلى الجنة، وخفيف الميزان بالسيئات إلى النار: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾ [الآيات: ٦-١١].

أهوال القيامة وأماراتها وميزان الحساب فيها

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾

الإعراب:

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾ ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾: مبتدأ. و﴿مَا﴾: مبتدأ ثان، وما بعده خبره.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾ ﴿مَا﴾ الأولى: مبتدأ، وما بعدها خبره. و﴿وَمَآ﴾ الثانية: المبتدأ، وخبرها في محل المفعول الثاني لـ (أدراك).

﴿يَوۡمَ﴾ ظرف عامله تقرع، دلّ عليه القارعة.

﴿كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ﴾ في موضع نصب؛ لأنه خبر ﴿يَكُونُ﴾. وكذلك ﴿كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ في موضع نصب؛ لأنه خبر ﴿يَكُونُ﴾.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝٧﴾ الفاء: جواب (أما) التي فيها معنى الشرط. وهو: مبتدأ، و﴿فِي عِيشَةٖ﴾: ظرف في موضع رفع؛ لأنه خبر المبتدأ. و﴿رَّاضِيَةٖ﴾: أي مرضي بها، وهو مما جاء على وزن فاعل، ويراد به مفعول.

البلاغة:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٣﴾؟ الاستفهام للتفخيم والتهويل، وكذلك: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠﴾؟

﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢﴾ وضع الظاهر موضع الضمير للتخويف والإرهاب، والأصل أن يقال: القارعة ما هي؟

﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤﴾ تشبيه مرسل مجمل، ذكر فيه أداة التشبيه، وحذف وجه الشبه، وهو: في الكثرة والانتشار، والضعف والهوان. ومثله: ﴿كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ أي في تطايرها وخفة تناثرها.

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝٧﴾ ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ۝٩﴾ بينهما مقابلة.

﴿فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾ مجاز عقلي إذا أريد بالراضية اسم الفاعل، أي راض بها صاحبها.

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ﴾ ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ﴾ فيهما احتباك: وهو أن يحذف في كلٍّ نظير ما أثبته في الآخر، حذف من الأول (فأمه الجنة) وذكر فيها ﴿عِيشَةٖ

رَّاضِيَةٍ﴾ وحذف من الثاني (فهو في عيشة ساخطة) وذكر ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾.

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾، ﴿رَّاضِيَةٍ﴾، ﴿هَاوِيَةٌ﴾، ﴿مَا هِيَهْ﴾، ﴿حَامِيَةٌ﴾ سجع مرصّع.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾ من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لأنها تقرع القلوب والأسماع بأهوالها وأفزاعها الشديدة، من القرع: الضرب بشدة. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾ ما أعلمك؟ وهو زيادة تهويل لها. ﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ أي كالفراش المنتشر المتفرق في الكثرة والانتشار، والذلة والاضطراب، يموج بعضهم في بعض للحيرة، إلى أن يُدْعَوا للحساب. والفراش: طائر معروف أحمق يتهافت على النار.

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ كالصوف المندوف في خفة سيرها وتبددها، حتى تستوي مع الأرض. ﴿ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بأن رجحت حسناته على سيئاته. ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾ ذات رضا، أو مرضية لصاحبها في الجنة. ﴿خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بأن رجحت سيئاته على حسناته. ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ فمسكنه أو مأواه الذي يأوي إليه نار جهنم. ﴿مَا هِيَهْ﴾ ما هي النار؟ وهاء (هيه) للسكت تثبت وصلاً ووقفاً. والهاوية: من أسماء جهنم. ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ ۝١١﴾ أي هي نار شديدة الحرارة.

التفسير والبيان:

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾؟ ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾ من أسماء القيامة؛ لأنها تقرع القلوب بالفزع، وأي شيء هي، وما أعلمك ما شأن القارعة؟ وقوله: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾ لتعظيم شأنها

وتفخيمه، وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٣﴾ تأكيد لشدة هولها، وتعظيم أمرها، وتهويل شأنها.

ثم فسّر ذلك وأبان زمانها وأماراتها، فقال:

١ - ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤﴾ أي يوم يخرج الناس من القبور، يسيرون على غير هدى في كل اتجاه، شأنهم في ذلك، كالحشرة الطائرة المعروفة المنتشرة المتفرقة، أو كجميع الحشرات الطائرة، كالبعوض والجراد، فهم في انتشارهم وتفرقهم وذهابهم ومجيئهم بسبب حيرتهم مما هم فيه، كأنهم فراش مبثوث، أي متفرق منتشر، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾ [القمر: ٧/٥٤] . قال الزمخشري: شبههم بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والذلة والتطاير إلى الداعي من كل جانب، كما يتطاير الفراش إلى النار.

٢ - ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ۝٥﴾ أي وتصير الجبال كالصوف ذي الألوان المختلفة، المندوف الذي نُفش بالندف؛ لأنها تتفتت وتتطاير، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣﴾ [التكوير: ٣/٨١] وقوله سبحانه: ﴿وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤/٧٣] .

وفي ذكر هاتين الأمارتين تخويف للناس وتحذير شديد.

ثم ذكر الجزاء على الأعمال وأحوال الناس وتفرقهم فريقين إجمالاً، فقال:

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝٧﴾ أي أما من ثقلت موازينه بأن رجحت حسناته أو أعماله الصالحة على سيئاته، فهو في عيشة مرضية يرضاها صاحبها في الجنة. والعيشة: كلمة تجمع النعم التي في الجنة.

﴿وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ۝٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ

﴿نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾﴾ أي وأما من رجحت سيئاته على حسناته، أو لم تكن له حسنات يعتد بها، فمسكنه أو مأواه جهنم. وسماها أمه؛ لأنه يأوي إليها كما يأوي الطفل إلى أمه، وسميت جهنم هاوية وهي الهالكة؛ لأنه يهوي فيها مع عمق قعرها، ولأنها نار عتيقة.

ونحن نؤمن بالميزان كما ورد في القرآن، دون أن ندري كيفية وزنه وتقديره.

وما أعلمك ما هذه النار؟ والاستفهام للتهويل والتخويف، ببيان أنها خارجة عن المعهود، بحيث لا يُدرى كنهها. قال الزمخشري: ﴿هِيَهْ﴾ ضمير الداهية التي دلَّ عليها قوله: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ أو ضمير هاوية، والهاء للسكت، وإذا وصل القارئ حذفها.

هي نار شديدة الحرارة، انتهى حرّها وبلغ في الشدة إلى الغاية، فهي حارة شديدة الحرارة، قوية اللهب والسعير. وهذا دليل على قوتها التي تفوق جميع النيران.

أخرج مالك والبخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية؟ فقال: إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً».

وأخرج أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «هذه النار جزء من مئة جزء من جهنم».

وأخرج أحمد أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أهون أهل النار عذاباً: من له نعلان، يغلي منهما دماغه».

وثبت في الصحيحين: «إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم».

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ً - القيامة ذات أهوال وشدائد ومخاوف تهز القلوب وتقرع الأسماع، لا يعلم أحد بكنهها؛ لأنها في الشدة بحيث لا يتصورها عقل أحد، وكيفما قدرت فهو أعظم من تقديرك، كأنه تعالى قال: قوارع الدنيا في جنب تلك القارعة كأنها ليست بقوارع، ونار الدنيا في جنب نار الآخرة كأنها ليست بنار.

وفي هذا تحذير شديد وإرهاب لا مثيل له. قال مقاتل: إنها تقرع أعداء الله بالعذاب، وأما أولياؤه فهم من الفزع آمنون.

٢ً - وصف الله يوم القيامة بأمرين:

الأول - كون الناس فيه كالفراش المتفرق المنتشر، وهو الحيوان الذي يتهافت في النار.

الثاني - صيرورة الجبال فيه كالصوف ذي الألوان، المندوف، الذي ينفش بعضه عن بعضه.

ويلاحظ أنه تعالى وصف تغير الأحوال على الجبال من وجوه أربعة:

أولها - أن تصير قطعاً، كما قال: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤﴾ [الحاقة: ٦٩/ ١٤] .

وثانيها - أن تصير كثيباً مهيلاً، كما قال﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٢٧/ ٨٨] .

وثالثها - ثم تصير كالعهن المنفوش، وهي أجزاء كالذر الداخل من النافذة.

ورابعها - تصير سراباً، كما قال: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ: ٧٨/ ٢٠][١].

٣ - يقسم الناس يوم القيامة إلى قسمين بحسب ثقل موازين أعمالهم وخفتها، فأما من رجحت حسناته على سيئاته فهو في الجنة في عيشة مرضية، وأما من رجحت سيئاته على حسناته فهو في نار حامية شديدة الحرارة. وقوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾ إشارة إلى أن سائر النيران بالنسبة إلى نار الآخرة غير حامية. وهذا القدر كاف في التنبيه على قوة سخونتها.

والموازين جمع ميزان، فيؤتى بحسنات المطيع في أحسن صورة، فإذا رجح، فله الجنة، ويؤتى بسيئات الكافر في أقبح صورة، فيخف وزنه، فيدخل النار. وقال المتكلمون: إن نفس الحسنات والسيئات لا يصح وزنهما، بل المراد أن الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات توزن، أو يجعل النور علامة الحسنات، والظلمة علامة السيئات.

قال أبو بكر رضي الله عنه: إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم، وحقّ لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً، وحق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً.

وقال مقاتل: إنما كان كذلك؛ لأن الحق ثقيل، والباطل خفيف[٢].

---

(١) تفسير الرازي: ٣٢/ ٧٢

(٢) تفسير الرازي: ٣٢/ ٧٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

مكية، وآياتها ثمانٍ

تسميتها:

سميت سورة التكاثر؛ لقوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾﴾ أي شغلكم التفاخر بالأموال والأولاد والأعوان.

مناسبتها لما قبلها:

أخبرت سورة القارعة عن بعض أهوال القيامة، وجزاء السعداء والأشقياء، ثم ذكر في هذه السورة علة استحقاق النار، وهو الانشغال بالدنيا عن الدين، واقتراف الآثام، وهددت بالمسؤولية في الآخرة عن أعمال الدنيا.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع هذه السورة المكية ذم العمل للدنيا فقط، والتحذير من ترك الاستعداد للآخرة. لذا تناولت مقاصد ثلاثة:

أ - بيان انشغال الناس بملذات الحياة ومغرياتها، والغفلة حتى يأتي الموت: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ [الآيات: ١-٢] .

٢ - الإنذار بالسؤال عن جميع الأعمال في القيامة: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ [الآيات: ٣-٤].

٣ - التهديد برؤية الجحيم يقيناً، ومجابهة أهوال النار، والسؤال عن نعيم الدنيا: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [الآيات: ٥-٨].

سبب نزول السورة:

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن بُرَيْدَة في قوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾، قال: نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار، في بني حارثة وبني الحارث، تفاخروا وتكاثروا، فقالت إحداهما: فيكم مثل فلان بن فلان وفلان؟ وقال الآخرون مثل ذلك، تفاخروا بالأحياء، ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور، فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان؟ يشيرون إلى القبور، ومثل فلان، وفعل الآخرون مثل ذلك، فأنزل الله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل.

التفاخر في الدنيا والسؤال عن الأعمال

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾

القراءات:

﴿لَتَرَوُنَّ﴾:

وقرأ ابن عامر، والكسائي (لَتُرَوُنَّ).

الإعراب:

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣﴾ ﴿كَلَّا﴾: حرف معناه الزجر والردع، وليس اسماً للفعل، لتضمنه معنى ارتدع، كما أن (صه) اسم فعل لدلالته على السكوت.

﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ ﴿لَوْ﴾: حرف يمتنع به الشيء لامتناع غيره، وجوابه محذوف، وتقديره: لو علمتم لما ألهاكم، و﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾: منصوب على المصدر.

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ بفتح التاء، فهو فعل ثلاثي، عُدِّي إلى مفعول واحد وهو ﴿ٱلْجَحِيمَ﴾. وقرئ بضم التاء، فتكون الواو نائب فاعل، و﴿ٱلْجَحِيمَ﴾: مفعول به ثانٍ، وهو فعل رباعي، عدّي بالهمزة إلى مفعولين، وهو في الأصل يتعدى إلى مفعول واحد؛ لأنه من رؤية العين. و﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ مصدر؛ لأن رأى وعاين بمعنى واحد.

﴿لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ حذف منه نون الرفع لتوالي النونات، وواو ضمير الجمع لالتقاء الساكنين.

البلاغة:

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ خبر أريد به التذكير والتوبيخ واللوم.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ التكرار للتهديد والإنذار، وعطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ للتنبيه على أن الثاني أبلغ من الأول.

﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ حذف جواب ﴿لَوْ﴾ للتهويل والتفخيم، أي لرأيتم ما يدهش ويفزع.

﴿لَتَرَوُنَّ﴾ ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ إطناب بتكرار الفعل، لبيان شدة الهول.

﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾ كناية، كنّى بزيارة القبور عن الموت، أي حتى مُتُّم.

﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ ﴿ٱلۡجَحِيمَ﴾ طباق.

﴿تَعۡلَمُونَ﴾، ﴿ٱلۡيَقِينِ﴾ توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات، وكذا بين ﴿ٱلۡجَحِيمَ﴾ و﴿ٱلنَّعِيمِ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿أَلۡهَىٰكُمُ﴾ شغلكم، واللهو: الانصراف إلى ما يدعو إليه الهوى. ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ التفاخر بالأموال والأولاد والرجال. ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾ أي حتى مُتّم ودفنتم في القبور. ﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر. ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ سوء عاقبة تفاخركم عند النزع وفي القبر وفي الآخرة. ﴿لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ علم الأمر المتيقن، أي لو علمتم يقيناً عاقبة التفاخر ما اشتغلتم به. والعلم اليقيني: ما نشأ عن اعتقاد مطابق للواقع عن عيان أو دليل قطعي ثابت، دلّ عليه العقل الصحيح أو النقل الثابت عن النبي ﷺ.

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦﴾ النار، جواب قسم محذوف أكد به الوعيد، للتفخيم. ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ تأكيد. ﴿عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾ أي عياناً هي اليقين نفسه. ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ﴾ يوم رؤية الجحيم. ﴿عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ ما يلتذ به في الدنيا من الصحة والفراغ والأمن والطعام والشراب وغير ذلك.

سبب النزول:

تقدم سبب نزول السورة عن ابن أبي حاتم. وأخرج ابن جرير عن علي قال: كنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ إلى ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٤﴾ في عذاب القبر.

وأخرج أحمد ومسلم والترمذي والنسائي عن عبد الله بن الشِّخِّير قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ، وهو يقول: «﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت» .

وقال مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول العبد: مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فأمضى، وما سوى ذلك فذاهب، وتاركه للناس» .

التفسير والبيان:

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ أي شغلكم التفاخر والتباهي بالأموال والأولاد والأعوان، والاعتناء بكثرتها وتحصيلها، شغلكم عن طاعة الله والعمل للآخرة، حتى أدرككم الموت، وأنتم على تلك الحال.

أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يَتْبعُ الميتَ ثلاثة، فيرجع اثنان، ويبقى معه واحد: يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله» .

وأخرج أحمد وصاحبا الصحيحين عن أنس أن النبي ﷺ قال: «يهرم ابن آدم، ويبقى معه اثنتان: الحرص والأمل» .

أما زيارة القبور فمباحة بالآداب الشرعية، بأن يبدأ الزائر السلام على صاحب القبر عند رأسه، ثم يتجه إلى القبلة ويدعو الله عز وجل بالرحمة والمغفرة للميت ولنفسه وللمسلمين، أخرج ابن ماجه عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروا القبور، فإنها تُزهّد في الدنيا، وتُذكِّر الآخرة» وهو صحيح، وأخرج الحاكم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا

فزوروها، فإنها تُرِقّ القلب، وتُدْمِع العين، وتُذكِّر الآخرة، ولا تقولوا هُجْراً» . وهذا دليل على أنها تُمنع إذا كانت مصحوبة بمنكرات، كالاختلاط والفتن والنواح.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ أي ردعاً وزجراً لكم عن هذا التكاثر المقيت الذي يؤدي إلى التقاطع والتدابر والأحقاد والضغائن، وإهمال العمل للآخرة، وخير الأمة، وتصحيح السلوك والأخلاق. وستعلمون عاقبة ذلك يوم القيامة. قال الزمخشري: ﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبيه على أنه لا ينبغي للناظر لنفسه أن تكون الدنيا جميع همه، ولا يهتم بدينه.

والجملة الثانية كررت للتأكيد والتغليظ والوعيد والزجر.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ أي ارتدعوا عن هذا اللهو بالدنيا، فإنكم لو تعلمون الأمر الذي أنتم صائرون إليه علماً يقيناً، لانشغلتم عن التكاثر والتفاخر، ولبادرتم إلى صالح الأعمال، ولما ألهاكم التباهي عن أمر الآخرة العظيم والإعداد لها. وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، أي لو علمتم لما ألهاكم.

وهذا زيادة في الزجر واللوم عن الانهماك في الدنيا، والاغترار بمظاهر الحياة الفارغة الزائلة. وليس الكلام مجرد وعظ، وإنما الخطر الداهم يقتضي عمق التأمل والتفكر في مستقبل الآخرة، وذلك لا يتوافر عادة بغير إيمان قوي، وقلب واع سليم. وتكرار لفظ﴿كَلَّا﴾ المفيدة للزجر، للدلالة على استحقاق ضرر آخر غير العذاب. وقال الحسن: ﴿كَلَّا﴾ بمعنى حقاً كأنه قيل: حقاً لو تعلمون علم اليقين.

ثم فسر الوعيد فقال:

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦﴾ أي لتشاهدن النار في الآخرة، والمراد ذوق عذابها، وهذا جواب قسم محذوف. وهو توعد بحال رؤية النار التي إذا زفرت زفرة واحدة، خرّ كل مَلَك مقرَّب، ونبي مُرْسَل، على ركبتيه من المهابة، والعظمة، ومعاينة الأهوال الجسام.

ثم أكد ذلك بقوله:

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧﴾ أي ثم لترون الجحيم الرؤية التي هي نفس اليقين، وهي المشاهدة والرؤية بأعينكم، فإياكم الوقوع فيما يؤدي إلى النار من اقتراف المعاصي والسيئات، وارتكاب الموبقات والمنكرات.

ثم أكد السؤال عن الأعمال للتحذير فقال:

﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ أي إنكم سوف تسألون عن نعيم الدنيا الذي ألهاكم عن العمل للآخرة، وتسألون عن أنواع نعيم الدنيا من أمن وصحة وفراغ ومأكول ومشروب ومسكن وغير ذلك من النعم، قال الزمخشري: ﴿عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ عن اللهو والتنعم الذي شغلكم الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه. وقال الرازي: والأظهر أن الذي يسأل عن النعيم هم الكفار، وفي قول آخر: إنه عام في حق المؤمن والكافر، واحتجوا بأحاديث منها: روي عن عمر أنه قال: «أي نعيم نسأل عنه يا رسول الله، وقد أخرجنا من ديارنا وأموالنا؟ فقال ﷺ: ظلال المساكن والأشجار والأخبية التي تقيكم من الحر والبرد، والماء البارد في اليوم الحار» .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن محمود بن لَبيد قال: «لما نزلت ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ فقرأها النبي ﷺ حتى بلغ ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ قالوا: يا رسول الله ، أي نعيم نسأل عنه؟ وإنما هما الأسودان: الماء والتمر، وسُيوفُنا على رقابنا، والعدو حاضر، فعن أي نعيم نسأل؟ قال: أما إن ذلك سيكون» .

وثبت في صحيح البخاري وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ» . أي إنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه، فهو مغبون. وعن النبي ﷺ فيما رواه الترمذي عن أبي برزة: «لا تزول قدما العبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمُره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به» .

وأخرج البخاري في الأدب والترمذي وابن ماجه عن عبيد الله بن مُحْصِن: أن رسول الله ﷺ قال: «من أصبح منكم آمناً في سِرْبه، معافى في جسده، عنده قُوت يومه، فكأنما حِيزتْ له الدنيا بحذافيرها» .

وأخرج ابن جرير ومسلم وأهل السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بينما أبو بكر وعمر جالسان إذ جاءهما النبي ﷺ، فقال: ما أجلسكما ههنا؟ قالا: والذي بعثك بالحق، ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع، قال: والذي بعثني بالحق ما أخرجني غيره، فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار[1]، فاستقبلتهم المرأة، فقال لها النبي ﷺ: أين فلان؟ فقالت: ذهب يستعذب لنا ماء، فجاء صاحبهم يحمل قِرْبتَه، فقال: مرحباً، ما زار العباد شيء أفضل من نبي زارني اليوم، فعلق قربته بكرب نخلة، وانطلق فجاءهم بعِذق، فقال النبي ﷺ: ألا كنت اجتنيت؟ فقال: أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم، ثم أخذ الشفرة، فقال له النبي ﷺ: إياك والحلوب، فذبح لهم يومئذ فأكلوا، فقال لهما النبي ﷺ: لتسألن عن هذا يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا، فهذا من النعيم» .

والظاهر أن السؤال عن النعيم للعموم؛ لأجل لام الجنس، إلا أن سؤال

---

(١) هو مالك بن التَّيِّهان الأنصاري، أبو الهيثم.

الكافر للتوبيخ؛ لأنه عصى وكفر، وسؤال المؤمن للتشريف، فإنه أطاع وشكر. والظاهر أن هذا السؤال في موقف الحساب، وهو متقدم على مشاهدة جهنم، ومعنى ﴿ثُمَّ﴾ الترتيب في الأخبار، ثم أخبركم أنكم تسألون.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - يحذر الله تعالى من ترك العمل الصالح والاستعداد للآخرة، ويوبخ الذين تشغلهم المباهاة بكثرة المال والعدد عن طاعة الله، حتى يموتوا ويدفنوا في المقابر.

والتوبيخ عام يشمل التفاخر بكل شيء من الأموال والأولاد، والقبائل والعشائر، والسلطة والجاه، والرجال والأعوان، فهو يتضمن التفاخر بالنفس، وهي العلوم والأخلاق الفاضلة، والتفاخر بالبدن، وهو الصحة والجمال، والتفاخر بالأمور الخارجية، وهي المال والجاه والأعوان والأقرباء والأصدقاء.

٢ً - لم يأت في التنزيل ذكر المقابر إلا في هذه السورة، وزيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسي؛ لأنها تذكّر الموت والآخرة. وذلك يحمل على قصر الأمل، والزهد في الدنيا، وترك الرغبة فيها، كما تقدم في الأحاديث الثابتة. وجاء في الترمذي عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ لعن زوّارات القبور. ورأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يرخص النبي ﷺ في زيارة القبور، فلما رخَّص دخل في رخصته الرجال والنساء. وقال بعضهم: إنما كره زيارة القبور للنساء، لقلة صبرهن، وكثرة جَزَعهن.

والخلاصة: زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء، مختلف فيه للنساء، أما الشوابّ فحرام عليهن الخروج، وأما القواعد الكبيرات فمباح

لهن ذلك. وجائز لجميعهن إذا انفردن بالخروج عن الرجال. وإذا حدثت فتنة من اجتماع الرجال والنساء، فلا يحل ولا يجوز.

٣ً - قال العلماء: ينبغي لعلاج القلب ثلاثة أمور: طاعة الله، والإكثار من ذكر الموت (هاذم اللذات) وزيارة قبور أموات المسلمين.

٤ً - كرر الله تعالى في هذه السورة الوعيد بعد الوعيد، للتأكيد والتغليظ على ثبوت عذاب القبر وعذاب الآخرة، وأن ما وعدنا به من البعث وتوابعه حق وصدق. ثم أعاد تعالى الزجر والتنبيه على أنه إن لم يفعل الناس العمل الصالح، وترك التفاخر بالأموال والأولاد والرجال، يندموا، ويستوجبوا العقاب.

٥ً - أتى الله تعالى بوعيد آخر بقسم محذوف: والله لترون الجحيم في الآخرة، وهذا خطاب للكفار الذين وجبت لهم النار، وقيل: الخطاب عام، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ١٩/ ٧١] فهي للكفار مقر، وللمؤمنين ممر. ثم أخبر تعالى عن رؤية الجحيم رؤية مشاهدة بالأعين، وبعيون القلوب والأفئدة.

٦ً - يُسْأَلُ الناس يوم القيامة عن ألوان النعيم في الدنيا، من ظلال المساكن والأشجار، وطيب الحياة والرفاهية، والصحة والفراغ، والأمن والستر ونحو ذلك. والكل يسألون، ولكن سؤال الكفار توبيخ؛ لأنه قد ترك الشكر، وسؤال المؤمن سؤال تشريف؛ لأنه شكر، وهذا النعيم في كل نعمة. ويكون السؤال في موقف الحساب، وقيل: بعد الدخول في النار؛ توبيخاً لهم، والأول هو الظاهر.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةُ العَصْرِ

مكية، وهي ثلاث آيات

تسميتها:

سميت سورة (العصر) لقسم الله به في مطلعها بقوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾: الدهر، لاشتماله على الأعاجيب، من سرّاء وضرّاء، وصحة وسقم، وغنى وفقر، وعز وذل، وانقسامه إلى أجزاء: سنة وشهر ويوم وساعة ودقيقة وثانية.

مناسبتها لما قبلها:

لما بيّن في السورة المتقدمة أن الاشتغال بأمور الدنيا والتهالك عليها مذموم، أراد أن يبين في هذه السورة ما يجب الاشتغال به من الإيمان والأعمال الصالحات، وهو ما يعود إلى النفس، ومن التواصي بالخيرات وكفّ النفس عن المناهي أو المعاصي، وهو ما يعود إلى المجتمع. والخلاصة: بعد أن قال: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ وهدد بتكرار: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣﴾ بيَّن حال المؤمن والكافر.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة المكية الموجزة توضح أصول الإسلام الكبرى، ودستور الحياة الإنسانية.

فقد أقسم الله تعالى بالعصر الذي هو الدهر أو الزمان المشتمل على العجائب والدال على قدرة الله وحكمته البالغة على خسارة الإنسان إلا من اتصف بالأوصاف الأربعة، وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي مع الآخرين بالحق، والتواصي بالصبر والمصابرة.

فضلها:

ذكر الرواة أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب، وذلك بعدما بعث رسول الله ﷺ، وقبل أن يسلم عمرو، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة؟! فقال: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة، فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ ففكر مسيلمة هُنيهة، ثم قال: وقد أنزل علي مثلها، فقال له عمرو: وما هو؟ فقال:

يا وبر يا وبر[1]، وإنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حفر نقر.

ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله لتعلم أني أعلم أنك تكذب.

وذكر الطبراني عن عبيد الله بن حفص قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يفترقا، إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر، إلى آخرها، ثم يسلم أحدهما على الآخر. وأخرجه البيهقي عن أبي حذيفة.

وقال الشافعي رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم.

---

(١) الوبر: دويبة تشبه الهر، أعظم شيء فيه أذناه وصدره، وباقيه دميم، فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن، فلم يرج ذلك على عابد الأوثان في ذلك الزمان (تفسير ابن كثير ٤/ ٥٤٧).

رسالة الحياة أو حال المؤمن والكافر

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾

الإعراب:

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١﴾ قسم، وجوابه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾ والمراد بالإنسان: الجنس، ولهذا استثنى منه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

﴿وَتَوَاصَوۡاْ﴾ أصله (تواصيوا) إلا أنه تحركت الياء وانفتح ما قبلها، فانقلبت ألفاً، فاجتمع ساكنان: الألف والواو بعدها، فحذفوا الألف لالتقاء الساكنين.

البلاغة:

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ أي الناس بدليل الاستثناء، فهو إطلاق البعض وإرادة الكل.

﴿لَفِي خُسۡرٍ﴾ التنكير للتعظيم، أي في خسر عظيم.

﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ إطناب بتكرار الفعل، لزيادة العناية به.

﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ بعد قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ خاص بعد عام، فإن الصبر داخل في عموم الحق، إلا أنه خصصه بالذكر للاهتمام به بعينه.

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١﴾، ﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾، ﴿خُسۡرٍ﴾ سجع عفوي غير متكلف، وهو من المحسنات البديعية.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١﴾ والدهر، أقسم الله به لاشتماله على الأعاجيب، وقيل: صلاة العصر، أو وقت العصر من بعد الزوال إلى الغروب. ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ جنس الإنسان؛ فالتعريف للجنس. ﴿خُسۡرٍ﴾ خسارة أو خسران في تجارته، والتنكير للتعظيم. والخسارة: النقصان وضياع رأس المال. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنهم اشتروا الآخرة بالدنيا، ففازوا بالحياة الأبدية والسعادة الدائمة، فليسوا في خسران.

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ وهو الشيء الثابت الذي لا يصح إنكاره من اعتقاد أو عمل، أو هو ما أرشد إليه دليل قاطع، أو عيان ومشاهدة، أو شرع صحيح جاء به نبي معصوم.

والتواصي بالحق: أن يوصي الناس بعضهم بعضاً بما لا مجال لإنكاره من إيمان وخير وفضيلة. ﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾ قوة في النفس تدعو إلى احتمال المشقة في العمل. والتواصي بالصبر: أن يوصي الناس بعضهم بعضاً به، ويحث الواحد غيره عليه.

وقد اكتفى سبحانه ببيان سبب الربح دون الخسران لأنه المقصود، وما عداه يؤدي إلى الخسران والنقص.

التفسير والبيان:

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾ أي قسماً بالعصر، وهو الدهر أو الزمان الذي يمر به الناس؛ لما فيه من العبر وتقلبات الليل والنهار، وتعاقب الظلام والضياء، وتبدل الأحداث والدول، والأحوال والمصالح، مما يدل على وجود الصانع عزّ وجلّ، وعلى توحيده وكمال قدرته، أقسم بذلك على أن الإنسان في خسارة وهلاك ونقص وضلال عن الحق، في المتاجر

والمساعي، وصرف الأعمار في أعمال الدنيا، إلا من استثناهم الله فيما يأتي. وإقسام الله بالدهر دليل على شرفه وأهميته، لذا قال ﷺ فيما أخرجه مسلم عن أبي هريرة: «لا تسبُّوا الدهر، فإن الله هو الدهر» . والآية كما ذكر الرازي كالتنبيه على أن الأصل في الإنسان أن يكون في الخسران والخيبة.

وقيل: المراد بالعصر: صلاة العصر، أو وقتها؛ تعظيماً لها، ولشرفها وفضلها، ولهذا فسّر بها الصلاة الوسطى عند كثير من العلماء. وفيه إشارة إلى أن عمر الدنيا الباقي هو ما بين العصر إلى المغرب، فعلى الإنسان أن يشتغل بتجارة لا خسران فيها، فإن الوقت قد ضاق، وقد لا يمكن تدارك ما فات.

والمراد بالإنسان: الجنس، واللام لام الجنس، وهو الراجح. وقيل: اللام في الإنسان لمعهود معين، كما روي عن ابن عباس أنه أراد جماعة من المشركين كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطّلب. قال أبو حيان: والعصر، والإنسان: اسم جنس يعم، ولذلك صحّ الاستثناء منه.

ثم استثنى من جنس الإنسان عن الخسران ما يأتي:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾
أي إن الإنسان لفي خسارة وضياع ونقصان وهلاك، إلا الذين جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح، فإنهم في ربح، لا في خسر؛ لأنهم عملوا للآخرة، ولم تشغلهم أعمال الدنيا عنها، فآمنوا بقلوبهم، وعملوا بجوارحهم (أعضائهم).

وإلا الذين وصَّى بعضهم بعضاً بالأمر الثابت الذي لا يسوغ إنكاره: وهو الإيمان بالله والتوحيد، والقيام بما شرعه الله، واجتناب ما نهى عنه. والحق خلاف الباطل، ويشمل جميع الخيرات وما يلزم فعله، أو هو أداء الطاعات، وترك المحرّمات. قال الزمخشري: وهو الخير كله، من توحيد الله وطاعته واتباع كتبه ورسله، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة.

وإلا الذين أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على فرائض الله، وعن معاصي الله، وعلى أقداره وبلاياه. والصبر يشمل احتمال الطاعات، واجتناب المنكرات، وتحمل المصائب والأقدار، وأذى الذين يأمرونه بالمعروف، وينهونه عن المنكر.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت السورة على ما يأتي:

١ً - الإنسان وإن ربح الثروة الكبيرة والمال الوفير، فهو في خسارة محققة، إن لم يعمل للآخرة عملاً طيباً صحيحاً.

٢ً - أقسم الله تعالى على هذا الحكم بأي عصر أو زمان، لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدّلها، وما فيها من الدلالة على الصانع ووحدانيته وكمال قدرته ومزيد حكمته التي تظهر أحياناً بعد مرور الزمان.

والعصر في الحلف بالأيمان مختلف في تقديره عند الفقهاء، فقال مالك: من حلف ألا يكلم رجلاً عصراً، يحمل على السنة؛ لأنه أكثر ما قيل فيه، وذلك على أصله في تغليظ المعنى في الأيمان.

وقال الشافعي: يبرّ بساعة، إلا أن تكون له نية، أو يفسره بما يحتمله، وذلك حملاً على الأقل المتيقن المراد بالعصر.

٣ً - حكم الله تعالى بالوعيد الشديد؛ لأنه حكم بالخسارة على جميع الناس إلا من كان آتياً بأشياء أربعة أو متصفاً بصفات أربع، وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

فدلّ ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور، وعناصر الإيمان ستة: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر

خيره وشره. والعمل الصالح: أداء الفرائض واجتناب المعاصي، وفعل الخير. والتواصي بالحق: أن يوصي بعضهم بعضاً بالأمر الثابت، ويحث بعضهم بعضاً على توحيد الله، والعمل بالقرآن، والدعوة إلى الدين والنصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه. قال عمر رضي الله عنه: رحم الله من أهدى إلي عيوبي.

والتواصي بالصبر: أن يوصي الناس بعضهم بعضاً بطاعة الله عزّ وجلّ، والصبر عن معاصيه، والرضا بالقضاء والقدر في المصائب والمحن.

٤ - قال الإمام الرازي رحمه الله: دلت الآية على أن الحق ثقيل، وأن المحن تلازمه، فلذلك قرن به التواصي[١].

(١) تفسير الرازي: ٣٢/ ٩٠

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الهمزة

مكية، وهي تسع آيات

تسميتها:

سميت سورة (الهُمَزة) لبدئها بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ والهمزة: الذي يغتاب الناس ويطعن بهم بقول أو فعل أو إشارة، واللمزة: الذي يعيب الناس بإشارة الحاجب والعين. قال ابن عباس: (الهمزة): المغتاب، و(اللمزة): العياب.

مناسبتها لما قبلها:

بعد أن ذكر الله تعالى في السورة المتقدمة أن جنس الإنسان في خسران ونقص وهلكة، أبان في هذه السورة حال الخاسر، وأراد به تبيان الخسران بمثال واحد.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة المكية في علاج مشكلة خلقية مستعصية بين الناس، وهي الطعن في الآخرين بالغيبة في أثناء غيابهم، أو بالعيب حال حضورهم.

وقد بدأت بالإخبار عن العذاب الشديد لكل عيَّاب طعَّان للناس،

ينتقص الآخرين ويزدريهم ويسخر بهم: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الآية: ١].

ثم ذمّت السورة الذين يحرصون على جمع الأموال في الدنيا، كأنهم مخلدون فيها: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾ [الآيات: ٢-٣].

وختمت بردع الفريقين السابقين، وأنبأتهم بمصيرهم الأسود، وهو النبذ في الحطمة: نار جهنم [الآيات: ٤-٩].

سبب نزولها:

قال عطاء والكلبي والسُّدي: نزلت في الأَخْنَس بن شُرَيق، كان يلمز الناس ويغتابهم، وبخاصة رسول الله ﷺ.

وقال مقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة، كان يغتاب النبي ﷺ من ورائه، ويطعن عليه في وجهه. وروي أيضاً أن أمية بن خلف كان يفعل ذلك.

وقال محمد بن إسحاق والسهيلي: ما زلنا نسمع أن هذه السورة نزلت في أمية بن خلف[١]. وقد روى ذلك ابن جرير عن عثمان وابن عمر.

قال أبو حيان: ونزلت في الأخنس بن شريق، أو العاص بن وائل، أو جميل بن معمر، أو الوليد بن المغيرة، أو أمية ابن خلَف: أقوال، ويمكن أن تكون نزلت في الجميع، وهي مع ذلك عامة فيمن اتصف بهذه الأوصاف[٢].

وعلى هذا فاللفظ عام، وإن كان في الأصل يشير إلى شخص معين، وكذلك قوله تعالى في سورة (ن): ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ

---

(١) تفسير الرازي: ٣٢/ ٩١

(٢) البحر المحيط: ٨/ ٥١٠

بَنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ [القلم: ٦٨/ ١٠-١٥]، فإنه سبحانه تابع في سرد الصفات حتى علم أنه يريد في الأصل إنساناً بعينه.

والقاعدة العامة عند المحققين والأصوليين: أن خصوص السبب لا ينافي عموم اللفظ. وهذه السورة تشتمل على سدس مقاصد القرآن، وهو حكاية أقوال الجاحدين.

الطعّان العيّاب للناس وجزاؤه

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾﴾

القراءات:

﴿جَمَعَ﴾:

وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف (جَمَّعَ).

﴿يَحْسَبُ﴾:

قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة (يحسَب) وقرأ الباقون (يحسِب).

﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾:

قرأ أبو عمرو، وحفص، وحمزة، وخلف (مؤصدة) وقرأ الباقون (موصدة).

﴿عَمَدٍ﴾ :

قرأ حمزة، والكسائي، وخلف (عُمُد) وقرأ الباقون (عَمَد).

الإعراب:

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا﴾ ﴿ٱلَّذِى﴾ : إما في موضع رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وتقديره: وهو الذي، أو في موضع نصب بفعل مقدر، أي أعني، أو في موضع على البدل من (كل) .

﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ بفتح الذال، أراد به: الذي جمع، ويبنى الفعل المضارع على الفتح إذا اتصلت به نون التوكيد الثقيلة أو الخفيفة، مثل: ليذهبَنَّ وليشترِيَنْ. ومن قرأ بضم الذال، أراد به: المال والهمزة واللمزة. وقرئ: (لينبذان) بألف التثنية، وأراد به المال وصاحبه. وهو جواب قسم محذوف، أي ليطرحن.

﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِۭ ۝٩﴾ ﴿عَمَدٍ﴾ : بفتح العين والدال، أراد به اسم الجمع، وقرئ (عُمُد) بضمتين، وأراد به جمع عمود، كرسول ورُسُل.

البلاغة:

﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ من صيغ المبالغة، على وزن: فُعَلة، كنُومة وعُيبة وسُحَرة وضحكة.

﴿جَمَعَ مَالًا﴾ تنكير ﴿مَالًا﴾ للتفخيم، أي جمع مالاً كثيراً.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥﴾ الاستفهام للتفخيم والتهويل لنار جهنم، و﴿ٱلۡحُطَمَةُ﴾ : من صيغ المبالغة.

﴿هُمَزَةٍ﴾ ، ﴿لُّمَزَةٍ﴾ جناس ناقص أو غير تام.

﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ ، ﴿أَخۡلَدَهُۥ﴾ ، ﴿ٱلۡمُوقَدَةُ﴾ ، ﴿مُّمَدَّدَةِۭ﴾ سجع مرصع، لتوافق الفواصل.

المفردات اللغوية:

﴿وَيْلٌ﴾ خزي وعذاب شديد، ويراد به الندم والتقبيح. ﴿هُمَزَةٍ﴾ مغتاب طعّان في أعراض الناس وكراماتهم. ﴿لُمَزَةٍ﴾ عيّاب يعيب عادة بالحاجب أو العين أو اليد أو الرأس تحقيراً للناس وترفعاً عليهم. ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ عدّه مرة بعد أخرى تلذذاً به، أو جعله عُدَّة للنوازل وحوادث الدهر.

﴿يَحْسَبُ﴾ يظن لجهله. ﴿أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ جعله خالداً في الدنيا، لا يموت. ﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر. ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ ليطرحنّ وليرمين بإهانة وتحقير، وهو جواب قسم محذوف. ﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ نار جهنم، سميت لذلك؛ لأنها تحطم كل ما ألقي فيها، من الحَطْم: وهو الكسر. ﴿ٱلْمُوقَدَةُ﴾ المسعَّرة. ﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ تعلو أوساط القلوب، وتحيط بها، وخصت الأفئدة بالذكر؛ لأنها محل العقائد الزائغة ومنشأ الأعمال الفاسدة القبيحة. ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ مطبقة مغلقة عليهم، من أوصدت الباب: إذا أغلقته. ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾﴾ في أعمدة طويلة، فتكون النار داخل العَمَد، جمع عمود.

التفسير والبيان:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾﴾ أي خزي وعذاب شديد لكل من يغتاب الناس ويطعن بهم، أو يعيبهم في حضورهم، قال مقاتل: إن الهمزة: الذي يغتاب بالغيبة، واللمزة: الذي يغتاب في الوجه. وقال ابن عباس: ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ طعان معياب.

ثم ذكر أوصافاً أخرى له:

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾﴾ أي إن ذلك الهمزة اللمزة الذي يزدري الناس ويحتقرهم ويترفع عليهم بسبب إعجابه بما جمع من المال وأحصاه، وظن أن له به الفضل على غيره، كقوله تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [المعارج: ١٨/٧٠].

﴿يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ۝٣﴾ أي يظن أن ماله يضمن له الخلود ويتركه حيّاً مخلداً لا يموت؛ لشدة إعجابه بما يجمعه من المال، فلا يعود يفكر بما بعد الموت.

ثم ردّ الله عليه أوهامه وزجره على مزاعمه، فقال:

﴿كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤﴾ أي زجراً له وردعاً، فليس الأمر كما زعم ولا كما حسب، بل ليلقين ويطرحن هذا الذي جمع ماله هو وماله في النار التي تحطم أو تهشم كل ما يلقى فيها.

ثم هوّل عليه شأن النار وعرفها له، فقال:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦﴾ أي وما أعلمك ما هذه النار، وأي شيء هي؟ فكأنها لا تدركها العقول، هي نار الله الموقدة المستعرة بأمر الله سبحانه، التي لا تخمد أبداً.

وفائدة وصف جهنم بالحطمة مناسبتها لحال المتكبر المتجبر بماله، المترفع على غيره، فهي تكسر كسراً كل ما يلقى فيها، لا تبقي ولا تذر.

وإضافة ﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ للتفخيم، أي هي نار، لا كسائر النيران.

ثم وصف النار بأوصاف ثلاثة هي:

﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ۝٩﴾ أي التي تعلو القلوب وتغشاها بحرها الشديد، وتحرقهم وهم أحياء. والقلوب أشد أجزاء البدن تألماً، وخصت بالذكر لأنها محل العقائد الزائغة، والنيات الخبيثة، وسوء الأخلاق من الكبر واحتقار الناس، والأعمال القبيحة.

وهي عليهم مطبقة، مغلقة عليهم أبوابها جميعاً، فلا منافذ، ولا يستطيعون الخروج منها، كما قال تعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ۝٢٠﴾ [البلد: ٩٠/ ٢٠] ،

وقال سبحانه: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢/٢٢].

وهي أيضاً كائنة في أعمدة ممددة طويلة موثَّقة. قال مقاتل: أطبقت الأبواب عليهم، ثم شدّت بأوتاد من حديد، فلا يفتح عليهم باب، ولا يدخل عليهم رَوْح.

والآية تفيد المبالغة في العذاب بقوله: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ أي إنه موضع له قعر عميق جداً كالبئر، وإن أبوابها لا تفتح؛ ليزيد في حسرتهم، وتغلق إغلاقاً محكماً للتيئيس من الخروج منها، وممددة في أعمدة دائمة اللهب، فلا أمل في إطفائها أو تخفيف شدة حرارتها.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - الخزي والعذاب والهَلَكة لكلّ مغتاب عيَّاب طعّان للناس. قال النّبي ﷺ: «شرار عباد الله تعالى المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العيب»[١].

٢ - كأن سبب الهمز واللمز والترفع على الناس وازدرائهم هو المال وطول الأمل، لأن الغنى يورث الإعجاب والكبر، وعدّ المال من غير ضرورة دليل على المتعة النفسية والزخرفة الدنية، والانشغال عن السعادة الباقية، ولأن المال يطول الأمل، ويمنّي بالأماني البعيدة، حتى أصبح لفرط غفلة صاحب المال يحسب أن ماله يتركه خالداً في الدنيا.

٣ - ردع الله تعالى عن كل هذه المزاعم والتحسبات، فالمال لا يرفع

(١) تفسير القرطبي: ٢٠/ ١٨١

القدر، ولا يقتضي الطعن بالآخرين، وليس المال كما يظن مخلِّداً في الدنيا، بل المخلِّد هو العلم والعمل، كما قال علي رضي الله عنه: مات خُزَّان المال، وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر.

٤ - حدد الله تعالى عقاب الهمزة اللمزة جامع المال حبّاً فيه لذاته، وهو الطرح أو الإلقاء في نار جهنم التي تحطم كل ما يلقى فيها، وهي نار الله الموقدة غير الخامدة، التي أعدها الله للعصاة، والتي تأكل جميع ما في الأجساد، حتى تبلغ الفؤاد، ثم يخلقون خلقاً جديداً، فترجع تأكلهم.

وهي مغلقة الأبواب، مطبقة عليهم، حال كونهم موثقين بأعمدة، وهي في أعمدة طوال تلتف بهم من كل جانب.

روى خالد بن أبي عمران عن النبي ﷺ: «أن النار تأكل أهلها، حتى إذا اطلعت على أفئدتهم - أي تعلوها وتغلبها - انتهت، ثم إذا صَدَروا تعود، فذلك قوله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾».

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفيل

مكية، وهي خمس آيات

تسميتها:

سميت سورة (الفيل) لافتتاحها بالتذكير بقصة أصحاب الفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾﴾؟ أي ألم تعلم علم اليقين ماذا صنع ربّك العظيم القدير بأبرهة الحبشي قائد اليمن وأتباعه الذين أرادوا هدم البيت الحرام؟!

مناسبتها لما قبلها:

ذكر الله تعالى في السورة السابقة (الْهُمَزَة) حال الهمزة اللمزة الذي جمع مالاً، وتعزز بماله، وأفاد تعالى أن المال لا يغني من الله شيئاً، ثم ذكر في هذه السورة الدليل على ذلك، بإيراد قصة أصحاب الفيل الذين كانوا أشدّ منهم قوة، وأكثر مالاً، وأعظم عتواً، وقد أهلكهم الله بأصغر الطير وأضعفه، ولم يغن عنهم مالهم ولا عددهم ولا قوتهم شيئاً.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة المكية مقصورة على بيان قصة أصحاب الفيل الذين اعتمدوا على قوتهم وما لهم وقدرتهم على البطش بجيش جرار لا يقهر، ثم أبادهم الله

عن بكرة أبيهم، حينما أرادوا هدم الكعبة، بقصف من الحجارة الربانية المعلقة بأرجل طير صغار، وجعلهم كعصف مأكول، أي كبقايا الزرع بعد الحصاد الذي تأكله الماشية، وتعصف به الريح في كل مكان.

أضواء من التاريخ على قصة أصحاب الفيل:

كان على اليمن قائد من قِبَل النجاشي (ملك الحبشة) واسمه أبرهة بن الصباح الأشرم جدّ أصحمة النجاشي الذي عاصر النبي ﷺ قد بنى كنيسة عظيمة سمّاها «القُلَّيس» ليصرف إليها حج العرب، فقام رجل من كنانة وتغوط فيها ليلاً، فأغضبه ذلك، وأقسم ليهدمن الكعبة، مستغلاً هذا الحادث، ومريداً في الواقع فتح مكة لربط اليمن ببلاد الشام، وتوسيع بلاد النصرانية.

فجهز جيشاً عظيماً، مصحوباً بفيلة كثيرة قيل: اثنا عشر، وقيل: ألف، زيادة في الإرهاب والتخويف، وسار حتى وصل إلى «المغمَّس» موضع قرب مكة، فأرسل إلى أهل مكة يخبرهم أنه لم يأت لحربهم، وإنما جاء لهدم الكعبة، فاستعظموا الأمر، وفزعوا له، وأرادوا محاربته، فرأوا ألا طاقة لهم بأبرهة وجنوده، واعتصموا بالجبال ينظرون ماذا يحدث، واثقين بأن للبيت ربّاً يحميه.

ولما اقترب الجيش من مكة أمر أبرهة بنهب أموال العرب، وكان فيها إبل لعبد المطلب بن هاشم جدّ النبي ﷺ، فاستاقها الجند، وكان عددها مئتي بعير، وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة وأمره أن يأتيه بأشرف قريش وأن يخبره أن الملك لم يجئ لقتالكم إلا أن تصدّوه عن البيت، فجاء حناطة، فدلوه على عبد المطلب بن هاشم، وبلَّغه عن أبرهة ما قال، فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يخلِّ بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنه، فقال له حناطة: فاذهب معي إليه، فذهب معه، فلما رآه أبرهة أجلّه، وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً حسن المنظر، فنزل أبرهة عن

سريره، وأجلسه معه على البساط، وسأله عن حاجته، فقال: حاجتي أن يردّ عليَّ الملك مئتي بعير أصابها لي.

فتعجب أبرهة، وقال: أتكلمني في مئتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك، قد جئتُ لهدمه، لا تكلمني فيه؟!

فقال له عبد المطلب: إني أنا ربّ الإبل، وإن للبيت ربّاً سيمنعه عنك، قال: ما كان ليمتنع مني، قال: أنت وذاك[1]. وكان قد عرض عبد المطلب ومن معه من أشراف العرب على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت، فأبى عليهم، وردّ أبرهة على عبد المطلب إبله، ثم رجع وأتى باب البيت ومعه نفر من قريش، وأخذوا بحلقة باب الكعبة يدعون الله، ويستنصرونه على أبرهة وجنده.

ثم زحف الجيش نحو البيت ودخلوا مكة، وكان معه فيل عظيم اسمه «محمود» كلما وجهوه إلى جهة الحرم، برك ولم يبرح، وإذا وجهوه إلى جهة اليمن أو إلى سائر الجهات هرول.

وفي اليوم التالي وبينما عبد المطلب يدعو، التفت، فإذا هو بطير من نحو اليمن جهة البحر، فقال: والله إنها لطير غريبة، ما هي بنجدية ولا تهامية. وكان مع كل طائر أحجار تحملها بمناقيرها وأرجلها، فألقتها عليهم، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك. وفرّ الجيش هاربين نحو اليمن، يتساقطون في الطريق، وأصيب أبرهة في جسده، وبدأت أنامله تسقط أنملة أنملة، ولحمه يتساقط، حتى قدموا به «صنعاء» فمات شرّ ميتة[2].

وكان لهذه الهزيمة أثر كبير في التاريخ وبين العرب، فأعظموا قريشاً،

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/٤٩ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق: ١/٤٣ - ٥٧

وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم، وكفاهم العدو، وازدادوا تعظيماً للبيت، وإيماناً بمكانه عند الله[1].

وأراد الله بهذا الحادث تعظيم بيته، وإعلاء شأنه، وتهيئة أمة العرب لحمل رسالة الإسلام إلى العالم كله.

وكان ذلك الحدث التاريخي المهم في عام ميلاد النبي ﷺ، سنة ٥٧٠ م، أي كان بين عام الفيل ومبعث النبي ﷺ أربعون سنة. وكان قد بقي بمكة جَمْع شاهدوا تلك الواقعة، وقد بلغت حدّ التواتر حينئذٍ، فما ذاك إلا إرهاص للرسول ﷺ.

قصة أصحاب الفيل

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾

الإعراب:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ معناه الإيجاب، أي قد علمت؛ لأن همزة الاستفهام لما دخلت على (لم) وهي حرف نفي، والاستفهام كالنفي، اجتمع نفيان، فلما دخل النفي على النفي، انقلبت إيجاباً.

و ﴿كَيْفَ﴾: في موضع نصب بفعل بعده، ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿تَرَ﴾ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، وإنما يعمل فيه ما بعده. وجملة ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ سدت مسدّ مفعولي (ترى) لأنها من رؤية القلب بمعنى العلم، نحو: رأيت الله غالباً. و﴿رَبُّكَ﴾: فاعل ﴿فَعَلَ﴾.

(١) المرجع السابق: ص ٥٧

﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ إما جمع لا واحد له من لفظه على وزن أساطير، أو واحده «إبِّيل» أو إبَّوْل، كعجاجيل واحدها عِجَّوْل.

﴿كَعَصْفٍ﴾ في موضع نصب، على أنه مفعول ثان لـ ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ أي صيّرهم.

البلاغة:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ الاستفهام للتقرير والتعجيب، أي اعجب.

﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾ إشادة بقدرة الله تعالى، والخطاب للنبي ﷺ بقوله ﴿رَبُّكَ﴾ تشريف له.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ تشبيه مرسل مجمل، ذكرت الأداة، وحذف وجه الشبه.

﴿الْفِيلِ﴾، ﴿تَضْلِيلٍ﴾، ﴿أَبَابِيلَ﴾، ﴿سِجِّيلٍ﴾، ﴿مَّأْكُولٍ﴾ توافق الفواصل في الحرف الأخير.

المفردات اللغوية:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي تعلم، والخطاب للرسول ﷺ، وهو إن لم يشهد تلك الواقعة، لكنه شاهد آثارها، وسمع بالتواتر أخبارها، فكأنه رآها، فإنها من الإرهاصات؛ لأنها وقعت في السنة التي ولد فيها الرسول ﷺ. ﴿بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ أصحاب الفيل العظيم الذي كان اسمه «محمود» . وهم أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قِبَل النجاشي، وجيشه الذين أرادوا هدم الكعبة لصرف الحجاج العرب عن مكة إلى كنيسة بناها أبرهة بصنعاء، وسماها «القُلَّيس» . فحين توجهوا لهدم الكعبة، أرسل الله عليهم ما قصه في هذه السورة.

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ﴾ أي جعل .﴿كَيْدَهُمْ﴾ مكرهم وتدبيرهم بتخريب الكعبة وتعطيلها .﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ تضييع وإبطال وهلاك وخسارة .﴿طَيْرًا﴾ ما طار في الهواء، صغيراً أو كبيراً .﴿أَبَابِيلَ﴾ جماعات متفرقة .﴿سِجِّيلٍ﴾ طين متحجر. ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ كورق زرع يبقى بعد الحصاد، أكلته الدواب وداسته وأفنته، أو كتبن أكلته الدواب وراثته.

التفسير والبيان:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾﴾ ألم تعلم علم اليقين، وكأنك شاهدت الواقعة، بما صنع ربّك العظيم القدير بأصحاب الفيل، حيث دمرهم الله، وحمى بيته الحرام، أفلا يجدر بقومك أن يؤمنوا بالله، وقد شاهد أناس منهم الواقعة، حيث أقبل قوم من النصارى الأحباش الذين ملكوا اليمن، إلى الحجاز، يريدون تخريب الكعبة، فلما قربوا من مكة، وأرادوا دخولها، أرسل الله عليهم جماعات من الطيور محمَّلة بحجارة، ألقوها عليهم، فأهلكتهم؟

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾﴾ أي أفسد خطتهم ومؤامرتهم، والمعنى: ألم تر أن ربك جعل مكرهم وتدبيرهم وسعيهم في تخريب الكعبة، واستباحة أهلها، في تضليل عما قصدوا إليه، وفي ضياع وإبطال، حتى لم يصلوا إلى البيت، ولا إلى ما أرادوا بكيدهم، بل أهلكهم الله تعالى. والكيد: هو إرادة مضرة بالغير على الخفية.

وإذا علم قومك هذا الأمر، فليخافوا أن يعاقبهم الله بعقوبة مماثلة، ما داموا يصرون على الكفر بالله تعالى وبرسوله ﷺ وكتابه الكريم، ويصدون الناس عن سبيل الإيمان الحق بالله عزّ وجلّ.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾﴾ أي وبعث الله عليهم جماعات متفرقة من الطيور السود، جاءت من قِبَل البحر

فوجاً فوجاً، مع كل طائر ثلاثة أحجار: حجران في رجليه، وحجر في منقاره، لا يصيب شيئاً إلا دمره وهشمه.

وهي حجارة صغيرة من طين متحجر، كالحمصة وفوق العدسة، فإذا أصاب أحدهم حجر منها، خرج به الجدري أو الحصبة، حتى هلكوا.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ أي فجعلهم فضلات وبقايا مثل ورق الزرع أو الشجر إذا أكلته الدواب، ثم راثته، فأهلكهم جميعاً.

أخرج البخاري أنه: «لما أطل رسول الله ﷺ يوم الحديبية على الثنية التي تهبط به على قريش، بركت ناقته، فزجروها، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، أي حرنت، فقال رسول الله ﷺ: ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل. ثم قال: والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم خُطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أجبتهم إليها، ثم زجرها، فقامت».

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «إن الله حبَس عن مكة الفيل، وسلَّط عليها رسوله والمؤمنين، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فيبلِّغ الشاهد الغائب».

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - هذا الخطاب، وإن كان للنبي ﷺ، ولكنه عام، أي ألم تروا ما فعلتُ بأصحاب الفيل؟ أي قد رأيتم ذلك، وعرفتم موضع منتي عليكم، فما لكم لا تؤمنون؟!

٢ - دلت الواقعة على قدرة الله الصانع وعلمه وحكمته، وعلى شرف محمد ﷺ؛ لأنه يجوز تقديم المعجزات على زمان البعثة، تأسيساً لنبوتهم، وإرهاصاً

لها، ولذلك قالوا: كانت الغمامة تظله[١]. قال أبو حيان: كان صرف ذلك العدوّ العظيم عام مولده السعيد ﷺ إرهاصاً بنبوته؛ إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المنقول من خوارق العادات، والمعجزات المتقدمة بين أيدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد ضلل (أحبط) كيدهم، وأهلكهم بأضعف جنوده، وهي الطير التي ليست من عادتها أنها تقتل[٢].

٣ً - دلت القصة أيضاً على تكريم الله للكعبة، وإنعامه على قريش بدفع العدو عنهم، فكان يجب عليهم المبادرة إلى الإيمان برسالة محمد ﷺ، وعبادة الله، وشكره على نعمائه.

٤ً - كان إرسال الطير عليهم إرهاصاً للنبي ﷺ، وأما بعد تقرير نبوته فلم يكن هناك حاجة إلى الإرهاص، لذا لم يعذب الحَجّاج بتخريب البيت، ولأنه لم يكن قاصداً التخريب، وإنما أراد شيئاً آخر، وهو قتل ابن الزبير.

٥ً - شبه تدميرهم وإهلاكهم وصيرورتهم بعد قصف الطير بالحجارة بصورة قبيحة حقيرة، تدل على حقارة كفرهم، وصَغار نفوسهم، وهوانهم على الله، وتلك الصورة ورق يابس أو تبن تعصف به الريح، أكلته الدواب وراثته، أي كفضلات البهائم، وذلك يدل أيضاً على فنائهم التام؛ لأنه أراد تشبيه تقطيع أوصالهم بتفريق أجزاء الروث.

إلا أن هذا التشبيه جاء على منهج القرآن في أدبه الرفيع، مثل قوله تعالى في تشبيه عيسى وأمه: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٥/ ٧٥] .

وإنما سلط الله العذاب على أصحاب الفيل، ولم يسلطه على كفار قريش الذين ملؤوا الكعبة أوثاناً؛ لأن أصحاب الفيل قصدوا التخريب، وهذا تعدٍّ

(١) تفسير الرازي: ٣٢/ ٩٧

(٢) البحر المحيط: ٨/ ٥١٢

على حق العباد، ووضع الأوثان فيها قصدوا به التقرب إلى الله، وهو مع ذلك تعدٍّ على حق الله تعالى، وحق العباد مقدَّم على حق الله تعالى.

٦ً - قال ابن مسعود: لما رمت الطير بالحجارة، بعث الله ريحاً، فضربت الحجارة فزادتها شدّة، فكانت لا تقع على أحد إلا هلك، ولم يسلم منهم إلا رجل من كِنْدة، فقال:

فإنكِ لو رأيتِ ولم تَريهِ خشيت الله إذ قد بث طيراً
وباتت كلُّها تدعو بحق لدى جنب المغَمَّس ما لَقِينا
وظِلَّ سحابة مرَّت علينا كأن لها على الحُبْشان دَيْنا

ويروى أنها لم تصبهم كلهم، لكنها أصابت من شاء الله منهم. وقد تقدم في القصة التاريخية أن أميرهم أبرهة رجع وشِرْذمة قليلة معه، فلما أَخْبَروا بما رأوا هلكوا. وذلك للعبرة والعظة.

٧ً - قال ابن إسحاق: لما ردّ الله الحبشة عن مكة، عَظَّمت العرب قريشاً وقالوا: أَهْلُ الله، قاتل عنهم، وكفاهم مؤونة عدوهم؛ فكان ذلك نعمة من الله عليهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ قُرَيْشٍ

مكية، وهي أربع آيات

تسميتها:

سميت سورة قريش تذكيراً لهم بنعم الله عليهم في مطلع السورة: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ①﴾.

مناسبتها لما قبلها:

ترتبط السورة بما قبلها من وجهين:

١ - كلتا السورتين تذكير بنعم الله على أهل مكة، فسورة الفيل تشتمل على إهلاك عدوهم الذي جاء لهدم البيت الحرام أساس مجدهم وعزهم، وهذه السورة تذكُر نعمة أخرى اجتماعية واقتصادية، حيث حقق الله بينهم الألفة واجتماع الكلمة، وأكرمهم بنعمة الأمن والاستقرار، ونعمة الغنى واليسار والإمساك بزمام الاقتصاد التجاري في الحجاز، بالقيام برحلتين صيفاً إلى الشام وشتاء إلى اليمن.

٢ - هذه السورة شديدة الاتصال بما قبلها، لتعلق الجار والمجرور في أولها بآخر السورة المتقدمة: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ①﴾ أي لإلف قريش، أي أهلك الله أصحاب الفيل، لتبقى قريش، ولذا كانتا في مصحف أُبيّ سورة واحدة.

ولكن في المصحف الإمام فُصلت هذه السورة عن التي قبلها، وكتب بينهما: (بسم الله الرحمن الرحيم).

ما اشتملت عليه السورة:

تضمنت هذه السورة المكية تعداد نعم الله العظمى على قريش أهل مكة، حيث جمع الله كلمتهم، وحقق الألفة والتئام الشمل بينهم: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ ومكّنهم من التنقل وحرية التجارة إلى اليمن شتاء، وإلى الشام صيفاً، لتوفير الثروة والغنى: ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢﴾.

وهيّأ لهم في البلد الآمن الحرام نعمة الأمن والاطمئنان والاستقرار دون نزاع من أحد: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾.

فضلها:

روى البيهقي في كتاب الخلافيات عن أم هانئ بنت أبي طالب: أن رسول الله ﷺ قال: «فضّل الله قريشاً بسبع خلال: أني منهم، وأن النبوة فيهم، والحجابة والسقاية فيهم، وأن الله نصرهم على الفيل، وأنهم عبدوا الله عز وجل عشر سنين لا يعبده غيرهم، وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن، ثم تلا رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾». قال ابن كثير: وهو حديث غريب.

التذكير بنعم الله على قريش

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾

القراءات:

﴿لِإِيلَٰفِ﴾:

وقرأ ابن عامر (لإلاف).

الإعراب:

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢﴾ اللام في (إيلاف) إما متعلقة بفعل مقدر، تقديره: اعجبوا لإيلاف قريش، أو متعلقة بقوله: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣﴾ أي لأجل هذا، أو متعلقة بقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ٥﴾ آخر سورة الفيل. و﴿إِۦلَٰفِهِمۡ﴾: مجرور على البدل من (إيلاف) الأولى، و (إيلاف) مصدر رباعي، وهو آلَفَ يؤلف إيلافاً. وقرئ (إلافهم) على أنه مصدر فعل ثلاثي، وهو (ألف يألف إلافاً). و﴿قُرَيۡشٍ﴾ إن أردت به الحي صرفته، وإن أردت به القبيلة لم تصرفه.

و ﴿رِحۡلَةَ﴾ منصوب؛ لأنه معمول المصدر المضاف، وهو إيلافهم، مثل ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥١] و [الحج: ٢٢/ ٤٠] .

البلاغة:

﴿ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ بينهما طباق، وكذلك بين ﴿جُوعٖ﴾ و﴿خَوۡفِۭ﴾.

﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾ الإضافة للتكريم والتشريف.

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١﴾ وقوله: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣﴾ تقديم ما حقه التأخير، والأصل: ليعبدوا ربّ هذا البيت، لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فقدم الإيلاف تذكيراً بالنعمة.

﴿جُوعٖ﴾ ﴿خَوۡفِۭ﴾ التنكير لبيان شدتهما، أي جوع وخوف شديدين.

المفردات اللغوية:

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١﴾ يقال: آلف الشيء إيلافاً، وألف إلافاً وإلفاً، أي لزمه وعكف عليه، مع الأنس به وعدم النفور منه، قال الزمخشري: متعلق بقوله: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ﴾ أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين، ودخلت الفاء على ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ﴾ لما في الكلام من معنى الشرط؛ إذ المعنى: أن نعم الله عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لأجله. و﴿قُرَيۡشٍ﴾ مجموعة القبائل من ولد النضر بن كنانة. منقول من تصغير قرش وهو دابة عظيمة في البحر تعبث بالسفن، شبهوا بها؛ لأنها تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تعلى، وصغر الاسم للتعظيم. وقال أبو حيان: سموا بذلك لتجمعهم بعد التفرق، جمعهم قصي بن كلاب في الحرم، والتقريش: التجمع والالتئام.

﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢﴾ أي بسبب إلفهم الارتحال إلى اليمن في الشتاء، وإلى الشام في الصيف كل عام، يستعينون بالرحلتين للتجارة على المقام بمكة، لخدمة البيت الذي هو فخرهم ومجدهم. والرحلة: ارتحال القوم؛ بشد الرحال للمسير. ﴿ٱلۡبَيۡتِ﴾ الكعبة. ﴿أَطۡعَمَهُم﴾ وسّع لهم في الرزق. ﴿مِّن جُوعٖ﴾ ﴿مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ أي من أجل جوع وخوف. ﴿وَءَامَنَهُم﴾ جعلهم في أمن وسلامة في الأموال والأنفس. ﴿مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ خوف أصحاب الفيل. أو التخطف في بلدهم ومسايرهم. وكان يصيبهم الجوع لعدم الزرع بمكة، وخافوا جيش الفيل.

سبب النزول:

نزول الآية (١):

أخرج الحاكم وغيره عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت: قال رسول الله ﷺ: «فضّل الله قريشاً بسبع خصال» الحديث المتقدم، وفيه: نزلت فيهم سورة لم يذكر فيها أحد غيرهم: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١﴾.

التفسير والبيان:

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾ أي فلتعبد قريش ربها، شكراً له، لأجل إيلافهم (أي جعلهم يألفون، ويسّر لهم ذلك) رحلتين: رحلة إلى اليمن شتاء لجلب العطور والبهارات الآتية من الهند والخليج، وكونها في الشتاء؛ لأنها بلاد حارّة، ورحلة إلى الشام في الصيف، لجلب الحبوب الزراعية، وكونها في الصيف؛ لأنها بلاد باردة، وكانت قريش في مكة تعيش بالتجارة، ولولا هاتان الرحلتان لم يتمكنوا من المقام بها، ولولا الأمن بجوار البيت، لم يقدروا على التصرف، وكانوا لا يُغار عليهم؛ لأن العرب يقولون: قريش أهل بيت الله عز وجل. وكل هذا الاحترام والإجلال لقريش أهل مكة من الله عز وجل الذي هيأه لهم بواسطة البيت الحرام، فكان عليهم الإقرار بهذه النعمة، وإفراد الله بالعبادة والتعظيم.

وصرح محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن هذه السورة متعلقة بما قبلها؛ لأن المعنى عندهما: حبسنا عن مكة الفيل، وأهلكنا أهله لإيلاف قريش، أي لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين.

وعلى كل حال فهاتان نعمتان: نعمة صدّ أصحاب الفيل، ونعمة جوار البيت الحرام والائتلاف فيه، فإن لم يعبدوا الله لسائر نعمه، فليعبدوه لهاتين النعمتين. وقد عرَّفهم سبحانه بأنه ربّ هذا البيت، بالرغم من أوثانهم التي يعبدونها حول الكعبة، فميَّز نفسه عنها، وبالبيت تشرفوا على سائر العرب، وهم يدركون هذا ويقرّون به. وكانت الإشارة إلى البيت في السورة لإفادة التعظيم.

قال الرازي رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾: اعلم أن الإنعام على قسمين: أحدهما - دفع الضرر، والثاني - جلب النفع،

والأول أهم وأقدم، ولذلك قالوا: دفع الضرر عن النفس واجب، أما جلب النفع، فإنه غير واجب، فلهذا السبب بيَّن الله تعالى نعمة دفع الضرر في سورة الفيل، ونعمة جلب النفع في هذه السورة، ونظراً لهاتين النعمتين العظيمتين أمرهم ربهم بعبادته والعبودية له وأداء الشكر على ذلك: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾[1].

والعبادة: هي التذلل والخضوع للمعبود على غاية ما يكون، وهي تحقق معنى العبودية.

ثم ذكر الله تعالى نعماً أخرى على قريش، وصف بهما رب هذا البيت، فقال:

- ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ أي هو ربّ البيت، وهو الذي أطعمهم من جوع، ووسَّع لهم في الرزق، ويسَّر لهم سبيله، بسبب هاتين الرحلتين، فخلّصهم من جوع شديد كانوا فيه قبلهما.

- ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ أي وتفضل عليهم بالأمن والاستقرار، فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا نداً ولا وثناً، قال ابن كثير: ولهذا من استجاب لهذا الأمر، جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبهما منه، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾[النحل: ١٦/١١٢-١١٣][2].

---

(١) تفسير الرازي: ٣٢/١٠٧

(٢) تفسير ابن كثير: ٤/٥٥٣

وكانت العرب يغير بعضها على بعض، ويسبي بعضها بعضاً، فأمنت قريش كما تقدم من ذلك لمكان الحرم، كما آمنهم من خوف الحبشة مع الفيل؛ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧/٢٩] .

فقه الحياة أو الأحكام:

أمر الله تعالى في هذه السورة قريشاً -وهم أولاد النضر بن كنانة- بعبادة وتوحيد ربهم الذي أنعم عليهم بهذه النعم الكثيرة ومنها:

١ - إهلاك أصحاب الفيل وصدهم عن مكة، كما أهلكوا أيضاً لأجل كفرهم، وفي هذا دفع لضرر عظيم مؤكد الحصول لولا عناية الله وحمايته، وتوفير أيضاً للأمن والسلامة والاطمئنان بجوار البيت الحرام.

٢ - نعمة الرزق وتوفير الحاجة والكفاية بسبب ارتحالهم إلى اليمن شتاء وإلى الشام صيفاً لجلب مختلف أنواع التجارات من الأطعمة والثياب، مع أمنهم من إغارة العرب عليهم؛ لأنهم أهل بيت الله وجيرانه.

٣ - نعمة الأمن من المخاوف، سواء في داخل مكة حيث جعل الله لهم مكة بلداً آمناً، ويتخطف الناس من حولهم، أو في خارجها عندما يتنقلون للتجارة والكسب.

٤ - نعمة وجود البيت الحرام أو الكعبة المشرفة محل التعظيم والتقديس من العرب، وأساس مجدهم وعزهم، فإنهم شرّفوا بالبيت على سائر العرب، فذكّرهم الله بهذه النعمة.

والخلاصة: أن نعم الله عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لهذه النعمة الظاهرة وهي إيلافهم رحلتين.

روى ابن أبي حاتم عن أسماء بنت يزيد بن السكن أم سلمة الأنصارية، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ويل لكم قريش: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾». وروى عنها أيضاً: قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢﴾ ويحكم يا معشر قريش، اعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمكم من جوع، وآمنكم من خوف».

واستدل الإمام مالك بالسورة على أن الزمان قسمان: شتاء وصيف، ولم يجعل لهما ثالثاً، فالشتاء نصف السنة، والصيف نصفها.

واستدل العلماء بهذا أيضاً على جواز تصرف الرجل في الزمانين بين محلّين، يكون حالهما في كل زمان أنعم من الآخر، كالجلوس في المجلس البحري في الصيف، وفي القبلي في الشتاء، وفي اتخاذ أدوات التبريد صيفاً، ووسائل الدفء شتاء.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الماعون

مكية، وهي سبع آيات

مكيتها أو مدنيتها:

هذه السورة مكية في قول الجمهور، مدنية في قول ابن عباس وقتادة، وقال هبة الله المفسر الضرير: نزل نصفها بمكة في العاصي بن وائل، ونصفها بالمدينة في عبد الله بن أُبيّ المنافق.

تسميتها:

سميت سورة الماعون، لأن الله تعالى ذم في نهايتها المدنية الذين يمنعون الماعون: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ كالساهين عن الصلاة، والمنافقين. والماعون: ما يستعيره الجار من جاره من أدوات الطبخ، كالقدر والملح والماء، وآلات الحراثة والزرع، كالفأس والدلو، ووسائل الخياطة كالإبرة والخيط ونحو ذلك من كل ما يستعان وينتفع به من المنافع السريعة. وتسمى أيضاً سورة الدِّين؛ للنعي في مطلعها المكي على الذي يكذب بالدِّين، أي الجزاء الأخروي.

مناسبتها لما قبلها:

ترتبط السورة بما قبلها من وجوه ثلاثة:

١ً - ذم الله في السورة السابقة (سورة قريش) الجاحدين لنعمة الله الذين ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ وذم في هذه السورة من لم يحضّ على طعام المسكين.

٢ً - أمر الله في السورة المتقدمة بعبادته وحده وتوحيده: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾ وذم في هذه السورة الذين هم عن صلاتهم ساهون، وينهون عن الصلاة.

٣ً - عدَّد الله تعالى في السورة الأولى نعمه على قريش، وهم مع ذلك ينكرون البعث، ويجحدون الجزاء في الآخرة، وأتبعه هنا بتهديدهم وتخويفهم من عذابه لإنكار الدِّين، أي الجزاء الأخروي.

ما اشتملت عليه السورة:

تحدثت هذه السورة المكية في مطلعها عن الكافر، وفي نهايتها المدنية عن المنافق.

أما مطلعها فهو في ذمّ الكافر المكذب بيوم الحساب والجزاء: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾﴾ ووصفته بصفتين: الأولى - انتهاره وزجره وطرده اليتيم، والثانية - عدم الحض أو الحث على إطعام المسكين، فلم يحسن في عبادة ربه، ولم يفعل الخير لغيره.

وأما خاتمتها فهي في ذم المنافق الذي أظهر الإسلام وأخفى الكفر، ووصفته بصفات ثلاث: الأولى - الغفلة عن الصلاة، والثانية - مراءاته الناس بعمله، والثالثة - منعه الماعون الذي يستعان وينتفع به بين الجيران، فهو لا يعمل لله، بل يرائي في عمله وصلاته.

وتوعدت الفريقين بالخزي والعذاب والهلاك، ولفتت الأنظار إليهم بأسلوب الاستهجان والاستغراب والتعجيب من صنيعهم.

الكافر المنكر الجزاء الأخروي والمنافق المرائي بعمله وعقاب كلٍّ منهما

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾

القراءات:

﴿أَرَءَيْتَ﴾:

وقرأ الكسائي (أريت).

الإعراب:

﴿أَرَءَيْتَ﴾ بالهمزة على الأصل، وهو في الأظهر عند ابن الأنباري من رؤية العين، لا من رؤية القلب، فيتعدى إلى مفعول واحد، وليس في الآية إلا مفعول واحد. وقرئ ﴿أَرَءَيْتَ﴾ بتخفيف الهمزة، بجعلها بين الهمزة والألف؛ لأن حركتها الفتح. وقرئ (رأيت) بحذف الهمزة الأولى للتخفيف، كما حذف في المضارع، نحو (يرى) . وقال أبو حيان: الظاهر أن﴿أَرَءَيْتَ﴾ هنا هي التي بمعنى أخبرني، فتتعدى لاثنين، أحدهما ﴿ٱلَّذِى﴾ والآخر محذوف تقديره: أليس مستحقاً عذاب الله؟ أو: من هو؟

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ ﴿فَوَيْلٌ﴾ مبتدأ: و﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾ خبره، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة الخبر، و﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ صلته. ولم تحصل الفائدة بالخبر، بل بما وقع صلة الصفة، وهو قوله ﴿سَاهُونَ﴾ وهذا يسمى الخبر الموطئ: وهو أن معتمد الفائدة إنما كان

بصفة الخبر، لا بالخبر. مثل قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٢٧/ ٥٥] فإن قوله: ﴿أَنتُمْ﴾ مبتدأ، و﴿قَوْمٌ﴾ خبره، ومعتمد الفائدة على صفة الخبر، لا عليه، لأن قوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ﴾ لم تحصل به الفائدة، للعلم بأنهم قوم، وإنما حصلت الفائدة بقوله: ﴿تَجْهَلُونَ﴾.

البلاغة:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾﴾ استفهام يراد به تشويق السامع إلى الخبر والتعجيب منه.

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ إيجاز بالحذف، حذف منه الشرط، أي إن أردت أن تعرفه فذلك الذي يدعُّ اليتيم.

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾﴾ ذم وتوبيخ، ووضع الظاهر موضع الضمير، والأصل (فويل لهم) زيادة في التقبيح؛ لأنهم مع التكذيب ساهون عن الصلاة.

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ جناس ناقص.

﴿سَاهُونَ﴾ ﴿يُرَآءُونَ﴾ ﴿ٱلْمَاعُونَ﴾: توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات، وكذلك ﴿بِٱلدِّينِ﴾ ﴿ٱلْمِسْكِينِ﴾ ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿أَرَءَيْتَ﴾ أي هل عرفت وعلمت؟ وهو استفهام معناه التعجب وتشويق السامع إلى معرفة ما يذكر بعده. ﴿بِٱلدِّينِ﴾ بالجزاء والحساب. والمعنى العام للدين: هو النظام الإلهي للحياة المشتمل على الخضوع لما وراء المحسوس بآثار الكون الدالة على وجود الله ووحدانيته، وبعثة الرسل، والتصديق بعالم الآخرة. ﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ أي يدفعه بعنف عن حقه، ويزجره زجراً عنيفاً، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ [الطور: ٥٢/ ١٣].

﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ لا يحث نفسه وأهله وغيرهم من الناس. ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ إطعام. ﴿فَوَيْلٌ﴾ خزي وعذاب وهلاك. ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عن الصلاة، يؤخرونها عن وقتها. ﴿يُرَآءُونَ﴾ في الصلاة وغيرها، يُرون الناس أعمالهم ليروهم الثناء عليها، والرياء: المصانعة وفعل الشيء لغير وجه الله، إرضاء للناس. ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ كل ما يستعان وينتفع به كالإبرة والفأس والقِدْر والقصعة.

سبب النزول:

نزول الآية (١):

﴿أَرَءَيْتَ﴾ قال ابن عباس: نزلت في العاص بن وائل السَّهْمي، وقال السُّدِّي: نزلت في الوليد بن المغيرة. وقيل: في أبي جهل، كان وصياً ليتيم، فجاءه عرياناً يسأله من مال نفسه، فدفعه. وقال ابن جريج: نزلت في أبي سفيان، وكان ينحر في كل أسبوع جَزُوراً، فطلب منه يتيم شيئاً، فقَرَعه بعصاه؛ فأنزل الله هذه السورة.

نزول الآية (٤):

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾: أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ قال: نزلت في المنافقين كانوا يراؤون المؤمنين بصلاتهم إذا حضروا، ويتركونها إذا غابوا، ويمنعونهم العارِيّة، أي الشيء المستعار.

التفسير والبيان:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾ أي أأبصرت يا محمد الذي يكذب بالحساب والجزاء؟ أو بالمعاد والجزاء والثواب. وقوله: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ وإن كان في صورة استفهام، لكن الغرض بمثله المبالغة في التعجب. وهذا مثال آخر لكون الإنسان في خسر.

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝٣﴾ أي هو الذي يدفع اليتيم عن حقه دفعاً شديداً، ويزجره زجراً عنيفاً، ويظلمه حقه ولا يحسن إليه، وقد كان عرب الجاهلية لا يورِّثون النساء والصبيان.

ولا يحث نفسه ولا أهله ولا غيرهم على إطعام المسكين المحتاج، بخلاً بالمال، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝١٨﴾ [الفجر: ٨٩/١٧-١٨] أي الفقير الذي لا يملك شيئاً، أو لا يجد كفايته.

﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥﴾ أي فخزي وعذاب للمنافقين الذين يؤدون الصلاة أحياناً تظاهراً، والذين هم غافلون عنها، غير مبالين بها، لا يرجون بصلاتهم ثواباً إن صلوا، ولا يخافون عليها عقاباً إن تركوا، فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها، وإذا كانوا مع المؤمنين صلوا رياء، وإذا لم يكونوا معهم لم يصلوا.

ولم يقل: في صلاتهم ساهون؛ لأن السهو في أثناء الصلاة مغتفر معفو عنه لأنه غير اختياري، وإنما قال: عن صلاتهم ساهون بتأخيرها عن وقتها رأساً، أو فعلها مع قلة مبالاة بها، كقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ٤/ ١٤٢] . ويجوز أن يطلق لفظ (المصلين) على تاركي الصلاة، بناء على أنهم من جملة المكلفين بالصلاة.

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ أي إن أولئك الساهين عن صلاتهم هم الذين يراؤون الناس بصلاتهم إن صلوا، أو يراؤون الناس بكل ما عملوا من أعمال البر، ليثنوا عليهم. قال الزمخشري: المراءاة: هي مفاعلة من الإراءة؛ لأن المرائي يُري الناس عمله، وهم يُرونه الثناء عليه، والإعجاب به.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله ﷺ: «من سمّع الناس بعمله، سمّع الله به سامعَ خَلْقه، وحقَّره، وصغّره» .

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ أي يمنعون العارية وفعل الخير، و﴿ٱلْمَاعُونَ﴾ اسم لكل ما يتعاوره الناس بينهم، من الدَّلْو والفأس والقَدُوم والقِدْر ومتاع البيت، وما لا يمنع عادة، كالماء والملح، مما ينسب مانعه إلى الخسة ولؤم الطبع وسوء الخُلُق.

فهؤلاء المنافقون لا أحسنوا عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خَلْقه، حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به، مع بقاء عينه، ورجوعه إليهم، وهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى.

روى النسائي وغيره عن عبد الله بن مسعود قال: كل معروف صدقة، وكنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية الدَّلْو والقِدْر.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ً - ذم المكذب بالجزاء والحساب في الآخرة، واللفظ عام لا يقتصر على من كان سبب نزول الآية.

٢ً - من صفات المكذب بالجزاء الأخروي وقبائحه: زجر اليتيم وطرده ودفعه عن حقه وظلمه وقهره، وترك الخير وعدم الحث أو عدم الأمر على إطعام الفقير والمسكين، من أجل بخله وتكذيبه بالجزاء. وليس الذم عاماً، حتى يتناول من تركه عجزاً، ولكنهم كانوا يبخلون مع الغنى، ويعتذرون لأنفسهم.

٣ً - الويل، أي العذاب والتهديد العظيم لمن فعل ثلاثة أمور: أحدها - السهو عن الصلاة، وثانيها - فعل المراءاة، وثالثها - منع الماعون.

وقد جمع المنافقون الأوصاف الثلاثة: ترك الصلاة، والرياء، والبخل بالمال.

والسهو عن الصلاة: تركها رأساً، أو فعلها مع قلة المبالاة بها كما تقدم.

أما السهو في الصلاة فهو أمر غير اختياري، فلا يدخل تحت التكليف. وقد ثبت أنه ﷺ سها في الصلاة، وشرع سجود السهو لمن سها. وكذلك سها الصحابة.

وحقيقة الرياء: طلب ما في الدنيا بالعبادة، وطلب المنزلة في قلوب الناس، وللرياء أنواع، وأولها: تحسين السَّمْت (الهيئة) مع إرادة الجاه وثناء الناس. وثانيها: لبس الثياب القصار أو الخشنة، ليأخذ بذلك هيبة الزهد في الدنيا. وثالثها: الرياء بالقول بإظهار السخط على أهل الدنيا، وإظهار الوعظ والتأسف على ما يفوته من فعل الخير والطاعة.

ورابعها: إظهار الصلاة والصدقة، أو تحسين الصلاة لأجل رؤية الناس له[١].

والفرق بين المنافق والمرائي: أن المنافق هو المظهر للإيمان المبطن للكفر، والمرائي: المظهر ما ليس في قلبه من زيادة خشوع ليعتقد فيه من يراه أنه متدين[٢].

وقال العلماء: لا بأس بالإراءة إذا كان الغرض الاقتداء، أو نفي التهمة. واجتناب الرياء صعب إلا على من راضَ نَفْسَه، وحملها على الإخلاص. ومن هنا قال رسول الله ﷺ: «الرياء أخفى من دبيب النملة السوداء، في الليلة المظلمة، على المِسْح الأسود»[٣] أي البلاس المصنوع من الشعر.

والماعون عند أكثر المفسرين: اسم جامع لما لا يمنع في العادة، ويسأله

(١) أحكام القرآن لابن العربي: ٤/ ١٩٧٢، تفسير القرطبي: ٢٠/ ٢١٢ - ٢١٣

(٢) تفسير الرازي: ٣٢/ ١١٥

(٣) تفسير الكشاف: ٣/ ٣٦٢

الفقير والغني في أغلب الأحوال، ولا ينسب سائله إلى لؤم، بل ينسب مانعه إلى اللؤم والبخل، كالفأس والقِدْر والدَّلْو والمقدحة والغربال والقدوم، ويدخل فيه الماء والملح والنار، لما روى ابن ماجه عن أبي هريرة: «ثلاثة لا يمنعن: الماء والنار والملح» . ومن ذلك أن يلتمس جارك الخبز من تنّورك، أو أن يضع متاعه عندك يوماً أو نصف يوم[١]. وقيل: منع الماعون: منع زكاة أموالهم.

وبالرغم من أن هذه الأوصاف واضحة في المنافقين، فإن بعضها قد يوجد في المسلم الصادق الإسلام، وحينئذ يلحقه جزء من التوبيخ، كالصلاة إذا تركها، ومنع الماعون إذا تعين، ويكون منعاً قبيحاً مخلّاً بالمروءة في غير حال الضرورة.

٤ - في الآيتين حول السهو عن الصلاة ومنع الماعون إشارة إلى أن الصلاة لله عز وجل، والماعون للخلق أو للناس، فمن ترك الصلاة لم يراع جانب تعظيم أمر الله، ومن منع الماعون لم يراع جانب الشفقة على خلق الله، وهذا كمال الشقاوة، نعوذ بالله منها.

والخلاصة: وصف الله الكفار والمنافقين في هذه السورة بأربع صفات: البخل، وترك الصلاة، والرياء فيها، ومنع الزكاة والخير.

---

(١) غرائب القرآن: ٣٠/ ١٩١

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الكوثر

مكية، وهي ثلاث آيات

مكيتها أو مدنيتها:

هذه السورة مكية في المشهور وقول الجمهور، وقال الحسن وعكرمة وقتادة: مدنية، وهو رأي ابن كثير.

تسميتها:

سميت سورة الكوثر لافتتاحها بقول الله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ أي الخير الكثير الدائم في الدنيا والآخرة، ومنه: نهر الكوثر في الجنة.

مناسبتها لما قبلها:

وصف الله الكفار والمنافقين الذين يكذبون بالدين أي بالجزاء الأخروي بأربع صفات: البخل في قوله: ﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ، وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ وترك الصلاة في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾. والرياء أو المراءاة في الصلاة في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾﴾ ومنع الخير والزكاة في قوله: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

وذكر الله تعالى في هذه السورة في مقابلة تلك الصفات الأربع صفات أربعاً للنبي ﷺ، فذكر أنه أعطاه الكوثر في مقابلة البخل في قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ أي الخير الكثير الدائم، فأعط أنت الكثير ولا تبخل، وأمره بالمواظبة على الصلاة: ﴿فَصَلِّ﴾ أي دُمْ على الصلاة في مقابلة ترك الصلاة، وأمره بالإخلاص في الصلاة في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ أي لرضا ربك، لا لمراءاة الناس، في مقابلة المراءاة في الصلاة، وأمره بالتصدق بلحم الأضاحي على الفقراء، في مقابلة منع الماعون[1].

ما اشتملت عليه السورة:

تضمنت هذه السورة المكية الحديث عن مقاصد ثلاثة هي:

١ - بيان فضل الله الكريم وامتنانه على نبيه الرحيم بإعطائه الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومنه نهر الكوثر في الجنة.

٢ - أمر النبي وكذا أمته بالمواظبة على الصلاة، والإخلاص فيها، ونحر الأضاحي شكراً لله تعالى.

٣ - بشارة الرسول ﷺ بنصره على أعدائه، وبخزيهم وإذلالهم وحقارتهم، بسبب انقطاعهم عن كل خير في الدنيا والآخرة.

فضلها:

أخرج الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: «أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة، فرفع رأسه مبتسماً، إما قال لهم وإما قالوا له: لِمَ ضحكت؟ فقال رسول الله ﷺ: إنه أنزلت علي آنفاً سورة، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ حتى ختمها، فقال: أتدرون ما الكوثر؟ قالوا: الله

(١) تفسير الرازي: ٣٢/١١٧

ورسوله أعلم، قال: هو نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة، عليه خير كثير، ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد الكواكب، يختلج العبد منهم، فأقول: يا رب إنه من أمتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» .

وأخرج مسلم - واللفظ له - وأبو داود والنسائي عن أنس قال: «بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد، إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه مبتسماً، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: لقد أنزلت علي آنفاً سورة، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم في السماء، فيُخْتَلَجُ[1] العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمتي، فيقول: إنك لا تدري ما أُحدث بعدك» .

سبب نزول السورة:

أخرج البزار وغيره بسند صحيح عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة، فقالت له قريش: أنت سيدهم، ألا ترى هذا المنصبر المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السقاية، وأهل السدانة! قال: أنتم خير منه، فنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر عن عكرمة قال: لما أوحي إلى النبي ﷺ قالت قريش: بتر محمد منا، فنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السُّدِّي قال: كانت قريش تقول إذا مات ذكور

---

(١) أي ينتزع ويقتطع.

الرجل: بتر فلان، فلما مات ولد النبي ﷺ، قال العاص بن وائل: بتر محمد، فنزلت. وأخرج البيهقي في الدلائل مثله عن محمد بن علي، وسمى الولد: القاسم، وأخرج عن مجاهد قال: نزلت في العاصي بن وائل، وذلك أنه قال: أنا شانئ محمد.

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ قالت: نزلت يوم الحديبية، أتاه جبريل، فقال: انحر واركع، فقام، وخطب خطبة الفطر والنحر، ثم ركع ركعتين، ثم انصرف إلى البدن، فنحرها. لكن فيه غرابة شديدة كما قال السيوطي.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: بلغني أن إبراهيم ولد النبي ﷺ لما مات، قالت قريش: أصبح محمداً بتراً، فغاظه ذلك، فنزلت: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ تعزية له.

والخلاصة: كان سبب نزول هذه السورة هو استضعاف النبي ﷺ، واستصغار أتباعه، والشماتة بموت أولاده الذكور، ابنه القاسم بمكة، وإبراهيم بالمدينة، والفرح بوقوع شدة أو محنة بالمؤمنين، فنزلت هذه السورة إعلاماً بأن الرسول ﷺ قوي منتصر، وأتباعه هم الغالبون، وأن موت أبناء الرسول ﷺ لا يضعف من شأنه، وأن مبغضيه هم المنقطعون الذين لن يبقى لهم ذِكْر وسمعة، البعيدون عن كل خير.

المنح المعطاة للنبي ﷺ

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾

الإعراب:

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ ﴿إِنَّآ﴾ أصله: إننا، فحذفت إحدى

النونات استثقالاً لاجتماع الأمثال، وذهب الأكثرون إلى أن المحذوفة هي الوسطى.

والكوثر: فوعل من الكثرة، والواو فيه زائدة، وهو نهر في الجنة، وسمي كوثراً لكثرة مائه، ورجل كوثر: كثير العطايا والخير.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ ﴿هُوَ﴾ إما ضمير فصل لا موضع له من الإعراب، و﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، أو مبتدأ، و﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾ خبره، والمبتدأ والخبر: خبر ﴿إِنَّ﴾.

البلاغة:

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ﴾ ﴿إِنَّآ﴾ بصيغة الجمع الدالة على التعظيم. وفيه تصدير الجملة بحرف التأكيد الجاري مجرى القسم؛ لأن أصلها: إن ونحن. وعبر بصيغة الماضي المفيدة للوقوع .﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ ولم يقل: سنعطيك، للدلالة على تحقق وقوع الوعد مبالغة، كأنه حدث ووقع.

﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾: مبالغة.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ الإضافة للتكريم والتشريف.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ إفادة الحصر.

﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾ مطابقة أو طباق؛ لأن ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ الخير الكثير، و﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾ المنقطع عن كل خير.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ﴾ يا محمد وقرئ (أنطيناك) ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ المفرط في كثرة الخير من العلم والعمل وشرف الدارين بالنبوة والقرآن والدين الحق والشفاعة

ونحوها، ومنه نهر في الجنة كما روي عنه ﷺ فيما رواه الإمام أحمد ومسلم ومن معهما في الحديث المتقدم عن أنس أنه: «نهر في الجنة، وعدنيه ربي، فيه خير كثير، أحلى من العسل، وأبيض من اللبن، وأبرد من الثلج، وألين من الزُّبْد، حافتاه الزبرجد، وأوانيه من فضة، لا يظمأ من شرب منه» وقيل: حوض في الجنة.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ أي داوم على الصلاة، خالصاً لوجه الله، شكراً لإنعامه، وقيل: المراد صلاة عيد النحر. ﴿وَٱنْحَرْ﴾ النُّسُك أو الهدي أو الأضحية، وتصدق على المحاويج (المحتاجين). ﴿شَانِئَكَ﴾ مبغضك. ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ المنقطع عن كل خير، أو المنقطع العَقِب، أي الذي لا عقب له، إذ لا يبقى له نسل، ولا حسن ذِكْر، وأما أنت فتبقى ذرّيتك وحسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة، ولك في الآخرة ما لا يوصف.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ أي منحناك الخير الكثير البالغ في الكثرة إلى النهاية أو الغاية، ومنه نهر في الجنة، جعله الله كرامة لرسول الله ﷺ ولأمته. وهذا ردّ على الأعداء الذين استخفوا به واستقلوه، ووصف مناقض لما عليه أهل الكفر والنفاق من البخل.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ أي كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك نهر الكوثر، فداوم على صلاتك المفروضة والنافلة، وأدّها خالصة لوجه ربك، وانحر ذبيحتك وأضحيتك وما هو نُسُك لك وهو الهدي (شاة أو بعير مقدَّم للحرم) وغير ذلك من الذبائح لله تعالى وعلى اسم الله وحده لا شريك له، فإنه هو الذي تعهدك بالتربية وأسبغ عليك نعمه دون سواه، كما جاء في آية أخرى آمراً له: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٢-١٦٣].

وهذا على نقيض فعل المشركين الذين كانوا يصلون لغير الله، وينحرون لغير الله، فأمر نبيه ﷺ أن تكون صلاته ونحره له، وهو أيضاً نقيض فعل المنافقين المرائين.

وقال قتادة وعطاء وعكرمة: المراد صلاة العيد، ونحر الأضحية.

قال ابن كثير: الصحيح أن المراد بالنحر ذبح المناسك، ولهذا جاء في حديث البراء بن عازب عند البخاري ومسلم: «كان رسول الله ﷺ يصلي العيد، ثم ينحر نسكه، ويقول: من صلّى صلاتنا، ونَسَك نُسُكنا، فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له» فقام أبو بردة بن نيار، فقال: يا رسول الله، إني نسكت شاتي قبل الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم يشتهى فيه اللحم قال: شاتك شاة لحم، قال: فإن عندي عناقاً هي أحب إلي من شاتين، أفتجزئ عني؟ قال: تجزئك ولا تجزئ أحداً بعدك» .

وقال ابن جرير في تفسير الآية: والصواب قول من قال: إن معنى ذلك: فاجعل صلاتك كلها لربك، خالصاً دون ما سواه، من الأنداد والآلهة، وكذلك نحرك، اجعله له دون الأوثان، شكراً له على ما أعطاك من الكرامة والخير الذي لا كفاء له، وخصك به.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ أي إن مبغضك يا محمد، ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين هو الأبتر الأقل الأذل المنقطع عن خيري الدنيا والآخرة، والذي لا يبقى ذِكْره بعد موته. وهذا ردّ على ما قال بعض المشركين وهو العاص بن وائل عن النبي ﷺ لما مات ابنه عبد الله من خديجة: إنه أبتر، وهذا قول ابن عباس ومقاتل والكلبي وعامة أهل التفسير. والأبتر من الرجال: الذي لا ولد له. وعن ابن عباس: نزلت في أبي جهل. وهذا يعم جميع من اتصف بعداوة النبي ﷺ ممن ذكر في سبب النزول وغيرهم. قال الحسن البصري رحمه الله: عنى المشركون بكونه

أبتر: أنه ينقطع عن المقصود قبل بلوغه، والله بيّن أن خصمه هو الذي يكون كذلك.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت السورة على ما يأتي:

١ً - أعطى الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ مناقب كثيرة، وخيراً كثيراً عظيماً بالغاً حدّ النهاية، ومنه نهر في الجنة، كما روى البخاري ومسلم وأحمد والترمذي عن أنس.

وروى الترمذي أيضاً عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج» وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وقيل: إنه حوض النبي ﷺ في الموقف، كما جاء في حديث مسلم المتقدم عن أنس.

وهذان القولان هما أصح الأقوال، فيكون الكوثر شاملاً نهراً في الجنة، وحوضاً ترد عليه أمة النبي ﷺ يوم القيامة.

٢ً - أمر الله تعالى نبيه ﷺ وأمته بأداء الصلوات المفروضة والنوافل خالصة لوجه الله تعالى، دون مشاركة أحد سواه، وأمرهم أيضاً بذبح المناسك مما يهدى إلى الحرم والأضاحي وجميع الذبائح لله تعالى، وعلى اسم الله وحده لا شريك له.

٣ً - إن مبغضي النبي ﷺ وما جاء به من شرع ربه هم المنقطعون عن خيري الدنيا والآخرة، والذين لا يبقى لهم ذِكر مسموع بعد موتهم؛ لأنهم لم يؤمنوا برسالة الحق، ولم يعملوا من أجل الحق والخير المحض لله سبحانه وتعالى.

هذا.. وقد ذكر الرازي رحمه الله أن هذه السورة كالتتمة لما قبلها من السور، وكالأصل لما بعدها من السور، وأورد ما شرف الله به نبيه محمداً ﷺ وأمته من الفضائل والمزايا والمناقب في سورة الضحى والانشراح والتين والعلَق والقدر والبينة والزلزال والعاديات والقارعة والتكاثر والعصر والهُمَزة والفيل وقريش، ثم الكوثر، فليرجع إليه، فإنه كلام رائع[١].

وروي عن علي رضي الله عنه فيما خرَّجه الدارقطني في قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ قال: وضع اليمين على الشمال في الصلاة. وقد اختلف المالكية في هذه الهيئة، والصحيح كما قال القرطبي أن المصلي يفعل ذلك في الفريضة والنافلة؛ لأنه ثبت أن رسول الله ﷺ وضع يده اليمنى على اليسرى، من حديث وائل بن حجر وغيره. وبه قال مالك وأحمد وإسحاق والشافعي وأصحاب الرأي. واستحب جماعة إرسال اليد[٢].

والموضع الذي توضع عليه اليد مختلف فيه، فروي عن علي بن أبي طالب أنه وضعهما على الصدر. وقال سعيد بن جبير وأحمد بن حنبل: فوق السُّرَّة، وقال: لا بأس إن كانت تحت السرة.

وأما رفع اليدين في التكبير عند الافتتاح والركوع والرفع من الركوع والسجود فمختلف فيه أيضاً. والصواب ما في الصحيحين من حديث ابن عمر، قال: «رأيت رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة رفع يديه، حتى تكونا حذو منكِبيه، ثم يكبر، وكان يفعل ذلك حين يكبّر للركوع، ويفعل ذلك حين يرفع رأسه من الركوع، ويقول: سمع الله لمن حمده، ولا يفعل ذلك حين يرفع

---

(١) تفسير الرازي: ٣٢/١١٨ - ١١٩

(٢) تفسير القرطبي: ٢٠/ ٢٢٠ وما بعدها.

رأسه من السجود» . قال ابن المنذر: وهذا قول الليث بن سعد، والشافعي وأحمد وإسحاق وأبي ثور، وحكى ابن وهب عن مالك هذا القول، وبه أقول؛ لأنه الثابت عن رسول الله ﷺ. وقالت طائفة: يرفع المصلي يديه حين يفتتح الصلاة، ولا يرفع فيما سوى ذلك. هذا قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي[1].

(١) المرجع والمكان السابق.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الكافرون

مكية، وهي ست آيات

تسميتها:

سميت سورة (الكافرون) لأن الله تعالى أمر نبيه محمداً ﷺ بأن يخاطب الكافرين بأنه لا يعبد ما يعبدون من الأصنام والأوثان: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾. وتسمى أيضاً سورة المنابذة، وسورة الإخلاص، والمقشقشة.

مناسبتها لما قبلها:

أمر الله نبيه في السورة السابقة بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وفي هذه السورة سورة التوحيد والبراءة من الشرك تصريح باستقلال عبادته عن عبادة الكفار، فهو لا يعبد إلا ربه، ولا يعبد ما يعبدون من الأوثان والأصنام، وبالغ في ذلك فكرَّره وأكَّده، وانتهى إلى أن له دينه، ولهم دينهم.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة المكية - سورة البراءة من عمل المشركين والإخلاص في العمل لله تعالى- وضعت الحد الفاصل النهائي بين الإيمان والكفر، وبين أهل الإيمان وعبدة الأوثان، فحينما طلب المشركون المهادنة من رسول الله ﷺ، وأن يعبد

آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، نزلت السورة تقطع أطماع الكفار الرخيصة، وتفصل النزاع بين فريقي المؤمنين والكافرين إلى الأبد.

فضلها:

ثبت في صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة وبـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ في ركعتي الطواف.

وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر. وروي هذا أيضاً عند أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عمر، وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

وقد تقدم في سورة الزلزال في حديث ابن عباس عند الترمذي أنها تعدل ربع القرآن، وإذا زلزلت تعدل ربع القرآن.

وروى أبو القاسم الطبراني عن جَبَلة بن حارثة - وهو أخو زيد بن حارثة -: أن النبي ﷺ قال: «إذا أويت إلى فراشك فاقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، حتى تمر بآخرها، فإنها براءة من الشرك». وروى الإمام أحمد مثل ذلك عن الحارث بن جبلة. والخلاصة: ثبت أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة، وبـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ في ركعتي الطواف، وفي ركعتي الفجر، والركعتين بعد المغرب، ويوتر بـ ﴿سَبِّحِ﴾، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.

سبب نزولها:

أخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن ابن عباس: «أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالاً، فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوجوه ما أراد من النساء، فقالوا: هذا لك يا محمد، وتكفّ عن شتم آلهتنا، ولا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل فاعبد آلهتنا سنة، قال: حتى أنظر ما يأتيني من ربي، فأنزل الله:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ إلى آخر السورة، وأنزل: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ۝٦٤﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٤] » .

وأخرج عبد الرزاق عن وهب قال: قالت كفار قريش للنبي ﷺ: إن سرَّك أن تتبعنا عاماً، ونرجع إلى دينك عاماً، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ إلى آخر السورة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن ميناء قال: لقي الوليد بن المغيرة، والعاصي بن وائل، والأسود بن المطلب، وأمية بن خلَف رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، هلمَّ فلتعبد ما نعبد، ونعبد ما تعبد، ولنشترك نحن وأنت في أمرنا كله، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾.

ويؤيد هذا ما ذكره النيسابوري: أنها نزلت في رهط من قريش، قالوا: يا محمد، هلمّ، اتبع ديننا ونتّبع دينك، تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيراً مما في أيدينا قد شرّكناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك، قد شركت في أمرنا، وأخذت بحظك، فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ إلى آخر السورة، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام، وفيه الملأ من قريش، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة، فأيسوا منه عند ذلك[1].

وذكر ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس: أن سبب نزولها «أن الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب، وأمية بن خَلَف؛ لقوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، هلمَّ فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله؛ فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا،

(١) أسباب النزول للنيسابوري الواحدي: ص ٢٦١

كنا قد شاركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه. وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما بيدك، كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت بحظك منه، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾[1] ».

سورة البراءة من الشرك والكفر وأعمال المشركين

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾

القراءات:

﴿وَلِىَ دِينِ﴾:

قرأ نافع، وحفص (وليَ دين) وقرأ باقون (وليْ دين).

الإعراب:

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ ﴿مَا﴾ بمعنى الذي في موضع نصب بـ ﴿أَعْبُدُ﴾ و﴿تَعْبُدُونَ﴾ صلة (الذي) والعائد محذوف، تقديره: ما تعبدونه. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية، فلا تفتقر إلى عائد.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ قال: ﴿مَآ أَعْبُدُ﴾ ولم يقل (من) لمطابقة ما قبله وما بعده. وقيل: ﴿مَآ﴾ بمعنى (من).

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾ ﴿مَّا﴾ في الوضعين في موضع نصب؛ لأنها مفعول ما قبلها، وهما إما موصولة أو مصدرية مثل ﴿مَّا﴾ الأولى.

---

(١) القرطبي: ٢٠/ ٢٢٥

البلاغة:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ﴾ خطاب بالوصف للتوبيخ والتشنيع.

﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ طباق السلب، فالأول نفي والثاني إثبات.

﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ و﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾ مقابلة بين الجملتين في الاستقبال.

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾ ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥﴾ مقابلة بين الجملتين في الحال أو الماضي.

وفي هذه المقابلة نفي لعبادة الأصنام في الحال والاستقبال.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ، لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ توافق الفواصل في الحرف الأخير.

المفردات اللغوية:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ﴾ يعني كفرة مخصوصين قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون، وهم زعماء الشرك في مكة .﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ أي في المستقبل، فإن (لا) لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الاستقبال، كما أن (ما) لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الحال، أي لا أعبد في المستقبل ما تعبدون من الأصنام في الحال.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥﴾ أي ولا تعبدون في المستقبل ما أعبد في الحال، وهو الله تعالى وحده .﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾ أي ولست أنا عابداً في الحال أو في الماضي ما عبدتم فيما سلف .﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾ أي وما عبدتم في وقت ما أنا عابده، ويجوز أن تكون الجملتان تأكيدين على طريقة أبلغ. والأدق أن يقال: إن الآيتين (٢، ٣) تدلان على الاختلاف

في المعبود الذي يعبد، فالنبي ﷺ يعبد الله، وهم يعبدون الأصنام والأوثان. والآيتان (٤، ٥) تدلان على الاختلاف في العبادة نفسها، فعبادة النبي عليه الصلاة والسلام عبادة خالصة لله لا يشوبها شرك ولا غفلة من المعبود، وعبادتهم كلها شرك وإشراك، فلا يلتقيان.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ وهو الشرك الذي أنتم عليه .﴿وَلِيَ دِينِ﴾ وهو التوحيد أو الإسلام الذي أنا عليه، لا أرفضه، قال البيضاوي: فليس فيه إذن في الكفر، ولا منع عن الجهاد، ليكون منسوخاً بآية القتال. وقال الزمخشري: والمعنى أني نبي مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة، فإذا لم تقبلوا مني، ولم تتبعوني، فدعوني كفافاً، ولا تدعوني إلى الشرك.

التفسير والبيان:

هذه سورة البراءة من عمل المشركين، وهي آمرة بالإخلاص في العبادة، فقال تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ أي قل أيها النبي لكفار قريش: يا أيها الكافرون، لا أعبد على الإطلاق ما تعبدون من الأصنام والأوثان، فلست أعبد آلهتكم بأية حال. والآية تشمل كل كافر على وجه الأرض. وفائدة كلمة ﴿قُلْ﴾: أنه ﷺ كان مأموراً بالرفق واللين في جميع الأمور، ومخاطبة الناس بالوجه الأحسن، فلما كان الخطاب هنا غليظاً أراد الله رفع الحرج عنه، وبيان أنه مأمور بهذا الكلام، لا أنه ذكره من عند نفسه.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ أي ولستم أنتم ما دمتم على شرككم وكفركم عابدين الله الذي أعبد، فهو الله وحده لا شريك له.

وهاتان الآيتان (٢، ٣) تدلان على الاختلاف في المعبود، فالنبي ﷺ يعبد الله وحده، وهم يعبدون الأصنام والأوثان أو الأنداد والشفعاء، أو أن المعنى

دفعاً للتكرار كما ذكر الزمخشري: لا أعبد في المستقبل ما تعبدون في الحال، وعلامته (لا) التي هي للاستقبال، بدليل أن (لن) للاستقبال على سبيل التوكيد أو التأبيد، وأصله في رأي الخليل: لا أن. وما: للحال[1]، وخلاصة المعنى: لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم، ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلب منكم من عبادة إلهي .﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾ أي ولا أعبد عبادتكم، أي لا أسلكها ولا أقتدي بها، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه، وأنتم لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته، بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم، فعبادة الرسول ﷺ وأتباعه خالصة لله لا شرك فيها ولا غفلة عن المعبود، وهم يعبدون الله بما شرعه، ولهذا كانت كلمة الإسلام: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» أي لا معبود إلا الله، ولا طريق إليه في العبادة إلا بما جاء به الرسول ﷺ.

والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن الله بها، فكلها شرك وإشراك، ووسائلها من صنع الهوى والشيطان.

فالآيتان (٤، ٥) تدلان على الاختلاف في العبادة نفسها. ويرى بعضهم كالزمخشري: وما كنت قط في الحال أو في الماضي عابداً ما عبدتم، يعني لم تعهد مني عبادة صنم في الجاهلية، فكيف ترجى مني في الإسلام؟! وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته.

وقيل: في الآيات تكرار، والغرض التأكيد، لقطع أطماع الكفار عن أن يجيبهم رسول الله ﷺ إلى ما سألوه من عبادته آلهتهم.

---

(١) قد فهم بعضهم خطأً ما أراده الزمخشري هنا وفي الآيتين بعدهما، فقلب الوضع، وجعل الاستقبال محل الحال وبالعكس.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ أي لكم شرككم أو كفركم، ولي ديني وهو التوحيد والإخلاص أو الإسلام، فدينكم الذي هو الإشراك، لكم لا يتجاوزكم إليّ، وديني الذي هو التوحيد مقصور علي لا يتجاوزني، فيحصل لكم. وقيل: الدين: الجزاء، والمضاف محذوف، أي لكم جزاء دينكم، ولي جزاء ديني. وقيل: الدين: العبادة.

وليست السورة منسوخة بآية القتال، والمحققون على أنه لا نسخ، بل المراد التهديد، كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤١/ ٤٠] .

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٤١] وقوله: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [القصص: ٢٨/ ٥٥] . والمراد بذلك كله التهديد، لا الرضا بدين الآخرين.

وقد استدل الإمام أبو عبد الله الشافعي وغيره بهذه الآية الكريمة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة، فورَّث اليهود من النصارى وبالعكس إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به؛ لأن الأديان ما عدا الإسلام كلها كالشيء الواحد في البطلان.

وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود وبالعكس، لحديث أحمد وأبي داود وابن ماجه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين شتى» .

قال الرازي: جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ عند المتاركة، وذلك غير جائز؛ لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به، بل ليتدبر فيه، ثم يعمل بموجبه[١] .

---

(١) تفسير الرازي: ٣٢/ ١٤٨

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت السورة على اختلاف المعبود واختلاف العبادة بين المسلمين وغيرهم، وعلى أن الكفر ملة واحدة في مواجهة الإسلام، وهذه العوامل الثلاثة تدل على أنه لا لقاء بين الكفر والإيمان، ولا بين أصحاب العداوة الدينية الحاقدة المتأصلة في النفس مع الإسلام وأهله.

أما اختلاف المعبود بين النبي ﷺ وأتباعه المؤمنين وبين الكفار: فهو أن الفريق الأول يعبد الله وحده لا شريك له، والفريق الثاني يعبد غير الله من الأصنام والأوثان والأنداد والشفعاء من البشر أو الملائكة أو الكواكب أو غير ذلك من أباطيل الملل والنحل.

وأما اختلاف العبادة فالمؤمنون يعبدون الله بإخلاص لا شرك فيه ولا غفلة عن المعبود، وبما شرع الله لعباده من كيفية العبادة المرضية له، وأما الكفار والمشركون فيعبدون معبوداتهم بكيفيات فيها الشرك والإشراك وبنحو اخترعوه لأنفسهم، لا يرضى عنه ربهم.

وأما الكفر فكله ملة واحدة في مواجهة الإسلام؛ لأن الدين الحق المقبول عند الله هو الإسلام، وهو الإخلاص لله والتوحيد. وأما أنواع الكفر المعارضة لمبدأ التوحيد فتشترك في صلب الاعتقاد المنحرف عن أصل التوحيد.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةُ النَّصْرِ

مدنية، وهي ثلاث آيات

تسميتها:

سميت سورة النصر؛ لافتتاحها بقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ أي الفتح الأكبر والنصر المؤزر الذي سمي فتح الفتوح، وهو فتح مكة المكرمة. وتسمى أيضاً سورة (التوديع).

مناسبتها لما قبلها:

لما أخبر الله تعالى في آخر السورة المتقدمة باختلاف دين الإسلام الذي يدعو إليه الرسول عن دين الكفار، أنبأه هنا بأن دينهم سيضمحل ويزول، ودينه سيعلو وينتصر وقت مجيء الفتح والنصر، حيث يصبح دين الأكثرين. وفي ذلك بيان فضل الله تعالى على نبيه ﷺ بالنصر والفتح، وانتشار الإسلام، وإقبال الناس أفواجاً إلى دينه: دين الله، كما أن فيه إشارة إلى دنو أجله ﷺ.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة المدنية بالإجماع تشير إلى فتح مكة، وانتصار النبي ﷺ على المشركين، وانتشار الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية، وانحسار ظلمة الشرك والوثنية، والإخبار بدنو أجل النبي ﷺ، وأمره بتسبيح ربه وحمده واستغفاره.

فضلها:

تقدم في تفسير سورة الزلزال أنها في حديث الترمذي عن أنس بن مالك تعدل ربع القرآن، و﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ تعدل ربع القرآن.

وأخرج النسائي عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة قال: قال لي ابن عباس: يابن عُتْبة، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت؟ قلت: نعم: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ قال: صدقت.

وروى الحافظان أبو بكر البزار والبيهقي عن ابن عمر قال: أنزلت هذه السورة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق، فعرف أنه الوداع، فأمر براحلته القصواء فرحلت، ثم قام، فخطب الناس، فذكر خطبته المشهورة، أي خطبة حجة الوداع.

سبب نزولها:

أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال: «كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يُدْخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وَجَد في نفسه، فدعاهم ذات يوم، فأدخلني معهم. قال ابن عباس: فما رُئيتُ أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم، فقال: ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نَصَرنا وفتَح علينا، وسكت بعضهم، فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذاك تقول يا بن عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له، قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ فذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول» .

وقت نزول هذه السورة:

هناك قولان في ذلك:

أحدهما - أن فتح مكة كان سنة ثمان في رمضان، ونزلت هذه السورة سنة عشر، وروي أنه عاش بعد نزول هذه السورة سبعين يوماً، وتوفي في ربيع الأول سنة عشر، ولذلك سميت سورة التوديع.

والقول الثاني - أن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة، وهو وعد لرسول الله ﷺ أن ينصره على أهل مكة، وأن يفتحها عليه، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٢٨/٨٥] . وقوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ①﴾ يقتضي الاستقبال، إذ لا يقال فيما وقع: إذا جاء، وإذا وقع.

وعلى هذا القول يكون الإخبار بفتح مكة قبل وقوعه إخباراً بالغيب معجزاً، فهو من أعلام النبوة[1].

والظاهر القول الأول، بدليل ما قال ابن عمر: نزلت هذه السورة بمِنى في حجّة الوداع، ثم نزلت ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٥/٣] فعاش بعدهما النبي ﷺ ثمانين يوماً. ثم نزلت آية الكَلالة (آخر سورة النساء)، فعاش بعدها خمسين يوماً. ثم نزل ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٩/١٢٨] فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً. ثم نزل: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢/٢٨١] فعاش أحداً وعشرين يوماً. وقال مقاتل: سبعة أيام[2].

لكن قال الرازي: الأصح هو أن السورة نزلت قبل فتح مكة[3].

---

(١) تفسير الرازي: ٣٢/ ١٥٥

(٢) تفسير القرطبي: ٢٠/ ٢٣٣

(٣) تفسير الرازي: ٣٢/ ١٦٤

فتح مكة

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾

الإعراب:

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ تقديره: إذا جاءك نصر الله، فحذف الكاف التي هي المفعول. وجواب ﴿إِذَا﴾ إما قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ والفاء غير مانعة من هذا على ما عليه الجمهور، أو محذوف تقديره: إذا جاءك نصر الله والفتح، جاء أجلك، وهو العامل في ﴿إِذَا﴾.

﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾ يدخلون: جملة فعلية في موضع نصب على الحال من ﴿ٱلنَّاسَ﴾ وأفواجاً: منصوب على الحال من واو ﴿يَدۡخُلُونَ﴾.

البلاغة:

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ خاص بعد عام، فإن نصر الله يشمل جميع الفتوحات، قال الرازي: وهو الغلبة على قريش، أو على جميع العرب، فعطف عليه فتح مكة تعظيماً لشأنه.

﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ﴾ عام أريد به الخاص، فلفظ الناس عام، والمراد به العرب.

﴿دِينِ ٱللَّهِ﴾ هو الإسلام، وأضافه تعالى إليه تشريفاً وتعظيماً، مثل: بيت الله، وناقة الله. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ تواب: صيغة مبالغة على وزن (فعّال).

المفردات اللغوية:

﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ النصر: العون أو الإعانة على تحصيل المطلوب. ﴿وَٱلۡفَتۡحُ﴾ تحصيل المطلوب الذي كان متعلقاً أو موقوفاً، أو الفصل بين الفريقين المتحاربين بانتصار أحدهما على الآخر، والمراد به هنا فتح مكة، فالفرق بين النصر والفتح: أن النصر كالسبب للفتح، فلهذا بدأ بذكر النصر، وعطف الفتح عليه.

﴿دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي الإسلام. ﴿أَفۡوَاجٗا﴾ جماعات كثيفة، كأهل مكة والطائف واليمن وهوازن وسائر قبائل العرب، جمع فوج: وهو الجماعة والطائفة. وقد دخلت الجماعات في الإسلام بعدما كان الدخول فيه فردياً واحداً بعد الآخر، وذلك بعد فتح مكة، جاءه العرب من مختلف الأنحاء طائعين. ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ أي نزِّه الله، وصلّ له حامداً على نعمه، روي: أنه عليه السلام لما دخل مكة بدأ بالمسجد، فدخل الكعبة، وصلى ثماني ركعات. ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ اسأله المغفرة لك ولمن اتبعك، وطلب الاستغفار من النبي كان لترك الأولى، وليقتدي به غيره، ولم يكن بسبب ارتكاب معصية أو ذنب. وكان ﷺ بعد نزول هذه السورة يكثر من قول: «سبحان الله وبحمده، وأستغفر الله وأتوب إليه». وعلم بذلك أنه قد اقترب أجله، فتوفي بعد فتح مكة بعامين سنة عشر.

التفسير والبيان:

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ أي إذا تحقق لك يا محمد نصر الله وعونه وتأييده على من عاداك وهم قريش، وفتح عليك مكة، وتحققت لك الغلبة، وإعزاز أمرك، فسبّح الله تعالى، أي نزهه حامداً له جلّ وعلا زيادة في عبادته والثناء عليه لزيادة إنعامه عليك. وفائدة قوله: ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ مع أن النصر لا يكون إلا من الله: هو أنه نصر لا يليق إلا بالله، ولا يليق أن يفعله إلا الله، أو لا يليق إلا بحكمته. والمراد تعظيم هذا النصر. وقوله: ﴿جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ مجاز، أي وقع نصر الله.

روى الإمام أحمد والبيهقي والنسائي عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ①﴾ قال رسول الله ﷺ: «نُعيتْ إلي نفسي» فإنه مقبوض في تلك السنة.

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري أنه قال: «لما نزلت هذه السورة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ①﴾ قرأها رسول الله ﷺ حتى ختمها فقال: الناس حَيِّز، وأنا وأصحابي حَيِّز، والحيِّز: الجهة أو الناحية». وقال فيما رواه الجماعة إلا ابن ماجه عن ابن عباس: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية» . وأخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا» .

﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ②﴾ أي أبصرت الناس من العرب وغيرهم يدخلون في دين الله الذي بعثك به، جماعات، فوجاً بعد فوج، بعد أن كانوا في بادئ الأمر يدخلون واحداً واحداً، واثنين اثنين، فصارت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام.

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ③﴾ أي إذا فتحت مكة وانتشر الإسلام، فاشكر الله على نعمه، بالصلاة له، وبتنزيهه عن كل ما لا يليق به، وعن أن يخلف وعده الذي وعدك به بالنصر، واقرن الحمد بالتسبيح، أي اجمع بينهما، فإن ذلك النصر والفتح يقتضي الحمد لله على عظيم مِنَّته وفضله، وما منحك من الخير.

واطلب أيضاً من الله المغفرة لك تواضعاً لله، واستقصاراً لعملك، وتعليماً لأمتك، وكذا اسأله المغفرة لمن تبعك من المؤمنين ما كان منهم من القلق والخوف لتأخر النصر، فإن الله سبحانه من شأنه التوبة على المستغفرين له، يتوب عليهم ويرحمهم بقبول توبتهم، وهو كثير القبول لتوبة عباده، حتى لا ييأسوا ويرجعوا بعد الخطأ.

روى الأئمة - واللفظ للبخاري - عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما صلى رسول الله ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ إلا يقول: سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» . وعنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يُكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم، ربَّنا وبحمدك، اللهم اغفر لي. يتأول القرآن» .

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت السورة على ما يأتي:

١ - كل نعمة من الله تعالى تستوجب الشكر والحمد والثناء على الله بما هو أهل له، ومن أجلّ النِّعم على نبي الله وأمته تحقيق النصر والغلبة على الأعداء، وفتح مكة عاصمة العرب والإسلام، ومقر البيت الحرام أو الكعبة المشرفة قبلة المسلمين.

وتوج الله سبحانه هذه النعمة العظمى بنعمة كبرى أخرى هي دخول العرب وغيرهم في دين الإسلام جماعات، فوجاً بعد فوج. وذلك لما فُتحت مكة، قالت العرب: أمّا إذا ظفر محمد بأهل الحرم، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان، أي طاقة. فكانوا يسلمون أفواجاً: أمَّة أمَّة.

٢ - لهذا ختم الله هذه السورة بأمر الله نبيه بالإكثار من الصلاة، والتسبيح لله، أي تنزيه الله عن كل ما لا يليق به ولا يجوز عليه، والحمد لله على ما آتاه من الظفر والفتح، وسؤال الله الغفران مع مداومة الذكر، والله كثير القبول للتوبة على المسبّحين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم، ويقبل توبتهم.

والأمة أولى بذلك، فإذا كان ﷺ، وهو معصوم، يؤمر بالاستغفار، فما الظن بغيره؟

روى مسلم عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يُكثر من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه، قالت: فقلت: يا رسول الله، أراك تكثر من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله، وأتوب إليه؟ فقال: خبَّرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ - فتح مكة - ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾».

٣ً - دين الله هو الإسلام لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩] وقوله: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾ [آل عمران: ٣/ ٨٥] .

٤ً - قال جمهور الفقهاء وكثير من المتكلمين: إن إيمان المقلِّد صحيح؛ لأنه تعالى حكم بصحة وإيمان أولئك الأفواج، وجعله من أعظم المنن على محمد ﷺ، ولو لم يكن إيمانهم صحيحاً، لما ذكره في هذا المجال.

٥ً - أمر الله تعالى بالتسبيح أولاً ثم بالحمد ثم بالاستغفار؛ لأنه قدم الاشتغال بما يلزم للخالق وهو التسبيح والتحميد على الاشتغال بالنفس. وقدم الأمر بالتسبيح حتى لا يتبادر إلى الذهن أن تأخير النصر سنين لإهمال مثلاً، فالله يُنزّه ويُقدَّس عن إهمال الحق. وأتى بالاستغفار حتى لا يفكر النبي ﷺ بالاشتغال بالانتقام ممن آذاه.

٦ً - الآية تدل على فضل التسبيح والتحميد، حيث جعل كافياً في أداء ما وجب على النبي ﷺ وأمته من شكر نعمة النصر والفتح.

٧ً - اتفق الصحابة على أن هذه السورة دلت على أنه نعي لرسول الله ﷺ.

روي أنه لما نزلت هذه السورة خطب ﷺ وقال: «إن عبداً خيره الله بين الدنيا، وبين لقائه والآخرة، فاختار لقاء الله»[١]. وقد عرفوا ذلك؛ لأن الأمر بالتسبيح والحمد والاستغفار مطلقاً دليل على أن أمر تبليغ الدعوة قد تمّ وكمل، وذلك يوجب الموت؛ لأنه لو بقي بعد ذلك، لكان كالمعزول عن الرسالة، وهو غير جائز. ثم إن الأمر بالاستغفار تنبيه على قرب الأجل.

(١) تفسير الكشاف: ٣/ ٣٦٥

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المسد

مكية، وهي خمس آيات

تسميتها:

سميت سورة المسَد؛ لقوله تعالى في آخرها: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ أي في عنق أم جميل زوجة أبي لهب حبل مفتول من ليف. وسميت أيضاً سورة ﴿تَبَّتْ﴾ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ أي هلكت وخسرت يدا أبي لهب، كما سميت سورة أبي لهب، أو سورة اللهب.

مناسبتها لما قبلها:

هناك تقابل بين هذه السورة والسورة التي قبلها، ففي السورة السابقة (النصر) ذكر الله تعالى أن جزاء المطيع حصول النصر والفتح في الدنيا، والثواب الجزيل في الآخرة، وفي هذه السورة ذكر أن عاقبة العاصي الخسار في الدنيا والعقاب في الآخرة أو العقبى.

ما اشتملت عليه السورة:

تضمنت هذه السورة المكية بالإجماع الكلام عن مصير أبي لهب عبد العُزّى ابن عبد المطلب، عمّ النبي ﷺ، ومصير زوجته أم جميل أروى بنت حرب بن أمية، أخت أبي سفيان، وهو هلاك أبي لهب عدو الله تعالى ورسوله ﷺ في

الدنيا، ودخوله نار جهنم؛ لشدة إيذائه النبي ﷺ ومعاداته له، وصدّه الناس عن الإيمان به.

وكذلك زوجته شريكة معه في هذا العقاب؛ لأنها كانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده، فتكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم.

سبب نزول السورة:

ثبت في الصحيحين وغيرهما - واللفظ لمسلم - عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢١٤] ورَهْطَك منهم المخلصين، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصَّفا، فهتف: يا صباحاه! فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد. فاجتمعوا إليه، فقال: يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب! فاجتمعوا إليه، فقال:

«أرأيتَكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدِّقيَّ؟ قالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبّاً لك! أما جمعتنا إلا لهذا![1] ثم قام، فنزلت هذه السورة: «تبَّت يدا أبي لهب، وقد تبّ» كذا قرأ الأعمش وعبد الله وأبي إلى آخر السورة. وقراءة حفص: ﴿وَتَبَّ﴾ أي الأول دعاء عليه، والثاني خبر عنه.

وعن طارق المحاربي قال: «بينا أنا بسوق ذي المجاز، إذ أنا بشاب حديث السن يقول: أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، وإذا رجل خلفه يرميه، قد أدمى ساقيه وعرقوبيه - مؤخر القدم - ويقول: يا أيها الناس، إنه كذاب فلا تصدقوه، فقلت: من هذا؟ فقالوا: محمد، زعم أنه نبي، وهذا عمه أبو لهب يزعم أنه كذاب[2] ».

(١) وفي رواية البخاري: ألهذا جمعتنا؟

(٢) تفسير القرطبي: ٢٠/ ٢٣٦

جزاء أبي لهب وامرأته

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾

القراءات:

﴿أَبِي لَهَبٍ﴾:

وقرأ ابن كثير (لَهْب).

﴿حَمَّالَةَ﴾:

قرأ عاصم (حمالةَ) وقرأ الباقون (حمالةُ).

الإعراب:

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾ ﴿مَآ﴾: إما استفهامية في موضع نصب بـ ﴿أَغْنَىٰ﴾ أو نافية، ومفعول ﴿أَغْنَىٰ﴾ محذوف، وتقديره: ما أغنى عنه ماله شيئاً.

﴿وَمَا كَسَبَ﴾ ﴿وَمَا﴾: إما مصدرية، أي وكسبه، أو اسم موصول، أي الذي كسبه، فحذف العائد تخفيفاً.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾ ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾: إما معطوف على ضمير ﴿سَيَصْلَىٰ﴾ أي سيصلى هو وامرأته، وجاز العطف على الضمير المرفوع؛ لوجود الفصل؛ لأنه يقوم مقام التأكيد في جواز العطف. وإما أنه مبتدأ مرفوع، و(حمالةُ الحطب) خبره، على قراءة الرفع. ومن قرأ بالنصب ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ فهو منصوب على الذم، وتقديره: أذمّ حمالة الحطب.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ ﴿فِي جِيدِهَا﴾: حال من ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ أو خبر مبتدأ مقدر.

البلاغة:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ مجاز مرسل، أطلق الجزء وأراد الكل، أي هلك.

﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ ﴿نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ بينهما جناس، فالأول كنية له، والثاني وصف للنار. والجناس: أن يتشابه اللفظان في النطق، ويختلفا في المعنى، وهو نوعان: تام، وغير تام.

﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ كنية للتصغير والتحقير، كأبي جهل.

﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ استعارة، استعير هذا التعبير للنميمة بين الناس.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾﴾ منصوب على الذم، أي أخص بالذم حمالة الحطب.

﴿وَتَبَّ﴾، ﴿كَسَبَ﴾، ﴿لَهَبٍ﴾، ﴿ٱلْحَطَبِ﴾ توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ أي هلك وخسر، قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٤٠/٣٧] وهذه الجملة دعاء عليه، وأبو لهب: أحد أعمام النبي ﷺ واسمه: عبد العُزَّى بن عبد المطلب، وكنيته: أبو عتيبة، وإنما كني أبا لهب لحمرة وجهه. ﴿وَتَبَّ﴾ أي قد خسر، وهذا خبر بعد الدعاء عليه، كقولهم: أهلكه الله وقد هلك، والتعبير بالماضي لتحقق وقوعه. ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ أي وكسبه أو مكسوبه بماله من النتائج والأرباح، وقوله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾ أي يغني.

﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا﴾ سيجد حرها ويذوق وبالها. ﴿ذَاتَ لَهَبٖ﴾ لهب النار: ما يسطع منها عند اشتعالها، وذات لهب: أي تلهب وتوقد، وهي مناسبة لكنيته بأبي لهب: أي تلهب وجهه إشراقاً وحمرة. ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ هي من سادات قريش، وكنيتها: أم جميل، واسمها: أروى بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان. ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ أي تحمله حقيقة، فتحمل حزمة الشوك والحسك، وتنثرها بالليل في طريق رسول الله ﷺ. أو تحمل حطب جهنم؛ لأنها تحمل الأوزار بمعاداة الرسول ﷺ، وتحمل زوجها على إيذائه. أو أن التعبير كناية عن النميمة التي توقد الخصومة بين الناس.

﴿فِي جِيدِهَا﴾ في عنقها. ﴿حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾ حبل مفتول من ليف، أي مما مسِّد، أي فتل وربط الحبل على هذه الصورة: تصوير لها بصورة الحطّابة التي تحمل الحزمة، وتربطها في عنقها، تحقيراً لشأنها، أو بياناً لحالها في نار جهنم حيث يكون على ظهرها حزمة من حطب جهنم كالزقوم والضريع، وفي جيدها سلسلة من النار.

التفسير والبيان:

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١﴾ [١] أي هلكت يداه وخسرت وخابت، وهو مجاز عن جملته، أي هلك وخسر، وهذا دعاء عليه بالهلاك والخسران. ثم قال: ﴿وَتَبَّ﴾ أي وقد وقع فعلاً هلاكه، وهذا خبر من الله عنه، فقد خسر الدنيا والآخرة. وأبو لهب: عم النبي ﷺ، واسمه عبد العُزَّى بن عبد المطلب، وقد كان كثير الأذى والبغض والازدراء لرسول الله ﷺ ولدينه.

ثم أخبر الله تعالى عن حال أبي لهب في الماضي، فقال:

(١) لم يقل في أول هذه السورة: قل - كما في سورة (الكافرون)، حتى لا يشافه عمّه بما يزيد في غضبه، رعاية للحرمة، وتحقيقاً لمبدأ الرحمة.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾ أي لم يدفع عنه يوم القيامة ما جمع من المال، ولا ما كسب من الأرباح والجاه والولد، ولم يفده ذلك في دفع ما يحل به من الهلاك، وما ينزل به من عذاب الله، بسبب شدة معاداته لرسول الله ﷺ، وصدّه الناس عن الإيمان به، فإنه كان يسير وراء النبي ﷺ، فإذا قال شيئاً كذَّبه.

روى الإمام أحمد عن ربيعة بن عبَّاد من بني الدَّيل، وكان جاهلياً فأسلم، قال: «رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المَجاز، وهو يقول: يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا. والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه، أحول، ذو غديرتين يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه، فقالوا: هذا عمه أبو لهب» . والفرق بين المال والكسب: أن الأول رأس المال، والثاني هو الربح.

ثم ذكر الله تعالى عقابه في المستقبل، فقال:

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾﴾ أي سيذوق حرّ نار جهنم ذات اللهب المشتعل المتوقد، أو سوف يعذب في النار الملتهبة التي تحرق جلده، وهي نار جهنم. قال أبو حيان: والسين للاستقبال، وإن تراخى الزمان، وهو وعيد كائن إنجازه لا محالة، وإن تراخى وقته[1].

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾﴾ أي وتصلى امرأته أيضاً ناراً ذات لهب، وهي أم جميل، أروى بنت حرب، أخت أبي سفيان، كانت تحمل الشوك والغضى، وتطرحه بالليل على طريق النبي ﷺ. وقيل: المراد أنها كانت تمشي بالنميمة، فيقال للمشاء بالنمائم، المفسد بين الناس: يحمل الحطب بينهم، أي يوقد بينهم النائرة، ويورّث الشر، وهذا رأي الكثيرين.

قال أبو حيان: والظاهر أنها كانت تحمل الحطب، أي ما فيه شوك،

(١) البحر المحيط: ٨/٥٢٦

لتؤذي بإلقائه في طريق الرسول ﷺ وأصحابه، لتعقرهم، فذمت بذلك، وسميت حمالة الحطب.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ أي في عنقها حبل مفتول من الليف، من مسد النار، أي مما مسّد من حبالها، أي فتل من سلاسل النار. وقد صورها الله في حالة العذاب بنار جهنم بصورة حالتها في الدنيا عند النميمة، وحينما كانت تحمل حزمة الشوك وتربطها في جيدها، ثم تلقيها في طريق النبي ﷺ؛ لأن كلّ مجرم يعذب بما يجانس حاله في جرمه. وقيل: صورها الله في الدنيا بصورة حطّابة ممتهنة احتقاراً لها، وإيذاء لها ولزوجها.

ولما سمعت أم جميل هذه السورة أتت أبا بكر، وهو مع رسول الله ﷺ في المسجد، وبيدها فِهر (حجر) فقالت: بلغني أن صاحبك هجاني، ولأفعلنّ وأفعلنّ، وأعمى الله تعالى بصرها عن رسول الله ﷺ، فروي أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه قال لها: هل ترينَ معي أحداً؟ فقالت: أتهزأ بي؟ لا أرى غيرك[١].

والظاهر هو المعنى الأول؛ قال سعيد بن المسيّب: كانت لأم جميل قلادة فاخرة، فقالت: واللات والعُزّى لأنفقنّها في عداوة محمد، فأعقبها الله حبلاً في جيدها من مسد النار.

فقه الحياة أو الأحكام:

أ - أوضحت السورة نوع عذاب أبي لهب وزوجته أم جميل، ومآلهما في الدارين؛ لشدة عداوتهما لرسول الله ﷺ.

أما الآيات الأولى في أبي لهب فقد تضمنت الإخبار عن الغيب من ثلاثة أوجه:

---

(١) البحر المحيط: ٨/ ٥٢٦ وما بعدها، تفسير ابن كثير: ٤/ ٥٦٤ وما بعدها.

أحدها - الإخبار عنه بالتباب والخسار، وبوقوع ذلك فعلاً.

وثانيها - الإخبار عنه بعدم الانتفاع بماله وولده، وبوقوع ذلك فعلاً.

وثالثها - الإخبار عنه بأنه من أهل النار، وقد كان كذلك؛ لأنه مات على الكفر.

وتكليف أبي لهب بالإيمان في حدّ ذاته لا مانع منه، وإن كان الله قد علم أنه لا يؤمن، وأخبر أيضاً أنه لا يؤمن، وأنه من أهل النار، قال الآمدي: أجمع الكل على جواز التكليف بما علم الله أنه لا يكون عقلاً، وعلى وقوعه شرعاً، كالتكليف بالإيمان لمن علم الله أنه لا يؤمن كأبي جهل[١]. وأيد ذلك الرازي في تفسيره[٢]. والخلاصة: أنه كلف بتصديق الرسول ﷺ فقط، لا تصديقه وعدم تصديقه، حتى يجتمع النقيضان[٣].

وأما الآيتان الأخيرتان: فتصفان عذاب أم جميل بأنها مع زوجها تصلى نار جهنم، وتذوق حرها وتتلظى بلهبها، وأنها هالكة في الدنيا، ومعذبة في الآخرة بحبل من نار، وسلاسل من نار جهنم تطوقها، لإيذائها النبي ﷺ، فإنها كانت في غاية العداوة له، ولإفسادها بين الناس بالنميمة وتأجيج نار العداوة بينهم.

قال الضحاك وغيره: كانت تُعيِّر النبي ﷺ بالفقر، وهي تحتطب في حبل، تجعله في جيدها من ليف، فخنقها الله جلَّ وعزَّ به في الدنيا، فأهلكها، وهو في الآخرة حبل من نار.

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي: ١/ ٧٣

(٢) تفسير الرازي: ٣٢/ ١٧١

(٣) غرائب القرآن: ٣٠/ ٢١٤

٢ - قال العلماء: في هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة، فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن﴾ فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان، لم يقيض لهما أن يؤمنا، ولا واحد منهما، لا ظاهراً ولا باطناً، ولا سراً ولا علناً، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة الباطنة على النبوة الظاهرة[1].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/٥٦٥

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الإخلاص

مكية، وهي أربع آيات

تسميتها:

سميت بأسماء كثيرة أشهرها سورة الإخلاص؛ لأنها تتحدث عن التوحيد الخالص لله عز وجل، المنزه عن كل نقص، المبرأ من كل شرك، ولأنها تخلّص العبد من الشرك، أو من النار. وسميت أيضاً سورة التفريد أو التجريد أو التوحيد أو النجاة أو الولاية؛ لأن من قرأها صار من أولياء الله، أو المعرفة، وتسمى كذلك سورة الأساس؛ لاشتمالها على أصول الدين.

مناسبتها لما قبلها:

المناسبة بينها وبين ما قبلها واضحة، فسورة الكافرين للتبرؤ من جميع أنواع الكفر والشرك، وهذه السورة لإثبات التوحيد لله تعالى، المتميز بصفات الكمال، المقصود على الدوام، المنزه عن الشريك والشبيه، ولذا قرن بينهما في القراءة في صلوات كثيرة، كركعتي الفجر والطواف، والضحى، وسنة المغرب، وصلاة المسافر.

ما اشتملت عليه السورة:

تضمنت هذه السورة أهم أركان العقيدة والشريعة الإسلامية، وهي توحيد

الله وتنزيهه، واتصافه بصفات الكمال، ونفي الشركاء، وفي هذا الرد على النصارى القائلين بالتثليث، وعلى المشركين الذين عبدوا مع الله آلهة أخرى.

فضلها:

وردت أحاديث كثيرة في فضل هذه السورة، وأنها تعدل في ثواب قراءتها ثلث القرآن؛ لأن كل ما جاء في القرآن بيان لما أجمل فيها؛ ولأن الأصول العامة للشريعة ثلاثة: التوحيد، وتقرير الحدود والأحكام، وبيان الأعمال، وقد تكفلت ببيان التوحيد والتقديس. أخرج البخاري وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد الخدري: «أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ يرددها، فلما أصبح، جاء إلى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقالّها، فقال النبي ﷺ: والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن» .

وفي رواية أخرى للبخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فشقّ ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: الله الواحد الصمد ثلث القرآن» .

وروى مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احشدوا، فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، فحشد من حشد، ثم خرج نبي الله ﷺ، فقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: قال رسول الله ﷺ: فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، إني لأرى هذا خبراً جاء من السماء، ثم خرج نبي الله ﷺ، فقال: إني قلت: سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا وإنها تعدل ثلث القرآن» .

وروى الإمام أحمد والترمذي والنسائي عن أبي أيوب الأنصاري عن النبي ﷺ قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فإنه من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ في ليلة، فقد قرأ ليلتئذ ثلث القرآن» .

سبب نزول السورة:

أخرج الإمام أحمد والترمذي وابن جرير عن أبي بن كعب: أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد، انسب لنا ربك، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

زاد ابن جرير والترمذي قال: «﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي لم يلد ولم يولد؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله عز وجل لا يموت ولا يورث. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ ولم يكن له شبيه ولا عِدْل[1]، وليس كمثله شيء».

وقال قتادة والضحاك ومقاتل: جاء ناس من اليهود إلى النبي ﷺ، فقالوا: صِفْ لنا ربك، فإن الله أنزل نعته في التوراة، فأخبرنا من أي شيء هو؟ ومن أي جنس هو؟ أذَهَبٌ هو أم نحاس أم فضة؟ وهل يأكل ويشرب؟ وممن ورث الدنيا ومن يورثها؟ فأنزل الله تبارك وتعالى هذه السورة، وهي نسبة الله خاصة[2].

سورة التوحيد والتنزيه لله عز وجل

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾

(١) قال الأخفش: العِدْل بالكسر المثل، وقال الفراء: العَدْل بالفتح: ما عَدَل الشيء من غير جنسه، والعِدْل بالكسر المثل.

(٢) أسباب النزول للواحدي: ص ٢٦٢

القراءات:

﴿كُفُوًا﴾:

قرأ حفص (كُفُواً) وقرأ الباقون (كُفُؤاً).

الإعراب:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ ﴿هُوَ﴾: ضمير الشأن والحديث، مبتدأ، و﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ ثانٍ، و﴿أَحَدٌ﴾: خبر المبتدأ الثاني، والجملة منهما خبر المبتدأ الأول، ولا حاجة لعائد يعود على المبتدأ الأول؛ لأن ضمير الشأن إذا وقع مبتدأ، لم يعد من الجملة التي وقعت خبراً عنه ضمير؛ لأن الجملة بعده وقعت مفسرة له، بدليل أنه لا يجوز تقديمها عليه.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢﴾ مبتدأ وخبر.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ ﴿لَمْ يَلِدْ﴾: أصله (يَوْلِد) فحذفت الواو لوقوعها بين ياء وكسرة، كيعد، ويزن، والأصل: يوْعد ويوْزن، ولهذا لم تحذف في ﴿يُولَدْ﴾ لوقوعها بين ياء وفتحة. و﴿أَحَدٌ﴾: اسم ﴿يَكُن﴾، و﴿كُفُوًا﴾: خبرها. و﴿لَّهُۥ﴾: متعلق بـ ﴿كُفُوًا﴾ وقدم عليه للاهتمام به؛ إذ فيه ضمير الباري تعالى، والتقدير: ولم يكن أحد كفواً له، أي مكافئه، فهو في معنى المفعول، متعلق بـ ﴿كُفُوًا﴾. وأخّر ﴿أَحَدٌ﴾ رعاية للفاصلة.

البلاغة:

﴿قُلْ هُوَ﴾ ذكر الاسم الجليل بضمير الشأن للتعظيم والإجلال.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢﴾ تعريف كل منهما لإفادة التخصيص.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ جناس ناقص، لتغير الشَّكْل وبعض الحروف.

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ يقتضي نفي الكفء والولد، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ هو تخصيص بعد تعميم، زيادة في الإيضاح والبيان، وتقرير ما يسمى التجريد أو التفريد.

﴿أَحَدٌ﴾، ﴿ٱلصَّمَدُ﴾، ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ ، ﴿أَحَدٌۢ﴾ سجع مرصع.

المفردات اللغوية:

﴿أَحَدٌ﴾ أي واحد في ذاته، لم يتركب من جواهر مادية، ولا من أصول غير مادية، وهو أيضاً وصف بالوحدانية ونفي الشركاء .﴿ٱلصَّمَدُ﴾ المقصود في جميع الحوائج على الدوام .﴿لَمْ يَلِدْ﴾ لأنه لم يفتقر إلى ما يعينه، ولأنه لا مجانسة بينه وبين غيره، فهذا نفي للشبه والمجانسة .﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لأنه قديم أولي غير محدث، انتفى الحدوث عنه، فهو وصف بالقدم والأولية. ﴿كُفُوًا﴾ أي مكافئاً ومماثلاً. والكفء والمكافئ: النظير والمثيل، والمراد أنه لم يكن أحد يكافئه، أي يماثله من صاحبة وغيرها.

التفسير والبيان:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ أي قل أيها الرسول لمن سألك عن صفة ربك ونسبته: هو الله أحد، أي واحد في ذاته وصفاته، لا شريك له، ولا نظير ولا عديل. وهذا وصف بالوحدانية ونفي الشركاء. والمعنى: هو الله الذي تعرفونه وتقرّون بأنه خالق السماوات والأرض وخالقكم، وهو واحد متوحد بالألوهية، لا يشارك فيها. وهذا نفي لتعدد الذات.

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ أي الذي يُصْمَد إليه في الحاجات، أي يقصد، فهو المقصود في جميع الحاجات؛ لأنه القادر على تحقيقها، والمعنى: هو الله الذي يقصد إليه كل مخلوق، لا يستغني عنه أحد، وهو الغني عنهم. وهذا إبطال لاعتقاد مشركي العرب وأمثالهم بوجود الوسائط والشفعاء.

قال ابن عباس في تفسير الصمد: يعني الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم، وهو السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه، هذه صفته، لا تنبغي إلا له، ليس له كفء، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾﴾ أي لم يصدر عنه ولد، ولم يصدر هو عن شيء؛ لأنه لا يجانسه شيء، ولأنه قديم غير محدَث، لا أول لوجوده، وليس بجسم، وهذا نفي للشبه والمجانسة، ووصف بالقدم والأولية، ونفي الحدوث.

وفي الجملة الأولى نفي لوجود الولد لله، وردّ على المشركين الذين زعموا أن الملائكة بنات الله، وعلى اليهود القائلين: عزير ابن الله، وعلى النصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، وفي الجملة الثانية نفي لوجود الوالد، وسبق العدم.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ أي ليس لله أحد يساويه، ولا يماثله، ولا يشاركه في شيء. وهذا نفي لوجود الصاحبة، وإبطال لما يعتقد به المشركون العرب من أن لله نِدّاً في أفعاله، حيث جعلوا الملائكة شركاء لله، والأصنام والأوثان أنداداً لله تعالى.

وللسورة نظائر في آيات أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠١] أي هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف له من خلقه نظير؟، وقوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٩٢-٩٥] وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٢٦-٢٧].

جاء في صحيح البخاري: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم» . وروى البخاري أيضاً وعبد الرزاق عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: كذّبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني. وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفواً أحد» .

فقه الحياة أو الأحكام:

أ - تضمنت هذه السورة الموجزة إثباتاً ونفياً في آن واحد.

فقد أبانت أن الله تعالى واحد في ذاته وحقيقته، منزه عن جميع أنحاء التركيب، ونفت عنه كل أنواع الكثرة بقوله: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وأوضحت أن الله غني بذاته كريم رحيم، تحتاج إليه جميع الخلائق في قضاء الحوائج، متصف بجميع صفات الكمال، ونعوت الجلال، ونفت عنه كل أنواع الاحتياج إلى الآخرين بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾.

وقررت أن الله أحد فرد، ليس له شيء من جنسه، ولم يلد أحداً، وليس له لاحق يماثله، ونفت عن نفسه المجانسة والمشابهة بقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾.

وكذلك هو قديم أولي أزلي غير مسبوق بالعدم، فلا والد له، ولا سابق له، ونفت عنه الحدوث والأولية بقوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾.

وهو سبحانه أيضاً لا مقارن له في الوجود، ولا شبيه له ولا نظير ولا صاحبة ولا نديد، ونفى عن ذاته العلية الأنداد والأشباه بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

وكل إثبات تقرير لعقيدة الإسلام القائمة على التوحيد والتنزيه والتقديس،

وكل نفي ردّ على أصحاب العقائد الباطلة كالثنوية القائلين بوجود إلهين اثنين للعالم وهما النور والظلمة، والنصارى القائلين بالتثليث، والصابئة القائلين بعبادة الأفلاك والنجوم، واليهود الذين يقولون: عزير ابن الله، والمشركين القائلين بأن الملائكة بنات الله.

فقوله: ﴿أَحَدٌ﴾ يبطل مذهب الثنوية، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ تبطل مذهب من أثبت خالقاً سوى الله؛ لأنه لو وجد خالق آخر، لما كان الحق مصموداً إليه في طلب جميع الحاجات، وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ يبطل مذهب اليهود في عزير، والنصارى في المسيح، والمشركين في أن الملائكة بنات الله. وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ يبطل مذهب المشركين حيث جعلوا الأصنام أكفاء لله وشركاء.

٢ - قال العلماء: هذه السورة في حق الله تعالى، مثل سورة الكوثر في حق الرسول ﷺ، لكن الطعن في حق الرسول ﷺ كان بسبب أنهم قالوا: إنه أبتر لا ولد له، وهنا الطعن بسبب أنهم أثبتوا لله ولداً؛ لأن عدم الولد في حق الإنسان عيب، ووجود الولد عيب في حق الله تعالى، ولهذا السبب قال هنا: ﴿قُلْ﴾ ليدفع عن الله، وفي سورة ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾ لم يقل (قل) وإنما قال الله ذلك مباشرة، حتى يدفع بنفسه عن الرسول ﷺ[١].

(١) تفسير الرازي ٣٢/ ١٨٥

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفلق

مكية، وهي خمس آيات

مكيتها أو مدنيتها:

هذه السورة وسورة الناس مكية في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر، وهو رأي الأكثرين، ومدنية في رواية عن ابن عباس وقتادة وجماعة، قيل: وهو الصحيح.

تسميتها:

سميت هذه السورة سورة الفلق، لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ①﴾ و﴿ٱلْفَلَقِ﴾ الشق وفصل الشيء عن بعضه، وهو يشمل كل ما انفلق من حب ونوى ونبات عن الأرض، وعيون ماء عن الجبال، ومطر عن السحاب، وولد عن الأرحام، ومنه: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٦/٩٦] ، و﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٦/٩٥] .

مناسبتها لما قبلها:

لما أبان الله تعالى أمر الألوهية في سورة الإخلاص لتنزيه الله عما لا يليق به في ذاته وصفاته، أبان في هذه السورة وما بعدها وهما المعوذتان ما يستعاذ منه بالله من الشر الذي في العالم، ومراتب مخلوقاته الذين يصدون عن توحيد الله،

كالمشركين وسائر شياطين الإنس والجن، وقد ابتدأ في هذه السورة بالاستعاذة من شر المخلوقات، وظلمة الليل، والسحرة، والحسَّاد، ثم ذكر في سورة الناس الاستعاذة من شر شياطين الإنس والجن؛ لذا سميت السور الثلاث (الإخلاص وما بعدها) في الحديث بالمعوِّذات. وقدمت الفلق على الناس لمناسبة الوزن في اللفظ لفواصل (الإخلاص) مع مقطع ﴿تَبَّتْ﴾.

ما اشتملت عليه السورة:

تضمنت السورة الاستعاذة من شر المخلوقات، وبخاصة ظلمة الليل، والسواحر والنمامين، والحَسَدة، وهي درس بليغ وتعليم نافع عظيم لحماية الناس بعضهم من بعض بسبب أمراض النفوس، وحمايتهم من شر ذوات السموم، وشر الليل إذا أظلم، لما فيه من مخاوف ومفاجآت، وبخاصة في البراري والكهوف.

فضل المعوذتين:

روى مسلم في صحيحه وأحمد والترمذي والنسائي عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾».

وروى أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن عقبة بن عامر قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوِّذات في دُبُر كل صلاة».

وروى أحمد وأبو داود والنسائي عن عقبة بن عامر قال: «بينا أنا أقود برسول الله ﷺ في نقب من تلك النقاب إذ قال لي: يا عقبة ألا تركب! قال: فأشفقت أن تكون معصية، قال: فنزل رسول الله ﷺ وركبت هنية ثم ركب، ثم قال: يا عُقْب[1]، ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟

(١) عقب: منادى مرخم من عقبة، مثل أفاطم من فاطمة.

قلت: بلى، يا رسول الله، فأقرأني ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ ثم أقيمت الصلاة، فتقدم رسول الله ﷺ، فقرأ بهما، ثم مرّ بي، فقال: كيف رأيت يا عُقْب؟ اقرأ بهما كلما نِمْت وكلما قمت» .

وروى النسائي عن أبي عبد الله بن عابس الْجُهَني: أن النبي ﷺ قال له: «يا ابن عابس ألا أدلك - أو ألا أخبرك - بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، هاتان السورتان» .

وأورد ابن كثير أحاديث كثيرة في معناها ثم قال: فهذه طرق عن عقبة كالمتواترة عنه، تفيد القطع عند كثير من المحققين في الحديث.

وفي حديث صُدَيّ بن عجلان: «ألا أعلمك ثلاث سور، لم ينزل في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلهن: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾» .

وروى البخاري وأهل السنن في الاستشفاء بهذه السور الثلاث (المعوذات) عن عائشة: أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه، ثم نفث فيهما وقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

سبب نزول المعوذتين:

السبب: قصة سحر لَبيد بن الأعصم اليهودي رسول الله ﷺ كما جاء في الصحيحين عن عائشة، فإنه سحره في جُفّ (قشر الطلع) فيه مشاطة رأسه

ﷺ، وأسنان مشطه، ووتر معقود فيه إحدى عشرة عُقْدة مغروز بالإبر، فأنزلت عليه المعوذتان، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، ووجد ﷺ في نفسه خِفّة، حتى انحلت العُقْدة الأخيرة، فقام، كأنما نشط من عِقال[1]. وجعل جبريل يَرْقي رسول الله ﷺ، فيقول: «باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر حاسد وعَيْن، والله يشفيك».

الاستعاذة من شرّ المخلوقات

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾

الإعراب:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ ﴿أَعُوذُ﴾: فعل معتل، ويسمى (أجوف) وأصله: أعْوُذ على وزن أفْعُل، إلا أنه استثقلت الضمة على الواو لأنه حرف علة، فنقلت من العين التي هي الواو إلى ما قبلها.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾ ﴿شَرِّ﴾ بغير تنوين على الإضافة في القراءة المشهورة، و﴿مَا﴾: مصدرية، وتقديره: من شرّ خلقه. وقرئ «من شرٍّ ما خلق» بتنوين ﴿شَرِّ﴾ وهي قراءة مروية عن أبي حنيفة، و﴿مَا﴾: فيها أيضاً مصدرية، في موضع جر على البدل من ﴿شَرِّ﴾ أي من خلقه.

البلاغة:

﴿ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿خَلَقَ﴾ بينهما جناس ناقص.

---

(١) البحر المحيط: ٨/ ٥٣٠

﴿شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾ ﴿وَمِن شَـرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ﴾ تكرار كلمة ﴿شَـرِّ﴾ مرات إطناب، للتنبيه على قبح وشناعة هذه الأوصاف.

﴿شَرِّ غَاسِقٍ﴾ ﴿شَـرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ﴾ ﴿شَـرِّ حَاسِدٍ﴾ خاص بعد عام وهو ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾.

﴿حَاسِدٍ﴾ و﴿حَسَدَ﴾ جناس اشتقاق.

﴿ٱلْفَلَقِ﴾ ﴿خَلَقَ﴾، ﴿ٱلْعُقَـدِ﴾ ﴿حَسَدَ﴾ توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿أَعُوذُ﴾ ألجأ .﴿ٱلْفَلَقِ﴾ شق الشيء وفصل بعضه عن بعض، ومنه ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٦/٩٦] . و﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٦/٩٥] ، و﴿ٱلْفَلَقِ﴾ يشمل كل ما يفلقه الله عن غيره، كفلق ظلمة الليل بالصبح، وفلق العيون والأمطار والنبات والأولاد، ويخص الفلق عرفاً بالصبح، ولذلك فسّر به، وتخصيصه لما فيه من تغير الحال، وتبدل وحشة الليل بسرور النور، والإشعار بأن من قدر أن يزيل ظلمة الليل عن هذا العالم قدر أن يزيل عن العائذ إليه ما يخافه. ولفظ (الرّب) هنا أوقع من سائر أسمائه؛ لأن الإعاذة من المضارّ تربية وعناية.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾ من شرّ المخلوقات كلها، وخصّ عالم الخلق بالاستعاذة منه لانحصار الشرّ فيه، وهو يشمل الحيوان والإنسان والجماد كالسم وغيره .﴿غَاسِقٍ﴾ ليل اشتد ظلامه .﴿وَقَبَ﴾ دخل ظلامه، وتخصيصه لأن المضار تكثر فيه ويعسر الدفع .﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ﴾ السواحر من النفوس أو النساء تنفث .﴿فِى ٱلْعُقَـدِ﴾ التي تعقدها في الخيط، والنفث: النفخ مع ريق يخرج من الفم، و﴿ٱلْعُقَـدِ﴾ جمع عقدة: وهي ما يعقد من حبل أو خيط

ونحوهما. ﴿حَاسِدٍ﴾ هو الذي يتمنى زوال نعمة المحسود. وخصّ الحاسد بالذكر؛ لأنه العمدة في الظاهر والسبب في إضرار الإنسان والحيوان وغيرهما. وذكر هذه الأصناف الثلاثة بعد التعميم الشامل لها ﴿مَا خَلَقَ﴾ لشدة شرّها.

التفسير والبيان:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾ أي قل أيها النبي: ألجأ إلى الله، وأستعيذ بربِّ الصبح؛ لأن الليل ينفلق عنه، أو بربِّ كل ما انفلق عن جميع ما خلق الله، من الحيوان، والصبح، والْحَبِّ، والنوى، وكل شيء من نبات وغيره، أعوذ بالله خالق الكائنات من شرّ كل ما خلقه الله سبحانه من جميع مخلوقاته. وفيه إشارة إلى أن القادر على إزالة الظلمة عن وجه الأرض قادر على دفع ظلمة الشرور والآفات عن العبد.

أخرج الترمذي وحسنه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري، قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوّذ من عين الجان، ومن عين الإنس، فلما نزلت سورتا المعوذتين، أخذ بهما، وترك ما سوى ذلك».

وأخرج مالك في الموطأ عن عائشة: «أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى، يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، فلما اشتد وجعه، كنت أقرأ عليه، وأمسح بيده عليه، رجاء بركتهما».

وبعد أن عمم الاستعاذة من جميع المخلوقات، خصص بالذكر ثلاثة أصناف تنبيهاً على أنها أعظم الشرور، وأهم شيء يستعاذ منه، وهي:

أ - ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾﴾ أي وأعوذ بالله من شرّ الليل إذا أقبل؛ لأن في الليل مخاوف ومخاطر من سباع البهائم، وهوام الأرض، وأهل الشرّ والفسق والفساد.

٢ - ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾ أي وأعوذ بالله من شرّ

النفوس أو النساء الساحرات؛ لأنهن كنّ ينفثن (أي ينفخن مع ريق الفم) في عُقَد الخيوط، حين يسحرن بها. والنّفث: النفخ بريق، وقيل: النفخ فقط. قال أبو عبيدة: إنهن بنات لبيد بن الأعصم اليهودي اللاتي سحرن النّبي ﷺ.

٣ - ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ أي وأعوذ بالله من شرّ كل حاسد إذا حسد: وهو الذي يتمنى زوال النعمة التي أنعم الله بها على المحسود.

فقه الحياة أو الأحكام:

١ - دلت السورة الكريمة على تعليم الناس كيفية الاستعاذة من كل شرّ في الدنيا والآخرة، من شر الإنس والجن والشياطين وشرّ السباع والهوام وشرّ النار وشرّ الذنوب، والهوى، وشرّ العمل، وغير ذلك من سائر المخلوقات، حتى المستعيذ نفسه.

٢ - لا مانع يمنع من نزول السورة ليستعيذ بها رسول الله ﷺ، والحديث صحيح، ولا يتنافى مع النص القرآني، واقتصر فعل السحر بالنبي ﷺ على مجرد كونه قد صار في بعض أمور الدنيا في حالة صداع خفيف، وهو معنى التخيل في الحديث، وقد يحدث تخيل في اليقظة كالمنام، ولم يؤثر في ملكاته العقلية على الإطلاق، كما لم يؤثر فيما يتعلق بالوحي والرسالة؛ لأن الله عصمه من أي سوء، أو اختلاط فكري، أو اضطراب عصبي، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٧][(١)].

٣ - خصص الله تعالى في إرشادنا وتعليمنا الاستعاذة من أصناف ثلاثة: هي أولاً- الليل إذا عظم ظلامه؛ لأن في الليل كما ذكر الرازي تخرج السباع من آجامها، والهوام من مكانها، ويهجم السارق والمكابر، ويقع الحريق، ويقل فيه الغوث، وينبعث أهل الشرّ على الفساد.

---

(١) انظر تفسير الألوسي: ٣٠/ ٢٨٣

وثانياً - الساحرات اللائي ينفث (ينفخن) في عُقَد الخيط حين يَرْقين عليها، شبه النفخ كما يعمل من يرقي.

وثالثاً - الحاسد الذي يحسد غيره، أي يتمنى زوال نعمة المحسود، وإن لم يَصِرْ للحاسد مثلها. وهذا مذموم، أما الغبطة أو المنافسة فهي مباحة؛ لأنها تمني مثل النعمة وإن لم تزل عن صاحبها؛ روي أن النّبي ﷺ قال: «المؤمن يَغْبِط، والمنافق يحسُد»[1]. وفي الصحيحين: «لا حسد إلا في اثنتين» أي لا غبطة.

قال العلماء: الحاسد لا يضرّ إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشرّ بالمحسود، فيَتْبَع مساوئه، ويطلب عثراته. والحسد أول ذنب عُصي الله به في السماء، وأول ذنب عُصي به في الأرض، فحسد إبليسُ آدمَ، وحسد قابيلُ هابيلَ. والحاسد ممقوت مبغوض مطرود ملعون.

وقال العلماء أيضاً: لا يضرّ السحر والعين والحسد ونحو ذلك بذاته، وإنما بفعل الله وتأثيره، وينسب الأثر إلى هذه الأشياء في الظاهر فقط، قال الله تعالى عن السحر: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢/١٠٢] ، وبالرغم من انعدام تأثير هذه الأشياء في الحقيقة، ومنها الأمراض المعدية كالطاعون والسل، فإنه يطلب شرعاً الحذر والاحتياط وتجنب هذه الأسباب الظاهرية بقدر الإمكان، عملاً بفعل عمر والصحابة في طاعون عمواس، والأمر باتقاء العين، والفرار من المجذوم.

٤ - أجاز أكثر العلماء الاستعانة بالرُّقى أو الرُّقية؛ لأن النبي ﷺ اشتكى، فرقاه جبريل عليه السلام، وقال: «بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، والله يشفيك» كما تقدم. وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يعلمنا من

(١) تفسير القرطبي: ٢٠/٢٥٩

الأوجاع كلها والحمى هذا الدعاء: «بسم الله الكريم، أعوذ بالله العظيم من شرّ كل عرق نعار، ومن شرّ حرّ النار» .

وقال ﷺ: «من دخل على مريض لم يحضر أجله، فقال: أسأل الله العظيم ربّ العرش العظيم أن يشفيك - سبع مرات، شفي» .

وعن علي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا دخل على مريض قال: «أذهب الباس ربَّ الناس، اشفِ أنت الشافي، لا شافي إلا أنت» .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين يقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامّة، ومن كل عين لامّة» .

وعن عثمان بن أبي العاص الثقفي قال: قدمت على رسول الله ﷺ، وبي وجع قد كاد يبطلني، فقال رسول الله ﷺ: «اجعل يدك اليمنى عليه، وقل: بسم الله، أعوذ بعزة الله وقدرته من شرّ ما أجد» سبع مرات، ففعلت ذلك، فشفاني الله.

وروي أنه ﷺ كان إذا سافر، فنزل منزلاً يقول: «يا أرض، ربِّي وربّك الله، أعوذ بالله من شرّك وشرّ ما فيك، وشرّ ما يخرج منك، وشرّ ما يدبّ عليك، وأعوذ بالله من أسد وأسود، وحية وعقرب، ومن شرّ ساكني البلد ووالد وما ولد» .

وقالت عائشة في الحديث المتقدم: كان رسول الله ﷺ، إذا اشتكى شيئاً من جسده قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ والمعوذتين، في كفه اليمنى، ومسح بها المكان الذي يشتكي[١].

---

(١) انظر هذه الأحاديث والأدلة الثمانية في تفسير الرازي: ٣٢/١٨٩ - ١٩٠

والأصح جواز النَّفْث عند الرُّق، بدليل ما روى الأئمة عن عائشة: أن النَّبي ﷺ كان يَنْفِث في الرُّقية. وأجاز الإمام الباقر تعليق التعويذ على الصبيان.

وأما النهي عن الرُّق فهو وارد على الرُّق المجهولة التي لا يفهم معناها.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الناس

مكية، وهي ست آيات

تسميتها:

سميت سورة (الناس)؛ لافتتاحها بقول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ وتكررت كلمة ﴿ٱلنَّاسِ﴾ فيها خمس مرات. وقد نزلت مع ما قبلها، وهي مكية عند الأكثر، وقيل: مدنية كما تقدم. وعرفنا وجه مناسبتها لما سبقها.

وهي آخر سورة في القرآن، وقد بدئ بالفاتحة التي هي استعانة بالله وحمد له، وختم بالمعوذتين للاستعانة بالله أيضاً.

ما اشتملت عليه السورة:

اشتملت هذه السورة، وهي ثاني المعوذتين، على الاستعاذة بالله تعالى، والالتجاء إلى ربّ الناس الملك الإله الحق من شرّ إبليس وجنوده الذين يغوون الناس بوسوستهم.

وقد عرفنا أن هذه السورة وسورة الفلق والإخلاص تعوذ بهن رسول الله ﷺ من سحر اليهود. وقيل: إن المعوذتين كان يقال لهما المقشقِشتان، أي تبرئان من النفاق.

روى الترمذي كما تقدم عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «لقد أنزل الله علي آيات لم يُرَ مِثْلُهن: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ إلى آخر السورة، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ إلى آخر السورة». وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه مسلم أيضاً.

الاستعاذة من شرّ الشياطين

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

الإعراب:

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ إما بدل من ﴿شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ وتقديره: أعوذ بربِّ الناس من شرِّ الْجِنَّة والناس، وإما متعلق بمحذوف تقديره: الكائن من الجنة والناس، الذي يوسوس في صدور الناس. وفي ﴿يُوَسْوِسُ﴾ ضمير الْجِنّة، وذكّره؛ لأنه بمعنى الْجِنّ، وكنى عنه مع التأخير؛ لأنه في تقدير التقديم، كقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧﴾ [طه: ٢٠/٦٧] فتقدم الضمير؛ لأن موسى في تقدير التقديم، والضمير في تقدير التأخير.

البلاغة:

﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ وما بعدها: الإضافة للتشريف والتكريم والاستعانة، فقد أضيف الرَّب إلى الناس؛ لأن الاستعاذة من شرّ الموسوس في صدورهم، استعاذوا بربِّهم مالكهم وإلههم، كما يستعيذ العبد بمولاه إذا دهمه أمر. قال أبو حيان: والظاهر أن ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾، ﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ صفتان. وقال الزمخشري: عطف بيان للرّب، فإن الرّب قد لا يكون ملكاً، والملك قد لا يكون إلهاً.

﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ، مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ إطناب بتكرار الاسم، زيادة في التكريم والعون، ومزيد البيان، والإشعار بشرف الإنسان.

﴿ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بينهما طباق.

﴿يُوَسْوِسُ﴾ و﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ بينهما جناس اشتقاق.

ويلاحظ أن الفواصل منتهية بالسين الذي فيه جَرْس خافت ومهيب وله وقْع في النفوس.

المفردات اللغوية:

﴿أَعُوذُ﴾ ألتجئ وأحتمي. ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ مربِّيهم ومعتني بشؤونهم، قال البيضاوي: لما كانت الاستعاذة في السورة المتقدمة من المضارّ البدنية، وهي تعمّ الإنسان وغيره، والاستعاذة في هذه السورة من المضارّ التي تعرض للنفوس البشرية، وتخصها، عمم الإضافة ثمة، وخصصها بالناس ههنا، فكأنه قيل: أعوذ من شرِّ الموسوس إلى الناس بربِّهم الذي يملك أمورهم، ويستحق عبادتهم.

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ صفتان تدلان على أنه تعالى حقيق بالإعاذة، قادر عليها، غير ممنوع عنها. ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ الموسوس الذي يلقي في النفوس خواطر الشرّ والسوء. ويصح أن يراد به المصدر أي الوسوسة، كالزلزال بمعنى الزلزلة. ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ صيغة مبالغة، أي من عادته أن يخنس، أي يتأخر بذكر الله، والخنوس: الرجوع والتأخر. ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ بيان للوسواس، جمع جني كإنسي وإنس، والجن: خلق مستتر لا يعلم به أحد إلا الله تعالى.

التفسير والبيان:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ أي

قل أيها الرسول: ألجأ وأستعين بالله مربي الناس ومتعهدهم بعنايته ورعايته، وخالقهم ومدبر أمرهم ومصلح أحوالهم، وله الملك التام والسلطان القاهر، وهو الإله المعبود الذي يعبده الناس، واسم الإله خاص بالله لا يشاركه فيه أحد، أما الملك فقد يكون إلهاً وقد لا يكون.

وهذه صفات ثلاث لله عزّ وجلّ: الربوبية، والملك، والألوهية، فهو ربّ كل شيء، ومليكه، وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له، مملوكة، عبيد له. وإنما قدم الربوبية لمناسبتها للاستعاذة، فهي تتضمن نعمة الصون والحماية والرعاية، ثم ذكر الملَكية؛ لأن المستعيذ لا يجد عوناً له ولا غوثاً إلا مالكه، ثم ذكر الألوهية؛ لبيان أنه المستحق للشكر والعبادة دون سواه.

والسبب في تكرار لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ هو مزيد البيان والإظهار، والتنويه بشرف الناس مخلوقات الله تعالى، وقال: «ربّ الناس» مع أنه ربّ جميع المخلوقات، فخصّ الناس بالذّكر للتشريف، ولأن الاستعاذة لأجلهم.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾ أي ألجأ إلى الله وأحتمي من شرّ الشيطان ذي الوسوسة، الكثير الخنوس أي الاختفاء والتأخر، بذكر الله، فإذا ذكر الإنسان الله تعالى خنس الشيطان وانقبض، وإذا لم يذكر الله انبسط على القلب. قال ابن عباس في هذه الآية: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خنس.

وقد سلّط الله الشيطان على الناس إلا من عصمه الله، للمجاهدة والفتنة والاختبار، ثبت في الصحيح أنه «ما منكم من أحد إلا وكِّل به قرينه، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: نعم إلا أن الله أعانني عليه، فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير».

وثبت في الصحيحين عن أنس في قصة زيارة صفية للنبي ﷺ، وهو معتكف، وخروجه معها ليلاً، ليردها إلى منزلها، فلقيه رجلان من الأنصار،

فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال رسول الله ﷺ: «على رِسْلكما، إنها صفية بنت حُيَيّ، فقالا: سبحان الله، يا رسول الله. فقال: إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً - أو قال: شرّاً» . وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسي التقم قلبَه، فذلك الوسواس الخنّاس» . وروى الإمام أحمد عن أبي تميمة يحدث عن رديف رسول الله ﷺ قال: «عثر بالنبي ﷺ حماره، فقلت: تعس الشيطان، فقال النبي ﷺ: لا تقل: تعس الشيطان، فإنك إذا قلت: تعس الشيطان، تعاظم، وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: باسم الله، تصاغر حتى يصير مثل الذباب» . وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان وغُلب، وإن لم يذكر الله تعاظم وغَلَب.

ثم أبان موضع وسوسته، فقال:

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾﴾ أي الذي يلقي خواطر السوء والشرّ في القلوب، وإنما ذكر الصدور لأنها تحتوي على القلوب، والخواطر محلها القلب، كما هو المعهود في كلام العرب.

ثم بيَّن الله تعالى أن الذي يوسوس نوعان: جني وإنسي، فقال:

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ أي إن ذلك الموسوس إما شيطان الجن، فيوسوس في صدور الناس، كما تقدم، وإما شيطان الإنس، ووسوسته في صدور الناس: أنه يُري نفسه كالناصح المشفق، فيوقع في الصدر كلامه الذي أخرجه مخرج النصيحة، فيجعله فريسة وسوسة الشيطان الجني. وهذا يدل على أن الوسواس قد يكون من الجن، وقد يكون من الناس، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ٦/ ١١٢] أي ليست العداوة قهرية جبرية،

وإنما بما أودع الله فيهم من قدرة الاختيار، فمنهم من يختار الإصغاء لوسوسة الشياطين، ومنهم من يحذر عداوتهم ووسوستهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

علّمنا الله تعالى في هذه السورة رحمةً بنا كيفية الاستعاذة من شياطين الإنس والجن، وعرفنا أنه بصفاته الثلاث: الربوبية، والملك، والألوهية، يحمي المستعيذ من شرور الشيطان وأضراره في الدين والدنيا والآخرة. ومعنى الربوبية يدل على مزيد العناية وحرص المربي.

وإنما ذكر أنه ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ وإن كان ربّاً لجميع الخلق، لأمرين:

أحدهما - لأن الناس معظَّمون، فأعلم بذكرهم أنه ربّ لهم، وإن عظموا.

الثاني - لأنه أمر بالاستعاذة من شرّ الناس؛ فأعلم بذكرهم أنه هو الذي يُعيذ منهم[1]. ثم ذكر صفتي الملك والألوهية ليبين للناس أنه ملكهم الحقيقي، وإن كان لهم ملوك، وأنه إلههم ومعبودهم، لا معبود لهم سواه، وأنه الذي يجب أن يُستعاذ به، ويُلجأ إليه، دون الملوك والعظماء.

أوضحت السورة أن الموسوس إما شيطان الجن، وإما شيطان الإنس. قال الحسن: هما شيطانان؛ أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطان الإنس فيأتي علانية. وقال قتادة: إن من الجنّ شياطين، وإن من الإنس شياطين، فتعوَّذ بالله من شياطين الإنس والجن.

ويلاحظ أن المستعاذ به في سورة (الفلق) مذكور بصفة واحدة وهي أنه «ربّ الفلق» ، والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات، وهي «الغاسق» و﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ﴾ و «الحاسد» . وأما في هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بصفات

---

(١) تفسير القرطبي: ٢٠/ ٢٦٠

ثلاث: وهي الرّب والملك والإله، والمستعاذ منه آفة واحدة، وهي الوسوسة، وسبب التفرقة: أن المطلوب في السورة الأولى سلامة النفس والبدن، والمطلوب في هذه السورة سلامة الدين، ومضرة الدين، وإن قلّت، أعظم من مضارّ الدنيا وإن عظمت[١].

❊ ❊ ❊

وبعد، فقد سجدت شكراً لله تبارك وتعالى على ما أولاني وأسبغ علي من كمال وفيض النعمة وتمام المنة، بانتهاء هذا **التفسير الشامل للمأثور والمعقول، والجامع لأنواع البيان وأحكام القرآن**، وهو تفسير العصر، وذلك في تمام الساعة الثامنة من صبيحة يوم الاثنين المبارك الواقع ١٣ من ذي القعدة ١٤٠٨ هـ، الموافق ٢٧/ ٦/ ١٩٨٨ م، وكان العمر حينذاك ٥٦ عاماً. وقد تفرغت لهذه المهمة خلال سنوات طوال، هاجرت فيها إلى دولة الإمارات - العين، تاركاً الأهل والولد، مستغرقاً في عظمة كلام ربِّي عزّ وجلّ، فازددت إيماناً على إيمان.

وكان أول مؤلف لي في بلدتي (دير عطية) من نواحي دمشق الفيحاء، التي ولدت فيها سنة ١٩٣٢ م، وهو آثار الحرب في عام ١٩٦٢ م، ثم تابعت التأليف والبحث وكتبت أغلب مؤلفاتي وبحوثي التي أربت على الثلاثين في رياض دمشق والعين، فاللهم لك الحمد والشكر، اجعل كل حرف من كتابك وتفسيره وجميع ما صنفت خالصاً لوجهك الكريم، وحقق به النفع والخير، وأعتق به من نارك في الآخرة كل جزء من جسمي وروحي، وشعري وبشري، وعظمي ولحمي، وسمعي وبصري، ومخي ودمي، وأدخلني الجنة بستر وسلام.

---

(١) تفسير الرازي: ٣٢/ ١٩٩

سبحانك اللهم لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، اللهم يا لطيفاً فوق كل لطيف، الْطُفْ بي في أموري كلها كما أحب، ورضني في دنياي وآخرتي، واغفر لي ولوالدي وللمسلمين والمسلمات.



الخاتمة

من أحكام الإسلام المعلومة من الدين بالضرورة، أي بالبداهة أن إنزال القرآن المجيد على نبي هذه الأمة الإسلامية قصد به العمل بكل ما جاء فيه من الأحكام والشرائع والعقائد والآداب والأخلاق والمواعظ، وأنه لا يكفي المسلم أو المسلمة مجرد قراءته أو تلاوته للتعبد والبركة، وإنما للاستفادة بما جاء فيه، فهو دستور الأمة، ونظام حياة الفرد والجماعة، والرعية والدولة.

والسائد في الوسط العلمي أنه لا يُستغنى بتفسير قديم عن تفسير آخر، لاختلاف مناهج المفسرين، وامتياز كل تفسير بميزة لا تتوافر في الآخر، فهذا في العقيدة، وهذا في الأحكام، وذاك في الآثار والروايات الكثيرة، وآخر في التأويل بالمعقول أو في العلوم الكونية، والكل يكمل بعضه بعضاً، أما في العصر الحديث فيصعب على كل مسلم أو بيت اقتناء جميع التفاسير المطولة والمتوسطة والمختصرة، فضلاً عن عسر فهمها أحياناً، وإطالتها، واستطرادها في كثير من الأحوال لأمور بعيدة أو قريبة عن التفسير، وينقصها جميعها التفسير الشامل الموضوعي للآيات، لفهمها جملة واحدة، بسبب عنايتها بالجزئيات والفرعيات، دون وجود تصور متكامل أو عام فيها للآية أو لطائفة من الآيات، وصعوبة إدراك مشتملات السورة وارتباط أجزائها ببعضها، أو التعرف على موضوعها المقصود.

وكذلك يكثر السؤال في وقتنا عادة عن أحسن تفسير يعتمد عليه لمتوسط الثقافة، فلا يكاد المرء يجد جواباً شافياً؛ لأن القديم وَعْر المسالك، والجديد فيه هَنات وسَقَطات، أو جنوح لتأييد بعض الآراء المذهبية، أو تطرف وبُعْد في التأويل وإغراب في بعض الأحيان لإرضاء أذواق العصر.

لذا وجب وضع تفسير شامل معتدل غير متطرف، يجمع بين مزايا التفاسير

المختلفة وييسر على القارئ والتالي فهم الآيات الكريمة بدقة ووعي، ويحيط بكل ما هو ضروري يحقق مقاصد القرآن العظيم في العقيدة والعبادة والتشريع والآداب والأخلاق والسلوك القويم في الحياة، ويفسر القرآن بالقرآن وبالسُّنة الصحيحة والسيرة الثابتة، وهذا ما أوردته في هذا الكتاب، كما أردت بيان ما يستنبط من الآيات من أحكام شرعيةمختلفة.

وذلك بعد أن ألحّ علي بعض إخواني لتحقيق هذه الغاية، فتوقفت أولاً، ثم شرح الله صدري للعمل الذي يحتاج لجهود مكثفة ووقت طويل الأمد، فوضعت هذا التفسير الشامل لطريقتي أهل المأثور والمعقول، والجامع لأحكام القرآن الذي أنار الطريق أمام كل تالٍ للقرآن، بعبارة سهلة واضحة، وأسلوب سلس بيّن، ومنهج منظم متدرج من المفردات إلى الكليات، وكان بحمد الله تعالى جامعاً بين طريقة الوجيز والوسيط والمبسوط، فبيان المفردات اللغوية والإعراب والبلاغة يحقق الإيجاز لمن يكتفي به؛ والتعرف على أسباب النزول والمناسبة بين الآيات والسور وقصص القرآن والبيان لكل طائفة من الآيات، يلبي مطلب التوسط في المعرفة والعلم؛ والانتقال إلى بيان فقه الحياة بمعنى (الفقه الأكبر) الشامل للعقيدة والأخلاق والأعمال والأحكام العملية المستنبطة من الآيات، يتجاوب مع رغبة من أراد التوسط والإطالة والاستيعاب.

ومن أجل السير في هذه المراتب الثلاث المتدرجة، قد يوجد تكرار بينها بقصد تلبية الحاجة، وتيسير المطلب دون حاجة للرجوع إلى ما سبق. ومع ذلك تم تفسير القرآن برتبتين أخريين، وهما التفسير الوجيز والتفسير الوسيط، والناشر دار الفكر.

أما المصادر:

فقد نبّهت عليها في المقدمة، وأكرر القول بأنني اعتمدت على أغلب ما

كتب في التفسير قديماً وحديثاً، مبتدئاً بتفسير إمام المفسرين ابن جرير الطبري في الآثار والمعقول معاً وأسباب النزول وبعض التصويبات والترجيحات، ثم اعتمدت على تفسير الكشاف للزمخشري، والبحر المحيط لأبي حيَّان النحوي الأندلسي، وغرائب القرآن للنظَّام الأعرج وغيرها كالبيضاوي والنسفي وأبي السعود والجلالين في اللغويات والمعاني الدقيقة، والمناسبات، وعلى تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير) في العقائد والإلهيات والكونيات والأخلاق وبعض الأحكام ومناسبات الآيات والسور، وأسباب النزول، مع الرجوع في بيان الأسباب أيضاً إلى (أسباب النزول) للواحدي النيسابوري، و (أسباب النزول) للسيوطي.

كما اعتمدت على تفسير الإمام القرطبي، وأحكام القرآن لابن العربي، وأحكام القرآن للجصاص الرازي في معرفة الأحكام الفقهية، ورجعت في ذلك وغيره أيضاً إلى تفسير الحافظ ابن كثير وفتح القدير للشوكاني والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جُزَيّ، لبيان معاني الآيات وتأييدها بالأحاديث والأخبار الصحاح، كما استقيت بعض المعلومات من تفسيري الخازن والبغوي.

واستأنست أحياناً بعبارات بعض المفسرين الجدد الجميلة والمفيدة، كتفسير المنار للشيخ رشيد رضا، ومحاسن التأويل للقاسمي، وتفسير المراغي، وفي ظلال القرآن، رحم الله الجميع وجزاهم عن الإسلام خير الجزاء.

وقد تجنّبت الأخذ في أسباب النزول وغيرها بالأحاديث والروايات الضعيفة والإسرائيليات الدخيلة التي لا تتفق مع عصمة الأنبياء، وضمان سلامة الوحي.

وأما الإعراب فمرجعي الأصلي كتاب (البيان في إعراب القرآن) لأبي البركات بن الأنباري، وأما البلاغة فمرجعي في الغالب كتاب (صفوة التفاسير) للشيخ محمد علي الصابوني، وأما قصص الأنبياء فكنت أرجع مع

الحذر لكتاب (قصص الأنبياء) للأستاذ عبد الوهاب النجار، وأما أحداث ووقائع الغزوات والسيرة فعمدتي فيها كتب السيرة الشهيرة كسيرة ابن هشام، وابن إسحاق، والبداية والنهاية لابن كثير وغيرها مما كتب قديماً وحديثاً.

وأستطيع أن أقول عن خبرة وتجربة وبعد أن عانيت التأليف في رحاب الجامعات مدة ربع قرن فأكثر في الفقه الإسلامي وأصوله وفي الحديث النبوي، وتفسير كتاب الله وغير ذلك: إنه لا تصح العقيدة، ولا تُشرق في النفس معانيها إلا بالقرآن، ولا يستقيم سلوك مسلم إلا بفهم كتاب الله، ولا تلين النفس بعد القرآن إلا بالحديث النبوي وروحانيته الفياضة، ولا يصح عمل المسلم إلا بالأحكام الشرعية المقررة في الفقه، ولا يُعصَم العقل والفهم عن الخطأ، ولا تنضبط أحكام الشريعة إلا بأصول الفقه.

ولا أجد الآن خيراً من إهداء شيء للمسلمين في كل مكان، حكاماً ومحكومين، غير هذا الحديث النبوي الشريف الذي أخرجه الترمذي والدّارمي عن علي بن أبي طالب أمير المؤمنين رضي الله عنه مرفوعاً: «كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحَكَم ما بينكم، هو الفَصْل ليس بالْهَزْل، من تركه من جبَّار قصَمه الله، ومن ابتغَى الهدى في غيره أضلَّه الله، هو حَبْل الله المتين، ونورُه المبينُ، والذِّكْرُ الحكيمُ، وهو الصراطُ المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعَّب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَمَلُّه الأتقياء، ولا يَخْلَق على كثرة الرَّد، ولا تنقضي عجائبه، ولا تفنى غرائبه، هو الذي لم تنته الجِنُّ إذ سمعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ من عَلِمَ عِلْمَه سبَق، ومن قال به صدَق، ومن حَكَم به عَدَل، ومن عَمِل به أجر، ومن دعا إليه، هدي إلى صراط مستقيم» .

وكلمتي الأخيرة: إنني في نفسي بالذات كلما فسّرت آية أو سورة من كتاب الله، ازددت إيماناً بصحة تنزيل هذا الكتاب المجيد على محمد رسول الله ﷺ،

وبأنه الكتاب الوحيد المنقذ للبشرية من تخبطها في دياجير الظلمة والضلال، كما ازددت انبهاراً وثقة ويقيناً بإعجاز القرآن وعظمته، فمهما حاولت إحصاء المعاني والأحكام، يظل كلام الله عز وجل البحر الزاخر والفيض العارم الذي لا يمكن الإحاطة بمراده ومشتملاته، ولكن عملي جُهْد المُقِلّ والعبد الضعيف الخاضع لله وحده، والعاجز عن إدراك جميع معاني القرآن، والذي يكفيني إعلانه هو القول بأن القرآن العظيم هو الكتاب الفذّ الأول الذي أثّر في فكري وسُلوكي وتكوين شخصيتي، فاللهم وفقنا جميعاً للعمل به.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الأستاذ الدكتور / وهبة مصطفى الزحيلي

رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه

بجامعة دمشق

فهرس المجلد الخامس عشر

فهرس الجزء التاسع والعشرون

الموضوع	الصفحة

* * *

فهرس الجزء الثلاثين

❋ ❋ ❋